الوعي التاريخي لمرحلة النهضة العربية

يتعرض الوعي التاريخي لدى بعض المثقفين العرب ، الى الاهتزاز احيانا . فتنعكس الازمات القومية على مفهومهم للمرحلة التاريخية . ويتساءلون ، كلما مرت القضية العربية بظرف سلبي : هل هي حقا مرحلة نهضة وانبعاث . ام انها امتداد لمرحلة الانحطاط الطويلة التي عرفها المجتمع العربي ، بعد سقوط بغداد في ايدي الغزاة عام 1258 م .

ان مثل تلك الظاهرة ، يمكن ان تفهم في ضوء المراحل الانتقالية في التطور التاريخي،حيث يبسط منطق رد الفعل المباشر على النكسات، ظله على الذهن العربي ، فتتقلص دائرة استيعابه للاحداث ، ويدفع به الى الانفعال ، والى تكوين الاحكام السلبية المتسرعة على المرحلة التاريخية ، ككل .

الا ان هذه الظاهرة ، التي تبدو (طبيعية) للوهلة الاولى ، لا يمكن ان تكون (سوية) . لانها في جميع الاحوال ، انما تعبر عن خلل او نقص في العلاقة بين الوعي وبين النضال ، من جهة . كما انها تعبر عن قصور في الفهم ، وفي التمثل الحي لشريط الحياة التاريخية للامة العربية والمجتمع العربي . من جهة اخرى .

فثمة فرق واضح ، يصل الى حد التناقض احيانا ، بين وعي الانسان العربي للتجارب التي تمر بها الامة ، من مواقع التأمل والاستعراض الخارجي ، وبين وعيه لها من داخلها ، حيث المعاناة والنضال ، والمشاركة في صنع الاحداث او مقاومتها .

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، نستطيع ان نتبين الفرق بين قراءة التاريخ العربي والتراث العربي ، قراءة تقليدية . وبين ان نقراهما ونحن نعمل على احيائهما ، وتجديدهما ، وبناء صرح حضاري جديد للامة . وعندئذ يكون تفاعلنا مع المراحل التاريخية تفاعلا علميا جدليا . فلا نتوقف على الخطوات الجزئية ، وعلى المنحنيات والمنعطفات ،لنضيع في متاهاتها . بل نتابع حلقات السلسلة ، ونعيشها في داخلنا ، فتصبح جزءا من وجودنا ، قبل أن تكون موضوعا للوعي ، ومادة للمعرفة .

فمرحلة النهضة العربية ، وهي ذات حدود ومؤشرات موضوعية، كما سوف يتبين لنا ، ليست شيئا مستقلا عن وعي الامة لذاتها وعن الافكار والحركات واشكال النضال المعبرة عنها . كما ان (وعي النهضة) لا يمكن ان يستقل عن (روح النهضة) اي عن الثقة بالامة وعن ارادة النضال ضد عوامل الانحطاط .. ثم اننا لا نستطيع ان نفهم (مرحلة النهضة) بعقلية هي امتداد للمرحلة السابقة لها . كما اننا لن نتمكن من وعيها ، اذا خرجنا من سياقها التاريخي وقفزنا فوق حلقات السلسلة التاريخية . ان المراحل التاريخية تتوالد وتتداخل . وقانون التطور الجدلي للمجتمع العربي هو الذي يكشف لنا ان المرحلة الممهدة للنهضة العربية ، قد ولدت داخل مرحلة الانحطاط نفسها لتكون نقيضا لها . وأن هذه المرحلة لا تنفصل عن الشريط التاريخي الطويل الذي تمتد عليه حياة امتنا العربية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

فنحن لن نستوعب حقيقة النهضة العربية المعاصرة الا اذا وضعناها ضمن سياقها ، من المراحل القومية الاخرى ، منذ خروج امتنا من مرحلة الجاهلية ، الى مرحلة الحضارة ، الى مرحلة الانحطاط .. والا اذا تمثلنا هذه المراحل تمثلا حيا ، فتغدو (مرحلة النهضة) بمثابة حياتنا ، ومسرح وجودنا ، والمبرر التاريخي لهذا الوجود .

وعلى ضوء هذه السلسلة من المراحل تتبين ابعاد الثورة الشاملة التي احدثها الاسلام في حياة العرب ، ويبدو القرن الاول الذي انتهى مع معركة بواتيه عام 732 م حدا زمنيا ، شهد تعيين الحدود الارضية للمد العربي الثوري في قارات اسيا وافريقيا واوروبا . والقرن الثاني كبدء عصر ذهبي للابداع والعطاء الحضاري العربي . والقرن الثالث كبداية لانكماش بعض الاجزاء العربية عن المركز ، في وقت كانت فيه الوحدة الثقافية في تراص وازدهار وصعود . والقرن الرابع كبدء تعدد (مراكز الدولة العربية) وتراخي الوحدة السياسية وانفصال النهضة الحضارية عن اطارها السياسي . والقرن الخامس كمسرح لتتابع آلية التجزئة ، وبدء الحملات الصليبية . والقرن السابع الذي شهد رد فعل الامة المنتصر على الحملة الصليبية الاخيرة عام 1248 م ، ولكنه شهد في الوقت نفسه مأساة سقوط بغداد في ايدي الغزو المغولي الجديد عام 1258 م . ومنذ القرن الثامن ، تبدأ ملامح الاستعماريين البرتغالي والاسباني . وفي القرن الذي يليه ، تبدأ السيطرة العثمانية ، وبعد قرنين تبدأ حملة نابليون عام 1798 م كطليعة للاستعمار الغربي الذي وجد في القرن التاسع عشر مسرحه الواسع للانقضاض على الوطن العربي بدءا من المغرب العربي وانتهاء بالمشرق في القرن العشرين .

فمرحلة النهضة العربية تأخذ موقعها من هذه السلسلة التاريخية مع بداية ظهور رد فعل (الجسم العربي) على محاولات القضاء على (روحه) . فبعد ستة قرون من التجزئة والانكفاء ، والهامشية

د. الياس فرح

جمال الدين الافغاني

محمد عبده

التاريخية ، ومحاولات طمس الهوية القومية العربية ، والاستعمار ، ونهب الثروات .. تبدأ ملامح مرحلة جديدة ، مع بدء وعي الامة العربية لابعاد (الضياع العربي) .

ان مفهوم الضياع او الاستلاب ALIENATION ، الذي يشكل ركيزة اساسية من عناصر الفكر الاشتراكي الحديث ، والذي اقتصر على حدود الاستغلال المادي ، في المجتمعات الاوربية التي لم تعرف تناقض التجزئة وتناقض الحرية .. لم يتوقف عند هذه الحدود في الوطن العربي . فطمس الهوية القومية ، وضياع الهوية الثقافية ، واستبدال لغة العرب بلغة الاجنبي المحتل ، والقضاء على الروح الجامعة لهم ، (روح الرسالة) . اما بهجرها والاغتراب عنها . او بتفريغها من محتواها القومي الحضاري ، واحلال مفهوم شعوبي ورجعي مشبع بالتعصب والانغلاق ، محل المعاني الثورية العربية الاصيلة للاسلام ، وتحويل الصلة الحية بتجربته الانسانية الحضارية الى ممارسات شكلية فاقدة للجوهر .

وهكذا فان (الضياع) في المجتمع العربي ، قد وصل في مرحلة الانحطاط ، الى مستوى (الذات) . اي (ضياع الشخصية والهوية) . ولم يتوقف عند حدود التناقضات الاجتماعية والسياسية الموضوعية ، او عند الافتراق بين المجتمع وانطلاقته الحضارية .. فالعامل الخارجي قد انضاف الى العوامل الداخلية ، واصبح التخطيط للقضاء على الوجود القومي هو العامل المحرك والخالق والمستغل لتناقضات المجتمع العربي .

وعلى ضوء هذه الابعاد لمفهوم الضياع (القومي الحضاري) في مرحلة الانحطاط نستطيع ان نتبين بالمقابل ، الابعاد التي كان لابد ان تأخذها النهضة العربية الحديثة .

(فالانحطاط) في المجتمع العربي ، الذي وصل الى مستوى ضياع (الشخصية والهوية) لا يمكن ان يتحول الى (نقيض ، متجاوز له) ، الا بانبعاث هذه الشخصية من جديد .

فمرحلة النهضة ، تأخذ اذن معانيها ومدلولاتها من خلال تعيين (حدود الضياع) في المرحلة السابقة لها . وهي لا يمكن ان تفهم فهما مطابقا لواقعها وحقيقتها ، الا اذا انتهى التحليل العلمي للمتناقضات التي نتصدى لمعالجتها ، الى اكتشاف وتحديد المهمات التاريخية الجديدة .

لذلك كان المفهوم العلمي للنهضة العربية ، هو مفهوم (الانبعاث القومي) المقترن بمفهوم (الثورة الاجتماعية) و (النهوض الحضاري) .

لقد مرت حركة النهضة العربية المعاصرة بمرحلتين رئيسيتين :

أ ــ المرحلة العفوية ، التي امتدت حتى منتصف القرن العشرين .

ب ــ مرحلة (الثورة العربية) ذات (الايديولوجية) المتميزة ، والاداة الثورية والستراتيجية التي تحدد المهمات والاهداف المرحلية ، على ضوء المبادىء الاساسية المستمدة من (النظرية العلمية الثورية) .

ان المرحلة الاولى (العفوية) التي استمرت طيلة اكثر من قرن ، قد كانت مرحلة التفتيش عن (الهوية الضائعة) . انها قبل كل شيء عملية تلمس لحقيقة الوجود ، تماما ، كما يفعل الناهض من نوم عميق مثقل بالكوابيس . فهي عملية استيقاظ وتذكر وشعور ، تنتهي الى تشكل نواة لوعي جديد ، ينطلق من استعادة الشعور بالاستمرارية التاريخية ، ومن ادراك للهوية ، ولرابطة الانتماء القومي ، وللصلة بالعصر ، وللازمة التي تحيط بالوجود القومي ضمن اطار العالم الراهن .

وقد انطلقت هذه المرحلة من (رد الفعل الغريزي) المعبر عن (ارادة البقاء في الامة العربية) . لذلك كانت تعبر عن نفسها في اشكال سلبية من الرفض (للآخر) . فهي رفض للاستعمار وللاحتلال الاجنبي ، قبل ان تكون تعبيرا عن (مفهوم للحرية) ، يكشف عدوانية الوجود الاستعماري ، جنبا الى جنب مع العوامل الاخرى (السياسية والاجتماعية والاقتصادية)، المعطلة للحرية في المجتمع العربي .. وهي رفض (للتجزئة) وادانة للاقليمية ، قبل ان تحمل معنى (التيار الوحدوي) . وهي رفض لقيم التخلف وللمفاهيم الرجعية ، قبل ان تحدد مفهومها (للتقدم) .

فالمرحلة العفوية تتميز بالدرجة الاولى بكونها رد فعل على (الظاهرة الاستعمارية) في الوطن العربي . تلك الظاهرة التي اخذت عدة اشكال (معاهدات انتداب ، وصاية ، احتلال عسكري ، استعمار استيطاني ..) والتي عكست الوجه السلبي للحضارة الغربية الاوربية . كما عكست فيما يتعلق بالسيطرة العثمانية ، وبنسب مختلفة في كل من المشرق والمغرب ، واقع التخلف والابتعاد عن الحضارة الحديثة ، وكانت سببا في عزل المجتمع العربي عن التفاعل الواسع مع روح العصر .

وقد جرى الانتقال من السيطرة العثمانية الى الاستعمار الغربي حسب خطة استعمارية استندت الى ادراك مبكر لما تنطوي عليه حركة النهضة العربية من تهديد لمصير الامبراطوريات الاستعمارية .

فمنذ عام 1833 جاء في تقرير مبعوث مترنيخ الى مصر (بروكش فون اوستن) بتاريخ 6/16 (1) ان موقف الراي العام العربي يتلخص في (انه لا مفر من اقامة امبراطورية عربية) وان (انبعاث الروح القومية عند العرب) هي اول ما يلاحظه المراقب .

وفي تلك الحقبة ، ربط (بالمرستون) وزير الخارجية البريطانية بين خوفه من الوحدة العربية بين مصر وسورية (1830 ــ 1840) ايام (محمد علي) كمفتاح للنهضة العربية ، وبين دعوته الصهيونية لانشاء جسم غريب داخل المجتمع العربي ، هو الكيان الصهيوني الذي انتهت الظاهرة الاستعمارية الى زرعه في الجسم العربي لاعاقة النهضة العربية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي عام 1907 جاء تقرير اللجنة الجامعية المشتركة بين جامعتي باريز ولندن التي شكلتها حكومة (نيريمان) من الاختصاصيين في تاريخ الامبراطوريات مشيرا الى (أن الخطر الذي يهدد مستقبل الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية ، انما يكمن في المنطقة المطلة على الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر الابيض المتوسط حيث يقطن شعب تعداده 35 مليون نسمة (انذاك) ويتمتع بثروات طبيعية وباسباب القوة والنهضة والوحدة ..)

لذلك كان للظاهرة الاستعمارية دور متميز ومخطط خاص في الوطن العربي . فقد ركزت على خلق تجزئة من نوع جديد في المجتمع العربي ، لتدفع بالكيانات الاقليمية الى التنابذ والتشرذم ، وتعميق التجزئة السياسية ، وخلق عوامل مضادة للوحدة العربية . وبيئة انقسامية انفصالية تدعم التجزئة السياسية بانواع من التجزئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية .

فالمخطط الاستعماري في الوطن العربي قد تجاوز ما هو مألوف في السياسات الاستعمارية التقليدية ، لانه كان يقاوم خطر النهضة العربية عليه ، واحتمالات التحرر والوحدة التي تهدد المصالح الضخمة التي كان يعبر عنها .

لذلك كان التحالف الاستعماري والصهيوني . وكذلك التحالف مع الطبقات الرجعية التي استند عليها ، لمقاومة تيار النهضة داخل المجتمع العربي . فبالاضافة الى سلب الاوطان ، واقتسام المصالح ، وتقسيم الارض ، عملت الظاهـرة الاستعمارية على خلق (مضادات الوحدة) المتمثلة بعقلية التجزئة ونفسية التجزئة ومصالح التجزئة وكيانات التجزئة .. وخلق التناقض بين التراث وبين المعاصرة ، عن طريق تشجيع (المفاهيم الرجعية) الى التراث او خلق الفكر (المغترب) . اي خلق حالة مزدوجة من الاغتراب عن (التراث وعن العصر) .

هذا فضلا عن سلب الموارد الطبيعية والاقتصادية في الوطن العربي، وجعلها اداة لخدمة اقتصاده الاستعماري ، وفتح الاسواق العربية ووضعها في خدمة المنتوجات الاجنبية . وخلق حواجز امام التبادل الاقتصادي بين البلاد العربية . وبينها وبين البلاد الاسيوية والافريقية، والقضاء على ثمار الحركة القومية العربية التي صارعت السلطة العثمانية ووصلت الى مرحلة تسمح لها بأن تحقق الاستقلال(2) .. فوفق هذا التخطيط الاستعماري ، قامت المؤسسات والتنظيمات المختلفة داخل المجتمع العربي فكان المصنع والمدرسة والجيش وملكية الارض والتنظيم الاقتصادي وانظمة التعليم والتشريعات .. كلها مستوردة ومخططة على اساس تعميق التجزئة وطمس الوعي وقتل الروح الجديدة ، روح النهضة العربية ..

وقد تمثل رد فعل النهضة في المجتمع العربي خلال المرحلة العفوية ، في تيارين اصلاحيين كبيرين ، ركز الاول على بعث التراث . في حين ركز الثاني على مفهوم النهضة الحديثة . بيد ان كلا التيارين بالرغم مما فيهما من أصالة ومن معاناة ، قد بقيا ضمن اطار المرحلة العفوية هذه فقد بقيا أسيرين للمنظور الحضاري الغربي نفسه ، سواء في رد الفعل عليه او تمثله وتبنيه .

فالتيار المتمثل بمدرسة جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي وعبدالرحمن الكواكبي .. بقي يعمل ضمن مفهوم (الاصلاح الديني) والاصلاح العقائدي ، كأساس للاصلاح السياسي

■ عبدالرحمن الكواكبي «الاصلاح الديني»

■ سلامة موسى «التحديث والعقلانية»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والاجتماعي . وهو مفهوم مستمد من الغرب ومن تجربة الاصلاح الديني فيه .

اما التيار المتمثل بمدرسة بطرس البستاني واليازجي والشميل واديب اسحق ، وسلامة موسى .. فقد بقي يفكر وينشط ضمن اطار المفاهيم والمصطلحات والمقاييس الغربية (التحديث والعقلانية ، والتطوير والعلمانية والعلمية والتنمية ..)(3) فهي الصفات التي يتصف بها المجتمع الغربي ويعتبرها مقياس كل تطور وتحضر .

وهكذا فان جانبا كبيرا من افكار المستعمر ووجهات نظره ومقاييسه قد تسللت الى هذه المرحلة العفوية .

لذلك فان المرحلة الثانية (مرحلة الانبعاث القومي) قد تميزت بالخروج من اطار المنظور الغربي وبالانطلاق من منظور حضاري انبعائي جديد . وقد تمثل هذا المنظور الحضاري اول الامر ، في وعي بدئي لثلاث حقائق اساسية :

1 – ان (التدهور الحضاري) يثير في الذهن الاوربي غير ما يثيره في الذهن العربي .

ففي حين يأخذ هذا الانهيار معنى مزدوجا : احدهما (ماثل في القديم) في صورة (روما) المتداعية ومصيرها المأساوي ، الذي بقي عالقا كذكرى فقدت حيويتها وتأثيرها في الحاضر . فهي لا تشكل دافعا يستحث الغرب للنهوض من جديد .

اما المعنى الاخر ، (فماثل في الحاضر) نفسه . فانهيار (الحضارة الغربية) اصبح شبحا يلازم الفكر الغربي منذ اكثر من قرن .

ففي عام 1851 كتب الفرنسي (دور ڤيلي) Barbey d'Aurvilly يقول(4) : (ان فرنسا تنحدر نحو الشيخوخة) .

كما ان الاحداث المأساوية التي سبقت قيام كومونة باريز عام 1870 ، هي التي اوحت الى (بول بورجي) Paul Bourget (المعنى السياسي للتدهور الحضاري الغربي)(5) وهي التي جعلت الشاعر (بول ڤرلين) يعتبر (الانهيار) كلمة محببة لانها تشكل مرآة الوضع الحضاري الغربي انذاك .

وعندما ظهر كتاب (ازوالد شبنغلر) عام 1922 ، كانت عبارة (تدهور الغرب) عنوان فكرته ، التي اكتشفت من خلال (الانفصال بين الحضارة الغربية المعاصرة وبين ثقافتها) ، معنى (انهيار الغرب) .

هذا في حين ان مرحلة الانحطاط والتدهور الحضاري ، تثير في الذهن العربي الى جانب معنى (الانقطاع بين الماضي والحاضر) ، فكرة (الخوف من هذا الانقطاع) و (الحافز الى تجديد الصلة الحية به) . الامر الذي يولد في الذهن العربي وفي النفس العربية دافعا تاريخيا للعمل ضمن منطق انبعائي .

ثم ان فكرة الانقطاع في الصلة بين الماضي والحاضر العربي، ليست منعزلة عن فكرة التخلف عن التقدم العصري . لذلك فان ابواب المستقبل مفتوحة امام الذهن وامام الارادة العربية .

والمنظور الحضاري الذي ينطلق منه المجتمع العربي المعاصر ، هو منظور مستقبلي يتجه الى بناء حضاري جديد .

2 – ان المنظور الحضاري الغربي لا يصلح مدخلا لفهم ابعاد مرحلة الانحطاط العربية ، وطبيعة التناقضات القائمة في المجتمع العربي ، لان الغرب يتحمل مسئولية مباشرة في خلق هذه التناقضات ، وفي الحيلولة دون المجتمع العربي وتخطي مرحلة الانحطاط . فهو قد عمل على تثبيت اركان التخلف وسلب الحرية وخلق التجزئة وتعزيزها .. ومنظوره الحضاري متهم في جانب منه ومسئول عن (التدهور الحضاري) في المجتمع العربي.

3 – ان ابعاد (الضياع العربي) في مرحلة الانحطاط ، تستوجب الانطلاق من نظرة شمولية انبعائية من اجل تحقيق النهضة . اي من منظور حضاري يستوعب ابعاد النهضة العربية ورسالتها التاريخية .

وكما أن (الغرب الاستعماري) قد ادرك بصورة مبكرة صورة النهضة العربية كشبح يهدده ، فراح يزرع في طريقها العقبات . كذلك فان (الغرب المدرك لازمته الحضارية) المتمثل في مفكرين افذاذ ، ذوي منظور حضاري منطلق وحر ، امثال (شبنغلر وتوينبي وغارودي ..) قد ادرك بدوره المعنى الحضاري للنهضة العربية المعاصرة .

(فاشبنغلر) ، الذي نظر الى (الحضارة العربية كمنوذج فريد لاقتران الحضارة بالرسالة) ، في القديم ، هو الذي رأى ايضا فيما (يتمثل في هذا الشرق من استعداد لولادة حضارية جديدة ، ملامح انبعاث الحضارة الانسانية المعاصرة) و (ارنولد توينبي) الذي درس في الاجزاء الاربعة عشر من (حياة الحضارات) حوالي عشرين حضارة مختلفة ، خضع اختيارها لمعايير نقدية دقيقة ، واستخلص منها قوانين عامة ، انتهت به الى تلمس (ولادة جديدة للحضارة في الشرق العربي) . وان هذه الولادة قد بدأت منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، نتيجة للتحدي المفروض على المنطقة .

وهكذا كان انضاج (المنظور الحضاري) لهذه الولادة الجديدة التي نطلق عليها اسم النهضة العربية المعاصرة ، ايذانا بالانتقال من (المرحلة العفوية) الى مرحلة متقدمة هي مرحلة الانبعاث القومي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

1 – بالاستناد الى المحفوظات الديبلوماسية النمسوية ، انظر د . جوزيف حجار (اوروبا ومصير الشرق العربي) بيروت 1976 ، ص 85 .

2 – د . ابراهيم ابو لغد (الاستعمار وازمة التطور الحضاري في الوطن العربي) ندوة الكويت . نيسان 1974 ، ص 126 .

3 – نفس المصدر . ص 127 .

4 – انظر مقال هنري رولي H . Rollet من مجلة (التاريخ الديبلوماسي) باريز 1977 .

5 – نفس المصدر .

أبعاد الموقف الصهيوني من التطورات الجارية في ايران

اكتسب موقف الكيان الصهيوني من الاحداث التي شهدتها ايران خلال الآونة الاخيرة طابع التاييد المطلق لنظام الشاه ومناهضة التحركات الاخيرة التي اجتاحت ايران .

والحقيقة هي ان هذه ليست المرة الاولى التي يتخذ فيها الكيان الصهيوني موقفا عدائيا حيال الحركات المناوئة لنظام الشاه وينحاز انحيازا تاما الى جانب السلطات الايرانية في مواجهة تلك الحركات ، وقد سبق للكيان الصهيوني ان اتخذ موقفا مناهضا لحركة الدكتور محمد مصدق في مطلع الخمسينات حيث صوت هذا الكيان في الامم المتحدة ضد اقدام حكومة مصدق على تاميم النفط وايد التدخل الامريكي الذي اسفر عن سقوط تلك الحكومة واعادة الشاه الى السلطة الامر الذي دفع بحكومة مصدق الى سحب المفوض الايراني في تل ابيب احتجاجا على ذلك الموقف(1) .

غير ان الموقف الصهيوني من الاحداث الجارية الان في ايران تميز هذه المرة بردود فعل واسعة النطاق وباجراءات معينة اتخذت من خلف الكواليس ، ذات دلالات خطيرة . وسيكون من الخطأ انْنغفل الدوافع التي حدت بالكيان الصهيوني الى تبني هذا الموقف ، وهي دوافع متعددة لابد من وقفة عندها .

الدوافع الاستراتيجية :

هناك حقيقة لامجال لنكرانها وهي ان لايران اطماعا في الوطن العربي وعلى الاخص في منطقة الخليج وهي الاطماع التي ظلت تتردد على لسان الشاه في كثير من المناسبات جسدتها عملية غزو ثلاث من الجزر العربية هي طنب الكبرى وطنب الصغرى وابو موسى .

ان ايران وانطلاقا من سياستها التوسعية تسعى الى السيطرة على مواقع المرور البحري اي الخليج وتبوأ مكان الصدارة في تلك المنطقة الهامة من العالم مستغلة ما تتمتع به من قوة عسكرية وفرتها لها الولايات المتحدة الامريكية .

وفي هذا تلتقي ايران مع العدو الصهيوني الذي استطاع ان يسيطر على الجزء الغربي من الوطن العربي ويتحرك لتحقيق مزيد من التوسع الاقليمي في الوطن العربي .

ولقد عبّر هذا الالتقاء عن نفسه من خلال العلاقات التي نشات بين طهران وتل ابيب منذ اواخر الخمسينات واوائل الستينات وظلت تنمو بشكل مطرد وعلى جميع المستويات .

وهذا الدور الذي تلعبه ايران في المنطقة انسجاما مع مخططاتها التوسعية في منطقة الخليج العربي ، وفي عدائها لحركة التحرر العربي جعل منها حليفا استراتيجيا للكيان الصهيوني .

وفي ضوء ذلك وانطلاقا من هذا الفهم لخطورة الدور الايراني ، فقد ايد الكيان الصهيوني بقوة الاطماع الايرانية وعمليات الغزو بل ذهب أبعد من ذلك حين وطد تعاونه العسكري مع الشاه وعمل بشكل مباشر وغير مباشر على تطوير القوة العسكرية الايرانية .

ولقد تمثل هذا التعاون في تولي الكيان الصهيوني مهمة تدريب السلاح الجوي والبحري الايراني وتزويد الجيش الايراني بالمعدات الالكترونية المصنوعة في الكيان الصهيوني ، وتدريب الحرس الامبراطوري وتزويده برشاشات العوزي(2) ، كما يتمثل ايضا في مجال الاستخبارات وتبادل المعلومات والذي حتم انشاء مراكز للتجسس في ايران مهمتها جمع المعلومات عن العراق والخليج (3) .

ـ بدات الولايات المتحدة في الاعوام الثلاثة الاخيرة بصياغة استراتيجية امريكية جديدة بلغت اعلى مراحلها في اتفاقيات كمب ديفيد . وتسعى هذه الاستراتيجية الى اقامة حلف اقليمي في المنطقة يضم دولا غير عربية وتكون عناصره واهدافه مطابقة لاهداف الاحلاف الغربية التي نشات في المنطقة في الخمسينات ، وليس بخاف ان الكيان الصهيوني وايران سيشكلان الركيزة الاساسية لهذا الحلف بالاضافة الى نظام السادات والذي من المحتمل ان تنضم اليه اطراف عربية اخرى(4) .

ـ تلعب «ايران» دور الاسفنجة في امتصاص جزء من الطاقات العسكرية العربية ، مما يجنب الكيان الصهيوني مواجهة قوة عسكرية عربية قادرة ، وفي هذا الشان يقول الدكتور يعقوب بارسيمون طوف الباحث في معهد (فان لير) «ان ايران لعبت دورا مهما وخطيرا في مساعدة اسرائيل عسكريا عن طريق منع العراق من توجيه قوات عسكرية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاعلة الى خطوط المواجهة مع اسرائيل سواء عن طريق حشد قواتها على حدود العراق والدخول في اشتباكات معها ، او عن طريق دعم التمرد الكردي(5) .

ويقول ايضا : «انه لو علمنا بأن العراق لم يتمكن في الماضي من تفريغ اكثر من فرقتين لارسالهما الى الجبهة الشرقية من مجموع جيشه الذي يتكون من عشر فرق ، لتبين لنا مدى واهمية الدور الايراني الداعم (لاسرائيل) بل لقد ذهب الكيان الصهيوني الى ابعد من ذلك بسعيه الى شل دور العراق في المواجهة بالتعاون مع نظام الشاه وذلك من خلال دعمه ماديا واعلاميا وتسليحيا للمتمردين الاكراد وارسال الامدادات اليهم عبر ايران ولقد بدات تتضح في هذا العام ابعاد الدعم الصهيوني للجيب العميل في الشمال اكثر واكثر ، اذ بدات صحافة العدو تنشر بتوسع وبكثير من التبجح والتباهي مقالات وتحقيقيات ومعلومات تتحدث عن حجم الدعم الذي كان يصل عبر الاراضي الايرانية وبعلم سلطات الشاه .

ويقول اريون الياف زعيم حزب العمل السابق : «كانت اسرائيل خلال سنوات تأجج التمرد الكردي بزعامة البارزاني مصدر الدعم الوحيد للحركة التي قادها البارزاني . فلقد استطاعت اسرائيل ان توصل هذا الدعم بأشكاله المختلفة الى منطقة « كردستان » في شمال العراق بسبب تسهيلات السلطات الايرانية»(6) .

ويعزو الياف اسباب هذا الدعم الى رغبة اسرائيل في اشغال العراق عن مهمته في مواجهة العدو .

— سعى الكيان الصهيوني — قبل عدوان حزيران 1967 ولكنه تاكد بعده — الى ترتيب الاوضاع في الممرات المائية ، البحر الاحمر ومضيق هرمز حيث تمر امدادات النفط المتجهة الى ايلات بالتعاون مع ايران تأمينا لمصالحها . وكانت هناك بعض المصادر الصهيونية قد افادت بأن البحرية الصهيونية والبحرية الايرانية تتعاونان فيما بينهما على صعيد حماية مرور السفن المتجهة من ايلات واليها بحيث تتولى كل بحرية مهمة الحماية في القطاع القريب من حدود بلادها(7) .

وبعد حرب تشرين واستخدام سلاح النفط توجه الكيان الصهيوني بمزيد من الاهتمام الى منطقة الخليج وبدأ يدرجها ضمن خططه العسكرية .

ولقد خاضت صحافة العدو في موضوع الخطة الصهيونية التي اعدت في عام ١٩٧٤ لغزو الخليج عن طريق اسقاط قوات صهيونية في الكويت وابو ظبي وقطر وذلك لتبرير التدخل الايراني(8) .

وتبين بعد ذلك ان الكيان الصهيوني اراد ان يتوجه بخططه الى المنطقة متضامنا مع النظام في ايران وان خطة الغزو وضعت بالتعاون مع الولايات المتحدة وايران .

الدوافع السياسية :

1 — ثمة حقيقة بالغة الاهمية في مجال العلاقات الايرانية الصهيونية لقد كانت ايران اول دولة اسيوية واسلامية تعترف بالكيان الصهيوني عام 1948 ، وتتبادل العلاقات الدبلوماسية معه . وقد افتتحت ايران بعد اعترافها بالكيان الصهيوني مفوضية في تل ابيب اغلقت بعد حركة الدكتور مصدق ثم اعيد فتحها سنة 1954 . وقد اتسع مجال هذه العلاقات بعد عودة الشاه الى الحكم واخذت تتطور على هذا الصعيد بشكل مضطرد نظرا لان كلا من نظام الشاه والكيان الصهيوني يعتبران نفسهما حليفا للآخر .

وقد اتخذت هذه العلاقات السياسية بين طهران وتل ابيب وعلى الرغم من طابع السرية الذي طغى عليها ، بعدا جديدا اثناء لقاء تم بين الشاه ودافيد بن جوريون رئيس وزراء العدو في المطار عندما كان الاخير في طريقه الى بورما(9) . وفي ذلك اللقاء الذي تم في اواخر الخمسينات ارسيت اسس التحالف والتعاون بين الجانبين على مختلف الاصعدة .

2 — انطلاقا من كون نظام الشاه حليفا مهما للكيان الصهيوني واتخاذه مواقف عدائية سافرة ضد الامة العربية منذ ثورة الرابع عشر من تموز 1958 ثم السابع عشر من تموز 1968 ،اصبحت السلطات الصهيونية تشكل القوة الداعمة الرئيسية للشاه في الداخل والخارج .

وقد انعكس هذا في مناهضة السلطات الصهيونية لأية انتفاضة او حركة معادية لنظام الشاه ، وفي مواقفها اللفظية والفعلية المناوئة . وينسجم هذا الموقف مع السياسةالصهيونية الموالية للانظمة والقوى الرجعية والدكتاتورية والعنصرية .

واليوم نجد هذه السياسة السمة المميزة للموقف الصهيوني من احداث ايران الحالية . ان الكيان الصهيوني يتوجس خيفة من سيطرة قوى راديكالية على السلطة في ايران والتي من شأنها ان تفقده اخطر واهم حليف له في المنطقة بل في العالم — بعد الولايات المتحدة — وجنوب افريقيا .

من هنا تأتي تقييمات العدو لهذا الحليف والتي عبَّر عنها خبير الشؤون الاستراتيجية والمختص بالشؤون العربية جنرال الاحتياط يهوشفاط هركابي ، في محاضرة القاها في معهد دراسات (فان لير) ، في نهاية شهر تشرين الثاني .

قال يهوشفاط هيركافي(10) : «ان وجود الشاه على رأس السلطة في ايران يشكل دعامةاساسية للامن الاسرائيلي . فهو عدو لعدونا وقوة احتياطية اضيفت لقوتنا . اللحظات الحرجة وانه ستترتب على سقوطه آثار بعيدة المدى بالنسبة للعالم الحر بشكل عام «واسرائيل» بشكل خاص» .

اما التقييم الآخر فقد صدر عن جنرال الاحتياط اهرون ياريف مدير الاستخبارات العسكرية السابق ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل ابيب .

يقول ياريف(11) : «لولا وجود ايران التي يحكمها الشاه على الحدود الشرقية للوطن العربي .. ايران القوية صاحبة السطوة بقوتها العسكرية وتطلعاتها التي تتخطى مجال ايران ، لواجهت (اسرائيل) حشدا عربيا هائلا يقف في مواجهتها» .

ويقول ايضا : «فايران بسطوتها وقوتها تؤدي دورا لا يستهان به في تعزيز وجود اسرائيل نتيجة لما يربط الجانبين من اهداف ومصالح مشتركة . وهذا الالتقاء هو الذي يجعل اسرائيل معنية باستمرار وجود نظام الشاه بل والمساهمة في

ضمان هذا الوجود والوقوف ضد اية محاولات من جانب القوى الراديكالية او الاتجاهات الاسلامية المتزمتة المعادية لاسرائيل للاستيلاء على السلطة في ايران .

3 – يخشى الكيان الصهيوني ان يترك سقوط نظام الشاه آثارا وانعكاسات على الوضع داخل المنطقة ووصول قوى ثورية عربية الى السلطة فيها . وهذا يعني مجابهة قوى عربية تجمعها وحدة الاهداف والاتجاهات وتنطلق من مواقف ثورية مناهضة للصهيونية والقوى الحليفة .

وهذا مانطق به صراحة الباحث الصهيوني الدكتور يعقوب بارسيمون الباحث في معهد «فان لير» والذي قال بأن سقوط نظام الشاه سيعزز من مركز القوى المتطرفة بزعامة العراق وسيؤثر على مراكز القوى المحافظة الموالية للغرب والتي تتبنى مواقف معتدلة حيال الصراع مع (اسرائيل) (12) .

4 – ركزت اجهزة الاتصال في الكيان الصهيوني في تحليلاتها وتعليقاتها على الاحداث في ايران بشكل ملفت للنظر على «العامل الفلسطيني» ودوره في اشعال فتيل الانتفاضة ضد نظام الشاه .

ولقد كان التعاون بين بعض فصائل حركة المقاومة وبين الحركات المناهضة لنظام الشاه في ايران يشكل دوما هاجسا وكان ولايزال من بواعث القلق لدى الاوساط الصهيونية .

وهذا مايفسر حجم الدعم الصهيوني لنظام الشاه وكذلك الحملة التي شنتها اجهزة اعلام الشاه ضد المقاومة الفلسطينية بدعوى انها تتدخل في الشؤون الداخلية الايرانية .

فالتعاون بين فصائل المقاومة والحركات الايرانية المناوئة لنظام الشاه في ظل الفهم المتبادل للحلف الذي يربط الشاه بالعدو الصهيوني وما ينطوي عليه من تنسيق بين عمليات المواجهة الثورية ضد الخصمين دفع ويدفع العدو الى الذهاب بعيدا في مجال دعمه لنظام الشاه .

5 – يتخذ الكيان الصهيوني من ايران قاعدة لنشاطه – على مختلف الاصعدة – هو والاجهزة الصهيونية الاخرى مثل الوكالة اليهودية وحركات صهيونية اخرى تنشط بين يهود ايران الذين يتراوح عددهم بين 70–80 الف نسمة ، وقد بدأ هذا النشاط قبل اقامة الكيان الصهيوني حيث كانت هناك عدة منظمات مثل حركة الطلائع ومقرها شارع سيريوس في طهران والوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية .

ومن الحقائق المعروفة ان النشاط الصهيوني الموجه ضد العراق ومن داخل ايران بدأ في عام 1949 عندما انشأ الصهاينة عدة مراكز على الحدود مع العراق من اجل تهجير يهود العراق وكانت شخصيات صهيونية مثل شلومو هليل وزير الشرطة السابق ورفائيل صوراني احد زعماء النشاط السري في العراق ومردخاي بن فورات قد عبروا الحدود الايرانية ودخلوا العراق متنكرين(14) ، واتسع نطاق هذا النشاط ليتطور بعد ذلك الى صعيد الاستخبارات حيث اقيمت مراكز لجمع المعلومات عن الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي في العراق ثم تطور باتجاه دعم التمرد في شمال العراق وامداده بالمساعدة العسكرية والمادية .

الدوافع الاقتصادية :

يرتبط الكيان الصهيوني وايران بعلاقات ومصالح اقتصادية ضخمة ، ويمكن القول ان العامل الاقتصادي لايقل شأنا عن العوامل الاستراتيجية والسياسية التي تقوم عليها العلاقات الشاملة بين طهران وتل أبيب . فالكيان الصهيوني يعتمد على ايران كمصدر رئيسي للحصول على امدادات النفط لسد احتياجاته ومن اجل تشغيل خط انابيب ايلات – عسقلان ، ولايزال الكيان الصهيوني وعلى الرغم من سيطرته على مصادر نفطية في خليج السويس وسيناء يستورد 60٪ من احتياجاته من ايران(15) . ولا يقتصر هذا التعاون بين الجانبين على النفط وحده وانما يشمل مجالات اخرى .

وهناك نشاطات اقتصادية اخرى في ايران تتمثل في عقود تقدر باكثر من 500 مليون دولار ابرمها نظام الشاه مع شركة «سوليل بونيه» للبناء التي تقوم بشق الطرق واقامة المباني وتنفيذ مشاريع الري وشركة (كور) للمعدات وغيرها من الشركات(16) .

يضاف الى ذلك ان هناك « مستوطنه اسرائيليه » تضم آلاف الصهاينة الذين اوفدوا من فلسطين المحتلة لاستثمار مناطق ايرانية (اقليم قزوين) واستصلاح الاراضي واحياء المناطق الجدباء .

وطبقا لما اوردته المصادر الصهيونية فان هذه المستوطنة استطاعت بمساعدة من سلطات الشاه السيطرة على مساحات شاسعة وزراعتها واستغلال ناتجها لصالح الكيان الصهيوني(17) .

وتشكل ايران سوقا لترويج البضائع الصهيونية وعلى الأخص الادوات الكهربائية مثل المكيفات والثلاجات واجهزة الراديو والتلفزيون والهاتف وآلات الري والآلات الزراعية والهندسية واطارات السيارات(18) .

ويلعب اصحاب رؤوس الاموال اليهود في ايران دورا هاما في دعم الاقتصاد الصهيوني عن طريق استثمار اموالهم في الكيان الصهيوني أو في الخارج لمصلحة هذا الكيان .

ومعروف ان يهود ايران يسيطرون على الاقتصاد الايراني واستطاعوا بفضل التسهيلات والامتيازات التي يمنحها لهم نظام الشاه ان يجمعوا ثروات طائلة مكافأة لهم على دعمهم لنظامه . وقد اعترفت مجلة صهيونية ان اصحاب رؤوس الاموال اليهود في ايران يستثمرون بضع مئات الملايين من الدولارات في (اسرائيل) وان معظم اموالهم هربت الى هناك ، كما ان جزءا من رؤوس الاموال هذه تستثمره السلطات الصهيونية في بعض الدول الافريقية مثل (جمهورية افريقيا الوسطى) وزائير وساحل العاج وغيرها(19) .

الخطوات التي اتخذها العدو لدعم نظام الشاه :

وفي هذا الصدد نلاحظ ان موقف الكيان الصهيوني من الاحداث في ايران تم بدوافع متباينة استراتيجية واقتصادية وسياسية ولقد ابرزت الاعتبارات الاخرى الحرص على استمرار نظام الشاه بين هذه الدوافع .

وفي ضوء ذلك لجأت السلطات الصهيونية الى عدة خطوات لتدعيم سلطة الشاه . مواجهة الانتفاضة التي شهدتها ايران خلال الاسابيع الاخيرة ، شكلت بمجموعها الموقف الصهيوني المؤيد للشاه .

وهذه الاجراءات التي استهدفت دعم مركز الشاه الذي اهتز وترنح بفعل تلك الانتفاضة ، في الصراع من أجل البقاء واجهاض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التحرك المعادي للسلطة الايرانية ، اتخذ بعضها شكلا علنيا ولكن الاجراءات العملية احيطت بجو من السرية والتكتم . ومن هنا فان الوقوف على حجم وطبيعة تلك الخطوات معناه الوقوف على حجم وتأثير وابعاد تلك الخطوات .

التحرك المعادي للسلطة الايرانية ، اتخذ بعضها شكلا علنيا ولكن الاجراءات العملية احيطت بجو من السرية والتكتم . ومن هنا فان الوقوف على حجم وطبيعة تلك الخطوات معناه الوقوف على حجم وتأثير وابعاد تلك الخطوات .

ويمكن ان تجمل تلك الخطوات وكما تم رصد تفاصيلها المأخوذة من مصادر العدو في الآتي(21) :

اولا :ـ بدأ الكيان الصهيوني بعد تفاقم موجة المظاهرات ضد الشاه وانتشارها بتسيير جسر جوي من مطار اللد ومطار رامات دافيد العسكري بالقرب من حيفا لنقل معدات حديثة لمقاومة «الاضطرابات» وتفريق المظاهرات دون سفك الدماء . وقد شملت هذه المعدات بنادق تطلق غازات تتسبب في اصابة المتظاهرين بحالات ارتخاء الاعصاب وفقدان السيطرة واجهزة متطورة اخرى .

ثانيا :ـ ارسل الكيان الصهيوني وحدات خاصة مدربة تدريبا خاصا على مقاومة المظاهرات وحرب العصابات «واعمال التخريب» تتبع لجهاز الاستخبارات العسكرية (أمان) والمهمات الخاصة في الشرطة . ويقود هذه الوحدات جنرال الاحتياط السابق رحبعام زئبقي الذي شغل منصب قائد المنطقة الوسطى في فلسطين المحتلة ثم عيّن مستشارا لرئيس وزراء العدو لشؤون مكافحة الارهاب والمهمات الخاصة .

وقد شاركت هذه الوحدات التي نقلت بواسطة طائرات مدنية تابعة لشركة (العال) الصهيونية في قمع المظاهرات واطلاق النار على المتظاهرين في المدن الرئيسية الايرانية بعد أن اخفقت كل الوسائل الاخرى في وضع حد للانتفاضة .

وضمت هذه الوحدات افرادا يجيدون اللغة الفارسية وهم يهود من أصل ايراني ، بالاضافة الى عناصر صهيونية اخرى كانوا يرتدون زي الجيش الايراني .

وقد حاولت السلطات الايرانية التستر على هذه الوحدات فزعمت ان افراد هذه الوحدات الذين قمعوا المظاهرات هم من منطقة البلوش شرقي ايران من ذوي الملامح الشقراء .

ثالثا :ـ شاركت مجموعات « الاسرائيليين » الذين يتواجدون في ايران ويعملون كمستشارين وخبراء بالاضافة الى التنظيم السري الذي شكله يهود ايران بدعوى الدفاع عنهم وتوفير الحماية لهم ، بدور . التصدي للانتفاضات واطلاق النار على المتظاهرين(21) .

وقد اظهرت الاحداث ان الكيان الصهيوني استطاع أن يسلح مجموعات كبيرة من يهود ايران ، وخاصة اليهود الذين يعيشون في طهران والذين يبلغ عددهم حوالي 25 الف يهودي وقد استخدمهم في قمع المظاهرات لصالح نظام الشاه(22) .

واظهر التدخل الصهيوني وجود مجموعات عسكرية صهيونية في قاعدة تقع على مسافة 1300 كيلو متر من طهران وبالقرب من مدينة بندر عباس وعبدان ، وقد زعم احد افراد هذه المجموعات ويدعى مردخاي كلادينبرج ان هذه المجموعات تقوم بانشاء تجمعات وقواعد عسكرية للجيش الايراني ، واعمال التدريب(23) .

رابعا :ـ اعلن الكيان الصهيوني انحيازه الصارخ الى جانب نظام الشاه وجند كل اجهزة اعلامه تأييدا للشاه وشن حملات شعواء ضد المظاهرات وضد القوى المناهضة للنظام الايراني مبررا ذلك ان هذه القوى سواء ذات الاتجاه الاسلامي المتزمت او القوى الراديكالية ستعمد في حالة تسلمها مقاليد السلطة الى منع وصول «الذهب الاسود» الى الكيان الصهيوني(24) .

ويأتي هذا الحماس المنقطع النظير في تأييد نظام الشاه على الصعيد الاعلامي والسياسي مكملا لأشكال الدعم الفعلي الذي سبق التعرض له .

المصادر :

(1) مجلة هعولام هزيه 1978/11/22 .

(2) مجلة سكيرا حودشيت الخاصة بضباط جيش العدو 1978/11/3 .

(3) نفس المصدر .

(4) هارتس في 1978/10/23 .

(5) نفس المصدر .

(6) مجلة هعولام هزيه 1978/11/22 .

(7) سكيرا حودشيت 1978/11/1 .

(8) مجلة هعولام هزيه 1974/7/25 .

(9) مجلة هعولام هزيه 1962/11/21 .

(10) معاريف 1978\11\17 .

(11) يديعوت احرونوت 27\11\1978 .

(12) هارتس 1978/10/23 .

(13) دافار 1978/10/10 .

(14) عل همشمار 1938/11/21 .

(15) مجلة هعولام هزيه 1978/11/22 .

(16) نفس المصدر .

(17) نفس المصدر .

(18) نفس المصدر .

(19) يديعوت احرونوت 1978/11/19 .

(20) هعولام هزيه 1978/10/22 .

(21) نفس المصدر .

(22) نفس المصدر .

(23) نفس المصدر .

(24) معاريف 1978/12/17 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة

أسود

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

4

من سني يوسف

دراسة بقلم: صلاح عيسى

صيغت تحفظات فبراير (شباط) 1922 الاربعة بمكر امبريالي واضح . ويبدو ان تبرير « اللنبي » لشروطه المتعنتة مع « **سعد زغلول** » ، لا يعكس رؤية شخصية فهو لم يتحرج عن طلب نصف مليون جنيه ثمنا لدم ضابط انجليزي رفيع الشان كسردار الجيش المصري : دون ان يهتم بوصف وزارة الخارجية البريطانية لفعلته بانها « امر مشين » ، مما يعني انه لم يكن جادا في كل مطالبه ، ولكنه تعنت ليمكن بريطانيا من التنازل عن بعضها لحكومة مصرية تكون اكثر صداقة للانجليز من وزارة سعد زغلول .

تلك مناورة اتبعها من صاغوا تحفظات فبراير ، التي يكشف تحليلها وموقف الطرف البريطاني منها ، عن ان واحدا على الأقل من التحفظات الاربع لم يكن يعن انجلترا بشكل جدي ، لكنه كان من ذلك النوع الذي يمكن التنازل عنه لحكومة مصرية اكثر صداقة .

ولا جدال في ان اثنين من التحفظات كانا يعنيان انجلترا بشكل جدي ، وهما : حماية مواصلات الامبراطورية البريطانية ، والدفاع عن مصر ضد اي اعتداء اجنبي بالذات او بالواسطة ، ويمكن النظر اليهما كتحفظ واحد ، لأن الاول منهما كان المبرر الذي ساقته انجلترا للثاني ، فطالما ان مصر تقع في طريق المواصلات الامبراطورية ، فان انجلترا ينبغي ان تكون في مركز يسمح لها بحماية ذلك الطريق من اية محاولة لقطعه ، على ان التحفظين معا يعنيان حرص بريطانيا على التوصل الى تسوية لا تخرج مصر عن اطار التبعية لها .

وجاء اصرار انجلترا على التحفظ على موضوع السودان ضمن الموضاعات الخارجة عن الاستقلال الذي منحه تصريح فبراير ، دليلا على رفضها لمنطق البرجوازية المصرية ، التي عجزت عن تحرير بلدها ، او الاستئثار بسوقها ، ومع ذلك تسعى الى حيازة اسواق اخرى ، كما ان قبول انجلترا لتسوية تنتهي بتبعية السودان للتاج المصري ، كان يعني ان تنسحب من افريقيا ، حيث كان الصراع الامبريالي في القارة السوداء على اشده ، بالاضافة الى ان ضم السودان لمصر ، كان سيقوي من عضد البرجوازية المصرية ، مما قد يدفعها الى التمرد على نصيب الشريك الصغير ، الذي لم تكن الامبريالية تقبل منحها ما هو اكبر منه .

وفي حين تبدو التحفظات الثلاثة السابقة متوائمة مع مصالح انجلترا، بحيث نستطيع ان نفهم منطق ورودها ضمن القيود التي وضعت على الاستقلال الشكلي الذي منحه تصريح فبراير ، فان اصرار انجلترا على وضع تحفظ يعطيها الحق المطلق في تولي المسائل المتعلقة بـ « حماية المصالح الاجنبية في مصر،وحماية الاقليات» ، يبدو غير مفهوم او غير منطقي ذلك انه لا المصالح الاجنبية ولا الاقليات كانت تهمها في شيء ، بل لعلها كانت احرص لأن تتخلص من تلك المصالح ، التي كانت تعني وجودا ونفوذا للجاليات والاحتكارات الاوروبية غير الانجليزية ، مما يشكل منافسة لانجلترا ، ولكنها استكمالا للدور الذي كانت تزعم لنفسها القيام به ، كمندوبة مفوضة عن مجموع الاحتكارات الاوروبية في مصر ، حرصت على وضع تلك المصالح ضمن الامور التي تتولاها ، على ان الهدف الاساسي من ذلك كان حرصها على مساومة البرجوازية المصرية ـ وكانت صاحبة مصلحة مباشرة في تصفية المصالح الاجنبية ـ لاجبارها على قبول الشروط الانجليزية للمحالفة .

ويشير تعبير « حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات » الذي ورد ضمن تحفظات فبراير الى مسائل ثلاث هي : الامتيازات الاجنبية ومصالح الاجانب المحليين في الاقتصاد المصري ثم الدين المصري العام ، فمسالة الاقليات الدينية في مصر .

والامتيازات الاجنبية ظاهرة تاريخية نشأت من تفاوت النمو الراسمالي بين مختلف البلاد ، ففي الوقت الذي كان النظام الاقطاعي قد تهاوى في بعض المجتمعات ، ليصعد البرجوازيون على انقاضه ، كانت بقايا الاوضاع الاقطاعية ما تزال قائمة في بلاد اخرى ، وهو ما كان يعني استمرار القيود على حرية التجارة ، نتيجة للتجزئة الاقطاعية التي كانت تعوق التبادل التجاري ، او لتطبيق الشرائع الدينية التي تحرم الاعمال المصرفية والربوية وهو ما لا تستغني عنه البرجوازية ، ولما كانت المجتمعات الاقطاعية او شبه الاقطاعية في حاجة ماسة الى التبادل التجاري والى الاعمال المصرفية ، فقد اضطرت لمنح الاجانب امتيازات او استثناءات من القواعد القانونية او العرقية السائدة فيها .

ولأن الامبراطورية العثمانية كانت تطبق الشريعة الاسلامية التي تمتزج فيها العبادات والمعاملات ، فقد عزف التجار والمصرفيون والصناع الاوروبيون عن الدخول في انشطة اقتصادية واسعة بها ، واشترطوا لذلك ان يتمتعوا بقسط وافر من الحرية ، وذلك بعدم ارغامهم على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القبول باحكام الشريعة الاسلامية اساسا للمعاملات التي تقتضيها الحياة المدنية والتجارية .

وتشجيعا لهم على الاستثمار استثنى سلاطين « **آل عثمان** » الاوربيين من بعض القواعد والقوانين لكي يقوموا بنشاطهم التجاري والمصرفي دون خوف ، وهي الاستثناءات التي تم الاتفاق عليها بمعاهدات وقعتها تركيا مع دول اوروبا ، وعرفت بأسم الامتيازات الاجنبية .

وحين كانت الامبراطورية العثمانية قوية ، كانت تلك الاتفاقيات محدودة الاثر باهدافها اذ لم يزد ما أعطته للاجانب عن تحديد نسبة مخفضة للرسوم الجمركية ، وبعض اعفاءات من الضرائب فضلا عن حقهم في التقاضي في الشؤون التجارية والمدنية والشخصية امام قناصلهم وبقوانين بلادهم وكذلك في المنازعات المدنية التي يكون طرفاها اجنبيين على الا يكون نزاعهما ماسا بصالح اهلي ، وكذلك المنازعات الجنائية بين الاجانب ، وفيما عدا هذا فقد كان الاجانب يخضعون للوائح الضرائب العقارية والقوانين المالية التي تضعها الحكومة العثمانية دون حاجة لموافقة الدول كما كانوا يخضعون للمحاكم التركية في المنازعات العقارية سواء كانوا فيها مدعين او مدعى عليهم ، وكذلك كان القضاء العثماني يختص بنظر قضايا الاجانب مدنية كانت او تجارية ، اذا كان في الخصومة صالح اهلي . وكانت احكام قوانين ولوائح الضبط والربط والادارة والتنظيم والصحة والجنايات والعقوبات العثمانية تطبق على الاجانب ، ويتساوون في الخضوع لها مع رعايا الدولة العثمانية .

وسمحت مصر ـ باعتبارها ايالة عثمانية يومذاك ـ للاجانب بممارسة النشاط التجاري والمصرفي في تلك الحدود ، مع تطرف اوجبه اما ضعف حكوماتها او حاجة تلك الحكومات الماسة في حالة قوتها ـ كما كان الحال في حكم محمد علي ـ الى الاجانب لاستكمال النقص في الكفاءات الوطنية او تنفيذ بعض الانشاءات .

على ان تلك الحكومات ـ بتعبير رئيس النظار المصري « **نوبار باشا** » في مذكرته عن الامتيازات ـ قد بالغت في حرصها على تسهيل اقامة الاجانب فيها ، حتى اصبحت بمرور الايام بلا سلطان عليهم » ، بل وتحولت الامتيازات الاجنبية من حقوق تعاهدية محدودة بحدود كل المعاهدات والقوانين ، الى حقوق تفرضها العادات والتقاليد التي وسعت في نطاقها حتى اصبح المواطنون المصريون بعد انتشارها ـ كما يقول « **نوبار** » في مذكرته ـ « بلا مرجع ثابت للعدل يرجعون اليه في معاملاتهم مع الاجانب . وفي ظل الحكومات المصرية انتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترفه رعاياهم من الجرائم التي تقع ضد المصريين ، واصبح على هؤلاء ان يرفعوا اي دعوى ضد الاجانب لدى قناصلهم وان يرفع الاجانب الدعاوى عليهم لدى هؤلاء القناصل ايضا ، بل ان الاجانب كانوا يقاضون الحكومة المصرية ذاتها امام المحاكم القنصلية ، ثم ما لبث الضعف الذي شمل الحكومة المصرية نتيجة للنفوذ المتزايد لممثلي الراسماليات الاوربية الذين كانوا يزحمون مصر في عهد اسماعيل ، ان ادى الى ان اصبح القناصل ـ كما يقول « **لانغز** » ـ مستعدين للدفاع عن اي شخص سواء كان اجنبيا او مصريا مقابل مبلغ من المال ، واصبح لكل دولة غربية قائمة بأسماء من تشملهم بالحماية الدائمة او المؤقتة ، واصبح جواز السفر سلعة تجارية اكثر منه لتحقيق الشخصية او اثبات الجنسية(1) ووصل الامر الى الحد الذي اصبح فيه المصريون انفسهم يحتمون من اساليب حكوماتهم الاستبدادية بالدخول في حماية الامتيازات الاجنبية لأي دولة اوربية .

وفي محاولة لاصلاح هذا الوضع ، تبنت حكومة « **نوبار** » ـ في عهد **الخديو « اسماعيل »** ـ مطلب انشاء المحاكم المختلطة وهو ما فرضته بالدرجة الاولى ـ مصالح البرجوازية المصرية التي كانت تتبلور آنذاك ، والتي طرحت نفسها بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة في الثورة العرابية.

وفي اولى مذكراته التي قدمها « **نوبار** » الى « **الخديوي اسماعيل** » بشأن عدم وجود سلطة قضائية مستقلة ربط ـ بوضوح ـ بين ضرورتها، وبين تشجيع الاستثمار المحلي والاجنبي ، فقد ذكر في تقريره ذاك ـ وهو مؤرخ في عام 1867 ـ ان « الحكومة المصرية تشعر من جهة ان النجاح لا يمكن ان ياتيها الا من اوروبا ، وتود ان تنفع العنصر الاوروبي وان تنتفع به ، وان تعهد اليه في اعمالها العظيمة وان تجعله اساس زراعتها وتجارتها وتود ان تدعو اليها رؤوس الاموال منهم لتفوض اليهم مهمات نافعة ذات جدوى » . واشار ان ذلك لا يمكن ان يتم ـ مع ضمان عدم نزح الاوروبيين لثروة البلاد ـ الا بـ « انشاء نظام عدلي حسن يجعل لأوروبا كل الضمانات التي يحق لها ان تطالب بها »(2) .

وقد ربطت مذكرة « **نوبار** » الثانية ـ كتبها في مارس (اذار) 1881 ـ بين وجود قضاء خاص بالاجانب واخر خاص بالمصريين ، وبين تشجيع الاستثمار الراسمالي ، وطالب بأنشاء محاكم اهلية ، لان الافتقاد لما سماه « الهيئة العدلية » يؤثر تاثيرا ضارا على الاقتصاد المصري « اذ البين الواضح ان ابن الوطن المصري لا يستثمر ما عنده من راس المال ولا يجازف به في المشاريع وعلى الجملة لا يستخدمه ولا يتداوله لانه يرى تخبئته آمن له واضمن ، ثم ان الاوروبي ايضا لا يرى مصالحه وراس ماله في أمان وضمان لان الوطني الذي يعامله لم يكن في مامن مثله لدى الحكومة والموظفين(3) هذا بالاضافة الى ان «الاوروبيين كانوا يظلمون الوطني ويستنزفون خيره دون ان يستطيع استعادة حقوقه لان ابواب العدل كانت موصدة في وجهه عند معاملته »(4) .

وهكذا فرضت مصالح الاستثمار ـ الراسمالي ، انشاء « المحاكم المختلطة » لتتولى تطبيق الامتيازات الاجنبية ، بموجب اتفاقية وقعت في عام 1876 بين مصر وست عشرة دولة اجنبية هي : أمريكا والنمسا والمجر وبلجيكا والدنمارك ، وفرنسا والمانيا وانجلترا واليونان وهولندا وايطاليا والبرتغال وروسيا والسويد واسبانيا والنرويج .

وطبقا لنصوص تلك الاتفاقيات اختصت المحاكم المختلطة بالفصل في المنازعات المدنية بين المصريين والاجانب وبين الاجانب الذين ليسوا من جنسية واحدة ، وبالفصل في المنازعات العقارية اذا كان احد الطرفين من الاجانب ولو كان الطرفان من جنسية واحدة ، اما الجنح والجنايات التي تقع من الاجانب فلا تختص بالحكم فيها بل بقيت من اختصاص المحاكم القنصلية(5) .

ومع ان هذه المحاكم قد قللت نسبيا من الفوضى القضائية التي كانت سائدة وقائمة على العرف والتقليد ، الا انها من جانب اخر قد قعدت وقننت كثيرا من تلك الاعراف ، مما جعلها ذات اثر فعال على مصالح البرجوازية المصرية ، وقد كان قضاتها في الاغلب الاعم من الاجانب ، بل ان قانونها قد نص على الا يكون التشريع الذي يسري على الاجانب نافذا الا بعد موافقة الدول صاحبة الامتيازات . واضافة الى هذا فان تلك المحاكم كانت راء احكام البيوع الجبرية الكثيرة ، التي كانت تصدر بحق المصريين وتنتزع منهم ملكياتهم العقارية وفاء للديون التي كانوا يقترضونها من الاجانب بفوائد ربوية مرتفعة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويمكن القول بان الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة ، كانت مجرد مظهر لواقع سيطرة كل الاحتكارات الدولية على السوق المصرية ، وتبعية تلك السوق لها ، اذ لم تكن تلك المؤسسات سوى تعبير عن مصالح للراسماليات الاوربية تحرص عليها وتسعى لتوسيعها . وهو ما كان حجر الزاوية فيه مسالة الدين المصري العام ، الذي يعود الى عهد « **اسماعيل** » والذي كان يحكمه قانون التصفية الذي صدر بعد عزل « **اسماعيل** » وتولية ابنه الخديوي « **توفيق** » .

وكانت القروض التي اقترضتها مصر في عهد « **اسماعيل** » تنقسم الى قسمين ، كان الاول بضمان ايراد الدائرة السنية ، أي املاك « **اسماعيل** » الخاصة ، والثاني بضمان ايرادات الدولة ، وعندما تفاقمت مشكلة الديون سعى حملة السندات الى تخليق مؤسسات تحمي حقوقهم المالية ، وهكذا انشيء « صندوق الدين » في عام 1876 ، وتولت لجنة من الاجانب الاشراف على ادارته ، تسلم الايراد المخصص لسداد اقساطه بعد ان التزمت مصر بالا تتخذ اي اجراء لتخفيض الموارد المحددة لتسديد الدين الا بعد موافقة لجنة الصندوق .

وتبع ذلك توحيد الدين المصري بناء على مشورة بعثة « **كييف** » الانجليزية فاصبح دينا موحدا قدره 91 مليون جنيه بفائدة موحدة 7٪ لمدة 65 سنة ، وانشاء مجلس للمراقبة المالية يختص بالتفتيش على جميع الايرادات ومراجعة حسابات الحكومة .

وبصدور قانون التصفية (1880) في بداية عهد الخديوي « **محمد توفيق** » ، انتقل موضوع الديون انتقالة كيفية هامة ، اذ تضمن ان تحل الدول الاوربية محل الدائنين من رعاياها ، وان يكون لتلك الدول الحق في مفاوضة الحكومة المصرية في كل ما يتعلق بالتسويات المقبلة وبهذا تحولت ديون مصر من ديون لبعض الافراد والبيوتات المالية الاجنبية الى ديون لعدد من الدول الاجنبية وهو ما اعطى تلك الدول حق ان تتدخل في سياسة مصر المالية بشكل اكثر وضوحا . وقد تبع هذا توقيع الاتفاق الودي متضمنا الاعتراف بان الادارة الانجليزية في مصر مكلفة بالعمل على تسديد الديون للدول الاجنبية .

وفي ظل الاوضاع التي تخلقت لحماية اصحاب القروض ، ازداد اندفاع الراسماليات الاوربية لتصدير راس المال المصري الى مصر ، اذ شجع شره « **الخديو اسماعيل** » للاقتراض ، عددا من البيوت المالية الانجليزية والاوربية على فتح فروع لها في مصر ، لكي تكون قريبة من حكومتها ، فتسد حاجتها الى الاقتراض ، حتى ان البنك المصري الانجليزي انشأ فرعا في مصر براسمال قدره مليون جنيه ، وبعد سنة واحدة قدم قرضا لاسماعيل ، قدره ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه . وتبع هذا انشاء البنك العثماني الامبراطوري (1867) واقترض « **اسماعيل** » منه في نفس سنة انشائه مليونين من الجنيهات ثم توالى انشاء بنوك : الاسكندرية التجاري والبنك الفرنسي المصري والكريدي ليونيه ... الخ

وبتوقف الحكومة المصرية عن الاقتراض ، تحولت تلك البنوك الى مؤسسات مصرفية عادية ، ومارست ـ مع غيرها ـ نشاطا لا يساهم في تطوير الاقتصاد المصري او تنميته ، اذ لم تتعد مشروعات تجميع الاموال كالبنوك واجهزة الرهن وشركات التامين واستغلال المرافق العامة التي تدار على اسس احتكارية كالمياه والنور والترام واستصلاح الاراضي وشركات التجارة الخارجية(6) .

وارتبطت خطة تلك المؤسسات بالاحتكارات الاوربية ، في سعيها لاستنزاف فائض قيمة العمل المصري عن طريق تصدير راس المال والسلع المصنعة الى السوق المصرية ، ونزح المواد الخام منها . ومن هنا كان اهتمام سلطة الاحتلال ، والمشروعات الاستثمارية الاوربية بعمليات الري والصرف التي تمهد لزيادة الارض المزروعة قطنا .

وابان الحرب العالمية الاولى عانت البرجوازية المصرية الزراعية والتجارية والحرفية من سيطرة الاحتكارات الاوربية على سوقها القومية ومن تبعيتها لتلك الاحتكارات التي خنقت امكانيات تطورها ، ونافستها منافسة غير متكافئة . ومن هنا كان نزوعها للتمرد عليها ـ بعد انتهاء الحرب ـ حتمية تاريخية لا مفر منها .

وكان طبيعيا ان تتأثر مصر بنشوب الحرب العالمية الاولى باعتبارها عضوا في مجتمع دولي ترفرف عليه اعلام السيطرة الاقتصادية والسياسية للامبريالية العالمية . ان تعدد جبهات القتال وطول الحرب نسبيا وطابعها الدولي اثر في اقتصاديات العالم كله . لقد احدثت الحرب ارتباكا شاملا في وسائل النقل والمواصلات ، ادى الى عرقلة حركة التجارة الدولية ، وتحولت مئات المصانع التي كانت تنتج السلع الاستهلاكية الى وحدات للانتاج الحربي ومستلزماته ، فضلا عما سببته المعارك الحربية من تدمير للموارد الاقتصادية والبشرية . ومن هنا تاثرت كل شعوب العالم بالحرب بدرجات متفاوتة تتناسب مع دورها في المعارك الحربية من ناحية ومدى التطور الاقتصادي الذي وصلت اليه من الناحية الاخرى .

وكان من المحتم ان تتحمل مصر من اعباء الحرب ما لم تتحمله غيرها من البلاد غير المقاتلة ، بسبب وضعيتها الدولية في تلك الفترة باعتبارها احدى المستعمرات البريطانية ، فعلى امتداد السنوات الثلاثين التي قضتها مصر كمستعمرة ـ من الاحتلال حتى نشوب الحرب ـ تحكمت سياسة « **كرومر** » ثم « **غورست** » ثم اخيرا « **كتشنر** » في تطويع الاقتصاد المصري لكي يصبح اقتصاد المستعمرة ، وهذا يعني باختصار ان تكون مصر سوقا لاستنزاف قوة العمل المصرية ـ في شكل مواد زراعية ـ لصالح الراسمالية الاوربية التي كانت تصدر الى مصر قوة عمل شعوبها في شكل سلع مصنعة وراس مال مصرفي . ولعل هذا ما جعل السير « **ملن شيتهام** » القائم باعمال المعتمد البريطاني ، يصف سنوات الاحتلال بأنها « سنوات الاصلاح الثلاثين الماضية » . لقد اتت تلك السنوات أكلها فعلا اثناء الحرب ، فقد كان الاقتصاد المصري قد تم تطويعه تماما لكي يصبح صالحا للاستنزاف باقل جهد ممكن . وكان الشعب المصري بعد تصفية الجيش الذي كونه عرابي ، وبعد ضرب حركته الوطنية وحرمانه من كل الحقوق الديمقراطية ، في وضع تتمكن معه بريطانيا من تجويعه لتحقيق مزيد من سيطرة احتكاراتها على شعوب المستعمرات .

ومن الطبيعي ـ واخلاقيات الاستعمار هي ما نعرف ـ ان تؤكد بريطانيا في عدة وعود رسمية عند اعلان الحرب انها تحارب لغرضين هما الدفاع من أجل حقوق مصر وحريتها التي كسبها «**محمدعلي**» اصلا في ميدان القتال ، واستمرار هذا القطر على التمتع بالسلم والرخاء الذين تمتع بهما مدة الاحتلال البريطاني في ثلاثين سنة « ولهذا فانها » قد اخذت على عاتقها جميع اعباء هذه الحرب بدون ان تطلب من الشعب المصري اية مساعدة ، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الاهالي وتطلب اليهم الامتناع عن اي عمل من شانه عرقلة حركات جيوشها الحربية او اداء اية مساعدة لاعدائها « وقد ظلت بريطانيا بعد انتهاء الحرب تروج بالحاح لفكرة ان مصر لم تتحمل اي شيء من اعبائها حتى لقد افتتح السير « ونجت »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ المندوب السامي البريطاني ـ حديثه مع الزعماء الثلاثة في مقابلة 13 نوفمبر 1918 المعروفة بقوله « ان المصريين هم اقل الامم تضررا وتألما من الحرب ، وانهم مع ذلك استفادوا منها اموالا طائلة وان عليهم ان يشكروا دولة بريطانيا العظمى التي كانت سببا في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم ، والحليف المباشر ـ في تقرير هذه الاكذوبة ـ هو البنك الاهلي المصري الذي اصر على ان يؤكد « ان الرخاء قد ازداد تدريجيا حتى بلغ مستوى لم تعهده البلاد قبل الحرب »(7) . ان اكذوبة « **ونجت** » التي رددها بعد ذلك « **ملنر** » و « **كرزون** » تحتاج الى دراسة حقيقة هذا الرخاء المزيف .

كانت السياسة السائدة طوال « سنوات الاصلاح الثلاثين » السابقة على الحرب الاولى هي ابتزاز اقصى ربح ممكن من قوة العمل المصرية . وعلى الرغم من ان الهدف المعلن لذلك كان اصلاح الادارة المصرية لضمان سداد الديون التي اقترضها اسماعيل من الدول الاوربية ـ فان السياسة « **الكرومرية** » قد اتجهت الى تحويل مصر الى سوق لتصدير المواد الخام واستيراد السلع المصنعة ورأس المال من والى محاولة انفراد بريطانيا بمركز مخصوص في مصر يحقق لاحتكاراتها اوباحا ازيد من ارباح الاحتكارات الاوربية الاخرى من ناحية ثانية .

وتطبيقا لتلك السياسة تحولت ميزانية مصر بكل مواردها الى ميزانية « تسديد ديون » حتى ان كل الفائدة على الدين العام وليس اصل الدين نفسه كانت تمثل نسبة مئوية تبلغ 32٪ من ايرادات الدولة في الفترة من (1880 ـ 1909) و29٪ من قيمة الصادرات في نفس الفترة .

ولكي يزداد ايراد مصر وتستطيع تسديد الديون كان لا بد من تحويلها الى مزرعة قطنية تكون في خدمة **مصانع « لانكشير »** التي كان من المحتم ان تجد لها مصدرا للمواد الخام لا يضعها تحت رحمة القطن الامريكي ويكون ارخص منه فضلا عن مميزاته الطبيعية . ولهذا فقد ارتفعت كمية انتاج القطن المصري من 2ر792ر000 قنطارا في عام 1885 الى 7ر666ر000 قنطارا عام 1914 ، وذلك على حساب المحاصيل المصرية الاخرى مثل القمح والذرة التي كانت مصر تحتاجها لغذاء شعبها. واحتفظ القطن لنفسه بالمركز الاول في صادرات مصر . وازداد مركزه متانة بارتفاع نسبة الصادرات منه من 36٪ في عام 1836 الى 81٪ في سنة 1889 ، ثم الى 93٪ عام 1914 . ان صورة مصر كسوق لتصدير المواد الخام تتضح اذا ما راجعنا ارقام الصادرات المصرية . لقد ارتفعت هذه الصادرات في نهاية « سني الاصلاح » الى 339٪ عما كانت عليه في بدايتها(8) . ومن الطبيعي ان تكون الدول الاوربية هي صاحبة النصيب الاوفى منها حتى لقد بلغ نصيبها في سنة 1910 حوالي 89٪ من جملة الصادرات المصرية، كما اختصت بريطانيا وحدها من هذه الصادرات 50٪ من جملتها و55٪ من مجموع المصدر الى اوربا(9) .

وتحولت مصر الى سوق لاستيراد السلع المصدرة من اوربا، فمصر التي تخصصت في الانتاج الزراعي ـ والقطن بالذات ـ قد تدمرت صناعاتها الوطنية تماما . حتى انها لم تكن تحتفظ لنفسها من القطن الذي تزرعه الا بعدد ضئيل من القناطير ، وعلى سبيل المثال فقد احتفظت بـ 51 قنطارا فقط من محصول 1884 (حوالي 2ر5 مليون قنطار) وبـ 41 قنطارا من محصول 1902 (حوالي 5 ملايين قنطار) . ان تدمير الصناعة الوطنية كان نتيجة طبيعية لاجبار مصر على اتباع سياسة الباب المفتوح منذ هزمت الراسماليات الاوربية « **محمد علي** » ، اذ حرمت ان تزيد الرسوم الجمركية ـ على السلع الواردة من آوربا ـ كما اجبرت على ان تفرض رسوم انتاج توازي نفس النسبة على اي سلع تصنع في مصر مما يساوي بين اسعار السلع المصنعة محليا في السوق الوطني رغم الفارق الشديد بينهما في الجودة ، وقد ادى هذا كله الى ايقاف اي محاولة لانشاء الصناعة الوطنية واحبط طموح البرجوازيين المصريين للاستثمار في مجالها البكر. ومن هنا كانت مصر تعتمد اعتمادا كليا على السلع المصنعة في اوربا ، فارتفع مجموع الواردات المصرية في سنة 1913 الى 340٪ عما كان عليه في عام 1882 .

وتلك الزيادة في الواردات توضح الى اي مدى فتحت بريطانيا مصر لمنتجات الاحتكارات الاوربية ، حتى أن مصر ـ مزرعة القطن ـ كانت تستورد المنتجات القطنية فارتفع الوارد منها من 2ر600ر000 جنيه في عام 1882 الى 7 ملايين جنيه في نهاية « سني الاصلاح » وفي سنة 1913، استوردت مصر سلعا تامة الصنع قيمتها 13ر937ر000 جنيه ، ومواد شبه مصنوعة 3ر885ر258 جنيه ومواد غذائية 2ر653ر442 واخيرا 1ر404ر909 للمواد الاولية اغلبها ادوات بناء . وكان من الطبيعي ايضا ان تكون الدول الاوربية هي صاحبة النصيب الاوفى من هذه الواردات حتى لقد بلغ نصيبها 85٪ من كل واردات مصر لعام 1910 ، واختصت بريطانيا وحدها بمركز خاص اذ شغلت 36٪ من جملة الواردات و 40٪ من واردات الدول الاوربية .

ولم يكن اتجاه الاحتكارات الاوربية لزيادة تصدير السلع المصنعة الى مصر ناتجا فحسب من رغبتها في اتاحة الفرصة لفائض انتاجها السلعي للتوزيع ، اذ كان هذا هدفا ثانويا بالنسبة للهدف الرئيسي وهو تصدير الراسمال المالي . ولكنها كانت تحاول مع زيادة صادراتها الى مصر ان توازن ميزانها التجاري حتى لا تضطر الى موازنته بالذهب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكما تحولت مصر الى سوق يصدر المواد الخام ويستورد السلع المصنعة ، فقد تحولت ايضا الى سوق يصدر اليه رأس المال الاوربي . فارتفع رأس المال الاجنبي العامل في مصر الى 92ر039ر000 جنيه في سنة 1914 اي بنسبة تصل الى 91٪ من جملة رؤوس الاموال المستثمرة تقاسمتها انجلترا وفرنسا وبلجيكا وعدد اخر من الدول الاوربية لم يتعد نصيبها 1ر228ر000 جنيه ، ليس هذا فقط بل ان نسبة الاستثمارات المملوكة خارج البلاد كانت تصل الى حوالي 71٪ يضاف اليها 91٪ من الدين المصري العام البالغ 94 مليون جنيه في عام 1914 بخلاف الاستثمارات الفردية الاخرى وهو ما يعني ان 81٪ من رأس المال المستثمر في مصر تلك الفترة كان مملوكا خارج البلاد . واختار الراسمال الوافد اكثر اشكال الاستغلال تطفلا على قوة العمل المصرية ، فاتجه اكثر من نصفه ـ 54ر569ر000 جنيه ـ الى مجال الرهن العقاري حيث يقدم سلفا للمزارعين بضمان عقاراتهم ومحاصيلهم ، واستطاع بسعر الفائدة المرتفع الذي كان يفرضه ، وبالتقلبات الاقتصادية ثم باحكام المحاكم المختلطة ان ينتزع ملكية الالوف من الاراضي الزراعية حتى ان البنك العقاري المصري قد استطاع ان ينزع ملكية اراض قدرها 1ر100ر000 فدان ما بين 1911 و1913 . كذلك اتجهت رؤوس الاموال الاجنبية ايضا الى الشركات العقارية والزراعية 12ر332ر000 جنيه حيث قامت باستصلاح عشرات الالاف من الافدنة ، بتسخير العمال الزراعيين باجور تافهة ، ثم استغلال هذه الاراضي بعد ذلك بالبيع او الايجار باعلى اسعار الفائدة . وتوزع راس المال بعد ذلك في انشطة متفرقة ، فعمل 13ر405ر000 جنيه في التجارة والنقل والصناعة اتجه

اغلبها الى عمليات تجارة القطن ، واتجهت 6 ملايين جنيه الى البنوك وبيوت المال ، و5ر733ر000 الى النقل (عمليات النقل الداخلي كالترام والسكك الحديدية واتوبيسات الاقاليم) . وقد بلغ نصيب فرنسا من هذه الاموال 46ر267ر000 جنيه ، تليها انجلترا 30ر250ر000 ثم بلجيكا 14ر294ر000 ـ وقد تركزت الاموال الفرنسية في الرهن العقاري، واتجه اغلب الاموال البريطانية الى البنوك والمؤسسات المصرفية مع توازن في توزيعه بين مختلف الانشطة ، بينما اتجهت رؤوس الاموال البلجيكية الى الشركات الزراعية والعقارية(10) .

وحول عملية الاستنزاف هذه دار الصراع بين الدول الاوربية حول توزيع الاسلاب بطريقة تتناسب مع قوة واطماع احتكارات كل منها . وقد تزايد هذا الصراع في نهاية القرن الماضي ، حتى بدأ يحل باتفاقيات ثنائية بين بريطانيا ومنافساتها ، خاصة بعد انقسام المعسكر الاستعماري نفسه في عشية الحرب الى معسكرين متناقضين ، غير ان المسالة التي كانت تزعج السيطرة البريطانية كانت الامتيازات الاجنبية التي تحول دون انفراد بريطانيا بادارة مصر بشكل كامل .

ومع ان انجلترا باحتلالها مصر في عام 1882 ، كانت قد انفردت بها تماما بعيدا عن اطماع الجبهة الاستعمارية التي كانت تنافسها الا انها كانت حريصة على ان تخلق حالة من الاتفاق بينها وبين الجبهة الامبريالية دون الدخول في نزاع مباشر معها . ورغم عدم ارتياحها للامتيازات الاجنبية فانها لم تلجأ الى الغائها حتى لا تثير عليها نظيراتها الاوربيات .

وبتصفية بعض ملامح النزاع الاستعماري بالاتفاق الودي (1904) هاجم المعتمدون البريطانيون كل الامتيازات الاجنبية هجوما صريحا . وطالبوا بحلول انجلترا محل الدول في امتيازاتها وانشاء مجلس تشريعي دولي « يتم بانتخاب هيئة مختلطة تضم عناصر اجنبية ومصرية وتختار الحكومة المصرية بعضها كما يختار اصحاب المصالح والامتيازات بعضها الاخر وتقوم هذه الهيئة باختصاصات اي مجلس تشريعي في مصر .

وهي فكرة عارضها « **سعد زغلول** » علنا في ديسمبر 1918 ، عندما وردت في محاضرة القاها المستشار القضائي للحكومة المصرية ـ وكان انجليزيا ـ لانها تعني حرمان الشعب المصري حقه في التشريع لنفسه وانشاء مجلس تشريعي دولي ، استنادا الى الحماية . وقد عبر « **سعد** » بذلك عن ضيق البرجوازية المصرية بـ بالامتيازات الاجنبية وعدم قبولها بفكرة تنازل الدول عنها لانجلترا .

على ان هذا التناقض بين الاحتكارات الاوربية حول نصيب كل منها في تلك الامتيازات ، لم يكن سوى وجه واحد لذلك التناقض المعقد ، اذ كان هناك صراع بينها حول السيطرة على جهاز الدولة في مصر ، عن طريق شغل المناصب القيادية فيها بمواطنيها، كما ان البرجوازية المصرية، كانت تطمح هي الاخرى لتمصير هذا الجهاز ومن هنا اخذت مسالة الامتيازات وضعيتها كمسالة محورية في المفاوضات بين البرجوازية المصرية والاحتكارات البريطانية .

وكان « **اللورد كرومر** » اول معتمدي الاحتلال البريطاني في مصر ، يفخر دائما في تقاريره السنوية بالجهود التي بذلها من اجل تحسين الادارة المصرية ، والتي ادت ـ في سنة 1920 ـ الى ما اعترف به **اللورد** « **ملنر** » في تقريره وهو سيطرة الاجانب سيطرة كاملة على جهاز الدولة في مصر .

وقد ذكر « **ملنر** » ان الوظائف الكبيرة في الحكومة ـ وهي الوظائف المشغولة بعقود ـ يشغل المصريون 86٪ منها نظير 71٪ من الاجور بينما يشغل البريطانيون 6٪ نظير 19٪ من الاجور ويشغل الاجانب الاخرون 8٪ من الوظائف الكبيرة نظير 10٪ من الاجور . وواضح من هذه النسب ان البريطانيين عموما كانوا يمثلون سيطرة على الوظائف الكبيرة ويتقاضون اجورا خيالية تصل الى اربعة اضعاف اجور المصريين وحوالي ضعفين ونصف من اجور الاجانب الاخرين . وان الاجانب عموما بما فيهم البريطانيون كانوا يتقاضون اجورا تصل الى خمسة اضعاف اجور المصريين .

واشار « **ملنر** » في تقريره الى تفوق المصريين في الوظائف الصغيرة وقلة نسبتهم كلما زاد مرتب الوظائف اي كلما زاد نفوذ الوظيفة ومكانتها في الجهاز الاداري .

وتبدو السيطرة الاجنبية واضحة من النسب التي اوردها « **ملنر** » في تقريره ، والتي تقارن تطور العنصرين المصري والاجنبي في الجهاز الحكومي « فقد زاد العنصر المصري في مجموع الوظائف من 45ر4٪ سنة 1905 الى 50ر4٪ سنة 1920 . ولكن عدده في الوظائف الكبيرة نقص من 27ر8٪ سنة 1905 الى 23ر1٪ سنة 1920 وزاد نصيب البريطانيين في تلك الوظائف عينها من 42ر2٪ الى 59ر3٪ من المجموع كله .

وتكذب مذكرات « **الدكتور محمد حسين هيكل** » ما ذهب اليه « **ملنر** » في تقريره من ان هناك وظائف فنية كثيرة تحتاج الى معارف فنية خصوصية من العنصر الاجنبي وقد روى « **الدكتور محمد حسين هيكل** » انه قابل في قريته احد مدرسيه في مدرسة الحقوق اثناء الاجازة الصيفية وكان يقوم بعمل معاون زراعة وفسر هذا بان السلطة البريطانية في مصر كانت تعطي فرصة التكسب لرعاياها ، حتى ولو بممارسة اعمال لا يفهمونها .

وقد ادت « سنوات الاصلاح الثلاثون » الى مزيد من التغيرات في تركيب المجتمع المصري ، كان بعضها مقصودا في الخطة « الكرومرية » وجاء بعضها الاخر نتيجة لتطور المجتمع المصري ، ذلك التطور الذي لم يكن « **كرومر** » او سواه يستطيع ان يتحكم في قوانينه الطبيعية . فقد ادى استقرار الملكية الزراعية ومشروعات الري التي نفذها الاستعمار الى زيادة ثروة كبار الملاك ، والى اتساع المساحة المنزرعة والمساحة المحصولية مع بروز ظاهرة اختلال توزيعها بشكل واضح . وكان هدف الاستعمار ان يرسي دعائم كبار ملاك الاراضي كطبقة مساعدة له تقوم بدور الوسيط لاستنزاف قوة العمل المصرية نظير جزء من الارباح . مع اتجاه لارساء قواعد طبقة من صغار الملاك ومتوسطيهم تعمل على موازنة الوضع الطبقي في المجتمع بحيث يمكن مواجهة كبار الملاك بها اذا فكروا في الحصول على جزء اكبر مما يسمح به نظير وساطتهم .

كانت مساحة الارض الزراعية في عام **1914** حوالي **5ر460ر000** فدان موزعة على 1ر650ر000 مالك بينما كان عدد الذين يعملون في الزراعة عموما 4ر440ر000 ، اي ان هناك حوالي ثلاثة ملايين يعملون في الزراعة ولا يحوزون اي قطعة من الارض (مستأجرون وعمال زراعة) وتدل احصائية 1907 على ان 40ر6٪ من مجموع المشتغلين بالزراعة مستأجرون و 36ر3٪ منهم عمال زراعيون ـ ولا شك ان عدم توفر احصائيات دقيقة عن توزيع الملكية المستأجرة او عدد عمال الزراعة، يشكل نقصا هاما ،خاصة وان الاستئجار هو شكل الاستغلال الاساسي في الريف المصري فضلا عن اشكال الزراعة الاخرى مثل المزارعة والمشاركة . . . الخ. على ان ارقام توزيع الملكية تعطي دلالة هامة ـ رغم نقصها ـ وتؤشر تلك الارقام الى ان متوسط الملكية الزراعية عموما في مصر اقل من خمسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

افدنة فاذا انتبهنا الى مراكز تجمع الملكية لاحظنا ان الذين يملكون اقل من خمسة افدنة نسبتهم حوالي 7ر90٪ من عدد الملاك يملكون 1ر26٪ من مساحة الارض ، يليهم مالكو المساحة التي تتراوح بين خمسة افدنة وعشرين فدانا ويمثلون 3ر7٪ من الملاك يملكون 19٪ من المساحة المنزرعة . ثم مالكو ما بين 20 و50 فدانا ولا يزيدون عن 2ر1٪ من الملاك يملكون 11٪ من الارض اما الذين يملكون اكثر من 50 فدانا فيبلغ عددهم 8٪ من الملاك يملكون 9ر43٪ من الارض . وهذا التوزيع يكشف عن وضع اجتماعي هرمي فكلما ارتفعت نسبة الملكية قلت نسبة الملاك وبالتالي زاد ـ رغم عدم توفر بيانات احصائية عن الحيازات الفعلية ـ المتوسط العام لملكية المالك ، فبينما نجد ان الفئة الاولى ـ فقراء الفلاحين ـ الذين يملكون اقل من خمسة افدنة فئة كبيرة العدد جدا ، بحيث يكون متوسط ما يملكه المالك في تلك الفئة حوالي الفدان، يرتفع هذا في الملكيات المتوسطة الى ثمانية افدنة تقريبا ثم يرتفع في الفئة التالية (اغنياء الفلاحين من 20 ـ 50 فدان) الى متوسط حوالي 32 فدانا ، ثم يصل الى 166 فدانا للمالك الواحد من كبار ملاك الاراضي (اكثر من خمسين فدانا) .

على ان الصورة لا يمكن ان تكتمل اذا لم ننتبه لظاهرة خطيرة تلك هي وجود عدد من الملاك الاجانب يصل الى 6529 مالكا يملكون 819ر573 فدانا ، اي ان حوالي 11٪ من الاراضي الزراعية كانت تحت سيطرة الاجانب . مع ارتفاع في النسبة العامة لمتوسط ملكياتهم . حتى ان كبار ملاك الاراضي الاجانب يصل متوسط ما يملكه الواحد منهم 353 فدانا ويملكون وحدهم 10٪ من جملة الاراضي الزراعية في مصر.

وكان من الطبيعي ان تتعرض مزرعة القطن لكارثة بمجرد نشوب الحرب ، فالقطن سلعة يتحكم فيها اصلا السوق العالمي ، وقد زاد من المشكلة ان الحرب قد نشبت بعد جني محصول 1914 . وهكذا بدأت الحرب بكارثة قطنية . على ان الكارثة استمرت طوال سنوات الحرب نتيجة لسياسة انجلترا القطنية التي سارت في اتجاهين واضحين . الاول الاستفادة من تدهور سعر القطن ـ نتيجة لظروف الحرب ـ لاتاحة الفرصة للاحتكارات الاجنبية لشرائه بابخس الاثمان ، والثاني الاستفادة من ارتفاع سعر القطن ـ نتيجة لدخوله في صناعات حربية ـ لالتهام اكبر نسبة من هذا الارتفاع لحساب الاحتكارات الاوروبية وخاصة بريطانيا .

فقد بدأت الحرب بعد جني القطن وبيعه ، وكان من الضروري مع اخطارها ان تتدهور الاسعار في البورصة ، فانخفض سعر القنطار الى 10 ريالات ، وكان من الممكن أن يستمر الهبوط لولا ان اجتمعت لجنة البورصة وقررت تصفية **الكنتراتات** بسعر 15 ريالا . ولكن المستشار المالي البريطاني الغى الامر بدعوى ان هذا قد يسبب خسائر للمصدرين ، وان تصفية الكنتراتات في بورصة الاسكندرية يضع المصدرين تحت رحمة بورصة ليفربول . وتدخل ايضا ليحول بين الحكومة المصرية وبين شراء مليوني قنطار بسعر 15 ريالا وتخزينها حتى تتضح الامور . ولم يجد حلا عبقريا سوى السماح للبنك الاهلي باصدار بنكنوت بلا غطاء ذهبي يشترى بمقتضاه القطن .

ويبدو ان الاحتكارات الاوروبية ـ وما اصطلح على تسميتهم بالاجانب المحليين ـ كانوا يعملون في تناسق كامل ، فقد اسرعت البنوك العقارية بمطالبة الفلاحين بديونها ، ورفضت كل الحلول التي عرضت عليها لتأجيل الديون لفترة ، وبهذا حرم المنتجون المصريون من فرصة تخزين اقطانهم حتى تستقر الاحوال وأسرعوا يبيعونها مما زاد في تدهور الاسعار ، ودخلت الحكومة هي الاخرى في المعمعة فطالبت بالضرائب. وكان امام المزارعين احد الحلين : اما ان يبيعوا اقطانهم باي سعر لتسديد الديون والضرائب ، او تنتزع ملكية اراضيهم . ولم يقتصر الامر على بيع الاقطان بل وصل الى بيع الحلي والذهب والدجاج. حتى لاحظت الحكومة ان سعر الذهب يتدهور فأعلنت انها قررت تعيين « جاشنجية » لضمان بيع الحلي الذهبية بأوزانها الكاملة وبثمنها الحقيقي وتلقى المقطم رسالة من الفيوم جاء فيها ان الفلاحين في بعض المراكز اضطروا الى بيع القنطار من القطن بستين قرشا (ثلاث ريالات) ليتسنى لهم دفع الضريبة ، وحدث في مركز اخر ان الدجاجة التي لا يقل ثمنها عن ستة قروش بيعت بقرشين . وقد بلغ محصول القطن في عام 1914 سبعة ملايين قنطار صدرت بمبلغ 000ر500ر16 جنيه في حين أن محصول السنة السابقة وهو تقريبا مساو له قد بيع بمبلغ 000ر145ر29 جنيه . لقد ادى كل هذا الاضطراب الى ان استطاع الغزالون الانجليز الحصول على القطن المصري بثمن بخس وصل الى حوالي ثمانية ريالات او تسعة وهو اقل من تكلفة انتاجه(11) .

وتدخلت الحكومة فاصدرت قرارا بتحديد المساحة المزروعة قطنا بما لا يزيد عن ثلث الزمام ، وكان الغرض من هذا التحديد تحويل الاراضي الى زراعة الحبوب ـ حتى تكفي احتياجات الجيوش المحاربة ـ وتقليل الانتاج القطني حتى يرتفع سعره ، وقد ارتفع السعر فعلا في سنتي 1915 و 1916 ولم يكن هذا راجعا الى تحديد المساحة ـ لان ما يتحكم اساسا في سعر القطن هو الانتاج العالمي ـ ولكنه كان يرجع الى الاحتياج اليه في بعض الصناعات الحربية . وكان لا بد ان تستفيد بريطانيا من هذا الارتفاع في السعر ، فتدخلت في سوق القطن للاستيلاء عليه في سنتي 1917 و 1918 . فاحتكرت بذرة القطن جميعها من محصول 1917 بسعر اقل من سعرها الحقيقي ثم الفت اوامر تصدير القطن وحصرتها في عدد محدود من بيوت التصدير الاجنبية مما مهد لها وسيلة الربح على حساب المنتج . وفي موسم 1918 احتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن كله، وحددت سعره بـ 42 ريالا للقنطار وكان يسلم فعلا من اصحاب الاقطان بأثنين وثلاثين ريالا . وبررت الحكومة البريطانية ذلك بأن هناك ضرورة الاحتفاظ بما للامبراطورية البريطانية وما للحلفاء من المواد الطبيعية سدا لحاجتهم الضرورية فضلا عن ان ارتفاع اسعار النقل ـ بسبب ظروف الحرب ـ بما فيها تكاليف التامين تدعو الى وجود فرق بين سعر الشراء من المنتج والتسليم للبائع . ورأى منتجو القطن وقتذاك ان هذه العملية تتضمن سرقة حقيقية ، فان الثمن الذي كان سائدا في بورصة ليفربول هو بين 50 و60 ريالا للقنطار ، اي ان المنتج المصري كان يبيع قطنه بخسارة تبلغ النصف وان اسعار النقل لم تزد زيادة « تتجاوز قط تسعة ريالات في القنطار مع ان الفرق بين سعري انكلترا ومصر بلغ الثلاثين من الريالات » . وكانت هناك عملية سرقة تجري في لجنة رقابة القطن « وهي لجنة اجنبية كانت تشرف على تصدير المحصول الذي احتكرته بريطانيا عن طريق تفويضها 14 محلا اجنبيا ، وكانت هذه المحلات تتولى فحص عينات القطن وتحديد رتبه وبالتالي تحديد سعره ، ولما كان الفرق في سعر القنطار ـ بين رتبتين متتاليتين ـ يبلغ احيانا خمسة ريالات في القنطار ، فقد عمدت هذه المحلات ـ دون رقابة ـ الى غش المنتج المصري وغبنه عمدا في رتبة او اكثر لكي تحقق لنفسها ربح الفرق بين السعرين بالاضافة الى العمولة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي كانت تحصل عليها من المنتج .

وقد حققت هذه العملية لبريطانيا ربحا ضخما سواء في حالة هبوط اسعار القطن او في حالة ارتفاع سعره ، وقد اعترف مستر « **تشرشل** » في البرلمان الانجليزي « ان الحكومة الانجليزية ربحت من عمليات احتكار القطن المصري في اثناء الحرب ربحا كبيرا وان من نصيبها في الربح وهبت مبلغ مليون جنيه الى جمعية تشجيع وانماء زراعة القطن في المستعمرات البريطانية »(12) . فاذا كان مليون جنيها مجرد جزء من هذه الارباح فكم تبلغ قيمتها اذن ؟. تقول مدام «**جوليت ادم**» في كتابها « انجلترا في مصر » ان « اثمان القطن قد سعرت تسعيرا بخسا ، وقد قرر الكثيرون من الماليين الاختصاصيين وعلى الاخص الامريكان انه لو كانت مصر في حيدة ابان الحرب لربحت اكثر من عشرة مليارات من الفرنكات »(13) .

ان ارتفاع اسعار القطن هو النغمة التي ضربت عليها بريطانيا لكي تروج لاكذوبة الرخاء الذي تحقق في مصر اثناء الحرب الاولى . وبصرف النظر عن كل ما ذكرناه عن عملية النهب التي تعرض لها القطن المصري ، فان هناك نقطة لا بد ان نقف عندها قليلا ، هي : ذلك الجزء الذي ربحته مصر من اقطانها من الذي اخذه : ان توزيع الملكية الزراعية على النحو الذي شرحناه يكشف عن ان ما عرف بالاجانب المحليين من اصحاب رؤوس الاموال الاجنبية والمرابين وكبار مصدري القطن هم الذين استولوا على القسم الاكبر منه « بلغ ربح محل كارفر لتصدير الاقطان في سنة 1917 مبلغ 800ر000 جنيه (اي اكثر من البنك الاهلي) وربح محل خوريمي 800ر000 جنيه اي اكثر من البنك العقاري وربح المحلين يساول ربح 200ر000 فدان من اطيان الوجه البحري »(14) . اما الجزء الذي ربحه اصحاب الاراضي فمن الطبيعي ان يلتهمه كبار ملاك الاراضي واكثرهم اجانب كما قلنا . اما المنتج الصغير ، والمنتج الحقيقي وهو العامل الزراعي فلم يستفد من هذه العملية ولم يسبب له الرخاء المصطنع سوى ارتفاع هائل للاسعار عرضه لخطر الجوع .

كان لا بد ان يجوع الشعب ، فان الاستنزاف لم يقتصر على سرقة القطن ، ولكنه اتجه ايضا الى سرقة الجماهير الشعبية عن طريق اتباع سياسة مالية تؤدي الى التضخم مع كل ما يترتب عليه من تخفيض لقيمة النقد وارتفاع شامل في الاسعار مما يعرض الجماهير الشعبية وهي محدودة الدخل بطبيعتها الى حالة شبيهة بالجوع .

ففي الوقت الذي وقفت فيه الحكومة المصرية حائلا دون تصريف محصول القطن عام 1914 . لم تجد في نفسها القدرة على الوقوف امام البنك الاهلي عندما طلب منها ان يؤجل دفع قيمة اوراق البنكنوت بالذهب ، وبذلك اصبح لاوراق البنكنوت الصادرة عنه قيمة فعلية تساوي القيمة التي للنقود الذهبية المتداولة رسميا في القطر المصري، وبعد شهرين فقط طلب محافظ البنك الاهلي الأذن من الحكومة المصرية باستعمال الذهب المودع لدى بنك انجلترا في لندن كغطاء للاصدار « لتعذر نقل الذهب وتلافيا لاخطار النقل في ظروف الحرب » . وفي سنة 1916 اخطر البنك وزير المالية انه « نظرا لاستحالة الحصول عملا على الذهب في لندن فانه لن يتسنى الاستمرار في التوسع في اصدار البنكنوت لمواجهة حاجة البلاد من العملة على الاساس المنصوص عليه في نظام البنك بتغطية النصف ذهبا والنصف الاخر سندات ، ورد المستشار الانجليزي ـ « **ادوارد سيسل** » ـ بانه يرجو « الاستمرار في اصدار البنكنوت وفقا لمقتضيات الاحوال على ان يكون الاصدار مضمونا كله باذونات الخزينة البريطانية بدلا من الذهب . وتخلي الحكومة المصرية طرف البنك ومديريه من كل التبعات التي قد تنشأ من جراء تنفيذ هذا الطلب » . واوسل البنك يسأل مركزه الرئيسي في لندن فوافق مضيفا هذا التحفظ « تثبتوا مع ذلك من ان الاجراء الذي يقوم به المديرون لا يعتبر عملا اجراميا » . وبالطبع فقد كانت العملية باكملها عملية اجرامية . فقد اطلق يد البنك الاهلي في اصدار اوراق النقد المصري ليسهل لانجلترا الحصول على النقد اللازم لشراء محصول القطن والمحاصيل الزراعية دون ان تتنازل عن جزء من الذهب الذي في حوزتها ، فزادت قوتها الشرائية ، بتزايد الاوراق المتداولة في مصر من 8ر020ر000 جنيه عام 1914 الى 63ر951ر000 جنيه في نهاية الحرب . واحدث هذا تضخما هبط بقيمة النقد المصري ، فانخفضت القيمة الفعلية له ، وبهذه القيمة المنخفضة حصلت القوات البريطانية والاسترالية والهندية التي كانت تقيم في مصر اذ ذاك على سلع وخدمات بلغت قيمتها في فترة الحرب ـ بتقدير البنك الاهلي ـ ما يتراوح بين 80ر85 مليونا من الجنيهات . وقد ادى هذا التضخم الى ارتفاع نفقات المعيشة ارتفاعا باهظا ، فقد كان الرقم القياسي لاسعار الجملة في القاهرة مثلا في (الفترة بين يناير ويوليو 1914) = 100 ارتفع هذا الرقم الى 115 في سنة 1915 ، 152 في سنة 1916، 199 في سنة 1917 ثم 212 في سنة 1918 واخيرا 316 في اوائل 1920(15) . ويوضح الاستاذ «**عزيز خانكي**» العلاقة بين زيادة البنكنوت وزيادة الاسعار خلال الحرب فيقول في سنة 1915 زاد البنك الاهلي ورقه من 8 ملايين الى 11 مليونا من الجنيهات ، فزادت اثمان الحاجات 30٪ ولما زادها في سنة 1917 من 21 مليونا الى 30 مليونا زادت الاسعار 50٪ وها نحن في سنة 1919 والورق المتداول يزيد على 46 مليونا ، والاثمان تزيد اربعة اضعاف على ما كانت عليه في سنة 1913 فاين ثمانية ملايين في سنة 1915 من 46 مليونا في سنة 1919 »(16) .

ويضرب امثلة لاسعار الحبوب « ان اردب الفول يباع في الاسواق بسعر يتراوح بين 360 و400 قرشا بعد ان كان يباع من عدة سنوات بسعر يتراوح بين 70 و100 قرش » وثمن الشعير يتراوح بين 260 و280 قرشا . بعد ان كان سعره يتراوح فيما مضى من الزمان بين 60 و70 قرش وحمل تبن القمح ثمنه بين 160 و200 قرش بعد ان كان يباع في عهد الرخاء بخمسين قرشا وتبن الشعير يباع بين 120 و 150 قرشا للحمل بعد ان كان يباع في الزمن الغابر بسعر يتراوح بين 25 و 30 قرشا ، وتقاوى البرسيم التي كانت تباع بسعر 120 و 150 قرشا للاردب اصبحت تباع في الاسواق بسعر 900 و 1000 قرش للاردب ، والماشية التي كانت تكلف صاحبها خمسة قروش في اليوم اصبحت تكلفه من 18 الى 20 قرشا وبعد ان كان ثمنها 20 جنيها بلغ 60 جنيها مما رفع اسعار اللحوم عموما(17) .

لخص الاستاذ « **عزيز خانكي** » الموقف خلال سنوات الحرب بانه « هو الخراب بعينه ، سل سواد الناس يقولون لك بالاجماع ان ايامهم هذه قطعة من سني يوسف » . ورغم تغني « **اللورد ملنر** » في تقريره بالرخاء المصري خلال سني الحرب فقد اضطر الى الاعتراف بان « اسعار الحاجيات كالحنطة والثياب والوقود قد ثقلت وطأتها على الفقراء ولا سيما ان اجورهم لم تكن تكفي للنفقة التي يقتضيها غلاء المعيشة مع انهم كانوا يرون عددا من مواطنيهم ومن الاجانب غير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المحبوبين عندهم يجمعون الثروات الكبيرة ، فعائلة من اربعة انفس رجل وزوجته وطفلين لم تكن تستطيع في اوائل سنة 1919 الحصول على ما يكفيها من الطعام الا بثمن يفوق متوسط الاجرة كثيرا » . واضطر البنك الاهلي الى الاعتراف بصيغة التضعيف بأن » معظم الثروات الجديدة ذهبت الى جيوب ثراة القوم » .

يزيد من الضغط على الشعب الضرائب الحكومية ، فقد كانت مصر تعتمد على الضرائب والرسوم الجمركية لدفع نفقات ادارتها الحكومية ، فالفلاح الذي يملك خمسة افدنة في الوجه البحري يدفع ضريبة مقدارها 475 قرشا ، بينما كانت البيوت المالية الاجنبية وكبار التجار لا يدفعون مليما واحدا لعدم تقرير ضريبة على الدخل ، وأي مراجعة لاسمائهم تكشف عن جنسياتهم .

من تجار الاقطان : كارفر وخوريمي ومن تجار المانيفاتوره : صيدناوي وشيكوريل واورزدي باك . ومن تجار الدخان : ماتوسيان وملكونيان وجناكليس وديمترينو وصوصه . ومن تجار الاخشاب : ستاني وكرم . ومن تجار الورق : رستم وناكامولي وتجار الادوية مثل : دلمار وغناجه وتجار المسكرات والحلوى والماكولات مثل : جروبي وسولت وفلوران ويكر .

والبنوك التي كانت تسرق قوة العمل المصرية لم تكن تدفع مليما واحدا للضرائب : كالبنوك التي في شكل شركات مساهمة مثل البنك العقاري والانجلو اوروبا او العثماني غير الكريدي ليونيه والكرنتوار والفرنكو والكاسا . فضلا عن البنوك الخصوصية وهي كثيرة جدا : موصيري وقطاوي وسابريل وكوريل وعدس .

كما ان شركات الاحتكار الاجنبية التي كانت تدير المرافق العامة، لم تكن تدفع مليما واحدا من الضرائب .

ومع انخفاض الاجور بشكل عام حتى ان الحكومة حين قررت انصاف العمال الزراعيين برفع اجورهم بعد الحرب قررت ربط الاجور بين قرش يوميا للطفل وثلاثة للرجال(18) . فان الاسعار كانت تسابق الريح . وقد تعرض موظفو الحكومة لحالة فقر مدقع لثبات دخلهم مع هذا الارتفاع الجنوني في الاسعار . خاصة وان الموظفين الاجانب كانوا يحتلون عادة المراكز القيادية والاشرافية في المسلك الاداري ، بينما كان معظم الموظفين المصريين من صغار الكتبة والفراشين .

وكادت المسالة تصل الى حد المجاعة حين بدات السلطة العسكرية البريطانية تجمع الحبوب عن طريق المصادرة الاجبارية لتقديمها للجيش البريطاني ، فقد ارتفعت اسعارها جدا ، يقول « اللورد ملنر » « ان اسعار الحبوب في الاسواق كانت اعلى كثيرا من الاسعار التي تدفع لها حين المصادرة ، وقد فرض على كل مركزتقديم مقدار معين من الحبوب نيط جمعه بالموظفين المحليين ، فربحوا بذلك ارباحا كثيرة ، فأن العمد جمعوا مقادير اعظم مما طلب منهم جمعه ، وباعوا الباقي بأسعار السوق العالمية ، والاهالي الذين لم يكن عندهم حبوب « اضطروا ان يشتروا المطلوب منهم بأسعار السوق العالمية ويقدموه بأسعار المصادرة الواطئة » .

ولم تكتف السلطة العسكرية بمصادرة الحبوب بل استولت ايضا على الدواب « فلم تبق على جمل او حمار صالح للعمل الا واستولت عليه بأبخس الاثمان » . ويقول « **اللورد ملنر** » ان الفلاحين قد « تضايقوا كثيرا من اخذ دوابهم وهي واسطة النقل عندهم ولكن يظهر ان اثمانها كانت تدفع اليهم عند اخذها منهم وكانت اثمانا حسنة » ــ « **العم ملنر** » يتناسى التضخم كما هو واضح ــ « غير ان الاثمان التي كانت تطلب من الفلاح بعد الحرب لشراء الدواب التيباعها كانت اعلى بكثير من الاثمان الاولى »(19) .

وكان لا بد من ان تنتهي هذه المصادرات كلها بمصادرة البشر ، فبدات السلطة العسكرية تصادر البشر ، ومنذ بدايات الحرب ، اعلنت السلطة العسكرية انها تقبل متطوعين للعمل كعمال في الخطوط الخلفية للقتال ، وتحت ظل هذا التطوع بدات تجمع قسرا ــ في عملية اشبه بالسخرة ــ العمال والفلاحين وترسلهم الى مختلف جبهات القتال في شبه جزيرة سيناء والعراق وفلسطين والدردنيل وفرنسا ، ويقول « الجود » انه « ظهر في سنة 1916 انه اذا لم تستخدم السخرة فلن تتوفر الامدادات اللازمة للفرق الاحتياطية ، ولذا فقد كان الحصار يضرب على جموع الريفيين اثناء ذهابهم الى الاسواق ثم يرسلون الى اقرب « نقطة عمل » وبينما كانت الاغلبية تقابل مصيرها بالتسليم كان البعض يبدي مقاومة وكان اخرون يفرون الى المناطق المجاورة رجاء السلامة . وكانت نهاية هؤلاء جميعا واحدة : المقاومة تخمد ويقبض على الفارين ثم يسلمون الى ضابط القرعة .

ويذكر « **اللورد ملنر** » ان « الخدمات التي اداها الفيلق المصري للعمال لا تقيم بثمن ولم يكن عنها غنى للحملة على فلسطين » . ويعترف بان المظالم قد وقعت على هذا الفيلق فيقول « كان الناس قد اختلفوا في تقدير هذه المظالم والمساوىء ، ولكنها على كل حال من الكثرة بحيث ساءت الناس جدا في بعض الجبهات » وينقل « **الاستاذ الرافعي** » وصف جريدة انجليزية عمالية لطريقة معاملة فيلق العمال المصري ، وتقول الجريدة الانجليزية ان العمال كانوا يجلدون لكي يقبلوا التطوع بالاكراه وانه قد سيق في الفرق الاحتياطية اطفال في الرابعة عشرة وشيوخ في السبعين وان الرعاية الصحية كانت منعدمة « فكانت تساق الجموع المريضة من هؤلاء المساكين لتادية الاعمال الحربية » والكرباج كفيل بتسخيرهم من غير حساب في الاعمال الشاقة ، واصبح الجلد من الاعمال اليومية ، وكلف الاطباء بتنفيذ الجلد والكشف على المرضى في بقعة واحدة حتى خاف المرضى الخلط بين صفوفهم وصفوف المقدمين للجلد » .

وقد اضطرت بريطانيا الى الاستعانة برديف الجيش المصري ، فبلغ عدد من جمعوا منه 12٫000 مجند ، ويكفي للدلالة على طريقة معاملتهم ان هذه المعاملة اضطرتهم الى التظاهر العسكري امام سراي عابدين في اخر يناير ك2 1916 وتجددت مظاهراتهم في اليوم التالي، وقالت الحكومة في بيانها الرسمي ان المظاهرة حدثت لان افراد الرديف ذهبوا الى عابدين « ليرفعوا الى الاعتاب السلطانية شكواهم من التاخير في دفع المكافاة المستحقة لهم وعدم كفاية الاجور التي تقرر دفعها لهم وعدم موافقة الغذاء » . تقدر الينور بيرنز « مجموع المصريين المجندين في مختلف القوات بحوالي مليون نسمة ، بينما كان مجموع السكان بين سن 17 و30 ــ وهي الاعمار التي كان التجنيد يتم من اصحابها ــ مليونا ونصف المليون » ان عددا ضخما من هؤلاء البؤساء قد مات من العمل الشاق في الصحراء والثلوج ومن لم يمت بالتيفوس مات بغارات الاعداء .

وكان لا بد ان يصادر كل الشعب المصري ، وان يضرب سياج من الصمت يمنع اي معارضة ، وهكذا اعلنت الاحكام العرفية ، وصدر قانون التجمهر الذي يعتبر تجمع اكثر من خمسة افراد خروجا على القانون ، واوقفت الجمعية التشريعية التي لم تعقد سوى فصلا تشريعيا واحدا في دورتها البرلمانية الاولى . واعتقل عدد كبير من اعضاء الحزب الوطني في طره والعباسية ودرب الجماميز ، ونفي اخرون الى خارج البلاد . وكفت لمعارضة الصحفية تماما بسبب تشدد الرقابة العسكرية البريطانية ، فاغلق « الحزب الوطني » صحفه . وحتى « حزب الأمة » ـ التجمع السياسي لكبار ملاك الارض ـ اغلق صحيفة « الجريدة » ، ولم يبق من الصحف السياسية سوى **«المقطم»** جريدة دار الحماية البريطانية » **« والاهرام »** . وكانت اذ ذاك محايدة بين الشعب والاحتلال .

ورغم حالة الصمت الرهيبة التي فرضت خلال الحرب ، فان محاولتين قد جرتا لاغتيال السلطان **« حسين كامل »** ، وكثرت عمليات سرقة الاسلحة من المعسكرات البريطانية ، وتعطيل القطارات الحربية مما اضطر السلطة العسكرية الى التحذير بانها ستطلق الرصاص فورا على كل من يضبط متلبسا بمحاولة تعطيل القطارات(20) .

والواقع ان الشعب المصري ، حين تحرك بعد انتهاء الحرب تحت قيادة البرجوازية، ليطالب بصيغة جديدة تمنع تكرار **«سني يوسف»**، كان يضع نصب عينيه الحجم البشع لما لحقه من مظالم في ظل السيطرة الاجنبية على مقدراته ، وبدرجة اكثر انانية فان البرجوازية المصرية، قد نظرت الى احتفاظ بريطانيا بحق حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات ، ضمن نواقص الاستقلال الذي منحه تصريح فبراير، نظرالها الى قيود تحد من ارباحها وتعوق نموها .

ولم تكن الامتيازات الاجنبية قيدا على التشريع المصري ، فحسب ، ولكنها اخلت بالمساواة بين رأس المال الاجنبي ورأس المال المحلي ، وزادت من فرص الاول على حساب الثاني ، اذ كان الراسماليون الاجانب يعفون من الضرائب ومن الرسوم الجمركية ، وهو ما مكنهم دائما من الانتصار في المنافسة وسحق الراسمالية المصرية الناشئة في عقر دارها .

كما ان تدخل الدول الاجنبية في مالية مصر للحصول على ديونها قد شكل قيدا على حرية البرجوازية ، التي كانت ترى في هذا استنزافا طويل المدى لدخلها القومي ، ذلك ان ايرادات عدد كبير من المديريات (المحافظات) او الاقسام الادارية ، كانت مخصصة لتسديد الديون ، وكانت الاقساط السنوية تحول ميزانية مصر الى ميزانية تسديد ديون مما يحول دون اصلاح مرافق البلاد لتهيئة الجو لصناعة

فنية . كما ان استنزاف الراسمالية الاحتكارية للمواد الخام وتصديرها لرأس المال وللسلع المصنعة تقضي على اية امكانية لقيام صناعة قومية بسبب رحيل المواد الخام ومنافسة الصناعات الاجنبية للصناعة المحلية .

وكان هناك طموح البرجوازية لبناء جهاز دولتها الخاص ، واحلال المصريين محل الاجانب في قيادته . ذلك ان سيطرة الاجانب على جهاز الدولة التنفيذي ، كان يعطيهم سلطة مؤثرة ينحازون بها الى صف بني جلدتهم ضد مصالح الرأسمالية المصرية ، فضلا عن تمرد الانتلجنسيا المصرية الى صف الثورة على اوسع نطاق . وقد وضع اهتمام

الرقي امامها . وكان ذلك اهم العوامل التي دفعت بالانتلجنسيا المصرية الى صف الثورة على اوسع نطاق . وقد وضع اهتمام البرجوازية البالغ بالسيطرة على جهاز الدولة ، من سعي **« سعد زغلول »** لتمصير بعض وظائف الجهاز الاداري بعد ان صدر القانون الذي انهى خدمات الموظفين الاوروبيين مقابل تعويضهم ، حتى انه تجاوز ذلك في اتجاه تسيير الجهاز الحكومي ، وقال تصريحه المشهور « سأجعلها حكومة زغلولية لحما ودما » ، معلنا حرصه على سيطرة الكوادر الحزبية الوفدية على المراكز الرئيسية في الجهاز الاداري للدولة .

ويبدو احتفاظ بريطانيا بمسالة حماية الاقليات الدينية ضمن هذا التحفظ من تحفظات فبراير ، اقل جدية بما لا يقاس ، وكانت تقارير المعتمدين البريطانيين في مصر منذ **« كرومر »** ، حريصة على الزعم بأن الاقلية المسيحية في مصر تعاني من اضطهاد يجعلها تضع نفسها تحت حماية الانجليز . وهي نغمة ظلت تتردد منذ مذبحة الاسكندرية في 11 يونيو ـ حزيران ـ 1882 ، التي صورت دائما باعتبارها نزاعا طائفيا لا باعتبارها مؤامرة محبوكة رسمت لتبرير الغزو الانجليزي المسلح الذي بدأ بضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول البريطاني بعد شهر واحد من المذبحة .

ومع ان المرحلة بين الثورتين (1883 ـ 1919) كانت قد شهدت درجات متفاوتة من التوتر بين المصريين المسلمين والمصريين المسيحيين ، نتيجة لعدم تبلور الايديولوجية البرجوازية تبلورا يجعلها ليبرالية وعلمانية بالدرجة الكافية ، ولتعقد خريطة الصراع السياسي حول مصر ، الا ان ثورة 1919 قد نجحت في ان تبدو قومية وعلمانية، وان تستوعب خطورة التفتت الطائفي في ظروف مواجهة الاستعمار ، وبهذا نجحت في ان تجهض واقعيا اي مبرر لهذا التحفظ الذي كان المصريون المسيحيون اول من رفضوه .

وحدث ابان مناقشات لجنة الدستور ، ان اقترح احد الاعضاء المسيحيين تخصيص عدد محدود من مقاعد مجلس النواب على اساس طائفي ، وهي فكرة رفضها بقية زملائه الاقباط في نفس اللجنة ، وهاجمتها الصحف المسيحية لان تنفيذها يعني الاعتراف بأن هناك فرقة طائفية في مصر ، ويعطي لانجلترا نصا قد تبرر به تدخلها ، وقد شرح مقدم الاقتراح هدفه فقال انه كان يظن ان هذا النص يسحب الارض من تحت اقدام انجلترا بعد ان اصبح للاقليات حقوق مقررة في الدستور المصري .

وجاءت نتيجة اول انتخابات للمجلس النيابي المصري لتعكس وعيا قوميا مرتفعا ، اذ جرت على اساس ، سياسي ، وفاز من الاقباط عدد يزيد عما كان العضو المسيحي قد اقترحه لهم من مقاعد البرلمان واكد **« سعد »** الطابع العلماني لحكومته فعين فيها وزيرين قبطيين لا وزيرا واحدا كما كان متبعا قبل ذلك . وهو ما افقد هذا التحفظ اي قيمة طوال مراحل المفاوضات .

لكن افتقاد عجز التحفظ الخاص بـ « حماية المصالح الاجنبية وحماية الاقليات » لقيمته ، لم يعن ان انجلترا اهدرت التحفظات بمجملها ، اذ كان صدر التحفظ يعينها بدرجة او بأخرى ، في ضوء ادراكها لحقيقتين متلازمتين .

*** الاولى** : ضيق البرجوازية المصرية بما يترتب على ما للاجانب من مصالح مالية وسلطات تنفيذية وتشريعية في مصر من الاضرار بمصالحها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحرمانها من النمو ، مما يجعلها توّاقة للتخلص من تلك المصالح ، ويفيد انجلترا ان تتشبث بها ، لتدفع البرجوازية المصرية الى موقف تختار فيه بين توسيع حقوق انجلترا في مصر ، وبين بقاء المنافسة الدولية للبرجوازية المصرية .

* **الثانية** : ضيق انجلترا ذاتها بتلك المصالح ورغبتها في التخلص منها ، لانها في جوهرها كانت تشكل منافسة للاحتكارات الانجليزية ، وتعطي الدول الاوروبية الاخرى مكانة سياسية في مصر تحول دون انفراد انجلترا بالتأثير على السياسات المصرية لمصالحها . وصحيح ان انجلترا كانت قد اكسبت مركزها في مصر شرعية دولية ، بعد ان اعترفت الدول الاوروبية في معاهدات الصلح بحمايتها على مصر ، الا انها كانت تضع في اعتبارها احتمال حدوث توتر جديد في اوروبا . . ومن هنا فقد حرصت في المراحل الاولى للمفاوضات على استخدام المصالح الاجنبية كورقة تهدد بها البرجوازية المصرية ، منطلقة من ادعاء بأن اقرار الدول الاوروبية في معاهدة فرساي بالحماية الانجليزية ، هو تفويض لها بتولي مصالح تلك الدول في مصر .

وساهمت التطورات التي لحقت بالوضع الدولي في تخلي بريطانيا عن تشددها فيما يتعلق بتلك المصالح ، خاصة ان صعود النازية والفاشية كان مؤشرا واضحا على احتمال انفجار الوضع الاوروبي من جديد . ومن هنا نلاحظ ان التشدد البريطاني بشأن هذا التحفظ قد شاب مفاوضات **(زغلول ــ ملنر)** ثم مفاوضات **(عدلي ــ كرزون)** ، بينما قل في المراحل التالية من المفاوضات ، وخاصة مقترحات **((هندرسون))** التي كانت اساس معاهدة 1936 ، التي اعلنت فيها بريطانيا انها ستساعد مصر على التخلص من الامتيازات الاجنبية .

وكان **((ملنر))** قد اشار في تقريره الى صعوبة وجود حكومة مركزية قوية مع تعدد القضاء الناتج عن الامتيازات الاجنبية ، مما يصعب معه حفظ النظام والقانون ، في حين ان اعفاء الاجانب من الضرائب المقررة غير اموال الاطيان وفوائد الاملاك يشل يد الحكومة اذا ارادت ان تزيد ايراداتها لانه يستحيل عمليا فرض ضرائب على المصريين ، واعفاء الاجانب منها ، ولذلك بقيت الحكومة زمنا في الماضي مضطرة الى ان تضيق على بعض فروعها المهمة كالتعليم العمومي والصحة العمومية مع ان ثروة البلاد تزداد بسرعة ومواردها كثيرة تكفي لكل حاجات حكومة منظمة » .

ومع اعترافه بهذا واقراره بضرورة الغاء الامتيازات ، فان **((ملنر))** لم يجد حلا الا بوجود مركز خاص لبريطانيا في مصر يخول لها حق التدخل في التشريع الخاص بالاجانب ، وقسطا من الرقابة على الادارات التي لها تأثير مباشر على المصالح الاجنبية .

وانطلاقا من ذلك وضع « في مشروعه الذي قدمه للوفد نصا بان » يكون من حق الممثل البريطاني ، التدخل لايقاف تنفيذ اي قانون يكون ماسا بحقوق الاجانب الشرعية او مخالفا للمتبع في البلاد المتمدنة ، وان وجدت الحكومة المصرية ان حق التدخل هذا قد استعمل في أي حالة خصوصية بدون وجه حق فلها رفع الامر لعصبة الامم .

ورفض **((سعد زغلول))** هذه المادة وبلور مطالبه في مشروعه المضاد ، باستعداده للاعتراف بحلول بريطانيا محل الدول واستعمالها الامتيازات الاجنبية بأسمها ، مع النص على ان في النية العمل على التخلص من تلك الامتيازات بمساعدة بريطانيا ، وان يكون لها حق الموافقة والاعتراض على اي تعديل يراد ادخاله على نظام القضاء المختلط ، وحق الموافقة والاعتراض ايضا على سريان القوانين التي لا تسري على الاجانب الا بموافقة الدول او الهيئة التشريعية لمحكمة الاستئناف المختلط .

وبهذا تحددت نقطة الخلاف في وجهات النظر بين البرجوازية المصرية وبريطانيا حول تلك المصالح ، اذ كانت انجلترا تسعى للحلول محل الدول في رعاية تلك المصالح ، وهو ما قبلت به البرجوازية المصرية ، التي كانت اضعف من ان تواجه الاحتكارات الاوروبية مجتمعة ، لكن الخلاف دار حول الشكل الذي تمارس من خلاله انجلترا رعاية تلك المصالح ــ وليس حول احقيتها في توليها وهو ما اقر به الطرف المصري ــ اذ كانت انجلترا حريصة على ان تمارس دورها كمفوضة عن المصالح الاجنبية من خلال مركز قوي في السلطة المصرية ، وهو ما كانت تخشاه البرجوازية المصرية وترفضه .

وانطلاقا من ذلك ، عالج كل من المشروعين **((الملنري))** و **((السعدي))** موضوع الغاء المحاكم القنصلية ــ وكانت مختصة بنظر الجنايات المتهم فيها اجانب ــ على اساس تحويل اختصاصاتها الى المحاكم المختلطة ، مع تعيين موظف كبير لكي يتأكد من حسن ادارة وتنفيذ القوانين فيما يتعلق بالاجانب « وقد اصرت بريطانيا على ان يكون هذا الموظف مندوبا قضائيا وموظفا من موظفي وزارة الحقانية ، بينما رأت مصر ان يكون » مجرد نائب عمومي لدى المحاكم المختلطة ووظيفته قضائية فقط وليست تنفيذية .

وذكر الجانب المصري في التدليل على رأيه بأن التسليم بحق الممثل البريطاني (المعتمد او السفير) في معارضة القوانين التي يراد تطبيقها على الاجانب يكفي ، ولا ضرورة لهذا المندوب القضائي ذي الصفة التنفيذية ، فهو لا يستطيع الاعتراض على التشريع لان تلك وظيفة سيقوم بها ممثل دولته السياسي ، ولا يستطيع الاعتراض على التنفيذ لانه من اختصاص المحاكم المختلطة وهي شديدة الحرص على استقلالها ، ومن الممكن دائما الاستشكال في التنفيذ القانوني بطرق قضائية .

واصر الجانب البريطاني على ضرورة وجود هذا المندوب في مفاوضات **((عدلي كرزون))** وضرب المثل بأنه « اذا اتفق ان الادارة المحلية تكره اجنبيا ، فانها قد تجعل الحياة عليه مستحيلة ، وقد توقف مثلا وابورا للري في وقت غير مناسب ، وتضيع عليه بذلك مصالح جمة اما الجانب المصري فكان اعتراضه ــ هذه المرة ــ نابعا من ان اشاعة حق المندوب القضائي في التدخل في الاعمال الادارية التنفيذية سيؤدي الى تدخله في عمل كل الادارات المصرية .

وكحل للخلاف اقترح الجانب المصري استبقاء حكمدار انجليزي في المدن الكبرى التي يكثر فيها الاجانب ، والاوروبيون منهم بالذات ، لضمان حسن تنفيذ الاوامر الادارية بما يمنع الاضرار بمصالح الاجانب « فوافق الجانب البريطاني على ذلك ، مضيفا ضرورة وجود موظف في وزارة الخارجية ليوحد اعمال هؤلاء الحكمداريين ، وينشيء الاتصال اللازم بينهم وابقاء مستشار سلطاني في وزارة الحقانية (العدل) لمراقبة اللوائح الادارية التنفيذية التي تطبق على الاجانب . وبهذا العرض استلب الجانب البريطاني حقوقا ابعد مدى من الحقوق التي طالب بها في البداية لذلك رفضها عدلي يكن مشيرا الى ان عرضه لم يكن يتضمن هذه الحقوق الموسعة .

وكان اخر ما عرضه **((كرزون))** هو العودة الى فكرة المندوب القضائي على ان يكون له حق الاطلاع على جميع الامور التي تمس الاجانب ، وتكون من اختصاصات وزارتي الحقانية والداخلية ، ويكون له في كل وقت حق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدخول على وزيري الحقانية والداخليــة .

وظـــل هــذا النــص في المشــروع الذي قدمه « **عبدالخالق ثروت** » « **لتشمبرلن** » مع تخفيف في العبارة لا يغير من جوهره ، بينمــا تضمــن مشروع « **تشمبرلن** » المضاد شططا جعل التدخل عاما ومباحا تماما ، وقال « **عبدالخالق ثروت** » في نقده لاقتراح « **تشمبرلن** » :

ــ ان المادة الخاصة بالمندوب القضائي « قد تضمنت تعهدين تلتــزم بهما مصر اولهما : ان توافي مصر بريطانيا العظمى بوسائل التحقيق مــع توفر الحماية اللازمة لارواح الاجانب وممتلكاتهم ، والثاني : ان تحتفــظ مصر بعنصر اجنبي في ادارتها يفي بضمان مثل هذه الحماية وهو ما لــم يطلب من مصر في المفاوضات السابقة ، ثم ما هي تلك الوسائل ؟ وما هــو عدد الموظفين الاجانب ؟ وفي اي نوع من الوظائف ؟ كل هذه التعهــدات بالغة في الابهام والاطلاق مبلغا يجعل قبولها بمثابة وضع اليد تمــاما على ادارة مصر الداخلية كلهــا .

وقد عاد المشروع المشترك الذي اسفرت عنه مفاوضات (**ثــــروت تشمبرلن**) الى ابقاء النص الخاص بالمستشار القضائي كما ورد في مشروع « **كرزون** » ، مع اضافة قيد اخر هو تعهد الحكومة المصرية بعدم « تغييــر عدد واختصاصات الموظفين البريطانيين الذين يشتغلون الان بادارة الأمن العام والبوليس الا بموافقة بريطانيــا .

وفي مقترحات « **هندرسن** » ــ التي تفاوض معه « **محمد محمود** » على اساسها ــ نص يفيد تنازل عن دعوى بريطانيا حماية الاجانب ، علــى ان تكون الحكومة المصرية هي المسؤولة عن ارواح الاجانب واموالهم وان تتولى حكومة صاحب الجلالة ملك مصر ، تنفيذ واجباته في هذا الصدد « ولكــن النص قيد بمذكرة مصرية قبلت بقاء المستشار القضائي . وقد ظل النص كما هو في مشروع « **هندرسن ــ النحاس** » ، مع حذف ما تضمنته المذكرة الرامية الى ابقاء المستشار وهو النص الذي ورد في معاهدة 1936 .

ولم تكن بريطانيا تطالب فقط بابقاء المندوب القضائي لوضــــع حماية تشريعية للاجانب بل طالبت ايضا ببقاء المستشار المالي ، وذلــك « لضمان اقتدار مصر على سداد دينها » ــ كما قال « **ملنر** » ــ وفي نــص المشروع « **الملنري** » ان يكون لذلك المستشار اختصاصات صندوق الدين. بينما علق المشروع الوفدي تعيين هذا المستشار على الغاء صندوق الدين « وفي مفاوضات « **عدلي كرزون** » ــ اضاف الاخير اختصاصات اخـــرى الى المستشار المذكور منها حقه في الدخـول على وزير المالية ، واشتراطه موافقته في حالة عقد قروض جديدة .

واعترض « **عدلي يكن** » على هذه الاختصاصات على اساس انهـــا « تعطي ذلك المندوب مكانة فوق الحكومة والبرلمان ، لانه بحسب الدستور المزمع ، ستكون القاعدة ان الحكومة لا تستطيع عقد قروض الا بموافقــة البرلمان » ، فاشراف ذلك المندوب على الحكومة والبرلمان شيء كبير وسلطة خطيرة لا يمكن قبولهــا .

وفي المشروع الذي اتفق عليه « **ثروت وتشمبرلن** » اقــر اســتمرار المستشار المالي بنفس الاختصاصات الموسعة له ، وظل النص كما هــو تقريبا في مقترحات « **هندرسن** » . واعترض « **النحاس** » في مفاوضاتــه معه على بقاء المستشار المالي لمدة تزيد عن عقده الذي كان يعمل بمقتضاه وقت اجراء المباحثات . وأرفق تصريح شفوي بمعاهــدة 1936 يفيــد ان الحكومة المصرية حرة « من اي قيد ذي صفة دولية فيما يتعلق بالاحتفاظ بالمندوبين القضائي والمالــي » .

هوامش الدراســة

(*) نشرت « آفاق عربية » في اعدأد سابقة فصولا من هذه الدراسة ، هــذا ومــع ترابط الدراسة ، الا ان كل مبحث منها مستقل بذاته ، يفيد القارىء ان يعود الى المباحث السـابقة ، ولكن تعذر ذلك عليه لا يمنعه من فهم فكرة الكاتب في كل مبحث على حـدة .

(1) خطبة سعد زغلول في 25-1-1924

(2) لاندز (دافيد) : ــ بنوك وباشوات ــ ترجمــة : د . عبدالعظيــم انيس ــ دار المعارف ــ القاهرة 1966 ــ ص 86

(3) نجيب مخلوف : نوبار باشا وما تم على يديه ــ ص 62/61

(4) المصدر نفســه ص 125

(5) الرافعي (عبدالرحمن) : عصر اسماعيل ــ جـ2 دار النهضة المصرية ــ ص264

(6) حسن (د. عبدالرزاق) المصدر السابق

(7) البنك الاهلي المصري : البنك الاهلي المصري بين 1898 ــ 1948

(8) عريان (مليكه) : مركز مصر الاقتصادي ــ المكتبة السلفية 1934

(9) توزيع الصادرات المصرية جغرافيا ــ بيان احصائي ــ نشره البنك الاهلي المصري ــ 1964

(10) عبدالله (د. مصطفى عفيفي) : تاريخ مصر الاقتصادي جـ2 ــ المطبعة الاميرية بالقاهرة 1947 ص 114 ــ 123 .

(11) نحاس (د . يوسف) : سياسة انجلترا القطنية خلال الحرب الاولى ــ ضمن كتابه الهام جهود النقابة العامة للزراعة في 30 عاما ــ دار النيـل للطباعــة القاهــرة 1952

(12) خانكي (عزيز) : شؤون مصرية ــ ط 2 ــ المطبعة العصرية . القاهرة

(13) آدم (جوليت) : انجلترا في مصر ــ ترجمة علي فهمي كامل ــ جـ 1 ص 98 ــ مطبعة الدفاع الوطني ــ القاهرة 1925 .

(14) خانكي (عزيز) : المصدر نفسه ص 83 . ويلاحظ ان المنتج الصغير كــان يبيع اقطانه لتجار القطن الصغار واغلبهم اجانب مما يزيد من تعرضه لاعمــال السمسرة ويجعله يبيع قطنه بأبخس الاثمــان .

(15) البنك الاهلي المصري : البنك الاهلي 1898 ــ 1948

(16) خانكي (عزيز) : المصدر نفسه ص 84

(17) المصدر نفسه (ص 85) ويلاحظ ان عزيز خانكي كان محاميا من كبار مــلاك الاراضي المهتمين باســتصلاحها .

(18) بيرنز (الينور) ــ مرجع سابق ص 28

(19) راجع تقرير ملنر في الكتاب الابيض المصري

(20) راجع : لبيطة (محمد فهمي) ــ تاريخ فؤاد الاول الاقتصــادي ، البــراوي (د. راشد) وعليش (محمد حمزة) : التطور الاقتصادي في مصر الحديثة، الرافعي (عبدالرحمن) وصالح (رشدي) : كرومر في مصر . وتقارير كتشنر الى حكومته عامي 1912 و 1913 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المحاولات

ان دراسة المحاولات الوحدوية للعرب في الفترة التي سبقت الاسلام لم تستأثر باهتمام الباحثين ، غير اننا في الوقت الحاضر يجب علينا ان نعي هذه الفترة وهذه المحاولات لتاصيل حاضرنا بماضينا وسد الفجوات التي قد تبدو وكانها قطيعة بين الماضي والحاضر .

لقد سكن العرب في المنطقة التي تحمل اسمهم منذ اقدم العصور ، ولا بد انهم قد استقروا فيها قبل سنة 853 ق.م ، وهي السنة التي ذكروا فيها في حوليات الاشوريين(1) ثم نجد ان هذه الاشارات تتكرر عندالكلدان واليونان والرومان . ومن الممكن ان نميز نمطين من الحياة للعرب طبقا للمناطق التي عاشوا فيها هما : النمط التحضري وهو ما كان يطلق عليه اسم « اهل المدر » والنمط البدوي وهو ما اطلق عليه اسم « اهل الوبر » ورغم هذا الاختلاف في الحياة نشأت عندهم فكرة الوحدة حيث اتخذت اول الامر شكل التحالف القبلي والذي يعتبر اساس الاتحاد السياسي(2) ثم اخذ هذا التحالف ينمو ويتطور بفضل تطور العرب الذاتي والتحدي الخارجي لهم فاخذ في البادية شكل المواخاة والتحالف بين القبائل وقد اشار الى ذلك البكري في كتابه « معجم ما استعجم » اما في المدن فاخذ شكل انضمام المناطق بعضها الى بعض تحت سيطرة ملك قوي وهذا ما سنبحثه . غير ان هناك عواملا ساعدت العرب على تحقيق الوحدة اضافة الى وحدتهم الجغرافية هي :

اولا : وحدة اللغة :

اذا عرفنا ان اللغة العربية الجنوبية تتمثل بلهجة سبأ فهي اخت قريبة جدا من اللغة العربية المعروفة الان . يقول نولدكه : انه لا يتسرب ادنى شك في القرابة اللغوية الشديدة بين عرب الجنوب والوسط والشمال . كما انه اذا وجدت ظواهر نحوية مهمة في الواقع اتفق فيها الشمال مع الجنوب او بالعكس(3) فان معنى ذلك ان اللغة واحدة واذا كان هناك اختلاف فهو في اللهجات كما هي الحال الان .

ثانيا : وحدة الفكر والعقيدة :

وهذا العامل نجده يظهر في وجود دين توحيد مستقل عرف « بالحنفية » كما عرف اتباعه بالاحناف كما ظهر في جنوب الجزيرةدين توحيد يعبد العرب فيه الآله « ذو سموي » اله السموات اي « اله الرحمن » . ولعل نشأة هذين الدينين تعكس بالدرجة الاولى تطلع العرب لتوحيد صفوفهم سياسيا(4) .

وليست لدينا معلومات وافية عن الخطوات الاولى التي ادت الى قيام الدولة السبأية في اليمن غير اننا نستطيع القول ان المجتمع السبأي

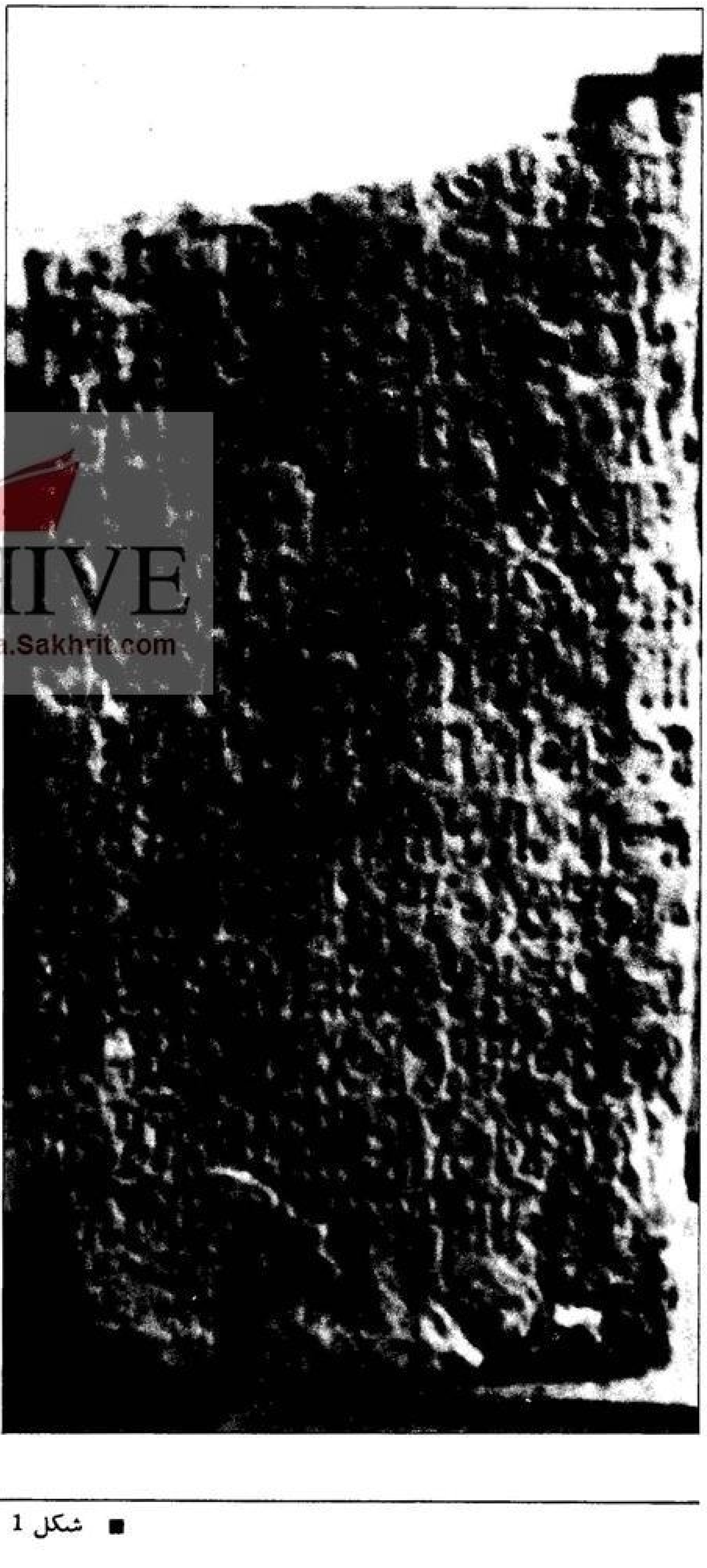

■ شكل 1

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. منذر البكر

الوحدوية في الجزيرة العربية قبل الإسلام

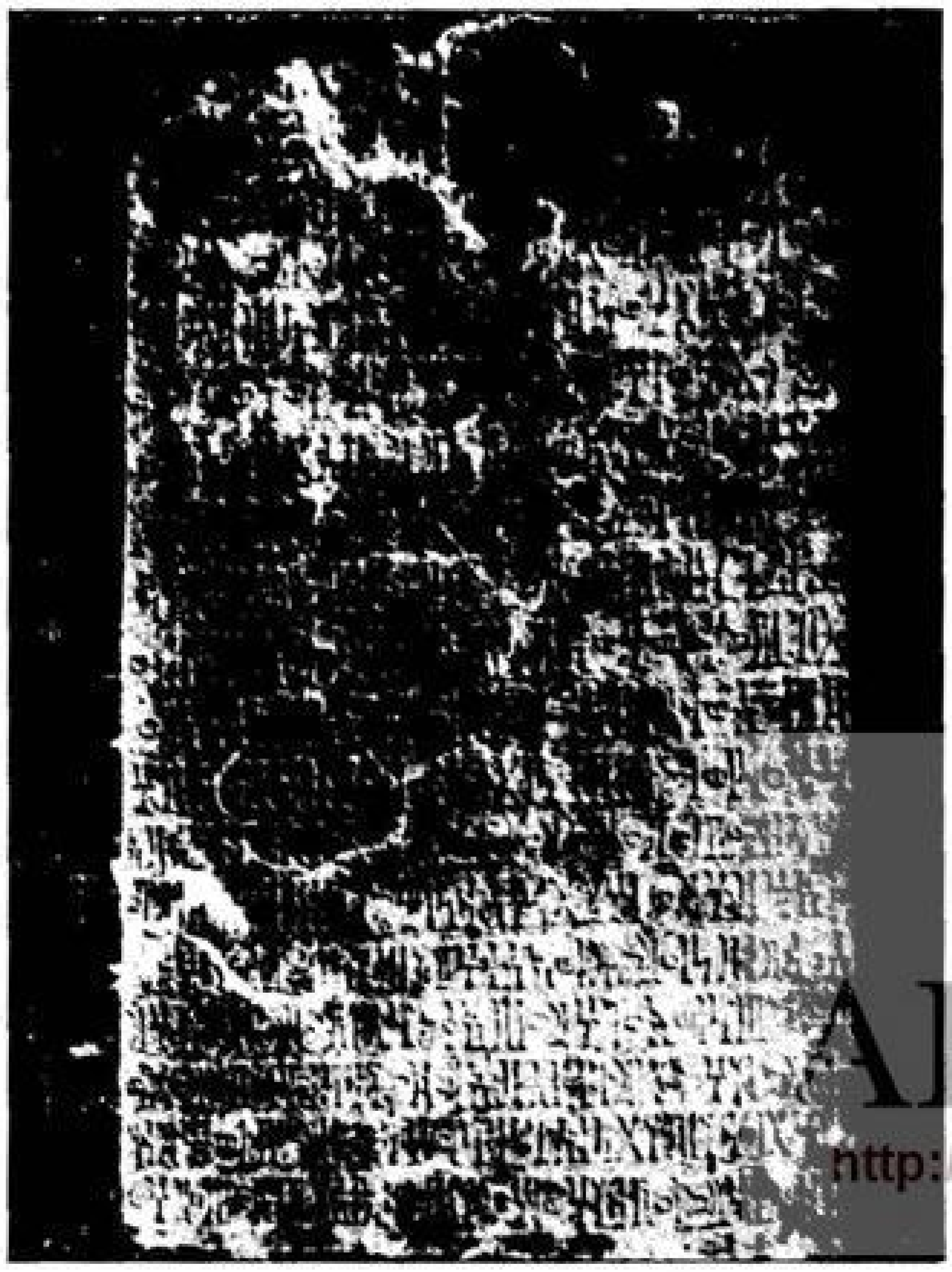

■ شكل 2

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد نظم نفسه منذ وقت بعيد جدا في شكل من اشكال التنظيم القبلي(5) الذي يراس فيه القبيلة رئيس او شيخ من ابنائها . ويبدو من النقوش التي عثر عليها في اليمن قوة الرابطة القبلية التي كانت تربط ابناء سبأ والعلاقة الخاصة التي تجمعهم حول معبودهم القبلي « الاله المقه » (6) .

ثم ان عملية التفاعل مع البيئة وتحديها جعلهم يقومون بتحالفات ذات طابع سياسي واقتصادي مع القبائل المجاورة والقريبة . وهنا نلمس عملية ربط هذه الاحلاف برباط المصلحة الاقتصادية الواحدة وهي في نظري ركيزة مهمة من ركائز الوحدة . وهذا ما نجده في نقش عثر عليه الدكتور احمد فخري في منطقة تعرف « بالمساجد »(7) في بلاد اليمن . وقد ترجم النص فاذا به خاص بالتحالف بين القبائل وكان هذا التحالف ذا طابع سياسي(8) . لضمان المصالح الاقتصادية .

يبدو من سير الاحداث السياسية في هذه الفترة ان هذه التحالفات اخذت تتوسع وتضم اضافة الى القبائل مناطق واراضي جديدة وقد يكون ذلك احدى نتائج الانتقال من طبيعة العلاقات الانتاجية الزراعية القبلية الى علاقات انتاجية زراعية اقطاعية قبلية(9) . وهذا ما يشير اليه (نقش صراوح) او (نقش النصر) المعروف لدى الباحثين بـ Glioooa . B (10) الذي يعطي انطباعا بان هذا التوسع دفع الحاكم ان يغير لقبه من اللقب الكهنوتي « مكرب » الى اللقب الدنيوي « ملك »(11) وهو « كرب ايل وتر » بن « ذمر علي » اذ بعدافتتاحية قصيرة يقول فيها ان الآلهة اوحت لكرب ايل وتر بن ذمر على مكرب سبأ بملكه لمقة ولسبأ يوم ان وحدت الشعب(12) ولو نلقي نظرة على هذا النص نجد ان الملك قصد هنا بانه وحد مدنا وممالك الى مملكته ، منها :

1 ـ مملكة اوسان السطر 4ـ7 من نقش صراوح

2 ـ مملكة داهس السطر 7ـ8 من نفس النقش

3 ـ مملكة مهامر السطر 9ـ20 من نفس النقش

4 ـ قبائل المعافر السطر 3ـ4 من نفس النقش

5 ـ قبائل كحد ذسوطم السطر 13ـ14 من نفس النقش

6 ـ المدن نشق ونشن وسبل وهرم السطر 14ـ18 من نفس النقش(13)

اننا ندرك من هذا النص ان الملك « كرب ايل وتر » سعى في هذه المعارك الى تكوين البدايات الاولى لتوحيد القسم الاكبر من جنوب الجزيرة العربية والقضاء على الكيانات الصغيرة المتفرقة .

ولهذا قام باعمال عمرانية واقتصادية هدفه منها توحيد المصالح الاقتصادية وربطها بالدولة لتكوين الوحدة الراسخة والرابطة القوية في هيمنته على البلاد اذ من اصلاحاته : اصلاح مسايل المياه وتعمير السدود وشق القنوات وبناء المدن .

ورغم قلة ما لدينا من نقوش عن هذه الفترة نجد ان عقلية الانتاج القبلي الاقطاعي او الانتاج الزراعي القبلي الاقطاعي هي التي كانت سائدة في هذه الفترة(14) وهي تمثل مرحلة متقدمة على التي سبقتها . لهذا نجد الاهتمام الكبير في هذه المرحلة ببناء السدود وتحسين وسائل الري مما زاد في عملية تثبيت وسائل الانتاج الزراعي الاقطاعي والتي دفعته بعد ذلك الى الانتقال الى تثبيت الانتاج الزراعي الاقطاعي .

ومرحلة الانتقال هذه هي من مراحل القلق والتحدي التي سادت جنوب الجزيرة العربية وهي تقابل فترة « ملوك سبأ وذو ريدان » التي هي من الفترات المعقدة في تاريخ بلاد اليمن حيث يزداد الصراع حول اللقب الجديد وهو « ملك سبأ وذو ريدان » والذي يختلف الباحثون في بد اياته غير اننا نجد ان في هذا اللقب الجديد تتجلى خطوة اخرى وتوضع لبنة اخرى من لبنات الوحدة . ولعل اللذين يرون ان هناك كيانين مستقلين وراء هذا اللقب لم يلتفتوا الى بداية هذا التحول الجديد نحو تعميق الوحدة السياسية والاقتصادية في تركيز عملية الانتقال الى طبيعة جديدة في عملية الانتاج تبتعد عن الروح القبلية ، وهذاما جعل ان يكون هناك في البدايات الاولى لهذا اللقب ملكان يحملان هذا اللقب في الفترة نفسها مما يعبر عن حدة هذا الصراع الذي قد يفتر احيانا ليعود مرة اخرى الى اشده . وزاد من حدة تعقيد الصراع دخول الاحباش بلاد اليمن وبسط سيطرتهم وتفوذهم السياسي في اقليم ظفار وقد اشار الى ذلك النقش الموسوم JA 631 (15) وهذا التحدي الخارجي كان مثار قلق وارتباك لاهل اليمن ادى الى نوع من الوعي السياسي(16) في تعجيل عملية الوحدة اضف الى ذلك دخول الخيل بدلا من الجمل الذي كان شائع الاستعمال سابقا . وكما يرى « دوستل » ان السروج التي استعملت في هذه الفترة كانت افضل من تلك التي استعملوها سابقا ثم ان سرعة الحصان في الهجوم ووصوله لمسافات نائية عبر الصحراء جعل القوة العسكرية غير محصورة في الاراضي الزراعية فقط(17) .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الملك « ايل شرح يحضب » الثاني الذي حكم بين (سنة 200م – 230م) استطاع ان يثبت عملية الانتاج الزراعي الاقطاعي مما ساعد على انضمام أقاليم اخرى الى هذه الوحدة وضرب التمردات التي قامت بها بعض القبائل العربية وامرائها . وهذا ما يؤيده النقش ZA 577 (18) ثم النقش المعروف لدى العلماء RES 4646 الذي يحتوي على قانون اصدره الملك « ايل شرح يحضب » الثاني يقضي بتسخير خدم من قبيلة « سخيم » وقبيلة « يرسم » للعمل في الحقول في مواسم الحصاد في « شهر ذونسور الاول وفي السنة السادسة من سني معد يكرب بن تبع كرب » من قبيلة « حزفر »(19) الذي يصور لنا عملية تركيز هذه العلاقات . رغم ان خيوطا باهتة بقيت للنظام الزراعي الاقطاعي العشائري يتمثل في طبقة الاقيال ، وهم طبقة اجتماعية اقطاعية يمثلون زعماء العشائر وليسوا موظفين حكوميين(20) .

ويبدو ان هذه العلاقات الاقطاعية العشائرية بقيت رغم التطور في علاقات الانتاج الزراعي خارج حدود الريف في مناطق الواحات ، وربما هي التي عرقلت عملية الوحدة لظهور قوى عسكرية اخرى اخذت تؤثر في الاحداث السياسية في البلاد وزادت من اضطرابها(21) .

اما في المدن والريف المجاور لها فان عملية الانتقال كانت واضحة للعالم لا سيما في تغير اللقب الملكي . اذ في نهاية القرن الرابع الميلادي حدثت اضافة جديدة الى اللقب القديم « ملك سبأ وذوريدان » وهو « حضرموت ويمنات » وهذه الاضافة لها مغزى سياسي ذو دلالة اقتصادية قومية ، اي ان هناك مناطق اخرى انضمت الى المناطق القديمة في صورة من صور الوحدة حيث استطاع الملك « شمر يهرعش » الثالث – وهو اول ملك حمل هذا اللقب الجديد – الذي حكم سنة 310م ان يثبت معالمها في الجنوب وينطلق الى المناطق الشمالية ولعل النقش الموسوم JA 658 (22) يوضح لنا خطته في ذلك . اذ انه تحرك من مدينة « صعده » في « خولان العالية » اي الشمالية ثم تقدمت جيوشه منها نحو الشمال الغربي الى حدود « خولان القديمة » في وادي « دفاء » ثم اجتازت جيوشه منازل قبائل « شيخان » وارض « شهرتان » الى وادي « بيش » وهي الحدود القديمة لما يسمى بالعربية الجنوبية ، ثم تقدمت الى وادي « عتود » الذي يقع في الارض المسماة Kinaidoltitai عند الكلاسيكيين . وفي هذه الارض اصطدمت قوات «شمر يهرعش» بقوات « نشدايل » القائد العربي الشمالي والذي يحتمل ان يكون قائدا من قواد « امرىء القيس الحيري »(23) .

كما وان النص الموسوم « شرف الدين 44 » يشير الى ان جيوش « شمريهرعش » وصلت الى «القطيف» حتى بلغت موضع « كوكبن » ثم « ملك فارس وارض تنوخ » اي الارض التابعة لفارس . وهنا لا بد من الاشارة الى ان الملك « شمريهرعش » قد كان على اتفاق تام او في حلف مع اعراب « نجد » ولا سيما سادة « كنده »(24) حيث لم يكن قادرا على الوصول الى الاحساء وساحل الخليج العربي دون دخوله في حلف معهم . من هنا نرى الى أي حد استطاع هذا الملك توحيد أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية مما دفعه الى تعيين موظفين كبار للادارة الجديدة التي ظهرت في هذه الفترة من حياة الدولة السياسي .

وهنا نرى ان « وهب اوم » كان بدرجة « كبير » في حكومة الملك « شمريهرعش » عينه لادارة المقاطعات التي وضعت تحت تصرفه وهي ثمان مقاطعات وقبائل وهي « حضرموت » و « كنده » و « مذحج » و « باهل » و « حد أن » و « رضو » و « اظلم » و « امر » . وقد اشار النص JA 660 (25) الى ذلك . ويبدو من هذا الاجراء انه اراد توجيه ضربة الى طبقة الاقيال التي كانت تمثل بقايا النظام الاقطاعي العشائري ودلالة من الدلالات الثابتة التي ادت الى توطيد العلاقات الانتاجية الزراعية الاقطاعية وتوحيد مناطق مختلفة ضمن هذا الاسلوب من الانتاج التقدمي في تلك المرحلة التاريخية .

حتى اذا ما اطل القرن الخامس الميلادي وتربع على السلطة الملك « اب كرب اسعد » نجد اضافة جديدة الى اللقب الملكي فاصبح الملك يلقب بـ « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات واعرابها في الجبال وفي التهائم » وربما ان هناك ظروفا سياسية معينة حملت الملك على اضافة الاعراب في الجبال وفي التهائم الى لقبه ولعل معنى ذلك بان سلطة الملك شملت التهائم باعرابها من قبائل « معد » وقراها التي تمتد في ارض « نجران » الى «مكة» و «نجد» . وقد عثر «فلبي» على كتابة وسمت PHLILBY 227 دون فيها اسم « اب كرب اسعد » واسم ابنه « حسان يهامن » في وادي « ماسل الجمح » في موضع على الطريق بين « مكة » و « الرياض » وهذا يدل على وصول سيطرته الى هذه المنطقة(26) . ويبدو ان منازعات حدثت بعد حكم هذا الملك وحروبا وفتنا اسهمت فيها قبائل « سبأ » و « حمير » و « رحبه » و « كنده » كما وقعت في هذه الفترة تناقضات حادة لم يجد الملك حلا لها مما ادى الى حدوث تفكك في وحدة المصالح السياسية والاقتصادية للاقاليم المختلفة ، لهذا نلاحظ من النصين (RY 507)(RY 508) انهما يشيران الى حروب وقعت بين الاحباش وبين ملك سمي فيها « يسف اسار »(27) والذي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هو الملك « يوسف ذو نواس » اخر ملوك الحميرين ولم يلقب باللقب الطويل المالوف ومعنى هذا ان سيطرته لم تكن شاملة وانما مقتصرة على مواضع . وكان بعض الاقيال قد كونوا في هذه الفترة اقطاعيات مستقلة اقتصاديا ولهذا كانوا يحاولون ان يتوجوا هذا الاستقلال الاقتصادي باستقلال سياسي . مما ادى الى ضعف الوحدة وتفككها بسبب المصالح المتباينة . ولعل سبب ذلك راجع الى عدم وجود وحدة فكرية تربط المصالح السياسية والاقتصادية وتقويها في اطار فكري قومي يصون الوحدة ويحميها من التصدع والتفكك .

لقد اقتصرنا في هذه الدراسة على محاولات الوحدة العربية التي انطلقت من الجنوب وامتدت لتشمل مساحة واسعة من الجزيرة العربية ، ونعلم ان هناك محاولات اخرى كان شمال الجزيرة العربية ووسطها منطلقها الاساسي ، ولعل الفرصة تتاح لنا في المستقبل او للباحثين بالقيام باستقصاء ودراسة لتلك المحاولات .

هوامش

1 - Reallexikon der Assyriologie , P . 125
A . Grohmann , Arabien , P . 21 .

2 ـ ى . ١ . بليايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ص 100 .

3 ـ ت . نولدكه اللغات السامية ص 29 ، ص 92 .

4 ـ ى . ا . بليايف ، المصدر السابق ص 118 وراجع الدكتور مصطفى جاورك : الحياة في الشعر الجاهلي ص 13 وما بعدها .

5 - A . Gron - Mann op . cit P . 21 .

6 - H . Stj . B . Phliby , The Baekground of Islam P . 10 .

7 ـ وهي تقع في بلاد مراد ولا تبعد عن مارب او صرواح اكثر من مسيرة يوم واحد .

8 ـ الدكتور احمد فخري ، احدث الاكتشافات الاثرية في اليمن ص 262 .

9 ـ راجع حول الموضوع ما كتبه جاك ركمانز في كتابه المشهور :
H . von . Wissmann - M . Höfner , cit . P . 77 .

10ـ راجع ما كتب عن النقش في
L'institution Monarehique , PP . 178-182 .

11- A . Grohmann , OP. Cit . P . 18 .

12ـ محمد عبدالقادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ص 66 .

13- H . von . Wissmann - M . Höfner, Beiträge, PP. 75 - 77 .

14ـ محمد عبدالقادر بافقيه ، المصدر السابق ص 77 وما بعدها .

15- Sabaean Inseriptions , P . 302 .

16ـ قارن مع الدكتور عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص11.

17- Le Muséon , 3 - 4 P . 45 .

18ـ راجع تفصيل النقش في :
Sabaean Inseriptions , PP. 322 - 323 .

19- ibid . P . 326 .

20ـ محمد عبدالقادر بافقيه ، المصدر السابق ص 144 .

21- Le Muséon , 3 - 4 , P. 452 .

22- Sabaean Inseriptions , PP. 163 - 164 .

23- Le Muséon , 3 - 4 , P . 486 .

24- ibid . P . 487 .

25- Sabaean Inseriptions , P . 372 .

26ـ نقلا من الدكتور جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 573/2 .

27ـ نفس المصدر 595/2 .

مصادر البحث

1 ـ الدكتور احمد فخري ، احدث الاكتشافات الاثرية في اليمن / المؤتمر الثالث للاثار في البلاد العربية / القاهرة / 1961

2 ـ ى . ا . بليايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية / نقله الى العربية الدكتور انيس فريحة ، بيروت 1973 .

3 ـ الدكتور جواد علي / المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام بيروت 1968

4 ـ الدكتور عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت 1969

5 ـ محمد عبدالقادر بافقية ، تاريخ اليمن القديم ، بيروت 1973

6 ـ ت . نولدكه ، اللغات السامية ، ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب ، القاهرة 1963

7 - A . Grohmann , Arabien , Munchen , 1963

8 - A . Jamme Sabaean Inscriptions from Mahrom Bilqis (Marib) Baltimore 1962

9 - Le Museon , Lxxvii , 3-4 , Louvain , 1964

10- H. Stj . B . Phliby , The Baekground of islam ALexandria 1947

11- Reallexikon der Assyriologie , Berlin - Leipzig 1932

12- J . Ryckmans, L'institution Monarchique en Arabie Meridional avant L'islam (Main et Saba) Louvain , 1951

13- H. von . Wissmann - M. Hofner , Beitrage Zur historisehen Geographie des vorislamischen Sudarabien , Wies badan , 1953

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. ياسين خليل

منطق الحل

HEURISTIC LOGIC

1 – اعتاد الباحثون منذ ان وضع ارسطو (384 – 322ق.م) مؤلفاته المنطقية التي اشتملت على كتاب المقـولات Categoriac وكتـاب العبـارة De Interpretatione وكتاب التحليـلات الاولى Analytica Priora وكتـاب التحليـلات الثانية Analytica Posteriora وغيرها ، استخدام لفظة منطق Logic بمعنى الاستدلالات والاستنتاجات من مقدمات مفروضة وصولا الى نتائج تلزم عن المقدمات بالضرورة ، بحيث يشمل المنطق كما هو الامر في الوقت الحاضر جميع انواع الاستدلالات وبناء الانظمة الصورية Formal Systems والبراهين على القضايا بالاشتقاق . وارتبط المنطق بالرياضيات والعلوم البرهانية ، سواء من حيث الطريقة التي تعرف الآن بالطريقة البديهية Axiomatic Method ، او من حيث ارتباط المفاهيم الرياضية بالمفاهيم المنطقية ، بحيث اصبح المنطق اساسا للرياضيات البحتة عن طريق رد المفاهيم الرياضية الى مفاهيم منطقية ، فلم يعد بين المنطق والرياضيات ما يفصلهما ، فاصبح المنطق اكثر رياضية ، واصبحت الرياضيات اكثر منطقية . فالمنطق يمثل شباب الرياضيات ، وتمثل الرياضيات رجولة المنطق(1) . وقد تحقق هذا الانجاز الكبير على يد برتراند رسل (1872–1970) والفريد نورث وايتهيد (1861–1947) في مؤلفهم الذائع الصيت « اصول الرياضة » Principia Mathematica الـذي يقع في ثلاثة اجزاء(2) . وتوالت الدراسات المنطقية في القرن العشرين وتعددت الفلسفات التي تقوم عليها ، وتنوعت المدارس في فهم العلاقة بين المنطق والرياضيات ، واشتهر عدد كبير من علماء المنطق ، كما وجد المنطق الرياضي طريقه في العلوم الاخرى وفي الحاسبات الالكترونية ، فغدا علما لايمكن الاستغناء عنه في العلوم النظرية والتطبيقية .

2 – وللمنطق الرياضي صلة بما يعرف بالمنطق الهورستيكي او منطق الحل ، وهو كغيره من المعارف العلمية بدأ بسيطا ثم تطور بالتدريج لتكون له في النهاية قواعد واصول خاصة به . ولكننا سوف لا نتناول المنطق الرياضي بالبحث على الرغم من علاقته واهميته بموضوع بحثنا ، الا اننا في الوقت نفسه سوف لانهمل النتائج المهمة التي زودنا بها المنطق الرياضي في القرن العشرين ، وسيكون تركيز البحث منصبا على منطق الحل دون غيره .

لقد ساهم في تطوير هذا المنطق عدد كبير من العلماء والفلاسفة، واصبحت له اهمية كبيرة في الدراسات الحديثة النظرية والعملية . وغايتنا ان نتعرف على هذا النوع من الانواع المنطقية وفوائده العلمية والعملية .

ان كلمة Heuristic صفة تطلق على فن الاختراع او بعبارة ادق : فن اكتشاف الحل اوالفن المؤدي الى الاكتشاف . وبالتالي فان المنطق الهورستيكي هو علم القواعد المؤدية الى الحلول وتتبع العمليات عن طريق البحث عن الاساليب المؤدية الى الحلول وتتبع العمليات العقلية او المنطقية التي يطرحها الباحث عند مواجهة مشكلة ما ، في فهم المشكلة واكتشاف خطة العمل وتنفيذ الحل بايجاد قيمة المجهول .

وعلى الرغم من متانة العلاقة بين الهورستيكا والرياضيات والفيزياء ، فانها في الوقت نفسه ذات اهمية بالغة لكل العلوم وللحياة اليومية ، لان الاساليب العديدة التي يطرحها المنطق الهورستيكي لحل مشكلات رياضية او فيزياوية تعبر من حيث الاساس عن القواعد المتنوعة للحل عند مواجهة المشكلات . واذا علمنا ان حل اية مشكلة يعتمد بالدرجة الاولى على ضرورة فهمها ووضع اليد على السبب المؤدي الى اثارتها ، ثم مواجهتها عن طريق رسم خطة في الذهن بعد الافادة من كافة المعطيات المتوفرة ، وتنفيذ الخطة المؤدية الى الحل ، فان الاساليب التي يطرحها المنطق الهورستيكي توفر لكل باحث في موضوع او حقل قواعد منطقية وعقلية يستخدمها عند الحاجة ، كما توفر له اساسا متينا لاكتشاف طرق اخرى للحل .

3 – وانه لما لاشك فيه ان ابرز من تناول المنطق الهورستيكي بالتطوير هم علماء الرياضيات والفلاسفة ، فكثيرا ما نجد المؤلفات الرياضية توضح طريقة الحل والاسلوب الامثل المؤدي الى حل المشكلة موضوعة البحث والبرهان عليها . ولكننا نجد ان طائفة اخرى من العلماء والفلاسفة ركزوا اهتمامهم على تنويع الحلول واختراع اساليب جديدة ومبتكرة منها لتعليم الناس كيفية ايجاد المجهول وطرق رسم الخطة وتنفيذها . وقد برز من بين هؤلاء العالم الرياضي بابوس Pappus الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ، وخلف لنا كتابه المعروف بالمجاميع الرياضية الذي يقع في ثمانية كتب ، وجاءت في الكتاب السابع ملاحظاته في طرق حل المشكلات الهندسية بطريقتي التحليل والتركيب ، فهي مجموعة القواعد التي تؤهل الفرد لحل المسائل الرياضية . واهتم العلماء العرب بهذا العلم عند دراستهم للرياضيات بصورة عامة وللهندسة الاقليدية بصورة خاصة ، فبرز منهم ابراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت 335هـ – 946م) الذي كتب مقالة تحت عنوان «في طريق التحليل والتركيب»(3) ، بين فيها طرق استخراج المسائل الهندسية ومايحتاجه المتعلم في التحليل والتركيب من تقسيم واشتراط .

وبرز العالم الفيزياوي والرياضي الكبير الحسن بن الهيثم (965–1038) الذي الف كتابا في التحليل والتركيب الهندسيين على جهة التمثيل للمتعلمين ، وهو مجموع مسائل هندسية وعددية حللها وركبها(4) . ومن ابرز علماء الرياضيات العرب محمد بن موسى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخوارزمي (ت/850م) الذي ابتكر طرقا كثيرة لحل المسائل الحسابية والجبرية حتى غدت لفظة Algorithm المحورة عن اسمه «الخوارزمي» صفة تحمل على مجموعة الطرق او العمليات الصحيحة المؤدية الى الحل .

4 ــ ومن العلماء الفلاسفة الذين ساهموا في اغناء المنطق الهورستيكي في العصر الحديث كل من رينيه ديكارت (1596ــ1650) وجوتفريد فلهلم لايبنتز (1646ــ1716) وبرنارد بولتزانو (1781 ــ 1848) . ولديكارت مقالة في الطريقة يبين فيها اهتمامه بالمنطق والتحليل الهندسي والجبر ، واتجاهه لبحث طريقة اخرى تتميز بالشمول في احتوائها على قواعد عامة قليلة ذات فوائد للعلوم تبعد الباحث عن الوقوع في الاخطاء وتهديه الى الصواب .

وهذه الطرق هي :ــ

اولا : ان لا اقبل اي شيء انه صادق ما لم اعرف بوضوح انه كذلك، وبعبارة أخرى : ان اتجنب بحذر التسرع والتحيز ، وأن لا اضم اي شيء اكثر في حكمي مما يعرض لعقلي بوضوح وتمييز لازالة كافة اسباب الشك .

ثانيا : أن اقسم كل مشكلة من المشكلات قيد البحث الى اكثر مايمكن من الاجزاء وما يؤدي بالضرورة الى حلها المناسب .

ثالثا : ان اسلك بافكاري بترتيب بحيث اشرع بالاشياء الابسط والاسهل معرفة ، فارتقي قليلا قليلا ، وخطوة بعد خطوة، الى معرفة ما هو اكثر تعقيدا ، محددا بالفكر ترتيبا معينا حتى لتلك الموضوعات التي هي من حيث طبيعتها لاترتبط بعلاقة السابق واللاحق .

رابعا : واخيرا ان اقوم في كل حالة باحصاء تام ، ومراجعة عامة بحيث اكون متاكدا بان شيئا لم يحذف(5) .

لا شك ان هذه القواعد التي تعرف على التوالي : القاعدة البديهية، والقاعدة التحليلية ، والقاعدة التركيبية ، وقاعدة الاحصاء التام ، مرتبطة اشد الارتباط بالرياضيات ، وان المشكلات التي يسعى ديكارت الى حلها بواسطة هذه القواعد هي مشكلات هندسية وجبرية. ومن الغريب ان يشتهر ديكارت بهذه القواعد في عالم الفلسفة والمنطق الهورستيكي ، بينما لاتذكر المصادر جهود ابراهيم بن سنان الحراني في تثبيت قواعد لاتختلف كثيرا عن قواعد ديكارت ، وزود بحثه بامثلة رائعة من الهندسة في الطرق المؤدية الى الحلول(6) .

5 ــ ووضع لايبنتز وهو عالم الرياضيات والفيلسوف برنامجا شاملا يعتمد الابجدية الفكرية في تدوين الافكار البسيطة والمركبة باسلوب رمزي بالطريقة المستخدمة في الرياضيات . وقد استخدم لتحقيق برنامجه الطريقة الارتباطية او مايعرف عنده بالفن الارتباطي Ars Combiratoria ، والطريقة المعروفة بفن الاختراع Ars Inveniendi ، حيث يشتق المرء من مقدمات مفروضة جميع النتائج ، وفن التقرير Ars Indicardi ، حيث يتمكن المرء من تقرير ما اذا كانت النتائج والاستدلالات صحيحة . ولابد ان نشير هنا الى حقيقة تاريخية مهمة هي ان كلا منديكارت ولايبنتز قد اطلعا على دراسات ريماندوس لولوس (1232ــ1316) ، وتاثر الثاني بها الى حد كبير . ومن المعروف ان لولوس الذي عاش بين العرب في الاندلس وصقلية قد نقل الكثير من المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية، وكان يجيد اللغة العربية . ويعود الفضل الى العلماء العرب في ابتداع الطريقة الارتباطية في المنطق وما يتصل بها من فنون للحصول على جميع الممكنات او الاحتمالات وتقرير الصحيح منها(7) . وقد اشار الى ذلك بوخنسكي بقوله : «ان التفكير في ابتداع طريقة ميكانيكية تسهل على المرء الاستنتاج متضمنة في الفن الارتباطي لقدماء الشراح ، عند العرب والمدرسيين»(8).

وبذل بولتزانو وهو عالم المنطق جهدا كبيرا في اظهار اهمية فن حل المشكلات في الجزء الثالث من كتابه المشهور «نظرية العلم»(9) ، وكانت غايته واضحة في ابراز قواعد البحث وطرقه التي يتبعها الباحثون والمتخصصون والعلماء . وتكتسب ابحاث بولتزانو اهمية لانها تمثل مجموعة الطرق والعمليات التي ابتكرها علماء الرياضيات في الماضي والعصر الحديث حتى القرن التاسع عشر ، كما تمثل من وجهة نظر بولتزانو الاساليب التي يتبعها العلماء من حيث يشعرون او لايشعرون عند حلهم للمسائل والمشكلات التي تعترض سبيلهم .

ان التطور الكبير الذي رافق العلوم في القرن العشرين والاتجاه بالمعرفة العلمية نحو التدوين الرمزي والبراهين والاستدلال قد زود عالم المنطق الهورستيكي باساليب جديدة ومبتكرة لحل المسائل . وقد استطاع بوليا في كتابه المعروف «البحث عن الحل»(10) ان يضم اشهر الطرق والاساليب في حل المسائل متأثرا بالبحوث الرياضية القديمة والحديثة والتطورات التي رافقت المنطق الرياضي وما افاد به لعلم الرياضيات .

6 ــ ان البحث عن طرق او عمليات موجودة او غير مكتشفة يعد جوهر الهورستيكا . فاذا تصورنا المسألة او المشكلة في طرف والحل في طرف آخر ، فان بين الطرفين عددا من الافعال المنطقية والتربوية والنفسية التي ينتقل بها الفرد من اول المسألة حتى يتم اكتشاف الحل .

ولابد لنا ان نميز بوضوح بين المشكلة الموضوعية والمشكلة الذاتية فالاولى مسالة فيها مطلوب او مجهول ، وعلى الباحث تقع مهمة ايجاد الحل والتثبت من صحته ، بينما الثانية مسالة تتعلق بالوضع النفسي للفرد تعبر عن توتر او تازم من دون ان يكون لهذا التازم علاقة بمجهول او مطلوب يحتاج الى حل . وقد يكون هذا التوتر ناجما عن سبب وهمي او وضع اجتماعي معين، وانه لينتهي بالتالي عند انتهاء السبب او تغيير ظروف الوضع .

ان المشكلة التي نعالجها هي المشكلة الموضوعية ، وان الحل الذي توفره لها يعتمد بالدرجة الاولى على عدة عناصر اساسية هي :ــ

اولا ــ ادراك واضح لكل جوانب المشكلة ، بحيث يفهم الفرد جميع المعطيات المتوفرة باعتبارها اساسية ونقطة البداية المؤدية الى الحل ، وان يميز الفرد الذي يواجه المشكلة بين عناصرها وهي المعطيات والمطلوب او المجهول وما تشترطه المشكلة . وان يعمق ادراكه للعلاقات بين هذه العناصر وكيفية الافادة من جميع المعطيات المتوفرة مع تثبيت المجهول او المجهولات ان كانت كثيرة.

ان الادراك الواضح للمشكلة يتطلب بالدرجة الاولى ان تكون اللغة المستخدمة في التعبير عنها واضحة لاتثير اللبس والابهام ، وان تكون المفاهيم المستعملة فيها معلومة او معروفة وقد عبرت عنها اللغة وعن علاقاتها

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

باسلوب بسيط بعيد عن التعقيد . واذا ما واجه الفرد اسلوبا معقدا ، فان عليه واجب فهم المشكلة اولا قبل الشروع بالحل ، ثم تحليل الاسلوب الى عناصره ثانيا، ثم بذل مايستطيع لحذف الزيادات غير المهمة لطرح المشكلة باسلوب ابسط ثالثا شريطة ان لايؤثر ذلك على جوهر المشكلة قيد البحث .

ثانيا : وضع خطة للحل عن طريق الافادة من المعطيات المتوفرة في المشكلة من جهة ، وضرورة ربطها بالمطلوب او المجهول من جهة اخرى ، ورسم صورة ذهنية واضحة للعمليات او الخطوات التي يتم اتباعها بلوغا الى اكتشاف الحل. وقد يلجأ الفرد عند الضرورة لتكون صورة واضحة في ذهنه الى تذكر طرق حل المشكلة قريبة الشبه من مشكلته ، او يستعين بمعرفة سابقة لمشكلة تعتبر جزءا من مشكلته الحالية ، وان حلها معناه الاقتراب الى حل مشكلته الرئيسة . وفي كل هذه الحالات يحاول انيرسم هيكلا واضحا لجميع الخطوات ابتداء بالمعطيات وانتهاء باكتشاف الحل .

ثالثا : اتخاذ القرار من اجل تنفيذ الخطة المرسومة ، خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان بين وضع الخطة والتنفيذ فاصلة زمنية ، وان نجاح الخطة يعتمد على اتخاذ القرار في الوقت المناسب ، لأن التردد في اتخاذ القرار قد يجعل من الخطة المرسومة مجرد تخطيط نظري ، وتضيع عندئذ جميع الجهود سدى ، وان التسرع في اتخاذ القرار قبل وضوح خطوات الخطة ومستلزماتها قد يؤدي الى عدم الوصول الى الغاية مع ضياع في الوقت والجهد .

ان اتخاذ القرار للتنفيذ يجب ان يكون بعد استكمال جميع خطوات او عمليات الخطة مباشرة ، وان المتابعة تكون ضرورة ابان مراحل التنفيذ وبعد اتخاذ القرار مباشرة .

رابعا : الانتقال بالخطة الذهنية او المرسومة بعد اتخاذ القرار الى مرحلة التنفيذ ،وذلك بتحويل الهيكل الذي وضعه الفرد حلا للمشكلة الى خطوات عملية يرى من خلالها وضوح الحل ، اذ من الضروري ان تكون خطوات الحل التنفيذية متتابعة تظهر فيها جوانب الحل بوضوح ، فتضيف كل خطوة الى ماقبلها شيئا يقربنا الى الحل، والا سارت الخطوات باتجاه غير مفيد قد يؤدي الىعرقلة الوصول الى الحل النهائي . لذلك فان الشرط الذي تؤكد على توفره اثناء تنفيذ الخطة هو ان تساهم كل خطوة من خطوات الحل في توضيح الصورة الذهنية لامكانية اكتشاف الحل ، وان نتذرع بالصبر والبصيرة لاستلهام الفكرة النيرة او الصائبة .

خامسا : تقويم النتائج ومراجعة الحل بعد الانتهاء من تنفيذ الخطة ، اذ من الضروري ان نراجع خطوات التنفيذ لمعرفة التتابع او التلازم المنطقي بين المقدمات والنتائج، وان نحصي بشكل تام جميع العناصر اللازمة للتنفيذ، بحيث يكون الحل تاما ، فلا يغيب عنه عنصر مهم ، او خطوة اساسية ، وان نكون على ثقة باننا قد استخدمنا بالفعل جميع المعطيات الضرورية في الحل .

ان التأكد من الحل او من التنفيذ مسألة بالغة الاهمية ، لاننا نتعلم منها ضرورة التثبت من النتيجة ، كما تفيدنا بعض الاحيان في اكتشاف خطة اقصر توصل الى لحل واستخدام الطرق المستعملة في الحل مستقبلا.

7 – ان هذا التحليل لعناصر المشكلة والحل يقودنا بالضرورة الى التمييز بين انواع المشكلات ، وانه من الخطأ الاقتصار على بحث المشكلات الرياضية والمنطقية لفهم الطرق او العمليات المؤدية الىالحل. وارى ان افضل تقسيم لانواع المشكلات هو ان نميز بين مجموعتين منها هي على التوالي :

مجموعة المشكلات النظرية التي تتصف في الغالب باثارتها للتفكير واعتمادها على الابتكار النظري في رسم خطة الحل وتنفيذها. ومثل هذه المشكلات متوفرة عادة في العلوم الاساسية والبحتة . مثل الرياضيات والمنطق والفيزياء . فالمشكلات المدرسية التي يقصد منها تدريب الطالب على ادراك المشكلة وضرورة اكتشاف حل لها ، والمشكلات البرهانية وهي النوع الذي نصادفه عند دراسة نظرية برهانية في الهندسة والحساب ، هي مشكلات نظرية .

فالمشكلات المدرسية نوع يتوخى منها ان تكون ذات طبيعة تربوية ، اذ تربي في الطالب القدرة على الحل او تطبيق طريقة سبق ان تعلمها في السابق . ومن الامثلة البسيطة على ذلك ما يقوم به الاستاذ في علم الهندسة او المثلثات والجبر ، حيث يقدم للطالب معلومات او معطيات معينة يستفيد منها لحل المشكلة عن طريق تطبيق نظرية هندسية او معادلة جبرية لايجاد المجهول . وقد يتكرر تطبيق النظرية الهندسية او المعادلة الجبرية عدة مرات لتمرين الطالب على كيفية ايجاد الحل واكتساب المهارة.

ولا تقتصر هذه المشكلات على الهندسة والمثلثات والجبر، بل تتعداها الى المشكلات في الفيزياء والكيمياء والاقتصاد وفي جميع العلوم التي تستخدم الرياضيات . والمشكلات البرهانية نوع نصادفه عند دراسة نظرية برهانية في الهندسة والحساب مثلا ، اذ نجد اولا مجموعة معينة من التعريفات والبديهيات والقواعد الاستنتاجية التي يشترط حل المشكلات في ضوئها فقط . وتتميز مشكلات هذا النوع انها من صميم النظرية وليست مجرد تطبيقات مدرسية ، لان البرهان على المشكلة معناه اكتشاف حل لها ، واستخدامها من جديد لحل مشكلات تالية اخرى .

ان الطريقة البديهية Axiomatic Method او البرهانية المستخدمة في المنطق والرياضيات والفيزياء النظرية(11) هي الاساس الذي يبنى عليه صرح النظريات العلمية ، فتوفر الحلول المناسبة لمشكلات او مسائل من صميم البحث عن طريق استخدام الاساليب الاستدلالية والبرهانية المتوفرة فيها .

ومن المشكلات التي نضيفها الى هذا النوع مشكلات البحث العلمي،وهي النوع الشائع في العلوم الطبيعية . فكثيرا ما يصادف الباحث حالات تجريبية او حوادث يحاول ايجاد تعليل لها في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضوء المفاهيم والطرق العلمية والقوانين المتوفرة لديه ، ولكن من المحتمل جدا ان يجد حالات لاتستطيع خبراته التجريبية والنظرية ايجاد حل لها .

وفي ضوء ماتقدم يجدر بنا الان ان ننظر الى المفاهيم والطرق المتوفرة في حل المشكلة على النحو الآتي :ـ

اولا : من الممكن ان تواجه الباحث مشكلة ما ، فيحاول ايجاد حل لها من خلال المفاهيم العلمية ذات الصلة بالمشكلة ، ومن خلال الطرق العلمية التي سبق ان توصل اليها ، وقد اثبتت جدارتها . وقد يلجأ الباحث الى عرض المشكلة بطريقة جديدة ليستطيع عندئذ استخدام المفاهيم والطرق المعروفة .

ثانيا : من الممكن ان تواجه الباحث مشكلة ما ، فيحاول ايجاد حل لها من خلال المفاهيم العلمية ذات الصلةبها ، ومن خلال طرق علمية جديدة يبتكرها ، شريطة ان تكون النتائج المستحصلة مساهمة في حل المشكلة . وقد يلجأ الباحث الى تطوير اساليب البحث العلمي ليستطيع عندئذ استخدامها بنجاح في حل المشكلة .

ثالثا : من الممكن ان تواجه الباحث مشكلة ما ، فيحاول ايجاد حل لها من خلال طرح مفاهيم علمية جديدة ، ومن خلال طرق علمية استخدمت فيما سبق لحل مشكلات مختلفة .

رابعا : من الممكن ان تواجه الباحث مشكلة ما ، فيحاول ايجاد حل لها من خلال استحداث مفاهيم جديدة مناسبة ، ومن خلال ابتكار او تطوير اساليب البحث العلمي .

ان معظم الثورات العلمية التي حدثت في الرياضيات والفيزياء كانت نتيجة استحداث مفاهيم جديدة وطرح طرق جديدة في البحث العلمي(12) .

8 ـ **مجموعة المشكلات العملية** التي تتصف بخصيصة اساسية هي صلتها المباشرة بالعلوم التطبيقية والحياة العملية اليومية كما تختلف من حيث الطبيعة عن المشكلات النظرية بأن معظمها متعدد الاتجاهات ومتغير اثناء عملية تنفيذ خطة العمل والحل . فالمشكلة النظرية مسالة مطروحة امام الباحث تنتظر الحل ، وعليه واجب تحقق المطلوب او اكتشاف المجهول . وهذا معناه ان الحل انما يتجه الى المشكلة وهي في حالة ساكنة لاتتغير معطياتها او تتعدد مجهولاتها . اما المشكلة العملية فتتميز بكونها متغيرة ، وان الحل لايتجه باتجاه واحد ، بل قد يكون باتجاهات متعددة .

ان افضل تشبيه نسوقه على المشكلات العملية هو لعبة الشطرنج ، حيث يشترك لاعبان ، يواجه كل واحد منهما اثناء اللعب مشكلة يسعى الى حلها بتحريك احد احجار اللعبة . وتستمر اللعبة ويتغير طريق الحل وتتنوع المعطيات . ويرسم اللاعب خطة في ذهنه ويتوقع من اللاعب الاخر تحريك حجر ما. وهكذا يستمر اللعب . اما قواعد الحل او العمليات المستخدمة في اللعب فهي واحدة عند اللاعبين ، اذ يعرف كل منهما ان لكل حجر في اللعبة قاعدة خاصة لايجوز تجاوزها ، وان تحريك حجر ما يستدعي اولا معرفة صنفه وطريقة حركته . وفي النهاية تكون الغلبة لاحد اللاعبين ، حيث لم تعد اية مشكلة موجودة على الاطلاق .

ان اقامة مشروع معين يدخل من دون شك في صلب مانبحثه الآن ، وان غاية مانريده في هذا المثال كشف المعطيات والشروط وطرق الحل . فالمجهول في المشروع او المطلوب لتحقيقه ليس واحدا ، بل عدة اشياء مثل المكان الذي نقيم عليه المشروع والمواد التي نستعملها في البناء وخارطة البناء المناسبة وغير ذلك. ويفترض في المشروع ان يحقق عدة حاجات اقتصادية واجتماعية وصناعية وغير ذلك ، وان تكون تكلفته ليست عالية جدا . وان يتم بناؤه في وقت معين ، وأن تكون نتائجه جيدة وغير ذلك .

اما المعطيات فهي كثيرة ومتغيرة ، منها ان نعرف تكاليف المواد واجور الايدي العاملة ، وحالة الارض التي يقام عليها المشروع ، وكمية الاملاح فيها ، بعدها او قربها من المزارع والشوارع والمصانع الاخرى ذات العلاقة وهكذا .

ولتنفيذ هذا المشروع يجب ان تكون لدينا خطة واضحة تعتمد على معارف سابقة وخبرة هندسية وفنية ضرورية لاقامة المشروع ، ومعرفة بالقدرة الانتاجية وغير ذلك .

وكثيرا ما تواجه المنفذ للمشروع مشكلات لم يحسب لها حسابا ، لذلك فان عليه ان يكون على استعداد كامل للتعامل مع هذه المشكلات التي قد تؤدي الى عرقلة المشروع في الوقت المحدد او تؤدي الى عدم اكمال تنفيذه على الاطلاق .

وفي المختبر يواجه العالم التجريبي مشكلات من نوع جديد تتركز حول تصميم التجربة المختبرية والنتائج المترتبة عليها عند دراسة الظاهرة . فالظواهر الطبيعية لايمكن دراستها بصورة دقيقة وهي حرة في الطبيعة ، بل انه من الصعب والمستحيل ملاحظة او دراسة الظاهرة خارج حدود المختبر نظرا لتشابكها مع ظواهر طبيعية اخرى تؤثر عليها وتتاثر بها . ففي الطبيعة تتشابك الظواهر بعضها ببعض ، بحيث ان دراسة او مراقبة ظاهرة ما لايمكن ان تؤدي الى نتيجة مضبوطة ، وذلك بسبب تاثير الظواهر الطبيعية المتداخلة معها . لذلك فان المشكلة التي تواجه الباحث هي كيف يستطيع نقل الظاهرة الى المختبر لكي يستطيع عزلها عن جميع الظواهر الاخرى . وهذا يستدعي بالضرورة تصميم جهاز مختبري مناسب يعمل على حصر الظاهرة من جهة مع تقييد لكل العوامل المتغيرة التي تحيط بالجهاز والتي قد تؤثر على سلوك الظاهرة من جهة اخرى . ثم دراسة العلاقة السببية للظاهرة ومعرفة كيفية سلوكها . ومن الامثلة البسيطة على ذلك ظاهرة سقوط الاجسام من مرتفع معين من الارض . فمن الملاحظ ان تعجيل الاجسام الساقطة يتفاوت اذا اختلفت الكتل من حيث الخفة والثقل . ولكن السؤال الذي يلقيه عالم الفيزياء على نفسه هو ماذا تكون النتيجة اذا استطعنا ان نقيد الظاهرة مختبريا ونعزلها عن تاثير مقاومة الهواء للاجسام ؟

اذا لابد من جهاز مختبري لايدع لتاثير مقاومة الهواء للاجسام الساقطة اية فاعلية . وهنا يلجأ الباحث الى تفريغ الهواء من جهاز مصمم لهذا الغرض ويلاحظ سقوط الاجسام ذات الكتل المختلفة ، فيرى النتيجة ان جميع الاجسام الساقطة بغض النظر عن التفاوت بين كتلها ذات تعجيل ثابت .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في هذه التجربة لدينا المجهول والمعطيات والفروض والمعارف الاساسية النظرية والعملية في تصميم الجهاز المختبري وتعليل النتيجة .

9 — يقال دائما ان طريقة طرح السؤال بشكل مناسب تمثل نصف الطريق لادراك الحل . ولكن هل يوجد طريق واحد او عدة طرق لحل المسائل والمشكلات النظرية والتطبيقية والعملية ؟

لقد ادرك علماء الرياضيات ان بداية حل المشكلة يتطلب بالضرورة فصل الاجزاء الرئيسة فيها ، ثم دراسة كل جزء منها لوحده ، ثم ربط الاجزاء بعضها ببعض للتعرف على علاقتها بالمشكلة .

ففي المسائل الهندسية عندما يطلب منا اثبات المطلوب في منطوق القضية ، فان افضل الاساليب هو في الفصل بين المفروض والمطلوب ، ثم ايجاد العلاقة بينهما لمعرفة ماقد نراه مناسبا للحل .

اما اذا كانت المشكلة تتطلب ايجاد حل ما ، فان على المرء ان يفصل بين المعطيات والمفروض والمجهول او المطلوب . والغاية من كل ذلك هو تحقيق الوضوح في المسالة من اجل ان نبدأ الخطوة الاولى في البحث عن العلاقة بين المشكلة قيد البحث والمعلومات السابقة .

ان حل المشكلة الرياضية او المنطقية يتطلب معرفة بالعمليات او الاجراءات الصحيحة ، ففي الجبر مثلا عدة قواعد لحل المعادلات لتحديد قيمة المجهول ،وانه من الواجب معرفة جميع القواعد الصحيحة المساهمة في الحل .

كما يعتمد حل المشكلة على معرفة ببناء النظرية والعناصر المكونة لها اضافة الى الطرق المتوفرة فيها . فمن المعروف بين المهتمين بالرياضيات والمنطق ان غاية العالم تتجلى في عرض النظريات على هيئة حساب Calculus واستنتاج النتائج المطلوبة . فما المقصود بالحساب ؟

الحساب نظام يتألف من حدود اولية وصيغ صحيحة البناء تتكون من الحدود ، وقواعد استنتاجية معينة ، بحيث نجد مجموعة محدودة من مقدمات او بديهيات مفروضة تقع في بداية النظام لاتعتقر الى برهان، بينما تقوم القواعد الاستنتاجية باشتقاق جميع الصيغ صحيحة البناء التي تنتمي الى النظام من المقدمات المفروضة(13).

يظهر لنا من هذا التحديد للحساب ان علاقة التتابع او التلازم ضرورية ، وان الصيغة التي نرغب البرهنة عليها يجب ان تكون نتيجة لازمة بالضرورة من مقدمات هي اما بديهيات او مبرهنات Theorems سبق البرهان عليها . فاذا ما واجهتنا مشكلة ما ، فمن الضروري ان نعرف ان البرهان يتم علىها بواسطة بديهيات او قضايا سبق البرهان عليها ، وانه لايجوز استخدام قضية لم تثبت بالبرهان عند حل المشكلة المعطاة .

ان الفهم الواضح لبنية المعرفة الرياضية والطرق الحسابية او الجبرية او الهندسية او المنطقية التي توفرها هذه المعرفة ضرورية لربط المقدمات بالنتائج ، والافادة من جميع القضايا والقضايا المساعدة التي سبق للباحث معرفتها في الحل .

ومن الاساليب التي يلجأ اليها المرء عند اجراء الحل الاستعانة بالرسوم الهندسية او التوضيحية ، لانها تجسد الافكار بشكل واضح ومحسوس فيسهل على الفرد ادراك العلاقة بين المشكلة ومعارفه السابقة ، كما يشير الرسم الى عدة احتمالات قد يجربها الفرد في محاولاته ايجاد الحل المناسب . ويشترط في الرسم ان يستخدم المعلومات او المعطيات المذكورة في المسألة ، وان يظهر فيه بشكل واضح العنصر المطلوب او المجهول الذي تريد الكشف عنه . ويعتبر الرسم مساعدا للحل وليس جزءا اساسيا من عملية اكتشاف المجهول .

10 — ان الاستعانة بالتدوين الرمزي في عرض المشكلة واجراء الحل يفيد كثيرا لفرز المعطيات عن المجهول او المطلوب ، وينقل فكر الباحث من مجال الالفاظ التي غالبا ما تكون غير واضحة العلاقة بعضها ببعض الى مجال الرموز ، حيث تصبح العلاقات بين المعطيات من جهة والمجهول من جهة اخرى جلية واضحة . ومن الامثلة على ذلك ماتذكره المصادر العربية في الجبر ، حيث استخدمت الالفاظ والجمل للتعبير عن المسائل الجبرية وكيفية حلها . وفيما يلي نموذج بسيط منها :

« وكقولك ثلث المال يعدل اربعة اجذار . فالمال كله يعدل اثني عشر جذرا وهو مائة واربعة واربعون وجذره اثني عشر»(14) .

في هذا المثال عدة الفاظ اصطلاحية هي «المال» و «الجذر» و «العدد» ، فالمال في لغة الجبر هو س^2 ، والجذر هو س ، والعدد يقصد به اي عدد موجب من الاعداد . وبناء على ذلك تتحول المسألة وطريقة الحل باستخدام التدوين الرمزي كما ياتي :ـ

ثلث المال يعدل اربعة اجذار $\frac{1}{3}$ س^2 = 4س

المال كله يعدل اثني عشر جذرا س^2 = 12س

والمال مائة واربعة واربعون س^2 = 144

وجذره اثني عشر س = 12

ان الانتقال من لغة الالفاظ والجمل الى لغة رياضية دقيقة لم يكن بالمهمة السهلة ، فكثيرا مانجد مؤلفات رياضية في الماضي تستعمل لغة الالفاظ(15). ولكن التطور السريع الذي رافق تطور العلم الرياضي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين قد زود الباحث في الوقت الحاضر بطريقة دقيقة في التدوين الرمزي ، وقد استخدمها الباحثون بالفعل في مجالات علمية واسعة . وفي الهندسة يجد الباحث ضرورة استبدال الالفاظ بحروف وارقام لتسهل عليه مهمة ايجاد الحل او اثبات مايريد البرهنة عليه ، حتى اصبح من مستلزمات الطريقة الان ان يستخدم الفرد طريقة التدوين الرمزي في معالجة المشكلات الرياضية والفيزياوية والعلوم الانسانية كذلك .

11 — ومن الطرق التي استخدمها عالم الرياضيات قديما وحديثا في حل المسائل واكتشاف المجهول او الوصول الى المطلوب طريقة التحليل والتركيب . ولكن تعدد معاني لفظة «التحليل» ولفظة «التركيب» قد ادى الى غموض الاستعمال ، ولنا في هذا الموضع وقفة نستجلي فيها المعنى الرياضي والمنطقي لهما . فالتحليل يقصد به التجزاة او تقسيم الموضوع الى اجزائه ودراسة هذه الاجزاء على انفراد ، والتركيب يقصد به اعادة بناء الاجزاء في كل مترابط ، بحيث يؤلف هذا الكل وحدة متماسكة من اجزاء وعلاقات .

واستخدم التحليل والتركيب في الرياضيات بمعنى آخر . فاذا كانت لدينا مقدمات مسلم بها واردنا حل مسألة ما ، فاننا قد نتبع في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك طريقين :

اولا : ان نبدأ من المطلوب في المسألة ثم نرتقي خطوة بعد اخرى بارجاع او رد منطقي حتى نبلغ المقدمات المسلم بها والتي سبق لنا معرفتها ومعرفة صوابها او صدقها .

ثانيا : ان نبدأ من المقدمات التي نسلم بها ونتابع الحل باستدلال منطقي حتى نبلغ المطلوب الذي قصدنا التثبت منه .

فالطريقة الاولى هي التحليل ، والطريقة الثانية هي التركيب . فالتحليل هو الحل المعكوس ، حيث يبدأ المرء من المطلوب ويجري عملية استنتاج حتى يصل الى شيء سبق معرفته او مسلم بصحته . وبعبارة اخرى : ان يعود المرء راجعا بالحل فيبدأ بالمطلوب ويسلم به ثم ينتقل الى ربط المطلوب بما يتطلبه من مبدأ او تعريف او مبرهنة ، ويسير بهذا الطريق حتى يبلغ الى مبدأ هوبديهية او قضية سبق البرهان عليها .

اما التركيب فانه طريقة تسير بالحل الى الامام ، فيبدأ المرء بالاشياء التي سبق معرفته لها او التي يسلم بصحتها ، ثم يجري الاستنتاج من اجل الحصول على نتائج متلازمة منطقيا حتى يصل بالاستنتاج الى المطلوب . وهذه هي الطريقة الشائعة في الكتب الرياضية والهندسية .

وتناولت مؤلفات العلماء العرب طرقا مختلفة لحل المسائل الحسابية بعد معرفتهم لجميع العمليات الحسابية والنسبة والتناسب وكيفية استخراج المجهول وغير ذلك . ومن هذه الطرق في استخراج المجهول: طريقة حساب الخطأين ، وطريقة التحليل والتعاكس ، وطريقة الجبر والمقابلة(16) .ومن الطرق المألوفة لحل المسائل الرياضية طريقة البرهان بالجزم وطريقة البرهان بالخلف . فبينما يسير الحل في الاولى من المعلوم الى المطلوب عن طريق مقدمات نسلم بها سواء كانت بديهيات او مبرهنات سبق البرهان عليها ونستنتج منها النتائج بمساعدة قواعد استنتاجية معلومة حتى نصل الى المطلوب ، فتكون جميع الخطوات برهانا على صحة المطلوب ، فان طريقة الحل في الثانية هي ان يبدأ البرهان بافتراض عكس او نقيض النتيجة ، اي اننا لانسلم بصحة النتيجة ثم نجري الاستنتاج ، فاذا ماتوصلنا الى قضية هي نقيض قضية مسلم بها او مبرهن عليها، فهذا معناه ان افتراض نقيض النتيجة غير صحيح ، وان المسألة صحيحة بهذا البرهان .

الهوامش :

(1) Russell, B., Introduction to mathematical Philosophy. p. 194. { George Allen and Nuwin, Ltd Ninth Impression, 1956].

(2) Russell, B., d Whitehead A. N. Principia Mathematica. vol.1., 1910, vol. II, 1912 vol. III: 1913 [Cambridge University Press].

(3) نشرت هذه المقالة مطبعة دائرة المعارف العثمانية في حيدر اباد ـ الدكن سنة 1358هـ .

(4) اشار الى هذا الكتاب ابن ابي اصيبعة في كتابه «عيون الانباء في طبقات الاطباء» ص 555 من مقالة من خط ابن الهيثم فيما الفه وصنفه . منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ 1965) .

(5) Descartes, R., A Discourse on Method P. 15-16 [Everyman's Library. 570].

(6) انظر : ياسين خليل : التراث العلمي العربي ص 132ـ135 [منشورات مركز احياء التراث العلمي العربي ـ جامعة بغداد 1978] .
وسوف اتناول في بحث قادم طريقة التحليل والتركيب مع مقارنة بين الحراني وديكارت .

(7) ياسين خليل : منطق الخوارزمي في الجبر والمقابلة ص 25ـ26 [مجلة التراث العلمي العربي ـ بغداد ، العدد الثاني 1978] .

(8) Bochenski, I.M., Formale Logik p. 318 [Freiburg Munchen, 1956].

(9) Boltzano, B., Wissenschaftslehre, Versuch einer ausfuhrlichen und grostenteils neuen Dorstelung der Logik [Salzback 1837].

(10) ج. بوليا : البحث عن الحل ـ الاسلوب الرياضي من زاوية جديدة ترجمة احمد سليم سعيدان . [منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت] .

(11) انظر : ياسين خليل ـ الطريقة البديهية في المنطق والرياضيات والفيزياء النظرية [مجلة كلية الاداب العدد 21 لسنة 1977] .

(12) ياسين خليل : منطق البحث العلمي ص 100ـ102 [مطبعة دار الكتب ـ بيروت ، 1974] .

(13) ياسين خليل : منطق المعرفة العلمية ـ القسم الثالث ، الفصل الثاني ـ [منشورات الجامعة الليبية ـ كلية الاداب ـ 1971] .

(14) الخوارزمي ـ محمد بن موسى : كتاب الجبر والمقابلة ص 17 تقديم وتحقيق د. علي مصطفى مشرفه ود. محمد مرسى احمد [دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ مصر 1968] .

(15) ان اول من استعمل الرموز بدل الالفاظ في علم الجبر العالم العربي ابو الحسن علي بن محمد القلصادي (ت/1486) في كتابه «كشف المحجوب من علم الغبار».

(16) انظر المقالة الخاصة في استخراج المجهولات بالجبر والمقابلة والخطأين وغيرهما من القواعد الحسابية ، من كتاب جمشيد غياث الدين الكاشي : تحقيق وشرح احمد سعيد الدمرداش ومحمد حمدي الحفني الشيخ [دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البذرة التي نمت .. الحق

كريستوفر مايهو

«كل ما يحتاجه الشيطان من اجل النجاح هو الا يعمل الطيبون شيئا » ادموند بروك

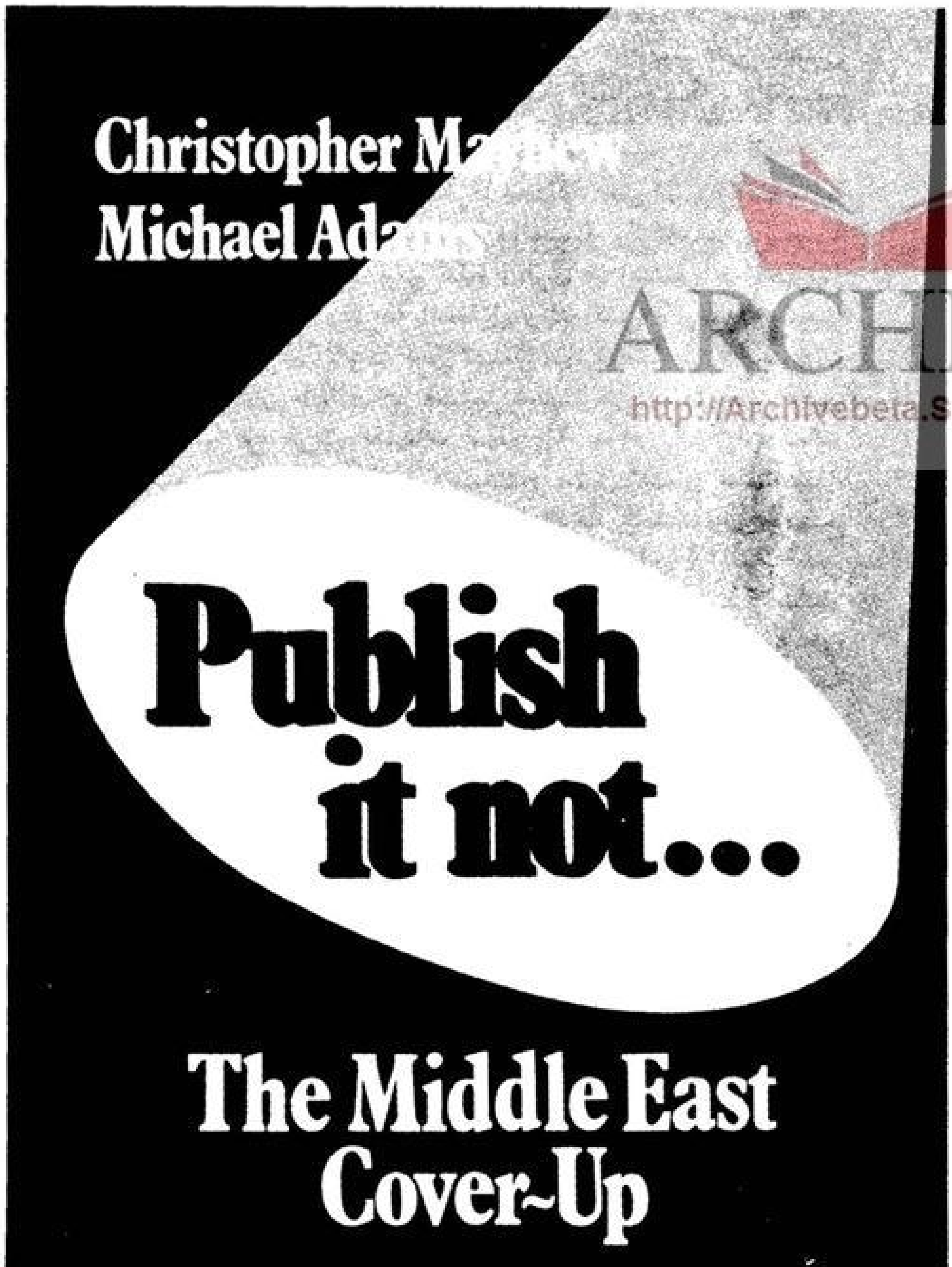

● كان كريستوفر مايهو من الطيبين الذين عملوا الكثير من اجل قضية فلسطين وجوبهوا بالقسوة والعنف من قبل الصهيونية ووكلائها في بريطانيا .

كان مايهو نائبا عماليا في مجلس العموم وكان وكيلا لوزارة الخارجية عندما كان بيفن وزيرا للخارجية وتكونت قناعته في حق الشعب العربي في فلسطين من خلال ذلك وهو الآن نائب رئيس مجلس تنمية التفاهم العربي البريطاني .

ومن اعماله انه اشترك مع الصحفي مايكل آدامز في كتابة كتاب عن القضية اسمياه "Publish it not" فيه الكثير من الحقائق التي كانت خافية على القارىء العربي وما يجري وراء كواليس المحافل والمجالس من ضغوط صهيونية تغمط حق العرب وما صاحبها من عنف تجاه من يبدي رايا مع الحق .

وسرعان ما اختفى هذا الكتاب من الاسواق فالصهاينة لايريدون له أن ينتشر ويعرف الناس حقيقتهم .

وعندما وقع الكتاب بايدينا راينا الا نحرم قراء «آفاق عربية» من بعض ما جاء فيه وفي هذا العدد ننشر قسما مما كتبه السيد مايهو .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربي"

ترجمة: عفراء زيدان

« كان خطا من بريطانيا في حينها وهي في عز قوتها والعرب في ضعفهم السماح للضغط اليهودي بخلق وطن قومي في فلسطين والاعتداء على المصالح الحياتية للفلسطينيين العرب . وكان خطا بعد ثلاثين عاما ان انصاع الامريكان للضغوط الصهيونية لتحويل الوطن القومي الى دولة يهودية ضد رغبات ومصالح الاكثرية من السكان من عرب فلسطين وكان خطا ايضا بعد حرب 1967 الاذعان المتزايد من الغرب للاحتلال الصهيوني والظلم في فلسطين واحتلال القدس العربية وابادة القرى العربية وتاسيس مستعمرات يهودية بدلها . كل هذه هي « شياطين اجتماعية » وهي بلا شك لا تمر دون ان تولد ردود فعل لها فتولدت حركة المقاومة الفلسطينية . اذ لا يوجد في اعتقادي من رفض علنا وباستمرار اعمال العنف العربية اكثر مما فعلنا الا انه من الضروري التذكير ان اعمال العنف هذه لم توجد الا لان فلسطين قد وقعت تحت انتداب الاجانب وطرد منها مئات الآلاف من سكانها الاصليين لفسح المجال اما م القادمين الجدد الذين لا يمتون للارض باية صلة » .

من مقدمة الكتاب

متى ولماذا تكونت وجهة نظري عن الصراع العربي "الاسرائيلي" ؟

في بحثي عن الوثائق وجدت ان التاريخ بعيد عام 1948 ولكي اكون دقيقا كان ذلك يوم 11 تموز في مجلس العموم ـ كان النقاش عن تأجيل الاعتراف بدولة اسرائيل . وكان قد بدأ النقاش شاب جذاب مهذار من حزب العمال في المقاعد الخلفية السيد هارولد لفر(1) وبطريقة تمثل الحاح الصهاينة في ذلك الوقت بدأ السير لفر المناقشة في الساعة الثامنة صباحا وبعد جلسة استمرت طيلة الليل اختتمت النقاش عن الحكومة اذ كنت آنذاك وكيلا لوزارة السيد ارنست بيفن في وزارة الخارجية ظهر ردي تعبا ومنفعلا .

« كنت اتوقع من صديقي المبجل ان يستجيب الى طلبي بتاجيل المناقشة عن هذا الموضوع وفي هذه اللحظة فالوقت سيء لمناقشة موضوع فلسطين لاسباب سياسية ودبلوماسية ونفسية واضيف ايضا جسدية ومن الواضح جدا ان تغيير السياسة هنا يثبط همة العرب ويشجع اليهود وانا لا انكر ذلك والسبب قد يكون لأن عدم تغييرها هو الحق والعدل او قد تكون ضرورة المصلحة الوطنية ؟ فهل سمع صديقي المبجل طيلة عمره ان للعرب وجهة نظرهم ايضا ؟ ان المشكلة مع صديقي المبجل كما بيّن خطابه كله هو انه لم يكن على تماس كاف مع وجهة النظر العربية فيما يتعلق بقضية فلسطين»(2) .

وحتى بعد مرور هذه الفترة الزمنية كان باستطاعتي تصور المنظر بشكل واضح فقد اكتست الارض والمقاعد في المجلس بالاوراق الممزقة المرمية وكانت مقاعد المعارضة قبالتي خالية الا من شخص واحد مفرد وهو حامل السوط . وفي شرفة المسؤولين على يساري جلس سكرتيري الخاص وكان نصيري الوحيد الحاضر الذي يدعو لي بصمت ان اتمكن من مواصلة القاء كلمتي القصيرة وكان يجلس خلفي بتيقظ كامل واطلاع وتحفز وترابط وعدوانية مجموعة من عشرين الى ثلاثين من اعضاء حزب العما ل المناصرين للصهيونية . كان اكثرهم من اليهود ومن المؤكد ان من بينهم سيدني سيلفرمان (S. Silverman) وموريس ايدلمان (Edelman) وكان من بينهم ايضا العبقري (Mikardo) وايان ميكاردو جدا والسند القوي المناصر وغير اليهودي ديك كروسمان (D. Crassman) والذين استمروا في الجلسة وحضورها مبكرين منذ الثامنة صباحا .

وكان من السهولة عليّ التصور كيف كان احساسي وانا جالس لوحدي في مقاعد الحكومة الامامية اقلب الاوراق الحكومية الرسمية الزرقاء بابهامي والتي كان من الممكن ان يكون خطابي قد طبع عليها لم يكن فكري مع فلسطين ، اذ لم اكن قد ذهبت هناك ولست مدركا الموضوع بشكل كامل . فاحسست بجو العداء المخيم فشعرت بالعصبية والانهاك الشديد . الا انني كنت قويا وثابتا لاعتقادي ان بيفن كان بلا جدال على حق اكثر من هؤلاء الافراد المنفعلين العاطفيين والمتابعين الجالسين خلفي . وزاد من غضبي حالة الظلم الظاهر (الواضح) وهو وجود هذا العدد من المتحدثين الاقوياء المناصرين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

"لاسرائيل" في المجلس ولا يوجد ابدا حتى ولا نفر واحد يتحدث لصالح العرب .

وكان احساس السيد بيفن عميقا بالظلم ايضا واذكر في نهاية الجلسة فترة الاسئلة التي كانت متشنجة جدا وكيف انهك بهجمات متكررة وبلا رحمة من قبل اعضاء الحزب العماليين المناصرين لاسرائيل والتي انفجر فيها قائلا «علينا ان نتذكر ايضا الجانب العربي من القضية . اذ لايوجد بعد كل هذا اي عربي في المجلس» . اثارت هذه الملاحظة صخبا . وقد استنكرت قوله بعد ذلك ـ واعتقد انني كنت مخطئا ـ وعندما اعود بفكري الى الوراء واتصور كيف ان عزلة بين اليهود المناصرين للصهيونية وغير اليهود المناصرين لها سهل على اعدائه اتهامه بالعداء للسامية . الا ان بيفن لم يكن نادما ابدا ويؤكد بان الصهاينة « **يوازون النازية الان في فلسطين» وانهم مخلوقات للعنف والحرب « اذ ماذا تتوقع من اشخاص نشاوا . مهد العهد القديم ؟»** .

لم اشارك بيفن في ذلك الوقت ارتباطه العاطفي بفلسطين ، الا انني اتذكر بوضوح عدم حبه لطرق الصهيونية واساليبها وفي الحقيقة للفلسفة الصهيونية نفسها . كان معاديا للصهيونية بحماس لا يتزعزع وقد ادرك ان الصهيونية هي في الاساس حركة عنصرية ومشدودة باحكام الى العنف والارهاب وان طموحاتها ابعد بكثير من ان يقبلها العرب أو حتى ان يتوقع قبولهم لها بسلام وان نجاح الصهيونية سيصيب الشرق الاوسط بلعنة من الكره والعنف تمتد الى عقود من السنين وفوق كل ذلك ـ وكان هذا هو ما يهمه آنيا ـ يدفع العرب الى الوقوف ضد بريطانيا والدول الغربية وسيفتح الطريق واسعا لدخول ستالين الى الشرق الاوسط .

وبرهنت الايام صحة كل النقاط التي ذكرها . الا ان كلامه الصريح الواضح صدم عددا من الافراد واتهم بالتحيز والخشونة . اذ انه اعلن برأيه صراحة حال انتهاء سنوات الحرب وبعد ان كشفت طريقة معاملة النازيين لليهود وانتشرت بشكل واسع . وقد مكنت اقواله البسيطة هذه الصهاينة للاساءة الى قصده ونجحوا في اظهاره بمظهر المعادي للسامية والتي لم تكن حقيقة ابدا .

وكان ولا يزال كذلك خلط كبير بين معاداة الصهيونية ومعاداة السامية ، اذ ان الصهيونية ـ هي فكرة جمع اليهود اينما كانوا في دولة فلسطين ـ وهي فكرة سياسية بالامكان مناقشتها بحرية ودحضها وهي تتمتع بتأييد كبير . الا ان عددا من المتمدنين المتحضرين الصبورين وفيهم عدد من اليهود يعارضونها بقوة . واستمر هذا الواقع منذ الاربعينات وحتى الآن حيث خلط عدد من الناس بين الصهيونية واليهودية ـ اي دين اليهود ـ لذا بدا وكان اي نقد للصهيونية هو نقد لدين مجموعة من البشر . وخلط عدد آخر بين الصهيونية واليهود انفسهم وغلطة من يفكر بهذه الطريقة هي ان كل معاد للصهيونية يعني بالضرورة انه معاد للسامية كذلك . ومع الاسف الشديد فان الفوضى الفكرية الاخيرة دعمها وثبتها بتعمد الصهاينة المتطرفون كاجراء احتياطي لاحباط احتمال تكون معارضة والتخويف بالاتهام بالعنصرية .

والى يومنا هذا فان الصهيونية موضوع يصعب الكلام عنه بصراحة في الدول الغربية دون التعرض الى اهانة ، في حين ان اي تصريح يتناول الشيوعية او الراسمالية قد يكون عملا شائنا شريرا او لا انسانيا وقد يثير خلافات ، الا انه لايثير استياء او يعرض الى الاهانات في حين ان اي شجب مماثل للصهيونية يسبب صدمة للجميع وسرعان ماتثار التساؤلات والشكوك حول دوافع المتكلم .

في عام 1947 و 1948 كان الضغط السياسي الموجه على حكومة العمال من الصهاينة الامريكان بواسطة حكومة الولايات المتحدة هو اكثر ما اثار غضب بيفن وشاركته مشاعره الى اقصاها حول هذا الموضوع . ففي ذلك الوقت كانت بريطانيا تعتمد على التبرعات «المنح» الامريكية للاستمرار اقتصاديا ووضح الرئيس ترومان في مذكراته فيما بعد بانه كان ايضا معتمدا تماما على التبرعات الصهيونية للدعاية الانتخابية الرئاسية وكنتيجة لذلك تعرضت الحكومة البريطانية الى ضغط لا يرحم من واشنطن لجعل العرب يرضخون لمطاليب الصهاينة . وهذا استخدام لا اخلاقي للنفوذ وفي احدى المرات تعرضت الى الذروة العظمى منه ايضا . ففي غياب بيفن كان علي ان استقبل سفير الولايات المتحدة السيد لو دوكلاس **Low Douglas** «مع رسالة من الرئيس عن فلسطين» وقد بين السيد دوكلاس انه مطالب باعادة التذكير بطلب السيد الرئيس وبشكل مستعجل ان تسمح الحكومة البريطانية بقبول مئة الف لاجيء يهودي الى فلسطين حالا . وتمشيا مع وجهة نظر بيفن ومع دعم من وكيل الوزارة الدائم السير اورمه سارجنت **(Sir Orme Sargent)** اعترضت على ذلك لانه ببساطة دعوة للحرب . فأجاب السفير بهدوء وتأن ان الرئيس يرغب في اعلامكم برغبته . مساعدتكم لتمكين اصدقاءنا في واشنطن المصادقة على مساعدة مارشال **(Marshal Aid)** في الكونغرس . وبعبارة اخرى يجب تنفيذ رغباتنا لصهاينة او الموت جوعا . وهذا حصار لبيفن فيجب عليه اذن وكان طبيعيا ان يمتليء مرارة وغضبا وشعر بالانتهاك الفاضح الذي تقوم به الولايات المتحدة التي لاتتحمل اية مسؤولية عن ضبط الامن والنظام في فلسطين (وليست لها الرغبة للسماح بهجرة جماعية لليهود الى الولايات المتحدة) وتفرض عملا خطيرا وعبئا مستحيلا على بريطانيا ومنطلقة من دوافع مشكوك بها .

كنت شخصيا بطيئا نسبيا في فهم القضية الفلسطينية وتشكيل وجهة نظر بشانها ـ لسبب واحد ـ ومن الصعب تصديقه الآن ـ ان وزارة الخارجية كانت في ذلك الوقت تقوم بجهد كبير في عدد من الشؤون العالمية ذات اهمية اكثر خطورة فالهند والباكستان يجب ان يحصلا على حريتها ويجب دفع خطه مساعدة مارشال الى الامام ويجب تكوين مؤسسات لالمانيا المقسمة ومنظمة حلف الاطلسي التي ستتشكل في ذلك الوقت ظهرت قضية فلسطين كموضوع جانبي .

وحدث اول صدام لي مع الصهيونية في طريقة غريبة جدا اذ لم يكن قد مر علي اكثر من بضعة اسابيع في وزارة الخارجية عندما رايت هذه الرسالة ذات الاسلوب المضحك (المنافي للعقل) موضوعة على طاولتي ومؤرخة في 5 كانون اول 1946 ويشير ختم البريد انها من لشبونة وهذه هي الرسالة :

« السيد مايهو وكيل الوزارة للشؤون الخارجية ـ لندن :

تذكر نص كلمات العظيم س. وايس (S. Wise) **ستكون لنا دولة في القريب في فلسطين ، ونحن المقاتلين من لاهوم هيروت اسرائيل** (Lahome Herut Isreal) **نضيف الى قوله «رغم ارادة وزارة شؤون الخارجية البريطانية » . وعليك الا تنسى ان**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعب اليهودي بمساعدتكم انتم البريطانيين هزم العمويين واللعينيين النازيين وهم اول امة جرمانية ولا تنس ايضا ان دوركم قد حان الآن كثاني امة متعجرفة جرمانية لتقبلوا اقدامنا .

نحن مصممون هذه المرة لسحقكم انتم البريطانيون اولاد الزانية ونحن نعلنها ثورة حتى النهاية ضد البريطانيين .

وكل يهودي تقتلونه في فلسطين ايها البريطانيون القذرون الخنازير ستدفعون مقابله آلاف الاضعاف من دمكم الانكليزي النتن .

وقد اصدر لاهوم هيروت اسرائيل حكم الاعدام على البريطاني الخنزير مايهو . وسينفذ حكم الاعدام قريبا جدا بكل هدوء وبالطرق الحديثة .

الموقع

«لاهوم هيروت اسرائيل»(4)

وقد سالت سكرتيري لماذا يزعجني بسخافات من هذا النوع . فاجابني بان وزارة الداخلية تعتبر هذا التهديد بالقتل جادا وانها قد اتصلت تليفونيا بداري لتحذير اقربائي واصدقائي من فتح اي رزمة مشبوهة . وقد حدث فعلا بالصدفة او بالتعمد فقد بدات الرزم المتفجرةبالوصول بواسطة البريد الى افراد مفروض انهم مناوئون للصهيونية (وفي بعض الاحيان خطأ) . فقد وصلت واحدة الى دار السير انتوني ايدن وقد علمت بأنه استلمها ووضعها في جيوبه دون انيفتحها وسار بها وبقيت معه بعض الوقت قبل وصول رجال الامن حيث خلصوه منها . ورزمة متفجرة وصلت ايضا الى روي فاران Varan المعارض المعروف للصهيونية التي قتلت اخاه الذي فتحها خطأ وحسب معلوماتي فان الارهابيين اليهود لم يرسلوا لي رزمة متفجرة ولم يحاولوا اغتيالي بالرغم من استلامنا عدة تنبيهات مضللة .

اتذكر بوضوح لقاءات عدة تمت مع ممثلين للصهيونية في ذلك الوقت . وقد حضروا كعادتهم للاحتجاج على الاجراءات القاسية حسب ادعائهم التي هدفت منع الهجرة غير المشروعة الى فلسطين . ولفترة قصيرة اصبحت قضية الهجرة المحدودة قضية انسانية طاغية. كيف لا وآلاف لا حصر لها من جموع اليهود البائسين يهجرون مواقع الكابوس الثقيل ايام الحرب في أوربا وكانت تلك الهجرة مقننة (موجهة) بواسطة المنظمات الصهيونية الى فلسطين . كان معظمهم من العاطلين وعدد منهم عاجزين عقليا او جسديا . فكيف تستطيع اية حكومة متحضرة وبالاخص الحكومة العمالية البريطانية ان ترفضهم ؟ كيف نستطيع استعمال البحرية لمنع ابحار سفنهم واجبارهم العودة الى اوربا ؟

لم اتعرض قبل او خلال تلك الفترة الىتجربة اكثر ايلاما من تجربتي في الدفاع عن سياسة الحكومة بشان الهجرة ضد اعتداءات واساءات الوكلاء الصهاينة . كان هؤلاء الوكلاء دائما واسعي الاطلاع ودقيقين وملحاحين ومتحمسين بانفعال وعديمي الرحمة وكان اكثر متحدثيهم ارعابا دون منازع هو السيد سيدني سيلفرمان (Sidney Silverman) كان يقذفني شخصيا بطريقة ابعد ماتكون عن الرحمة ويحملني مسؤولية انتحار وموت المهاجرين اليهود الذين نعيدهم .

رغم كل هذا فهل كنا مخطئين ؟ وهل ان ارنست مخطئ في تفكيره عندما كان يردد القول ان اليهود يطلبون اكثر مما يقبل العرب اعطاءهم بسلام فهل يتمادون في طلبهم اكثر مما يفيدهم (اي اليهود) على المدى البعيد ؟

انا شخصيا لا اعتقد ان السيد بيفن كان مخطئا.

اعتقدت في حينها وما زلت اعتقد ان الوسائل القاسية التي يستعملها الصهاينة في تحقيق طموحهم ستودي بهم على المدى البعيد الى الخذلان وستثبت الايام ذلك بما لايقبل الشك .

وبالمقابل اين حفظ العرب في وايت هول ؟ العرب الذين ستصادر اراضيهم وبيوتهم وممتلكاتهم من قبل اليهود المهاجرين ؟ انه لم يكن موجودا . لا لأن العرب يعوزهم الاحساس العميق بما يحدث في فلسطين وانما لانهم لايملكون في ذلك الوقت اي تأثير سياسي وقليل من الدو لالعربية كانت قد حصلت على استقلال حقيقي قبل عام 1948 وليس في الدول العربية من لها القدرة على التكلم بالنيابة عن الدول الاخرى . وبالتالي فان الحكومة البريطانية في ذلك الوقت العصيب لم تستلم اي دعم من الشعب الذي تحاول جاهدة الحفاظ على حقوقه ولو بقدر غير كاف .

ونتيجة ذلك كانت القضية العربية غامضة بعض الشيء (جريئا الذي) . وبصراحة كان شعوري آنذاك قويا عنكل المأساة والصراع ونفور ورفض حازم لوسائل الضغط والدعاية الصهيونية . واذا حدث اي تغيير على هذه المشاعر فهو ازدياده سنة او اثنتين بعد ذلك عندما جرت محاولة (مصممة) ومدروسة وبارعة اثارت عجبي لوضعي ضمن قائمة مستلمي رواتب مناصري اسرائيل .

حدثت المحاولة في عام 1951كنت فيوقتها قد فقدتمقعد البرلمان مؤقتا وكنت احصل على معيشتي من عملي كمعلق صحفي وتلفزيوني وكنت في الواقع المعلق التلفزيونى الوحيد في بريطانيا (المنتظم) الدائم في الشؤون العالمية آنذاك . وقد تعرفت بالرئيس السياسي للمؤتمر اليهودي العالمي السيد أ.ل. استرمان (A.L. Easterman) وبعد ضغط عليّ قبلت دعوة منه لزيارته في مكتبه . كافنديش سكوير وهناك وبطريقة مهذبة جدا واسلوب مقنع دعاني لأكون مستشارا الى المؤتمر اليهودي العالمي(World Jewish Congress) على انامنح مكافأة شرفية(5) كلما دعيت لاعطاء مشورة . واكد لي بأن هذا التوظيف هو اتفاق شخصي بحت بيننا وسوف لايثبت اي شيء عنه على الورق . كان اقتراحه مشروعا جدا ووضعه امامي بطريقة مذواقة (ناعمة) ولكن من الصعب عليّ ان اشعر بالغضب . الا انه بلا شك سيؤثر على حيادي وحريتي في الكلام والاذاعة فيما يتعلق "باسرائيل".

ولكي اكون عادلا في طرحي عليّ ان اذكر ان السيد استرمان انكر قولي هذا ، اذ فسر ما قام به بعد مرور سنوات وبعد حرب عام 1967 بما يلي :

« نحن نحتاج ونبحث عن المساعدة من الاشخاص الذين يملكون الخبرة والمعرفة في كيفية عرض افكارنا ومقترحاتنا بطريقة ووسائل تضمن لنا السبل المؤثرة في المواقع الرسمية . ان سياسة واعمال "اسرائيل" ليست من اختصاصنا فيما عدا ما تقدم من دعم وتشجيع

الى الشعب في دولة اسرائيل .

ولم يحدث عندما تحدثت مع السيد مايهو اني طلبت منه لا مباشرة ولا غير مباشرة ان يكون «المستشار السياسي» ومن المستحيل ان اعرض عليه مرتبا كبيرا لان ذلك مالاتستطيعه الامكانات المالية للمؤتمر اليهودي العالمي وهو المنظمة التي ابعد ما تكون عن الثراء . كل ما قلته له عن الدعم المالي ان من الطبيعي جدا ان نعوضه عن اي مصاريف يؤديها عنا»(6) .

ارجو من القارىء ان يكون الحكم في هذا الموضوع . فهل ان العمل الذي عرض عليّ لا استلم عنه نقودا كما يذكر السيد استرمان او استلم عنه نقودا كما ذكرت انا ؟ لم يكن لديّ اي شك في حينها عن هذا العرض ومن الطبيعي جدا ان اسال نفسي هل انني المذيع والصحفي الوحيد الذي قدمت له عروضا من هذا النوع ؟ واذا كانت قد قدمت للاخرين فهل رفضها جميعهم كما فعلت انا ؟ يبدو ان هذا غير معقول ابدا .

ولحدذلك الوقت لم ارتبط باي جانب من جوانب الصراع العربي ـ الاسرائيلي لأني لم املك الخبرة المباشرة والشخصية الكافية عنها . وكان عام 1953 عندما قمت بزيارتي الاولى الى احد مخيمات اللاجئين العرب ، عندها اصبحت لديّ المأساة الفلسطينية حقيقة ولاول مرة. اذ كنت اقوم بزيارة الاردن كاحد اعضاء وفد برلماني ارسلتنا وزارة الخارجية البريطانية لاظهار الدعم الى الملك حسين الذي كان في ذلك الوقت ـ كما هو غالبا وسيكون ـ في خطر السقوط . كان المخيم قريبا من عمان مزدحما جدا ووجدت نفسي فجاة معزولا عن زملائي البرلمانيين وفي كوخ كبير موحل الارض مملوء باللاجئين وعدد لا بأس به من الاطفال الشاحبين المرهقين ضعاف الوجوه . لم تكن هناك شبابيك،ياتي الضياء فقط من باب مفتوح . بدأ واحد او اثنان من اللاجئين طرح الاسئلة عليّ وترجموا اجاباتي على البقية المستمعين. ماذا ستفعل الحكومة البريطانية من اجل اللاجئين ؟ شرحت لهم ما صنعناه وبدانا به والدعم الذي نقدمه لاعمال هيئة الامم المتحدة لاعانتهم ولاعادة تأهيلهم . وكنت آمل ان تترك اجابتي اثرا طيبا خاصة وان سجل بريطانيا كان جيدا نوعا ما اذا ما قورن مع سجلات الدول الاخرى . الا ان ما اثار فزعي ان اجابتي اثارت مزيدا من الغضب والشك بين اللاجئين . ماذا ستفعل بريطانيا من اجل ان يعودوا الى اراضيهم ؟ شرحت لهم اننا ندعم حقهم في الاختيار بين عودتهم الى ديارهم في اسرائيل او توزيعهم وتوطينهم . ما الذي نصنعه اكثر من الكلام ؟ لست مدركا اننا نحن المسؤولون عن اغتصاب اليهود لارضهم؟ ما هي الجريمة التي اقترفوها واولادهم لكي يطردوا من ديارهم وتسرق منهم ممتلكاتهم ؟

ان كثافة مرارتهم وغضبهم وبأسهم افزعني ونبهني . الا انني شعرت ان كلامهم هو الحق والعدل نفسه . وانا استمع الى قصصهم كان من المحال عليّ تصديق ما تصمم عليه "اسرائيل" وما يعتقده كل شخص في بلدنا بأنهم تركوا ديارهم مختارين . حتى اذا تركوا ديارهم مختارين فلماذا لم يسمح لهم بالعودة اليها ؟ اذا كان الاسرائيليون راغبين حقا للسماح للاجئين بالبقاء فلماذا اذن صفقوا الباب بقوة وراءهم حالما تركوا ؟

ان الهجر الاختياري في عام 1948 اسطورة تلاشت عندما تصرف اللاجئون في حرب عام 1967 بنفس الطريقة وقاسوا من نفس المصير.

ومما لا شك فيه ان جميع الحكومات العربية قد الحت عليهم في البقاء ، الا انهم تركوا ديارهم بذعر ورعب قبل تقدم الجيوش "الاسرائيلية" ومنعوا من قبل الاسرائيليين من العودة . وكانت الطريقة نفسها في الحربين ، الا ان حرب عام 1967 خلت من اية احصاءات معروفة عن الفظائع كما حدث . مجزرة دير ياسين . المجزرة التي نفذها الاسرائيليون لتشجيع العوائل الفلسطينية الفزعة لترك ديارها واللوذ بالفرار .

وقبل عام 1967 صدق جميع العالم الغربي ومعظم دول العالم اسطورة ترك اللاجئين لبلادهم استجابة لدعوات الدول العربية وقد ساعد ذلك "الاسرائيليون" في دفاعهم برفض قبول عودة اللاجئين وكذلك مصادرة ممتلكاتهم واراضيهم وبيوتهم وكل حق لهم حتى ممتلكاتهم الشخصية دون اي تعويض . اما الآن فتوجد ادلة دامغة تثبت تهمة طرد الفلسطينيين من وطنهم واراضيهم ومنعوا من العودة ، لاجل فسح المجال امام القادمين الجدد من جنس مختلف وللتاكيد على المواصفات اليهودية للدولة الجديدة(7) .

كان الفلسطينيون بطبيعة الحال يعلمون ذلك دوما . ومما لاشك فيه ان جزءا من شعورهم العميق بالخيبة والمرارة ناجم من النجاح الكبير الذي حققته الدعاية الصهيونية في طمس الحقيقة عن تشريدهم وعن عدم اظهار الفلسطينيين كضحايا للصهيونية بل اظهارهم انهم ضحايا تصرفاتهم السخيفة واللا خلقية .

اضافة الى سخطهم الدائم على الامم المتحدة التي لم تفرض على الآخرين الاعتراف بحقوقهم وكان يجب عليها ان تدافع عن حقهم في العودة الى وطنهم او تعويضهم وتوطينهم في مكان آخر ومن جهة اخرى فان الامم المتحدة ليست جادة في تخييرهم . كما انهم شاهدوا كيف قتل الصهاينة الفوضويون الكونت فولك برنادوت اكبر داعية لهم والذي ادى تقريره الى الامم المتحدة الى الاعتراف بحقوقهم(8) .

كان ذلك خلال زيارتي للاردن في عام 1953 عندما رايت مخيمات اللاجئين ليست فقط رفاقا من الحرب الماضية بل مزارع للثأر والانتقام في المستقبل . رايت افرادا معتدين وابرياء تعرضوا الى اهانات وقسوة لاتحتمل وشعرت ايضا ان قليلا من هؤلاء سيعيشون دون اي تقرحات عاطفية عميقة ترافقهم طول الحياة . لكن تمنيت ان يكون باستطاعتي تسجيل ما قمت به بالتعاقب من عمل فعال ودعائي من اجل اللاجئين عند عودتي . فتحدثت وكتبت واذعت مرات عديدة في فترة عام 1956 ما قام به الاسرائيليون من اعمال في حرب السويس.

وكان عليّ ان افعل ذلك ، الا ان بعض الاعمال حولت اهتمامي عن الشرق الاوسط في بعض الاحيان . عشر سنوات مرت منذ زيارتي الى الاردن عندما وجدت افكاري عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي تتبلور الى ارتباط شخصي فعال . وقد نتج ذلك وعلى عكس ما كان مخططا له من لقاء مع السيدة غولدا مائير وبعض قادة اسرائيل خلال زيارة الى القدس .

كنت احد اعضاء وفد عمالي برلماني وصل اسرائيل بعد زيارة موسعة لعدد من الدول العربية . التقينا خلالها بعدد من القادة العرب وزرنا عدداً من مخيمات اللاجئين . رحب بنا مضيفونا "الاسرائيليون" بثقة وود متكلف في مقدمة بوابة مندلبوم في القدس وكاننا عائدون الى بلدنا من المنفى في ارض الوحوش الاجانب . لم يحاولوا مناقشتنا

عن العرب ولم يحاولوا اقناعنا بل افترضوا وبكل بساطة ومنذ البداية باننا الى جانبهم وباننا لاشك قد راينا ان مخيمات اللاجئين مشكلة مصطنعة ابقتها الدول العربية على قيد الحياة لاغراض سياسية . وبأن الفلسطينيين كانوا قد تركوا ديارهم بكامل رغبتهم وباستطاعتهم بل يجب عليهم الاستقرار في اي مكان من العالم العربي وأن العرب قد جلبوا التعاسة لأنفسهم ولا حق لديهم يملكونه على اسرائيل وان جميعهم اعداء للسامية ومن حسن الحظ انهم مقسمون وفي فرقة تامة وغير قادرين على التهديد الجاد وانهم وبطبيعة الحال سيواجهون الحقيقة ويقدمون الاعتراف لاسرائيل وعند قدوم ذلك الوقت سيكون في امكان الاسرائيليين وهم المتطورون (المتقدمون) والكرماء سيكون في امكانهم تقديم يد المساعدة اليهم والعمل معهم من اجل رفع مستواهم المعاشي .

وقد كنت بطبيعة الحال مطلعا على هذه الطريقة من الحديث ، الا ان ما اثار عجبي وانزعاجي هو فرضية وجوب تأيدها . لماذا ؟ يفترض هؤلاء القادة "الاسرائيليون" ان معرفتهم بالعرب افضل من معرفتنا نحن بهم ؟ كم منهم ؟ التقى بقائد عربي او زار مخيما للعرب الفلسطينيين . وهذه النبرة الكلامية الزائفة المتعالية التي تكلموا بها عن العرب ـ كنت قد سمعتها قبلا ولكن اين ؟

حضرني جانب من الاجابة على السؤال في حفل العشاء الذي اقامته السيدة غولدا ماير لوفدنا عندما ادركت فجأة ان الاسرائيليين الواثقين تماما من «كيفية التعامل مع العرب» يلتقون دوما وفجأة بالعرب . انهم يلتقون بالعرب الذين بقوا في اسرائيل بعد حرب عام 1948 وهم المواطنون من الدرجة الثانية ويقومون باعمال متواضعة فلاحين ومنظفين وخدم بيوت وسواق سيارات اجرة . لهذا يتصورون انهم يعرفونهم ويسيئون تقييمهم وذلك خطر كبير . وهو يفسر ايضا النبرة التي يتكلمون بها عن العرب . تذكرت الآن اين سمعت هذه النبرة من قبل : سمعتها في الحفلات التي يقيمها المقيمون في كينيا وتنجانيقا قبل حصول هذه البلاد على استقلالها . نبرة الصوت التي يمكن تفسيرها الى زائر مثلي ان الافارقة مشتتو الفكر الا انهم في الاساس طيبون واوفياء (المقصود الوفاء للسيد الابيض) الا انهم يقادون بسهولة من قبل صانعي الاضطرابات (المقصود بهم زملاؤهم الافارقة الطامحون الى الاستقلال) .

في زيارتي هذه الى الشرق الاوسط بدات اشعر بالارتباط الوثيق في كل ما يتعلق بقضية فلسطين . فقد صدمني اعتقاد قادة اسرائيل انهم أقوم أخلاقا من الآخرين ولا مبالاتهم لآلام اللاجئين الفلسطينيين فوجدت نفسي اتكلم بحرارة عن العرب في وجود قادة اسرائيل . وقد سبب ذلك غضبا واستياءا ومردودات سيئة لي . فبعد فترة قصيرة من مغادرة وفدنا اسرائيل وجهت الدعوة الى اثنين من اعضاء حزب العمال المتميزين وهما السيد جورج ثومبسون **(G. Thompson)** والسيد فردمولي **(F. Mulley)** وكلاهما من اعضاء حزب البرلمان لزيارة اسرائيل ولغرض اجراء مزيد من المباحثات . عادا من زيارتهما بتقرير الى رئيس الحزب السيد هارولد ولسن وقد احتوى التقرير احتجاجات من موقفي تجاه قادة اسرائيل .

بعد مرور سنة شكل السيد ولسن حكومته الا انني لم اعيّن في منصب وكيل وزارة الخارجية رغم انني ولفترة ليست بالقصيرة المتحدث بلسان المعارضة في الشؤون الخارجية وقد اثار ذلك عجب احد وزراء الدولة المتميزين الذي أطلعني ان السبب هو انعدام شعبيتي في اسرائيل التي تقلت اخبارها(9) الا ان السيد ولسن انكر ذلك عندما جابهته . فاذا كانت حقيقة ان الاسرائيليين نجحوا في قص جناحي" فانا لا الومهم ابدا . فانا الآن مقتنع بقوة . عدالة الحق العربي في فلسطين ومصمم على الدفاع عنه بكل طريقة استطيع وبكل ما اوتيت من قوة .

المراجع

(1) السيد لفر هو وزير متميز في وزارة العمال الاخيرة.

(2) هانسارد **Hansard** في 1948/6/10 الاعمدة 2265ـ2267 .

(3) حامل السوط : عضو في البرلمان يعهد اليه حزبه بتطبيق الانظمة الحزبية ويحمل نواب الحزب على حضور الجلسات الهامة .

(4) عرضت الرسالة قبل مدة قصيرة على قائد العصابة الصارم السير ناثان يالين مور(**Natan Yalin Mor**) وانكر اصالتها 0

(5) المكافأة الشرفية : هي المكافأة على خدمات يحظر العرف او اللياقة وضع ثمن لها .

(6) جويش كرونيكل **Jewish Chronicle** في 1969/10/16 .

(7) يشرح المؤلف ذلك بتفصيل اكثر في الفصل الثامن من الكتاب .

(8) التقرير الذي قدمه الكونت فولك برنادوت الى الامين العام للامم المتحدة في 48/9/16 :

«ان رفض حق عودة هؤلاء الضحايا للعودة الى ديارهم بينما يتدفق المهاجرون اليهود الى فلسطين هو خرق فاضح لمبادىء العدل الاساسية وان التهديد الذي يحمله المهاجرون اليهود هو على الاقل الاستيطان الدائم بدل الفلسطينيين الذين اصبحوا لاجئين وهم اصحاب الارض الاصليين ومنذ قرون» .

(9) ذكرت جريدة معاريف الاسرائيلية التي تصدر في القدس في 74/7/14 ما يلي :

«عين السيد كوردن فولكر وزيرا للخارجية وطلب ان يكون السيد مايهو وكيلا له ، الا ان مايهو لم يعين في المنصب لماذا ؟ ترددت اشاعات في لندن بأن قادة المجموعة اليهودية في بريطانيا او اصدقاء السيد ولسن استرعوا انتباه رئيس الوزراء حول خطر حدوث سوء فهم قد يحصل نتيجة هذا الترشيح . اذ كيف يمكن وضع نصير للعرب في موقع المسؤولية بشؤون الشرق الاوسط بينما وعد السيد ولسن معاملة اسرائيل معاملة الصديق الخاص» ؟.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذكاء والقدرات العقلية الخاصة

د. نوري جعفر

لا شك عندي في ان تفسير طبيعة الذكاء والقدرات العقلية الخاصة للكشف عن جوهر الفروق الفردية الموروثةوالمكتسبة [البايولوجية والبيئية او الاجتماعية] الموجودة بين الاجناس البشرية المعاصرة وبين افراد كل جنس وكل مجتمع وبين الراشدين والاطفال وبين الذكور والاناث وبين الانسان والحيوانات الراقية الاخرى القريبة منه في سلّم التطور البايولوجي قضية بالغة الخطورة في الوقت الحاضر من الناحية النظرية الاكاديمية المحضة ومن ناحية مضامينها التربوية والايديولوجية وبخاصة بالنسبة للدول النامية التي تخلصت حديثا ـ بتضحياتها الجسام ـ من الاستعمار السياسي والاقتصادي وبدات بالتحرر من التبعية الثقافية البرجوازية . والقضية المشار اليها هي بنظري قضية علم النفس والتربية الاولى والاهم في الماضي وفي الحاضر وقد تركزت حولها الابحاث السايكولوجية المعاصرة بصورة خاصة في المجتمعين المتنافرين الاشتراكي والراسمالي على حد سواء .

اتضحت في علم النفس ـ وفي التربية بالتبعية ـ نزعتان سايكولوجيتان متنافرتان منذ اقدم العصور من ناحية تفسير طبيعة الذكاء والقدرات الخاصة والفروق الفردية بين الناس . هما : النزعة السايكولوجية ذات الاساس الميتافيزيقي اللا جسمي او اللامادي والنزعة السايكولوجية الجسمية الفسلجية . تعود جذور النزعة الاولى منهما تاريخيا الى افلاطون الفيلسوف اليوناني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . وترجع اصول النزعة الثانية الى الطبيب اليوناني بقراط الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد .تفترض الاولى منهما ـ بشكلها الحديث في الوقت الحاضر ـ دون سند علمي ان الذكاء والقدرات العقلية الخاصة قوى فطرية فكرية موجودة منذ الولادة بمقادير متفاوتة داخل الامم وبينها وان هذه القوى مع انها لا جسمية فانها موجودة في الجسم رغم اختلافها عنه في الطبيعة والوظيفة اختلافا جذريا نوعيا وحاسما كما انها ايضا لاتخضع لتاثير البيئة الطبيعية او الاجتماعية المحيطة بالفرد الا من حيث كون البيئة هي المجال الذي تعبر فيه تلك القوى عن نفسها . أما النز عة الثانية فتعتبر الذكاء والقدرات العقلية الخاصة وظائف او عمليات يمارسها الدماغ عند تفاعله مع البيئة وان كلا منها مؤلف من ركنين متلاحمين هما الـ ركن المادي [الجسمي: الدماغي] الذي هو اداتها او عضوها من جهة والركن الاجتماعي البيئي المكتسب أو الثقافي الذي يمدها بمحتواها او مضمونها السايكولوجي من جهة اخرى . وان الدماغ متماثل التركيب التشريحي والفسلجي لدى جميع الافراد الاسوياء داخل الامم وبينها في حين ان المحتوي الاجتماعي يختلف باختلاف المجتمعات والافراد وباختلاف حالات الفرد نفسه في مجرى تطوره الثقافي . وعلم النفس من وجهة النظر هذه علم طبيعي واجتماعي او انساني في آن واحد : علم طبيعي كالفيزياء والكيمياء وعلم الاحياء لانه يستند في دراسة الدماغ الى التشريح والفسلجة . وهو علم اجتماعي لأنه يدرس محتوى الذكاء والقدرات العقلية الخاصة من حيث كون ذلك المحتوى السايكولوجي اجتماعي النشأة في الاصل. وعلم النفس ـ باستناده الى الفسلجة والتشريح ـ يصبح بنظرنا علما جديرا بهذا الاسم ويتخلص كليا من النزعة الفلسفية الميتافيزيقيةالتي سيطرت عليه طوال تاريخه الطويل ـ ومازالت كذلك لدى بعض الاوساط الغربية وفي الدول النامية ـ والتي ازاحت النزعة العلمية كليا عن علم النفس وحصرتها في مجال الطب الذي اغفل بدوره دراسة جوانبها السايكولوجية ومضامينها التربوية وانشغل ـ بدل ذلك او على حسابه ـ بجوانبها التشريحية والفسلجية الصرفة . ولكي يحتل علم النفس مكانته العلمية المشار اليها لابد ان يلم اصحابه الماما كافيا ـ في الوقت الحاضر ـ بعلم الفسلجة والتشريح بصورة عامة وبفسلجة الجهاز العصبي المركزي وتشريحه بصورة خاصة وبفسلجة الدماغ وتشريحه بصورة اخص . فكما ان الالمام الواسع العميق بالفسلجة والتشريح ضرورة ملحة للطب الحديث فكذا الحال في علم النفس المعاصر . وكما ان الفسلجة والتشريح لم يتقدما هذا التقدم المذهل منذ النصف الثاني من القرن الماضي الا بعد ان تحررا تحررا تاما ومطلقا من الافتراضات الفلسفية الميتافيزيقية واستندا الى الفيزياء والكيمياء والرياضيات من حيث معطياتها النظرية ومن ناحية اساليبها في البحث فكذا الحال في علم النفس المعاصر ليحتل مكانته العلمية المرموقة .

يتضح اذن ان كلا من الذكاء والقدرات العقلية الخاصة مؤلف ـ في ضوء المعرفة العلمية المعاصرة ـ من جانبين متميزين ومتلاحمين متكاملين في الوقت نفسه هما الدماغ المتماثل التركيب لدى جميع الافراد الاسوياء والمحتوى السايكولوجي ذي الاصل الاجتماعي الذي يختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها الفرد . وهذا يعني ـ بعبارة أخرى ـ ان الذكاء والقدرات العقلية الخاصة تمر ـ من حيث محتواها ـ بمرحلتين هما المرحلة الخارجية او الموضوعية [البيئية : الاجتماعية : الثقافية] لان الذكاء والتطورات العقلية الخاصة هي في الاصل من حيث المحتوى ظواهر اجتماعية ثقافية لاسايكولوجية فطرية : اي ان الطفل المولود حديثا لايجلبها معه بل يجدها في المجتمع الذي يترعرع فيه لدى الكبار المحيطين به . ثم تنتقل بالتدريج ـ عن طريق التعامل معالكبار داخل المدرسة وخارجها ـ وتتحول خطوة فخطوة رويدا رويدا وبشكل متدرج ـ بعد ذلك وبتأثيره ـ الى وظائف سايكولوجية خالصة. أما اختلافها بين الافراد والمجتمعات والامم والاجناس ـ بهذا الشكل الصارخ الملحوظ ـ فمرده في الاصل ـ على مانرى ـ الى تفاوت بيئات الافراد الاجتماعية من حيث تقدمها العلمي والتكنولوجي والاجتماعي من ناحية والى تفاوت مواقع الافراد في المجتمع الذي يعيشون فيه من جهة ثانية والى تفاوت المجالات التي يستثمر كل منهم رصيده الدماغي المتماثل ومدى ذلك الاستثمار من جهة ثالثة . فالذكي هو الذي يستثمر امكانياته الدماغية الى حدها الاقصى في الموضوع الذي يبدو ذكيا فيه . والبليد هو الذي يستثمر الحد الادنى من رصيده الدماغي في الموضوع الذي يبدو فيه بليدا . وما يصدق على الافراد داخل الامم يصدق ايضا على الامم ذاتها . وعلى هذا الاساس فان بدائية التفكير الواضحة لدى الانسان البدائي القديم ولدى بعضالافراد في المجتمع المتخلف الحديث ناجمة في الاصل على ما نرى عن بدائية بيئته الاجتماعية الثقافية . غير ان بدائية التفكير هذه تعمل بدورها على جعل البيئة الاجتماعية الثقافية اللاحقة بدائية كذلك . وهكذا دواليك . ومرد ذلك في الاساس راجع الى كون البيئة البدائية يعوزها هذا المقدار الضخم من عوامل الحفز الايجابية المتوفرة في البيئة الاجتماعية المتقدمة او الراقية التي تستثير التفكير وتتحداه وتحثه على العمل المتواصل للسيطرة على الطبيعة بعد فهمها فهما موضوعيا وادراك قوانينها وعلاقات اجزائها . كما ان عوامل الحفز في البيئة البدائية مع تفاهتها وضآلتها هي سلبية في جوهرها تصد صاحبها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن مواجهة الطبيعة بحزم وجراة ولا توجه اهتمامه الا الى الظواهر التافهة وتجعله في الوقت نفسه خاضعا لها يتحاماها ويسترضيها بالنذور والعبادات والطقوس المعروفة .

لو نظرنا الى الذكاء والقدرات العقلية الخاصة الموجودة لدى الشخص الراشد المتعلم الحديث لوجدناها – بعد التحليل الدقيق – ثمرة عمليتي تطور مختلفتين هما : عملية التطور الدماغي التي يمرّ بها بين سن الطفولة والرشد من ناحية وعملية التطور الاجتماعي الثقافي التي يتحول اثناءها ذلك الفرد الى راشد متعلم حديث من ناحية اخرى . والتطور المشار اليه – بجانبيه الدماغي والثقافي – هو في الاصل التاريخي حصيلة عمليتين تطوريتين اخريين واسعتي النطاق مرّ بهما النوع الانساني في مجرى تاريخه الطويل : نشأت اولاهما على المستوى الدماغي في اول الامر ونشأت بعدها ومعها وعلى اساسها وبتأثيرها عملية تطور تاريخية اجتماعية ثقافية خاصة ينفرد بها الانسان دون سائر المخلوقات بما فيها الراقية القريبة منه في سلّم التطور البايولوجي . وهذا هو الذي يفسّر لنا سر اختلاف نمو الفرد بين الطفولة والرشد اختلافا نوعيا جذريا وحاسما عن نظيره الذي يحصل لدى الحيوانات الراقية الاخرى . وهذا الاختلاف الحاسم يستند في الاصل الى عملية الاكتساب البيئي الاجتماعي الثقافي الذي تفتقر اليه الحيوانات الراقية الاخرى . وعملية الاكتساب الاجتماعي او الامتصاص الثقافي هذه هي التى مكنت كل جيل من الاجيال البشرية المتعاقبة من الانتفاع بالخبرة الاجتماعية التاريخية التي تكدست لدى النوع الانساني عبر تاريخه الاجتماعي الطويل عن طريق اللغة والمعرفة في جميع فروعها وفي شتى مراحل تطورها . أما الحيوانات الراقية الاخرى فان الخبرة الفردية التي تكتسبها صغارها اثناء تطورها تقتصر فقط على ماترثه من اسلافها من غرائز بدائية محدودة العدد ومن مشاعر بدائية ايضا . يضاف اليها وبالاستناد اليها ما تكتسبه صغارها من عادات بدائية بسيطة تزول بزوالها . اي ان خبرة الحيوان هي في الاساس خبرة بايولوجية عامة مشتركة لدى افراد النوع يكتسب كل حيوان خبرة فردية خاصة به [على اساس الرصيد البايولوجي المشترك] تبقى معه ما بقي على قيد الحياة وتفنى بفنائه .

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول : ان جميع الناس يولدون متماثلين – ولا نقول متساوين بالطبع بل متقاربين – في مقوماتهم الجسمية لاسيما الدماغية . وان الاختلافات الفكرية الكبيرة والكثيرة التي نشاهدها بينهم في مستوى تقدمهم العلمي والتكنولوجي وفي مدى مساهمتهم الايجابية في التقدم الاجتماعي الثقافي تعود في الاصل الى اختلاف بيئاتهم الاجتماعية او اختلاف الفرص المتاحة امامهم لاستثمار طاقاتهم الدماغية الى حدها الاقصى في مجالات العلم والثقافة . واذا استثنينا الاشخاص الذين يولدون بنقص في ادمغتهم او يتعرضون الى ذلك النقص في مجرى حياتهم فان كل تخلف في تفكير احدهم مردّه الى بيئته الاجتماعية .

وقد ثبت علميا وعن طريق المشاهدة ان التخلف السايكولوجي الذي يتصف به الطفل السوي يعود في الاصل الى تخلف نموه الدماغي والثقافي : فمن الناحية الدماغية يكون الطفل في بداية نشوئه مفتقرا الى المزايا الفسلجية والتشريحية التي تتضح لديه بالتدريج صعودا الى مرحلة النضج التام في مراحل نموه اللاحقة . ومن الناحية الاجتماعية الثقافية يولد الطفل خلوا من اللغة والمعرفة ومن ابسط مقومات الحياة الاجتماعية . اما دماغه فيبقى غير مكتمل النضج قبل السنة السابعة من عمره . وان المخ الذي تبلغ مرونته الفسلجية اقصى درجات ارتفاعها في السنوات الخمس الاولى من حياة الفرد فيصبح متحجرا من الناحية الوظيفية عند فقدانه الظروف البيئية الاجتماعية الثقافية الملائمة : والطفل الذي لاتتخذ بحقه الاجراءات الايجابية الكفيلة بتوجيهه طوال السنوات الاولى الخمس من حياته يصبح بعد ذلك صعب التدريب . وعلى هذا الاساس فان تعذر ارتفاع مستوى تفكير الاشخاص الراشدين البدائيين وفي المجتمعات المتخلفة المعاصرة الى مستوى معين من الثقافة يعود في الاساس الى ان مخهم لم يجد في فترة مرونته الفسلجية اثناء الطفولة الظروف البيئية الملائمة التي يجدها اقرانهم في المجتمعات الراقية . وقد ثبت في ضوء علم الجراحة الحديث ان الطفل الذي يصاب بالحمى الطويلة الامد – وهي ظاهرة كثيرة الحدوث بين الشعوب المتخلفة المعاصرة – تتعرض خلاياه الدماغية الى التخريب ولا سبيل لتعويضها . ومما يزيد الطين بلّة ما يتعرض له هؤلاء البدائيون من نقص في التغذية من حيث نوعها ومقدارها .

والخلاصة : ينبغي البحث في البيئة الاجتماعية العامة والمحلية – لا في طبيعة الفرد بالمعنى السايكولوجي الميتافيزيقي المجرد عن الزمان والمكان – للكشف عن العوامل الحقيقية التي جعلت زيدا من الناس ذكيا بمقاييس عصره ومجتمعه وجعلت عمرا بليدا بالمقاييس ذاتها . كما ينبغي العمل – في الوقت نفسه – وبصورة عديمة الانقطاع وفي عدة جبهات على تحسين بيئات الافراد الاقتصادية والثقافية بالدرجة الاولى والأهم ليتسنى لكل منهم ان يستثمر اكبر مقدار من رصيده الدماغي في احد المجالات الاجتماعية والعلمية التي يجنح منذ طفولته المبكرة نحوها مع التوجيه الدائم الفعال ليساهم في تقدم المجتمع ماديا ومن الناحية الثقافية . وبامكاننا لغرض التوضيح والتبسيط ان نشبه البيئة الاجتماعية بالارض بطبقاتها الجيولوجية المتعددة المتراكمة وان نشبه الامكانيات الدماغية لدى الفرد بالثروة المعدنية المطمورة داخل الارض . وعلينا التنقيب بالتربية والوسائل الاجتماعية الاخرى عن الثروة المخية على نسق التنقيب الجيولوجي في طبقات الارض عن الثروة المعدنية المطمورة في باطنها . واذا كان بمستطاع الانسان ان يستنزف في المستقبل غير البعيد الثروة المعدنية الموجودة في باطن الارض بفعل تناقص كمياتها بمرور الزمن فان استنزاف الثروة البشرية غير محتمل الوقوع وبخاصة في الاجيال المتتالية التي لا حدّ لتعاقبها . ولتحقيق ذلك على افضل وجه وبخاصة في المجتمعات النامية لابد من نشر التعليم على اوسع نطاق مستطاع واعادة النظر جذريا في اساليب التدريس ومناهج الدراسة وفي الادارة المدرسية مع تنقية علم النفس من الآراء العتيقة الميتافيزيقية التي اشرت اليها. وهو الذي بدت طلائعه في العراق في اعقاب ظفر ثورة 17–30 تموز التقدمية .

اهم مصادر البحث

1: Butcher, H.J., Human Intelligence, London, Methuen, 1973.

2: Clark, D. H., editor, the Psychology of Education, NewYork, The Free Press, 1967.

3: Guilford, J.P., The Nature of Human Intelligence, NewYork, 1971.

4: Luria, A.R., The Working Brain, London, Penguin, 1973.

5: Hunt, J.M., editor, Human Intelligence, New-Jersey, Dutton, 1972.

6: Vernon, Philip E., The Structure of Human Abilities, London, Methuen 1963.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدر الحاج

أضواء على التوجهات القومية لفلسطينيي 1948

صبّ المسؤولون في الكيان الصهيوني واعضاء في الكنيست « الاسرائيلي » جام غضبهم خلال الاشهر المنصرمة على عرب فلسطين الذين يطلق عليهم الصهاينة تسمية « عرب اسرائيل » . وتركزت الحملة على « العناصر المتطرفة » وكان من الواضح ان المقصود بهذه العبارة حركة « ابناء البلد » والطلاب العرب التقدميين في الجامعات والثانويات الذين طرحوا خطا سياسيا قوميا واضحا .

وحملة السلطات الصهيونية لم تكن حملة كلامية فقط عبر وسائل اعلامها ، بل رافقها قمع واعتقالات واسعة النطاق ، وشملت هذه الاعتقالات بدو النقب ، جنبا الى جنب مع العناصر المؤيدة لحركة « ابناء البلد » سواء في الجليل او في المثلث . وبهدف توضيح معالم تحرك الفئات والقوى التقدمية القومية العربية داخل فلسطين المحتلة ، كان لا بد من تسليط الضوء على هذه الحركة القومية النامية التي هي دليل واضح على ان فلسطين العربية الانتماء باقية ابدا في وجدان الشعب الفلسطيني رغم مرور اكثر من ثلاثين عاما على جريمة الاغتصاب الصهيوني التي رافقها قمع عنصري دموي للشعب الفلسطيني ، وللقوى العربية المؤيدة للكفاح القومي في فلسطين .

وفي الواقع ، فان معالجة اوضاع الشعب العربي في فلسطين الرازح تحت الاحتلال الصهيوني منذ العام 1948 ، تتطلب الكثير من الدقة في البحث نظرا للحصار الصهيوني المفروض على القوى القومية التقدمية داخل فلسطين . وبما ان لعرب فلسطين ما يمكن تسميته « وضعا خاصا » هو وضع الشعب الرازح تحت الاحتلال الفريد من نوعه ، فكان لابد من متابعة نشوء وتطور القوى القومية التقدمية بين فلسطينيي 1948 خلال السنوات الماضية . والمقصود في ذلك ليس تنظيمات حركة المقاومة الفلسطينية السرية ، او تنظيمات الاحزاب القومية السرية ايضا ، بل الخط السياسي العام المطروح من قبل الفئات القومية وهي تحديدا « حركة ابناء البلد » والطلاب العرب ولجانهم التقدمية . هنا نستثني بالطبع الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) بوصفه حزبا اسرائيليا ذا « وضع خاص » سنشرحه من خلال هذا البحث .

لقد طرد القسم الاكبر من الشعب العربي الفلسطيني سنة 1948 من فلسطين اثر اعلان قيام « دولة اسرائيل » . واضطر الفلسطينيون الى النزوح للدول العربية وسائر مناطق العالم وبقي قسم صغير من الشعب الفلسطيني (حوالي 200 الف نسمة) تحت الاحتلال الاسرائيلي . وتركز هؤلاء في ثلاث مناطق رئيسية هي الجليل (شمال فلسطين) ، المثلث (وسط فلسطين) والنقب (الجنوب) بالاضافة الى تواجد قسم صغير في المدن الرئيسية (حيفا ، يافا ، اللد ، الرملة ، عكا ، القدس) .

فرض الاحتلال الصهيوني على هؤلاء العرب الهوية « الاسرائيلية » في محاولة لطمس انتمائهم القومي . وفي نفس الوقت فرضت سلطات الاحتلال الحكم العسكري على مناطق تواجد العرب وذلك ليتسنى لها قمعهم بسهولة ومصادرة اراضيهم وتفتيت اقتصادهم وربطه بالاقتصاد الصهيوني . وكان الهدف الاساسي من اعلان الحكم العسكري الذي استمر حتى العام 1966 قمع اي تنظيم سياسي فلسطيني مناهض للصهيونية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى الرغم من ان الحكم العسكري قد « الغي » نظريا العام 1966 ، فان صلاحيات الحكام العسكريين انتقلت الى رجال المخابرات الاسرائيلية التي تستند في ممارساتها الفاشية القمعية ضد العرب على قوانين الطوارىء التي تعود الى العام 1945 ، والتي تحرم « المواطن » من اي حقوق ، كل ذلك بهدف اضفاء الصبغة القانونية على القمع الصهيوني للعرب .

وطوال الثلاثين سنة الماضية شهدت فلسطين المحتلة ، اي منذ العام 1948 ، حركتين فلسطينيتين مستقلتين تصدتا لسلطات الاحتلال . الحركة الاولى هي حركة « الارض » التي ظهرت في مطلع الستينات ، وقد حظرت السلطات « الاسرائيلية » نشاطها بقرار من رئيس الوزراء « الاسرائيلي » في تلك الفترة ليفي اشكول (العام 1965) . اما الحركة الثانية ، فهي الحركة الطلابية في الجامعة العبرية في القدس بصورة خاصة، وحركة (ابناء البلد) .

قبل توضيح وعرض الخط السياسي للحركة الثانية ونضالها ، لابد من ايضاح نقطة هامة ، وهي ان ظروف هذه الحركة تختلف عن ظروف حركة « الارض » . واهم هذه الفوارق هي التالية :

1 ـ ظهرت حركة « الارض » في ظروف الحكم العسكري المفروض على العرب والذي خول سلطات الاحتلال صلاحيات واسعة في اعتماد اساليب القمع والاضطهاد . وبالفعل استنفدت سلطات الاحتلال القسم الاكبر من تلك الصلاحيات كتجميد حرية التحرك من منطقة الى اخرى ، وكان كل عربي يريد التحرك خارج مكان سكنه بحاجة الى تصريح ، والا فان الاقامة الجبرية ستفرض عليه في حال مخالفته. وقد عمدت سلطات الاحتلال الى تهجير البعض الى قرى نائية لفترة معينة ، او الاعتقال دون محاكمة ... الخ . اما بعد العام 1966 فقد « الغي » الحكم العسكري ، ورغم ذلك فقد بقيت قوانين الطوارىء لسنة 1945 ، وقد استعملت تلك القوانين في حالات عديدة يصفها الاسرائيليون بانها « حالات خاصة » ، ولا يزال خطر استعمالها واردا حتى الان .

2 ـ تحركت حركة « الارض » خلال مرحلة صعود الناصرية وقبل هزيمة 1967 ، وكانت هذه الحركة تؤمن بان الخلاص من الاحتلال سياتي عن طريق الكفاح الذي خاضه الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر .

3 ـ وبالنسبة للحركتين الجديدتين ، الحركة الطلابية ، وحركة « ابناء البلد » فقد بدأ نشاطهما المكثف بعد حرب تشرين الاول 1973 ، وبعد أن فقدت الحركتان الثقة تماما بالانظمة العربية الساعية للتسوية مع العدو الصهيوني . وفي نفس الوقت فقد ازداد ايمان الشعب الفلسطيني بحتمية الانتصار عبر حرب الشعب وانتهاج اسلوب الكفاح المسلح ، وحظيت حركة المقاومة الفلسطينية باعتراف جميع الانظمة التقدمية في العالم وحركات التحرير ، كما نالت دعم الشعب العربي .

4 ـ تحركت الحركة الطلابية وحركة « ابناء البلد » في ظروف اللقاء مع الشعب العربي الفلسطيني الذي رزح تحت الاحتلال بعد حرب حزيران 1967 (الضفة الغربية وقطاع غزة) ولم يكن هذا التحرك القومي الجديد منعزلا كما كانت الحال اثناء ظروف الحصار الكامل المطبق الذي احاط بنشاط « حركة الارض » .

5 ـ ازداد الوعي القومي عند الجماهير الفلسطينية عمقا خلال المرحلة الحالية ، كما ازداد الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال منذ العام 1948 ، ففي حين كان عدد فلسطينيي 1948 في بداية الستينات حوالي ثلثمائةالف نسمة ، فان عددهم اليوم يقترب من نصف مليون نسمة . وقد ازدادت بالتالي نسبة المثقفين القوميين الثوريين وتقلص بذلك النفوذ العائلي والعشائري ولا بد من الاشارة الى ان الاوضاع في القرى التي نشات فيها حركة « ابناء البلد » هي اوضاع تسود فيها العلاقات الاقطاعية والعائلية وهذا الوضع يطغي على جميع القرى الفلسطينية المحتلة منذ العام 1948 . لكن رغم هذا الوضع المتخلف الذي ساد الوسط العربي الفلسطيني، فقد بدات الولاءات العائلية والاقطاعية تهتز وتتقلص نتيجة التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المختلفة التي شهدتها المناطق العربية المحتلة . ولابد من الاعتراف انه بالرغم من التحولات التي جرت حتى الان ، فان كفة الميزان لا تزال تميل في معظم القرى الى صالح الاحتفاظ بالعلاقات ذات الصبغة العائلية .

لكن بعد ان تعمق الوعي القومي في اوساط الشباب بصورة خاصة ،بدات الصراعات في القرى العربية تتخذ طابع الصراع بين طرفين ، الاول تقدمي ويتكون من الشباب وسكان القرية التقدميين ، والطرف الثاني يتكون من زعماء العائلات والمستفيدين من استمرار العلاقات الاقطاعية الرجعية داخل القرى العربية . والواقع ان زعماء العائلات بصورة عامة يعملون على فرض وصايتهم على جميع افراد الحمولة في جميع النواحي سواء الاقتصادية او السياسية او الاجتماعية . ويستمد زعماء الحمولة نفوذهم وقوتهم عادة من السلطات الاسرائيلية كما يتنافسون في ما بينهم على السيطرة على « المجالس المحلية » . ولتحقيق هذا الهدف يقوم زعماء العائلات بدورين ، الاول اثارة النعرات والحزازات العائلية لكي يتم ، توحيد صفوف العائلة ، دون استثناء ، والثاني تعزيز وتقوية علاقاتهم مع السلطات والمخابرات (الاسرائيلية) لتامين اقصى ما يمكن من دعم هذه السلطات المادي والارهابي ضد الوطنيين .

وجرت العادة ان تتم كل اربع سنوات انتخابات للمجالس المحلية في القرى العربية . ويقوم زعماء الحمائل بتحويل هذه الانتخابات الى ميدان للصراعات العائلية ، بينما يحاول الوطنيون وضعها في اطارها الصحيح ، كي يكون الصراع على برنامج تطوير القرية مع الاخذ بعين الاعتبار ضرورة اتخاذ مواقف سياسية لصالح الشعب الفلسطيني بصورة عامة ، وضد الاحتلال وعمليات التهويد ومصادرة الاراضي الخ .. بصورة خاصة .

وبهدف القاء المزيد من الاضواء على الاوضاع في القرى العربية ، فان العائلات التي تسيطر عادة على المجالس المحلية تكون في اكثر الاوقات عائلات كبيرة متحالفة مع عائلات صغيرة لمواجهة عائلة كبيرة منافسة . وفي معظم الاحيان تمتلك هذه العائلات صلاحيات معينة تمكنها من « الانتقام » من مناوئيها ، وبصورة خاصة الوطنيين منهم ، فتعمد الى طردهم من سلك التعليم ، او من اية وظيفة تابعة للمجلس المحلي اذا ما كان المناوئون عمالا في المجالس المحلية .

وكنتيجة لعمالة زعماء الحمائل وسياسة التمييز والاضطهاد القومي التي تتبعها سلطات الاحتلال ، لم تشهد القرى العربية مشاريع تطويرية اساسية من قبل المجالس المحلية . ولا تزال معظم القرى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربية مفتقرة الى خارطة هيكلية للقرية ، وهنـــاك نقص خطير في المدارس الابتدائية والثانوية ، وتعترف السلطات (الاسرائيلية) بذلك في بياناتها الرسمية ، وفي اكثر الاحيان تعتبر « المدارس » الموجودة في القرى العربية بمثابة زرائب للبشر ، فالمدرسة عادة لا توجد في مبنـى واحد ، بل في عدة مباني في القرية ، وفي بيوت ومنازل سكن لا تصلح لان تكون صفوفا للتدريس ، وتنقصها كذلك المرافق الصحية . ولا يختلف الوضع بالنسبة للمدارس عن الوضع بالنسبة لشبكة المواصلات من القرية واليها . وهناك اكثر من ثلاثين قرية عربية غير مربوطـــة بشبكة الكهرباء حتى الان ، كما ان معظم الشوارع غير معبدة لدرجة ان النكتة المشهورة « كل شيء مزفت ما عدا شوارع القرية » قد انتشرت بين سكان القرى .

في هذه الظروف « المحلية » والعامة المحيطة بالقضية الفلسطينية نشأت حركة « ابناء البلد » . وظهر اول تحرك علني لها في قريـة ام الفحم كبرى القرى العربية والتي يبلغ عدد سكانها حوالي عشرين الف نسمة وتقع في شمال منطقة المثلث . وقد ظهرت هذه الحركة في نهاية الستينات ومطلع السبعينات كحركة وطنية تضم شبابا من المعاديـن للزعامة العائلية المسيطرة في « ام الفحم » . وكان هـدف هؤلاء الشباب العمل على تطوير القرى العربية في شتى المجالات . وقامت حركـــة « ابناء البلد » بنشاطات مختلفة في القرية كاقامة المحاضرات والندوات وتوزيع المناشير اضافة الى العمل التطوعي داخل القريـة بهـــدف تطويرها . وقد تطورت هذه الحركة وتوسعت وانخـرط الشباب في صفوفها ايمانا منهم بانها نواة لحركة شاملة في المستقبل . واستطاعت حركة « ابناء البلد » ايصال عضو من اعضائها الى المجلس المحلي في ام الفحم وذلك في العام 1974 .

وفي المقابل ظهرت في نفس الفترة حركات مماثلة لحركة « ابناء البلد » في العديد من قرى المثلث والجليل . وقد تطورت هذه الحركات في السنوات الاخيرة بحيث ان اهتمامها لم يقتصر فقط على همـــوم القرية بل اخذ يتوجه شيئا فشيئا للاهتمام بالقضية القومية بشكل عام ، وبالمشاكل التي تواجه الشعب الفلسطيني في الجزء المحتل من فلسطين منذ العام 1948 . وعلى اساس ذلك بادرت حركة « ابنـاء البلد » للمشاركة في جميع النضالات الوطنية التي خاضها فلسطينيو 1948 ، كالنضال ضد مصادرة الاراضي العربية ، وهـدم البيوت ، والنضال من اجل تحسين ظروف الاسرى من الفدائيين الفلسطينيين والسجناء السياسيين ، والتضامن بمؤازرة الحركة الطلابية ابان محاولات السلطات (الاسرائيلية) ضربها كما جرى خلال فترة محاولة فـرض قانون الحراسة على الطلاب العرب الخ . .

وحركة « ابناء البلد » لا تزال في بداية الطريق . واختارت ان تبدأ ببناء قاعدة متينة قبل المباشرة ببناء الهياكل والاجسام السياسية، وحتى قبل وضع برنامج سياسي واجتماعي للنضال يتضمن رأيها في كل ما يجري في المنطقة . وتؤمن حركة « ابناء البلد » ان تطوير الفكـر السياسي للحركة يتم عن طريق الممارسة النضالية والتصدي لسياسة القمع والاضطهاد (الاسرائيلية) .

حاليا لا توجد لجنة مركزية توحد حركـــات « ابناء البلد » المتواجدة في القرى العربية . وهذا يدفع البعض الى الاعتقاد بان هذا الامر قد يؤدي الى انقسام وتشرذم هذه الحركة . غير انه في السنتين الاخيرتين تم التركيز على عقد اجتماعات تنسيقية بين فروع حركـــة « ابناء البلد » في القرى العربية ، وتتم هذه الاجتماعات كل اسبوعين او ثلاثة وتضم نشيطي حركة « ابناء البلد » بالاضافة الى الحركـــة الطلابية ، وذلك بهدف تنسيق المواقف وتدارس اوجه النضال الانية والمستقبلية .

وترى حركة « ابناء البلد » ان الشعب الفلسطيني الذي يعيش تحت الاحتلال « الاسرائيلي » منذ العام 1948 ليس (اقلية قومية تناضل لنيل حقوقها كاملة ضمن الدولة الاسرائيلية) بل هو جزء من الشعب العربي الفلسطيني ، وان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد لكل الشعب الفلسطيني . لذلك تناضـل حركة « ابناء البلد » لكي ينال الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره على كامل تراب وطنه .

ولاتزال حركة « ابناء البلد » في مرحلة النمو والانتشار وهـي تنظر الى المستقبل على امل ان تصبح حركة جماهيرية واسعة تقود النضال الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة منذ العام 1948 وترتقي به الى مراتب متقدمة .

الحركة الطلابية

في مقابل حركة « ابناء البلد » ، وفي نفس الفترة تقريبا وبدون ان يكون هناك تنسيق مسبق ظهر تيار وطني في صفوف الحركة الطلابية سرعان ما سيطر على لجنة الطلاب العرب في القدس ، ومن ثم على لجنة الطلاب العرب في جامعة حيفا ، والتي كان يسيطر عليها التنظيم العربـي للحزب الشيوعي « الاسرائيلي » . وقبل التطرق الى هذا « التيـار الطلابي الوطني » لابد من ايضاح النقاط التالية :

1 ـ في غياب حزب ثوري فلسطيني داخل فلسطين المحتلة منـذ العام 1948 ، رات الحركة الطلابيـة ان مهامها تتعدى مهام الحركة الطلابية العادية كنقابة مهنية ، بل ان الغالبية العظمى مـن نشاطاتها ومهامهـا في ظـروف شعوب تعيش بصورة عاديــة تقوم بها احزاب سياسية . وفي اوقات ومراحل عديدة كان صوت الحركة الطلابية هو الصوت الفلسطيني المستقل الوحيد في الداخـل .

2 ـ ان لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس تاسست منذ العام 1958 ، كما أن لجنة الطلاب العرب في جامعة حيفا تاسست في نهاية الستينات ، اما اللجان الاربع الاخرى فقد تاسست في مطلع ومنتصف السبعينات .

أ ـ في بداية كل سنة دراسية تجري انتخابات عامة للجان الطلاب العرب ، بمعنى ان خط اللجنة السياسي ، وخاصة في ظل صراع مرير بين تيارين سياسيين ، تتوقف ديمومته واستمراريته على نتائج انتخابات اللجنة السنوية .

ب ـ ان النضال الطلابي هو فترة مرحلية قصيرة تستمر بضع سنوات ، وبالتالي فان « قيادة الطلاب » ستنتهي مرحلة الدراسة ، وفي المقابل يأتي طلاب جدد قد يكونون بعيدين عن الصراع الفكري والسياسي ، وغير معبئين سياسيا .

وقد تنبهت لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس الى جميع هذه النقاط ، ولكـي تتفادى أخطارها دابـت الى تكـريس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خطها بين صفوف الطلاب ، وخلق الكوادر الجديدة لاستمرارية الخط ، مع الحفاظ على اتصال مباشر ومستمر مع طلاب الثانويات .

تبلور الخط الطلابي الصدامي في اطار نضال الطلاب العرب ضد الصهيونية ايديولوجية وممارسة . وخلال مرحلة النضال هذه ضد الاضطهاد والقمع ومصادرة الاراضي ومحاولة تجهيل العرب وجعلهم جزءا من دولة « اسرائيل » ، برز الخلاف ثم الصراع مع الحزب الشيوعي « الاسرائيلي » (راكاح) . وقد تمخض الخلاف عن ظهور خط قومي التوجه وصدامي تبنى برنامجا سياسيا واضحا ، نورد في مايلي أهم نقاطه :

1 ــ ان الشعب العربي الذي يعيش تحت السيطرة « الاسرائيلية » منذ العام 1948 هو جزء من الشعب العربي الفلسطيني ، وبناء عليه فانه لا ينتمي الى ما يسمى بالشعب « الاسرائيلي » او الدولة « الاسرائيلية » .

2 ــ بما ان فلسطينيي 1948 جزء من الشعب العربي الفلسطيني ، فان مصيرهم يجب ان يكون مرتبطا بمصير الشعب الفلسطيني في كل اماكن تواجده ، وبالتالي بمصير ومستقبل الشعب العربي .

3 ــ للشعب الفلسطيني الحق بتقرير مصيره فوق تراب وطنه . كما ان الحقوق القومية لفلسطينيي 1948 تتمثل في حقهم بتقرير مصيرهم ، وليس باعتبارهم اقلية قومية في « اسرائيل » كما ينادي الحزب الشيوعي « الاسرائيلي » (راكاح) .

4 ــ ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني كاطار وحدوي لجميع فصائل الثورة الفلسطينية بما فيها جبهة الرفض الفلسطينية . (وقد رأت الحركة الطلابية الاشارة الى جبهة الرفض الفلسطينية منعا لاي التباس ، خاصة بعد ان شنت وسائل الاعلام الصهيونية واجهزة الاعلام التابعة (لراكاح) والانظمة الرجعية العربية هجوما شرسا على منظمات الرفض ، واصفة هذه المنظمات بانها جماعة « تخريب تسعى لضرب جهود التسوية ») .

5 ــ ان الصهيونية حركة كولونيالية عنصرية مرتبطة بالامبريالية العالمية ، وبالتالي فان المشروع الصهيوني في فلسطين هو تجسيد عملي للكولونيالية الاستيطانية والقهر القومي . لذلك فان الصهيونية واداتها (اسرائيل) هي عدو تاريخي ليس فقط للشعب الفلسطيني ، بل للامة العربية بأسرها .

6 ــ ان الانظمة العربية الرجعية واليمينية هي حليف طبيعي مع الامبريالية العالمية ، وبصورة خاصة الاميركية ، وذلك لضرب حركة التحرر العربي .

7 ــ ترى الحركة الطلابية الفلسطينية عدم امكانية نيل حقوق الشعب الفلسطيني القومية عن طريق المحاولات السلمية ــ الاستسلامية ، لذلك فهي ترفض التسوية الجزئية او الشاملة جملة وتفصيلا ، وبالتالي فانها ترفض قرارات مجلس الامن الدولي وبصورة خاصة القرارين 242 و 338 .

8 ــ النضال لاقامة سلطة وطنية فلسطينية مقاتلة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في اي شبر يتم تحريره دون صلح او اعتراف ، وذلك كخطوة مرحلية للوصول الى الهدف النهائي .

9 ــ ضرورة توعية وتنظيم الجماهير الفلسطينية بهدف انتهاج خط ثوري صدامي ملتزم بالهدف النهائي مع تصعيد النضال في الداخل عن طريق تنظيم الاضرابات والمظاهرات والانتفاضات الشعبية .

10ــ ان تنظيم العمل السياسي ، واقامة التحالفات والجبهات السياسية ، يجب ان يكون في اطار معاد للصهيونية وعملائها العرب .

الصراع مع (راكاح)

منذ ظهور الحركتين (الطلابية ، وابناء البلد) بخطهما الصدامي شنت وسائل الاعلام الصهيونية ، ووسائل اعلام حزب (راكاح) حملة شرسة وشعواء في محاولة لارهابهما وارهاب الجماهير العربية والطلاب في الجامعات ، وردعهم عن الانخراط في صفوفهما او التضامن معهما . كل ذلك بهدف عزل هاتين الحركتين عن الجماهير العربية وتحويلهما الى تشكيلات هامشية صغيرة . ولم يفاجأ احد بموقف السلطات الصهيونية ، لكن قطاعات واسعة من الطلاب فوجئوا بعنف وابتذال الحملة التي شنها الحزب الشيوعي « الاسرائيلي » (راكاح) .

وقد درجت صحيفة (الاتحاد) الناطقة بلسان (راكاح) على شن هجوم شرس في كل عدد يصدر منها ، وفي كل مناسبة ، خاصة اثناء انتخابات لجان الطلاب في القدس وحيفا ، ولصف صحيفة « الاتحاد » (لسان حال راكاح) الطلاب الوطنيين الفلسطينيين بانهم « متطرفون قوميا » و « شوفينيون » او « يساريون طفوليون » و « يمين فاشي » الى اخر المعزوفة التي اعتاد اطلاقها هؤلاء في كل مناسبة .

والحقيقة ان الحركة الطلابية ، وحركة « ابناء البلد » تفادتا الدخول في صراع مع (راكاح) خاصة وان المواجهة مع سلطات الاحتلال كانت ولا تزال من الضروريات والاولويات لنضال اي تيار وطني في الداخل . لكن (راكاح) لم يحتمل او يتصور ان هناك فئات وطنية فلسطينية مستقلة تناضل خارج اساليب وانماط « نضاله » . لذلك كانت حملة (راكاح) ولا تزال على الخط الوطني الفلسطيني اعنف من حملة اجهزة الاعلام الصهيونية .

وتوضيحا للحقائق لابد من ذكر بعض النقاط التي دار النقاش حولها ، والتي قادت الى الصراع بين (راكاح) والتيار الوطني الفلسطيني ، وذلك كما وردت في المنشورات والوثائق الصادرة عن لجنة الطلاب العرب في جامعة القدس .

1 ــ في ما يتعلق بالحراسة في مساكن الطلبة ، فقد حاولت سلطات الجامعة ، بايعاز من السلطات « الاسرائيلية » واجهزة المخابرات فرض الحراسة على الطلاب العرب ، أسوة بالطلاب اليهود ، وذلك بعد العمليات الاقتحامية الفدائية « كريات شمونة » و « معلوت » . وهدفت السلطات « الاسرائيلية » من وراء ذلك اجبار الطلاب العرب على القيام بدور عسكري ضد الفدائيين الفلسطينيين وابناء شعبهم ، لاظهار حركة المقاومة بانها حركة « تخريب » بدليل ان الطلاب العرب يقومون بنشاط عسكري ضد المقاومة .

من هنا جاء رفض الطلاب العرب الحراسة رغم تهديدهم بالطرد من الجامعات . وقد شن الطلاب العرب نضالا طويلا تخللته عشرات المظاهرات والاضرابات واقامة الندوات وتوزيع المناشير

الخ .. الى ان افشلوا مؤامرة الحراسة . وفي تلك الفترة طالب الحزب الشيوعي « الاسرائيلي ـ راكاح » من « رفاقه الطلاب » العمل من اجل اقناع الطلاب العرب بالحراسة من منطلق المساواة بين الطلاب العرب واليهود .

2 ـ افشل طلاب (راكاح) وبايعاز من قيادتهم ارسال مذكرة من قبل الحركة الطلابية الفلسطينية الى سكرتير الامم المتحدة لشرح اخطار مؤامرة التصفية التي يواجهها الفلسطينيون تحت الاحتلال .

وقد اصر طلاب (راكاح) على ضرورة ذكر شرعية قيام دولة « اسرائيل » في حدود آمنة ومعترف بها . لذلك عارض الطلاب التقدميون هذه المواقف الغير وطنية وافشلت (راكاح) بذلك فكرة تقديم المذكرة .

3 ـ اتخاذ (راكاح) النشيد الوطني الصهيوني (هتكفا ـ الامل) نشيدا رسميا للحزب . ومن المعروف ان هذا النشيد ينص على :

« ما دام قلبي اليهودي ينبض

فسابقى احلم ان اعود

الى ارض الاباء والاجداد

ارض صهيون واورشليم » .

ليس هذا فحسب ، بل يصر حزب (راكاح) على تلاوة هذا النشيد في كل مناسبة او نشاط سياسي يقوم به .

4 ـ افشل (راكاح) « يوم الارض » الثاني العام 1977 ، وحاول وضع حد للنضال ضد سياسة مصادرة الاراضي العربية ، واصر على تحويل ذكرى « يوم الارض » الى مهرجان يتغنى به بوحدة الصف الفلسطيني .

وفي الاجتماع الذي عقد بين الحركة الطلابية والحزب الشيوعي « الاسرائيلي » (راكاح) في مطلع اذار 1977 لتحديد المواقف بالنسبة للاحتفالات بالذكرى الثانية ليوم الارض ، كان موقف (راكاح) كالتالي :

1 ـ ان مصادرة الاراضي العربية لا تزال حتى الان حبرا على ورق !؟ ولا تزال المفاوضات جارية مع السلطات « الاسرائيلية » لحل مشكلة المصادرة !؟

2 ـ الهدف من « يوم الارض » الثاني هو احياء ذكرى شهداء « يوم الارض » الاول فقط .

3 ـ على هذا الاساس يجب الحفاظ على وحدة الصف الفلسطيني وعدم اللجوء الى الاضرابات والمظاهرات .

اما موقف لجنة الطلاب العرب في القدس فقد كان على الشكل التالي :

أ ـ ان سياسة مصادرة الاراضي العربية مستمرة عمليا ، والمستوطنات الصهيونية تقام على الاراضي العربية المصادرة سواء في الجليل او قطاع غزة او الضفة الغربية المحتلة .

ب ـ ان الهدف من دعوة لجنة الطلاب العرب في القدس للاضراب العام، يأتي في اطار النضال الفلسطيني العام ضد سياسة مصادرة الاراضي العربية واقامة المستوطنات .

ج ـ ان وحدة الصف الفلسطيني تجلت باروع صورها في الاضراب العام في ذكرى « يوم الارض » الاول ، واكرام الشهداء يكون بعدم التنكر لنضالهم والاكتفاء بالقاء خطب حماسية في الصالات واماكن التجمع العامة .

ولم يكتف حزب (راكاح) بموقفه الرافض من مبدأ اعلان الاضراب ، بل قام بعض اعضائه المغرر بهم بضرب الطلاب المتظاهرين في « عرابة » وتمزيق شعاراتهم .

وكانت التحالفات التي اقامها حزب (راكاح) مع القوى السياسية الصهيونية وعملاء الصهاينة من بعض العرب مصدر خلاف جذري بين الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل وهذا الحزب . لقد اقام (راكاح) ما سمي « الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة » والتي ينص احد بنودها الستة على « ضرورة الحفاظ على امن « اسرائيل » والدفاع عنها في اطار حدود 1967 ، والسعي لاقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة » .

والغريب في كل ذلك ان « الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة » تضم تحالفا من الصهاينة والعملاء الذين حكمت عليهم الثورة الفلسطينية بالاعدام لثبوت خيانتهم الشعب الفلسطيني وثواره .

ان هذا التحالف مع الصهاينة والعملاء وتبني برنامج صهيوني وضع النقاط على الحروف امام الجميع ، ودفع بالطلاب العرب الى اتخاذ موقف حاسم من (راكاح) وتصنيفه بانه حزب ليس فقط غير معاد للصهيونية ، بل متعاطف معها .

اخيرا لابد من التذكير بالقرار التاريخي الذي اتخذته الحركة الطلابية بمقاطعة انتخابات الكنيست الصهيوني التي تنافست فيها احزاب صهيونية . ولقد اثار ذلك القرار (راكاح) بشكل بارز وكشف مرة اخرى اقنعة (راكاح) الصهيونية .

ان هذه النقاط ونقاط اخرى ليس المجال لذكرها الان اكدت وبدون اي مجال للشك ، وجود خطين سياسيين متصارعين في الساحة العربية الفلسطينية داخل الكيان الصهيوني :

1 ـ خط التسوية الاصلاحي الذي يكتفي بالثرثرة واقامة المهرجانات وبتقديم الاستجوابات الى الكنيست ، والتي يكون مصيرها عادة سلة المهملات . هذا الخط وجد في مرحلة الردة والتراجع التي شهدتها القضية القومية بعض الابواق التي تردد تنظيراته التي تدعي احتكار النضال في الداخل .

2 ـ خط التصدي المتمثل بالحركة الطلابية وحركة « ابناء البلد » . وهذا الخط هو تجسيد عملي لنضال الشعب الفلسطيني واستمرار لكفاحه عبر ثوراته المتلاحقة وانتفاضاته الجماهيرية منذ مطلع هذا القرن حيث واجه الشعب العربي الهجمة الاستيطانية الكولونيالية الصهيونية المدعومة بالقوى الامبريالية ، ونضال الشعوب المضطهدة كما يقول منطق التاريخ سينتصر رغم كل محاولات القمع والاضطهاد والتشويه .

●

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرب الـ ٤٨ مازالوا عربا

حركة ابناء البلد تهزم حزب راكاح

□ الحركة : لا حل للقضية الفلسطينية دون اعتراف رسمي بفلسطينيي العام ١٩٤٨

□ في الطيبة رشح « راكاح » شخصا كان يعتبره خائنا .. فانقسم الحزب

اعترف ايلي ريكنس مدير معهد « شيلواح » التابع لجامعة تل ابيب ، في حديث اجرته معه صحيفة « جيروزالم بوست » (٢٨/١١/٧٨) بان نتائج الانتخابات المحلية التي اجريت اخيرا اثبتت بان جيل الشباب العربي يتجه بسرعة نحو المزيد من الالتصاق بالانتماء للقضية العربية والنضال الفلسطيني . وقد اطلق ريكنس على هذا الاتجاه « الفلسطنة » .

والواقع ان اعتراف ريكنس هذا سبقته سلسلة من الابحاث والتنظيرات للعديد من الخبراء الاسرائيليين في الشؤون العربية ، وقد انصبت جميع توصيات هؤلاء الخبراء على ضرورة ايجاد حل سريع لمواجهة الاتجاه الراديكالي داخل الوسط العربي . وتركزت توصيات هؤلاء الخبراء بصورة خاصة على ضرورة مواجهة الحركات القومية التي اثبتت في الانتخابات الاخيرة بانها تستطيع مواجهة « الحزب الشيوعي الاسرائيلي – راكاح » ، اضافة الى جميع القوى العائلية ، سواء المؤيدة للسلطات الاسرائيلية او تلك التي تقف الى جانب « راكاح » لاعتبارات مختلفة .

ولقد تركز حديث ريكنس لصحيفة « جيروزالم بوست » على « حركة ابناء البلد » حيث وصفها بانها « حركة قومية متطرفة تتطابق اراؤها السياسية مع جبهة الرفض العربية » . وكرر ريكنس التحذير من خطورة انتشار « حركة ابناء البلد » فقال : ان اربع مناطق انتخابية اساسية في الوسط العربي قد شهدت نشاطا قويا لهذه الحركة ، وبصورة خاصة في قريتي كابول وام الفحم . وختم ريكنس حديثه بالتركيز على النقاط التالية :

● ان « حركة ابناء البلد » تتحدث عن دولة علمانية في فلسطين ، وذلك على كل عكس حزب « راكاح » الذي يطالب بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة .

● تتمتع « حركة ابناء البلد » بتاييد متزايد في صفوف المثقفين والشباب . وتتهم هذه الحركة حزب « راكاح » بانه حريص جدا على جميع الامور المتعلقة باسرائيل .

● الاعتراف بانه من الصعب بعد الانتخابات الاخيرة تجاهل قوة « حركة ابناء البلد » التي هزمت حزب « راكاح » في قرية ام الفحم وازداد عدد اعضائها في المجلس البلدي الى اثنين ، كما هزمت « راكاح » في الجولة الانتخابية الثانية التي جرت لاختيار رئيس لبلدية كابول .

● هناك اصرار من قبل الاتجاهات القومية في اوساط الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال منذ العام ١٩٤٨ بانه « لا حل للقضية الفلسطينية دون اعتراف رسمي وضمانات دولية للحقوق والهوية القومية للفلسطينيين الذين يعيشون في المناطق المحتلة منذ العام ١٩٤٨ » .

ان هذه النقاط الاربع التي ابرزها ريكنس في حديثه ، في نطاق تركيزه على خطورة الوضع في الوسط العربي ، تثبت مرة اخرى بان الاتجاه القومي هو الاتجاه الراسخ والمسيطر في الاوساط الفلسطينية على الرغم من مرور اكثر من ثلاثين عاما على الاحتلال وما رافقه من تهجير وتهويد وتمييع للنضال القومي .

النتائج من زاوية اخرى

ومن ناحية اخرى ، تناول عطا الله منصور مراسل صحيفة « هارتس » واحد كبار المتعاونين مع السلطات الاسرائيلية المحتلة نتائج الانتخابات من زاوية اخرى . فقد ذكر منصور في مقال له نشرته « هارتس » (٢٤/١١/٧٨) : ان احدى الحقائق البارزة والمثيرة بشكل خاص في نتائج الانتخابات للسلطات المحلية في الوسط العربي ، هي نجاح « الجبهة الديموقراطية » وهي التحالف الذي يقوده حزب « راكاح » في الجليل ، وسقوطها في المثلث . وقد فازت الجبهة في الجليل بالرئاسة في (١٢) قرية من بين الثلاثين ، في حين فازت الجبهة في المثلث بمقعد واحد للرئاسة ، وفشلت في (١٢) قرية .

وقد حاول هذا المراسل ان يجد سببا لفشل « الجبهة الديموقراطية » في المثلث على اساس انه زار المنطقة ، فقال ان السبب الذي وجده يعتبر خطيرا بالنسبة للحزب الشيوعي الاسرائيلي في المنظور المستقبلي . ففي قرية ام الفحم مثلا ، وهي القرية الوحيدة التي سيطرت عليها « الجبهة » في المثلث ، خسر الحزب الشيوعي الاسرائيلي واحدا من ممثليه الاربعة في المجلس نتيجة لفوز « حركة ابناء البلد » وفي قرية عرعرة فشل « راكاح » في ايصال اي ممثل عنه للمجلس ، وكذلك الامر في كفر قرع حيث فشل « راكاح » في تشكيل قائمة لخوض المعركة الانتخابية .

اما في قرية باقة الغربية فقد حصل « راكاح » على نصف الاصوات في انتخابات الكنيست الماضية ، اما في الانتخابات المحلية الاخيرة فقد فقد « راكاح » العضو الوحيد الذي كان له في المجلس المحلي ، في حين فازت « حركة ابناء البلد » في مقعد واحد . وفي قرية جت لم تجرؤ « الجبهة الديموقراطية » على خوض الانتخابات ، اما في الطيبة فقد فشل مرشحو « راكاح » ، وكذلك في الطيرة .

ويقول المراقبون ان هذه النتائج التي جاءت لغير صالح « راكاح » كانت محصلة للمواقف الانتهازية التي يعتمدها الحزب الشيوعي الاسرائيلي في تحالفاته السياسية ، اضافة الى موقفه من نضال الشعب الفلسطيني بصورة عامة ، و « خاصة » نظرته للفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال منذ العام ١٩٤٨ . والمثال على ذلك ان « راكاح » رفض التقيد بموقف الجماهير الرافضة لتاييد طارق عبد الحي رئيس المجلس المحلي السابق في الطيرة ، والذي لا ينكر علاقته الوثيقة بسلطات الاحتلال .

وكذلك كان الوضع في الطيبة اسوا مما هو عليه في الطيرة . فقد اعتمد « راكاح » عبد الرحيم الحاج يحيى ، وهو الذي كان يعتبر الى وقت قصير في منشورات الحزب شخصا « خائنا » . لذلك انقسم اعضاء الحزب الشيوعي في الطيبة الى قسمين ، قسم انصاع لاوامر الحزب وقسم اخر تمرد وايد القائمة المنافسة برئاسة عبد اللطيف حبيب .

عامل آخر

بالاضافة الى ذلك ، هناك العامل الاخر ، الذي هو قيد النمو ، وهو « حركة ابناء البلد » . وعلى الرغم من تجاهل مراسل « هارتس » عطا الله منصور دور هذه الحركة ، الا انه اعترف بطريقة مباشرة في مكان اخر من مقاله في « الاصابات القاتلة التي انزلتها بالجبهة الديموقراطية جماعة ابناء البلد » « هارتس » (٢٤/١١/٧٨) ، ويتهم عطا الله منصور « حركة ابناء البلد » بانهم « جماعة قومية متطرفة ، وهم لا يعتبرون جسما سياسيا من الناحية التنظيمية ، لكنهم الان في طور التبلور بدعم من لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس وحيفا . ولجنة الطلاب هذه تضم مئات الطلاب الشباب من عشرات القرى العربية الذين خاضوا الانتخابات للمجالس المحلية في ام الفحم وفازوا في كل من الطيبة وام الفحم وسخنين وكابول » .

ويضيف عطا الله منصور : على الرغم من ان « راكاح » يتمتع بحرية العمل السياسي في الوسط العربي ، فانه يواجه الان منافسة ايديولوجية شديدة من جماعة « ابناء البلد » التي تتميز بالعناد وقدرة كبيرة على المناورة لم تعرفها في السابق حركة « الارض » . وهذه الحركة اضافة الى تطرفها ، فانها ترفض اتفاقيات كامب دايفيد ومبادرة السادات وقرار مجلس الامن رقم (٢٤٢) ، وتؤمن بان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، وان على العرب في اسرائيل تعبئة جزء كبير من نضالهم لانتزاع حقوق الشعب الفلسطيني . ويعتبر عطا الله منصور ، الذي يمكن فهم مقاله بانه جزء من حملة التهويل والتهديد ضد الحركات القومية التقدمية في الداخل ، ان الحركة القومية المتطرفة تكرر المصطلحات السياسية التي يستعملها حزب البعث العربي الاشتراكي . لذلك يتوقع هذا المراسل بان يكون الصراع عنيفا في السنوات القادمة بين « راكاح » و « حركة ابناء البلد » وذلك بهدف قيادة الفلسطينيين في داخل الاراضي المحتلة منذ العام ١٩٤٨ ، حيث اثبتت مجريات الامور ان الاتجاه القومي في الداخل « اصبح قادرا على اكتساب مئات الطلاب والشباب المتحمسين ، وتقديم ايديولوجية متبلورة تهدد بشكل او باخر استمرار نفوذ « راكاح » داخل الوسط العربي » . ■

« الدستور » –

تأملات تاريخية

في مكيافيللي والمكيافيللية

تقويم جديد لأفكار مؤرخ

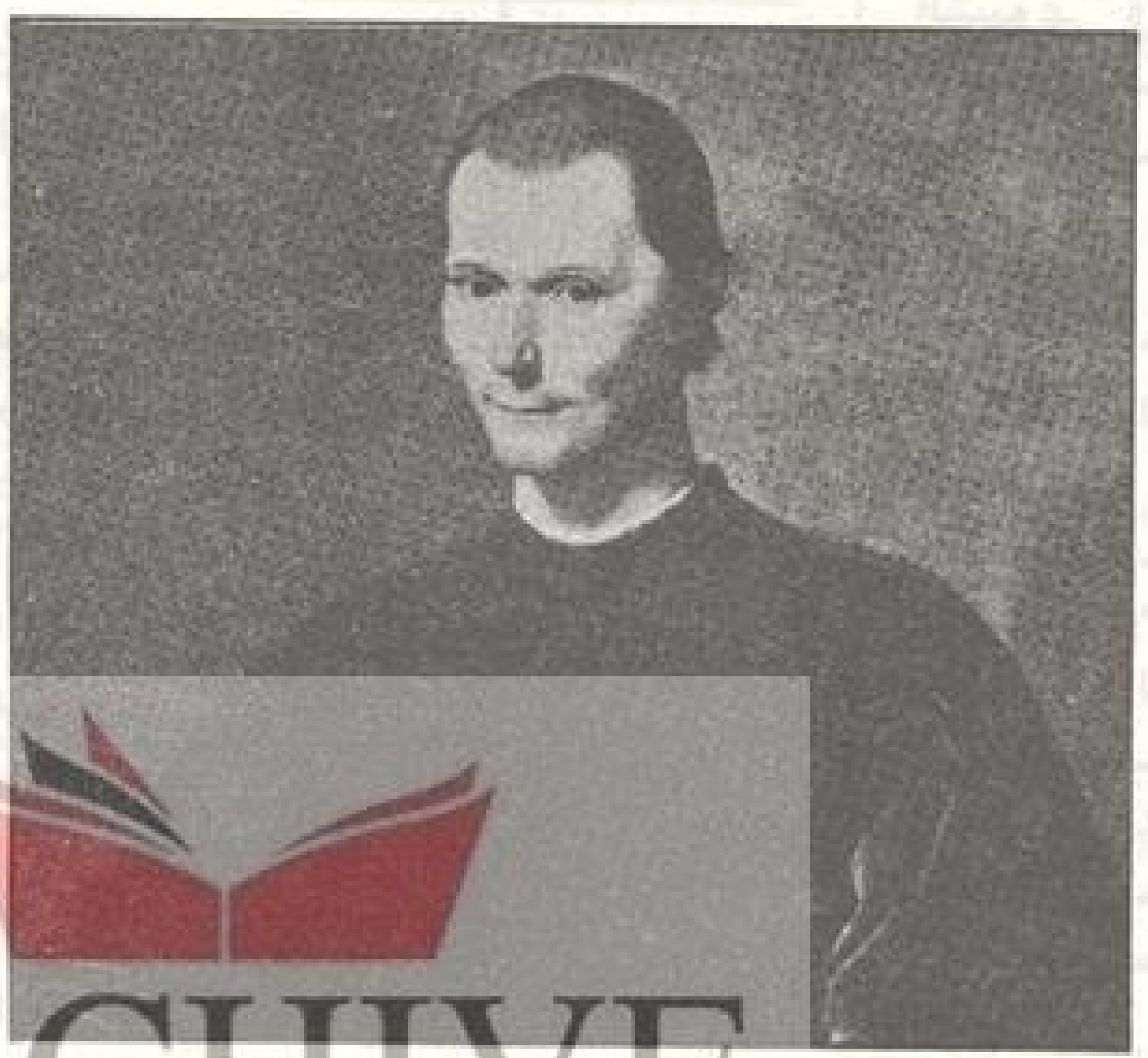

● مكيا فيللي : منذ زمن بعيد لا أقول ما أفكر فيه ولا أنكر مطلقا ما أقول

● هتلر : كان يعيد قراءة كتاب (الامير) كل يوم قبل النوم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قلما عرف التاريخ مفكرا اثارت آراؤه ردود فعل متناقضة وباستمرار على مدى قرون طوال وفي كل زاوية من زوايا عالمنا الشاسع مثل مكيافيللي الايطالي الذي يتعلق اسمه بذهن كل من يطرق باب السياسة طرقته الاولى. لذا ليس بغريب ان يحظى هذا الرجل وما انتج يراعه باهتمام الباحثين من مختلف الاتجاهات حتى يومنا هذا . واذا كانت صورة مكيافيللي المشوهة بدات تختفي عن اذهان الغربيين لتحل محلها صورته الواقعية منذ زمن بعيد ، فان تلك الصورة لاتزال متجسدة في اذهان الشرقيين بشكل لايختلف عما كان عليه الامر في اوروبا القرون الماضية. ويستهدف هذا البحث تقديم صورة مكيافيللي الحقيقية بالاستناد الى مؤلفاته الاصلية مع آخر ماتوصل اليه الباحثون بصدد افكاره . كما ان فيه محاولة للتوصل الى بعض الاستنتاجات الجديدة قابلة للنقاش والتطوير .

نبذة من حياة مكيافيللي

ولد نيكولو دي بيرناردو مكيافيللي في 3 ايار 1469 بمدينة فلورنسة الواقعة في وسط ايطاليا . وهو ينتمي الى اسرة توسكانية نبيلة عريقة شغل افرادها على مدى عقود طوال مراكز حساسة فاصبحوا بحكم ذلك في معمعان الحياة السياسية الفلورنسية النشطة حتى ان عائلة جده الاكبر قد تعرضت للنفي من المدينة من جراء ذلك في العام 1260 وقضى احد اسلافه نحبه في السجن . وقد تدهور الوضع المالي لاسرة مكيافيللي قبل مجيئه الى الحياة مما ترك بعض الاثر على تصرفاته كما نلاحظ ذلك فيما بعد .

لقد ترعرع مكيافيللي في كنف السياسة والثقافة . فان والده كان محاميا معروفا ، وكانت امه تقرض الشعر . ومع ان المعلومات فيما يتعلق بالفترة المبكرة لحياة مكيافيللي غير متوفرة بشكل يمكن من خلالها القاء اضواء كافية على مصادر ثقافته الاولية ،الا ان مما لاشك فيه انه تلقى تعليما جيدا بالنسبة لعصره اذ درس القانون والتاريخ(1) وفي السابعة من عمره بدأ بتعلم اللاتينية(2) ــ لغة العلم والثقافة آنذاك ــ وفي بداية شبابه اظهر مكيافيللي الميل نحو الثقافتين القديمة والحديثة ، فقرا خطب الكاتب والخطيب الروماني المعروف شيشرون (106–43ق.م.) ودرس مؤلفات ارسطو وتابع باهتمام مؤلفات رائدي «النهضة» دانتي (1265–1321) وبترارك (1304–1374) . الا ان مدرسة مكيافيللي الاساسية كانت شوارع مدينة فلورنسة التي منحت العالم ابرز عباقرة النهضة من امثال دانتي وليوناردو دافنيشي وميخائيل انجيلو وغيرهم . فان هذه المدينة تميزت عن غيرها من المدن الايطالية بنشاطها السياسي الواسع الذي لم يقتصر على النخبة ، كما كان عليه الامر في مدينة البندقية المهمة مثلا ، بل زاوله كل فلورنسي . ففي هذه المدينة «كان الجميع ساسة» حسب وصف احد المؤرخين(3). وفعلا شهدت شوارع فلورنسة احداثا سياسية متلاحقة مليئة بالدروس والعبر تركزت في ذاكرة الناس فكانوا يرددونها ويقرنون بها احداثهم الحياتية الخاصة .

عينان براقتان تنمان عن نظرة ثاقبة معبرة ، طول متوسط وشفتان دقيقتان تفصح ابتسامتهما عماكان يجول في أعماق نفسه ــ هكذا تصف المصادر المظهر الخارجي لمكيافيللي مستندة في ذلك الى ماكتبه عنه معاصروه والى لوحات بعض رسامي عصر النهضة . وكان يختفي وراء هذا المظهر عالم زاخر ملىء بالقيم . فقد عرف مكيافيللي بسرعة البديهة بشكل نادر وبتأثيره على مستمعيه وباجادته للحديث الجاد والمرح مع مختلف المستويات بدءا بحطابي قريته ومرورا بأمراء ايطاليا وانتهاء بملوك اوروبا ، محاولا ، في كل الاحوال ، ان يكون مرغوبا

النهضة الكبير

د. كمال مظهر

● موسليني : كتب رسالة عن مكيا فيللي نال بها درجة الدكتوراه

● محمد علي الكبير : طلب ترجمة كتاب الامير الى العربية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قريبا الى قلوب الآخرين . كان ودودا في غاية الاخلاص لاصدقائه ، يأتي كل ما في وسعه عملا وقولا ، من اجل خيرهم ورفعتهم . وكان بعيدا عن القسوة في حياته ويعطف على كل ضحية بريئة مما يبدو جليا من رسائله الكثيرة لاصدقائه . اما في صراحته فلم يضاهه احد من اعلام عصره«4». وهو ، الى جانب كل ذلك ، كان شكوكيا وسواسا. ومع انه قال عن نفسه ذات مرة «ولدت فقيرا فتعلمت الحاجة قبل المتعة»«5» الا انه عرف الاخيرة في الحياة وفهمها فهما ايطاليا اصيلا . كان يحب الحياة ، سخيا لايعرف للبخل معنى ، فيصرف على نفسه واصدقائه دون تردد«6» . ومع انه كان زير نساء وعاشقا للجمال الا انه لم يفقد القيم ابدا ولم يفسح المجال لامر ما ان يفسد عليه حياته العائلية فاسبغ على اولاده الستة حنان الاب الرؤوف ومنح زوجته كل رعاية وحب . وجاءت طموحاته الواسعة متوافقة تماما مع عبقريته الفذة وحبه الجم للعمل واسداء الخدمات على احسن وجه .

جعل كل ذلك من نيكولو يبدو غريبا في مجتمع كانت بقايا الفكر الاقطاعي ، ولا سيما فرديته ونفاقه ، تطغي على عقول الجانب الاكبر من اصحاب الكلمة والفكر فيه . فقد كان ضعاف النفوس من اقرانه يحسدونه ويحاولون النيل منه عن طريق خلق المشاكل له واشاعة الرذائل عنه والطعن في اخلاصه ، فلم يجد من الاصدقاء المخلصين – لا سيما بعد نفيه – سوى الذين كانوا على مستوى تفكيره او من كانوا في اخلاقهم ارفع من ان يسمحوا لانفسهم بالتحلل والانحطاط ، ويأتي على راسهم المؤرخ المعروف كويجارديني والدبلوماسي الفلورنسي فرانسيسكو فيتوري . وكما يقول عنه المؤرخ ا.ك. جيفيليكوف انه «كان وحيدا» لكنه «كان ارفع من الآخرين»«7» .

كان حساد مكيافيللي يأخذون عليه صراحته المطلقة . والواقع انه لم يستطع ان يخفي حبه وامتعاضه عن الآخرين ، فكانت ملامح وجهه وابتسامته الساخرة او العطوفة تعبر عنهما حتى وان حاول هو اخفاءهما عبثا . لذا فانه بدا شاذا في وسط كان اغلب مثقفيه يتلونون كالحرباء ويتزلفون لكل قوي ، مركزا وجاها وان كان الاضعف قيما . وعندما اضطر ان يجاري المنافقين علق بنفسه ساخرا فكتب يقول :

«منذ زمن بعيد لا اقول ما افكر فيه ولا افكر مطلقا فيما اقول. واذا حدث لي مرة ان اقول الحق فانني اغلفه بحزمة من الاكاذيب بحيث يصعب بلوغ كنهه»«8» .

وقد اتهموه بالسخرية التي لم تكن ، حسب وصف احد المؤرخين الطليان ، سوى التعبير الامين عن «ايمان شخص كان يثق مخلصا بمنطقه الخاص» ، فهو «لم يكن يخفي ما كان يخفيه غيره» وان اخفى فانه انما «كان يخفي من صفاته الجليلة» ما جعلت «طيبته تبدو للعيان دون حقيقتها»«9» .

غالبا ما لجأ حساد مكيافيللي الى اساليب وضيعة للنيل منه ولتشويه سمعته . فانهم ، مثلا ، اتهموه بالجشع الذي دفعه –حسب ادعائهم– الى الزواج من ماريا كورسيني طمعا في ثروتها في الوقت الذي بلغت قدسية الرابطة بين الزوجين الحد الذي ظلت فيه وفية له كل الوفاء حتى الرمق الاخير ، بحيث اوصى لها في اول وصية له بالصداق الكامل على ان تنتفع هي واولادهما فقط بما يترك بعد الموت . وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما ظلت علاقات نيكولو وماريا على افضل مايكون. وكما تبين رسائله فانه كان في كل سفرة له يتحرق للعودة سريعا الى اسرته التي كانت تنتظره ايضا بتلهف كبير ، ولا سيما زوجته التي كان يسميها مداعبا اياها ب «رئيسته» (la brigata) «10» . وبالرغم من نجاحاته المشهودة في حياته العملية فان البعض حاولوا القاء ظلال

من الشك عليها ، ولا سيما نجاحاته في اعماله الدبلوماسية(11) ، غير أنها كانت ظلالا باهتة .

ولّد هذا الموقف غير النبيل من لدن اقرانه ومعارفه ، مع مشاكله الخاصة ، بعض التشاؤم في نفس مكيافيللي . فقد غدا يعتقد ان الحسد «غريزة متأصلة في طبيعة الانسان» وبأن «من شيمة الجنس البشري عامة الميل الى التقليل من اعمال بعضهم البعض اكثر من الميل الى اطرائها» (المطارحات(12)) . لكن مكيافيللي نفسه لم يكن من الطراز الاخير من الناس لانه كان «مدفوعا دائما بالرغبة الطبيعية في العمل دون اكتراث بأي شيء آخر ، لما فيه خير المجموع» (المطارحات) . لذا كان من المنطق أن يعطي التاريخ حكمه العادل : افلت اسماء حساد مكيافيللي وكأنها لم تكن ليبقى نجمه صاعدا في سماء ايطاليا الصافية واسمه حيا في كل محفل فكري وسياسي . فهو حتى اليوم يتحكم بشكل او بآخر في السياسات من اعماق قبره ، وتفرض آراؤه نفسها على كل مفكر سياسي .

بالرغم من امكاناته وفكره الثاقب فان مكيافيللي لم يحتل في وقت مبكر المكان المرموق اللائق به في جهاز الحكم والوسط السياسي الفلورنسي . والسبب في ذلك يعود بالاساس الى افتقاره للوسيلة ، أو للوسيط الذي كان بامكانه ايصاله الى المسرح . وعندما بلغ اعتاب الاخير كان يبلغ من العمر 29 عاما وقد سبقه الآخرون الى المراكز الحساسة فيه . مع ذلك من الطبيعي ان يثبت نيكولو وجوده ويفرض نفسه بسرعة . فان الرجل ، كما ذكر عن نفسه ، قد شاء له طالعه ان لايستطيع «الحديث عن فن صناعة الحرير ، ولا عن فن نسج الصوف(13) ، ولا عن الربح او الخسارة ، بل عن موضوع واحد هو قضايا الدولة ..»(14) . لذا فعندما عهد اليه بمنصب سكرتير مجلس العشرة في تموز 1498 ، اثر اعلان النظام الجمهوري في فلورنسه اثبت جدارة فائقة في كل ماقام به بحيث طغى على الآخرين مباشرة . انه لم يحرر قبل ذلك التاريخ اي تقرير رسمي ولم يخطب في أي مكان ، ولكن مع ذلك فان الصياغة الرصينة لاولى كتبه الرسمية تبين وكان له تجارب السنين المتراكمة في هذا الميدان(15) . ولم تكن مهمته قليلة الشأن ، فان مجلس العشرة كان يشرف على الشؤون العسكرية والعلاقات الخارجية للجمهورية التي عاشت احداثا حاسمة ، لا سيما بسبب تشابك علاقات فلورنسة مع حكومات المدن الايطالية وجراء الاطماع الاجنبية في كل البلاد التي تمخضت عنها سلسلة حروب مستمرة اصطدمت فيها مصالح الدولتين الاوروبيتين القويتين اسبانيا وفرنسا. وقد تعزز موقف مكيافيللي اكثر عندما اختير صديقه پيرو سوديريني (Soderini) رئيسا للمجلس فاضحى ضمن واضعي سياسة الجمهورية ومخططيها .

ظل مكيافيللي في وظيفته حوالي خمسة عشر عاما انجز خلالها اربعا وعشرين بعثة دبلوماسية هيأت له ظروف الاتصال المباشر بأهم الشخصيات الايطالية والاوروبية يومذاك منهم البابا وملك فرنسا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة . وقد اكتسب مكيافيللي خلال سفراته هذه خبرات واسعة بأن وقف عن كثب على خفايا العلاقات الدولية وأساليب الحكم الاوروبي . فانه زار البلاط الفرنسي وحده اربع مرات استغرقت اشهرا عدة عرف خلالها عادات الفرنسيين ودسائس البلاط وغيرها من مقومات حكمهم مما انعكس ، مع تجاربه الاخرى ، في مؤلفاته بشكل واضح . فخلال سفراته الدبلوماسية ادرك مكيافيللي ان في هذا العالم شيئا يهمه ، شيئا يستحق التأمل والتقصي عنه(16).

سقط النظام الجمهوري في فلورنسة عام 1512 وعادت اسرة ميديتشي الى الحكم بفضل القوات الاسبانية الغازية ، فالتجأ سوديريني الى الممتلكات العثمانية وهرب آخرون من رجال الحكم ، اما مكيافيللي الذي بذل كل ما في وسعه للحيلولة دون سقوط الجمهورية فقد ابعد عن وظيفته . وفي بداية العام 1513 اتهم بالاشتراك في مؤامرة استهدفت نظام ميديتشي الارهابي فاعتقل وتعرض للتعذيب ست مرات خلال وجوده في السجن ، وأخيرا تقرر نفيه الى مسقط راسه قرية سانتا كروس المجاورة لمدينة فلورنسة .

أصيب مكيافيللي بخيبة امل كبيرة اثر الاحداث التي اطاحت بالجمهورية وادت الى تعذيبه ونفيه بحيث قرر ان «لايفكر بالسياسة أو مناقشتها ابدا» . لكن لم يكن بامكان قراره هذا ان يدوم طويلا فاذا به يعود «بعد الف عام» الى «حبه القديم» حسب تعبيره هو(17)، لانه ـ كما جاء في احدى رسائله ـ لم يستطع الحديث الا «في موضوع واحد هو قضايا الدولة ، ولذا فاما ان اتكلم عن هذا الموضوع او اضطر الى الصمت المطبق تماما»(18). انه لم يسكت ولم يؤلف في السياسة فحسب بل ظل في منفاه يسدي النصائح المفيدة لاصدقائه الدبلوماسيين الذين كان عليهم الخوض في الاعيب السياسة الاوروبية(19) .

في رسالة بعث بها مكيافيللي الى صديقه الحميم فيتوري في العاشر من كانون الاول 1513 ، اي بعد ابعاده بفترة وجيزة ، يصف حياته بعد النفي بهذا الاسلوب المعبر : «مازلت اعيش في الريف منذ خروجي الى المنفى . استيقظ مبكرا عند الفجر وامضي الى الغابة الصغيرة لأرى ما قام به الحطابون من عمل في غابتي» . وبعد ان يتبادل الحديث مع الحطابين يمضي الى احد التلال ليقضي ساعات في مطالعة الكتب وحيدا . وبعد تناول غداء بسيط يذهب الى الحانة حيث يتحدث الى الطحان والقصاب والعمال . «وعندما يحل المساء اعود الى البيت ، وادخل المكتبة بعد ان انزع ملابسي الريفية التي غطتها الوحول ، ثم ارتدي ملابس البلاط والتشريفات كي ابدو في صورة انيقة ، وادخل المكتبة لأذهب الى قصور الرجال الاقدمين الذين يقابلونني بالترحاب واتغذى على ذلك الغذاء الوحيد الذي يناسبني والذي خلقت من اجله. وهناك لا اتردد في التحدث اليهم واستفسر عن كنه اعمالهم وهم يتلطفون عليّ بالاجابة بما جبلوا عليه من روح انسانية . وعلى مدى ساعات اربع لا احس بأدنى ملل فانسى كل المنغصات ولا اعود اخشى العوز او الموت بل اكون مع هؤلاء بكل جوارحي»(20) .

بهذه الروحية كرس مكيافيللي نفسه للبحث والتاليف فانجز خلال السنوات المتبقية من عمره مجموعة مؤلفات مهمة ظلت ، ولا تزال ، متداولة على مدى قرون طوال . ومن اهم مؤلفاته السياسية والتاريخية كتاب «الامير» (1513) و «المطارحات عن الكتب العشرة لتيتوس ليفي(21)» (1513–1516) و «فن الحرب» (1519–1520) وكتابه الضخم «تاريخ فلورنسا» الذي يقع في ثمانية مجلدات وقد قضى منذ العام 1520 سنوات عديدة في تاليفه .

كان مكيافيللي يحاول ، كما ذكر بنفسه ، ان يضمن مؤلفاته كل ما كان يعرف وما تعلم من تجارب طويلة ومن قراراته الخاصة بصدد القضايا السياسية(22). وغزارة معارفه وعمق تجاربه وبعد قراراته كان يكفي ليضفي على مؤلفاته طابع الاصالة والجد . وبالرغم من قوة أسلوبه الرائع الذي لعب دورا مهما في بلورة اللغة الادبية الايطالية الموحدة والذي لم ينج ، مع ذلك ، من سهام حساده السامة ، فان «نيكولو لم يبحث ليخلق عملافنيا» ، حسب تعبيره هو ، بل انه غاص في الاعماق بحثا عن منطق السياسات وقواها المحركة فتجنب التعقيد في التعبير الذي جاء سلسا ، مفهوما ومترابطا . فبالنسبة له كان الاهم هو «بلوغ الحكمة السياسية لا التعبير الجمالي ، الاقناع لا الثناء ، هز مشاعر الناس لا التخفيف عنهم بروعة اسلوبه»(23) . وفعلا بلغ مكيافيللي الحكمة السياسية واقنع وهز مشاعر الناس الا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انه ، بالاضافة الى ذلك ، خفف عنهم بخلقه الفني وروعة اسلوبه. ففي رأي البعض ان مكيافيللي لو اولى الادب جل اهتمامه لكان نجاحه اكثر بكثير مما كان يتوقعه بنفسه(24). فقد طرق باب الاخير بنجاح قلما فاقه فيه ايطالي عبقري آخر ، مع انه لم يوله من الاهتمام والوقت سوى القليل منهما (25) . فان مسرحياته كانت تعرض في امهات المدن الايطالية وتجتذب الناس من مختلف المستويات ، بما فيهم شخص البابا .

لم تكن ظروف مكيافيللي في منفاه طبيعية ، خاصة لما كان يعانيه من وضع نفسي سيء بسبب ابعاده عن الخدمة والحياة العملية التي كان يعتقد انه خلق لها اكثر من اي شيء آخر ، بما في ذلك التاليف في السياسة .

وقد اخطأ مكيافيللي في ذلك كثيرا بحيث غدا الراي الشائع « ان ابعاده كان خسارة له وكسبا لنا»(26) حقيقة مسلمة . على اي حال كان لمكيافيللي راي يختلف عن ذلك فظل يحاول العودة الى المسرح ، وفعلا ظهرت امامه بعض الامكانات لتحقيق رغبته في السنوات الاخيرة من حياته فعهد اليه ببعض المهام . ولكن الأهم من ذلك هو انه تمكن من جذب الشباب الفلورنسي اليهبعد ان سمح له بالاشتراك في الحلقات السياسية العامة التي كانت تعقد في مدينة فلورنسة .

توقف القلب الكبير عن الخفقان في 21 حزيران 1527 ليدفن في اليوم التالي في قريته سانتا كروس . كان نيكولو في احتضاره كما كان في حياته . فقبل ان يسلم الروح بلحظات فضل ان يكون في الجحيم مع المفكرين ليناقشهم في السياسة على ان يكون في الفردوس مع الجهلاء(27) .

ولكن لم يعلم مكيافيللي وما كان يتوقع ان يظل في هذه الحياة يناقش السياسة ويرسم خطوطها من خلال الآراء الواقعية الصريحة التي صاغها باخلاص .

آراء مكيافيللي السياسية

يمكن الوقوف على آراء مكيافيللي السياسية من خلال دراسة ثلاثة من اهم مؤلفاته الاربعين ـ «الامير» و «المطارحات» و «فن الحرب» مع مجموعة رسائله التي بعثها الى اقرب اصدقائه في ظروف متباينة.

يعتبر «الامير» من اصغر مؤلفات مكيافيللي حجما واكثرها شهرة(28) . ومع ان مؤلفاته الاخرى لاتقل خطورة عن «الامير» الا ان المرء عندما يقراه يشعر حقا ان السنين الخمس عشرة التي كرسها مكيافيللي «لادارة قضايا الحكم لم تذهب سدى» كما يقول ذلك بنفسه(29) . بدأ تداول هذا الكتاب بشكل مخطوط في حياته على نطاق واسع ، وقد طبع لاول مرة في العام 1532 ، اي بعد وفاة صاحبه بخمس سنوات . وسرعانماترجم الى جميع اللغات الاوروبية ومن ثم الاخرى واعيد طبعه عشرات المرات ، بل واكثر ، وحظي بدراسة المئات من المفكرين والساسة والمؤلفين، وهو اليوم يدخل ضمن مواد التدريس في العديد من المؤسسات الاكاديمية المعروفة ، منها جامعة اكسفورد والجامعة الامريكية ببيروت وغيرهما . وقد دفع كل ذلك بالمختصين الى اعتبار «الامير» «نتاجا خالدا عن حق» من بين نتاجات النهضة الايطالية المعطاة(30) .

اعتبر مكيافيللي في البداية ، الجمهورية نظاما امثل للحكم . لكن بعد تحليله للاوضاع القائمة في ايطاليا التي كانت فيعهده مقسمة على خمس دول هي مملكة نابولي في الجنوب ودوقية ميلان في الشمال الغربي وجمهورية البندقية الارستقراطية في الشمال الشرقي وجمهورية فلورنسة والدولة البابوية في الوسط والتي كانت علاقاتها تتسم باستفحال الحروب والخلافات فيما بينها مما جعل كل الوطن هدفا سهلا للغزو الاجنبي المستمر ، توصل مكيافيللي في «الامير» الى الاستنتاج بأن خير نظام يمكنه تحقيق وحدة ايطاليا والذود عنها هو ذلك النظام الذي يستند الى سلطة مركزية دكتاتورية مطلقة قوية لاتقف في سبيلها الاعتبارات الدينية والدنيوية والاخلاقية . فان مصالح الدولة العليا، وبوجه خاص وحدة البلاد ، تبرر في رايه لجوء الامير الى جميع السبل كاستخدام القوة التي تشكل ـ كما كان يؤكد ـ اساس الحق ،والقسوة والاغتيال وخيانة العهد والقسم والتوسل بالتضليل والرشوة والركون الى الخديعة والكذب والنفاق ، أي ان الغايات السامية تبرر الوسائل ايا كانت . وهو كان ينصح الامير بالا يخجل في اختيار اي اسلوب مهما تدنى لتحقيق اهدافه وطموحاته السياسية ، فالحاكم الناجح هو الذي يلجأ الى الاساليب الانسانية والحيوانية حسب الظروف والحاجة ويعرف كيف يجمع بين خدع الثعالب وفورات الاسود لأن المحك والاساس لتقييم السياسة هو النجاح . وبالاستناد الى ذلك بشكل مجرد وبفضل انتقاء الحكام من افكار مكيافيللي ما كان يناسبهم حسب طريقة «ولاتقربوا الصلاة» ظهر فيما بعد مصطلحا «المكيافيللية» و «المكيافيللي» وتطلق الاولى عادة على السياسة التي لاتعير القيم الاخلاقية اي اعتبار ويطلق الثاني على الشخص الذي يتبنى مثل تلك السياسة .

ولكن ذلك لايعدو كونه ذروة المكيافيلية بصورتها المشوهة . فان الرجل لم يطلق مثل آرائه الخطيرة تلك دون ضوابط اخلاقية رفيعة أو تفسيرات منطقية تبين الامور على حقيقتها وتضع السياسة فياطارها الواقعي زمانا ومكانا . فالخير ، كل الخير للامير في ان يتظاهر «بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الانساني النبيل والاخلاص والتدين» وان يكون «فعلا متصفا بها» ولكن عليه ان يعد نفسه «عندما تقتضي الضرورة» ليكون «متصفا بعكسها» ، لذا فان من واجب الامير «ان يجعل عقله مستعدا للتكيف مع الرياح ، ووفقا لما تمليه اختلافات الجدود والحظوظ وأن لايتنكر لما هو خير ، كما قلت ، اذا امكنه ذلك ، شريطة ان ينزل الاساءة والشر ، اذا ما اضطر الى ذلك وضويق» (الامير ـ الباب الثامن عشر) . والواقع ان التاريخ لم يعطنا مثلا واحدا لم ينزل فيه الامير ، وحتى غير الامير ، «الاساءة والشر ، اذا ما اضطر الى ذلك وضويق» ، فهذه حقيقةتكادتكون سمة ملازمة لطبائع الناس شئنا ام أبينا ، اعترفنا ام بررنا . فلا تكمن الخطورة اذن ، في هذا الجانب من آراء مكيافيللي الذي رأى مثل غيره ولكنه لم يسكت ، على العكس من غيره . انما تكمن المأساة في ان القيم والضوابط التي اراد مكيافيللي ان يتصف بها الامير في الظروف الاعتيادية ـ « الرحمة وحفظ الوعد والشعور الانساني النبيل والاخلاص والتدين» ـ اندر في بطون التاريخ من الماء في الصحراء . فلو عمل كل امير بآراء مكيافيللي لتقلصت الصفحات السود في سجل التاريخ الى حد كبير .

والآن لنمض مع مكيافيللي في كتابه «الامير» ولنر ما يضع لأميره الجديد من خطوط ودروس . فعلى الامير «ان يكون حريصا ، على ان لايفضح نفسه باقواله» وعليه ان يجعل الناس «يرون فيه ، ويسمعون منه الرحمة مجسدة ، والوفاء للعهود والنبل والانسانية والتدين» (الامير ـ الباب الثامن عشر) . وعليه ان يتجنب «كل مايؤدي الى تعرضه للاحتقار والكراهية» ، وهو يتعرض للكراهية «اذا اصبح سلابا نهابا، يغتصب ممتلكات رعاياه ونساءهم ، وهو ما عليه تجنبه» . وقد يعتبر الامير «دنيئا حقيرا اذا رأى الناس فيه تقلبه ، وتفاهته ، وتخنثه ، وجبنه ، واستخذاءه ، وهي أمور يجب ان يقي الامير نفسه منها ، على اعتبار انها الصخرة التي تمثل الخطر ، وان يدبر امره، بحيث تبدو من اعماله مخائل العظمة والحيوية ، والرصانة والجلد» . اما بالنسبة الى حكم رعاياه فعلى الامير «ان تكون احكامه مبرمة لاتقبل النقض،وأن يتمسك بقراراته ، فلا يسمح لانسان بخديعته اوالاحتيال

عليه» (الامير ــ الباب التاسع عشر) .

وقد استهدف مكيافيللي من هذه الشروط ان يكون الشعب راضيا من الامير ، مما راى فيه شرطا اساسيا من شروط الحكم الراسخ الناجح . فان رضا الشعب «من اهم المواضيع التي تتحتم على الامير العناية به» ، ذلك لان على الامير «ان لايخشى كثيرا من المؤامرات اذا كان الشعب راضيا عنه ، اما اذا كان مكروها ، ويحس بعداء الشعب له ، فان عليه ان يخشى من كل انسان ومن كل شيء» ، فالقلاع «مهما حصنت» لا تحمي الامير فيما لو غض الطرف عن «كراهية شعبه[31] او حبه» (الامير ــ الباب التاسع عشر والباب العشرون) . وافضل للامير ان يصل دست الحكم بمساندة الشعب من مساعدة النبلاء (الامير ــ الباب التاسع) . والامير الذي لايستطيع كسب شعبه الى جانبه «بواسطة المشاريع النافعة له» فانه «يضطر الى الوقوف دائما وسيفه في يده» (الامير ــ الباب الثامن) . ومن الضروري جدا ان يكون الامير مثقفا ، فعليه «ان يقرأ التاريخ وان يدرس اعمال الرجال البارزين ، فيرى اسلوبهم في الحروب ، ويتفحص اسباب انتصاراتهم وهزائمهم ، ليقلدهم في هذه الانتصارات ، ويتجنب الوقوع في الاخطاء التي ادت الى الهزائم» (الامير ــ الباب الرابع عشر) .

اراد مكيافيللي من الامير الجديد ان يقيم جهازا متكاملا للادارة، يعهد بشؤونه الى اناس قديرين لا شائبة فيهم ، فيضع الرجل المناسب في المكان المناسب . وعليه ان «يظهر نفسه دائما ميالا الى ذوي الكفاءة والجدارة وان يفضل المقتدرين ، ويكرم النابغين في كل فن» (الامير ــ الباب الواحد والعشرون) . وهذه المسألة خطيرة في بابها لان «الانطباع الاول الذي يتولد لدى الانسان عن الامير وعن تفكيره ، يكون في رؤية اولئك الذين يحيطون به . فعندما يكونون من الاكفاء والمخلصين ، يتأكد الانسان من حكمة الامير ، لانه استطاع تمييز هذه الكفاءة والاحتفاظ بهذا الاخلاص» . ويجب الا يكون هؤلاء من المتزلفين والمتملقين والمنافقين المداهنين «الذين تغص بهم بلاطات الملوك والامراء» (الامير ــ البابان الثاني والعشرون والثالث والعشرون) . ولكن على هؤلاء ان يعلموا جيدا ويدركوا بأن وزنهم انما يعتمد على الموقف الذي يتبناه الامير في ضوء اخلاصهم وتفانيهم له ولنظامه . وعلى الامير «لكي يحتفظ بولاء وزيره واخلاصه ، ان يفكر به ، وان يغدق عليه المال ومظاهر التكريم ، مبديا له العطف ، ومانحا اياه الشرف ، وعاهدا اليه بالمناصب ذات المسؤولية ، بحيث تكون هذه الاموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية ، تحول دون ان يطمع بثروات او القاب جديدة ، وبحيث تكون المناصب التي يشغلها مهمة الى الحد الذي يخشى منه على ضياعها» (الامير ــ الباب الثاني والعشرون) .

ومن المنطلق نفسه يجب على الامير ان «يختار لمجلسه حكماء الرجال ، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية بالحديث اليه ومجابهته بالحقائق ، على ان تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها، ولا تتعداها . ولكن عليه ان يسألهم عن كل شيء وان يستمع الى آرائهم في كل شيء،وان يفكر في الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة . وعليه ان يتصرف في هذه المجالس ، ومع كل من مستشاريه ، بشكل يجعله واثقا من انه كلما تكلم بصراحة واخلاص ، كان الامير راضيا عنه . وعليه بعد ذلك ان لايستمع الى اي انسان ، بل يدرس الموضوع بنفسه في ضوء آراء مستشاريه ، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها» . ولا بد للامير الحديث «ان يقبل النصيحة دائما ، ولكن عندما يريد هو، لا عندما يريد الاخرون ، بل عليه ان لايشجع مطلقا المحاولات لاسداء النصيحة اليه ، الا اذا طلبها . ولكن عليه ان يكثر من سؤالها وان يحسن الاصغاء الى الحقائق التي تسرد عليه عندما يسأل عنها» (الامير ــ الباب الثالث والعشرون) . ومع ذلك «عليه ان يكون حذرا في تصديق ما يقال له ، وفي العمل ايضا، دون ان يخشى ظله» .

وعلى الامير ان يضع لكل شيء ضوابط ثابتة مع مراعاة الحاجات والظروف دائما . فللسخاء والبخل حدودهما ، وللطيبة مداها الذي يجب ان ينتهي قطعا عند الاصطدام بمصالح الدولة . فمن الضروري «لكل امير يرغب في الحفاظ على نفسه ان يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير ، وان يستخدم هذه المعرفة او لايستخدمها ، وفقا لضرورات الحالات التي يواجهها »(الامير ــ الباب الخامس عشر) . ولكن عليه ان يحاول حصر هذا الابتعاد الاضطراري الى اقصى حد وينتهي مع «ضمان الاستقرار والامن» ، بل يستبدل في الحال «بتدابير نافعة للرعايا الى اقصى حد ممكن»(الامير ــ الباب الثامن) .

كرر مكيافيللي الافكار نفسها بعمق اكبر في كتابه الآخر «المطارحات» الذي قضى حوالي خمسة اعوام في تأليفه جامعا فيه آراءه في السياسة واصول الحكم والاخلاق والعلاقات الدولية وغيرها مستندا في تقييماته الى تجارب روما القديمة. واهم ما يستخلصه قارىء «المطارحات»[32] هو ان الفضيلة المثلى لكل مواطن تقاس بمدى تكريس ذاته لخدمة الصالح العام . ويحس المرء في «المطارحات» ، كما في «الامير» ، بجدية مكيافيللي في البحث عن النظام الامثل الذي كان يحلم باقامته في ايطاليا. فلا ريب في «انها حكومة سعيدة تلك الحكومة الشعبية التي تخرج رجلا حكيما يستطيع الناس الحياة بامن ودعة في ظل القوانين التي يضعها لها والتي لايضطرون الى تقويمها» (المطارحات ، الكتاب الاول ــ2) ومرة اخرى نرى الامير الانموذج في «المطارحات» هو ذلك الذي «يجعل من الشعب بمجموعه صديقا له» (المطارحات ، الكتاب الاول ــ 40). بل ان مكيافيللي يذهب هنا الى مدى ابعد مما جاء في «الامير» بصدد موقع الشعب من السلطة . «فان الرجل العاقل لايتجاهل الراي العام بالنسبة الى المسائل المعينة والجزئية ، كمسألة توزيع المناصب والافضليات والترقيات ، اذ ان الشعب هنا ، عندما يترك الى نفسه، لايخطىء ابدا ، واذا ما اخطأ احيانا ، تكون اخطاؤه نادرة اذا ماقورنت بالاخطاء التي ستقع حتما لو ان القلة هي التي قامت بمثل هذا التوزيع» (المطارحات ، الكتاب الاول ــ 47) .

وفي «المطارحات» يشدد مكيافيللي من جديد على ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب والاستفادة الى اقصى حد من الكفاءات والعبقريات الشابة . «فعندما يتميز شاب بالفضيلة التي رافقت عملا عظيما من اعماله ، يغدو موضع حديث الجميع ، فان من العار كل العار ان لاتنتفع الدولة من خدماته ، وان يضطر هذا الشاب الى الانتظار حتى يكبر سنه ،ويكون في غضون ذلك قد فقد ما يميزه من نشاط عقلي ومن سرعة في العمل ، كان في وسع بلاده ان تستغلهما في الوقت المناسب استغلالا نافعا» (المطارحات ، الكتاب الاول ــ 60).

من المواضيع المهمة الاخرى التي اولاها مكيافيللي جانبا كبيرا من اهتمامه وعالجها باسلوب جديد سواء في «الامير» او في «المطارحات» وافرد لها احد مؤلفاته «فن الحرب» [33] ــ مسألة الجيش الوطني الذي رأى فيه من اهم وسائل تحقيق الوحدة الايطالية . وقد وضع مكيافيللي في وقت مبكر اليد على نواقص الجيوش الاوروبية ، ولا سيما اعتمادها على القوات المرتزقة التي «لاتعرف النظام ، ولا تحفظ العهود والمواثيق ، تتظاهر بالشجاعة امام الاصدقاء وتتصف بالجبن امام الاعداء ، لا تخاف الله ، ولاترعى الذمم مع الناس . والامير الذي يعتمد على مثل هذه القوات ، قد يؤجل دماره المحتوم» . هنا كان جرح مكيافيللي عميقا ، فلم يحتج الى سرد الامثال «اذ ان ما لحق بايطاليا من دمار .. نجم عن شيءواحد هو اعتمادها لسنوات طوال على جيوش المرتزقة» (الامير ــ الباب الثاني عشر) . وعندما كان الناس يعرضون انفسهم في سوق الارتزاق ، وعندما كانت الحروب الاوروبية الكبرى تعتمد بالاساس على الجنود المرتزقة ، بما فيها حرب الثلاثين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عاما التي اندلعت بعد موت مكيافيللي بحوالي قرن من الزمان ، ارتفع صوت مخلص من فلورنسة ليؤكد ان «كل مواطن يزاول مهنة الحرب لهدف خارجي ، لايكون مواطنا صالحا ، اذ ان عليه ان يخدم بلاده لانها في حاجة اليه وان يحارب في سبيل المجد» .

يجب تقييم هذه الكلمات المخلصة في اطار زمانها ومكانها ، وهي لم تكن وليدة فكر عبقري فحسب ، بل جاءت كذلك حصيلة تجارب عملية ومراقبة دقيقة للاحداث سواء في ايطاليا او اوروبا او في المناطق الاخرى . فانه درس الجيوش الاوروبية والجيش العثماني ووضع اليد على مكامن الضعف في الاولى وعوامل القوة في الثاني . واستطاع مكيافيللي اقناع مجلس العشرة ايام الجمهورية بان اية دولة لايمكن ان تكون امينة على نفسها وحدودها الا اذا كانت لها قواتها الخاصة بها . وعلى هذا الاساس وافق المجلس على تجنيد جميع المواطنين القادرين على حمل السلاح في فلورنسة ، مما كان يشكل خطوة رائدة على الصعيد الايطالي بشكل خاص .

كان اهتمام مكيافيللي النظري والعملي الواسع بقضايا الجيش والحرب نابعا من حلمه الرفيع في أن يرى الطليان «يحاربون في صفوف جيوش المدن بدافع الاهداف الوطنية ويرفعون كرامتهم عاليا امام أوروبا»(34) ، ويعيدون امجاد روما القديمة بجدارة .

استنبط مكيافيللي في معالجته لهذه القضايا ، ولغيرها ـ نعود اليها فيما بعد ـ ، الكثير من دروس التاريخ واستخلص الكثير من عبرها وحكمها ، ودمج كل ذلك بما راقب في الحياة وما مارس فيها من مهام بعقل عبقري وفكر ثاقب . فهو لايعطي رأيا دون ان يسنده بشاهد تاريخي أو اكثر ، وهو قلما يعمم التجارب والاستنتاجات او يعطي الارشاد دون استشهاد بالاحداث التي تؤيد صحته ، ومن هنا جاءت مؤلفاته طافحة بالامثلة التاريخية المختلفة الى درجة يصعب أن نجد لها مثيلا بين مؤلفات المفكرين الاخرين . وقد أثار في معالجاته أسئلة مهمة اهملت منذ عهد ارسطو يمكن تلخيصها في البحث عن العوامل التي تهيء للدول ظروف الاستمرار وللحكومات قوة البقاء والنماء في ظل نظام مستقر آمن . وهو بذلك قد خرج على الفكر السياسي التقليدي الاوروبي ، فتكلم عن المجتمع والدولة باسلوب يختلف الى حد كبير وبشكل جذري عن كبار كتاب العصر الوسيط ، بل وحتى عن كبار كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر من قبيل هوبس وهوكر ولوك وغيرهم الذين لم يتجردوا كليا من التفسير اللاهوتي لمظاهر الدولة والسياسة(35).

كان مكيافيللي يستهدف من كل ما كتب وقال بلوغ انبل هدف هو انقاذ الوطن من مشاكله العويصة وتحقيق وحدته التي لم يدرك احد كنهها ونتائجها الكبيرة مثله يومذاك . انه كتب لايطاليا ممزقة ، لايطاليا تحولت الى حقل تجربة للغزاة الاجانب ، لايطاليا بدأت تعيش التدهور والانحلال بعد ان كانت انموذج الازدهار والتقدم في كل القارة الاوروبية(36) . وقد ذهب نيكولو الى هدف ابعد حتى من ذلك . فانه لم يفكر ويكتب من اجل انقاذ ايطاليا من الفوضى وآثارها وفي سبيل وضع حد لتمزقها وتحقيق وحدتها فحسب ، بل انه فكر بايطاليا كقوة عظيمة مؤثرة على صعيد كل القارة . وان مثل هذا التوجه الذي كان يعني القليل بالنسبة لاوروبا العصر الوسيط قد غدا يسيطر بالتدريج على عقول الناس . ويكفي مكيافيللي فخرا انه كان المعبر العظيم الاول عن مثل تلك الطموحات المشروعة .

لاشك في ان اي هدف سياسي آخر لايبلغ في سموه مقام ماوضعه مكيافيللي نصب عينيه من هدف في ظروف ايطاليا التاريخية آنذاك ، ولكن مع ذلك فان سمعته قد شوهت اكثر من اي شخص آخر عبر التاريخ بحيث غدا اسمه يحتل ابرز مكان بين الشياطين(37) والمجرمين العتاة . وهذا موضوع يستحق وقفة تأمل خاصة .

لماذا وكيف شوهت سمعة مكيافيللي

نجم تشويه سمعة مكيافيللي عن عوامل ومنطلقات متباينة نحاول حصرها ملخصة في النقاط الرئيسة التالية :

1 ـ الحسد :

كان لنيكولو ، كمفكر عظيم ، العديد من الحساد الذين حاولوا النيل منه بأحط الاساليب واشدها مكرا تطرقنا الى جوانب منها في مستهل بحثنا . كان هؤلاء يختلقون الثغرات للنفوذ من خلالها الى هدفهم غير النبيل . وهو ، مع ذلك ، لم يساوم ضعاف النفوس ، بل ظل ينظر اليهم من فوق برج افكاره وثقته الكبيرة بنفسه فيراهم اقزاما تحت قدميه لايستحقون سوى الاشفاق لما في نفوسهم من مرض متأصل . وظل ، مع كل سوءات هؤلاء ، يحفظ في قلبه الكبير ما كان يعرفه من ادق اسرارهم ونقاط ضعفهم ، بل كان يحاول ان يسدي لهم الخدمات كلما وجد الى ذلك سبيلا .

والغريب ان نيكولو لم ينج حتى من بعض الطعنات الخفيفة من اقرب أصدقائه الحميمين . فان گويجارديني الذي كان ـ حسب وصف احد المؤرخين اياه ـ «مكيافيلليا في حياته اكثر من مكيافيللي»(37) ينتقد ما سماه بقسوة مكيافيللي في بعض آرائه مع ان هناك تطابقا كبيرا بين افكار مؤرخي عصر النهضة مكيافيللي وگويجارديني ، وفي كل اختلاف بينهما يميل الميزان الى جانب الاول بشكل ملموس . ففي رأي گويجارديني ان مكيافيللي اخطأ عندما اعتقد بأن جميع مآسي ايطاليا السياسية وليدة انقسامها لان ذلك الانقسام ، كما يرى هو ، ادى الى ان تظهر في ايطاليا «كل هذه المدن المزدهرة التي ما كان في الامكان ان يوجد مثلها في دولة موحدة» ، لذا فان وجود «نظام ملكي موحد كان يتحول الى سبب لبؤس ايطاليا اكثر من رخائها»(38) .

اما صديقه الآخر فرانسيسكو ڤيتوري فانه كان في وسعه ان يسدي لنيكولو خدمات اكثر مما فعل ، وذلك لما كان يتمتع به من موقع دبلوماسي مرموق في روما حيث النشاط السياسي والديني الواسع كمركز للبابوية والكنيسة الكاثوليكية .

2 ـ الكنيسة :

كان لموقف الكنيسة التأثير الاكبر في تشويه سمعة مكيافيللي . ولكي نفهم ابعاد هذا الموقف بشكل اوضح يجدر بنا ان نتطرق اولا الى موقف مكيافيللي من الكنيسة وكل النظام الاقطاعي السائد بشكل عام . ومع انه ركز على الكنيسة اكثر ، الا انه تناول في الوقت نفسه جوانب معينة من المجتمع الاقطاعي الذي هبط في عهده الى احط درك له فتحول الى عائق رئيس امام التطور الطبيعي للمجتمعات الاوروبية . وقد حلل مكيافيللي هذا الواقع باسلوب عبقري متوافق كليا مع طبيعة المرحلة التاريخية التي كانت تتطلب من الناحية السياسية اقامة انظمة حكم مطلق من شأنها وضع نهاية للتسيب الاقطاعي السائد . وهنا نكتفي بايراد مثل معبر واحد من «المطارحات» . فقد ذكر في القسم الخامس والخمسين من الكتاب الاول ما نصه :

« انني اسمي نبيلا كل الذين يعيشون في البطالة ، ومما تعطيهم ارضهم دون أن يأتوا الزراعة او اي عمل آخر . ومثل هؤلاء الناس وباء في كل جمهورية وفي كل مدينة ، ولعل الاسوأ منهم هم اولئك الذين يملكون بالاضافة الى اقطاعياتهم قلاعا تحت تصرفهم ، واتباعا يخضعون لهم . وهناك الكثيرون من افراد هاتين الفئتين من الناس في مملكة

نابولي ، وفي الممتلكات البابوية وفي رومانا ولومبارديا — ولا ريب في ان هذا هو السبب الذي حال دون ظهور اية جمهورية او حياة سياسية في هذه المناطق ، فان الذين يولدون في مثل هذه الاوضاع يكونون شديدي العداء لاي شكل من اشكال الحكم المدني الحر . ولايمكن لاية محاولة لاقامة جمهورية ان تكلل بالنجاح في مقاطعات منظمة على هذا النحو . واذا ما رغب انسان في اعادة تنظيمها ، فان السبيل الوحيد امامه هو ان يقيم فيها نظاماملكيا . والسبب في ذلك هو انه عندما يكون الجوهرعلىهذا النحو من الفساد فان القوانين لاتكفي للحفاظ عليه واستبقائه ، ومن الضروري ان تكون هنالك بالاضافة الى القوانين قوة عليا ، كتلك التي تكون للملك عادة ، تملك من السلطان المطلق والطاغي مايمكنها من وقف اي تطرف او مغالاة ينبعان من الطموح ، ومن الاجراءات الفاسدة لذوي الحول والطول» .

وقف مكيافيللي بشدة ضد تعاليم الكنيسة الكاثوليكية التي اعتبرها عبئا يحول دون الابداع النشط للانسان . ولم يكن ذلك سوى تعبير امين عن روح العصر ومهماته التقى في خطوطه الاساسية مع آراء ابرز مفكري اوروبا يومذاك ، بما فيهم اشد الناس حرصا على المسيحية ووحدة الكنيسة من قبيل ارازمس الروتردامي وتوماس مور، بل مع آراء زعماء حركة الاصلاح الديني التي انفجرت بقوة في المانيا المجاورة قبل موت مكيافيللي بحوالي عقد واحد من الزمان فقط .ولكن جاء تعبير مكيافيللي في هذا الصدد اقوى من غيره وأمر . فهل من قول ابلغ ، وهل من خيبة اعمق من هذا الذي قاله نيكولو بتهكم لايخلو من الم عميق :

« ان اول ما ندين به نحن الايطاليين للكنيسة ورجالها ، هو اننا صرنا ملحدين ومنحرفين» (المطارحات ، الكتاب الاول — 12) ،وهو نفس ما كان يؤكد عليه زعيم حركة الاصلاح الديني مارتن لوثر .

ان مكيافيللي الذي وضع وحدة ايطاليا فوق اي اعتبار ما كان يستطيع ان لايعطي رايه صريحا في موقف الكنيسة السلبي بهذا الشان. فلنسمع الى ما يقوله حول هذا الموضوع الحساس بانتباه :

« اننا ندين للكنيسة ورجالها بشيء اعظم ، ولعله هو السبب الثاني فيما لحق بنا من خراب . فالكنيسة هي التي جزأت ايطاليا وما زالت تحافظ على تجزئتها . ومن الحق ان يقال ، ان اي بلاد لاتشعر بنعمة الوحدة وبالسعادة ، الا اذا كانت كلها تحت سيطرة حكم جمهوري واحد او امير ، كما هي الحالة في فرنسا واسبانيا . ولا ريب في ان السبب في عدم وجود مثل هذا الوضع ، اي الجمهورية الواحدة او الامارة الواحدة في ايطاليا كلها ، يعود حتما واطلاقا للكنيسة . اذ على الرغم من وجود مقر للكنيسة في ايطاليا ، ومن وجود سلطانها الدنيوي فيها ، فان سلطانها هذا او فضيلتها لم يكونا في يوم ما من القوة بحيث يمكنانها من اخضاع الطغاة الايطاليين لحكمها ، ومن اعلان نفسها اميرة عليهم جميعا ، كما انها لم تكن من الناحية الاخرى في يوم من الايام على ذلك النحو من الضعف الذي لايمكنها عندما تخشى ضياع سيطرتها على الامور الدنيوية ، من دعوة احدى الدول الاجنبية للدفاع عنها ضد تلك الدولة الايطالية التي غدت قوية اكثر مما تريد هي لها .. وهكذا فان الكنيسة كانت السبب في الحيلولة دون وجود ايطاليا تحت حكمراسواحد ،وجعلها موزعة بين عدد من الامراء والسادة الذين جاؤا لها بالفرقة والضعف حتى انها غدت فريسة لا للاقوياء من البرابرة(39) فحسب بل لكل من يهاجمها .وعلينا نحن الايطاليين ان نشكر الكنيسة ، دون غيرها ، على هذا الوضع السيء» (المطارحات ، الكتاب الاول — 12) .

اذن ان السبب الاساس لمعاداة مكيافيللي للكنيسة الكاثوليكية يكمن في تحول هذه الاخيرة الى حجر عثرة امام تحقيق حلمه الاكبر في ان يرى الوطن موحدا ، معززا ، مكرما . فان البابوات ، حسب تحليله الصحيح ، كانوا اضعف من ان يحققوا الوحدة الايطالية من جانب، وكانوا لايرغبون في ان يقوم احد غيرهم بذلك من جانب آخر . ولكي نفهم مدى عمق هذا التحليل المكيافيللي علينا ان نتذكر موقف الكنيسة ازاء قضية الوحدة الايطالية على مدى اربعة قرون اتبعت القنبلة التي فجرها مكيافيللي بكل جراة وصراحة دون ان يلجأ الى الخيال والعالم الثاني كما فعل دانتي او يعرض افكاره على لسان الاقدمين كما فعل بترارك . فان البابوية ظلت تعارض الوحدة الايطالية بكل ما توفر لديها من اسباب . وعندما تحقق حلم الطليان الاكبر في العام 1870 رفض البابا الاعتراف بحكومة ايطاليا الموحدة وعارض بشدة انضمام روما اليها واعتبر نفسه «سجين فاتيكان» وظل هكذا لغاية العام 1929 عندما تم الاتفاق بين موسوليني والبابا بموجب معاهدة خاصة اقر الاول فيها استقلال الفاتيكان واعترف الثاني بايطاليا موحدة .

ومما يجدر بالذكر هنا ان مكيافيللي وقف بفكره الثاقب عن كثب على مساوىء الكنيسة وما كان يتخبط فيه رجالها . فقد اوفد ايام الجمهورية ببعثتين الى روما اطلع خلالهما على اسلوب حياة الاكليروس والرشوة السائدة بينهم فاقتنع اكثر بفساد الجهاز الكنسي وابتعاده الكلي عن الروح الاصيلة للديانة المسيحية .

جاء رد الفعل البابوي على موقف مكيافيللي قويا وقاسيا في آن واحد . ففي العام 1557 قام الجزويت ، المتعصبون للكنيسة الكاثوليكية ، بحرق جميع مؤلفات مكيافيللي . وفي الحال قررت محاكم التفتيش حرمان تداول تلك المؤلفات التي ادخل جميعها في قائمةالكتب الممنوعة واقر مجلس ترانت الكنسي ذلك . وفي العام 1559 اصدرت الكنيسة قرارا يقضي بحرق نموذج "effigie" مكيافيللي علنا ، بينما طبعت روما مؤلفاته وعرضت مسرحياته الكوميدية بحضور البابا نفسه قبل ذلك بحوالي ربع قرن فقط(40) . كما ان كتابه الشامل «تاريخ فلورنسة» الذي يقع في ثمانية مجلدات وكرس في الواقع لمجمل تاريخ ايطاليا السياسي ويعتبر بحكم تعمقه في تقييم الاحداث التاريخية ومن حيث اسلوبه الدرامي وقوة لغته «واحدا من اعظم مكاسب الدراسات التاريخية الحديثة»(41) ، والذي لم يفقد اهميته حتى يومنا هذا، كان مكيافيللي قد الفه بناء على طلب شخصي من البابا كليمنت السابع وقدمه اليه بنفسه .

بعد ذلك بدات حملة اعلامية منظمة ضد مكيافيللي تصدرها المؤلفون والمؤرخون الجزويت المتعصبون . وقد وضع هؤلاء جانبا المئات من نقاط القوة في مؤلفات وآراء ومواقف مكيافيللي وبداوا يتمسكون بالبعض من افكاره واعماله بشكل مجرد فيرسمون صورة مزيفة لاتنطبق على واقع الرجل مهما حاولوا وتفننوا . فانهم اخذوا عليه ، مثلا ، اهداءه لكتابه «الامير» الى جوليانو (فيما بعد لورينزو) ميديتشي ، واعتبروا ذلك بمثابة محاولة لتضليل اسرة ميديتشي اثر عودتها للحكم(42) . ويوجد مؤلفون معاصرون يقيمون موضوع الاهداء من نفس الزاوية الجزويتية(43) . في الواقع لاينكر ان مكيافيللي كان يرغب في العودة الى المسرح ويبحث عن عمل من شانه ان يخفف من ضائقته المالية ، وليس في ذلك ادنى مايؤخذ عليه . ومن الاجحاف اصلا تجريد نيكولو من دوافعه كانسان في مجتمع كان لذئاب البشر وثعالبه دورهم الكبير فيه ، وكان للموقع والجاه سحرهما في نظر الجميع من خواص وعوام . ولكن المسالة تتعدى هذه الناحية الانسانية المجردة . فان لورينزو ميديتشي كان يحمل فعلا من الصفات والامكانات ما كان بامكانها ان تجعل منه شخصية بارزة ، فهو كان من النوع الذي يستطيع اتخاذ القرارات وحسمها وتبني ماورد في «الامير» من سياسات كان من شانها انقاذ ايطاليا وتحقيق وحدتها(44) ، وكان يكفي ذلك بالنسبة لمكيافيللي لكي يرى فيه اميرا انموذجا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع ذلك تبقى نقطتان مهمتهان من شانهما القاء ضوء اسطع على هذا الموضوع . فان نفس مكيافيللي الذي اتهم بالتزلف بسبب اهدائه كتابه «الامير» رفض رفضا قاطعا ان يخدم «البرابرة الاجانب» في وقت كان الآخرون يتمسحون باعتابهم . ولندع الرجل يحدثنا شخصيا عن هذا الامر الذي اثيرت حوله عاصفة مصطنعة هوجاء . انه وبكل بساطة يقول :

«انني لا ارفض عملا ولا ارد ابدا ايا من اوامر الجمهورية حيثما استطيع ان اكون مفيدا ، وهذا هو ما افعله ان لم يكن بعملي فبخطبي ، وان لم يكن بخطبي فبمشاريعي ...»(45) . اذن كان نيكولو مستعدا لخدمة بلاده باخلاص . ولكن ظل مرفوع الراس حتى في احرج اللحظات ، ولم يرغب ان يعمل الا «حيثما يكون مفيدا» . فبعد عشر سنوات من النفي رفض هذا «المتزلف» قبول منصب سكرتارية مريح لأحد الكرادلة في روما ، بسبب عدم تحمله لمواقف البابوية .

هنا يفرض سؤال منطقي نفسه على المؤرخ بالحاح : الم يكن من الافضل بالنسبة لمكيافيللي المتمكن ، لو كان يرغب التودد فعلا ، ان يحاول التقرب من الذين كان مصير كل ايطاليا ، لا ايطالي واحد مثله ، بين ايديهم ، واقصد بهم الغزاة الاجانب واصحاب الكلمة في روما الذين صب هو جام غضبه عليهم دون مواربة او مساومة . ومن المهم ان نلاحظ ان اتخاذ مثل هذا الموقف من جانب المفكرين الطليان لم يكن نادرا في ظروفهم الصعبة للغاية . فان معاصر مكيافيللي ،مفخرة ايطاليا والانسانية ليوناردو دافنيشي (1452ـ1519) اضطر الى ان يلجأ في اواخر حياته الى الملك الفرنسي فرانسوا الاول وان يقضي السنوات الخمس الاخيرة من عمره في صحبته وفي قصر مجاور لقصره دون أن يتحول ذلك الى لطخة ولو صغيرة بالنسبة لحياة ذلك العبقري وتاريخه . كما ان المفكر الاشتراكي المثالي الايطالي كامبانيللا (1568ـ1639) الذي تحمل تعذيب محاكم التفتيش والسجن علىمدى 33 عاما دون ان يساوم ، لجأ اخيرا الى ريشيليو الفرنسي وتمتع برعايته . ودون شك كان في وسع مكيافيللي ، لو اراد ،انيفعل مثلما فعلوا وان ينال اكثر ممانالوا ، الا انه لم يفعل . فقد رفض هذا «المتزلف» بكل اباء العمل في البلاط الفرنسي ، ولنستمع مرة اخرى الى ما يقوله بنفسه وباسلوبه الساخر حول هذا الموضوع :

«افضل الموت جوعا في فلورنسا على تخمة المعدة في فونتينبلو(46)»(47) .

انتقد المؤلفون الاوائل،ومنهم الجزويت بشكل خاص ، مكيافيللي لاختياره سيزار بورجيا مثلا يحتذى به وذلك في كتابه «الامير» . وهنا ايضا لم يأت اختيار مكيافيللي اعتباطا . فان سيزار بورجيا ابن للبابا الكسندر السادس المنتمي الى اسرة بورجيا المعروفة(48) وقد زاره مكيافيللي ثلاث مرات بمهمات ديبلوماسية ، فعرفه عن كثب وانتقد في تقاريره تصرفاته بشدة واعتبره عدوا لدودا لفلورنسة(49). الا انه من خلال مراقبته الدقيقة لسياسته على مدى اشهر طوال اقتنع بان بوسع اساليب هذا الرجل انقاذ ايطاليا من محنها ، فاثر فيه اكثر من اي سياسي آخر التقى به او قرا عنه(50) . وكان المهم بالنسبة لمكيافيللي ان سيزار بورجيا حاول بشتى الاساليب وباصرار اقامة حكومة مركزية موحدة قوية تحكم مناطق واسعة في وسط ايطاليا ، كخطوة على طريق توحيد كل البلاد . وقد اعجب مكيافيللي كثيرابموقف سيزار من جيش المرتزقة ومحاولته الاعتماد على تجنيد ابناء ايطاليا انفسهم وتنازله عن لقب الكاردينال الديني الرفيع من اجل تحقيق اهدافه السياسية . ومن الجدير بالذكر ان ليوناردو دافنيشي كان من بين الذين تعاونوا باخلاص مع سيزار بورجيا الذي تردد مكيافيللي في البداية كثيرا في الاتصال به . وبغض النظر عن مدى نجاح مكيافيللي في انتخابه للبطل فان حقيقة واحدة يجب ان تسجل في هذا المجال هي ان اسم سيزار دخل «الامير» بعد ان انقضى زهاء ستة اعوام على موته وزوال دور اسرته عن المسرح السياسي الايطالي مما يضفي على اختياره طابعا موضوعيا واضحا .

والغريب جدا ان يتمسك ناقدو مكيافيللي بمثالب سيزار بورجيا ويتجاهلوا كليا حلمه (حلم مكيافيللي) الرفيع في ان يظهر عبقري ايطالي ينتشل بلاده من التمزق والاحتلال فيقيم «نظاما جديدا يضفي عليه الفخار وعلى جماهير الشعب الخير والسعادة» . فان ايطاليا التي «غدت بلا حياة» تتطلع ، كما يرى نيكولو باخلاص ، الى «ذلك الانسان الذي يمكن له ان يداوي جراحها ويضع نهاية لدمار لومبارديا ونهبها وللجشع والاغتصاب البارزين في مملكة نابولي وتوسكانيا ، وأن يشفي بثورها المتقيحة منذ امد طويل . وهاهي ايطاليا تبتهل الى الله في كل يوم ان يبعث اليها من ينقذها من هذه الفظاظة البربرية والحمقالاعمى. انها على استعداد للحاق بكل راية وتواقة لذلك ، شريطة ان يكون هناك من يحملها ويرفعها» . واذا قدر لايطاليا ان تعثر على مثل هذا «الامير المحرر المنقذ» فانه ليصعب وصف ما سيلقاه «من حب في جميع المقاطعات التي عانت الويلات تحت نير الغزوات الاجنبية ، ولا ماسيجده من تعطش للثأر ، وايمان ثابت ، وولاء اكيد ، ودموع الشكر والعرفان. ان الابواب ستفتح جميعها على مصاريعها امامه ، وان الشعب باسره سيقابله بالطاعة والولاء ، ولن يجد من يحسده ، ولن يتاخر ايطالي واحد عن الانضواء تحت لوائه . فهذه السيطرة البربرية تزكم انف كل انسان».(الامير ، الباب السادس والعشرون) .

لم يكتف نقاد مكيافيللي بكل ما سبق ، بل انهم حاولوا كذلك تشويه موقفه من الدين ، وتمكنوا من خلال ذلك من الضرب بشدة على وتر عاطفي حساس لدى بسطاء الناس بشكل خاص وذلك بتصويرهم اياه مارقا ملحدا . بينما لم تتعد «جريرة» نيكولو في هذا المجال حقيقة انه اراد ان تكون القضايا الروحية ذات مضمون سياسي تكرس «لبناء حياة الامة» ولخدمة الدولة(51) . ثم انه كان يرى ان اصلاح الدولة لا ينشأ عن تغيير في النفوس ، وانما عن تغيير في المؤسسات . لذا نراه يعالج لا الدين وحده ، بل كل العلاقات التي تنشأ بين الناس كالحب والحقد والفن وكل مظاهر الحياة نفسها ، من حيث الدور الذي تلعبه في المجتمع .

صحيح ان نيكولو لم يكن متدينا ، الا انه لم يكن ملحدا كذلك، بل كان ــ كما تؤكد بعض المصادر ــ يحيا «حسب التقاليد الدينية الامتثالية»(52) . وقد كان يكن احتراما عميقا لمؤسسي الاديان الذين يستحقون ، في نظره ، الاعجاب اكثر من مؤسسي الدول(53).

شوه الجزويتيون ، وغيرهم ، موقف مكيافيللي من الفضيلة والقسوة باسلوب بعيد عن كل القيم الموضوعية . فانهم تجاهلوا ، كما ذكرنا ، الضوابط الكثيرة التي شدد عليها مكيافيللي في جميع مؤلفاته تقريبا ، وغضوا الطرف عن تأكيده الصريح في «المطارحات» ان انتصار الرومان وازدهارهم انما نجم الى حد كبير عن تمسكهم بالفضائل(54). ثم ان هؤلاء في تقييمهم لهذا الجانب من افكار مكيافيللي يتناسون عن قصد ملموس انه لم يدرس اعمالالناسالاعتياديين ، بل مهماتالحكام ممن تقع على عاتقهم مسؤوليات كبيرة ومعقدة تتطلب اول ماتتطلب فهم الاشياء على حقيقتها ووضع العواطف جانبا في سبيل انجازها الامثل . وقد فسر نيكولو هذا الواقع بشكل معبر وواضح:اما الذين لايستطيعون عند الضرورة وفي سبيل المصلحة العامة الخروج على القيم فان «عليهم ان يزاولوا اي شيء سوى السياسة» التي اعتبرها «شكلا من اشكال النشاط الانساني الذي لايخضع لاية شروط او دوافع روحية او ذات طابع ادبي» ، وهي بذلك تختلف عن جميع النشاطات الانسانية الاخرى(55). وعلى هذا الاساس يكون مكيافيللي اول من وضع الصياغة الحديثة لمفهوم الدولة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والى جانب الضوابط التي تطرقنا اليها مرارا فان مكيافيللي تمسك كليا بأرفع الفضائل في العلائق الطبيعية بين الناس . فمما ورد على لسانه في «الامير» انه «لايمكن لنا ان نطلق صفة الفضيلة على من يقتل مواطنيه ، ويخون اصدقاءه ، ويتنكر لعهوده ، ويتخلى عن الرحمة والدين . وقد يستطيع المرء بواسطة مثل هذه الوسائل ان يصل الى السلطان ، لكنه لن يبلغ المجد عن طريقها » (الامير ، الباب الثامن). وان «الصداقة التي تقوم على اساس الشراء ، لا على اساس نبل الروح وعظمتها ، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون امينة موثوقة ، وهي عرضة لان تفقدها في اول مناسبة» (الامير ، الباب السابع عشر) .

اما الامير فان عليه «ان يكون من الفطنة بحيث يلجأ الى السبل الشريرة ، عندما تُرغمه الضرورة على ذلك» ولكن شريطة الا « ينحرف عن طريق الخير ما دام في استطاعته المضي فيه ». وفي كل الاحوال يبقى منطلق مكيافيللي في تقييماته هذه سياسيا صرفا . فقد لايكون «ما يبدو فضيلة» من الفضائل دائما لانها «قد تجلب الدمار» ، وان ما يبدو رذيلة في المنظور الاعتيادي قد لايكون كذلك في المنظور السياسي خاصة اذا ادى الى «ضمان الامن والاستقرار والنجاح» . «وعلى الامير الذي يجد نفسه مرغما على تعلم طريقة عمل الحيوان ، ان يقلد الثعلب والاسد معا ، اذ ان الاسد لايستطيع حماية نفسه من الشراك ، والثعلب لايتمكن من الدفاع عن نفسه امام الذئاب . ولذا يتعين عليه ان يكون ثعلبا ليميز الفخاخ واسدا ليرهب الذئاب» (الامير ، الباب الثامن عشر).

من كل ما سبق يبدو راي مكيافيللي جليا ، واضحا : في وسع المرء ان يبقى بعيدا عن عالم السياسة فيتصرف ، بل يجب ان يتصرف آنذاك حسب المقاييس الاخلاقية الرفيعة دون ان يحيد عنها . اما اذا دخل حومة السياسة فما عليه الا ان يتصرف على ضوء قوانينها .ولكن حتى هنا لم يطالب مكيافيللي اميره الحديث بان يأتي بشيء لم يكن قد حدث مثيله مرارا . انه لم «يفسد حكام أوروبا» كما يدعون ، بل «فسر اعمالهم على الطبيعة بكل بساطة»(56) ، او بتعبير ادق انه لم ينظر الى الانسان ، حاكما أو محكوما ، كما يجب ان يكون بل نظر اليه كما هو عليه . ففي «الامير» ، الذي يدان اكثر من مؤلفاته الاخرى نفس الصورة القاتمة للواقع الاجتماعي الذي اشار اليه المئات من الفلاسفة والمفكرين الاخرين قبل مكيافيللي وبعده . ثم ان العصر الذي عاش فيه نيكولو كان عصر المناورات والارهاب الذي امتد الى كل ركن من اركان اوروبا الدينيةوالدنيوية والى شرقنا كذلك . فقبل أن يظهر مكيافيللي بقرون عدة اتبع الملك الالماني اوتو الاول (912–973) جميع تعاليم مكيافيللي في تعامله مع النبلاء والعشائر والدين داخل مملكته وفي المناطق التي كان يفتحها . واذا كان بطل مكيافيللي سيزار بورجيا قد زوج شقيقته ثلاث مرات لاهداف سياسية صرفة ، فان اوتو تزوج قبل ذلك باكثر من خمسمائة سنة من ارملة الملك الايطالي لمجرد نيل لقب ملكايطاليا . وانه نظم ـ بحجة ارجاع البابا الى كرسيه بعد طرده من قبل سكان روما ـ حملة على هذه المدينة واعاد البابا المطرود ليتحول منذ تلك اللحظة الى بيدق في يده يحركه لاغراضه السياسية كيفما يشاء . فقام في العام 962 بمنح اوتو تاج الامبراطورية مماشكل بداية لظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تختلف سياسة الملك الالماني الآخر وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فردريك بارباروسا (1125–1190) عن سياسة سلفه الا في بعض التفاصيل . وقد حول الملك الفرنسي شارل الكبير (شارلمان 742–814) المسيحية الى وسيلة لترسيخ مملكته الواسعة بالاسلوب الذي اعتبره مكيافيللي انموذجا رائعا بعد مرور ما لايقل عن سبعمائة عام .

اما في عصر مكيافيللي حيث «تحولت القوة والدهاء الى مفاتيح النجاح» فاطلق عليه اسم «عصر الغش والمغامرات»(57) فان اقطاعيي المانيا لم يطلعوا على «الامير» عندما اغرقوا باسم الدين الحركة الفلاحية الكبرى (1524–1525) في بحر من الدم فقتلوا ما لايقل عن مائة الف نفس كانت جريرتها الكبرى انها تجرأت فطالبت بالتخفيف عن وضعها البائس . والعديد من البابوات في عهده او قبله وبعده لم يعرفوا غير المناورات والقسوة اسلوبا في التعامل . وفي الامكان ايراد عشرات الامثلة المكيافيلية الاخرى من التاريخ الاوروبي السابق لمكيافيللي .وان مؤسسة الجزويت(58) المتعصبة للكثلكة والتي تتحمل الجانب الاكبر من وزر تشويه سمعة مكيافيللي متهمة بالمكيافيلية اكثر من غيرها ، فانها تبنت منذ تاسيسها فى العام 1534 شعار «الغاية تبرر الوسيلة مهما تكن».

وفي الشرق اتبع معظم سلاطين آل عثمان تعاليم مكيافيللي بشكل مشوه دون ان يسمعوا باسمه او اسم اميره . فان سليم الاول،مثلا، خلع والده بايزيد الثاني عن العرش بمساعدة الانكشاريين في العام 1512 ولبى كابن «بار» طلب والده بالسماح له بالانتقال الى مسقط رأسه ، بل بلغ به «الوفاء» له ان ودعه حتى اسوار عاصمة ملكه ليوافيه الاجل بعد يوم او يومين فقط !. ولم يكتف سليم بذلك ، بل انه قضى على جميع اخوته الكبار واولادهم عن بكرة ابيهم بحجة ضمان امن ملكه .وبضربة واحدةاتى على حياة اربعين الف شيعياناضولي بعد ان استصدر فتوى من شيخ الاسلام يجيز فعلته النكراء. فاستحق سليم عن حق لقب ياوز ، اي المرعب او الرهيب . وقد دبرت دسائس الحريم ان يصبح سليم الثاني ، السكير العربيد واقل ابناء سليمان القانوني كفاءة ، وريثا لعرش والده الذي لقب عن جدارة بالقانوني في الشرق والعظيم في الغرب . اما مراد الثالث فقد دشن عهده بقتل اخوته الخمسة في العام 1574 . واثبت ابنه محمد الثالث « جدارة » اكبر عندما امر في يوم وفاة والده عام 1595 بخنق اخوته الذكور التسعة عشر الذين دفنوا في وقت واحد مع والدهم في جامع آيا صوفيا مقيما الفاتحة على ارواحهم معا دون ان تفارق علائم الالم والحزن وجهه لما اقدم عليه من «تضحية» كبرى في سبيل « رفعة » الامبراطورية العتيدة !!

والسؤال : هل يوجد في كل مؤلفات مكيافيللي مايبرر مثل هذه الاعمالالتي حاول آخرون ايجاد تبريرات لاكثريتها ان لم يكن لها كلها؟.

وقبل ان نأتي على نهاية الموضوع من الضروري ان نشير الى حقيقة مهمة اخرى لها علاقة به . ففي عصر مكيافيللي كانت البلدان الاوروبية تتوحد وتنهي مشاكلها على طريق الوحدة ، بينما كانت مشاكل ايطاليا تتعقد وتتأصل انقساماتها مما جعل من امر الوحدة القومية شبحا لايبدو حتى في الافق البعيد . فحدة المشاكل نفسها فرضت على شخص مثل مكيافيللي حدة في المعالجة والتعبير . ولم يكن هو المفكر الايطالي الوحيد الذي اختلف في طابع معالجاته للامور عن نظائره الاوروبيين . فان منطلقات كامبانيللا الاشتراكية المثالية كانت، مثلا ، اكثر راديكالية من منطلقات رائد الفكر الاشتراكي المثالي توماس مور الانكليزي . وقد تميز موقف العالم والفيلسوف الايطالي جوردانو برونو امام محاكم التفتيش بصلابة نادرة لم يضاهه فيه احد من العلماء الاوروبيين في عصر النهضة مثل كوبرنيكوس وغيره . فانه بعد ثماني سنوات من التعذيب الوحشي المتواصل جابه الحكام الذين اصدروا بحقه حكم الموت بمثل هذه العبارة الخالدة : « اغلب الظن انكم تصدرون قراركم بخوف اكبر مما اتلقاه انا !».

من كل ما سبق يبدو واضحا ان الكنيسة تجنت بقسوة على مكيافيللي وافكاره . فان الضربات المتلاحقة التي تلقتها الكنيسة في ذلك العصر اضفت على آراء مكيافيللي الواقعية والصريحة طابعا اخطر من غيرها في نظر القوى المحافظة التي بذلت جهودا كبيرة لتشويهها . فالى جانب تحريم مؤلفاته وحرق نموذجه الف عدد من رجال الدين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتبا في مهاجمة مكيافيللي انصبت على تشويه سمعته وتحريف افكاره.

ومن الغريب ان نذكر ان البروتستانت لم يكونوا اقل حماسة من الكاثوليك في معاداة نيكولو الذي اعتبروه «جزويتيا متنكرا»(59) ، وذلك بغض النظر عن التطابق الكبير بين انتقاداتهما الموجهة للبابوية . وقد اتخذ البروتستانت مثل هذا الموقف بتاثير اجراءات معينة اتخذها حكام مكيافيليون ضدهم كما نبين ذلك فيما بعد . ويأتي كتاب « ضد مكيافيللي» الضخم(60) الذي الفه الكالفني المتحمس غانتييه "Gentillet" بالفرنسية في العام 1576 على راس قائمة المؤلفات المبكرة التي اثرت على سمعة مكيافيللي في الاقطار الاوروبية الى حد كبير(61) . ومنذ ذلك الوقت تقريبا ظهر مصطلح المكيافيللية لاول مرة وبدأ تداوله على نطاق واسع بسرعة وفي مجالات فكرية وسياسة شتى، بما في ذلك الاعمال المسرحية الاوروبية .

3 ـ المسرح الانكليزي :ـ

لعب المسرح الانكليزي في العهد الالزابيثي دورا كبيرا في تشويه سمعة مكيافيللي . فقد كون المجتمع الانكليزي اول فكرة له عن مكيافيللي وكتبه من خلال المؤلفات المعادية له والتي ركزت بشكل خاص على آرائه الواردة في «الامير» . فان كتاب غانتييه المذكور قد ترجم الى الانكليزية في العام 1577 ، بينما ترجمت «المطارحات» اليها في العام 1636 و «الامير» في العام 1640(62) . فكان من الطبيعي ان يسود الوسط الثقافي راي غير واقعي عن نيكولو وافكاره السياسية ، مما وجد له انعكاسات واضحة في المسرح الانكليزي الذي بلغ الذروة في عهد الملكة الزابث الاولى . فهناك 395 اشارة سلبية الى اسم مكيافيللي وافكاره في الادب الانكليزي الذي يعود الى تلك المرحلة(63) والذي لايزال يتمتع بتداول واسع في شتى اللغات . فان الشاعر والمسرحي المعروف كريستوفر مارلو (1564ـ1593) الذي كان يجمعه بمكيافيللي نظرته الى الكنيسة وتقييمه للحياة ومعاناته من الرقابة ، قدم في مسرحيته «يهودي مالطة» صورة مشوهة عن نيكولو دون ان يطلع على افكاره مباشرة ، فقد ترجم «الامير» الى الانكليزية بعد وفاته بحوالي نصف قرن . وهذا ما فعله ايضا المسرحي الكبير المعاصر لمارلو شكسبير (1564ـ1616) الذي استخدم مصطلح المكيافيلية في مسرحيته «نساء وندسور» ، علما ان هناك تطابقا كبيرا بين افكار شكسبير ومكيافيللي ،ولا سيما فيما يتعلق بتقييمهماللحكم المطلق ، بل وفي نظرتهما الى الانسان .

ومما لاشك فيه ان آراء الانكليز السلبية عن مكيافيللي تركت بصمات واضحة على الفكر السائد عنه ، وبشكل خاص في اقطار الشرق التي احتكت مباشرة بالثقافة الانكليزية وعرفت النهضة عن طريقها الى حد كبير ، كما اطلعت عن طريق الانكليزية على تاريخ الحكام المكيافيليين الاوروبيين اكثر من غيرها .

4 ـ المكيافيلليون :ـ

لعب الحكام المكيافيلليون دورا لايقل خطورة عن دور الجزويت في تشويه سمعة نيكولو . فان هؤلاء كانوا يختارون ما يناسبهم من آراء مكيافيللي متجاهلين في الغالب ما وضع من ضوابط لتصرفات الحكام . فقد كانت الملكة الفرنسية الايطالية الاصل كاترين ميديتشي تعتبر «الامير» كتابها المقدس(64) دون ان تتمسك بالافكار الواردة فيه مما يبدو واضحا من تصرفاتها الشخصية وسياستها العامة . الا ان اعجابها بمكيافيللي وتشجيعها لنشر «الامير» كان كافيا لاعتباره «اعتبار مكيافيللي» مسؤولا عن فعلتها النكراء عندما دبرت باسلوب وضيع مذبحة عامة للبروتستانت الفرنسيين في ليلة احتفائهم باحدى المناسبات الدينية (سان برثلوميو) عام 1572 ، مما ادى الى ان يصب البروتستانت جام غضبهم على مكيافيللي . فبعد ذلك بخمس سنوات فقط اصدر غانتييه كتابه «ضد مكيافيللي» الذي حمله فيه لا مسؤولية المذبحة المذكورة حسب ، بل اعتبره كذلك المسؤول الاول عن كل مساوىء ملوك فرنسا هنري الثاني وشارل التاسع وهنري الثالث(65). وربما كان مكيافيللي الضحية الوحيدة للكاثوليكية الذي لم يدافع عنه البروتستانت ، بل اتهموه بكل بساطة بكونه « معلما للملوك الكاثوليك» (66).

كان الملك البروسي فردريك الكبير اشهر مكيافيللي حارب مكيافيللي بحماسة مصطنعة . فقبل مجيئه الى الحكم تهجم على مكيافيللي في رسائله التي كان يبعثها الى المفكر الفرنسي فولتير وذلك جريا على عادة ملوك وامراء اوروبا الذين كانوا يحاولون اظهار انفسهم في ثوب يتفق مع قيم عصر التنوير . وفي السنة التي تسنم فيها العرش الف فردريك كتابا سماه «ضد مكيافيللي»(67) والذي وصف فيه نيكولو ك «مدافع عن الجريمة» وكاحدى «خوارق الشيطان»(68) (Cet avocat crime, cet oraclede Satan).وتذكر فردريك في الكتاب نفسه ان مكيافيللي يستهدف من آرائه اقامة «حكومة مستبدة ، غادرة ، جشعة» واثارة «حروب غير عادلة» . واذا كان مكيافيللي لم يدع في اي من مؤلفاته الى مثل هذه الامور ، فان فردريك طبق اكثر منها خلال سنوات حكمهالست والاربعين . وكما جاء في تعليق احد المؤرخين فان هذه الامور بالذات هي التي جعلت من «فردريك الكبير مشهورا فيما بعد»(69) . ومن الجدير بالذكر ان فردريك كان يشبه من اوجه كثيرة سيزار بورجيا ، ولا سيما والده البابا الكسندر السادس . وقد بلغ استبداده في الحكم حد انه رفض ان يكون له وزراء كي لاتتحول رواتبهم ، حسب ادعائه ، الى عبء على كاهل الخزينة بينما لم يتوان هو عن الصرف من اجل تشييد افخم قصر له ولحاشيته . وفي الوقت الذي لايمكن فيه العثور على ثناء واحد على حكم الفرد بين دفتي «الامير» او اي من مؤلفات نيكولو الاخرى ، فان فردية فردريك في الحكم بلغت حدا كان فيه يشرف بنفسه على جميع قضايا الدولة يساعده في ذلك سايس خيله الذي كان يقرأ رسائله ومكاتباته خلال ساعات الفجر القليلة ويأتي له في السابعة برزمة كبيرة تضم القضايا التي لابد من اطلاع الملك عليها حسب رايه . واذا دعا مكيافيللي الى الاهتمام بالجيش الوطني فانه لم يوص ابدا بأن يخصص اميره الانموذج حوالي 80٪ من ميزانية الدولة لقضايا الحرب والدفاع كما فعل ذلك فردريك الكبير . وفي الواقع لايوجد ابلغ من تعليق فولتير على كتاب فردريك :

«لو كان لدى مكيافيللي امير حواري(70) فانه كان ينصحه بأن يكون اول عمل يأتي به تأليف كتاب ضد مكيافيللي»(71). وفعلا ان فردريك دشن شهرته بكتابه هذا ، وقد يكون بذلك آخر من « يسمح له التاريخ بأن يشوه صورة صادقة» بهذا الشكل الفظ(72). ولكن لا ينفي ذلك حقيقة ان فردريك كان واحدا من الذين اشتركوا في بلورة تقليد غير واقعي عن مؤرخ النهضة الكبير .

5 ـ التقليد :

ادت الحملة الواسعة ضد مكيافيللي في القرن السادس عشر الى تكوين فكر سلبي عنه توارثته الاجيال بشكل غير موضوعي . فان معظم الذين يستخدمون مصطلح المكيافيللية لم يقرأوا مؤلفات نيكولو ، او في احسن الاحوال اقتصروا على قراءة سطحية للامير الذي لايعتبر من أصغر مؤلفاته حسب ، بل انه يشكل نسبة ضئيلة جدا مما كتبه. ثم ان «الامير» بحاجة الى دراسة جدية معمقة «كعلم لا كدعاية»(73)، بل ان هنالك من المؤرخين من يؤكد على ضرورة قراءة «الامير» اكثر من مرة ، «الاولى سطحية ، تدعو الى «كره» الكاتب والثانية ادق تكشف نواياه الحقيقية»(74) .

لقد حال التقليد الاعمى والتجاهل المطلق لمؤلفات مكيافيللي دون

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقوف الناس بانفسهم على ما كان يدعو اليه نيكولو باخلاص . فاذا اقبل المرء على قراءة «الامير» ، ولا سيما «المطارحات» ، دون ان تكون لديه فكرة مسبقة جاهزة فانه يدرك بدون عناء ان مكيافيللي كان جمهوريا اكثر من ان يكون نصيرا لحكم الفرد الاستبدادي . فمنذ نعومة اظفاره ترعرع في جو تسوده الافكار الجمهورية سواء في شوارع مدينته فلورنسة او في رحاب داره حيث كان والده وجده من غلاة الداعين للجمهورية . ثم انه خدم النظام الجمهوري الفلورنسي باخلاص لا متناه وعن ايمان مدرك مقيما اياه كـ «حكومة الشعب»(75) . وعلمته تجارب التأريخ القديم ان قوة روما وعظمتها انما جاءتا من نظامها الجمهوري اكثر من اي شيء آخر لان الكفاءة ، لا الوراثة ، كانت تقرر في ظله من يستحق تبوء السلطة . لذا فان مكيافيللي كان يتوق الى احياء ذلك النظام ، مما انعكس بشكل واضح في «الامير» ، ولا سيما في «المطارحات» ، حتى ان روسو يصف «الامير» ككتاب الجمهوريين(76).

ولكن ربط مكيافيللي نجاح النظام الجمهوري بمستوى وعي الناس ومدى تمسكهم بتلابيب الاخلاق الفاضلة . اما من حيث الفساد والتسيب ، كما كان عليه الامر في معظم الاقطار الاوروبية وعلى رأسها ايطاليا ، فان مكيافيللي كان يرى من الضروري اقامة حكم مطلق يستطيع وضع نهاية حاسمة لكل اشكال الفوضى التي تجلب الدمار على الشعب والوطن . وهو في رايه ذلك لم يختلف عن معظم اعلام النهضة الآخرين ولم يخرج على منطق التاريخ الذي حتم في مرحلته ظهور انظمة حكم مطلقة توقف عليها التطور اللاحق للمجتمعات الاوروبية . وان عدم ظهور مثل ذلك النظام في ايطاليا يعد من اهم اسباب تخلفها وتمزقها وضعفها امام الدول الاوروبية التي اقيمت فيها انظمة مطلقة بنجاح .

وكان الفاشيون والنازيون آخر من حاولوا تجاهل افكار مكيافيللي الجمهورية وتجنبها .

6 ـ الفاشية والنازية :

اهتم فاشيو ايطاليا ونازيو المانيا بمكيافيللي من منطلقاتهم الضيقة وحاولوا على ضوئها قولبة افكاره من جديد ضمن اطار ضيق ومجرد بعد ان احتاج كسر الطوق السابق المفروض على نيكولو الى جهد كبير وزمن طويل . فقد قام عدد كبير من المؤلفين الالمان والطليان بتاليف كتب جديدة عن مكيافيللي اكدوا فيها بشكل مشوه على آرائه في الحكم المطلق وتجاهلوا كل ما يتعلق بظروف الزمان والمكان . فان موسوليني اعتبر مذهب مكيافيللي بصدد الحكم الاستبدادي «حيا اليوم بعد اربعة قرون »(77) . وبلغ تمجيد النازيين والفاشيين لمكيافيللي حد ان هتلر كان يضع كتابه «الامير» الى جانبه في مكتبه ، وحسب ما يقال فانه كان يعيد قراءة قسم منه قبل النوم في كل ليلة . اما موسوليني فقد كتب رسالة عن «الامير» نال بها درجة الدكتوراه . وهو كان يعتبر «الامير» «ملازم رجل الحكم» .

وقد ادرك العديد من المؤلفين الالمان والطليان المخلصين لقضية شعبهم ان من شان التمسك غير الموضوعي بافكار مكيافيللي من قبل النازيين والفاشيين التاثير على سمعته سلبا ، لذا تصدوا لهذا الموقف وبينوا في الثلاثينات الجوانب المشرقة في آراء مكيافيللي التي لم يجمعها جامع بمواقف هتلر او موسوليني .

النواقص :

لا شك في ان العوامل التي عرضناها كانت كافية لتشويه سمعة اي مفكر في العالم ولتحريف آرائه . ومن الجدير بالذكر ان الذين حاولوا النيل من مكيافيللي لم يضعوا اليد على النواقص الحقيقية والجوانب الضعيفة في افكاره . فان الرجل ، كأي عالم آخر من اعلام النهضة وكابن عصره ، لم يكن مصيبا في كل ما عالج ، ولا سيما انه كان رائدا في طرقه لعدد من اشد المواضيع تعقدا .

كان مكيافيللي يمثل في آرائه الفكر البورجوازي النامي الطموح

وقد مجد في كتاباته التجار والحرفيين المتمكنين من سكان المدن الايطالية الذين يصفهم بالشعب (Popolo) ودعا الامير الى الاهتمام بهم وتهيئة الاجواء التي من شانها تطوير مصالحهم والترفيه عنهم . الا ان البورجوازية الايطالية قد توقفت عن النمو بسرعة بعيد ميلادها المبكر وبدات تعيش ازمة جدية قبل عهد مكيافيللي وخلاله لذا ظلت ضعيفة ولم تستطع ان تتحول الى القوة الجديرة للاضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنتظرها في ظروف ايطاليا الصعبة . وكان من الطبيعي ان ينعكس ذلك في بعض من آراء مكيافيللي المتحمسة للنظام الملكي المطلق مما كان يعني في الواقع نوعا من التساوم مع الفكر الاقطاعي ، لان ذلك النظام ظل يشكل ، بالرغم من وقوفه ضد التسيب الاقطاعي ، شكلا اعلى من النظام السياسي الاقطاعي . الا ان ذلك النوع من الحكم لم يكن قد فقد في عهد مكيافيللي جوانبه الايجابية بعد . ولا يمكن تفسير ازدواجية مكيافيللي ، وتنقله بين النظامين الجمهوري والمطلق الا في ضوء ماتقدم . وهو يفسر لنا كذلك معاداته للديمقراطية وتخوفه من الجماهير التي «تنجرف بسهولة مع المغامرات» حسب رايه وكان يصفها بـ «السواد» او «العوام» (Plebs) . وقد عبر عن موقف عدائي صريح نحوها من خلال تقييمه لبعض الانتفاضات الجماهيرية التي وقعت في ايطاليا . وبحكم ذلك فان مكيافيللي يتوجه في جميع مؤلفاته الى الامراء واهل السلطة واصدقائه من المفكرين ، ويكتب لهم لا للجمهور(78).

وهنا لابد من الاشارة الى حقيقتين . الاولى ان « الشعب » الذي دافع عنه مكيافيللي بحماسة كان يشكل يومذاك حوالي ثلاثة آلاف ومائتي شخص من مجموع سكان فلورنسة البالغ عددهم تسعين الف نسمة(79) . والثانية ان مكيافيللي نفسه لم ينتم اجتماعيا الى هؤلاء ، الا انه قدر دورهم الكبير في تطوير المجتمع ، كما اثرت في موقفه منهم علاقته بسوديريني الذي كان ينتمي الى البورجوازية الفلورنسية النامية .

كان مكيافيللي في رايه عن سوء طوية البشر متشائما بشكل متطرف . فانانية الفرد تتحكم في تصرفاته سلبا او ايجابا ، اينما كان ومتى ما كان . وهو وان كان قد اقر بأن من شأن تغيير النظام التأثير على نفسية الفرد ، الا ان ذلك في رايه ينجم عن القوانين الجديدة التي تستهدف عادة الحد من طموحات الناس .

خطا مكيافيللي خطوات مهمة في مجال البحث التاريخي ، الا انه يفتقر مع ذلك ، الى افق تاريخي شامل . فقد عجز ، مثلا ، عن فهم التحول التاريخي من مرحلة الى اخرى . فان الماضي الذي كان يستنبط حقائقه من بطون كتب التاريخ كان يبدو له مشابها الى حد كبير للحاضر الذي كان يعيشه هو ويعرفه . من هنا كان راي مكيافيللي في التاريخ انه نوع من التجارب المتصلة التي من شانها دفع الانسان الحكيم الى فهم الطبيعة البشرية بشكل افضل مما لو اعتمد على تجاربه الشخصية وذكرياته فقط .

لا تنتقص هذه الجوانب السلبية الواردة في افكار مكيافيللي من اهميته كمفكر كبير ، خاصة اذا قيمت بشكل صحيح في اطار زمانها ومكانها ودوافعها الاصلية لا الشكلية . فبالرغم من ان موقفه المتشائم من نفسية الفرد امر غير قابل للتبرير ، الا انه مع ذلك لايمكنه نسخ حقيقة ان مكيافيللي كان يستهدف خلق الفرد الايطالي الجديد الاقرب الى التكامل . كما انه بالرغم من موقفه السلبي من الجماهير ، ولاسيما في «الامير» ، فقد قدم عنها افكارا مهمة وجديدة بالنسبة لعصرها في «المطارحات» . ففي رايه ان «العامة والامراء متشابهون تمام الشبه»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذا كان من واجبنا ان نؤثر احدهما على الاخر ، فلا ريب في ان الايثار يتجه الى العامة ، وهذا يتوقف على مايبدونه من درجة احترام كثرت او قلت ، للقوانين التي يعيش الفريقان في ظلها» . ومن اقواله ايضا : «ولا ريب في ان هناك مبررا قويا حمل الناس على تشبيه صوت الشعب بصوت الله ، وذلك لان الراي العام يكون دقيقا الى حد كبير في دلالاته واشاراته ، مما يرمز الى ان قوة خفية توحي الى الشعب مقدما بما سيصيبه من شر او خير» . ومن اقواله كذلك: «ودللت الوقائع ايضا على ان العامة احسن قدرة على التمييز من الامير في موضوع اختيار الحكام اذ لايمكن اقناع الشعب مطلقا ، بأن من الخير ان يختار لاحد هذه المناصب رجلا عرفت عنه الخلاعة والعادات الفاسدة ، بينما قد يقتنع الامير ، وغالبا ما يقتنع باجراء مثل هذا التعيين» .(المطارحات ، الكتاب الاول ــ 58) .

وفي كل الاحوال من الضروري ان نشير هنا الى انه عند اصدار الحكم على نواقص مكيافيللي فانه لايصح ، كما لاحظ روتينبورغ عن حق ، النظر الى افكاره السياسية والاجتماعية «من علياء القرن العشرين ، بل من خلال اسوار قلاع القرن السادس عشر الاقطاعية القائمة بعد من وجهة نظر اجتماعية»(80) . فان مكيافيللي « كله مجبول من طينة عصره ، وعلمه السياسي يمثل فلسفة زمانه الذي يسعى الى تنظيم الملكيات الوطنية المطلقة»(81).

واخيرا فان نواقص مكيافيللي المذكورة ، وغيرها ، تبقى في الواقع غير ملموسة ، او بالاحرى طبيعية الى جانب النواحي الايجابية الكثيرة في منطلقاته الفكرية العميقة .

منطلقات فكرية اخرى :

تطرقنا حتى الان الى نواح كثيرة في آراء مكيافيللي السياسية والاجتماعية ، ولكن تبقى ، مع ذلك ، قضايا مهمة اخرى تستحق عرضا سريعا حتى تتكامل صورة نيكولو كمفكر فذ في ذهن القارىء والمتتبع . وهنا يجدر بنا التأكيد بشكل خاص على دوره في تطوير علم التاريخ .

يأتي التاريخ على راس قائمة العلوم الانسانية التي تأثرت بافكار النهضة . فان الاهتمام باحياء التراث القديم كان يعني بحد ذاته القاء اضواء كاشفة على صفحات مجهولة من تاريخ اوروبا السياسي والثقافي والاجتماعي وحتى الاقتصادي في عهدي الرومان والاغريق . كما بدأ الاهتمام بآثار الشرق ، فيرتبط ظهور الـ "Epigraphy" (دراسة النقوش والمنحوتات القديمة) كعنصر مهم من عناصر التاريخ القديم بعصر النهضة مباشرة . ولكن لم يقتصر الامر على هذه النواحي المهمة، بل طرأ كذلك تغيير ملموس في اسلوب البحث التاريخي وفي نظرة المؤرخين الى الاحداث وموقع الفرد فيها . فقد ظهرت النظرةالانتقادية بالنسبة للمصادر والبحوث التاريخية المدونة مما اسهم بشكل جدي في الكشف عن جوانب الضعف الكبيرة التي تميزت بها الدراسات والتفسيرات التاريخية في العهود السابقة وفي اثبات حقائق تاريخية مهمة ادى بدوره الى تعرية الفكر الاقطاعي ــ الكنسي . وفي عصر النهضة جرى لاول مرة تقسيم التاريخ الى القديم والوسيط والحديث. كما ظهرت في ذلك العصر كذلك دراسات تاريخية من نوع جديد تهتم باحداث الوطن بشكل متكامل موحد وبمفاخرالماضيبأسلوبمتوافق مع الشعور القومي والوطني الذي طفا الى السطح . فان گويجارديني (1483ــ1540) مثلا هو اول مؤرخ درس تاريخ ايطاليا في اطار موحد على عكس المؤرخين السابقين الذين تعودوا على دراسة حكوماتها ومناطقها المختلفة كوحدات منعزلة . وبدافع من الشعور القومي ايضا بدأ المؤرخون الجدد يبحثون عن حلول عملية لمشاكل مجتمعاتهم السياسية ويحاولون معرفة الاسباب الطبيعية للاحداث التاريخية ومن هنا فانهم رفضوا تأثير « القوى الغيبية » في خلق وتقرير مصير الاحداث وبدأوا يبحثون في دور الفرد المدرك (القادة والشخصيات التاريخية البارزة) في سير الاحداث . لكن لم يتجاوز سوى عدد قليل جدا من مؤرخي عصر النهضة هذا الحد من التفسير البراغماتي للتأريخ ، فان غاية ما عملوه انهم بحثوا في العوامل المنطقية وغيرها التي كانت تحرك القادة السياسيين .

وفي هذا المجال ايضا اثبت مكيافيللي عمقا اكبر من غيره . فقد لعبت آراؤه دورا مهما في تطوير الدراسات التاريخية ونظرياتها ، اذ تخطى في بحوثه حدود التفسير البراغماتي للاحداث في وقت مبكر ، وبدأ ينظر الى الدولة وقوانينها نظرة واقعية نابعة من التجربة والتحليل لا من اللاهوت ونظرية الحق الالهي في الحكم ، وآمن بحتمية الاحداث التاريخية وبالترابط فيما بينها بغض النظر عن ارادة المشتركين فيها. وتوصل الى الراي بأن الصراع السياسي هو المحرك الاساس للتاريخ وغالبا مايتخذ ذلك الصراع طابعا اجتماعيا وطبقيا مادام يوجد ــ كما ذكر في مؤلفاته ــ تناقض مستفحل بين مصالحالشعبوالطبقاتالمالكة. ففي كتابه الضخم «تاريخ فلورنسة» يتتبع النضال بين الجماهير والارستقراطية على طول مسيرة تاريخ ايطاليا . ومن هنا ، اي من خلال بحثه عن العوامل المحركة للاحداث التاريخية بغض النظر عن ارادة الافراد الصرفة ، تخطى مكيافيللي مؤرخي عصر النهضة وتقدم عليهم. ويكتسب هذا الامر اهمية اكبر اذا علمنا ان مكيافيللي كتب التاريخ كسياسي قبل ان يكون مؤرخا ، فانه كان يبتغي من التاريخ خدمة السياسة كعلم ، لذا لم يهتم بسرد الاحداث الا ليستنبط منها الدروس والافكار(82) .

لمكيافيللي آراء سياسية واجتماعية قيمة اخرى عن القوانين والديمقراطية وعن السياسي في انتصاره وهزيمته ودور الحظ في تقرير مصير الاحداث والاشخاص وما الى ذلك . وهو في كل معالجاته يحاول الغوص فيما وراء الاسرار وغير المرئيات وغالبا ما يمس القاع فيأتي منه بالجديد والجيد . فهل من تعبير اعمق وادق واكثر واقعية عندما يتحدث في «فن الحرب» عن الانتصار والهزيمة فيقول :« يمحو النصر آثار اكثر الاعمال فشلا ، فيما تجهض الهزيمة اكثر الخطط تنظيما» ؟.

هكذا تميز نيكولو عن غيره في الكثير . وهكذا كانت مأثرته الاخيرة في الحياة التي هي ابلغ تجربة خاضها مكيافيللي بنجاح مما جعلها ورقة كاشفة اصيلة لتقييمه لم تجد ، بكل اسف ، ما يستحق من اهتمام المؤرخين(83).

التجربـة :

تخطى مكيافيللي الخامسة والخمسين من عمره عندما تعرضت بلاده الى غزوة اجنبية جديدة . ففي العشرينيات من القرن السادس عشر دخلت الحروب الايطالية (1494ــ1559) التي جرت بين اسبانيا وفرنسا من اجل السيطرة على ايطاليا ، دخلت مرحلة خطيرة بظهور الملك الاسباني الطموح شارل الاول الذي كان يرنو الى اقامة امبراطورية مسيحية موحدة . واضطر البابا والفلورنسيون للتحالف مع الفرنسيين لدرء الخطر الداهم . ولكن الفرنسيين اندحروا امام الجيش الاسباني في المعركة الحاسمة التي جرت بين الطرفين في شباط 1525 ووقع الملك الفرنسي فرانسوا الاول في اسر القوات الاسبانية التي اصبحت الارض الايطالية مفتوحة امامها . وفي مثل هذا الوضع الحرج اختار القليل من اخلص الوطنيين الطليان سبيل المقاومة للحفاظ على كرامة وطنهم المهدد ، وقد كان مكيافيللي واحدا من ابرز هؤلاء الابطال .

تشهد مواقف مكيافيللي المتشعبة في تلك الايام الصعبة على وطنية صادقة وشجاعة نادرة . فعندما بدأ التردد يجد طريقه الى نفوس الاكثرية ، بما في ذلك شخص البابا ، كان مكيافيللي يتوقد حماسة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويصر على المقاومة ويحرض البابا كليمنت السابع للاضطلاع بالمهمة المشرفة ، وبدأ يتنقل من مكان الى آخر ويكتب الرسائل تلو الرسائل، ويتصل بأهل السلطة ويحاول اقناعهم دون ان يمل او تقعده آثار مرضه ، فقد نسي كل شيء وظل يفكر ، كما ذكر بنفسه ، في امر واحد فقط – انقاذ البلاد وضمان حريتها(84)!. وآنذاك قدم مشروعين الى البابا احدهما يخص تحصين فلورنسة والثاني يستهدف تاسيس جيش شعبي في توسكانيا والمناطق البابوية .

كلما دنا الخطر اكثر ، ازداد نيكولو نشاطا وقلقا . فبدأ يتصل بأصدقائه ، ويستأنس بآراء المفكرين ، كما اشترك بحماسة بالغة في تقوية استحكامات فلورنسة دون ان يفتر بسبب الموقف المتخاذل للدعاة السابقين . ويومذاك عندما كانت الاكثرية تربط الامور ، تهربا، بالموقف الفرنسي ، عبر مكيافيللي عن رايه صراحة عندما قال « اعتقد ان من واجبنا التسلح دون ادنى تاخير وعدم انتظار ما تتخذه فرنسا من قرار»(85).

لم يكتف نيكولو بكل ذلك ، بل وضع خطة عمل تتفق مع مايتطلبه الزمن من «اتخاذ قرارات شجاعة ، غير اعتيادية وغريبة»(86). وهنا بحث باخلاص ودون ادنى تملق عن «الامير الجديد»الجدير بأن يأخذ على عاتقه المهمة الجليلة والصعبة التي من شانها ان تبين «للاصدقاء والاعداء معا» ان ايطاليا على اهبة الاستعداد للدفاع عن كرامتها . وقد اعترف البابا شخصيا بشجاعة خطة مكيافيللي ، الا ان تردده واسبابا اخرى غير ذلك حالت دون الاقدام على اتخاذ القرار الحاسم .

لكن كل ذلك لم يفت في عضد ابن ايطاليا البار ، فان الوطن في خطر و «عليه ان يقدم له ذاته كاملا» . الا ان غباء الحكام وترددهم وقصر نظرهم قد حال دون الاقدام ، والعدو الاسباني يحتل الفرصة فيتقدم في الارض الايطالية وتقترب طلائعه من فلورنسة ولكن دون ان يدخل ذلك الرعب في نفس نيكولو المقدام الذي لم يتراجع ، بل بدأ بوضع خطة جريئة جديدة تتلخص في الهجوم السريع على نابولي واسر نائب الملك الاسباني هناك وتجريد اتباعه وانصاره من السلاح والضغط من هناك على الاسبان . الا ان البابا رفض هذا المشروع كذلك ليدفع الثمن فيما بعد غاليا ، فقد دخل غريمه بومبيو كالونا ، روما بمساعدة الجنود الاسبان الذين نهبوا الفاتيكان فلم يتمكن كليمنت السابع من انقاذ جلده الا بشق الانفس . فجاء ذلك بمثابة الخطوة الاخيرة التي مهدت الطريق للهزيمة الساحقة في العام التالي .

مرة اخرى لم يتراجع مكيافيللي ، فقد نسي الماضي الاليم والشيخوخة والمرض والاسرة وبدأ يتردد بحماسة الشباب بين فلورنسة والجبهة عندما كان الاخرون يتراجعون ويعرضون انفسهم في سوق النخاسة رخيصة . انه يتصل ويبحث ويحرر الرسائل الى اصدقائه واهل الراي ، وهو في كل ذلك لم يغير كلمته : الوطن في خطر وعليه ان يقدم ذاته كاملا له ، النضال حتى النهاية وعدم الرضوخ !! «ان العاصفة تهب هوجاء ، ولكن على السفينة ان تمخر عباب اليم » – بهذا الاسلوب الرائع عبر نيكولو عن الواقع وعن موقفه عندما كانت جيوش العدو تقترب وتقترب(87) . واذا لم يبق من مخرج امام الطليان ،فعليهم –كماكان يؤكد–بالسلم مرفوعي الراس لا بالاستسلام متخاذلين – وهنا ايضا لابد من الامير الجديد الذي يعرف كيف يختار بين الحرب والسلم. من هذا يبدو واضحا ان مكيافيللي جمع ، كأي مفكر اصيل ، بين النظرية والتطبيق . فان جميع اعماله في ايام التجربة القاسية تنطبق مع اهم ما ورد في القسم الاخير من «الامير» حيث التحريض الحار «لتحرير ايطاليا من البرابرة» والامل المخلص في ان «يختار الله شخصا لانقاذها» (الامير ، الباب السادس والعشرون) .

هكذا كان مكيافيللي ، وهكذا بقي مكيافيللي . فعندما كان اقرانه يقضون لياليهم حول موائد الخمر الدافئة و «يبنون» و «يهدمون» في الهواء ويتشككون في مواقف اخلص الناس واشرفهم ، كان مكيافيللي يجابه الموت ويحرق الفكر ويجهد النفس في سبيل ايطاليا لانه كان صادقا في حبه لها مخلصا. فآنذاك تفتقت قريحته العبقرية عن قولته المشهورة:

«حبي لروحي دون حبي لوطني!»(88) .

ذهبت نشاطات «الرسول الاعزل»(89) ، والذين كانوا في مستوى اخلاصه ، هباء . استسلمت روما ولم يبق امام نيكولو بعد ان ادى الواجب مخلصا ، سوى العودة الى قريته ليقضي الايام الاخيرة من عمره(90) ، ولكن ليثبت بموقفه الثابت والصريح والبعيد عن المساومة والتزلف والادعاء وبنشاطاته الخارقة في اصعب الظروف واشقها ، ليثبت مرة اخرى من هو نيكولو دي بيرناردو مكيافيللي !.

وماذا عن موقف التوافه من حساد مكيافيللي الذين كانوا يراقبون الوضع من فوق التل لينظموا الى المنتصر في الوقت المناسب ؟. انهم، وما كان بمستطاعهم ان يفعلوا غير ذلك ، اثاروا شكوكا مصطنعة حول مواقف هذا الوطني الاصيل وجهدوا بروح انتهازية وضيعة لابعاده عن المنصب الذي رشح له قبل الاحداث الاخيرة .

يبقى سؤال آخر يفرض نفسه بالحاح : اذا كان هذا ديدن مكيافيللي وعبقريته ، فكيف يجوز ان نقتنع بان الموضوعيين من خلق الله لم يفهموه ولم يقيموه كما يجب ؟ ولكن هل كان الامر هكذا ؟

التقييم الارفع :

من اروع قوانين الحياة ان الحقيقة لايمكن ان تحجب حتى النهاية. وهكذا كان الامر مع مكيافيللي . فان جميع الجهود والتحريفات ظلت عاجزة منذ البداية عن حجب حقيقة هذا المفكر عن اعين الفلاسفة والعلماء والموضوعيين من الناس الذين قراوا له . وفي الواقع قلما تناول مفكر عظيم اسم مكيافيللي وافكاره الا بالثناء والمديح . فان الفيلسوف والعالم ورجل الدولة الانكليزي البارز فرانسيس بيكون (1561–1626) درس مؤلفات مكيافيللي بامعان وتأثر في طريقته الاستقرائية بما ورد فيها من آراء جديدة كليا في بابها(91) . وكان بيكون اول من ادرك ان مكيافيللي تناول الاشخاص كما هم في الواقع لا كما يجب ان يكونوا في الخيال ، فكتب بهذا الصدد يقول :

«يجب علينا ان نكون شاكرين لمكيافيللي ومن هم على شاكلته من الكتاب الذين رسموا بصراحة ودون تصنع ما يفعله الناس عادة وليس ما عليهم ان يفعلوه»(92) .

وفي عنفوان الحملة المضادة لمكيافيللي(93) تطرق عدد من المؤلفين الى افكاره وقيموها عاليا . فقد عرض ليبسموس في مؤلفه « الكتب السياسية» الذي نشره العام 1590 ، عرض افكار مكيافيللي حول موقع الدين في السياسة والدولة . وفي العام 1613 كتب ك. شوببيه عن آراء مكيافيللي حول ضرورة الفصل بين قضايا السياسة والفضيلة . وبعده بعقدين تطرق جبرائيل نوديه الى الاسلوب السياسي لدى مكيافيللي وبيّن انه لم يبحث عن امير ارهابي ، بل عن حاكم ناجح من نوع جديد يحتاجه الوطن(94).

ويأتي الفيلسوف والرياضي الفرنسي المعروف ديكارت (1596–1650) من بين المفكرين الاوائل الذين تأثروا بمكيافيللي . فانه صاغ رايه حول الاساليب العادلة للحاكم في النظام المطلق المتنور بتأثير من افكار مكيافيللي . وقد توصل الاخير قبل الفيلسوف الانكليزي توماس هوبس (1588–1679) بفترة طويلة الى تحديد دور انانية الفرد وطموحاته ورغبته في الحفاظ على ذاته ، في اقامة الحكومات(95) مما ترك اثره على فكر الفيلسوف الانكليزي . وجون لوك (1632–1704) فيلسوف انكليزي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آخر تأثر بدوره ببعض من افكار مكيافيللي . واذا تذكرنا موقف الادب الانكليزي من نيكولو وتشويهه سمعته على نطاق واسع في انكلترا ، فهمنا الاهمية الكبيرة لتقييم هؤلاء الفلاسفة الذين وضعوا اليد بثاقب نظرهم على روح مؤلفات مكيافيللي واهدافه البعيدة من كل ما ورد فيها .

اشاد بمكيافيللي ابرز فلاسفة ومفكري عصر التنوير والتحرك القومي الاوروبي ، منهم الكاتب والمؤرخ والفيلسوف الفرنسي فولتير (1694–1778) والانسكلوبيدي المعروف ديدرو (1713–1784) والفيلسوف والكاتب والموسيقي الفرنسي جان جاك روسو (1712 – 1778) والشاعر والمفكر والرائد القومي الالماني غوته (1749–1820) كما شهد له هيغل بالعبقرية . وان الاول ، الذي كان يعرف كيف يرضي الملوك(96) ، حرض فردريك الكبير على تأليف كتابه عن مكيافيللي بعد ان اشاد به في رسائله الخاصة له ، وذلك لانه ادرك مايمكن لمثل ذلك الكتاب ان يجلب من شهرة لصديقه الملك الالماني . اما روسو فقد اعطى تقييما عميقا لمكيافيللي عندما ذكر عنه في اشهر مؤلفاته « العقد الاجتماعي» (الجزء الثالث ، الفصل السادس) ما نصه :

«كان مكيافيللي يتظاهر باعطاء دروس للملوك ، بينما كان يعطي دروسا عظيمة للشعوب . ان «الامير» كتاب الجمهوريين وما اختاره بطله المكروه يدل بوضوح على نية الكاتب الخفية ، ثم ان منع بلاط روما لنشر كتابه له دلالته ، فان المؤلف يصف هذا البلاط دون لبس» .

قيم مؤسسا الاشتراكية العلمية كارل ماركس وفردريك انجلس افكار مكيافيللي عاليا اكثر من مرة . فان ماركس قرأ مؤلفاته بامعان ، ولا سيما «المطارحات» التي اقتبس منها معلومات كثيرة فيما يتعلق بوضع النبلاء في فلورنسة والبندقية(97) . وفي رسالة له الى انجلس سمى «الامير» ب «المؤلف الرفيع» ذلك لان صاحبه واحد من الذين «بدأوا ينظرون الى الدولة بعين انسان ويستخلصون قوانينها من العقل والتجربة ، لا من اللاهوت»(98) .

اما انجلس فقد اطلق على اربعة من ابرز اعلام النهضة «هم الرسام الايطالي الخالد ليوناردو دافنيشي والمصلح الديني الكبير مارتن لوثر وابرز رسامي المانيا في ذلك العصر البريخت دورير (Durer) مع مكيافيللي» لقب «عمالقة النهضة»(99) التي «احتاجت للعمالقة وخلقت العمالقة» . كما اعجب كثيرا بكتابه «فن الحرب» الذي سماه ب «ماريسليز القرن السادس عشر » فقد كان مكيافيللي في نظره « اول كاتب حربي في العصر الحديث جدير بالذكر»(100) .

وفي عصرنا(101) اشاد العشرات ، بل المئات من المفكرين والمؤرخين الغربيين بافكار مكيافيللي وكرسوا لدراستها العديد من البحوث والرسائل العلمية نعود الى تفاصيل بعضها بعد عرض موجز للساسة الذين تأثروا بمؤلفات مكيافيللي مع بعض المواضيع الاخرى .

الحكام ومكيافيللي :

تأثر العديد من حكام أوروبا وغيرها بآراء مكيافيللي ولا سيما تلك التي وردت في «الامير» . وجاء تأثر هؤلاء في ظروف مختلفة ومن منطلقات متباينة . وفي كل الاحوال اختار معظم الحكام من آراء مكيافيللي ما كان يناسبهم ، وهم في العادة كانوا يتجاهلون الشروط العديدة والضوابط الكثيرة التي كان نيكولو يشدد عليها بحماسة وعن ايمان مطلق ، وهذا هو المكيافيلية بعينها .

من أوائل الحكام الاوروبيين الذين تأثروا بمكيافيللي الملك الاسباني شارل الاول (1508–1558) الذي كان اول حاكم اوروبي قيل عنه ان «الشمس لاتغيب عن ممتلكاته» . وبالرغم من تعصبه للكنيسة الكاثوليكية وحمايته لها فقد شجع هو ووزراؤه توزيع «الامير» في اسبانيا . وتحمس توماس كروموبل (1485–1540) ، السياسي الانكليزي البارز في عهد هنري الثامن ، للافكار الواردة في «الامير» ، فقد حصل على نسخة مخطوطة منه ومكن ملكه من اقامة حكم مطلق اصبح هو واحدا من ضحاياه فيما بعد . وقد عثر على الكتاب في جيب كل من هنري الثالث وهنري الرابع ملكي فرنسا عند قتلهما . كما تأثرت به الزابث الاولى (1558–1603) التي كانت اعظم حكام انكلترا في عهد آل تيودور وحققت نجاحات مشهودة على الصعيدين الداخلي والخارجي ، والتي كانت تحاول الحفاظ على التوازن في علاقاتها دائما . أما الوزير الاول الفرنسي ريشيليو الذي يعتبر من انجح ساسة اوروبا في النصف الاول من القرن السابع عشر فقد اعجب بمكيافيللي اعجابا شديدا واعترف بنفسه في وصيته السياسية بانه اعتمد على آراء مكيافيللي . وعرف نابليون بونابارت كتابي «الامير» و «المطارحات» وجعلهما في مقدمة اجود الف كتاب انتقاها لتؤلف له مكتبة متنقلة ، وله تعليقات على «الامير» الذي يعتقد كذلك بانه قام بترجمته . ولم يقل اعجاب نابليون الثالث بافكار مكيافيللي عن اعجاب سلفه. وقد تطرقنا فيما سبق من مواضيع الى عدد آخر من الحكام الذين تأثروا بمكيافيللي وحاولوا تطبيق تعليماته في تربة غير تربة ايطاليا القرن السادس عشر ، منهم هتلر الذي اعترف بذلك في كتابه المعروف «كفاحي»(102) .

ومع ان هناك من الكتاب من يعتبر الرئيس الفرنسي السابق ديغول الانموذج الامثل للامير الحديث(103) ، الا انه من الصعب في الواقع ان يستطيع حاكم معاصر ، مهما كانت الظروف ، تقمص الشخصية التي ارادها مكيافيللي بحذافيرها . وهنا يجدر بنا ان نجلب النظر الى فكرة مهمة طرحها الثوري الايطالي غرامشي بهذا الصدد . ففي رأيه ان الفرد في عالمنا المعاصر عاجز ان يتحول الى (امير) مكيافيللي ، لذا فان الذي يستطيع ، بل يجب ان يغدو الامير الحديث هو الحزب السياسي الثوري(104) . وليست الاساليب التي يدعو الى اتباعها سانتياغو كاريللو السكرتير العام للحزب الشيوعي الاسباني في كتابه «الاوروشيوعية» سوى تعبير من نوع جديد لما ذهب اليه غرامشي . فهو يقول بصدد الاتجاه الجديد «... قد نجد رفاقا يفكرون ان اتجاها كهذا نوع من المكيافيلية يسمح لنا في لحظة ما ان نحصل على كل شيء ، وانهم يجدون ذلك الموقف طبيعيا تماما»(105) .

كل ما سبق يبين ، بشكل لا لبس فيه ، الموقع البارز الذي كان، ولا يزال ، يحتله مكيافيللي في الفكر السياسي العالمي وتطوره . فكان من الطبيعي ان يحتل نيكولو ، مهما طال الزمن ، المكانة المرموقة الجديرة به في قلوب الناس ، ولا سيما الطليان .

التراجع :

بينا في اكثر من مكان كيف ان القوى المحافظة عجزت عن حجب حقيقة مكيافيللي عن انظار الخواص اولا والعوام فيما بعد . فقد بدأ الاوروبيون يفهمون الاهداف النبيلة التي توخاها مكيافيللي في كل ما عرض من افكار وقيم فتغيرت ، بالتالي ، نظرتهم اليه ، فبالرغم من التشويهات المستمرة لم يكن من الصعب جدا ادراك ان مكيافيللي يأتي في مقدمة رسل الوحدة القومية وروادها لا في ايطاليا فحسب ، بل وعلى صعيد كل القارة الاوروبية كذلك . فان شخص كافور ، زعيم الوحدة الايطالية ، كان متأثرا بافكار نيكولو . وسوف يبقى الايطاليون يتذكرون هذه الحقيقة التي جاء تعبيرها على لسان احد شعرائهم هكذا :

« إنـي
ايطاليا عظيمة وموحدة
وقد علمنـي
نيكولو مكيافيللي»(106)

وليس عبثا ان داره الواقعة في قريته القريبة من فلورنسة قد حولت الى متحف وطني ، وان الايطاليين احتفوا بمرور اربعمائة عام على مولده كعيد قومي حيث اقيم في ذلك اليوم ضريح فخم في المكان الذي دفن فيه نيكولو وقد حفرت عليه وتحت اسمه مباشرة ابلغ عبارة تعوض عن كل ما لاقاه في الحياة وبعد الممات :

«انى للمديح ان يفي هذا الاسم حقه» !

وكان لابد للكنيسة ان ترضخ للواقع اخيرا ، فقد رفعت في العام 1890 اسماء مؤلفات مكيافيللي من قائمة الكتب الممنوعة . ولم يكن ذلك سوى تراجع منطقي امام واقع ثابت .

ولكن بالرغم من كل ذلك لاتزال تسود الاذهان في شرقنا صورة مشوهة لمكيافيللي وخلط كلاسيكي بينه وبين المكيافيلية التي ابتلى الشرقيون بأساليبها اكثر من غيرهم وقبل ان يرى نيكولو النور بقرون طوال . على اية حال ان مكيافيللي والشرق من المواضيع التي لم تعالج بعد ، مع انه يستحق الدرس والاهتمام لاكثر من سبب .

مكيافيللي والشرق :

لم يتطرق مكيافيللي في مؤلفاته الى الشرق والشرقيين الا فيما ندر ، وذلك في حدود ذكر بعض المعلومات القليلة عن الحكومات الشرقية القديمة التي استقاها ، في اغلب الظن ، من مصادر كالاناباسيس الذي وقع تحت تأثير صاحبه زينفون . كما تطرق الى الجيش العثماني واشاد به ، ولا سيما ان ذلك الجيش كان يتمتع يومذاك بسمعة عالية في الاوساط الاوروبية لما تميز به من روح الطاعة والاقدام وجراء ما حقق من نجاحات سريعة في مناطق البلقان الاوروبية وغيرها .

ولكن يجب النظر الى مكيافيللي وعلاقته بالشرق من زاوية اخرى. فان التأثيرات الشرقية على النهضة (Renaissance) كنقطة التقاء حضارية مهمة من الامور المسلم بها علميا . ولا شك في ان مكيافيللي قد تأثر كابن عصره وكأحد اعلام النهضة في ذروتها بالافكار الشرقية سواء بشكل مباشر او غير مباشر . وقد سبقه في ذلك ابرز اثنين من رواد النهضة وهما دانتي وبترارك، فقد تأثر الاول في قصته الشعرية المعروفة «الكوميديا الالهية» برسالة الغفران لأبي العلاء المعري وتأثر الثاني في قصته «ديكاميرون» بالف ليلة وليلة . وهنا اود ان اعرض رأيا عن احتمال تأثر مكيافيللي بقصص «كليلة ودمنة»، اوعلى الاقل اطلاعه عليها، وهو رأي يستحق البحث والتأمل لوجود بعض القرائن التي تدفع المتتبع الى مثل هذا الاعتقاد .

فقبل كل شيء ان «كليلة ودمنة» قد ترجمت من السريانية الى اليونانية في العام 1081 ، ومن العربية الى الاسبانية في القرن الثالث عشر والى اللاتينية في القرن الرابع عشر وانتشرت بعد ذلك في جميع الاقطار الاوروبية تقريبا وتركت بعض الاثر في الابداع الادبي لشعوب كثيرة . ويستبعد جدا ان مثقفا مثل مكيافيللي كان يتلقف الكتب وكان لديه متسع من الوقت ، يستبعد انه لم يطلع على «كليلة ودمنة» ، خاصة وان صديقه الحميم مارسيليو فيرجيليو كان من الكتاب المعروفين وغدا استاذا للادب قبل ان يطرق مكيافيللي باب التاليف السياسي والادبي . ثم ان مكيافيللي كان يميل الى الابتعاد عن روح الاستبداد الشرقي(107) ، وهو نفس الشيء الذي استهدفته حِكم «كليلة ودمنة»

واذا اجرينا بعض المقارنات بين آراء مكيافيللي ومضامين وقصص «كليلة ودمنة» فاننا نجد اكثر من نقطة التقاء بينهما قد تكون نتيجة تأثر او مجرد امر عفوي يجلب النظر في كل الاحوال . فان اثنين من اغراض «كليلة ودمنة»(108) الاربعة ، حسب تحديد ابن المقفع ، يستهدفان الملوك حتى «يكون حرصهم اشد للنزهة في تلك الصور»

(ص95) . ومن اقوال ابن المقفع قبل دخوله في صلب القصص ان «من كانت فيه لم يستقم امره له : منها التواني في العمل ، ومنها التضييع للفرص ، ومنها التصديق لكل مخبر» . وينبغي للعاقل «الا يقبل من احد، وان كان صدوقا ، الا صدقا ، وينبغي له الا يتمادى في الخطأ ولا يتوانى في النظر . وينبغي له ، اذا التبس عليه امر ، الا يلج في شيء منه ، ولا يقدم قبل ان يستيقن بالصواب منه .. وعلى العاقل الا يأخذ الا بالحزم ويعلم ان الجزاء كائن» (ص92) . وان كسرى انو شيروان حاول اقتناء كتاب حكماء الهند «وضمه الى نفسه ، والاستعانة به على سياسته ، والعمل بحسن تدبيره» وذلك لما فيه «مما يحتاج اليه الملوك في سياسة رعيتها واقامة أودها وانصافها» (ص98). ويعرف من يقرأ هذا الكتاب «فضل الملوك وطاعتهم ، ويؤثرها على سائر الاعمال، وليعلم ان الشريف من شرفته الملوك ، ورفعته في دولتها» (ص107). وكما يقول دمنه للاسد ان «رعية الملك ومن بحضرته منهم يجب ان يعرفوه ما عندهم من المروءة والعلم ، ويبذلوا له نصيحتهم . فان الملك لايعرفهم ولا يضعهم في منازلهم التي هم اهلها ومستحقون لها الابذلك» (ص 136). ويقول له كذلك : «وكثرة الاعوان ، اذا لم يكونوا نصحاء مجربين ، مضرة على العمل ، فان العمل ليس بذلك رجاؤه بل بصالح الاعوان وذوي الفضل» (ص 137) . ومن اقوال دمنه للملك الاسد كذلك «والجرذ في البيت جار مجاور فلما صار مؤذيا عودي ونفي . والبازي وحشي غريب ، فلما صار نافعا اقتني واتخذ واكرم»(ص137).

وقد تطرقت قصص «كليلة ودمنة» الى طباع الناس ودور القدر مرات كثيرة في صورة مستعارة . فان الملك الاسد يقتنع باقوال دمنة ويستنتج ان الناس صنفان «احدهما طباعه الشراسة ، فهو كالحية التي ان وطئها الواطىء فلم تلدغه لم يكن جديرا ان يضره ذلك فيعود لوطئها ثانية . او آخر طباعه السهولة واللين ، فهو كالصندل البارد الذي اذا افرط في حكه صار حارا مؤذيا »(ص 138) .ومن اقوال دمنة للاسد ان« صاحب الشر لايسلم منه ، وان ضعف احتال بغيره » (ص 156) . وان «الملوك حزمة لايعلنون العقوبة الا لمن ظهر ذنبه » (ص 156–157) وان «اهل الشر اكثر من اهل الخير بكل مكان ، فاذا عادوه وكثروا عليه اوشكوا أن يهلكوه . فان لم يكن هذا فهو اذن القدر الذي لا يدفع » (ص161) . وجاء على لسان الثور ان « خير السلطان من اشبه النسور حولها الجيف ، لا من اشبه الجيف حولها النسور» (ص 166).

في بعض الاحيان يلاحظ المرء التطابق الكلي في الراي ، بل وحتى التقارب في التعبير بين «الامير» و «كليلة ودمنة» . فقد ورد على لسان كليلة ، مثلا ، ان «الرجل الضعيف ، بالرفق والحيل يظفر بهم، وبالحيل يركب الفيل ، ويأخذ الحية ويلعب بها ، ويصير الاسد في التابوت ، ويجري الماء على موضع مايريد ، ويمنع مضرة النار والريح والشمس ،ويستخدم القوي»(ص 172) . وان «السلطان اذا كان صالحا ، ووزراؤه غير صالحين ، قل خيره على الناس وامتنع منهم فلم يجتر عليه احد ، ولم يدن منه .. وانما حلية الملوك وزينتهم قرابينهم ان يكثروا ويصلحوا» (ص 173–174) . ومن اقوال دمنه للاسد : «... ايها الملك لاترحم من تخافه ، فان الملك الحازم ربما ابغض الرجل واقصاه ، ثم تكاره عليه ، فقربه وولاه لما يعرف من عنائه وفضله ، فعل المتكاره على الدواء البشع رجاء منفعته ومغبته . وربما احب الرجل وادناه ، ثم اهلكه واستأصله ، مخافة ضره ، كالذي تلدغ الحية اصبعه فيقطعها مخافة ان ينتشر السم في جسده كله فيقتله» (ص 180). و «انما السبب في الوجه الذي يستقيم العمل ان يكون الملك عالما بمودة من يريد الاستعانة به ، وما عند كل رجل منهم من الراي والغناء ، وما فيه من العيوب .. ثم على الملك بعد ذلك تعاهد عماله والتفقد لامورهم حتى لايخفى عليه احسان محسن ولا اساءة مسيء . ثم عليهم الا يتركوا محسنا بغير جزاء ولا يقروا مسيئا ولاعاجزا

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

على العجز والاساءة . فانهم ان ضيعوا ذلك وتهاونوا بـه تهاون المحسن واجترأ المسيء ، ففسد الامر وضاع العمل»(ص 348) .

ومن اقوال الفيلسوف للملك : «ايها الملك اني وجدت الامور التي يختص بها الانسان من بين سائر الحيوان اربعة وفيها جماع كل ما في العالم وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل . فالعلم والروية داخلة في باب الحكمة . والحلم والصبر والرفق والوقار داخلة في باب العقل . والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة . والصدق والمراقبة والاحسان وحسن الخلق داخلة في باب العدل . وهذه هي المحاسن واضدادها هي المساويء فهي ان كملت في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمته الى سوء حظ في دنياه او الى نقص من عقباه ولم يتأسف على مالم يغن التوفيق ببقائه ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه ولم يندهش عند مكروه يقدمه . والحكمة كنز لا يفنى مع الانفاق وذخيرة لا يضرب لها بالاملاق ، وحلة لاتخلق جدتها ولذة لا تتصرم مدتها»(ص 76) .

وعندما تقرأ الاسطر التالية تحس وكأن الفيلسوف بيدبا يخاطب ميديتشي على لسان مكيافيللي في اهدائه «الامير» : «فاقول ايها الملك انك في منازل آبائك من الملوك واجدادك من الجبابرة الذين انشأوا المدن قبلك ودانت لهم الارض وبنوا القلاع وقادوا الجيوش واستحضروا العدة وطالت لهم المدة واستكثروا من السلاح والكراع وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور فلم يمنعهم ذلك من اكتساب الجميل ولا قطعهم عن اغتنام الشكر»(ص 77–78) .

ومن الجدير بالذكر ان التشابه بين امور معينة وردت في قصص «كليله ودمنه» ومؤلفات مكيافيللي لاينفي ، من جانب آخر ، وجود اختلاف بينهما . فان مكيافيللي ، مثلا ، لم يعط القدر والحظ الا 50٪ في تقرير الامور ، بينما جاء على لسان الفيلسوف متوجها الى الملك في «كليله ودمنه» : «ليعرف اهل النظر في الامور والعمل بها ان الاشياء كلها بقضاء وقدر» (ص 350) . وان «الاجتهاد والجمال والعقل وما اصاب المرء من خير وشر فبقضاء وقدر» (ص 348) . وهنا يجب ان نأخذ بنظر الاعتبار ان مكيافيللي قد تأثر كذلك بأرسطو ، الا انه اختلف عنه ايضا في نقاط محددة ، او على الاقل في اسلوب عرضه لما كان يعالج ، ولا سيما في اعتماده المستمر على الشواهد التاريخية .

على اية حال اننا عندما نقول باحتمال تأثر مكيافيللي بحكم «كليله ودمنه» او اطلاعه عليها ، فاننا لا نستبعد ايضا ان يكون التقاء بعض ما ورد في الاخيرة مع افكار مكيافيللي نابعا من مجرد الصدفة او رد الفعل المتشابه على ظروف متشابهة . وفي الواقع ان هناك بعض التشابه بين تقييمات مكيافيللي وابن خلدون كذلك ، لكن دون ان تتوفر ادلة ثابتة تبين اطلاع الاول على مقدمة الثاني(109) . فقد استرسل ابن خلدون بدوره في وصف ما ينبغي ان يكون عليه الحاكم المثالي ، دون ان يصر على مهماته الروحية واقتصر على وصفه « بالملك المستنير ، العطوف ، القوي ، ولكنه يرفض اجراءات «القمع» اللاشرعية ، ويهتم برفاهية شعبه وبأمنه»(110) . وهو بذلك استهدف بدوره قيام الدولة المستقرة ، القوية، المنظمة ، دولة يستطيع فيها الملك ان يمسك بزمام الامور ضد كل انواع الطامعين . ثم انه في بحثه عن الحقيقة اكتفى بعرض الوقائع المادية وشرحها وبالبحث عن القوانين التي تقود تطورها . وفي راي هلمون ريتر ان ما يسميه ابن خلدون بالعصبية ، هو ما اطلق عليه مكيافيللي اسم الفضيلة(111) .

ومن المفيد ان نذكر ان ابن خلدون الذي لم يظهر في آرائه متعارضا مع العقيدة ، اتهم ايضا بالزندقة . كما ان العديد من المؤرخين نظروا الى افكاره من علماء القرنين التاسع عشر والعشرين واهملوا بشكل خاص «البحث في اسباب ظهور هذا الاثر التاريخي الخارق (المقدمة ـ ك.م.) في القرن الرابع عشر»(112). وهو نفس ما حدث مع مكيافيللي كما بينا ذلك في حينه .

اهتم الحكام الشرقيون بأفكار مكيافيللي في وقت مبكر نسبيا . فيعتقد كتاب «الامير» قد ترجم خصيصا للسلطان العثماني مراد الرابع الذي اتبع اساليب مكيافيللية في التخلص من الخصوم وفرض هيبة الحكم على الناس ، ولكن بشكل بعيد جدا عن القيم التي توخاها مؤرخ النهضة الكبير . فيقدر عدد الذين قتلوا بأمر مباشر منه بحوالي 100 الف شخص ، يدخل بضمنهم ثلاثة من اخوته واحد اعمامه . وفي العام 1637 عندما كان الطاعون يقضي يوميا على حياة حوالي 500 نفس من سكان العاصمة استانبول ، كان هو يقضي ليالي حمراء مع محضياته ويقول متهكما ان «الله يعاقب هذا الصيف الاشرار ، وربما في الشتاء يأتي على الاشراف»(112) .

ولم يقل اهتمام محمد علي الكبير بـ «الامير» عن اهتمام اي من حكام اوروبا السابقين او المعاصرين له . وليس ذلك بأمر غريب على حاكم ناجح مثل محمد علي الذي قال ماركس عن مصر في عهده انه «الجزء الوحيد القادر على الحياة في كل الامبراطورية العثمانية» . فانه بالرغم من عدم تعلمه للقراءة والكتابة الا في سن متاخرة من عمره، كان يهتم بكل ما يتعلق بنظم الحكم ، مما شكل واحدا من اسرار نجاحه الكبير .

بعد ان عرف محمد علي اهمية «الامير» عن طريق الدبلوماسيين الاجانب كلف الاب روفائيل انطوان زاخور(113) بترجمته الى العربية في حوالي العام 1824–1825(114) لانه ، كما ذكر بنفسه ، « جد مشوق لمعرفة ما يتضمنه هذا الكتاب». والطريف ان محمد علي بعد اطلاعه على «الامير» قيمه في لقاء له مع دبلوماسي ايطالي بهذا الشكل:
« انكم تثيرون في ايطاليا ضجة كبيرة حول كاتبكم المعروف مكيافيللي ، وقد امرت بترجمة كتابه .. لكي اعرف ما فيه ولكنني اعترف بانني وجدته اقل بكثير مما كنت اتوقع ، ومن الشهرة التي له. وانني اعلن اليك ايضا ان هناك مؤلفا آخر عربيا اثار دهشتي ونال اعجابي .. هو مقدمة ابن خلدون . ان هذا الكاتب اكثر حرية في تفكيره من مكيافيللي ، بل انني اعتقد ان كتابه اكثر واشد نفعا ، واذا كان كتاب مكيافيللي ممنوعا تداوله في بعض البلاد الاوروبية ، افما كان من الاجدر ان يكون المنع اتم واعم بالنسبة لمقدمة ابن خلدون ؟».

ولا شك في ان الذي اثر على راي محمد علي ضعف ترجمة «الامير» وركاكة اسلوبها التي جعلتها صعبة الفهم ، غير قابلة للنشر(115) . مع ذلك فان لتلك الترجمة اهميتها التاريخية لكونها اول تعريب لكتاب «الامير» الذي ترجمه مرة اخرى المحامي المصري محمد لطفي جمعه من الايطالية في العام 1911 ونشره في العام 1912 تحت عنوان « كتاب الامير . وهو تاريخ الامارات الغربية في القرون الوسطى»(116) . استهل المترجم الكتاب بمقدمة وافية تقع في 50 صفحة (117) يستعرض فيها نواحي مختلفة من حياة مكيافيللي ومؤلفاته باسلوب سلس ، موضوعي . وقد بلغ اعجاب المترجم بمكيافيللى حد انه سافر خصيصا الى ايطاليا وزار قريته وداره ، واتصل في باريس بأحد احفاده . وهو يعبر عن ذلك في مقدمته بأسلوب ادبي ، فمما جاء فيها:

« لما قرات كتاب (الامير) شغفت به وكنت احمله بجانب رباعيات الخيام . اقرأ الخيام لدى حزن النفس وانقباض الصدر لاثمل بخمره المقدسة المطهرة واقرأ «الامير» لأفيق من خمرة الخيال ولاعود الى ميدان الحقائق المؤلمة التي تصطدم فيه جيوش القوى والرغائب وتشتبك به سيوف الحوادث ورماح الكوارث»(118).

واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان قراءة المترجم الاولى « للامير » جعلته «في حيرة لصعوبة ادراك معاني الكتاب ومغزاه» ، واضطراره « لاعادة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكرة بعد المرة» الى ان اكتفى «في نهاية الامر باستيعابه وادراك فحواه»‹119› ، لفهمنا مصدر بعض الثغرات الواردة في ترجمته التي تتميز ، مع ذلك ، بسلاسة الاسلوب ووضوح المعنى مما يعطي امكانية فهم المضمون الاساسي للامير بشكل لا لبس فيه .

ولكن ، حسبما يبدو ، ان هذه الترجمة ‹120› ومقدمة صاحبها لم تلعبا دورا ملموسا في تكوين فكر سليم عن مكياڤيللي وافكاره لدى القارىء العربي والشرقي على العموم ، علما بأن جميع الدلائل تشير الى ان تبلور مثل ذلك الفكر انما يعود الى بداية القرن العشرين‹121›، اي الى عهد لم يعد فيه مفكر او مؤرخ غربي لم يقيّم ، مهما تحيز ، مؤلفات مكياڤيللي ايجابا ، منهم المؤرخ الجزويتي (ليسلي وكر) عميد كلية كامبيون في جامعة اكسفورد سابقا . وفي الواقع قلما يوجد مؤرخ معروف معاصر لم يقيّم مكياڤيللي عاليا .

آراء معاصرة :

تطرقنا فيما سبق الى آراء عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين الذين فهموا واقع افكار مكياڤيللي فقيموها عاليا . وكان من الطبيعي الا يقتصر الامر على هؤلاء . ففي عصرنا عالج عدد كبير من المفكرين والكتاب المنتمين الى مدارس فكرية متباينة الموضوع نفسه فأبرزوا مكياڤيللي مؤرخا وعالما سياسيا كلما تناولوا عصر النهضة او تطور علم السياسة او تقدم الدراسات التاريخية . وبين هؤلاء عدد غير قليل من المؤرخين الغربيين المعروفين الذين يتمتعون بسمعة رفيعة في الشرق حيث ترجمت مؤلفاتهم الى لغاته ، ولكن دون ان يؤثر ذلك على الراي الشائع عن مكياڤيللي بين ابنائه . وهنا نقتصر على ذكر نماذج قليلة من آراء المؤلفين الاجانب لنختتم بها بحثنا عن مؤرخ النهضة الكبير .

جاء في (الانسكلوبيديا البريطانية) قولها عن مكياڤيللي :

«كان الكاتب ورجل الدولة الايطالي نيكولو مكياڤيللي مفكرا وطنيا عبقريا ، ولد فهمه الحاذق للسياسات المعاصرة له وادراكه العميق لطبيعة الانسان افضل النتاجات التي غالبا ما اعتبرت خطأ اعمالا فاسدة او ساخرة .. انه كان رجلا مستقيما ومواطنا جيدا وابا رائعا .. كان كاتبا عظيما لانه كان مفكرا عظيما.. »‹122›.

اما «الانسكلوبيديا الامريكية» فانها تعتبر مكياڤيللي رمزا للانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث ، وتربط « واقعية فكره السياسي» بخدماته التي قدمها للنظام الجمهوري الفلورنسي ، وتقيم صراحته عاليا ، كما تؤكد بان «مكياڤيللي لم يذكر بأن لا قيم في السياسة ، بل بان للاخيرة قيمها الخاصة بها ، وان مثل هذا المبدأ يبدو عادلا ، بل وحتى يعتبر تنبوءا بالنسبة لعصر اعتبر فيه تحقيق الوحدة القومية واقامة الدولة القومية الهدف الاسمى الذي يبدو كل شيء آخر في ظله ثانويا»‹123›.

وفي نظر «الانسكلوبيديا الفلسفية» السوفيتية فان مكياڤيللي كان واحدا من ابرز المفكرين الطليان الذي حاول « الكشف عن قوانين تطور المجتمع بمعزل عن اللاهوت» ، ونظر الى الدولة والحكام نظرة واقعية وكتب من اجل الوحدة الايطالية عن ايمان مخلص‹124›. وقد ورد نفس الشيء تقريبا في «الانسكلوبيديا التاريخية السوفيتية»‹125› والطبعتين الثانية والثالثة من « الانسكلوبيديا السوفيتية الكبرى»‹126› . وقد جاء في الجزء الرابع من «تاريخ العالم» : « ان الاثار المميتة لانقسام ايطاليا كانت واضحة الى درجة ان بعض ممثلي البورجوازية الاكثر تقدمية طالبوا في القرن السادس عشر بالوحدة الايطالية . والاول من بين هؤلاء هو المفكر السياسي والمؤرخ المعروف نيكولو مكياڤيللي»‹127›. وقد اعطى المؤرخ الامريكي كارلتون هيس تقييما مشابها لمكياڤيللي‹128›.

يعترف اليوم اكثر الناس تعصبا للجزويت واقلهم عطفا على مكياڤيللي‹129› انه «اكتشف طريقة جديدة في البحث و ... ابتكر اسلوبا جديدا في معالجة السياسة بالاضافة الى نظرياته السياسية الجديدة» واستشف «الحوافز والدوافع التي تقوم وراء الحركات السياسية بمنتهى الدقة والحدة» ، لذا فانه «يعتبر من اكثر الكتاب البارزين واوسعهم تاثيرا على الشؤون السياسية في العالم» مما يجعل «آراءه في المشاكل السياسية جديرة بالدرس والتقصي العميقين»‹130›. وهناك من يعتبره ، ومن المنطلق نفسه ، «ابا للعلوم السياسية»‹131›، او «رسولا للدولة القومية الحديثة»‹132›.

اكد المؤرخ الامريكي روبرت بالمر في اثنين من مؤلفاته على ان مكياڤيللي يعد «الابرز بين كتاب عصر النهضة الايطالية» وبأن «الامير» «اعظم اثر خالد» يعود الى ذلك العصر ، وبأن مكياڤيللي كان «يحلم باليوم الذي يسلك فيه سكان فلورنسة ، او بالاحرى جميع الايطاليين، مسلك الرومان القدماء باظهار الرجولة في مجالاتهم السياسية ويحاربون في صفوف جيش المدن بدافع الاهداف الوطنية فيرفعون كرامتهم عاليا أمام اوروبا»‹133›.

وهناك من المؤرخين الايطاليين المعاصرين من يعتبر مكياڤيللي ثائرا‹134› و «رسولا اعزل»‹135›. وقلما يوجد بين المؤرخين اليوم من لايقر بأن مكياڤيللي «كان مواطنا جيدا وصديقا حميما وابا حريصا، وطنيا ، بل وحتى مثاليا»‹136›.

في الامكان ايراد عشرات الامثلة الاخرى من هذا القبيل ، ولكن نكتفي بذكر هذه الصورة المعبرة التي قدمها ا. ف. جيفيليكوف في بحثه عن مكياڤيللي :

« لم تستطع ايطاليا ان تتوحد . لماذا ؟ هذا هو السؤال الذي وجهه نيكولو الى نفسه . نحن نعلم جوابه (جواب مكياڤيلي ـ ك.م.): اولا لانعدام الوحدة السياسية في ايطاليا وثانيا لأنه لايوجد في ايطاليا جيش وطني سواء من ابنائه او من المرتزقة . اذن ما العمل ؟ ومرة اخرى كان الجواب واضحا للغاية : اقامة الوحدة وتاسيس الجيش. ولتحقيق ذلك كان لابدمن توضيح الاساليب العملية .وفي تفكيره بصدد ذلك وضع مكياڤيللي اسس علم السياسة ، بالضبط مثلما فعل كولومبس عندما بحث عن طريق الى الهند فوجد امريكا»‹137›.

ان كل ما سبق يعطي مكياڤيللي الحق ، كل الحق ، ليطالب الشرقيين بأن يروه كما هو ويقيّموا افكاره كما هي ، فـ :

«انّى للمديح ان يفي هذا الاسم حقه !»

الهوامش

(1) كان مكياڤيللي يبلغ من العمر 12 عاما عندما قرا اول كتاب في التاريخ.

(2) R. Ridolfi, The Life of Niccolo Machiavelli, translated from the Italian by G. Grayson, Chicago, 1963, p. 3.

(3) ا.ك. جيفيليكوف ، نيكولو مكياڤيللي (1469–1527) ، موسكو لينينغراد ، باللغة الروسية ، ص 24 .

(4) R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 9-12; F. Chabod, Machiavelli and the Renaissance, translated from the Italian by D. Moore, Cambridge, 1960, pp. 7-9;

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ف. روتينبورغ ، عمالقة النهضة ، باللغة الروسية ، لينينغراد ، 1976، ص 120–121.

(5) R. Ridolfi, Op. Cit., p.4.

(6) F. Chabod, Op. Cit., p. 126.

(7) ا.ك. جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 34 .

(8) نفس المصدر ، ص 32 .

(10) ف. روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 120 .

(11) راجع :

H. Butterfield, the Statecraft of Machiavelli, London, 1960, p. 125.

(12) نعود الى تفاصيل مؤلف مكيافيللي الضخم « المطارحات » او «المساجلات» في مكان آخر من هذا البحث .

(13) كانت صناعة الاقمشة تعتبر يومذاك من اربح المهن لا في ايطاليا فحسب، بل على صعيد كل القارة الاوروبية .

(14) ورد ذلك في رسالة له بعثها الى صديقه فيتوري (راجع: .(F. Chabod, Op. Cit., pp. 131-132).

(15) ا.ك.جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 19 .

(16) F. Chabod, Op. Cit., pp. 4,126,134-135.

(17) R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 145,156.

(18) F. Chabod, Op. Cit,. p.132.

(19) Ibid, p.129.

(20) نيكولا الكسييف ، نيكولو مكيافيللي ، باللغة البلغارية ، صوفيا ، 1908 ، ص 27–28 ، ف.روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 122–123 ، ل.م.باتكين ، الانسانيون الطليان : اسلوب الحياة ، اسلوب التفكير ، باللغة الروسية ، موسكو ، 1978 ، ص 58–59 .

"The Prince", London, 1968, pp. 18-19 (the Introduction by G. Bull).

(21) تيتوس ليفي (Titus Livius) (59 قبل الميلاد ـ 17 بعد الميلاد) مؤرخ روماني معروف قضى 45 عاما في تاليف مؤلفه الضخم «تاريخ روما منذ تاسيس المدينة» الذي كان يقع في 142 مجلدا بقيت منها 35 فقط . والكتب العشرة الاولى من هذا المؤلف والتي اعتمدها مكيافيللي مصدرا اصليا لكتابه «المطارحات» تحتوي على ذكر الاحداث التي وقعت حتى العام 293 ق.م.

(22) ذكر مكيافيللي ذلك في كلمة الاهداء التي استصدر بها كتابه «المطارحات» .

(23) F. Chabod, Op. Cit., p. 24.

(24) F. Gilbert, Machiavelli and Guiccardini. Politics and history in sixteenth century Florence, Princeton, 1965, p. 199.

(25) R. Ridolfi, Op. Cit, pp. 165-175 .

(26) "The Prince", p.15 (the Introduction).

(27) R. Ridolfi, Op. Cit,, pp. 249-250.

(28) اعتمدنا على التراجم العربية والروسية والانكليزية لكتاب الامير .

(29) راجع : الين فيدرين ، مكيافيللي ، ترجمة اميرة الزين ، بيروت ، بلا ، ص 32–33 .

(30) R. Palmer and J. Colton, A history of the Modern World, third edition, NewYork, 1965, p. 55.

(31) ذكر مكيافيللي قوله الشهير هذا تعليقا على هجوم الفرنسيين على ايطاليا وتقدمهم السريع فيها في العام 1499 (راجع : «تاريخ ايطاليا»، باللغة الروسية ، الجزء الاول ، تحت اشراف الاكاديمي س.د. سكازكينه ، موسكو ، 1970 ، ص 455).

(32) اعتمدت بالاساس على الترجمة العربية لهذا الكتاب (راجع : «مطارحات مكيافيللي» تعريب خيري حماد ، بيروت ، 1962) .

(33) هو العمل الوحيد الذي نشر في حياته في العام 1521 .

(34) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., p. 55.

(35) J. Plamenatz, Man and Society. A critical examanation of some important Social and Political theories, from Machiavelli to Marx, Vol. 1, tenth impression, London, 1977, pp. 1,7.

(36) تطور الاقتصاد الايطالي في اواخر العصر الوسيط بوتائر اسرع من الاقطار الاوروبية الاخرى وذلك بفضل تجارتها المزدهرة مع الشرق وتقدم انتاجها الحرفي ، بحيث شهدت ايطاليا ميلاد البوادر الاولى للعلاقات والانتاج الراسمالي والفئات والطبقات الاجتماعية الجديدة في كل العالم.

(37) H. Butterfield, Op. Cit., pp. 114-115.

(38) للتفصيل راجع : و.ل. فاينشتين ، علم التاريخ الاوروبي الغربي في العصر الوسيط ، باللغة الروسية ، موسكو ـ لينينغراد ، 1964 ، ص 286 .

(39) كان الايطاليون يطلقون على غيرهم من الشعوب الاوروبية اسم البربر كناية عن تخلفهم بالقياس معهم .

(40) W. Lewis, The Lion and the Fox. The role of the hero in the Plays of Shakespeare, London, 1966, p. 69;

و.ل. فاينشتين ، المصدر السابق ، ص 285–286 .

(41) و.ل. فاينشتين ، المصدر السابق ، ص 279 .

(42) H. Butterfield, Op. Cit., p. 97.

(43) راجع على سبيل المثال : الين فيدين ، المصدر السابق ، ص 32 ،

J. Plamenatz, Op. Cit., P. 13.

(44) "The Prince", p.20 (the Introduction).

(45) مقتبس من : ف. روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 122 .

(46) مدينة فرنسية تقع الى الجنوب الشرقي من باريس وهي كانت مقرا للبلاط الملكي .

(47) مقتبس من : ف روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 122 .

(48) بورجيه اسرة نبيلة معروفة تنتمي الى اصل ارغوني اسباني انتقلت الى ايطاليا في القرن الخامس عشر . برزت هذه الاسرة بفضل الفونسو بورجيه الذي اصبح بابا في العام 1455 . وقد اصبح الكسندر السادس ، وهو من اقربائه ، بابا خلال الفترة 1409–1503 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(49) H. Butterfield, Op. Cit., pp. 131-132; "The Prince", pp. 22-23 "the Introduction).

(50) «تاريخ ايطاليا» (المصدر المذكور سابقا) ، ص 335–336 ،

R. Rodilfo, Op. Cit., pp. 53-64; J. Plamenatz, Op. Cit., p.14.

(51) F. Chabod, Op. Cit., pp. 94-95; R. Ridolfi, Op. Cit., p.9.

(52) الين فيدرين ، المصدر السابق ، ص 62 .

(53) J. Plamenatz, Op. Cit., p. 33.

(54) لهذا الراي اهميته الكبيرة ، لان مكيافيللي كان يعتبر الرومـــــان النموذج الامثل الذين يجب على الطليان ان يحذواحذوهم .

(55) F. Chabod, Op. Cit., pp. 140, 142; F. Gilbert, Op. Cit., pp. 176-177.

(56) J. Plamenatz, Op. Cit., p. 42.

(57) S. H. Sabine, A history of Political theory, New York, 1950, pp. 337, 338.

(58) «الاخوية اليسوعية» او «الاباء اليسوعيون» .

(59) R. Weiss, The spread of Italian Humanism, London, 1964, p. 84.

(60) العنوان الكامل للكتاب هو :

"Discours sur les Moyens de bien gouverner et maintenir en bonne paix un Royaume ou autre Principaute-Contre Nicholas Machiavel", Florentin, 1576.

(61) راجع :

W. Lewis, Op. Cit., pp. 64, 71-72.

(62) Ibid, p. 71.

(63) Ibid, p. 66.

(64) Ibid, p. 69.

(65) Ibid, p. 72.

(66) "The Prince", p.9 (the Introduction).

(67) "Anti-Machiavel".

(68) مقتبس من : و.ل. فاينشتين ، المصدر السابق ، ص 268 .

(69) W. Lewis, Op. Cit., P. 102.

(70) يقصد بانه لو وجد امير يعتبر نفسه تلميذا لمكيافيللي لكـان بأمـره ان يقلد فردريك الكبير في تاليف كتاب ضد المكيافيللية .

(71) W. Lewis, Op. Cit., pp. 102-103 .

(72) Ibid, p.105.

(73) "Renaissance and Reformation 1300-1648", Edited by G.R. Elton, Second edition, New York, P. 109.

(74) راجع : الين فيدرين ، المصدر السابق ، ص 92 .

(75) A. Ridolfi, Op. Cit., p.9.

(76) راجع : الين فيدرين ، المصدر السابق ، ص 12–13 .

(77) مكيافيللي ، الامير ، ص 6 «المقدمة» .

(78) "The Civilization of the Renaissance in Italy", An Essay by J. Burckhardt, New-York and Toronto, p. 93.

(79) ا.ك. جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 67 .

(80) ف . روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 112–113 .

(81) انطونيو غرامشي ، الامير الحديث . قضايا علم السياسة في الماركسية، ترجمة زاهي شرفان وقيس الشامي ، بيروت ، 1970 ، ص 35

(82) R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 196-197.

(83) من بين المصادر العديدة التي رجعت اليها لاعداد هذا البحث فان جيفيليكوف وحده الذي اولى هذا الموضوع المهم مايستحق من عناية

(84) ا.ك. جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 103 .

(85) مقتبس من نفس المصدر ، ص 106 .

(86) نفس المصدر ، ص 107 .

(87) القول مقتبس من نفس المصدر ، ص 111 .

(88) اشار معظم المؤرخين الى هذه المقولة بشكل مجرد ، اي دون ان يشيروا الى الظروف التي قيلت فيها والتي تعطيها اهمية استثنائيـة (راجع على سبيل المثال :

.(R. Ridolfi, Op. Cit., p. 241; F. Chabod, op.Cit., p. 142.

(89) استخدم مكيافيللي مصطلح «الرسول الاعزل» عند حديثه عن الراهب الفلورنسي الثائر المعاصر له سافونارولا . واكد بهذا الصـــدد ان الانتصار لم يكن ، ولن يكون ، الا من نصيب الرسل المسلحين (الامير، الباب السادس) .

(90) توفي بسبب مرض في معدته قد يكون للقلق تاثيره الكبير عليه .

(91) يعتبر العديد من المؤرخين مكيافيللي ، لافرانسيس بيكون ، مبتكـرا للطريقة الاستقرائية .

(92) مقتبس من : ف.ي. روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 111 .

(93) بالرغم من تلك الحملة فقد ظل السياسيون يتداولون « الامـــير » على نطاق واسع (راجع :

C. Hayes, Modern Europe to 1870, New York, 1959, p. 26).

(94) ف.ي. روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 114 .

(95) راجع : «الانسكلوبيديا الفلسفية» ، باللغة الروسية ، الجزءالثالث، موسكو ، 1964 ، ص 280.

(96) كان فولتير على اتصال وثيق بعدد من ملوك اوروبا الذين اظهـــروا انفسهم مؤازرين لحركة التنوير ، منهم فردريك الكبير والقيصـــرة الروسية كاترين الثانية .

(97) راجع : ا.ك. جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 70 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(98) ك. ماركس و ف. انجلس ، المؤلفات ، باللغة الروسية ، الطبعة الثانية ، الجزء الاول ، ص 111 .

(99) اختار ف.ي. روتينبورغ قول انجلس عنوانا لكتابه عن النهضة (راجع الهامش رقم 4) .

(100) ك. ماركس و ف. انجلس ، المؤلفات ، الجزء 20 ، ص 346 .

(101) عند البحث في الطبعة الاخيرة من المجلدات الخمسة والخمسين من مؤلفات لينين لم نجد اي اشارة الى مكيافيللي .

(102) راجع : «المطارحات» ، المقدمة ، ص 15–17 ، ف.ي. روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 114 ،
H. Butterfield, Op.Cit., pp. 81-83.,;J. Plamenatz, Op. Cit., p.42; J.R. Strayer and others, The Mainstream of Civilization, New York, 1974, p. 408.

(103) "The Prince", p. 22 (The Introduction)

ومن المؤلفين من يعتبر نابليون بونابرت «التعبير الصادق» للمكيافيلية (راجع مثلا :ـ
H. Butterfield, Op. Cit., p. 102).

(104) راجع : انطونيو غرامشي ، المصدر السابق ، ص 43 وغيرها .

(105) سانتياغو كاريللو ، الاوروشيوعية والدولة ، ترجمة د. سعاد محمد خضر ، بغداد ، 1978 ، ص 14 .

(106) مقتبس من : ا.ك. جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 101 .

(107) "The Prince", p. 21 (The Introduction).

(108) اعتمدنا على النسخة التي حققها وعلق عليها ونسقها الشيخ الياس خليل زخريا ، بيروت ، 1963 .

(109) ينوي الزميل الدكتور ناجي حسن معالجة هذا الموضوع في بحث مستقل.

(110) راجع: ايف لاكوست ، العلامة ابن خلدون ، ترجمة الدكتور ميشال سليمان ، بيروت ، بلا ، ص 156 .

(111) نفس المصدر ، ص 129 .

(112) نفس المصدر ، ص 169 .

(112A) Creasy, History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961, pp. 252-253.

(113) احد المترجمين السوريين الذي عمل لدى الفرنسيين ايام حملتهم على مصر ومع محمد علي الكبير في عهده .

(114) للتفصيل راجع : الدكتور جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، القاهرة ، 1951 ، ص 78–82، 166–167 ، 216 .

(115) عن ركاكة الترجمة راجع المقارنة التي اجراها الدكتور جمال الدين الشيال في ص 216 من كتابه . ومن الجدير بالذكر ان مخطوطة هذه الترجمة مازال محفوظة في دار الكتب المصرية .

(116) «كتاب الامير . وهو تاريخ الامارات الغربية في القرون الوسطى» ، تاليف نيقولا مكيافيللي ، تعريب محمد لطفي جمعة المحامي ، القاهرة ، 1912 .

(117) نص «الامير» في ترجمته العربية الثانية يقع في 148 صفحة .

(118) نفس المصدر ، ص 35 .

(119) نفس المصدر ، ص 33 .

(120) صدرت في العام 1960 ترجمة عربية جديدة للامير انجزها خيري حماد، وقد نشرت حتى الان طبعات عدة لهذه الترجمة التي تضم الى جانب نص «الامير» تعليق موسوليني عليه مع مقدمة ضافية لكريستيان غاوس وتعقيب لفاروق سعد ورد كملحق في نهاية الكتاب .

(121) ان المحامي محمد لطفي جمعه الذي ، كما يبدو من مقدمته للامير واسلوب ترجمته له ، كان ذا ثقافة رفيعة ، ولكنه ، مع ذلك ، لم يسمع بمكيافيللي الا من طريق احد الاوروبيين الذي جلب لثناؤه الكبير واستشهاداته المستمرة بمكيافيللي نظر المحامي المصري فعزم على البحث عن «الامير» وترجمته .

(122) "Encyclopedia Brittannica", Vol. XI, Chicago-London, 1974, pp. 227,230.

(123) "Encyclopedia Americana", Vol. 18, New York, 1976, pp. 52-53.

(124) «الانسكلوبيديا الفلسفية» ، باللغة الروسية ، الجزء الثالث ، موسكو ، 1964 ، ص 280–281.

(125) «الانسكلوبيديا التاريخية السوفيتية» ، باللغة الروسية ، الجزء الثامن ، موسكو ، 1965 ، ص 933–934 .

(126) «الانسكلوبيديا السوفيتية الكبرى» ، باللغة الروسية ، الطبعة الثانية ، الجزء 25 ، موسكو ، 1954 ، ص 106–107 ، الطبعة الثالثة ، الجزء 15 ، موسكو ، 1974، ص 24 (709–711) .

(127) «تاريخ العالم» ، باللغة الروسية ، الجزء الرابع ، موسكو ، 1958 ، ص 115 .

(128) C. J. Hayes, Op. Cit., pp. 18, 115.

(129) نقصد به الجزويتي ليسلي وكر العميد السابق لكلية كامبيون

(130) راجع ص 19 و 22 من مقدمة ليسلي وكر في «المطارحات» .

(131) "Action and Conviction in Early Modern Europe", editors J.K. Rabb and J. E. Seigel, Princeton, New Jersey, 1969, p. 26.

غدت صفة مؤسس علم السياسة ملازمة لمكيافيللي منذ ما لايقل عن نصف قرن .

(132) F. Gilbert, Op. Cit., pp. 183, 199.

(133) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., pp. 43, 55;

روبرت بالمر ، تاريخ العالم الحديث ، الجزء الاول «اوروبا من القرون الاولى حتى 1740 ميلادية» ، ترجمة الدكتور محمود حسين الامين، الموصل ، 1964 ، ص 304 ، 106–107 .

(134) راجع : ف.ي. روتينبورغ ، المصدر السابق ، ص 107–108 .

(135) R. Ridolfi, Op. Cit., pp. 251-254.

(136) R. Weiss, The Spread of Italian Humanism, London, 1964, p. 83.

(137) ا.ف. جيفيليكوف ، المصدر السابق ، ص 91 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخ القهوة

القهوة ـ كلمة عربية لا يعرف اصلها وهي اساس جميع الكلمات التي تعني شراب القهوة في جميع لغات العالم . وكلمة القهوة في اللغة العربية تعني الخمر وقد جاءت كثيرا في الاشعار العربية القديمة وتحولت بعد ذلك الى اسم شراب ثمرة شجرة البن في اليمن حوالي القرن الرابع عشر وبعض العلماء لايرون هذا الراي ويعتقدون ان اسم القهوة اخذ من مدينة (قفه) في الحبشة وهي مشهورة بزراعة شجرة البن ولو انهم لا ينفون علاقة الاسم بالقهوة التي تعني الخمر في العربية . والقائلون بهذا الراي لا يقدمون البرهان على انتقال كلمة القهوة في القرن الرابع عشر من الحبشة الى اليمن لانهم لا يعرفون هذا الاسم في تلك الاصقاع الحبشية والكلمة المستعملة في الحبشة وما جاورها من البلدان هي البن الذي يطلق على اسم الشجرة وعلى ثمرها . واذا عرفنا ان شرب القهوة قد انتشر بين الحلقات الصوفية في اليمن وان شعراء الصوفية يتغنون بالخمر الروحية في اشعارهم يمكننا القول ان كلمة القهوة التي تعني الخمرة قد استعارها الصوفيون للشراب الجديد عندما اعتادوا عليها في محافلهم .

ان شجرة البن لم تنبت وتتاصل في جنوب الجزيرة العربية ولكنها انتقلت الى العرب من الحبشة حيث كانت تنمو هناك بصورة وحشية ولاسيما في منطقة (قفه) الحبشية . ولكن ليس لدينا دليل على ان الشجرة زرعت في اليمن بعد ان استولى الاحباش على اليمن قبل الهجرة بقرن من الزمن وسقوط المملكة الحميرية ولو كان الامر كذلك لذكرها العرب في اقوالهم وكتاباتهم في تلك الحقبة من الزمن .

ان اول ذكر لشرب القهوة عند العرب كان في القرن السادس عشر فقد افاد (عبدالقادر الجزيري) نقلا عن ابن عبدالغفار (عمدة الصفوة في حل القهوة) :

ان شرب القهوة انتشر في القاهرة من اليمن في القرن السادس عشر وقد استعملها الصوفيون في القاهرة اثناء تهجداتهم ودعواتهم طوال الليل لكي لا يغلبهم النعاس . وذكر (الجزيري) ان اول من اعتاد على شربها الفقيه محمد بن سعيد الذبحاني (المتوفى 1470) الذي سكن مدة قصيرة في ساحل افريقية وعرف هناك شرب القهوة ولما رجع الى عدن تصوف وبقي يشرب القهوة وانتشرت هناك بواسطته .

وقد جاء في كتاب (الجزيري) ان اول من ادخل شرب القهوة هو علي بن عمر الشاذلي . والشاذلي هذا كان قد توفى في عام 1418و كان قد خدم في معية الملك سعد الدين في الحبشة ما بين الفترة 1386–1404 وقد تزوج اخت الملك المذكور ولما انتقل الى مخا في اليمن كان ترد اليه الهدايا من الحبشة وفي (مخا) اسس زاويته الصوفية الشاذلية ، ذكر ذلك المقريزي في (الالمام باخبار من بارض الحبش من ملوك الاسلام) ، وقد أكد عبدالقادر بن العيدروس في كتابه (صفوة الصفوة في بيان حكم القهوة) ان علي بن عمر الشاذلي فقيه (مخا) وعالمها هو الذي ادخل شرب القهوة الى اليمن وذكر ايضا ان الرجل الشاذلي كان يقشر حبة القهوة وبعد ان يطرح القشور ياخذ اللب ويحضر منه القهوة وقد اطرى عليها في شعر من اشعاره ووصفها انها تطرد النوم وتساعد على التهجد في الليل . وقد عد ابن العيدروس شرب القهوة احدى كرامات الشاذلي .

وهناك قصة ذكرها حاجي خليفة ان مؤسس الشاذلية امر تلميذه علي (بن عمر) في (مخا) ان يذهب الى مدينة (اصاب) في الجبال لسوء سلوكه مع ابنة الملك التي جاءت اليه ليشفيها من دائها وهناك في (اصاب) صار علي ياكل القهوة مع مريديه ثم اهتدوا الى عمل شراب منها وبذلك سمح له بالعودة الى مخا لان شرب القهوة كان يشفي من داء الحكة الذي كان منتشرا في مدينة (مخا) وهذا ما ساعده على العودة الى (مخا) من منفاه في (عصاب) .

والشخص الثالث الذي تشرف بادخال القهوة الى بلاد العرب هو ابو بكر بن عبدالله العيدروس . وفي رسالة (لعلوي السقاف) بيان ماخوذ من تاريخ (النجم الغزى) والمقصود ظاهريا بهذا التاريخ (الكواكب السائرة في مناقب علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى) ويقول هذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ترجمة: د. عبدالفتاح .ف. حياوي

عند العرب

البيان ان احد الصوفية ويسمى هنا الشاذلي تعرف على شجرة البن في تجواله في الاقطار واكل من ثمرتها . ولما شعر بفوائدها في تنشيطه صار يجمع الثمر وياكله وينصح مريديه بهذا الطعام وهكذا انتشرت القهوة في البلدان المختلفة . والاشارة هنا الى الصوفي المسمى بهذا الاسم الذي توفي بعدن عام 1508 وله قبر يزار حتى هذا الوقت . ويذكر عبدالقادر بن العيدروس شغفه بالقهوة وينشد قصيدته في مدحها .

ومن جهة اخرى يذكر ابو الحسن محمد البكري في رسالته (اصطفاء الصفوة لتصفية القهوة) ابا بكر العيدروس كمنشىء اول للقهوة .

ويقول المستشرق (كلازر) ان احد المصادر التركية ذكرت ان الوالي (ازدمير) زرع شجرة القهوة في اليمن بعد نقلها من افريقية وذلك في القرن الساس عشر .

ان حقيقة كون فضيلة ادخال القهوة كشراب اعطيت الى اشخاص مختلفين تعني اننا نعتمد الاحوال السائدة في مختلف البلدان . ان قصة (مخا) ثابتة في مختلف المصادر ومعروفة لا يعتريها الشك لذلك فان علي بن عمر الشاذلي الذي يخلط اسمه باسم مؤسس الشاذلية صار رسول القهوة والمبشر بها والداعي اليها واصبح نقيب زراع القهوة واصحاب المقاهي والمدمنين على شربها . وتعرف القهوة في الجزائر (بالشاذلية) تيمنا بالشاذلي الذي نشر استعمالها .

وينسب للشاذلي تاسيس مدينة مخا ولو انها كانت موجودة قبله فقد ذكرها الهمداني قبله ولكنها على اي حال مدينة للقهوة في شهرتها واتساعها . وفي مدينة مخا جامع وبئر وباب مشهورة تؤدي الى ضريح الشاذلي يزوره الناس . (ذكرها نيبور في رحلته وحاج خليفة في كتابه وعبدالكريم الكشميري في كتابه (بيان واقع) المترجم الى الفرنسية) .

وقد تحول الشاذلي والعيدروس باقتران اسميهما بالقهوة الى رهبان مسيحيين ودخلا في القصص المسيحية باسم (شادلي وايدروس) التي الفها (نايروني) . وصار الفنانون المسيحيون يرسمون صور الجمال والماعز التي تاكل ثمر القهوة الوحشية في الغابات وهي ناشطة وسمينة ولا نجدها في المصادر الاسلامية الشرقية . وتقول احدى القصص الخرافية ان شجرة القهوة نبتت من بعر الماعز الذي زرعه احد الرهبان .

وتجمع القصص والاقاويل على ان شرب القهوة انتشر في بلاد العرب من اليمن وان الذين ابتدؤا في شربها والدعاية لها هم الصوفيون اليمانيون . وكانوا مغرمين بها لا يستغنون عنها لمساعدتها لهم في السهر بالليل لاداء فرائضهم الدينية . هذا هو الموضوع الاصلي لمنشأ القهوة عند العرب وانها كانت تساعد على الخير والتقوى والتوصل الى (الفتح) في العبادة كما تقول الصوفية وهو بلوغ اسمى ايات التعبد والتهجد .

ان اقتران شرب القهوة بالتصوف والتعبد واحياء ليالي التهجد قد صار امثولة يحتذى بها وصار نوعا من انواع (الطاعة) . اصبحت القهوة مرادفة للمناسبات الدينية واحياء المواليد والاذكار واطلق عليها اسم (الراتب) كانها معاش للروح والقلب . ويعنون بكلمة الراتب ترديد كلمة (ياقوى) 116 مرة ويعتمدون في تفسير كلمة (القوى) كون حروفها تعادل الرقم 116 اذ ان لكل حرف قيمة عددية معينة فمجموع ارقام حروف (قوى) تساوي 116 كما ان هناك تناسقا صوتيا بين (القهوة) و (القوى) وتناسقا معنويا ايضا اذ ان القهوة تمنح القوة لشاربها كما ان ندب (القوى) وهو من اسماء الله الحسنى ندب لله سبحانه وتعالى . ويوصي الشيخ بن عبدالله العيدروس بقراءة سورة الفاتحة قبل شرب القهوة .

كما ان الشيخ ابن اسماعيل باعلوي الشحري يقول بوجوب قراءة سورة (ياسين) اربع مرات وقراءة الصلوات على النبي مائة مرة قبل شربها كجزء من (الراتب) المفروض في هذه المناسبة . وهكذا فان شرب القهوة اذا اتخذ اداة للنوايا الدينية والتعبد الالهي فانه يصبح شربا للقهوة المعنوية اي القهوة المثالية وتسمى ايضا القهوة الصوفية وهي التي تؤدى الى (المكاشفة) اي التجلي للذات الالهية وكذلك للفتوحات اي الاطلاع على اسرار الالوهية وخفاياها التي يمارسها (اهل الله) ويتمتعون بملذاتها ونشوتها . ويقول علي بن عمر الشاذلي ان شرب القهوة هو كشرب ماء زمزم ويؤدى الى نفس المتعة التي يجتنيها شارب ماء زمزم وهذا الكلام كان يردده ايضا احمد بن علوي ياجحب (المتوفى عام 1565–1566) الذي كان في ايام سنيه الاخيرة انقطع عن الطعام غير ما ياكله ويشربه من ثمار القهوة وكان يقول « ان الذي يموت وفي جسمه شيء من القهوة لاتمسه نار جهنم » . (صفوة الصفوة) .

لم يكن شرب القهوة معروفا في جنوب الجزيرة العربية قبل ابتداء القرن الرابع عشر . اما القول بان شجرة البن كانت معروفة عند العرب قبل ذلك فهو قول مشكوك به . ويتكلم ابن حجر الهيتمي في كتابه (الايعاب) وهو شرح لكتاب (العباب) لعلي بن عمر السيفي على اكثر الاحتمال عن شراب ظهر في مكة قبل القرن السادس عشر وهو يحضر من قشور ثمرة البن وهذه شجرة ادخلت للجزيرة العربية من مدينة (زيلع) ويسمى هذا الشراب بالقهوة (انظر كتاب علوي السقاف) . ومن اقدم العلماء الذين ابدوا رايهم الشرعي في شرب القهوة هو جمال الدين محمد بن سعيد بن علي بن محمد كبين العدمى (المتوفى عام 1438) في مدينة عدن) .

وفي ارجوزة لشرف الدين العمريطي ذكر ان شجرة البن زرعت لاول مرة في مكة : عام 1414–5 وفي كتاب (عمدة الصفوة) نجد ان شرب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القهوة ابتدأ عند العرب في اواخر القرن الخامس عشر وكان يحضر من تنقيع قشور ثمرة البن بينما كان لب الثمرة يؤكل سابقا ككرز (نقل) فقط. ثم تلا ذلك ندرة في شربها لمدة غير قصيرة اعقب ذلك انتشار شربها على نطاق واسع وحتى في المساجد اثناء التعبد وصاروا يعتبرون شربها مقويا ومنشطا في حفلات الذكر والمولد . وفتحت بيوت القهوة في كل مكان لشربها خاصة حيث يجتمع الرجال والنساء للاستماع الى الموسيقى او اللعب بالنرد والالعاب الاخرى للمراهنة . ان هذا الانتشار وتقديم القهوة كما يقدم الخمر في حلقات منتظمة اثار غضب المتدينين والمتزمتين الذين اشاحوا بوجوههم عنها منذ البدء على انها شراب منبوذ ومكروه . وقد التجأ هؤلاء الى (خائر بك) مدير الشرطة الذي عينه (قنسوه الغورى) في مكة عام 1511 . وقد اصدر (خائر بك) هذا مرسوما اعلن فيه ان شرب القهوة حرام في السنة التي تولى فيها ادارة الشرطة في مكة . وقد اجتمع لهذا الغرض مجلس من العلماء من مختلف المذاهب الدينية وقد قرىء راي طبيبين مشهورين عن مضار شربها واعتمد على اراء المدمنين على شربها على انها سامة ومسكرة وخطرة على الصحة ولهذه الاسباب يجب على الناس ترك استعمالها والابتعاد عنها وقد وقع القضاة على مرسوم تحريم القهوة واصبح ساري المفعول اما مفتي مكة فقد جاهر بمخالفته لتلك الاراء المستنكرة واعلن عدم موافقته على تحريمها وهكذا صار عرضة للاستنكار والاستهجان ودارت حوله الريب والشكوك . واستعان اعداء القهوة بفقهاء القاهرة واستصدروا منهم بيانا في استنكارها وصاغوه في عبارات منمقة وبطريقة تبدو وكانها شرعية وعلمية .

اما الجواب الذي اصدره (قنسوه) حاكم مصر على سؤال علماء مكة بشان تحريم القهوة فلم يكن كافيا او شافيا للمكيين اعداء القهوة الالداء لانه لم يقل بتحريمها قطعا بل استساغ اتخاذ الاجراءات اللازمة لمنع المظاهر التي تتعارض مع الدين اثناء شربها واستعمالها . وقد جرى نقاش حاد بين ابن حجر الهيتمي عام 1543 في وليمة عرس حيث قدمت القهوة الى المدعوين وبين المفتي الاكبر الذي ادعى انها مسكرة ومحرمة . وقد اشار ابن حجر الى اجتماع العلماء المكيين المذكور آنفا ولم يال جهدا في استعمال اقسى الكلمات واشدها في الرد على ذلك القرار المجحف الذي قال بتحريمها والطريقة التي توصل بها ذلك القرار (صفوة الصفوة) .

وتنفيذا لقرار جماعة العلماء اصدر خائر بك امرا بمنع شرب القهوة وبيعها وقد عاقب كثيرا من باعتها وتجارها وأمر بحرق المخزون منها وهكذا اختفت (قشور البن) من الاسواق ولم يعد التعامل بها حرا . اما مرسوم (قنسوه) الذي لم يقل بتحريمها فقد جرأ عشاق القهوة على التمتع بها وعوقب احد معارضيها بعقوبات تاديبية من قبل بعض اكابر الموظفين في مصر . وبعد ان عزل (خائر بك) من وظيفته وجاء بعده مدير جديد يهوى القهوة . صار الناس يشربونها علنا وصارت الاجراءات المؤيدة والمناقضة بمثابة دعاية لها فاقبل الناس بلهفة على شربها واستعمالها . وقلت الاجراءات المضادة المتخذة بحق المقاهي التي تقدم القهوة لشرابها ومحبيها ولم نعد نقرا اخبار هذه الاجراءات .

واصدر السلطان العثماني فرمانا بمنع شرب القهوة اثناء تادية فريضة الحج في مكة ولكن هذا الفرمان لم يطبق وشربها الناس ولم يبالوا بالفرمان وذلك في عام 1544 .

وفي القاهرة عرفت القهوة في العقد الاول من القرن السادس عشر وقد ادخلها الصوفية اليمانيون في محلة الازهر وكانوا يشربونها اثناء حلقات الذكر التي كانوا يقيمونها مع اصحابهم من اهالي مكة والمدينة في الجامع الازهر .

وبعد ان انتشرت القهوة في القاهرة ردحا من الزمن وصارت تشرب وتباع علنا اعلن الفقيه احمد بن عبدالحق السنباطي الواعظ المشهور ان القهوة محرمة وذلك في عام (1532 – 33) وبعد عامين من اعلانه هذا القى خطبة في الجامع الازهر هاجم فيها شرب القهوة واثار المصلين ضدها بحيث تحمس هؤلاء وانقضوا على المقاهي في البلدة وحطموها واساءوا معاملة اصحابها والجالسين فيها . ولما اشتد الجدل وحمي وطيس النقاش حول شرب القهوة اخذ القاضي محمد بن الياس الحنفي على نفسه ان يستانس باراء مختلف العلماء وصار يجرب شربها على نفسه ويلاحظ تاثيرها على عقله فتوصل ان شربها غير مؤذ ولا مسكر فاباحها للناس .

وبالرغم من ان شرب القهوة كان يمنع بين فينة واخرى في القاهرة في السنين القليلة بعد ذلك فان عشاقها ومريديها كانوا يتكاثرون ويزيدون حتى بين العلماء الافذاذ .

وهناك ثقاة من العلماء افتوا في مسالة القهوة واباحوها على انها غير محرمة ولا مسكرة منهم زكريا الانصاري (المتوفى 1520)واحمد بن عمر السيفي المتوفى 1523–4 وابو الحسن محمد البكري الصديقي (المتوفى 1543 – 53) الذي نظم الاشعار في وصفها ومدحها واوصى بعدم الاستماع الى راي ابن عبدالحق او فتوى ابى الحسن (صفوة الصفوة) ومنهم عبدالرحمان بن زياد الزبيدي (1567–8) وكثير غيرهم .

وبعد ذلك اصبح الراي السائد في الاوساط الاسلامية ان شرب القهوة مباح وهناك شرط واحد هو ان يتبع في شربها جميع الحدود والاحكام الخاصة بشرب المكيفات في الدين . وان لا يساء استعمالها في بعض الظروف الخاصة .

ان الاتصالات المستمرة مع المدن المقدسة في الحجاز والتردد المستمر على مصر جعل عادة شرب القهوة مالوفة ومستساغة في كل من سورية وايران وتركيا .

ويروى الرحالة (راوفولف) في عام 1573 ان شرب القهوة كان متداولا في سورية ولا سيما في مدينة حلب .

وظهرت القهوة اول ما ظهرت في استانبول وروملي في عهد السلطان سليمان الاول (1520 – 1566) ثم انتشرت في باقي الامبراطورية العثمانية . وفي عام 1554 افتتحت اول مقهى في استانبول افتتحها رجل من حلب وافتتح رجل اخر من دمشق مقهى اخرى في نفس العام وكانت تسمى (قهوه خانة) وكان يؤم هذه المقاهي الطبقة الممتازة من المجتمع من الاغنياء والظرفاء والادباء واضرابهم ممن يلتمسون المتعة والانس وكانوا يقضون اوقاتهم عند شرب القهوة في القراءة او لعب النرد او الشطرنج بينما كان الشعراء يلقون اخر قصائدهم على مسامع معارفهم واصدقائهم لأخذ رايهم في تلك القصائد . وكانت تسمى هذه المقاهي تندرا (بمكاتب العرفان) أي مدارس تلقى العلوم والثقافة واصبحت من المعالم السائدة في استانبول . وصارت المقاهي منتديات راقية يؤمها الموظفون والقضاة وا ساتذة الكليات . وقد تغنى بالقهوة الشعراء امثال (مامين الرومي) وبعده (بليغى) واشادوا بمدحها وفوائدها كما ان طبيب البلاط العثماني (بدر الدين القوصوني) ولم يتردد في الايصاء بشربها وتعداد محاسنها في عام 1522 في عهد السلطان سليمان . ثم زاد عدد المقاهي وانتشرت انتشارا واسعا . وتهافت الناس على الجلوس فيها . وصارت الطبقات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العليا في المجتمع تعين من بين خدمها رجلا خاصا بصنع القهوة وتقديمها وكان يسمى (القهوة جي) وكانت وظيفته الوحيدة هي تحضير شراب القهوة ثم اوجدوا وظيفة خاصة في البلاط تسمى (قهوجي باشي) اي رئيس العاملين في نطاق تحضير القهوة وتقديمها .

وفي الدوائر الدينية صارت المقهى مترادفة مع الامكنة التي تضادد الجامع وجاهر العلماء برأيهم ان المقهى هي اسوأ من الحانة وذلك لان الناس يرتادون المقاهي اكثر مما يترددون على الجوامع للصلاة . وتحمس الوعاظ في خطبهم منددين بشرب القهوة موصين بتحريمها ومنع الناس عن شربها وقد مهد الطريق لهم المفتون والقضاة وافتاؤهم ان حبوب البن المحمصة هي متفحمة ولذلك فهي محرمة . وبما ان المناقشات السياسية كانت تجرى في المقاهي وان اعمال الحكومة كانت تنتقد وتعاب وان المؤامرات كانت تحاك وتدبر هناك فان السلطات الحكومية تدخلت في الامر وصارت تحبذ منع القهوة وتحريمها وصدرت الارادات الملكية في زمن السلطان مراد الثالث (1574 – 95) وفي زمن السلطان احمد الاول (1613 – 17) تامر الناس بالابتعاد عن المقاهي وتمنعهم عن شرب القهوة ولكن تطبيق هذه الارادات السنية لم يجر كما يرام ولم يمتثل لها الناس ونبذوها عرض الحائط . اما علماء الدين فقد وضحوا للراي العام وصرحوا بان القهوة مباحة شرعا على شرط ان البن لا يتحمص ولا يتفحم .

اما السلطان مراد الرابع (1623 – 40) فقد اصدر مرسوما بمنع القهوة والتبغ وحرمهما على الناس ولم يتساهل بذلك مطلقا . وامر بتحطيم المقاهي وهدمها وضحى الكثير من الناس بحياتهم في سبيل شرب القهوة عند تطبيق المرسوم المذكور . وفي عهد السلطان محمد الرابع (1623 – 40) أبيح بيع القهوة في الشوارع ولكن منع فتح المقاهي ولم يسمح بفتحها لاسباب سياسية والذي اشرف على غلق المقاهي هو وزيره الصدر الاعظم (كو برولي) . غير ان هذا المنع لم يدم طويلا اذ نقرأ ان الحكومة اصدرت الاوامر بتخفيض اسعار القهوة لرغبة الناس الملحة بها مما يدل على ان القوة والمقاهي اصبحت شائعة بين الاهالي . وابتداءً من حكم سليمان فصاعدا سنت الحكومة قانونا بجباية ضريبة خاصة بالقهوة تبلغ الضريبة 8 (أسبر) للحقة للمشترين المسلمين و10 (اسبر) للحقة للمشترين المسيحيين وفي عام 1697 اضيفت ضريبة اخرى على القهوة تساوي 5 (باره) للحقة وكانت تسمى (بدعة القهوة) للمسلمين والمسيحيين على السواء .

لقد دار نقاس شديد حول كتابة كلمة (القهوة) في تركيا اذ يقول بعضهم بكتابتها (بالهاء) وبعضهم (بالحاء) وقد جاءت كتابتها (قحوة) في بعض المخطوطات التركية مثلا هكذا يكتبها (القوصوني) الذي جاء ذكره في اعلاه .

ان شجرة البن تنمو وتكثر في القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب وتنتشر زراعتها خاصة في السفوح الغربية لجبال (السراه) على ارتفاع يتراوح بين 1100 – 2200 م فوق سطح البحر حيث تجد هذه الشجرة في الوديان وفي المنحدرات ارضا خصبة وندية ودرجة الحرارة المعتدلة المستقرة الضرورية لنموها . ان مزارع القهوة على سفوح الجبال ومنحدراتها والمنظمة على شكل طبقات تحتاج الى سقي مستمر ومنظم كما ان الغيوم والضباب الذي يرتفع من سهول (تهامة) على البحر تجلب لها الرطوبة اللازمة لها . ولاجل حماية اشجار البن من اشعة الشمس المحرقة ومن هجوم الجراد المنتشر تحاط باشجار كبيرة ذوات ظلال كثيفة كشجرة التمر الهندي وشجرة الخروب وغيرهما .

ان شجرة البن تزرع بواسطة زرع بذورها (وتكثر بواسطة شتل بعض اغصانها) وتصل الى ارتفاع (2 – 5 متر) وقطرها (5 – 6) سم وتثمر في العام الرابع .

تكون شجرة البن دائمة الخضرة وتزهر وتثمر على طول السنة في مراحل مختلفة من النضوج والازدهار ولذلك فليس لها موسم للحصاد معين ان موسم الحصاد على كل حال يختلف باختلاف النوعية والامكنة ويقع عادة بين اذار وحزيران وبعد ان تقطف الاثمار تجفف ثم تقشر بطواحين خاصة . ثم تجفف الاثمار وقشورها تحت اشعة الشمس مرة اخرى .

ويمكن زراعة البن شمالا حتى منطقة عسير حيث قيل انها تزرع في جبل (شذى) في ارض (زهران) شمالي وادي (دوقه) . اما في الجنوب فتزرع القهوة في بلاد (الهجرية) وفي وادي (ورزان) ووادي (بنا) في جزيرة العرب . اما في الشرق فتزرع القهوة في (يافع) وفي (الجوف) .

ولكن اكثر البلاد زراعة للقهوة هي جبال (حراز) ووادي (فرش) العائد الى قبيلة بني مطر وجبل (ريما) والمنطقة المحيطة (بعدين) من اليمن .

وفي اليمن يفضل سكانها شرب القهوة المحضرة من قشور البن وتسمى عندهم شراب (القشر) ويجلس الناس لشربها في اماكن تسمى (مقهايه) ويضاف لشراب القهوة سواء المصنوعة من القشور او من حبوب البن مطيبات اخرى كالقرنفل والهيل وغيرهما .

وثمرة البن الطازجة طيبة المذاق ومنعشة . وفي قصيدة (لحمزة بن عبدالله الناشري) ذكر ان اكل البن جيد سواء اكان طازجا ام جافا ويعطي للآكل صحة وعافية . وليس لدينا معلومات عن عادة مزج القهوة المطحونة بالزبد واكلها وهل هي منتشرة في الجنوب العربي كما هي الحال بين قبائل (الجالا) وفي منطقة (الكفة) من الحبشة . اما في ايران فياكل الناس القهوة المطحونة اكلا ولا يشربون منقوعها شربا والقهوة تطلق على المكان الذي يشرب فيه شراب القهوة وهكذا فهي تعني المضيف والمقهى ويطلق اسم القهوة ايضا على البخشيش او الهدية .

انتقال القهوة الى اوروبا

ان وصول التجار الاوروبيين بصورة عامة الى مدينة (مخا) والبحر الاحمر كان مهما جدا بالنسبة الى تجارة القهوة وطرق تصديرها . وحتى ذلك الوقت كان جنوب اليمن ومناطق الحبشة المجاورة المصدر الرئيس لتموين القهوة الى جميع انحاء العالم الاسلامي . واصدر حكام اليمن اوامر صارمة ضد تصدير حبوب القهوة او شتلات شجرة البن الى الخارج من قبل التجار الاجانب . ولكن بعد ان انتشرت عادة شرب القهوة في اوروبا وغيرها من بلاد العالم خلال القرن السابع عشر والثامن عشر وازداد الطلب على تجارتها فان احتكار مناطق زراعة البن في البحر الاحمر وتجارة القهوة قد تحطم الى الابد وصارت القهوة تزرع في سيلان وجاوه والبحر الكاريبي وامريكا الجنوبية . وكان من نتائج انتشار القهوة ان توفرت السجلات والوثائق المضبوطة عن تجارة القهوة وحجمها وتركيبها بينما المصادر الاسلامية يعوزها مثل هذه الوثائق . ان الكتابات التي خلفها الرحالة الاوروبيون والتجار والسجلات التي مسكتها شركة الهند الشرقية الانكليزية والهولندية صارت تؤلف وثائق عامة عن حالة تجارة القهوة في مدينة (مخا) و (بيت الفقيه) وهذه اهم مراكز تجارة البن وكذلك تدل تلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوثائق على معلومات ضافية عن تصدير مختلف البلدان للقهوة وعن اسعارها وطرق شرائها والقوانين التجارية الخاصة بها ومناطق زراعة البن واقتصاديات تسويقها . ولا شك ان القهوة اصبحت من البضائع المهمة التي دخلت التجارة العالمية في الشرق الاوسط ولعبت دورا بارزا في انتقال الفضة الى الشرق من اوروبا والى الهند ايضا وقد جلبت الى مناطق القهوة ثروة طائلة بعد ان كانت قليلة الحظ من الثروة والمال .

ان وجود القهوة كشراب وكشجرة لم يكن معروفا في اوروبا حتى القرن السادس عشر فمثلا اول من كتب عن القهوة في اوروبا هو (جان دي لا روك) فقد كتب كتابا علميا عميقا عن اصل القهوة في الشرق الاوسط واوروبا وقد عزا هذا اول بحث عن القهوة الى (بروسبر البينوس) الذي نشر اول كتاب عنها في عام 1592 وقد صدر كتاب (البينوس) في عدة طبعات في القرن السابع عشر وتبعته كتب اخرى ل (دوفور) و (دي بلين) و (جون راى) . لقد زاد اهتمام العلماء الاوروبيين بالقهوة العربية ازديادا كبيرا كما زاد اهتمامهم بها بالنسبة لمستقبلها كمادة اقتصادية وتجارية كما يراها تجارهم . وفي عام 1609 – 10 ارسلت سفن شركة الهند الشرقية البريطانية الى مدينة (مخا) للتطلع الى مستقبل احتمالات التجارة في القهوة وتمكن رئيس الرحلة السادسة (هنرى مدلتون) من السفر الى صنعاء للتداول حول تجارة القهوة . وفي عام 1616 علم التاجر الهولندي (فان دين بروك) بالقهوة في مخا وتمكن من التعاقد مع الامام للحصول على شروط ملائمة تجارية وهذا مما اغاظ التجار العرب والفرس والهنود في صنعاء . لكن تجارة القهوة واستيرادها الى اوروبا لم تاخذ مجراها الطبيعي الا في حدود اواسط القرن السابع عشر عن طريق الرجاء الصالح وفي الستينات من القرن السابع عشر كانت القهوة تباع بالمزاد العلني في لندن من قبل شركة الهند الشرقية الانكليزية وكانت تسمى (حبوب كوهو) بينما كانت (كاوا مخا) تباع بالمزاد العلني في امستردام من قبل شركة الهند الشرقية الهولندية في عام 1661 – 62 .

ان موظفي شركة الهند الشرقية الهولندية كانوا يعرفون الاهمية الاقتصادية للقهوة في تجارة الشرق الاوسط وكانوا ينقلونها بين مخا والموانيء الاسيوية الا انهم لم يبذلوا جهدا كبيرا في نقلها الى اوروبا على اساس منتظم قبل 1690 . وبخلاف ذلك فان الواردات الانكليزية من القهوة كانت اكثر بكثير من الواردات الهولندية وكانت المدة بين 1664 – 1700 لا تخلو من واردات القهوة الى انكلترة وبيعها في لندن . ففي عام 1664 كانت كميات القهوة المستوردة الى انكلترة بلغت (44912) رطل وقيمتها (1138) باون ، اما في عام 1690 فقد بلغت الكمية 298816 رطل وقيمتها 9821 باون . وفي النصف الاول من القرن التالي بلغت واردات القهوة السنوية بما يربو على المليون رطل وقد بلغت الذروة في عام 1724 عندما ازدادت الواردات الى حد 2٫67 مليون رطل . والمصدر الانكليزية تدلنا على معلومات طريفة عن الصادرات اليمانية الكلية للقهوة والحصص التي توزعت على مختلف الجماعات التجارية من هذا المجموع . ففي عام 1726 مثلا كان مجموع الصادرات الكلية 19267 باله (وتساوي البالة الواحدة 280 رطل تقريبا) . اشترى منها التجار العرب والترك 10330 بالة او (54٪) وثاني حصة من هذا المجموع هي حصة التجار الانكليز سواء الشركةالانكليزية او الافراد وبلغت 5020 بالة (26٪) يليهم الهولنديون 2000 بالة (10٪) ثم الفرنسيون 1300 بالة او (7٪) ثم التجار الايرانيون والهنود 617 بالة (3٪) وعلى كل حال فان هذه الارقام تدل اما على تخمين منخفض واما على انتاج قليل في تلك السنة لانه في عام 1731 افاد رئيس تجار المعمل الانكليزي ان الارقام في موسم الانتاج الجيد تتراوح بن 60 – 70 الف بالة بينما الارقام التي يرسلها وكلاء شركة الهند الشرقية لا تتعدى 40 الف بالة . والتفسير المحتمل لهذا التناقض هو الفرق بين وزن البالة الانكليزية والبالة المحلية التي هي اخف وزنا . وتدل هذه الارقام ايضا على انه في حالة انتعاش التجارة الاوروبية في اليمن فان استهلاك القهوة في الشرق الاوسط كان يزيد بكثير على الاستهلاك الاوروبي . ولكن عندما وصل الطلب الاوروبي على القهوة الى حد 40٪ اثر ذلك على زيادة زراعة البن وبالتالي على زيادة اسعاره . ففي عام 1672 زاد الطلب على القهوة في الاسواق العالمية ووصل سعرها الى حد 45 دولارا اسبانيا لكل (بهر) (تقريبا 450 رطل) وفي القرن الثامن عشر كانت القهوة تباع بسعر 100 دولار اما في سني قلة المحصول فقد يصل السعر الى 170 دولار (للبهر) الواحد . ويبدو ان التجار الترك والعرب كانوا يشترون مايحتاجون اليه منالقهوة من السوق المحليالداخلي في اليمن وهو (بيت الفقيه) ولم يشتروا من (مخا) .

وكانت القهوة تجلب الى الساحل اليماني من داخل البلد على ظهور الابل ثم تاخذها السفن من ميناني (لحية) و (الحديده) لقد اصبحت ميناء (اللحية) حسب ما ذكره (اوفينكتمون) مهمة جدا بعد ان تخرب ميناء (مخا) على ايدي السفن البريطانية وذلك خلال حرب المغول القصيرة الامد التي خاضها الانكليز بين عامي 1687 – 88 ضد الامبراطور المغولي في الهند . كما ان قرب اللحية والحديدة من ميناء (جدة) جعل التجار المسلمين يفضلونهما على ميناء (مخا) وذلك لاعتبارات دينية ولان جدة هي المحط الثاني لتجارة القهوة اليمانية كانت القهوة توزع في الامبراطورية العثمانية من خلال طريقين مختلفين الاول والاهم عن طريق جدة والسويس والقاهرة .

كما ان الكمية العظمى من تجارة القهوة كانت تصل البصرة وتتحول عن طريق الفرات الى الامبراطورية العثمانية كان الطلب على القهوة في ايران والهند قليلا نوعا ما ولا يتجاوز حد (500) بالة الا اذا كلف التجار الهنود بشراء القهوة وتوزيعها في الساحل الهندي الغربي عن طريق ميناء (سورت) من قبل الشركات الاوروبية في الهند ومهما يكن من شيء فان تجارة القهوة ازدادت كثيرا بعد ان كثر الطلب على القهوة في الانحاء الاوروبية المختلفة حيث اصبح التعامل راسا مع ميناء (مخا) اليماني وذلك في نهاية القرن السابع عشر من قبل الشركات المسجلة . وعلى هذا فقد اعادت الشركة الهولندية فتح فرعها في ميناء مخا عام 1696 بعد ان تم اغلاقه عام 1684 . وكانت الشركة الانكليزية ترسل وكلاءها من (سورت) الى مخا اثناء الموسم التجاري وتبعث بسفنها راسا من لندن الى اليمن بتفويض منها لممثليها لشراء القهوة من مخا . وفي عام 1716 قرر (مجلس بومبي) تاسيس معمل دائم للقهوة في مخا لغرض شراء القهوة على طول مدار السنة وبذلك يتجنب الاسعار الباهظة التي تسود موسم التجارة والمسافة بين مخا وبيت الفقيه مسافة قريبة وقصيرة وكان التجار الانكليز والهولنديون والفرنسيون يزورون بيت الفقيه كامثالهم من تجار العرب والترك والهنود ويشترون القهوة من الاسواق الداخلية وذلك في اوائل القرن الثامن عشر . .

ومن اهم الاسباب التي جعلت رؤساء الشركة الانكليزية يترددون في فتح مركز تجاري دائم في مخا كان خوفهم من التعصب الديني وقد زعم ان الحجاج المسلمين كانوا يعتبرون اهانة الاوروبيين في منطقة البحر الاحمر من الفضائل الدينية . ولكن التجار الاوروبيين الذين كانوا مطلعين على الاحوال السائدة في اليمن كانوا يرون رأيا اخر وهو ان معاملة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المسلمين للاوروبيين في الشرق العربي لا تختلف عن معاملة الاوروبيين للمسلمين في اوروبا نفسها. ومع ذلك فان شروط التجارة التي كان يفرضها اليمانيون على الاوروبيين في مخا وبيت الفقيه كانت احسن بكثير من الشروط التي يفرضونها على التجار المحليين والهنود . اذ ان التجار الاوروبيين كانوا يدفعون 3٪ من قيمة البضاعة كضريبة التصدير بينما كان المحليون والهنود يدفعون 5٪ .

وبعد الحرب الاهلية التي نجمت في اليمن في العشرينات من القرن الثامن عشر سمح الامام الجديد للشركات الاوروبية بتصدير 500 بالة من القهوة بدون ضرائب كل سنة. ولكن من الحق ان يقال ان الامتيازات التجارية الممنوحة للاجانب في صنعاء كانت في اكثر الاحيان تحجب من قبل المحافظين المحليين الذين كانوا يريدون ضرائب اضافية لانفسهم وحتى بائع القهوة كان يعوض خسارته المالية التي كان يدفعها للمحافظين بزيادة السعر على التجار الاوروبيين . مثلا جاءت الاخبار من مخا عام 1721 ان كمية قليلة من القهوة وصلت السوق في ذلك الموسم لان الضريبة التي كانت تجبى قبلا وهي دولا واحد (للبهر) قد زيدت الى 5 دولات (للبهر) الواحد . ويقول دي لا روك ان الضريبة كانت تؤخذ من البائع في بيت الفقيه . ان تجارة القهوة كان تدر على الحكام المحليين دخلا هائلا ويدل على ذلك ضريبة المرور التي كانت تفرض على هذه البضاعة من قبل حكام مكة وجدة وباشا مصر الذين رفعوا الضريبة الى حد 5ر12٪ في عام 1699 وتدل الدلائل على ان الباب العالي قد اصابه الذهول من تأثير المنافسة الاوروبية على مصلحة التجار الترك ولذلك ارسل الباب البعثات الدبلوماسية الى اليمن لاقناع الامام بمنع الاوروبيين من شراء القهوة وتصديرها ولكن هذه البعثات قد فشلت في مساعيها عندما طالب الامام بدخول تعوض عن الضرائب ومبالغ الشراء التي كان الاوروبيون يدفعونها للامام .

ان الطلب المتزايد على القهوة في العالم كله وازدياد الخبرة لدى التجار المختصين في هذه البضاعة قد اوجد صنعة معقدة ومهنة عويصة لا يمكن لكل تاجر ان يتقنها . وان المعلومات التي كانت تتوفر عن الوضع الاقتصادي لزراعة القهوة كانت تخبأ طي الكتمان ولكن الظاهر ان زراعة القهوة كان يزاولها فلاحون صغار يزرعون القهوة على حسابهم الخاص ويجلبون الثمر الطري والجاف الى السوق المحلية لبيعه بانفسهم غير ان هناك ايضا فلاحين كبارا يجنون كميات كبيرة من القهوة ويتعاملون مع تجار بيت الفقيه لتسويقها وتنفيقها . ان اسواق مخا وبيت الفقية كانت تتسوق من مزارعي القهوة في مناطق خاصة بهذه الاسواق مما يجاورها من المزارع وبينما كانت اسواق مخا تختص بالمناطق الجنوبية من اليمن . فان المناطق التي كانت تجهز بيت الفقية كانت واسعة ولا تبعد عن السوق الا بمسافة يوم ونصف او الى حد ستة ايام لنقلها .

وكانت اجود انواع القهوة تستورد من مناطق (وسب) و (سفل) غير ان انتاجها لم يكن كافيا ، بينما كانت القهوة المنتجة في (حرس) و (ريمة) و (همه) و (دورن) تاتي بالدرجة الثانية من ناحية الجودة ، اما القهوة المنتجة في (سلبه) و (سنن) و (عدن) فكانت في حالة رديئة جدا ونادرا ما كانت تشترى من قبل الاوروبيين . لقد كان المزارعون ينظفون حبوب القهوة من الاوساخ والقشور قبل ان تباع في السوق ولو ان في سني الطلب الشديد عليها كانت الحبوب تباع غير منظفة وفي هذه الحالة كان التجار الانكليز والهولنديون يحتجون على هذه الحالة ولكن الحكام المحليين كانوا يردون على هذه الاحتجاجات بقولهم انهم لا يستطيعون اجبار المزارعين على بيع محصولهم من القهوة في حالة معينة كما يريد الاوروبيون بينما كان التجار الاتراك وغيرهم يشترون القهوة على اية حال من الاحوال .

ان موسم التجارة في ميناء مخا وغيره كان يمتد من اذار وحتى آب حيث تصل السفن من السويس وجدة والبصرة وسورت لشراء القهوة وبيع بضائعهم من المواد الغذائية وقطع الحاجيات الهندية وحتى البضائع الصوفية الاوروبية . لقد كانت اسواق القهوة تتأثر كثيرا بزمن وصول السفن واقلاعها وكان مجرد رؤية سفينة اوروبية او تركية في عرض البحر تجعل اسعار القهوة ترتفع في بيت الفقية او تجعل مزارعي القهوة وتجارها المحليين يخبئون بضاعتهم بقصد رفع اسعارها واحتكارها . في مرات عديدة كان الوكلاء الهولنديون يساومون على شراء القهوة ويزايدون على الاسعار ولكن عندما ينافسهم التجار الاوروبيون الاخرون ويصلون الى اسعار عالية يسحب الهولنديون انفسهم من المزاد ولا يشترون اية كمية من القهوة . وقد اكتشفت الشركة الانكليزية بعد ذلك من الزمن ان هذا الاجراء الهولندي كان سياسة مقصودة لرفع اسعار البن اليماني وذلك لكي ترتفع اسعار القوة الجاوية ويبيعونها باسعار عالية في بلادهم . ولكن على كل حال فان اسعار القهوة اليمانية بصورة عامة تتأثر بحالة السوق في جدة والقاهرة والتجار اليمانيون يتصيدون الاخبار الصحيحة عن حالة السوق بواسطة المراسلة المنظمة .

ومن العواقب التي حصلت في اعقاب تجارة القهوة اليمانية هو تدفق المعادن الثمينة لا سيما الفضة الى حوض البحر الاحمر وهذه الفضة مهدت السبيل للتجار لشراء البضائع الكمالية الثمينة من الهند وغيرها من البلدان وكانت السفن الهندية تعود الى (سورت) في الهند محملة بالنقود الفضية والذهبية . ومن نتائجها ايضا فتح فروع للمصارف العالمية في اليمن وكانت الشركات العالمية المشترية للقهوة اليمانية علاوة على توريد الاشياء الثمينة الى اليمن كانت تضارب بشراء العملات المختلفة في الاسواق اليمانية ثم تحصل على فرق العملة في ميناء سورت الهندي .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

المصادر

عبدالقادر بن محمد الانصاري الجزيري ـ عمدة الصفوة في حل القهوة

عبدالقادر بن العيدروس ـ صفوة الصفوة في بيان حكم القهوة

ابو الحسن محمد البكري الصديقي ـ الصفوة لتصفية القهوة

داود الانطاكي ـ تذكرة اولى الالباب والجامع للعجب العجاب

كتاب الذخائر والتحف

ابو العباس احمد الشرجي ـ طبقات الخواص

علوي بن احمد السقاف ـ رسالة في قمع الشهوة عن تناول التنباك والكفته والقات والقهوة

حاجي خليفة ـ جهان نامه

محمد حفيد بن مصطفى ـ الدرر المنتخبات المنثورة في اصلاح الغلطات المشهورة

احمد رشيد ـ تاريخ اليمن وصنعاء .

الفلسفة ونظرية الدولة بين أفلاطون والفارابي

■ الفارابي

■ افلاطون

ينتابني الشعور بالغبطة وانا اقدم رسالة : حول الفلسفة ونظرية الدولة بين أفلاطون والفارابي(*) . وانني لأتمنى ان تتعاون الجامعات العربية على اعادة اصلاح الفلسفة والتشديد على رد الاعتبار اليها بعد قرون من الضعف والانهيار . وذلك لان اعادة بناء الفلسفة انما هي اعادة لبناء جميع العلوم واذ يحقق العقل العربي هذا العمل الضخم فانما يحقق انجاز البناء الحضاري المطلوب للمحافظة على البقاء ونيل الموقع المناسب في ظل التفاوتات الحضارية العالمية . واذا كانت الفلسفة اعلى اشكال الوعي الانساني فلسوف يكون بامكاننا ان نتصور دورها الطليعي في انجاز المشروع الحضاري المطروح امام المجتمعات العربية .

ومن الجائز التساؤل عن القيمة الفعلية لدراسة الفلسفة ونظرية الدولة عند كل من أفلاطون والفارابي في اطار المرحلة التاريخية التي يجتازها الوطن العربي خاصة والعالم الثالث بصورة عامة . ذلك أول سؤال يتبادر الى أذهان رجال الفلسفة والسياسة والثقافة في هذه اللحظة التاريخية المعاصرة التي نعاني في غمارها انهيارات متداخلة شاملة . تتجسد في واقعنا تفككا في علاقة الحاكمين بالمحكومين ، واضطرادا في التخلف الاقتصادي والتقني والعلمي والاجتماعي ، فضلا عما نشعر به من تمزق قومي وفراغ حضاري واستلاب ثقافي وانظمة استغلال واضطهاد .

وفي الحق ، ان البحث لا يشكل هروبا من مشكلات الواقع الراهن ، ولا تهافتا على النظرية السلفية في صعيدي الحضارتين العربية واليونانية ؛ بل قد تفيد دراسة هذا التراث الانساني في تفهم موضوعة كل من السلطة والدولة ، التي كانت وستبقى تطرح نفسها بالحاح أمام المجتمعات المتخلفة والمتقدمة على سطح كوكبنا الارضي .

ويرى الباحث أن ثمة تكافؤا بين مشكلة الدولة والسلطة لدى الفيلسوفين . وهذا التكافؤ هو الذي يثبت فعالية القيادة السياسية . وبهذا الاعتبار تجتاز هذه القيادة دورا هاما وخطيرا عبر عملية الممارسات السياسية في تشييد الدولة وتنظيم المجتمع وتحقيق رفاهية الافراد . وكل تماسك أو تصدع ، تصالح أو تصادم ، في بنيات الجماعات البشرية انما هو واقع مجسد لطبيعة الاتجاه الايجابي أو السلبي ، الذي تنتظم تلك الممارسات عبر مساره . ومن هنا نشأ ونما احد جوانب هذا البحث ، بل من هذه الزاوية كذلك توالدت وارتكزت مسألة القيادة والدولة عند أفلاطون والفارابي معا . ومن خلال هذا المنظور البعيد انبثقت النظرية السياسية للرجلين . وكانت بداية الانطلاق تاريخيا لافلاطون ، ثم تجددت وتكاملت لدى الفارابي . وان الصيغة الابتكارية الخاصة بالمعلم الثاني هي جانب أساسي دفعني ، أولا وقبل كل شيء ، لاختيار الدراسة المقارنة بين فيلسوفين عملاقين ينتميان الى حضارتين مختلفتين ، تتشابه في الهيكل الحضاري الانساني العام ، وتتمايز بالخصائص النوعية الكامنة في باطن كل واقع حضاري . والتي هي اساس تطور كل حضارة ، كما هي اساس تفسير تحول ظاهرة نوعية معينة الى ظاهرة نوعية معينة اخرى وفقا لمسار واحد ينتظم فيه تعاقب الحركة الباطنية من جهة ، والترابط بالاشياء الاخرى التي تنضاف الى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عبد الوهاب مروان ـ الجزائر

مجاله الواسع من جهة أخرى .

وقد تغافل الباحثون في الفكر السياسي للفارابي عن هذه القوانين الحضارية . سواء في ذلك العرب منهم أو المستشرقون . وطفق الكل يردد الاستنتاجات ذاتها ، التي تجعل المعلم الثاني محاكيا ومرددا للنظرية السياسية الافلاطونية ، كما تنعته بالمثالية والطوباوية وغياب البرنامج السياسي .

ان الدراسة العميقة للنصوص الفارابية والتعامل معها من خلال المذهب العام للفيلسوف ذاته يثبت حقيقة لا تدحض . تلك هي ان أبا نصر واقعي ومثالي أيضا . وقد كشف رؤاه الفلسفية بخصوصية متميزة فلسفيا وحضاريا . شأنه شأن كل فيلسوف كبير . وذلك ما أدافع به عنه ضد جميع أولائك الذين حاولوا قلب أفكار الفارابي مجردين اياها من الهوية الخاصة وساحبين من تحتها الارضية الواقعية .

وان أهمية الموضوع وجدته تكمن في أن أفكار المعلم الثاني تتجاوز عصره ، وتمتد الى تاريخنا المعاصر . ومن هذه الافكار : تصوره للفلسفة والعلم السياسي ، وتحديده لاشكال الجماعات ، وقوانين تطور النظم الاجتماعية ، وأشكال الصراع الانساني ، والزعامة والدولة الاميتين ، وظاهرات الحكم الاوليغارشي والجماعي ، والارستقراطي والعسكري . وهذه الافكار توكيدات تؤشر للحضارة التي ينتمي اليها الفيلسوف من جهة ، كما تعكس استقلالية تخريجاته الفلسفية ـ السياسية من جهة أخرى .

الحق ، فان قراءتي الجديدة المتواضعة لافكار الفارابي تستلهم الملاحظات الآتية :

أولا : ان الرؤى الفلسفية للمعلم الثاني لا تشذ عن رؤى الفلاسفة الكبار ، من حيث هي استبطان متداخل مع التراث الفلسفي الماضي . كما هي تصور مستنفد للحاضر واستشفاف للمستقبل في اطار خارجية العصر . وذلك باعتبار أن الفيلسوف كائن متفلسف وارث للثقافة الفلسفية الماضية . وحامل منظر لحقائقها ورؤاها في الحاضر والمستقبل. ولا يمتاز هذا الاعتبار الا بوصفه فيلسوفا انسانيا كبيرا على الاطلاق . والمعلم الثاني يحتل هذا الموقع بجدارة بين الفلاسفة النادرين في التاريخ .

ثانيا : ان التوجه السياسي لأبي نصر نحو المستقبل لا يجرد أفكاره من الاهمية والواقعية . فكل بديل سياسي ـ كيفما كان شكله فكرة سياسية أم ثورة ام برنامج سياسي لدولة او حزب ـ انما هو بديل محمول على آفاق المستقبل تتباطن نداءاته وتطلعاته بين ما هو كائن وما سوف يكون . والاداة التي تحقق التلاحم بين المبدأ والواقع ، وتجسد مطامح الحاضر في المستقبل انما هي القيادة التاريخية التي تستوعب الاهداف الكلية للمجتمع ، وتنتقي الظروف المناسبة لعملية التلاحم والتجسيد .

وعلى ضوء هذه الملاحظة استطلعت جدلية المدينة الحاضرة والمدينة البديل في مشروع الفيلسوف السياسي . الواقع ، ان البديل المفاد ليس ما هو في لحظته المستقبلية الا من حيث هو في علاقة مع ما ليس اياه في اللحظة الاولى المعينة حاضرا . صحيح ان حقيقته هي في خارجيته المحددة فيما يأتي من معطى المستقبل ، ولكنها أيضا صورة نقيضة بديلة تنبثق من احشاء المعين ـ الحاضر ذاته .

والآن ، يجب أن أضيف بان البديل حاضرا ومستقبلا يقوم على علاقة جدلية أخرى باطنية ؛ فلا انفصال بين المشروع والاداة . وبصيغة ثانية لا انفصال بين الدولة والقيادة سواء كانت دولة وقيادة فاضلة أم دولة وقيادة مضادة .

كل نظام سياسي هو واقع مجسد لتركيبات اجتماعية ـ اقتصادية ـ سياسية ، تخلقها وتذود عنها وبها سلطة فوقية سياسية . ثمة ترابط جدلي بين الاهداف الكلية لدولة ما وبين ممارسات قيادتها السياسية . وما يتبقى هو القول بأن ما هو عادل هو عقلي وفاضل وما هو غير عادل هو لا عقلي ولا فاضل .

وهكذا ، فان الوضع الطبيعي للشيء الحقيقي : الاجتماعي ـ السياسي مستمد من أرض الواقع العياني ، ويستتبع ذلك أن كل ما هو موجود ومعقول في المجتمع التاريخي انما هو حقيقي مستمد من عالم الضرورة . فهدف الدولة الذي تحققه القيادة هو توزيع الثروات على أهل المدن وليس هو سعادة غيبية ما ورائية . وأساس تنظيم الجماعة الانسانية هو القانون الاجتماعي الذي يحقق العدالة الحقة ويضبط الفوضى والتنازع ، ولا يعنى الهيمان وراء شمس مثل لا تشرق في عالم الانسان. والسلطة التي تدير مجتمع المدينة أو مجتمع الامية انما هي سلطة زمانية شخصية لا سلطة روحية افتراضية .

والحال فالعلم السياسي لا ينكفىء الى داخليته . وليست مفاهيمه وحقائقه تنتظم في حركة من ذاتها والى ذاتها . كان الفارابي مواطنا مهتما بالمشكلات السياسية في عصره ، وقد وصف مذهبه الفلسفي لمواجهة هذه المشكلات في اطار المجتمع السياسي أولا ، ثم في اطار الامية على الاطلاق . ويزول كل التباس اذا أدركنا ان المدن المضادة هي ، في مباشريتها ، النظم السياسية المتحققة في المرحلة التاريخية للعصر . وأن المدينة الفاضلة هي المدينة التي تدرك أرفع مستوى من الكمالين : الاجتماعي والاخلاقي ، ويبلغ سكانها المواطنة النموذجية بما يوفرون لأنفسهم من التعاون والمعرفة العقلية ، ويسعدون بمقدار ما يحققون من مساواة ، وبما يلتزمون به من قيم فكرانية .

وهذه المدينة الفاضلة هي البديل النقيض للمدينة اللافاضلة . وأدرك الفارابي أن مجتمع عصره ما هو الا مجتمع الانهيارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وان المجتمع الحق انما هو مجتمع العدالة والمساواة والنظام والمعرفة . كان لزاما تهديم بنيات المجتمع اللاعقلي طلبا لاعادة تشييد بناءات المجتمع العقلي .

وان العقلي الذي ينفي اللاعقلي ، البناء المجتمعي الفاضل ، الذي يصبح ما هو عليه ، يتعين أوليا بالنسبة الى الفلسفة . لان انشاء المذهب عند الفيلسوف السياسي اقتضى اطروحة احالية ، هي أطروحة ارجاع الحقيقة السياسية الى الحقيقة الفلسفية وذلك لان العلم السياسي شأنه شأن سائر العلوم الاخرى : الالهية والرياضية والطبيعية لا ينفذ خارج احتواءات الفلسفة . كل حقيقة تستمد تنظيرها من الفلسفة لكي تقيم ذاتها بشكل افضل .

وهنا احتل الفارابي موقعه الخطير في العصر . واضطلع بالدور المناط به على أحسن ما يرام . فقد كان الدين والفلسفة حدين أساسيين في المعادلة الحضارية لمجتمع متخلف ـ نام في مستوى حضاري معين . وتنبه المعلم الثاني لضرورة تركيز وتأسيس الفلسفة ، باعتبار أن الظروف الموضوعية والذاتية للثقافة العربية تقتضي تبديات العقل كأداة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للتنظير والتفسير ومواكبة القوى الموجهة للتاريخ ، لذلك جسد الوعي الفلسفي أرسى دعائم الفلسفة . وانطلق محاولا تعقيل المجتمع والطبيعة في حدود العصر وخارج العصر . واستوعب قانون اللحظة الحضارية الجديدة . ولم يكن متحدثا عن المجتمع العربي بمقدار ما كان متحدثا عن المجتمع الاممي أيضا . ومن هنا اراد هذا المعلم الكبير أن يشير الى دور الفيلسوف في تعقيل الكون وبناء المجتمع السياسي في ظل حضارة لعب الدين فيها دورا اساسيا طوال مراحل التاريخ .

كل فيلسوف كبير يدرك المعادلة الحضارية لعصره .

ويدرك الفيلسوف الاصيل أحيانا هذه المعادلة بالنسبة لسائر العصور .

وان كل معادلة حضارية شاملة لا تخرج عن اطار الفلسفة . وذلك باعتبار أن فعل التفلسف هو فعل تعقيل لقضايا العصر والتاريخ البشري في الوقت نفسه .

ان رؤية الفيلسوف تطابق المسار الحضاري التي تتآلف متجانسة في اضاءة حدود المعادلة الحضارية .

صحيح ان هذه الرؤية مجرد تامل كما يقول خصوم الفلسفة . لكن ينبغي ألا ننسى بأن هذا التامل هو استقراء لجزئيات الواقع الحضاري كما هو استنباط تخريجي ـ فلسفي لسائر حقائق العلوم المادية والانسانية على السواء ؟

ومن هنا ينبغي أن نفهم رؤى الفلاسفة الكبار وأنماط صياغاتهم للمعادلات الحضارية .

ومن هنا نتعلم الا نفصل بين ما هو فلسفي وما هو ثقافي في تركيب المعادلة الحضارية .

وان التأكيد على ضرورة الايمان بالفلسفة ودورها الفعال في البناءات الحضارية هو الشعار الذي نادى وأخلص له كبار الفلاسفة .

ويهمني أن أدرج الفارابي في قائمة هذه القمم الشاهقة في تاريخ الفلسفة والحضارة ، ولعل من هدايا الفكر العربي الخالدة للانسانية النصوص الفلسفية الرفيعة للمعلم الثاني ، حينما توفق بمهارة كبيرة ليؤكد الايمان بالفلسفة كضرورة اولية للبناء الحضاري .

اذن هذا الموقع الحضاري الخطير للفيلسوف هو دافع أساسي لمعالجة هذه الرسالة التي تكرس أهدافها للدفاع عن الفارابي واثبات استقلاليته وخصوصيته ضمن آفاق الحضارة العربية . وأما الدافع الثاني فهو اللجوء لأجراء دراسة مقارنة بينه وبين أفلاطون . وذلك بالضرورة طلبا لدحض استنتاج الشراح الذين صنفوا المعلم الثاني مجرد تابع محاك لفيلسوف الاكاديمية . وعبر الاطار العريق للبحث تثار عدة أسئلة . هل يتفق أم يفترق الفيلسوفان في النظرية السياسية ؟. وهل تتطابق القوتان الفلسفية والسياسية في ذوات الحكام ؟. وما هي طبيعة وخصوصية نظرية الزعامة عند الفارابي ؟

ويحدد هيكل الرسالة في ثلاثة مباحث وأحد عشر فصلا ، الفصلان الاولان تمهيديان لأغناء المضمون الفلسفي للنظرية السياسية ومسار تطور بعض الافكار الفلسفية عبر القرون ، وتحديد أسس العلم السياسي وخواصه بالنسبة للفيلسوفين . وأما المبحث الاول والثاني فيستوعبان ستة فصول وموضوعهما تحليل الدولة والقيادة وخصائصهما وخلفياتهما ووظائفهما والتغيرات الطارئة عليهما . ويلي ذلك مبحث ثالث ويسع ثلاثة فصول تنزع لتقديم ملاحظات نقدية حول النظرية السياسية عند الفيلسوفين .

ويصعب عليّ ان اقدم ملخصا وافيا لمضمون الرسالة . ولكني احاول تقديم أهم المحاور والنتائج .

اقول ان افلاطون والفارابي فيلسوفان كبيران تتطابق النظرية السياسية لكل واحد منهما مع فلسفته العامة ، وكلاهما أرسى دعائم نظرية سياسية خاصة ، تعبر عن ازمة العصر الذي عاش فيه . انها تخريج لمعادلة السياسة في اطار الحضارة التي ينتمي اليها الفيلسوف . وذلك ما يشكل الطابع الخاص بالنسبة لكل منهما . لكن هذا التخريج رغم الصبغة الحضارية الخصوصية يتماثل في النزعة الانسانية والمقومات العامة ، التي تتوفر في كل مجتمع من المجتمعات البشرية على الاطلاق ، كالعنصر البشري ، والبيئة ، وطائفة الاهداف العامة ، والمؤسسات ، والنظم ، والتشريعات التي تهيء هذه الاهداف الجمعية . وقد تتفق أو تفترق الرؤى والتحاليل والتراكيب حول هذه الاسس العامة بالنسبة لقيام حياة جمعية . وان أوجه الاتفاق والافتراق تؤكد المكانة الخاصة بالنسبة لأي منهما .

ويمكن تنظيم صيغة للكشف عن هذه المكانة من خلال عرض حدود التقارب والتباعد بين الفيلسوفين :

1 ـ أدمج افلاطون السياسة بالاسرة والاقتصاد . وكانت رؤيته للسياسة كعلم غير واضحة بينما حدد الفارابي موضوع العلم السياسي ، وبيّن العلاقة بين العملي والنظري ، وكيفية الوصول الى قوانين كلية . وترك المجال مفتوحا أمام النسبية والتغيير في كل مجتمع سياسي ، بل وفي كل مرحلة تاريخية جديدة .

2 ـ نادى أفلاطون بدولة ـ المدينة ، ونادى الفارابي بالمدينة الفاضلة . وتجاوز المعلم الثاني هذا الاطار ليضع دولته على صعيد أممي .

3 ـ دعا أفلاطون الى تكوين طبقة كاملة من الحكام تتصف عموما بالجمع بين القوتين السياسية والفلسفية في الجمهورية . وعين الفارابي رئاسة لمدينته الفاضلة ، واشترط توافر خواص عقلية وخبرات مختلفة للوصول الى السلطة ، وحدد المهام الرئاسية على صعيدي المدينة والمعمورة .

4 ـ حدد أفلاطون مجالا لطبقة الحكام ، ووضع لها برنامجا للاعداد والتكوين والممارسة . وقرر الفارابي تشكيل مجلس رئاسي ، وعين له برنامجا مكافئا لمطامح وحاجات وآراء اهل المدينة .

5 ـ بين افلاطون والفارابي معا مسؤوليات رجال السلطة ، وحدد كل منهما العدالة والمصلحة العامة كمبدأين للاشراف على أنماط ممارساتهم السياسية والادارية والتشريعية والتربوية .

6 ـ كانت مفاهيم الدولة وبنيات المجتمع والانظمة العامة وادوار الحكام واضحة في ذهن الرجلين . وكان الفارابي يسعى للانفتاح على الواقع الانساني الاممي أكثر من أفلاطون .

وكذلك يلتقي الفيلسوفان في كثير من الصفات التي تهيء شروط الزعامة . فكلاهما يريد لنماذج رؤسائه توافر سلامة البدن وغزارة المعلومات وحسن السيرة والميل الى العدل والاعتدال ، وكبر النفس والتكيف ، وكلاهما يطالب بتقشف الحكام ، وان كان افلاطون حدد ذلك في اطار مشاعية تمنع الحكام من الملكية والحياة الاسرية . بينما اشترط

الفارابي الزهد في المال وسائر أعراض الدنيا .

ومعلوم كذلك ان قسما من صفات الزعيم لدى الفارابي تشابه وتناظر شروط الخلافة أو الامامة عند علماء الاسلام . وذلك ما يميز بين الفارابي وافلاطون ، مثل القول بالعدالة والعلم المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والاحكام وسلامة الحواس والاعضاء والشجاعة والنجدة والراي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير المصالح والتيقظ والرفق في غير ضعف والشدة في غير عنف .

وهكذا تتضح اوجه الاتفاق والافتراق بين الفيلسوفين العربي واليوناني . ولا مجال للقول بمسالة التأثر . فاما التشابه فتمليه الضرورة الحضارية الانسانية ، التي تسود كل المجتمعات . وأما الافتراق فتقتضيه الضرورة الواقعية لكل حضارة وكل مجتمع في سياق كل مرحلة من مراحل التاريخ .

وأما ملاحظاتي النقدية فيمكن ايجازها كالآتي :

(1) ان العدالة هدف أولي لبناء المجتمع السياسي الافلاطوني . ولكنها تحقق وظيفة سياسية عليا . تتجسد في تهيء ظروف الاستقرار الاجتماعي والسياسي . وجعل شيخ الاكاديمية من العدالة دعامة لصيانة تماسك الطبقات الاجتماعية ، بحيث تراوح كل طبقة في مجالها المحدود . وفي تقديره أن ذلك شرط لتوفير ظروف التعاون ومساهمة كل طبقة في تنمية المجتمع وتدعيم بنياته .

ورايي أن هذا الغرض لا يحقق هدف الدولة الافلاطونية . وذلك لأنه عاجز عن ضمان ظروف الاستقرار العام . فالطبقة الوحيدة التي تستفيدمن معطيات العدالة انما هي طبقة الحكام . وأما الطبقات الأخرى فلا تحظى بالضمانات التي تتيح لها الاسهام في تحديد المجتمع الجديد

وكذلك هو برنامج التربية في المدينة . حيث تغدو التربية عملية اعداد وتكوين لطبقة الحكام وحدها . الامر الذي يجعلها متميزة ومنفردة بموقع مركزي في الحياة السياسية .

وفي كل هذه المعطيات لا يكون هناك مجال لتوافق الطبقات ، ولا يوجد أمل في تحقيق الوحدة الجماعية للمواطنين . لأن المواطن من الطبقة الشعبية مطلوب للتعاون المشترك في كل وضعية لا تلبي مصالحه ، ولا تمنحه الحق في بناء السلطة السياسية .

وثمة تخلخل في المفهوم الطبقي الافلاطوني . لان طبقات مجتمعه لا تتحدد علاقتها باسلوب الانتاج ، ولا تتولد عن التطور الباطني لقوى اجتماعية تجتاز درجة معينة من التطور الاقتصادي . بل هي تجمع فئات أكثر منه بناء طبقات . لقد اختلط مفهوم الطبقات في تقدير أفلاطون ، وبذلك كان بناء الطبقة على اساس تقسيم المهام والوظائف عوضا عن الارتباط باسلوب الانتاج . والحق فان السكون الطبقي والدعوة للثبات من الامور التي تجد تفسيرها في نظريته السياسية .

وهناك معضلة أخرى تتجلى في فرض حكومة الفلاسفة . وهي حكومة لا أساس لها من الوجود ، باعتبار أن التناقض قائم بين خصال الفيلسوف وصفات السياسي .

ان الفلسفة السياسية لأفلاطون تدعم فرض الحكم المطلق ، وتخول السلطة السياسية للطبقة الحاكمة الارستقراطية . وان مفهوم الزعامة مهتز لأنه لا يقوم على علاقة ثنائية جدلية بين القادة والمواطنين .

(2) أما الفارابي فقد حدد موضوع العلم السياسي . ونادى بالانفتاح على الواقع التجريبي في تنمية الظاهرة السياسية . وجعل هدف دولته متمثلا في توزيع الثروات على سكان المدينة ، واعطى العدالة مفهوما مشخصا يتجلى في تنظيم المجتمع طبقا لقانون محدد . ومدينته الفاضلة بديل مضاد للمدينة اللامعقولة . وتلوح العدالة في الجهود التي يبذلها الافراد سعيا لتلبية حاجاتهم المادية . وأكد ابو نصر بان المجتمع السياسي المنشود هو المجال الطبيعي لتفتح شخصية الفرد والمساهمة في تحديد المجتمع .

ووضع المعلم الثاني آفاق نمو المجتمع بدءا من المدينة فالامة فالمعمورة . وأن دولته الامية وقيادته الامية دلالتان على عمق الوعي السياسي للفيلسوف العربي . وحدد أيضا برنامجا لمدينته مفصلا بنياتها وعلاقاتها ، وتناول بالتحليل أشكال النظم المختلفة .

وقد يشعر المرء بثغرة في بنائه السياسي الضخم . وذلك ما يتجلى في عدم تلاحم ظواهر ونظم المجتمع السياسي ، أو عدم ترابط البنيات الفكرية ـ المعنوية مع البنية المادية ، وعدم الاهتمام الدقيق بتوافر نظم اجتماعية وسياسية وتشريعية وبناء قاعدة مادية اقتصادية متماسكة .

وأهمل تكوين الاداة التنفيذية في شكل جهاز مادي واداري ، متشعب وقادر على صيانة تماسك الدولة . كما يجوز ان ننكر عليه تلك الصلاحيات المطلقة للقيادة والتي تقتضي مؤسسات تشارك في التشريع والتنفيذ .

لكن بناءه الضخم لا يجب أن يوصف بالطوباوية . فما اراده الفارابي انما هو تقديم مشروع بديل يمكن الاحتذاء به . والأكيد هو ان نظرية الزعامة الفارابية فريدة متميزة . لها أساسها الواقعي في تاريخ المجتمع العربي . وقد نظر المعلم الثاني لمسالة السلطة السياسية بناءا على معضلة القيادة السياسية في عصره . وانتهى الى زعامة أمية ودولة أمية لا مثيل لهما عند أفلاطون . وان زعيمه السياسي شبيه بالنبي والفيلسوف ، ولكنه لا يمكن أن يكون اي واحد منهما .

(3) ان النظرية السياسية لكل فيلسوف تمثل سعيا دائما من اجل التقدم الاجتماعي والنمو المعرفي الانساني . وان دولتيهما تمثلان نموذجا للمحاكاة ، طلبا لخير الانسانية .

وتتوضح اهمية الفيلسوفين في عمق التزامهما تجاه أبناء مجتمعيهما وسيبقيان معا في طليعة الفلاسفة ، الذين ساهموا في اغناء المضمون الفلسفي لمفهوم الدولة . وكلاهما يمتد تأثير فلسفته السياسية على فلاسفة أمته .

ويجب ان نفهم بان هذين العملاقين يؤشران لمعضلة الانهيار السياسي ـ الاجتماعي في عصريهما . ومهما اتفقنا معهما او اختلفنا عنهما فليس بمقدورنا ان نتغافل عن جهودهما الفائقة من أجل تغيير المجتمع الانساني .

(*) تم تحرير الرسالة سنة 1975 . ونوقشت في جامعة الجزائر سنة 1977 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعليم الالزامي في الاسلام

الكتابة اساس الحضارة والمعارف والعمران ، بها تحفظ العلوم والآداب ، وبها ينشر التعليم والتهذيب ، وبها تخلد المفاخر والمآثر ، فهي عماد التقدم في الحياة

وقد حث الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم على طلب العلم ، وتعلم القراءة والكتابة في أول دعوته ، لان الدعوة التي لا تستند على العلم والعقل ، لا يقدر لها النجاح . وقد اقسم الله عز وجل بالقلم ، لما له من اهمية في التعليم والتهذيب وتسديد العقل . وأول آية انزلت من القرآن الكريم فيها الامر بالقراءة « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . فالدعوة الاسلامية دعوة تستند على العلم والعقل «.قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر اولو الألباب » .

وقد جعل الاسلام من حق الولد على والده أن يعلمه القراءة والكتابة، وامور دينه ودنياه ، فيخرجه من ظلمات الجهل « ومن احيا نفسا واحدة فكانما احيا الناس جميعا » .

ولذا هب المسلمون رجالا ونساء لمكافحة الامية وتعليم القـراءة والكتابة ، كما أنه عليه السلام لم يقبل الفداء من أسـرى بـدر الذين يعرفون القراءة والكتابة فامرهم ان يعلم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين ، وان بعض الصحابة الكرام أوقفوا انفسهم لتعليم الاولاد ، ومنهم : عبدالله بن سعد بن العاص ، والصحابي الجليـل عبـادة بن الصامت ، كان يلازم أهل الصفة ، يعلمهم ويفقههم .

وشاركت المرأة في مكافحة الامية وتعليم البنات والنساء ، ومنهن : الشفاء بنت عبدالله العدوية ، وكريمة بنت المقداد ، وام كلثـوم بنت عقبة ، وعائشة بنت سعد ، فكن يعلمن البنات والنساء ، وهكذا نشطت هذه الحركة المباركة في التعليم ، وانتشرت الكتابة بين المسلمين ، فبعد ان كان في المدينة من يقرأ ويكتب لا يتجاوز عدد اصابع اليدين ــ صار من كتب للرسول صلى الله عليه وسلم اثنين واربعين كاتبا .

والرسول الاعظم خصص أياما لتعليم النساء وتثقيفهن وحثهن على الاستزادة من العلم ، وشجعهن على السؤال ، فاثنى على نساء الانصار وشجاعتهن على الاستزادة من العلم ، فقال : « رحم الله نساء الانصار فان الحياء لم يمنعهن أن يتفقهن في الدين » .

فالتعليم في الاسلام الزامي ، ومن واجب الولد على ابيه أن يعلمه ، فان عجز ابوه عن هذا ، أو كان الطفل قد فقد أباه ، فعلى المسلمين أن يعلموه وان ينفقوا عليه من بيت المال ، فالأمة ملزمـة بتعليم ابنائهـا وتثقيفهم ، فالتعليم فرض كفاية عليهم ، واذا قصروا في تعليم ابنائهم فان الاثم يقع على المسلمين ، لانهم قصروا في تعليم وتوجيه الجيل الذي هـو عماد المجتمع ، وعليهم أن يسهلوا امر مكافحة الامية ونشر التهذيب بين كافة الطبقات .

وسار خلفاؤه على هديه في هذا ، فكانوا هم وأهل الاحسان يتنافسون في تشييد المكاتب ــ الكتاتيب ــ والنفقة على المعلمين والمتعلمين ، سواء كانوا صغارا أو كبارا .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من شيد الكتاتيب لتعليم الاولاد ونشر الكتابة ، فعين المعلمين لتعليم الصبيان وتاديبهم ، وهـذا أول تاسيس الكتاتيب في الاسلام ، كما علموا في المساجد ، وفي البيوت وغيرها من الاماكن .

وعامر بن عبدالله الخزاعي أول معلم عينه الفاروق ، وفرض لـه ولمن يتعلم عنده ، كما ان الصحابة الكرام استعانوا بعرب الحيرة في تعليم اولادهم ، فاستقدموهم واجزلوا لهم العطاء ، وأول من علم في المدينة منهم هو : جفينة النصراني ، استقدمه سعد بن أبي وقاص ليعلم في المدينة زمن الفاروق .

انقضى دور الراشدين ، والاقبال على التعليم في ازدياد ، وكثرت الكتاتيب وتنوعت ، منها للاطفال ومنها للبنات ، وبعضها كان مختلطا ، وكانت الكتاتيب العامة في المدن يعلم بها معلمون على جانب من العـلم والدين : كالوشاء ، وأبي معاوية النحوي ، وأبي عبدالله القاسـم بن سلام ، وعطاء بن أبي رباح ، والشعبي ، والحجـاج بن يوسف الثقفى وابيه ــ وكان بعضهم يعلم احتسابا ولا ياخذ أجرا عنى تعليمه .

اما مكاتب السبيل : وهي التي ينشوءها المحسنون لتعليم اليتامى ومن عجز آباؤهم عن تعليمهم ، فكانت كثيرة ، وفيهـا ما يلزم المعـلم والمتعلم من مكان مريح ، ونفقة موسعة وراحة تامة ، ويوقفون لها مـا يؤمن ادامتها ، والاوقاف مصونة مهما تبدل وضع البلد ، فشرط الواقف كنص الشارع .

ونجد بعض هذه المكاتب يكون فيها الطفل مكفولا بالتعليم والتوجيه الى ان يبلغ الحلم . وبعضهم من بنى العديد من هذه المكاتب ، فبنى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (569 هـ) الكثير منهـا في بلاده ، واجرى عليهم الجرايات الواسعة ، وبنى غيره كثير ، فالايتام والمعوزون لم يعدموا من يسهل لهم أمر التعليم ، ويكفل معاشهم الى ان يبلغـوا الحلم ، فيخيروا بعد هذا بين اكمال دراساتهم او ان يعانوا صناعة يرغبون بها .

وبنى بعض المحسنين واهل الخير مكاتب الايتام ــ مكاتب السبيل ــ بجانب المدرسة التي شيدوها ، فقد بنى القاضي الفاضل (529 ــ 596هـ) بجانب مدرسته الفاضلية مكتبا للسبيل ، كما بنى مجاهد الدين قيماز الرومي المتوفى (595 هـ) مكتبا للسبيل بجانب مدرسته التي انشأها في الربض الاسفل من الموصل ، ثم كثرت هـذه المكاتب في القـرن الثالث الهجري وما بعده ، فنرى الكثير من المدارس بجانب كل واحدة منها مكتبا للسبيل (الايتام) ملحقا بالمدرسة ، ويجرى عليه النفقة مما أوقف لـه وللمدرسة .

كان بعض هذه المكاتب كبيرا ، يضم الواحد منـه مئات التلاميذ ، ففي سنة 757 هـ سقطت منارة جامع السلطان حسن في القاهرة فهلك تحتها ثلاثمائة نفس من الايتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيـل المجاور لمدرسة السلطان حسن ومن غيره ــ فكم كان عدد تلاميذ هـذا المكتب اذا كان من هلك منهم ثلاثمائة ؟؟

وسارت المرأة جنبا الى جنب مع الرجل في التعليم ، وتثقيف البنات والنساء والاولاد . ويذكر ابن حزم عن نفسه : انه ربي في حجور النساء، ونشأ بين أيديهن ، وهن علمنه القرآن ، وروينه الكثير من الاشعار ، ودربنـه في الخط واستمرت دراسـته على ايديهن الى ان بلغ سـن العشرين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سعيد الديوه جي

وكان بعض النساء توقف نفسها على تعليم البنات والنساء تطوعا وتقربا الى الله تعالى . ومنهن : مولاة أبي امامة التي كانت في مسجد حمص ، تعلم النساء القرآن والسنن والفرائض ، وتفقههن في الدين . فللمراة شأن في التعليم مذ أول الاسلام ، وقد مرّ ما قامت به الصحابيات الجليلات من تعليم النساء والبنات ، وزاد الامر على مر السنين ، وفتحوا المكاتب الخاصة لهن ، وبنى بعض المحسنين مكاتب خاصة لتعليم البنات والمعوزات من النساء ، وهن مكفولات النفقة والتعليم والمبيت ، الى ان يبلغن الحلم وقد تدربن على الاعمال البيتية ايضا ، ونبغ الكثير منهن في العلم والادب والفن والخط والتزويق والتطريز ، وأخبارهن مستفيضة في هذا .

على أن المحسنين لم يهملوا العاجزات والفقيرات من التعلم والايواء فاسسوا لهن الاربطة الخاصة بهن ، والرباط في الاسلام لم يكن للرهبنة والانقطاع عن العلم والعمل : لا رهبانية في الاسلام ، وان رهبانية امتي الجهاد ، وأي جهاد أعظم من مكافحة الجهل . فالرباط محل عبادة ، ودار هداية وتثقيف وعلم وارشاد ، وندوة أدب وتوجيه ، ولكل رباط شيخة أو اكثر ، تشرف عليهن وتعلمهن وتوجههن الى ما فيه الخير ، وتخفف عنهن بؤسهن . وكثرت هذه الاربطة في البلاد الاسلامية ، فكانت ملاجىء مواساة وعلم وتقوى .

ومن هذه الاربطة التي كانت في بغداد : « رباط دار الشط » الذي بناه الخليفة المستعصم بالله ، سنة 652 هـ للنساء العاجزات والمحتاجات ، وجعل فيه الشيخة الشريفة بنت المهتدى ، تتولى تعليمهن وارشادهن .

ورباط البغدادية في القاهرة : وشيخته أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية : وافرة العلم ، فقيهة زاهدة ، حريصة على نشر العلم والفضائل ومواساة العاجزات ، فكانت تفقه وتعلم وترشد النساء فيه يساعدها في الاشراف على من في الرباط من النساء عدد من النساء العالمات الخيرات التقيات .

وكان بقرافة مصر عدة اربطة للعجائز والارامل والفقيرات ، ولهن الجرايات الواسعة ، وشيخة تتولى ارشادهن وتعليمهن .

فالمسلمون عنوا عناية كبيرة في تعليم ابناء الشعب وتقديم ما يساعدهم على التعلم كبارا وصغارا . حتى البدو الرحل ، فان عمر بن عبدالعزيز أرسل اليهم من يعلمهم القراءة والكتابة ويفقههم في الدين . وتطوع الكثير في تعليم البدو ، منهم : الوحشي أبو ثروان العكلي ، وأبو البيداء الرباحي ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، وغيرهم .

ومن طريف ما جاء عن عناية الفاروق بتعليم البدو : أنه مر به بدوي فسأله : هل تعرف أم الكتاب ؟ فقال له لا ، والله ما أعرف البنات فكيف امهم ، فارسله الى الكتاب لكي يتعلم .

كما أن المسلمين لم يهملوا المكفوفين ، فخصصوا من يعلمهم القراءة والكتابة والعلوم المختلفة . وكان في الازهر الشريف رواق خاص قد اوقف على تعليم المكفوفين ، ونبغ في الاسلام كثير من اعلام الفكر والادب وهم مكفوفون ، كابي العلاء المعري ، وأبي الحسن الآمدى (712 هـ) ، وكان يعرف عدة لغات ويتاجر في الكتب ، ويستعمل كتابة نافرة في تثبيت ثمن الكتاب الذي اشتراه ـ ولربما كان هو اول من استعمل الكتابة النافرة من المكفوفين .

وان المسلمين أول من اهتم بالتعليم الشامل المستمر لكل افراد الشعب ، لان طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وعليه أن يستزيد من العلوم والمعارف ما دام حيا قادرا على التعلم ، وهم يقتدون بالرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم الذي آتاه الله العلم والحكمة ، وادبه فأحسن تأديبه ، ومع هذا يقول : « اذا أتى عليّ يوم لا ازداد فيه علما يقربني الى الله تعالى فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم » ، وأوجب على المسلمين ان ينشروا العلوم والمعارف بين الناس ، فقال : « شر الناس يوم القيامة عالم لا ينتفع به » ، ويقول أيضا : « من كان عنده علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » ، وحث أصحابه والمسلمين أن يبلغوا ما يسمعون وما يتعلمون ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، وخير عمل يقوم به المسلم أن يجلس للتعليم والتهذيب ، والعلم المراد هو مطلق العلم الذي تتوقف عليه سعادة الدارين .

ومما كان يتنافس به المسلمون تسهيل نشر العلم في كل وقت وفي كل مكان ، ولكل قاصد ، فنجد حلقات العلم كثيرة في المساجد ، ودور العلماء وفي العراء والحوانيت ، فالحلقات العلمية كثيرة وخاصة ما كان منها في المساجد . والمسجد في الاسلام محل عبادتهم ، ومنتدى اجتماعاتهم ، ومعهد علم وأدب ، والمسلم يتردد اليه عدة مرات في اليوم ليؤدى صلاته ، فكان ينصرف الى الحلقات العلمية التي في المسجد ، فيجد في كل حلقة عالما جليلا يحف به طلاب العلم والمعرفة ، يأخذون عنه أو يسألونه ما أشكل عليهم أو يجادلونه ويناظرونه في بعض الامور . والحلقات كثيرة ومتنوعة في العلوم والآداب والمعارف ، فترى حلقات المحدثين وأهل السير والمغازى ، وحلقات الادباء والشعراء ، وأهل الفنون والمعارف ، وربما كان في بعض المساجد عشرات الحلقات المتنوعة والناس يحفون بها ويستمعون لما يدور في الحلقة ، فهي مدارس مفتوحة في النهار وبعض الليل ، والاقبال عليها مستمر ، والاستفادة منها كثيرة ، كان هذا منذ صدر الاسلام ، واخذت تزداد الحلقات والمجالس العلمية في المساجد على مر العصور حتى بعد تأسيس المدارس ، فهي مدارس مفتوحة لكل قاصد. فنجد في الجامع الاموي مثلا عشرات الحلقات ، وكذا في مسجد عمرو بن العاص ، وفي مساجد بغداد وغيرها ـ هذا التعليم الشامل الذي كان متيسرا لكل انسان وفي كل وقت خرج الكثير من العلماء والادباء ورجال الفكر ، وهم لم يقرأوا في كتاب ، بل كانوا يحضرون الحلقات ، فيسمعون ويناقشون ويستفيدون ، ومنهم من نظم الشعر وأملى الكتب ، وترك آثارا جليلة وهم أميون ـ ومنهم :

نصر بن أحمد أبو القاسم البصري الخبز ارزي ، الشاعر المشهور المتوفى سنة 330 هـ ، كان أميا لا يكتب ، وكان يخبز الارز وينشد اشعاره الرائقة ، وجمع ديوانه .

يوسف بن المبارك بن كامل الخفاف أبو الفتوح البغدادي المتوفى سنة 601 هـ ، سمع الحديث وحدث وكان عاميا لا يقرأ ولا يكتب .

ضياء الدين أبو القاسم أحمد بن علي بن الخريف البغدادي المتوفى سنة 602 هـ ، سمع الكثير من المحدثين وحدث وأخذ عنه جماعة ، وكان اميا ـ وغيرهم كثير .

كان هذا بفضل التعليم الشامل الميسر في المساجد ودور الحكمة ودور العلم وفي الحوانيت ودور العلماء الذين نشروا العلوم بين الناس يوم كانت أوربا تتخبط في دياجير الظلام ، ويعدون بعض العلوم سحرا بل بعضهم من جعلها كفرا .

●

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدكتاتورية في الأمريكية

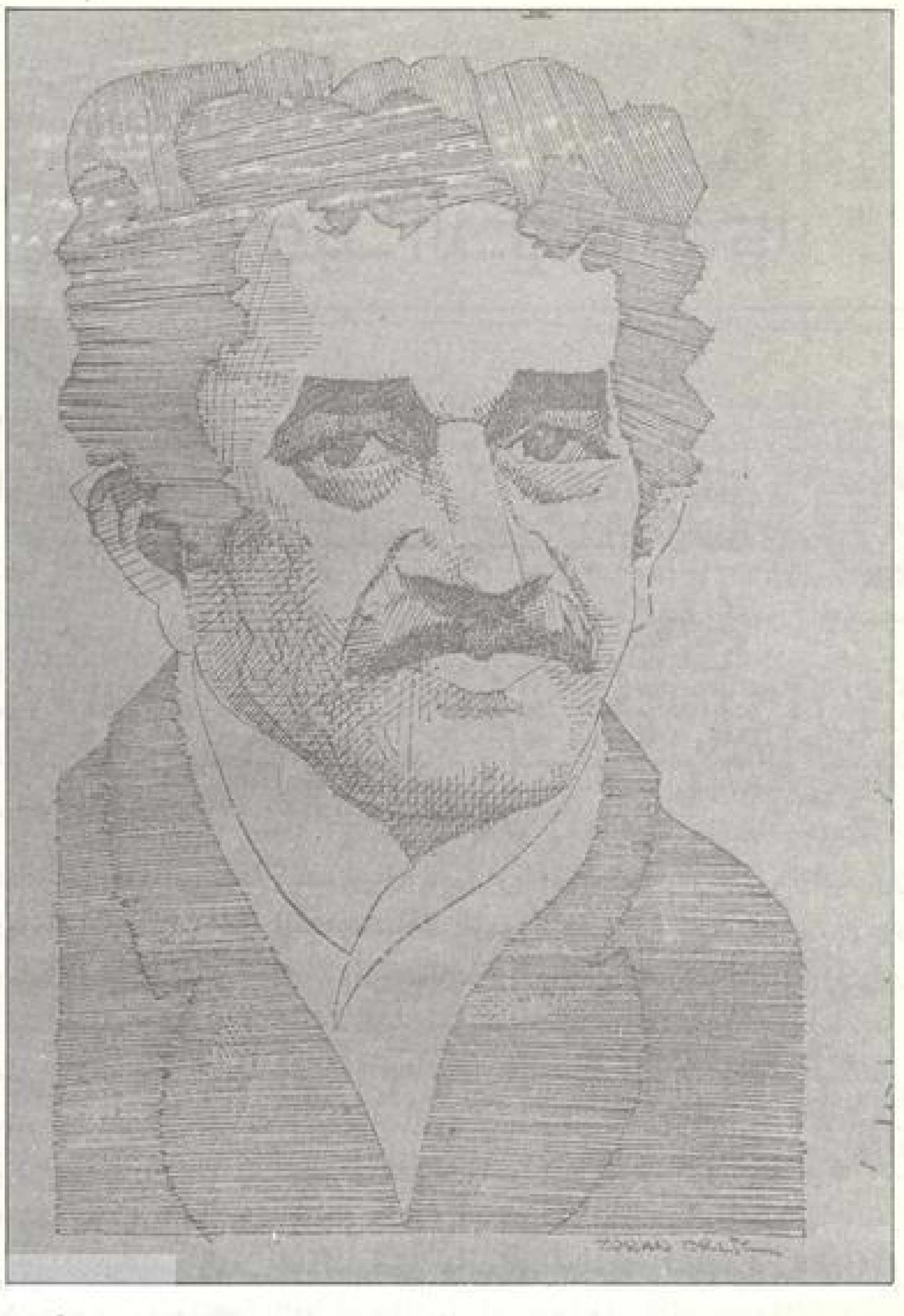

■ غارثيا ماكيز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ترجم مؤخرا للغة الفرنسية ثلاث روايات تدور جميعها حول الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية . ولادراك اهميتها ، ينبغي القاء نظرة على الاعمال التي سبق لهـا وأن عالجت نفس الموضوع .

يعود تاريخ الروايات الاكثر قدما الى القرن التاسع عشر . وتنسب الى كاتبين من الارجنتين نفيا أثناء تولي ((خـوان مانوال دوروزاس)) رئاسة الحكومة . الاول هو : ((دومنغو ف. سارمينتو)) ، صاحب كتاب ((فاكندو)) (1845) وهو خليط يجمع بين المقالة التحليلية والروايـة والسرد ، يطرح مشكلة كانت تشغل بال جيله آنذاك الا وهي : التعارض بين ((الحضارة)) و ((البربرية)) . وطرفا هذا التفرع هنـا همـا : الكوديللو (أو الزعيم السياسي) الطاغية ((فاكندو)) من جهة ، وأفكار ((الحضارة)) القادمة من أوربا ، من جهة أخرى .

فمن خلال ((فاكندو)) يدين ((سارمينتو)) حضور الطاغية ((روزاس)) في صورته القاتمة .

و « سارمينتو » الرومانسي الليبرالي ، يعبر هنا عن وجهة نظـر ملاكي الارض الكبار ومربي الماشية ، أنصار « التقدم » الذي جاءت بـه السيطرة « المنورة » لرأس المال الانكليزي .

أما الكاتب الثاني فهو : « خوزيه مارمول » والذي كانت روايته « آماليا » (1851) تدور حول شخصية « روزاس » المعارض للمثقفين الليبراليين الذين هاجروا الى « مونتيفيديو » . يشيد الكاتب بولـع رومانسي ، بهؤلاء ، ويدين ، بكل قسوة ، الطاغيـة المستبد « روزاس » بنبرة مفعمة بالغضب ، هي نبرة رجل خبر المعارك السياسية التي جاء وصفها في كتابه .

ومن « روزاس » الذي كان موضع حقد هذين الكاتبين ، أعلن حديثا عن الاتجاه الوطني الشعبي للبيرونية .

وموضوع الدكتاتورية ، أو الزعيم السياسي ، نجده بكثرة في أدب القرن التاسع عشر وبداية هــذا القرن . وتشكل روايــة : « تيرانو بانديراس » ، للكاتب الاسباني « رامون دال ڤال أنكلن » (1926) ، انعطافة تاريخية مهمة في تطور تناول هذا الموضوع .

لقد كانت الروايات السابقة تعتبر الكتابة اسلوبا خاصا بتقـديم الشهادات المباشرة تقريبا والوثائق التي لم تكتشف كليا أو الشخصيات التي يشار اليها بالاسم أو المتخفية تحت اسماء مستعارة .

وبالمقابل فان « تيرانو بانديرا » يتصرف بشكل تجـريدي ليبرز الموضوع الرئيسي للدكتاتورية . وهكذا يخلق لنا بطلا تافها هو مزيج من نماذج متعددة للدكتاتوريين السياسيين ، صاغه المؤلف وفق تكنيـك « الاسبرنتو » ، حاذيا حذو « غويا » في رسمه للوجوه البشعة .

ونكتفي هنا بذكر هذا الرائد العظيم .

ان هذه الشخصية الادبية ، الكاريكاتورية تعبر عن نفسها بمواقف

بقلم: روبن باريرو ساجيي

ترجمة: محمد خالدي

الرواية اللاتينية

■ كاربنتي

متطرفة تذكرنا بحركات وصفات المهرج . أما فيما يخص الزمان والمكان فان « فال أنكلن » يلغي كل اشارة اليهما . انه يطمح الى عمل رواية تكون شخصيتها أدبية وليست تاريخية . وقد ساعدته المسافة التي خلقها بواسطة السخرية على اقتناص الجانب الكاريكاتوري أو « القرقوزي » للشخصيات والمواقف الروائية .

وارادة التعميم أصبحت بديهية على امتداد النص الادبي بفضل العديد من الاشارات المتقاطعة : استعمال عبارات وكلمات مستعارة من لغة عدد من بلدان القارة ، أو الرجوع الى مناخات وأشياء تنتمي الى مناطق عديدة (مثال واضح على ذلك استعمال تسميات شتى للاشارة ، بشكل متعاقب الى عملة البلد الخيالي حيث تدور أحداث الرواية : « بيزو » ، « سول » ، « سكر » ، الخ ...

صلف ومريض تنهشه الوحدة

مع رواية « السيد الحاكم » لميغل أنخل استورياس ، تأكد الطريق الذي بدأه « آنكلن » . فقد اكتسبت شخصية الدكتاتور حقوق المواطنة مقابل النظرة المثيرة أحيانا التي كان يؤخذ عليها « تيرانو بانديرو » . وهكذا فان أعمال « آستورياس » تندرج ضمن تيار الادب الملتزم .

اننا امام أعمال لم يمنعها افراطها في الجمالية من أن تكشف لنا عن فظائع الدكتاتورية وآراء الكاتب المناهضة للامبريالية ، هذه الآراء التي طورها فيما بعد في كتب أخرى . غير أن هذه الادانة تتم هنا من خلال التقنيات التي روجتها الحركات الطلائعية التي كان « استورياس » من المساهمين فيها .

وهذه الاساليب تمتزج بشكل مدهش بالعالم السحري .

وفي الواقع فان استقلالية الكلمة القوية وكذلك التزامنية وجمال الصور المتفجر وحضور العالم الحلمي ـ اللامنطقي ـ النبوي ـ البعيد عن الحقيقة ، لها كلها ، جذورها المتميزة في العالم الذهني ومعتقدات المواطنين . يضاف الى ذلك العالم الآخر الذي منحته اياه علاقاته بالطلائعية . وعلى درجة متقدمة من تشكيل الادوات القصصية ، فان رواية « الحاكم » تعتبر امتدادا لاعمال « آنكلن » : فهناك ارادة مشتركة في رسم الحدود الجغرافية (وان كنا لا نعثر على أي بلد من أمريكا الوسطى) ، وتعميم المواقع وخلط التواريخ ورسم الشخصية المقولبة .

وقد توهمنا أننا عثرنا ، في هذا الكتاب ، على « بورتريت » الدكتاتوريين الغواتيماليين من أمثال « استرندو كابريرا » و « جورج اوبيكو » ولكن المهم هنا هو انعكاس صورة الدكتاتور القاري التركيبية كما لو كانت شؤما تاريخيا ماكرا أو تجسيدا شبه شيطاني .

ان الدكتاتور ، بصورته السلبية هذه ... الدكتاتور الذي لا يرتدي غير الزي الاسود ، ذو شكل كاريكاتوري بشع تتلخص فيه القسوة الدموية والهوس الاجرامي والعنف الصوري والخوف القاتل ، تحيطه حاشية من المقربين الرعاع الذين يجسدون ـ داخل المناخ المسرحي للرواية ـ أدوار القوى الشريرة المساعدة : الفساد ، والدسائس ، التعذيب ، القمع الخ ..

وكسابقتها ، فان هذه الرواية تضاعف المواقف الدراماتيكية والحيل المسرحية حد خلق النظام الهزلي المأساوي الصرف في عالم خيالي ليس فقط بسبب التغييرات المفاجئة للحدث ولكن أيضا بسبب الاقنعة التي يتقنع بها أشخاص غامضون تنعكس ازدواجية سلوكهم (الحياة ـ الدور) على ثنائية الاسماء .

ان دور عارض العرائس الموكل « للسيد الحاكم » ، الذي يقود المهزلة الكابوسية التي تمثلها الدكتاتورية ، يذهب في نفس الاتجاه .

ان التشويه الطفيف للصور ، من خلال رؤية سريالية للواقع المشوه تصعد وتضاعف البعد الخانق للخوف ـ الكتاب بأكمله يسبح في مناخ جائر ـ ووجه الدكتاتور الاسطوري ، ذلك الحيوان المريض الذي تنهشه الوحدة في زمن موحش لا ينتهي .

ان « خريف البطريرك » لمؤلفه « غابريال غارثيا ماركيز » يعبر خير تعبير عن التيار الذي أدخل الدكتاتور بشكله الكاريكاتوري ، في الرواية .

وبقدرته على الحبك المتسم بالغلو في اظهار الواقع اليومي ـ وهي احدى خاصياته ـ يقدم لنا الروائي الكولبي دكتاتورا لم يسبق لنا أن عرفنا صورة مضحكة مثل صورته : انه عبارة عن غول بدائي (قبلطوفاني) ينهشه حب السلطة والوحدة معا يتسكع داخل حلقة غريبة موغلة في القدم حيث تتتابع الاحداث التي تكشف لنا عن ظمأه وقدرته على التسلط ـ مظاهر وحشيته التي لا تعرف حدودا ـ كما تكشف عن خيباته العاطفية وموته المصطنع أكثر من مرة . وتذكره المحزن لطفولته وعقده المرضية (عقدة أوديب) وهي مقومات مشوشة داخل شبكة من دوائر متراكزة ومتواترة .

وهكذا تمحى حدود الاحداث التاريخية . ان زمنا ميتا ، راكدا لا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتحرك ، يبرز . وبمقدار ما هو طويل ، فان القصة تبدأ مع شيخوخة الطاغية الشبيه بالبطريرك . ويذهب التعميم بعيدا جدا . أنه يشمل تصور الاحداث التاريخية المستجدة منذ اكتشاف أمريكا حتى العصر الذي عرف بشعار : « النظام ... التقدم » . وهذا يرتبط ـ كما كان لدى سابقيه ـ بمفهوم حيّز خال من كل اشارة مكانية محددة باستثناء بعض الدلائل التي تعنى بالاجواء والبيئة الانسانية لسكان المناطق الاستوائية .

يحاول غارثيا ماركيز خلق الرمز الاسطوري الضخم والمبالغ فيه للدكتاتور الامريكي اللاتيني ، مستعملا في هذا المجال وفرة رائعة من المصادر ومؤكدا قدرته الفذة على الكتابة .

ان خلق الاسطورة يستهدف معرفة الشخصية عن طريق المبالغة المفرطة . ففي « مائة سنة من الوحدة » ، يبدو هذا الاسلوب ذا تأثير فعال للغاية لان الواقع اليومي يمتلك امكانيات روائية والقصة تحافظ على نفسها في توازن غريب ، موح وشاعري ولكنها ـ أي الامكانات ـ تبدو أقل اقناعا في « خريف البطريرك » لأنها ، على ما يبدو ، مصابة بما سماه ناقد كولبي « بازمة المغالاة » أي المبالغة في استعمال العناصر الخرافية .

روايتان أخريان : (نقد المنهج) و (أنا الاعظم) تمنحان امكانية قراءة سياسية بدقة أكثر . لأنه يوجد ، في كل منهما ، مشروع سياسي ـ واع أو غير واع ، هذا لا يهم ـ يمكن كشفه من خلال المؤشرات الموجودة في النص .

ففي دراسته لأعمال « كاربنتي » أوضح الناقد « فيدريكو الفيدو » أساسها الايديولوجي مقارنا البنية القصصية لرواية الكاتب الاخيرة برواياته السابقة .

تتميز المرحلة الاولى من أعمال « كاربنتي » بهاجس مسيطر هو تحول المجتمع . فعندما انفصلت كوبا عن اسبانيا سنة 1898 تحولت الى مستعمرة جديدة وأصبح التحول الاجتماعي هاجس فئة التقدميين في البلاد ، هذه الفئة التي كانت تؤلف جماعة المثقفين (المينوريست) المجتمعة حول (مجلة التقدم) والذي كان « كاربنتي » أحد أعضائها .

وقد تكونت هذه الجماعة بغية سد الفراغ الايديولوجي الذي افرزته البورجوازية الكوبية التي سلمت نهائيا الى الاحتكارات الجديدة ـ الولايات المتحدة ـ دور الهيمنة الذي كانت تلعبه .

وقد كانت (المينوريست) تطمح الى معارضة هذه السيطرة الساحقة بتأكيدها الهوية الوطنية وبحثها عن ثقافة خاصة ، متحاشية السقوط في حدود ما تثيره المحلية الفولكلورية .

الواقع الرائع

وسعيا الى ازالة هذا الخطر ، دعا هؤلاء الى العالمية الادبية وعلى وجه الخصوص الى الطلائعية الاوروبية . وكانت أوربا آنذاك قد فقدت صفتها كمركز استعماري . فعندما يؤكدون بان تاريخ أمريكا اللاتينية هو تاريخ « الواقع الرائع » ، فان « كاربنتي » يؤيد ذلك بالرأي القائل بانه ، في هذه القارة يكفي أن تكون واقعيا لكي تدخل مجالي الملحمة والدهشة . وكانت الوسيلتان اللتان استعملهما الكاتب لتطبيق نظريته هما : القصة التاريخية وأسلوب التغريب وهذا الاخير قد ساعده على اظهار الحقائق الجديدة التي ظلت ، حتى هذا التاريخ ، لا نجد تعبيرها الادبي .

أما القصة التاريخية ، فانها تستهدف استعادة هذه الخصوصية المستلبة ضمن موقف ذي تبعية مطلقة .

ان المسالة تعني دائما العودة الى الماضي باتفاق مع تواتر تاريخ منغلق على نفسه ، لا يحمل أية اشارة نحو توجهه الى المستقبل . وهذه المرحلة ، محددة ، ليست فقط بالمضمون ولكن أيضا على مستوى البناء الروائي ، وذلك عن طريق القصة الارتدادية (الانكفائية) المتزامنة مع عملية النهب الاقتصادي والثقافي الذي تعيشه البلاد الخاضعة للسيطرة الامبريالية الامريكية .

وكانت رواية (نقد المنهج) قد فتحت أفقا روائيا جديدا بالنسبة (لكاربنتي) . فقد اختفى هاجس التحول الاجتماعي ، لأن المجتمع الكوبي قد تعرض ، بعد الثورة ، الى تغيير جذري . وبهذا يختفي مفهوم الزمن المتواتر . ويستقر ، لاول مرة ، في أعمال الكاتب البناء الروائي التصاعدي الطبيعي .

وكانت هذه الرواية قد كتبت في فترة سادتها محاولة تعميم الثورة الكوبية ، هذا التعميم الذي ظهر خاصة في طروحات « ارنستو شي غيفارا » وفي ممارسة الحرب الشعبية . كانت المسألة تتعلق بادراك الخطوط المشتركة وتجاوز الخصوصيات الوطنية : فهناك تراث ثقافي مشترك وهناك تبعية سياسية . لقد كان بامكان رواية (نقد المنهج) أن تعيد ، بشكل متجانس ، التناقض بين مشروع توحيد القارة والواقع المتعدد الاشكال .

من هنا كانت عملية المونتاج الذي يبدأ ببناء نموذجي ـ البلد والدكتاتور ـ من خلال عناصر يسهل معرفتها بالنسبة لمواطن أمريكا اللاتينية لأنها ميزة كل دكتاتوريات الماضي والحاضر .

اما فيما يتعلق بالمواقف فان الايجاز يستهدف اقامة احتمال ينطلق مما هو كاريكاتوري . وهو عبارة عن صورة مرسومة بخطوط عريضة ساخرة ، حيث تتعرف ، منذ الوهلة الاولى ، الى الظاهرة التي يمكن تسميتها بالثقافة التبعية لأمريكا اللاتينية . وهذا يظهر واضحا في الرواية من خلال الانقسام بين « الهنا » و « الهناك » . انه انعكاس واقع مخطط له من قبل أرباب الاعمال الموجودين « هناك » (في الولايات المتحدة وباريس) .

أما حاكم الدولة الدكتاتور فانه ، عند « كاربنتي » عبارة عن نموذج كاريكاتوري ، الا انه يصل حد المسخ انه يبدو : في بعض الاحيان طيبا حد الغرابة .

وهكذا يمكننا ملاحظة عناصر ، في هذا الكتاب ترجع جذورها الى (تيرانو بانديراس) . كما يمكننا ملاحظة شيء آخر أكثر أهمية على المستوى المطروح . ولا أدل على ذلك من المضمون السياسي الأكيد الذي يجمع طرفي البناء الروائي المتماسك لهذه الرواية الرائعة .

وبهذه الطريقة نكتشف التوافق الذي يربط العملية الادبية بالواقع التاريخي لقارة أمريكا اللاتينية .

ويمكن لهذا التوافق من ان ينكشف هو الآخر في رواية « أنا الاعظم » للكاتب الباراغواوي « رواباستوس » ، اذ يوجد هنا أيضا مشروع سياسي وان كان مغايرا للمشروع السابق .

وعلى العكس من الكتب الاربعة السابقة ، فان رواية « أنا الاعظم »

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

تهتم بوضع وشخصية تاريخيين واضحين . والدليل على ذلك وجود الدكتور « خوزيه رودريغازدي فرنثيا » دكتاتور الباراغواي للفترة من 1814 – 1840 .

ان هذا الرجل الفريد من نوعه والذي انتخب دكتاتورا من قبل المؤتمر ، بفضل أصوات الاغلبية لنواب الارياف ، يتحمل أعباء تتخذ طبيعة حكم استثنائي – كما كان يحصل في روما على عهد « ساسيناتوس » – يستهدف انقاذا عاما في وقت كانت فيه الدولة مهددة بخطر محدق . هذا الدكتاتور اذن ، قد اعطي له ، خلال ساعة الحساب ملمح ايجابي ولكن دون اخفاء الملامح السلبية لاستبداديته الفظة .

والى حد ما ، فالرواية ، تتناول من جديد ،الاشارات الواضحة الى الواقع على غرار روايات القرن التاسع عشر . ولكنها تتميز عنها باضافتها قرنا كاملا الى تجربتها وكذلك بمعالجتها الجمالية التي تضعها في مصاف « تيرانو بانديراس » (الطاغية بنديراس) . ان هذه الملاحظة تتوافق ومسيرة « روا باستوس » الذي يتأمل وجه الدكتور « فرنثيا » كما لو كان : « شخصية رمزية » تحاول تجسيد طبيعة وقدر مجتمع » حسب ما أورده الكاتب نفسه .

مراجعة كاملة للتاريخ

ان الامر لا يتعلق باحصاء تاريخي منفعل ، بل باعادة خلق الشخصية الادبية التي تتحقق على مستويين . فعلى المستوى الاول ذي الطابع الجمالي كانت هناك اقامة عالم روائي مستقل ومتماسك حول البطل ، عولج من وجهة نظر تحلل شخصيتها من خلال عمل صعب فوضوي . ان أجزاء هذه العناصر تتكون من سيرة الدكتاتور « فرنثيا » وكتابات المعجبين والمشنعين به على حد سواء ، كذلك من الاساطير الشعبية الجارية ومن خيال الروائي الذي يضيف عناصر ويرتب – أو يشوش – كيفيا بقية الاجزاء . وكمثال على ذلك تدخل البطل بعد وفاته وهي حيلة أدبية مبنية على أساس انه يعيش في الوعي الجماعي لسكان بلده .

والمستوى الثاني ذو طابع أيديولوجي ، يتفق ، بشكل تام والمستوى الاول . واذا كان الدكتور « فرنثيا » قد ظل يعيش في ذاكرة شعبه ذلك أن فترة حكمه قد أتاحت للباراغواي أن يؤكد استقلاله ويحافظ على سلامة أراضيه التي كانت تهددها جاراتها القوية (الارجنتين والبرازيل) .

أضف الى ذلك أنه أقام داخل « أول جمهورية حرة مستقلة » في أمريكا اللاتينية ، نظاما مستقلا ذاتيا يقوم على مبدأ الجماعية العادل الذي تشرف عليه الدولة ، هذا المبدأ الذي وقف أمام تدخل راس المال البريطاني المسيطر آنذاك على اقتصاد امريكا اللاتينية .

ان « فرنثيا » هو رمز القدرة والعفة والفاعلية ، فعلى أساس افتراضاته تطور المشروع السياسي : اعادة نظر كاملة في أحوال البلاد وفق رؤية الدكتاتور القومية والوطنية ، وذلك من خلال منولوجاته ، « المناشير الابدية » التي كان يمليها على موظفيه والملاحظات التي كان يضمنها « كراسا خاصا » .

واعادة النظر هذه ، لا تتوقف عند عام 1840 ، السنة التي توفى فيها الدكتاتور « فرنثيا » ، وانما تظل قائمة حتى أيامنا هذه . ولهذا فالبطل يمثل انهيار نظام الاكتفاء الذاتي للبلاد الذي سببه هجوم المصالح الاجنبية ويعلن اتجاه استقلال متصاعد ، بلغ اليوم أوجه مع الامبريالية النامية للبرازيل التي أصبحت تهدد ، مجددا ، الوحدة الوطنية والوجود المستقل للبلاد أو بالاحرى هذا الوجود ذاته . حتى أن البرازيل أصبح يعتمد على تواطؤ الدكتاتورية المفضوح التي تمسك بزمام الحكم منذ ربع قرن .

وكان مجال هذا النمو ديناميكية القصة داخل عالم روائي وذلك بفضل ما سماه هيجل « بالمفارقات التاريخية الضرورية » .

وهكذا نجد ان العمل يندرج ، حسب تصنيف « لوكاش » ضمن الرواية التاريخية التي تطغى على اطار تسلسل الاحداث القصصي لتتواصل في حاضر القاص مفضية الى تحول حاد في المادة التاريخية .

ومن هذه الزاوية ، فان العمل يعبر عن نظرة مهمومة لراي عاجز ، نظرة شعب الجمه قمع الدكتاتورية الحالية الشرس .

يتركز الاهتمام الرئيسي للمشروع السياسي لكل من « باستوس » و « كاربنتي » حول ظاهرة التبعية وان كانا يختلفان في نهجهما الروائي :

فلدى الاول ، تتعلق المسالة بحركة انجذابية في حين أن خط الانحناء لدى الكاتب الكوبي يبدو مبتعدا عن المركز ، الامر الذي يتضح من خلال التباين الكامل بين الاوضاع التاريخية للبلدين المشار اليهما . فالبطل عند « باستوس » يكون موضع تساؤل حالما يبدأ التآكل الناتج عن ممارسة الحكم المطلق بمسخ جذوره وجوهره الشعبيين .

انها جثة كلب الدكتاتور – أي المتحدث الاكثر حقارة – التي تتكفل بتانيبه على غلطته . وكم يحدث أن تدخل المشروع السياسي على حساب القيمة الجمالية الروائية .

وليس فقط مسالة السلطة السياسية هي موضع التساؤل ولكن هناك أيضا مسالة اللغة ومسالة حدود متناول الكتابة . وستبقى رواية « أنا الاعظم » ولا شك احدى العلامات البارزة في ادب أمريكا اللاتينية في عصرنا بفضل تعدد معانيها الفنية اذ اقترن مضمونها التاريخي بتعبير روائي محكم وأصيل .

وكلمات « سوباراسو » التالية ، التي تشير الى الروايات التي تناولت شخصية الدكتاتور في أمريكا اللاتينية بعد « آنكلن » ، تستوفي هنا كل أبعادها : « أن المسألة تعني التحام الوعي النقدي بالوعي الجمالي، التحام لقاء خصب لتيارين أدبيين يستهدف أحدهما التغيير الاجتماعي في حين يطفح الآخر بارادة خلق تلقائية ، كما يتعلق الامر ، اضافة الى ذلك، بوسيلة أتاحت لروائيي أمريكا اللاتينية أن يفرضوا ارادتهم التاريخية ، وان يمثلوا ، بطريقة فنية ، وجهة نظر سياسية » .

ان ظهور شخصية الدكتاتور ، وبشكل ملح في تاريخ أمريكا اللاتينية يطرح جملة من الاسئلة المتعلقة بالحكم ، أصوله ، شكله ، امدائه ، تعسفه ، المستفيدين منه ، ضحاياه الخ ...

ويمكن تلخيص كل هذا في السؤال الثلاثي التالي : من يمارس السلطة ؟ ضد من ؟ ومع من ؟ – دكتاتور تقليدي ، شعب ، امبريالية – (متحالفة عادة مع البورجوازية الوطنية) .

وهكذا يبرز مرة أخرى الاهتمام الملح – وان كان في بعض الاحيان خفيا – الذي يسيطر على هذه الروايات : تبعية أمريكا اللاتينية وامكانية تحررها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مشاهد من مدينة كانت

مي مظفر

المشهد الاول :

في منعطف مهجور ، التقيت بصديق قديم . صافحته بكل اشتياق وردت عليّ يداه ببرود . لمحت عليه معالم كبر مبكر . سألته عن أحواله فقال : هل انت من أهل الكهف ؟ ثم اخذ يستعرض قامتي من الرأس حتى القدمين . وكرر عليّ السؤال : هل انت من أهل الكهف ؟

قلت : ومن هم أهل الكهف ؟

فاجابني والضحكة ملأت وجهه :

ـ الآن عرفتهم عن كثب .

ثم تركني ومضى يسعى دون ان يكلمني .

كان الطريق موحشا ، مظلما رغم حدّة الشمس . لكأنما بينه وبين الشمس جدرانا . ظننت لوهلة انني اسير في طوابير من الاحلام تنتقل بي من مشهد لآخر وأنا امر بالطرقات مرورا سريعا . الطابوق رطب ينضح بالعفونة ، يتسلق فوقه الطحلب كوجه شوهه الجذام . الطريق يضيق وفي وسطه تجري ساقية من الاوساخ تنبعث منها ابخرة نتنة .

عبر هذا العالم المتوحد كنت اتلمس طريق الخروج . فالتصق بحواجز الدور الممتدة على صفحتي الشارع فاجد الابواب مشرعة ولكنها لا تشرف الا على جدران عالية .

احسست حينذاك انني كالطفل الضائع ابحث عن ذراع تؤويني .

المشهد الثاني

كان أول ما استولى على عيني واثار دهشتي لون النهار الفاقع واصوات السيارات المتشابكة في بعضها كقبر العالم الآخر .

افزعتني الضوضاء وبهرني النهار الطالع . كان الخوف يجري في شراييني وينتظم وقعه مع خفق القلب وضرب محركات السيارات . رغم ذلك اندفعت في جريان مشحون بالغبطة والقلق .

وقفت امام كشك صغير للجرائد وقرات عنوانا بالحرف العريض : « الخبز بذهب والمقاصل تحال للمزاد العلني » .

ووجدت الناس يتدافعون في مجموعات كبيرة ليقتنوا ما يسمى بجريدة الصباح .

في الشارع العريض ، المزدحم بآلاف الاقدام وجلبة الباعة ومحركات السيارات . كان الدم يجري قانيا يتلمس طريقه بوداعة الى اقرب بالوعة ليتسرب منها الى باطن الارض .

كان القتيل مسجى في الشارع باهمال تتعثر به الاقدام بلا مبالاة . ثم يتحرك يمينا وشمالا محكوما بتيار السير العارم . كان يرتدي ثوبا ابيض مبقعا بالاسود ومشقوقا من جانب العنق حينما بدت حركة ضعيفة هي بقايا خفق . ذلك هو ثغر النافورة الحمراء .

شيء واحد فاتني ان اذكره في هذا المشهد هو لافتة كبيرة ثبتت على ذراع القتيل وعليها كتابة بحروف صغيرة لم اتمكن من قراءتها .

حين توغلت في قلب هذا العالم المفتوح أضحى المشهد مألوفا حتى صرت كالآخرين اتعثر بالجثث دون مبالاة .

المشهد الثالث

كنت مستلقية على بلاط بارد كعمود خشبي . عيناي تبحران في الفراغ ووجهي مصلوب . واذ استيقظت على حين غرة أنفض عني بلادة حلم قاتم ، ركضت بحركة بطيئة ووجهي مغموس ببركة معتمة . اصطدم ظهري بشيء صلب وظننت لوهلة أن حجرا قد سقط فوق كتفي وما ان امعنت النظر جيدا حتى ادركت انها قدما رجل معلق .

هربت نحو الشارع الكبير . كان مزدحما بالوف الاجساد المتحركة بضراوة وجوههم ممزقة عيونهم طولية يتناثر شعرهم فوق الجبين . حفاة عراة يتسابقون كيوم الجمع الاكبر ويحملون بايديهم رؤوسا مقطوعة مشوهة الملامح جاحظة العيون وهم يصرخون بمرح هستيري ويرددون بين الحين والآخر : « عيد .. عيد » .

اقترب مني احدهم ، له وجه ضفدعة . ولوح لي بالرأس المقطوع حتى كاد يلامس شفتي ثم جذبني من شعري بقسوة فتبعته طائعة . كنت اسير حافية القدمين فوق قير اذابته الشمس ومن حولي تختلط الاصوات وتتعالى ، فيشتبك العويل بالزغاريد . والطبل يقرع من ورائنا بضربات حادة نافذة لكأنه يعلن بدء لعبة الفناء . ثم غبت عن الوعي .

ببطء رحت اتلمس جدران الغرفة المعتمة . وتراءى لي من فتحة صغيرة في السقف وعبر شعاع القمر الممتقع الوجه صورة شبح يرتدي الابيض . كان يقترب مني . تلمست جدرانا مطلية بالزيت فانزلقت يدي من غير ان تستقر على مهبط . والشبح يدنو ليحاصرني فلا أملك حياله شيئا غير الهرب وراء الاجفان . فاخفيت راسي تحت ذراعي .

المشهد الرابع

ثمة وهج مستعر . الشمس تغرب . وشيئا فشيئا ينسدل البرقع ليتحول لون السماء الى نيل . ثم ينتشر الهدوء . تصمت الاصوات الناشزة والاصوات الهادمة . يركن الموت لوهلة .

تتسلل الخطى . مهلا .. مهلا .. حذار ان توقظوا الموت . شيئا فشيئا يتجمع الناس حول صنبور الماء . يجري الماء متسربا نحو الارض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فتمتلئ الدلاء ، واحدة بعد الاخرى وترتوي الاحشاء . يتحول التراب الى طين . والماء يمتزج بالدم . يلتقي [illegible] بعضهم ببعض يلعبـــون لعبة الموت فوق بقع الطين . يعلو صوتهم : س .. هش سيستيقظ الموت . ولكن الاطفال لا يهابون الموت . انهم يضحكون ودلاؤهم مليئـة بالماء .

الهدوء يغري بالبقاء فترة اطول فوق الارض ، تحت السماء الطرية. والوهلة تغري باستنشاق نسمة حرّة بعد عفونـــة الملاجىء ولكن الموت قد يصحو في اية لحظة . ان سطح الارض مقبرة . وان بدا سحرية قلبت الكون فصار البطن ظهرا والظهـــر بطنا . فوق التراب ام تحت التراب ايهما الموت وايهما الحياة .

صوت دوي .. أقبل الموت . الاقدام تسرع والايدي تشـــد على الدلاء . وفجاة تبعثرت الاجساد يمنة ويسرة تكوم الاطفال جثثا فـوق مواطىء لهوهم . بضع لحظات حسب والمقبرة امتلات . ثم عاد الهدوء بعد انحسار الموجة بينما ظل صنبور الماء يجري .

المشهد الخامس :

كان جسدها مسجى على الطريق بسكون . ملقى على درجات سلم ونصف ملفوف برداء اسود . تدلى رأسها وانهمر الشعر الاســـود يفترش العتبات بينما تهدلت ساقاها على الدرجات السفلى وقد ظهر جزء من الساق اليسرى والقدم اليمنى . كما تحرر الثوب من فتحـــة الكتف الايمن وفتحة الصدر حيث تدلت سلسلة مربوطة بقلب .

كان وجهها هادئا تعلوه ابتسامة . وليس على الجسد اية كدمات أو دم .

كان الوقت فجرا . والطريق خاويا . اقترب منها كلب تبدو عليه مظاهر الشراسة والجوع . القى نظرة سريعة على الجثة . مرر انفه على العنق ثم انتقل الى الثغر وراح ينبش الجسد بقدمه كما ينبش الارض . فانشق الثوب من عند الصدر وتدلى النهد . اقترب ليشم . ثم تركهـا بلا مبالاة وعاد من حيث اتى .

حينذاك اقتربت قطة تبعتها قطة أخرى وجفلتا اول الامـــر لمرأى الجسد ثم شرعتا بالاقتراب شيئا فشيئا حتى جفلتا من جديد لمرأى الكلب قادما مرة اخرى . هربتا . واقترب الكلب . جلس قرب المرأة لوهلـة دون ان يفعل شيئا . حك جسده المبقع بالجرب . ثم قرب انفه وكان شيئا ما اثاره . اذ راح يعدو جيئة وذهابا يعوي بصوت متوحش ثم يثب فوق الجسد ويعوي . اقتطع الحلمة وانهمر الدم . اقتربت مجموعة كلاب ربما كان العويل نداء للآخرين . تجمعت الكلاب تنهش جسد المرأة .

كانت الشمس تتحرك نحو الطلوع وبدا العالم قرمزي اللون وجسد المرأة مجرحا . فهبط الغراب ، وقف عند البطن ، وحرك منقاره كمـن يبحث عن دودة أرضية . ثم تجمع سرب الغربان حتى تغطى جسد المرأة مرة اخرى . وحين فرت الغربان اضحى الجسد الهادىء شيئا بلا هويـة وتحولت الابتسامة فوق الوجه الى صرخـــة متحجرة والعيون دوائـــر شاخصة في الفراغ .

المشهد السادس

حين عدت الى الدار وجدت في انتظاري باقة ورد مزينـــة بشريط احمر كتب عليها كلمة « صالح » .

اثرى الفضول مخيلتي . ورحت استعرض كل « صـــالح » مر في ايامي قديما وحديثا فلم اجد من له وجود فعلي وله يدان تحملان باقـــة ورد انيقة .

خلدت الى النوم ورايت حلما غريبا . كنت وسط طريق فارغ حين مر من امامي رجل يمتطي صهوة جواد ابيض . مضى يسير سيرا حثيثـا ويجر خلفه عباءته السوداء الطويلة وقد غطته من قمة راسه واسترسلت لتلامس قدميه وتغطي مؤخرة الجواد . وصرخت في نفسي : « هل هو ذا صالح ؟ » .

عدوت وراءه وهو ماض لا يلتفت نحوي . ثم ادركتـــه وانا ما زلت الهث . مددت يدي نحوه بخشـــوع حتى امسكت بعباءتـــه . فاستدار نحوي . لمحت وجه شيخ جميل بلحية بيضاء صغيرة .

لم يكلمني . بل مال بجسده نحوي حتى خلتـــه سيلامس الارض ثم امسك بقدمي والبسني خفين مطاطيين .

قلت له : هل انت صالح .

فلم يجبني . بل تركني اسير فوق ارض رملية ومضى .

المشهد السابع

فجرا ، صحونا على صوت غناء . عجبا !! هرعنا صوب النافذة كان صوت الرجل المغني يقترب منا . فامتلأنا شوقا لمعرفته . غير ان صوت انفجار بعيد ذكرنا بما نحن فيه فتراجعنا واغلقنا النافذة .

تسلل الينا الصوت . ورحنا نتامل حركته ، ونقيس مدى قوتـــه وضعفه ونتصور بالغيب فنراه يتحرك عبر الاحراش الجبلية . لقد كان صوته نابعا من الاحجار والشجر المحترق .

هجمت اصوات المدفعية وتلتها سيول الرصاص . رغم ذلك لم يخمد الصوت بل تسلل الينا كالجمر الخافت تحت وهج المعركة . ارتمينا فوق الارض وطفقنا نصغي في انتظار ان تنتهي شعائر الاحتفالات اليومية وهي تتكرر بفترات غير محددة بزمن . ارتجفنا رعبا . تلاصقنا والتصقنـــا بالارض . ذكرنا كل اولياء الله ودعونا باسم كل الاديان . ارتجت بنـــا الدار حتى خلنا اننا نسفنا في قعر دارنا . ولكن شيئا من هذا لم يصبنا . وحين ايقنا اننا ما زلنـــا ثابتين على الارض كان الصوت قد ابتعـد وتلاشى .

مات المغني لابد ..

كان انتظارا طويلا وحلت الهدأة . هدأة عميقة تشبه سكون المقابر ، يتجمع فيها الظلام والسكون ووحشة الانفراد . ثم انبعث الصوت المغني مرة أخرى فكان اكثر وضوحا واجلى نطقا . وكان يردد كلمات الحب في اغنية ريفية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علاج كسر العظام وخلع المفاصل عند الزهراوي

الدكتور نضير مطلوب

الزهراوي هو ابو القاسم خلف بن العباس اكبر جراحي العرب . ولد في الزهراء بجوار قرطبة في الاندلس ولمع في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي اشتهر بكتابه « التصريف لمن عجز عن التاليف » الذي ترجم الى اللاتينية والذي صار مرجعا للاطباء وكتابا مدرسيا في جامعات اوربا حتى مطلع القرن السابع عشر .

والزهراوي هو الذي نصح باستعمال التشريح عند درس الجراحة واستعمل ربط الشرايين ووصف الناعور ونصح بضرورة حصول التصاقات بين الكبد والخلب قبل فتح خراج الكبد . كما اجرى عملية شق القصبة الهوائية .

اما في علاج الكسور والخلع فان تعاليمه صحيحة سليمة تشبه ما نمارسه اليوم وتدل على فهم وادراك وبعد نظر في هذا العلم .

لقد قال في علامات الكسر ما يلي : ومما يتعرف به كسر العظم اعوجاجه ونتوؤه وظهوره للجس وتخشخشه عند غمزك اياه بيدك .

وفي انواع الكسر قال : وقد يختلف نوع كسر العظم ايضا في نفسه لانه قد يكون كسره تقصفا من غير ان يحدث فيه شظايا وزوائد متبريه وغير متبريه وقد يكون الكسر مع جرح وخرق في الجلد ويكون للكسر صدع يسير ولكل نوع حيلة خاصة في جبره .

وعن طرق جبر الكسر قال : فان كان العظم فيه شظايا فلابد من رد هذا العضو المكسور من الناحيتين يدا كان ام رجلا اما بيدك ان كان العضو صغيرا واما بحيلة واما مع الحيلة واليد .

وعن جبر الترقوة قال : تاخذ عمامة تكون طويلة جدا ويكون عرضها شبرا او نحو ذلك ثم تضع الكرة تحت ابطه ان احتاج الى ذلك ثم تشد العمامة على الكسر كما تدور ولفها على عنقه وتحت ابطه الصحيح وتحت ابطه المريض وردها مرات على كل جهة وكيف رأيت ان الشد يضبط الكسر ضبطا محكما وهو ما لا يخفي عليك . وهذا هو عين ما نعمله الان بطريقة العصابة على شكل الرقم العربي 8 .

وعن ضرر المد الشديد في علاج الكسر قال : واحذر المد الشديد والغمز القوى كما يفعل كثير من الجهال وكثيرا ما يحدثون بفعلهم ذلك ورما حادا وزمانة في العضو كما قد شاهدت ذلك من فعلهم مرارا .

وفي باب رد فك المنكب وصف دقيق لعلامات الفك قال : « ويتعرف الفك ان كان الى اسفل نحو الابط يقرن بين المنكب المفكوك والمنكب الصحيح فانك تجد بينهما خلافا ظاهرا وتجد رأس المنكب فيه تقعر تحت الابط عند اللمس رأس المنكب كانه بيضة . ولا يقدر العليل ان يرفع يده الى اذنه (ولنسم ذلك علامة الزهراوي) ولا ان يحركها جميع الحركات».

وهكذا ترى ان الزهراوي يعتمد الطريقة الصحيحة في الفحص وهي التامل والمقارنة مع الجهة السليمة فيلاحظ التقعر بسبب بروز الاخرم ثم يعتمد على الجس ثم يمتحن الحركة وهذه هي اصول الفحص كما هي مكتوبة في كتب الطب المدرسية الحاضرة .

اما الطرق التي يستعملها الزهراوي في رد فك المنكب فهي خمسة كلها تستند الى تفهم كامل لآلية الفك وجعل لكل منها دواعي معينة .

الطريقة الاولى قال : هذا الفك قد يسهل ان كان طريا وكان العليل صبيا ورده ان يرفع خادم يد العليل الى فوق ثم تجعل انت ابهامي يديك تحت الابط وترفع المفصل بقوة الى فوق موضعه والخادم يرفع يده ويمدها الى فوق ثم يحتذبها الى اسفل فانه يرجع بسهولة ان شاء الله .

فلنقارن طريقة الزهراوي بالابهامين بطريقة الابهام الواحد التي يقول بها ميلج من امريكا سنة (1955) .

ان ميلج يسمى طريقته بطريقة الشد والرفع واجراؤها كما يلي : يمسك الجراح الترقوة باصابع احدى يديه بينما يوضع الابهام بثبات تجاه الرأس المفكوك لمنع الحركة اثناء رفع الذراع . وباليد الاخرى يباعد مرفق المريض تدريجيا الى ان تصبح الذراع كلها منتصبة فوق الرأس عندئذ يرفع راس العظم المفكوك نحو الاعلى بلطف والنتائج مرضية عادة .

ويقول ميلج عن طريقته هذه انها مطابقة تقريبا لطريقة سير روبرت جونس وهو يوصي بها بشدة في علاج الكسر مع الفك ايضا وينتقد طريقة كوخر المعروفة بانها غير طبيعية وقد تؤدي الى كسر لولبي لعمد العضد وينصح بعدم استعمالها حتى في الفك البسيط .

والان لنقارن بين طريقة الابهامين للزهراوي وطريقة ميلج بالابهام الواحد . ان الزهراوي يستعمل الابهامين لرفع راس العضد المفكوك نحو التجويف الحقاني بينما يقوم مساعد بتبعيد المرفق ومما لا شك فيه ان استعمال ابهامين خير من استعمال ابهام واحد وان مساعدة الخادم اثناء العملية تعطي للجراح حرية افضل للعمل .

طريقة الزهراوي الثانية : يستلقي العليل على ظهره وتوضع تحت الابط كرة من الصوف تكون معتدلة بين اللين والشدة ثم يجعل الطبيب كفه على الكرة ويرفع رأس المنكب بقوة ويد العليل يجذبها خادم الى اسفل وخادم اخر يمسك رأس العليل لئلا يتحرك الى اسفل فانه يرجع على مقام . ويوصي الزهراوي بهذه الطريقة اذا لم تنجح الطريقة الاولى وكان الفك قد مضى عليه بضعة ايام . ان هذه الطريقة صحيحة في مبدئها ويمكن مقارنتها مع طرق هيبوقراط وميلر وميلج .

الطريقة الثالثة : وتتضمن ادخال منكب شخص اخر تحت ابط العليل لرفع ابطه الى فوق وخادم اخر يجذب يد العليل نحو الاسفل وهي تشبه طريقة هيبوقراط الذي وضع القدم تحت الابط .

الطريقة الرابعة : تعتمد على عمل رافعة خشبية راسها مستدير ومغطى بخرق لينة نرفع بها رأس العضد المفكوك .

الطريقة الخامسة : تعتمد على استعمال عارضة السلم كنقطة ارتكاز بعد شد الذراع على خشبة .

هذه هي غزارة علم الزهراوي وسعة تجربته ويحق لي ان اشيد برقي الطب عند العرب وبعظمة الجراح الزهراوي كما انني قد اثبت ان اللغة العربية الخالدة الجميلة بمفرداتها الواسعة تصلح لتدريس الطب وسائر العلوم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. احمد خالد محمد بخيت
كلية التربية ـ جامعة البصرة

المفاهيم الأساسية للمعالجة الآلية للمعلومات

دراسة نظرية حول تقديم المفاهيم الاساسية للمعالجة الآلية للمعلومات في مناهــج الدراســة الثانوية في الاقطار العــربية

من الواضح حاليا ان المعالجة الآليــة للمعلومــات(1) Automatic Data Processing قد تداخلت في اهم مجالات النشاط الانساني واصبح مفهوم ((المعالجة الآلية للمعلومات)) عنصرا مهما من عناصر الاعداد الثقافي العام لكل مواطن في العصر الحديث . ومن ثم كان لابد لهذه الظاهرة من ان تجد انعكاسا في المقررات المدرسية الامر الذي بدا في الستينات من هذا القرن عندما تحددت في مدارس معظم الدول المتطورة اتجاهات رئيسية نحو اثراء مناهج الرياضيات للمرحلة الثانوية بادخال بعض فروع الرياضيات المرتبطةباستخدام الحاسبات الالكترونية وترتبط هذه الاتجاهات من جهة اخرى بالتطوير الجذري لمحتوى الرياضيات المدرسية والذي تم في السنوات العشرين الاخيرة .

ان دراسة الابحاث والدراسات العلمية التي تمت في هذا المجال في مختلف دول العالم المتقدمة تمكننا من تحديد المجالات الرئيسيـــة للبحث في هذا الميدان :

1 ـ تحديد مكان المقررات الجديدة في برامج الدراسة الثانوية ، اي هل ينبغي ان تدرس هذه المواد مرتبطة بالرياضيات أم من الافضل ان تكون مواد دراسية منفصلة (مستقلة) ؟

2 ـ تحديد اهداف تدريس هذهالمقررات بالمرحلة الثانوية وبناء على ذلك التحديد الدقيق لمحتواها .

3 ـ ضمان توافق المحتوى العلمي لهذه المقررات والتطور المستمـــر للحاسبات الالكترونية ونظم البرمجة .

4 ـ المشكلات المرتبطة بطرق تدريس هذه المقررات مثل اختيار لغة البرمجة Programming Language المناسبة لتلاميذ المرحلة الثانوية وتنظيم التدريب المهني للتلاميذ عند استخدام الحاسبـــــات الالكترونية ... الخ .

وهنا تنبغي الاشارة الى ان العديد من هذه المشكلات لم تجد حلا نهائيا في الكثير من دول العالم المتقدمة.

اما في باقي الدول وخصوصا الدول النامية فان هذه المشكلات لم تطرح حتى الآن للبحث ، وفي هذا الصدد واذا اخذنا في الاعتبار التطور الهائل الذي تم في مجالات الحاسبات الالكترونيـة وتطبيقاتها في مختلف انواع النشاط الانساني ودورها الرئيس في دفع عجلة التطور في عصر العلم التكنولوجيا فانه من الضروري الان بحثمشكلة ادخال بعض المناهج الاساسية للمعالجة الآليةللمعلومات في مناهج الدراسة الثانوية في الدول العربية .

ان الرياضيات اصبحت اساسا لجميع العلوم واصبح تطبيـق الطرق والاساليب الرياضية في مختلف فروع المعرفة (الطبيعية ،الفلك، البيولوجي ، الاقتصاد والدراسات الانسانية) ظاهرة مميزة لتطور الرياضيات في النصف الثاني من القرن العشرين . ومع هذا فان برامج الرياضيات الحديثة للمرحلة الثانوية في معظم الدول العربية لم تاخذ هذا بعين الاعتبار . ورغم ان هذه البرامج تعتبر طفرة موفقة نحو تحديث مناهج الرياضيات الثانوية ،الا انها لم تعكس هذا الجانـب التطبيقي ، الذي يكاد يكون السمة الرئيسية لرياضيات النصف الثاني من القرن العشرين . وفي رأينا ان احدى الطرق الممكنة لحل هـذه المشكلة يتمثل في الاجابة عن الاسئلة الآتية :ـ

1 ـ ما الذي ينبغي تدريسه فيمدارسنا الثانوية من تطبيقات الرياضيات الحديثة ؟ ويكون الرد على هذا السؤال بتحديد تلك المفاهيم الرئيسية التي نرى ان ادخالها يحقق التطوير المطلوب ،وبالتاكيد سيكون من جملة هذه المفاهيم المعلومات الرئيسية عن عمـل الحاسبات الالكترونية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب ـ كيف يمكن ربط ما اخترناه من مفاهيم (في الرد على السؤال السابق) بمناهج الرياضيات للمرحلة الثانوية ؟

ان ظهور الحاسبات الالكترونية ، التي تمثل وسيلة فعالة للمعالجة الآلية لكل المعلومات الممكنة ، قد طور بشكل جذري امكانيات تطبيق الرياضيات في العلوم الاخرى ، في النواحي التكنيكية والانتاجية .. الخ بل ان تصميم الحاسبات الالكترونية وتطور الاساليب الآلية لمعالجة المعلومات قد ادى الى تطوير الرياضيات ذاتها والى فتح امكانيات جديدة لحل الكثير من مسائلها ، وادى هذا الى توسيع الفجوة (القائمة فعلا) بين الرياضيات كعلم والرياضيات كمادة دراسية . وفي نفس الوقت تغيرت مطالب المجتمع الى خريجي المدرسة الثانوية وظهر الاتجاه نحو تاكيد الجانب التطبيقي والعملي للرياضيات المدرسية .

وفي راينا ان معالجة هذا الوضع الجديد تستدعي ادخال بعض الاجزاء التطبيقية للرياضيات والتي تعكس المرحلة المعاصرة لتطورها في مناهج المرحلة الثانوية وعندئذ ينبغي تحديد :ـ

أ ـ اي المفاهيم والافكار الرياضية التطبيقية الحديثة سنختارها لاثراء منهج المرحلة الثانوية ؟

ب ـ هل ستدرس هذه المفاهيم فقط في مقرر الرياضيات او بمساعدة بعض المواد الدراسية الاخرى (مثلا الفيزياء) وفي اي تسلسل ؟

وفي محاولة الاجابة عن هذه الاسئلة ينبغي ان لاتهمل خبرات الدول السابقة في هذا المجال .

ان تحليل المقررات الدراسية المرتبطة باستخدام الحاسبات الالكترونية والبرمجة لها Programming في مستوى المرحلة الثانوية (في عمر 15ـ18 سنة) في انجلترا والولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي واليابان وفرنسا وكذلك وثائق الهيئات الثقافية الدولية (اليونسكو والاتحاد الدولي لمعالجة المعلومات IFIP) ودراسة الابحاث التي تمت في هذا المجال في تلك الدول تسمح بتعميم الاتجاهات الاتية .

نظرا للتاثير العلمي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي للنظم الحاسبة الالكترونية الحديثة على الاعداد العام لخريجي الدراسة الثانوية ، يقترح عادة ادخال نوعين من المقررات عن الحاسبات الالكترونية في المرحلة الثانوية :

1 ـ مقررات اولية عن الحاسبات الالكترونية تتيح للتلاميذ في اطار الدراسة الثانوية العامة ان يتلقوا معلومات بسيطة عن المعالجة الآلية للمعلومات .

2 ـ مقررات متخصصة (اكثر عمقا) للمزيد من التوسع في دراسة المعالجة الآلية للمعلومات .

وتفسر ضرورة دراسة المفاهيم الاساسية للمعالجة الآلية للمعلومات في المدرسة الثانوية العامة بالاسباب الآتية :

1 ـ لما كان معظم التلاميذ سيتعرضون في حياتهم العملية المقبلة (خلال 5ـ10 سنوات) بشكل او آخر لضرورة استخدام الحاسبات الالكترونية ، فان المدرسة يجب ان تعطيهم التصور الاول عن هذه الحاسبات . ان الهالة التي تحيط بما يسمى بـ «العقل الالكتروني» ينبغي ان تزاح بأساليب محسوسة ومفهومة لتلاميذ المرحلة الثانوية . ومن الاهمية بمكان ان يفهم التلاميذ ان تلك الحاسبات غير قادرة على عمل ما بدون البرامج Programms التي يضعها الانسان .

2 ـ ان معظم المربين وعلماء النفس يميلون للقول بانه من السهل تعلم مادة جديدة من عمر مبكر (بالطبع مع اعتبار خصائص النمو العقلي للتلاميذ في كل مرحلة ، محتوى المادة الجديدة والطريقة التي تقدم بها) . ومما لا شك فيه ان الانطباعات الاولى عما يدرس في سن مبكر تكون قوية وتبقى مع التلاميذ مدة اطول من غيرها وفي حالة تعزيزها وتدعيمها تصبح مع الزمن حقائق اساسية .

3 ـ ان اكتساب مهارات تجهيز المعلومات ، وضع مخططات (الفوريتمات(2) algorithms) حل المسائل والمهارات الاولية للبرمجة تنظم تفكير التلاميذ . ويتضح هذا في المستوى العالي للدقة والتنبيه المنطقية في تحليلاتهم وتفكيرهم ، ولا يخفى ان هذه الخصائص لاتقتصر على دراستهم للرياضيات وانما تمتد للمواد الاخرى ، بل انها تصبح الخصائص المميزة لتفكيرهم في مختلف المواقف .

وترتبط هذه الاسباب الثلاثة بالاهداف العامة للتعليم الثانوي، وفي بعض الدول (مثلا انجلترا واليابان) توضع اهداف اكثر تخصصا لدراسة هذه المواد الجديدة : ان يكتسب التلاميذ بشكل جيد مهارات المعالجة الآلية للمعلومات والتي تتزايد قيمتها بمرور الوقت سواء للدراسة المقبلة او في مختلف مجالات العمل .

ويميل معظم المربين واخصائي طرق التدريس والرياضيين في العالم للاعتقاد بان القيمة الاساسية لادخال مقررات عن الحاسبات الالكترونية في مناهج الدراسة الثانوية ليست في الحاسبات نفسها، وانما في دور هذه المقررات في تكوين الخصائص المشار اليها عند التلاميذ .

والواقع ان المقررات التي تجرب وتدرس في مختلف مدارس العالم عن الحاسبات الالكترونية تتشابه ، بشكل عام ، في الكثير : فكلها تجمع على اعطاء التلاميذ فكرة عامة عن عملية المعالجة الآلية للمعلومات، وتتمثل بعض الاختلافات بين هذه المقررات في الآتي :

1 ـ بعض المقررات تكتفي باعطاء التلاميذ فكرة عامة عن البرمجة ، بينما يتعرض البعض الآخر لاساليب البرمجة الحديثة وتستخدم فيها لغات البرمجة المتطورة (كاللغات الحديثة : الغول Algol فورتران Fortran .. الخ).

2 ـ بعض المقررات تعتبر من اللازم ان تتاح للتلاميذ فرصة التدريب العملي على الحاسبات الالكترونية .

3 ـ في المقررات المختلفة يختلف توزيع الاهتمام على اجزاء المقرر . ومع هذا فان الاتجاه العام لجميع هذه المقررات يؤكد على ان التلاميذ ينبغي ان يشعروا ويقدروا قيمة الاساليب الحديثة لمعالجة المعلومات التي تتيح لاي معلومات مجموعة ان تعالج بدقة متناهية . وبشكل عام فان هذه المقررات في مختلف مدارس العالم تدور حول الموضوعات الآتية :

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

أ ـ لماذا ندرس الحاسبات الالكترونية ؟

ب ـ الوحدات الرئيسية للحاسبات الالكترونية (بمستويات مختلفة من التفصيل) .

جـ ـ تطبيقات الحاسبات الالكترونية .

د ـ كيف تعمل الحاسبات الالكترونية ؟

هـ ـ معلومات اساسية عن البرمجة (بمستويات مختلفة من التفصيل).

و ـ اتجاهات تطوير الحاسبات الالكترونية .

ز ـ طاقم العمل على الحاسبات الالكترونية .

اما طرق تدريس هذه المقررات الجديدة فتختلف اختلافات كثيرة تتراوح بين استخدام الكتب المدرسية وآلات التعليم . الا انه تنبغي الاشارة الى ان معظم الطرق المستخدمة لا تناسب طلاب المرحلة الثانوية ويرجع ذلك الى صغر المدة التي تدرس فيها هذه المواد في المدرسة الثانوية (10ـ15 سنة) .

وفي الوقت الحالي مع التوسع في تدريس المواد المرتبطة بالحاسبات الالكترونية في المدارس الثانوية ، ظهرت بشكل حاد مشكلة اعداد المدرسين لتدريس هذه المواد وتشمل هذه المشكلة الجوانب التالية :

ـ اعداد واعادة تاهيل المدرسين الذين سيقومون بتدريس هذه المواد.

ـ الاعداد الخاص للمدرسين الذين سيقومون بتدريس هذه المواد في المدارس الثانوية الفنية (تجارية او صناعية ... الخ)

ـ الاعداد العام لمدرسي المواد الاخرى التي ترتبط بشكل او بآخر بمحتوى هذه المواد .

وفي مختلف الدول تستخدم برامج مختلفة لاعداد المدرسين : بعض هذه البرامج معدة جيدا ومعتمدة من الجهات الحكومية المسؤولة، وبعضها نتيجة نشاط او حماسة شخصيات محدودة او مجموعات عمل ضيقة . ومن البرامج المعدة اعدادا حسنا برامج اعداد المدرسين في فرنسا والسويد وسكوتلندا ـ ففي سكوتلندا على سبيل المثال تدرس هذه البرامج في المراكز الاقليمية لتدريس الحاسبات الالكترونية وهي مراكز مرتبطة بكليات التربية . وفي دول اخرى مثل انجلترا والولايات المتحدة تحمل هذه البرامج طابعا اقل مركزية وعندئذ يعتمد الكثير على نشاط الاقسام المختصة بكليات التربية ومديري المدارس .

وهنا تنبغي الاشارة الى انه حتى الآن يولى الاهتمام الكافي لاعداد مدرسي المستقبل (طلاب كليات التربية الحاليين) لتدريس المواد المرتبطة باستخدام الحاسبات الالكترونية ، ويبدو ان السبب الرئيسي لهذا يتمثل في عدم توفر اعداد كافية من المختصين بالحاسبات الالكترونية وتدريسها في تلك الكليات (بالاضافة الى ازدحام خطط الدراسة لهذه الكليات) . ورغم هذا فهناك عدد من كليات التربية يوفر اعدادا حسنا لمدرسي المستقبل الذين سيقومون بتدريس هذه المواد في انجلترا والاتحاد السوفيتي وكندا والولايات المتحدة .

وفي رأينا ان برامج اعداد المعلمين لتدريس المبادىء الاساسية للحاسبات الالكترونية ينبغي ان تأخذ بعين الاعتبار ان المدرس يجب ان:

ـ يفهم جوهر عملية المعالجة الآلية للمعلومات .

ـ يفهم ويقدر دور الحاسبات الالكترونية في المجتمعات الحديثة .

ـ يرى في الحاسبات الالكترونية اداة عصرية تتطلب من الانسان مهارات الوصف او العرض الالغوريتمي Algorithmic description لحل المسائل .

ـ يلم بامكانيات الحاسبات الالكترونية .

ـ يكون قادرا على استخدام الحاسبات الالكترونية في العملية التعليمية .

وينبغي هنا التاكيد على ان المدرس ليس اخصائيا في مجال الحاسبات الالكترونية والبرمجة لها ، ومن ثم يكفيه ان يمتلك ذلك القدر من المعلومات الذي يؤهله لتدريس هذه المواد والاشراف على عمل تلاميذه . ومن الجدير بالذكر ان البرامج المدرسية عن الحاسبات الالكترونية في معظم الدول المتطورة تتطلب بشكل الزامي توفير فرص التدريب العملي للتلاميذ على برمجة مسائل بسيطة وحلها على الحاسب الالكتروني ، وهنا تظهر مشكلة تربوية جديدة وهي اختيار احدى لغات البرمجة المناسبة للمدرسة الثانوية ـ ومن الصعب تحديد الحل الامثل لهذه المشكلة لانها تعتمد على ظروف كل مدرسة والمكان الذي يتم فيه التدريب وبالاضافة الى المشاكل التي ذكرناها ، هناك مجموعة اخرى من المشاكل وان كانت اقل حدة منها :

أ ـ اي المسائل يجب تقديمها للتلاميذ : عددية ام غير عددية ؟

ب ـ كيف يمكن الربط بين هذه المادة الجديدة والمواد الدراسية الاخرى؟

جـ ـ ما هي افضل السبل لعرض الجوانب الاجتماعية لتاثير الحاسبات الالكترونية وكذلك علاقة الانسان بالآلة ؟

ننتقل الآن الى استعراض الاساس الرياضي لعملية المعالجة الآلية للمعلومات ، الامر الذي يتطلب ان نناقش الخطوات الرئيسية لحل المسائل باستخدام الرياضيات والحاسبات الالكترونية . من المعلوم ان تطبيق الرياضيات لحل المشاكل الواقعية يشمل المراحل الآتية :

1 ـ مرحلة الصياغة الرياضية للمسالة ، حيث يحدد او يصاغ النموذج الرياضي Mathematical model للمشكلة المطروحة .

2 ـ مرحلة الحل في اطار النموذج الرياضي وفيها يتم حل المسالة التي تمت صياغتها في المرحلة السابقة .

3 ـ مرحلة التعميم وتتمثل في نقل الحل الرياضي الى لغة المشكلة الاصلية . وعند استخدام الحاسبات الالكترونية لحل المشاكل الواقعية لا يتغير محتوى المرحلتين الاولى والاخيرة بينما يتغير محتوى المرحلة الثانية التي تنقسم في رأينا الى عدة مراحل :

أ ـ الحل التركيبي للنموذج الرياضي Constructive solution

ب ـ الوصف الشكلي لالغوريتم الحل (الصياغة الشكلية) Formal description

جـ ـ الحل الآلي للمسالة Automatic Solution

ان معرفة الغوريتم حل مسالة ما هو شرط ضروري لمحاولة حلها بمساعدة الحاسب الالكتروني ، ويتطلب هذا ان يعرف الانسان سلسلة العمليات التي يؤدي تنفيذها الى الوصول للحل (عادة في هذه المرحلة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا يعرف الانسان نتيجة الحل) . وايجاد الغوريتم حل المسألة (وجود حل الغوريتمي لها) يسمح بتقرير انه من الممكن حلها على الحاسب الالكتروني .

ولاعطاء الحاسب الالكتروني اللغوريتم ، الذي وضعناه لحل المسألة ينبغي ان يصاغ بصورة شكلية بلغة يفهمها الحاسب ومن هذه المرحلة لابد من اعتبار الامكانات الخاصة للحاسب الذي ستحل عليه المسألة وسرعته لتقدير الزمن الذي ستستغرقه عملية الحل (لهذا السبب احيانا يتطلب الامر وضع الغوريتم جديد) . وفي هذه المرحلة ايضا يتم التأكد من كفاية المعلومات المتاحة للوصول الى الحل وتوضع الخطة العامة لحل المسألة على الحاسب ـ وتستخدم عادة للوصف الاولى لالغوريتم الحل لغات بسيطة : الوصف اللغوي والخرائط التوضيحية Flow charts ، التي تترجم في مرحلة لاحقة الى لغات اكثر تطورا (اللغات الجبرية ، مثل Algol-Fortran-Cobol ويمثل هذا محتوى مرحلة الصياغة الشكليةلالغوريتم الحل .

بعد ذلك يصاغ الغوريتم الحل بلغة وسيطة يفهمها الحاسب (مباشرة او عن طريق الترجمة) ويسبق حل المسألة على الحاسب مرحلة تحديد وتصحيح الاخطاء في البرنامج وعندئذ يمكن ادخال المعلومات الاولية الى الحاسب فيتم الحل وفق البرنامج المعدل اتوماتيكيا ويخرج لنا الحاسب النتائج .

وهكذا نرى انه لما كان الانسان يشارك الآلة في عملية الحل (عند استخدام الحاسب الالكتروني) فان مرحلة الحل في اطار النموذج الرياضيتنقسم الى 3مراحل : الاولى ـ حل الانسان للمسألة او تحديد الغوريتم حلها ، الثانية ـ تهيئة المعلومات واعطائها للآلة ، الثالثة ـ الحل الآلي للمسألة .

بناء على كل ما سبق فقد تمكنا من تحديد مجموعة مفاهيم اساسية عن المعالجة الآلية للمعلومات والتي يمكن دراستها في المدرسة الثانوية ، وعند اختيارنا لهذه المفاهيم اعتمدنا على المعايير التالية :

ا) ملاءمة هذه المفاهيم لمستوى الاعداد الرياضي والعام للتلاميذ .

ب) اعتبار الخصائص العمرية لنمو التلاميذ العقلي

جـ) اعتبار القيمة التطبيقية والعملية للمفاهيم المختارة .

د) اعتبار القيمة التعليمية والمعرفية العامة لهذه المفاهيم .

هـ) الاستخدام الناجح لهذه المفاهيم في المواد المناظرة للمنهج المقترح في دول العالم المختلفة .

ويبدو البرنامج المقترح بالشكل الآتي :

1 ـ مفهوم المعلومات

ما هي المعلومات ؟ مختلف طرق الكتابة والتعبير عن المعلومات، تنظيم حل المسائل كمعالجة للمعلومات ، تنظيم المعلومات ، حفظها وترتيبها .

2 ـ الغوريتمات معالجة المعلومات

ما هو الالغوريتم ؟ خصائص الالغوريتم ، طرق التعبير عنه ـ مزايا ونواقص كل منها ، تنظيم المعلومات بهدف معالجتها ، الاساليب الاولية لمعالجة المعلومات : تنظيم الحسابات بالصيغ البسيطة ، تحليل مسائل متدرجة الصعوبة . فكرة عن حجم المعلومات التي ينبغيمعالجتها في مختلف مجالات الحياة العصرية والاستحالة العملية لتنفيذها بالطرق التقليدية .

3 ـ وسائل المعالجة الآلية للمعلومات

المطالب الرئيسية نحو اجهزة معالجة المعلومات ، الوحدات الرئيسية للحاسبات الالكترونية وفكرة مبسطة عن مبادىء عملها ، معلومات اولية عن مبادىء عملها ، معلومات اولية عن مبادىء البرمجة للحاسبات الالكترونية ، كيف ينفذ الحاسب الالكتروني آليا ، معالجة المعلومات ، طاقم العمل على الحاسب الالكتروني ، المهن المرتبطة باستخدام الحاسبات الالكترونية والمطالب التي تقتضيها كل منها .

4 ـ دور النظم الحديثة لمعالجة المعلومات في المجتمع

الاستخدامات المختلفة للحاسبات الالكترونية في شتى مجالات النشاط الانساني ، تأثير الحاسبات الالكترونية على الدراسات العلمية وتأثيرها الاجتماعي .اتجاهات تطوير الحاسبات الالكترونية ونظم البرمجة وسبل اتصال الانسان بالآلة .

وفي الشكل (1) تبدو طريقة عرض واتصال هذه المفاهيم .

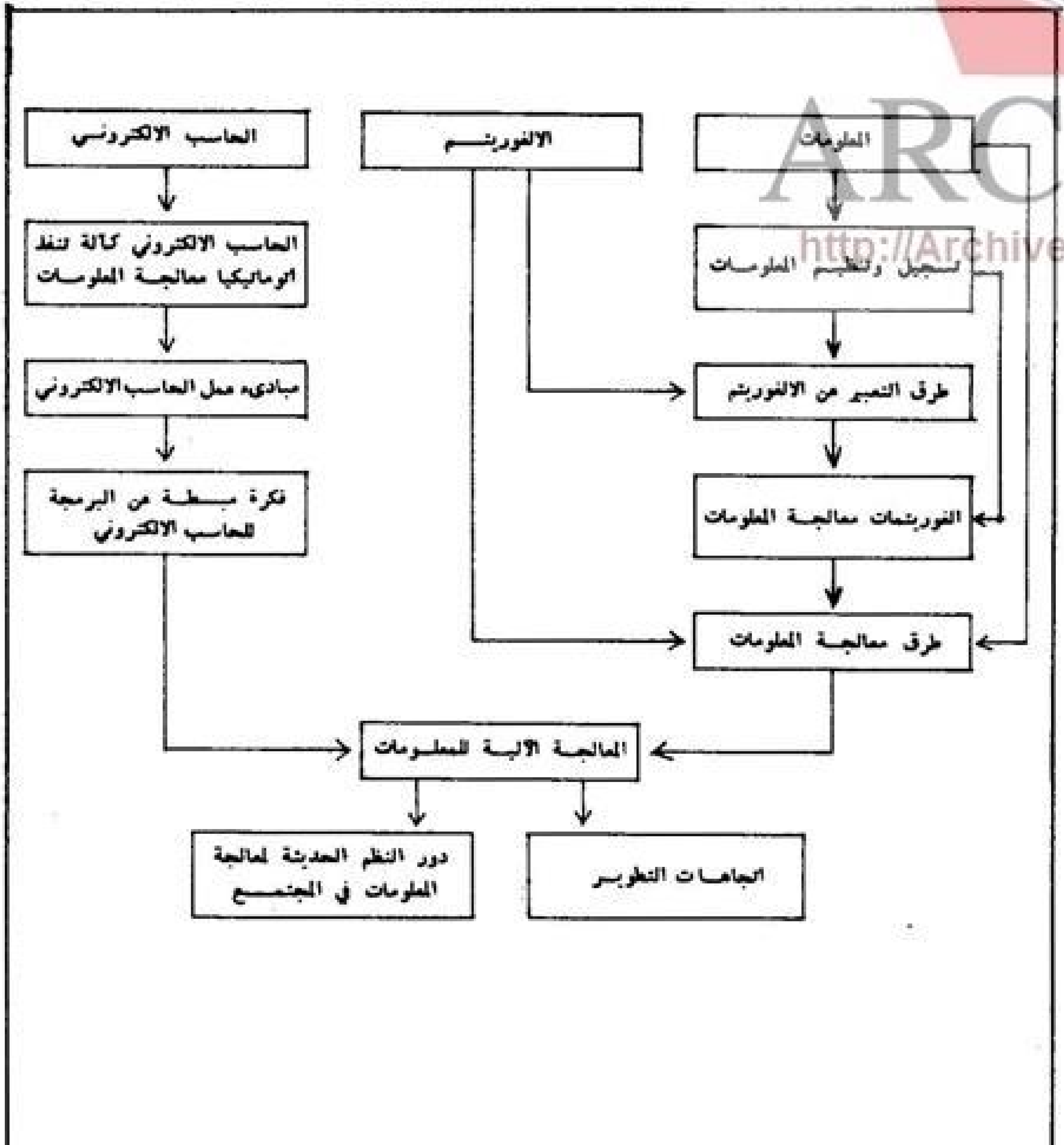

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتتلخص الاهداف الرئيسية لتدريس هذه المفاهيم في التالي :ـ

1 ـ تعليم التلاميذ الصياغة الشكلية لحل المسائل .

2 ـ تعريف التلاميذ بامكانيات الحاسبات الالكترونية واسس عملها .

3 ـ تعريف التلاميذ بمفهوم المعالجة الآلية للمعلومات اي :

أ) اعطاء التلاميذ ذلك القدر من المفاهيم (عن المعالجة الآلية للمعلومات) اللازم لكل مواطن يعيش في الربع الاخير من القرن العشرين .

ب) اعداد التلاميذ لمواصلة الدراسة في هذا المجال الجديد .

جـ) اعداد التلاميذ للعمل في مجال الحاسبات الالكترونية .

ونود هنا الاشارة الى ان هذه المادة ـ في رأينا ـ ينبغي ان تمثل محتوى مادة دراسية مستقلة (عدا الاجزاء الرياضية الصرفة) ذلك ان دراسة هذه المادة لاتخدم فقط دراسة الرياضيات بل الموادالاخرى والاعداد العام لتلاميذ المرحلة الثانوية . الا اننا لا نعتبر من اهداف هذه الدراسة اعطاء حل شامل لهذه المشكلة فالمهم هو تحديد ما ينبغي ان يدرسه التلاميذ من مجال «المعالجة الآلية للمعلومات» على ان يكون ذلك جزء من منهج المواد العلمية في المدرسة الثانوية . وكحل مؤقت يمكن نقل المعلومات الخاصة بشرح التفاصيل الفنية لعمل الحاسب الالكتروني الى منهج الفيزياء وتدريس بقية المقرر كجزء من منهج الرياضيات . وهذا التوزيع مبني على الاسس الآتية :

أ ـ ان مدرسي الرياضيات ليسوا معدين لتدريس وشرح تركيب وتفاصيل عمل الحاسبات الالكترونية ، في نفس الوقت فان هذه المعلومات اقرب الى تخصص مدرس الفيزياء ومن السهل ان يدرسوها (بعد تدريب مناسب) . وبالاضافة الى هذا فانه في الوقت الحالي ونتيجة تطوير مقررات الفيزياء للمرحلة الثانوية تدرس في الصفوف الاخيرة منها مبادىء الفيزياء الحديثة (مبادىء الالكترونيات بالمصابيح الالكترونية اشباه الموصلات ، الصمامات الثنائية والثلاثية ، الترانزستورات .. الخ) ومن ثم فان تدريس الاجزاء الخاصة بشرح تركيب الحاسب الالكتروني ومبادىءعمله في مادة الفيزياء يبدو اجراءا منطقيا ، علاوة على انه الاجراء الممكن حاليا لحل هذه المشكلة ، وجدير بالذكر ان تدريس هذه الموضوعات في مادة الفيزياء يضمن تطوير مناهجها ويهيء فرصا عديدة لعرض تطبيقات الفيزياء في مجالات الآلات الالكترونية الحديثة واجهزة التحكم الذاتي .. الخ .

ب ـ عند دراسة التلاميذ لبعض اجهزة الحاسب الالكتروني في مقرر الطبيعة ـ مثلا وحدة الجمع الثنائي Binary Adder فانهم يتعرضون للتطبيق المباشر للرياضيات (مبادىء المنطق الرياضي) في الفيزياء على مستوى عالي . وغني عن الذكر ان هذا يقدم مثلا جيدا ومحسوسا للتلاميذ عن الوجهة التطبيقية للرياضيات المعاصرة .

جـ ـ ان مثل هذا التوزيع يسمح (في منهج الرياضيات) بالتركيز على الاسس الرياضية لعمل الحاسب الالكتروني ومراحل حل المسائل الواقعة عليه وكذلك مبادىء البرمجة .

د ـ ان هذا المدخل في تدريس المبادىء الرئيسية للمعالجة الآلية للمعلومات يوافق الى حد كبير الصورة الواقعية لتكنيك الحاسبات الالكترونية .

وبعد تحديد مكان هذه الموضوعات الجديدة في المنهج المدرس ننتقل الى عرض التأثير المتوقع لادخال هذه المفاهيم على تدريس الرياضيات والذي يتمثل في الآتي :

1ـ تنمية تفكير التلاميذ في مواقف الفوريتمية Algorithmic Aituations علاوة على ذلك فان دراسة هذه المواد تنمي الفهم الواعي لجوهر العمليات الالفوريتمية .

2 ـ ان معرفة اسس البرمجة والتمكن من المهارات الاولية لوضع الفوريتمات حل المسائل تساعد على تنظيم تفكير التلاميذ ، وتنمي حسهم الرياضي ومقدرتهم على توقع النتيجة النهائية للحل المقترح لمسالة ما .

3 ـ ان هذه المفاهيم تقدم الاساس الصحيح لتكوين العديد من عناصر الثقافة الحسابية للتلاميذ . وفي رأينا ان هذا الجانب من تأثيرات المادة الجديدة بالغ الاهمية وذلك لان التطور المستمر لمجالات تطبيق التكنيك الحسابي الالكتروني يغير جذريا الصورة المألوفة للتلاميذ عن الحسابات .

4 ـ ان ادخال هذه المفاهيم الجديدة يساعد على تقوية الوجهة التطبيقية للرياضيات المدرسية . وبهذا الشكل فان دراسة المفاهيم المقترحة تؤثر ايجابيا على تطوير منهج الرياضيات بالمرحلة الثانوية ، بل انها يمكن ان تساعد على تعميق فهم واستيعاب بعض اجزاء منهج الرياضيات للصفوف العليا من المدرسة الثانوية مثلا : المتواليات ـ الاسس واللوغاريتمات ـ الاعداد المركبة ـ العينات والاستنتاج الرياضي . ففي الموضوعات الثلاثة الاولى يساعد وضع الفوريتمات حل مختلف المسائل ودراسة هذه المفاهيم في مادة الفوريتمية (على الاساس الفوريتمي) على تنمية وتنشيط تفكير التلاميذ . كما ان دراسة موضوع «العينات والاستنتاج الرياضي» مرتبطا بمفاهيم المعالجة الآلية للمعلومات تساعد على تنمية الحدس الرياضي عند التلاميذ والقدرة على توقع النتائج النهائية لخطواتهم وكذلك القدرة على استخدام مختلف طرق التفكير ، اذ يستخدم كل ذلك في مرحلة الصياغة الرياضية (الشكلية) للمسالة .

الهوامش :

(1) معالجة المعلومات هي كل العمليات التي تجرى على المعلومات بهدف تغييرها والوصول الى نتائج واشتقاقات غير واردة في المعلومات الاصلية «مثلا تصنيف المعلومات وتنظيمها . تبويبها وكذلك مختلف العمليات الحسابية التي يمكن ان تجرى على هذه المعلومات » . وتعني المعالجة الالية للمعلومات ـ معالجة المعلومات التي تتم باستخدام الحاسبات الالكترونية والنظم الالكترونية الحديثة .

(2) الفوريتم : هو احد المفاهيم الاساسية في الرياضيات والتي تتعامل معها منذ بداية دراسة الرياضيات . ويصعب اعطاء تعريف دقيق لهذا المصطلح ، ومع ذلك يمكن اعتباره «سلسلة من الخطوات التي يؤدي تنفيذها بترتيب معين الى الوصول الى حل نموذج ما من المسائل» . وجدير بالذكر ان مصطلح «الفوريتم» نشأ عن تحريف اسم العالم العربي محمد بن موسى الخوارزمي الذي عاش في القرن التاسع الميلادي والذي يعتبر مؤسس علم الجبر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخط العربي

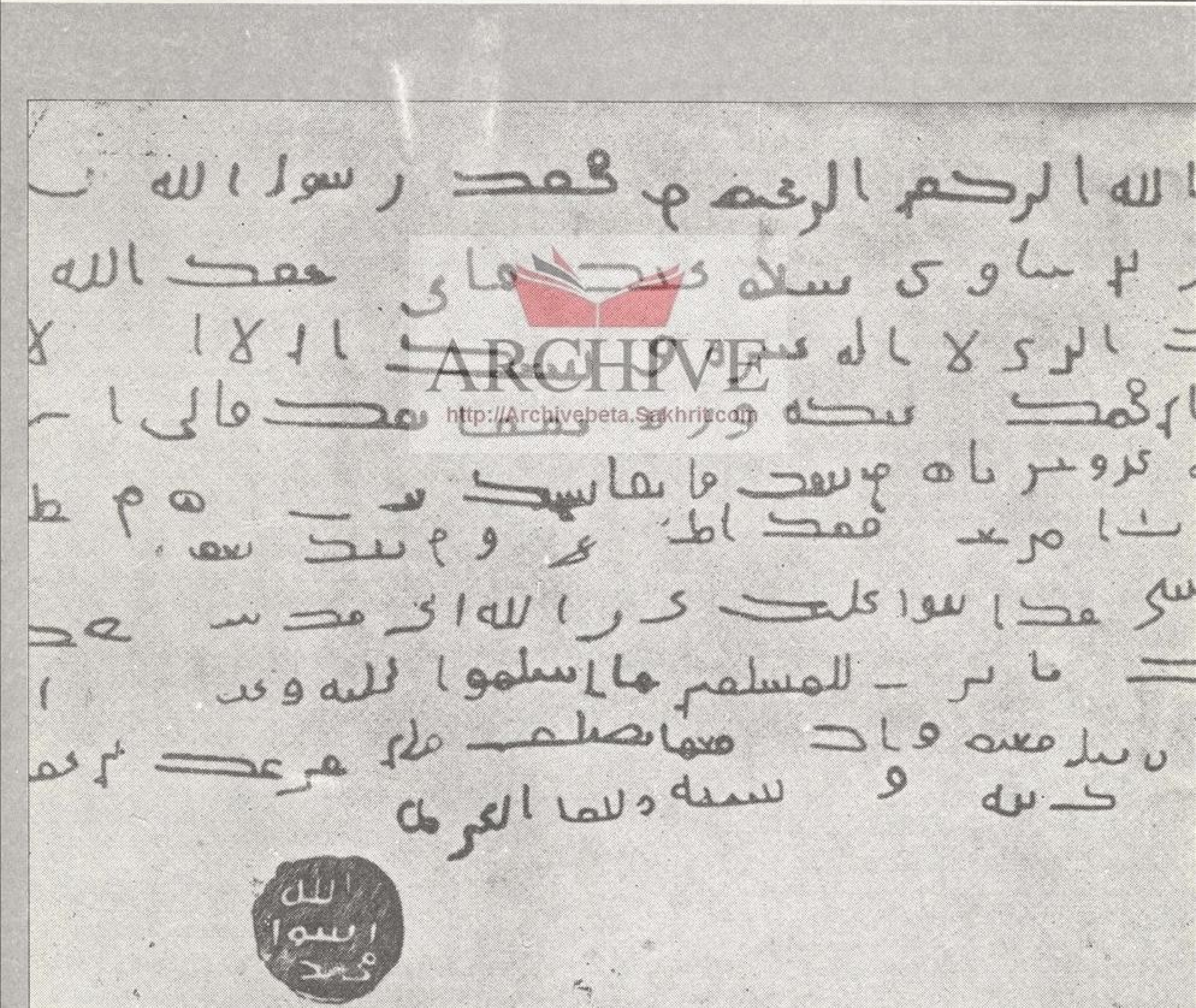

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ نسخة من خطاب النبي (ص) الى ابن ساوى امير البحرين ، ويبدو في نهايتها ختم الرسول واضحا

والإسلام

اعداد محمود شكر محمود

مقدمة

(الكتابة ظاهرة انسانية لجا اليها الانسان منذ ان عرف انسانيته ، وادخل عليها تعديلات وتحسينات كثيرة) ويعتبر اختراع الحروف الهجائية (الابجدية) من اعظم المخترعات التي اوجدها العقل البشري في تاريخ حضارته ومسيرته نحو التقدم .

وللعرب فضل كبير بهذا الاختراع . فالموجات العربية التي نزحت من جزيرة العرب ، واستقرت في الهلال الخصيب منذ اقدم الازمنة كانت مزودة بتراث حضاري جاءت به معها من مناطق سكناها الاصلية .

وفي ظل الاسلام تطور الخط تطورا واضحا في كثير من الحالات ، واصبحت له جاذبية وخصائص حضارية مميزة .

وسنعرض فيما ياتي بعض هذه التطورات المهمة في تجويد الخط وتحسينه في العصر الاول للاسلام .

الكتابة العربية قبل الاسلام

قبل ان العرب اخذوا طريقتهم في الكتابة عن بني عمومتهم من الانباط الذين كانوا قبل الاسلام ينزلون على تخوم المدينة في حوران، والبتراء ، ومعان ، والذين كانوا يجاورون العرب الحجازيين في تبوك، ومدائن صالح ، والعلا ، في شمال الحجاز . وقد وضح ذلك تمام الوضوح مما عثر عليه المنقبون في تلك الجهات من النقوش النبطية القريبة الشبه باقدم النقوش العربية(1).

ويذكر ان عرب الحجاز قبل الاسلام تلقوا الكتابة مع السلع المجلوبة فسموها باسماء الجهات التي وردت منها . ولا غرو فقد عرف الخط العربي قبل عصر النبوة بالخط «النبطي» لأنه اتى بلاد العرب من ديار النبط مع التجارة التي كان القرشيون يمارسونها مع الانباط، كما عرف «بالحيري» و «الانباري» لأنه اتى الى شبه الجزيرة العربية مع تجارة السواد عن طريق دومة الجندل ، وبانتهاء الخط الى المدينة ومكة عرف باسميهما فيما عرف من الاسماء(2). وقيل ايضا ان الكتابة العربية انتقلت الى المراكز التجارية والفكرية من بلاد اخرى الى مكة ويثرب ، حيث العلاقات التجارية والادبية تربط عرب جنوب العراق بالقبائل الحجازية(3) .

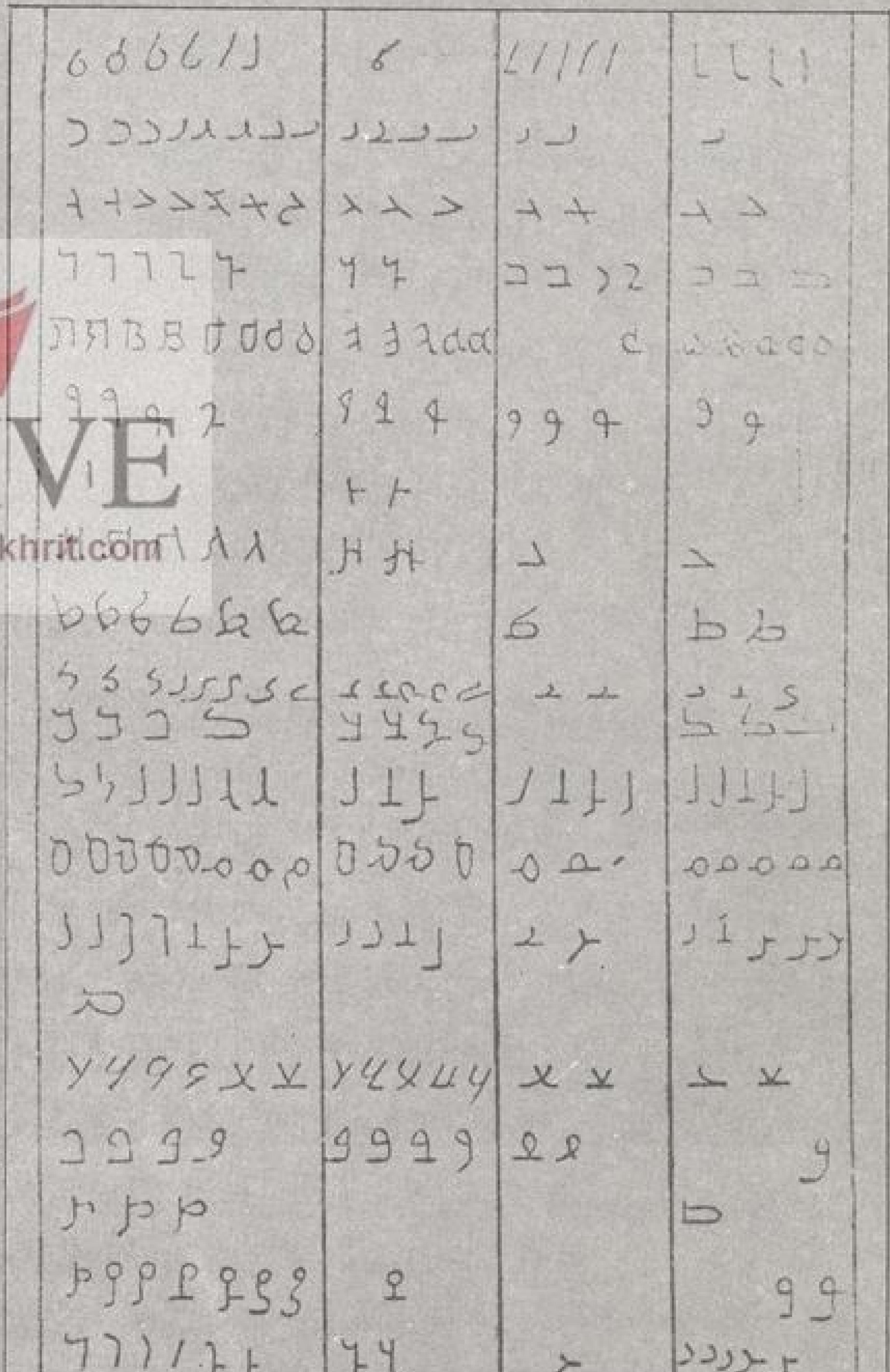

■ نموذج (1)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصـول الكتابة الـى الحجاز

وجدت الكتابة العربية سبيلها الى الحجاز بسلوك احد طريقين
الاول : الطريق الدائر من (حوران) احد ربوع النبط الى وادي الفرات الاوسط حيث الحيرة والانباز ثم دومة الجندل فالمدينة ومنها مكة والطائف .

والثاني : طريق اقصر ، من ديار النبط الى (البتراء) الـى (العلا) فشمال الحجاز الى المدينة فمكة(4) .

وقد روي في المصادر العربية ان الكتابة العربية انتقلت مـن الحيرة الى الحجاز عن طريق دومة الجندل ـ ويقول ابن خلـدون في مقدمته (ومن الحيرة لقنه اهل الطائف وقريش)(5) .

وقيل ان الذي نقلها هو (بشر بن عبدالملك) الكندي اخو صاحب دومة الجندل . حيث جاء في الرواية ان بشرا تعلم الكتابة من اهـل الحيرة . ثم اتى مكة في بعض شأنه فتعلم هناك نفر منه . وفي روايـة اخرى (ان اول من حمل الكتابة الى مكة المكرمة حرب بن اميه بـن عبد شمس) وكان قد تعلمها اثناء اسفاره من عدة اشخاص منهم (بشر بن عبدالملك)(6) .

وقد عاصر انتقال الكتابة العربية الى الحجاز سفيان وحـرب ولدا اميه . وكان ذلك في خواتيم القـــرن الخامس الميلادي(7) . ويتضح لنا من هنا ان الكتابة العربية كانت موجودة فـي الحجاز وجاء الاسلام وفي قريش من يقرأ ويكتب وكانت حاجتهم للكتابة للأمور التي كانوا يمارسونها وهي التجارة و (كان محصورا في فئة قليلة من الصحابة وبعض اهل الذمة)(8) .

اهتمـــام الرسول بنشر الكتابة

أدرك نبينا محمد (ص) ان للكتابة اثرا عظيما وعونا كبيرا فـي نشر الدعوة الكريمة . وكان اقرب الناس اليه الكتاب وخاصة كتاب الوحي ، ولا غرو فالكتابة هي الوسيلة الوحيدة لتدوين كلام اللـه وأحاديث رسوله ، والتدوين هو وسيلة البقـــاء ووسيلة الذيـوع والانتشار(9) .

ويعد الرسول الاعظم اول من عمل على تعليم ونشر الخط العربي بين المسلمين من الرجال واهتم بتعليم النساء ، وانه امر الشفاء ان تعلم زوجته حفصه الكتابة ليقتدي بها المسلمون من النساء(10) .

وبانتشار الاسلام اصبحت الحاجة ملحة فـي تعلم المسلميـن القراءة والكتابة . ولما أسر المسلمون في واقعة بدر جماعة من قريش، وكان فيهم كاتبون ، جعل النبي (ص) فدية من يكتب منهم تعليـم

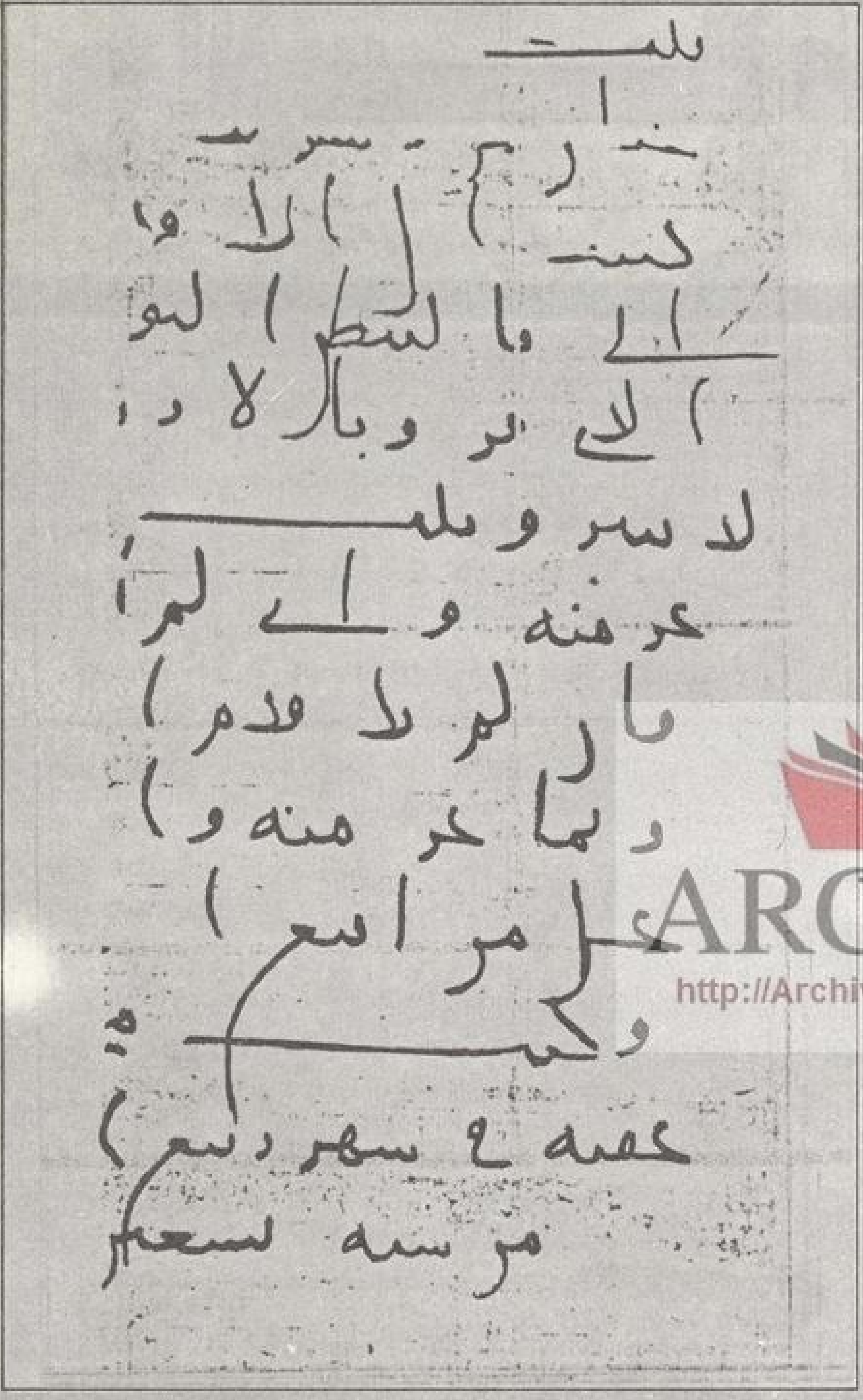

نموذج كتابة بخط كوفي ، لألفاظ حروف الهجاء العربية ـ الأبجدية ـ التي تجمع جميع الحروف من الألف الى الياء على الترتيب المشرقي

■ نموذج الخط اللين

■ نموذج الخط الجاف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتابة لعشرة من مسلمي المدينة . فكانت خطته الحكيمة هذه سبباً قويا في انتشار الخط بالتدريج في المدينة ، والامصار التي دخلت حوزة الاسلام ، فانتشرت الكتابة ورغب فيها الناس ، وتنافسوا في تجويد الخط ، لأنه كان صلى الله عليه وسلم ، يبعث كتبه الى ملوك الارض، ليدعوهم فيها الى الاسلام ، ويختار لذلك أجود الكاتبين خطاً . ومن ذلك نشأت المنافسة في الاقبال على تعلّم الخط العربي .

ومن كتّابه عليه الصلاة والسلام ، «علي بن ابي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وخالد بن سعيد ، وابان بن سعيد ، وأبو سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنه ، وزيد بن ثابت ، والعلاء بن الحضرمي ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبي بن كعب» وكانوا يكتبون بالأنباري ، ثم تدرج الكتّاب في تحسين الخط حتى اخذ الخط العربي قاعدة جديدة ميزته عن الانباري(11) .

عناية المسلمين بالكتابة العربية

عندما عم الاسلام الجزيرة العربية ، وفتح العراق وفتحت سوريا ومصر ، حلت اللغة العربية محل اللغات المحلية واصبحت لغة الفاتحين هي اللغة التي يتكلمون بها . ولا غرو في ذلك فهي لغة القرآن الكريم . وكان لزاما ان يتعلم القوم اللغة التي نزل بها الوحي وأصبح لزاما تعلم الكتابة لتدوين الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة فحلت الكتابات العربية محل الكتابات المحلية وغدت وسيلة من وسائل الحكم ، وبها كانت تصدر المكاتبات من الخلفاء الى عمالهم في الاقاليم وتدون بها الدواوين وبها تضبط امور الدولة(12) .

ولعل اول مظهر من مظاهر الفن والجمال التي عني بها العرب بعد اسلامهم كان في تجميل الخط ، وتجويد آيات القرآن الكريم كتابة، مثلما عنوا بتجويدها قراءة وترتيلا ، وكان هذا الدافع الديني هو العامل الرئيس الذي جعل للخط العربي مكان الصدارة في الفنون الاسلامية ، بعد العمارة ، وسما به في عالم الزخرفة الى مرتبة لم يحظ بها من قبل الخط الزخرفي في اية لغة اخرى او اي فن آخر من الفنون(13).

تعامل الكتّاب مع الحروف بقدسية

القرآن الكريم معجزة الاسلام الكبرى ، وهو كتاب سماوي فصلت آياته ، انزله الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي على محمد (ص) ، واصبحت تلاوة القرآن وكتابة آياته من اعظم الوسائل التي يتقرب بها الانسان الى ربه .. وهكذا اصبحت مهنة الخطاط من اشرف المهن(14) .

ولقد احس الفنان المسلم بارتياح نفسي عندما وجد في القرآن الكريم سورة تحمل اسم القلم الذي هو الأداة الرئيسة لفن الخط، ورأى ان الله سبحانه وتعالى قد أقسم بهذه الأداة عندما قال (ن والقلم وما يسطرون) تشريفا لها وتعظيما لقدرها . وقد زاد ارتياحه وثلج صدره عندما وجد انه سبحانه وتعالى هو اول من علم الانسان الخط حتى تضبط به العلوم والآداب : اذ يقول في سورة «العلق» (اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم) وفي هذا ابلغ تكريم لفن الخط(15) .

■ نماذج للخط الكوفي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ كتابة من سورة البقرة من القرآن الكريم كتبت على الرق بخط كوفي مبكر علامات (التنوين) منسوبة للخليفة أبي بكر الصديق.

■ جزء من صفحة من مصحف كتب بخط كوفي مبكر منسوبة للخليفة عمر بن الخطاب ، أو الى عهده

■ كتابات بخط كوفي في العصر الاسلامي المبكر لاجزاء صحائف من القرآن

■ كتابات منقورة في جبل سلع في المدينة المنورة من عهد الخلفاء الراشدين

■ نموذج اشكال الحروف الابجدية مما كتب على اوراق البردي من الخط النسخي القديم (الحجازي) في القرن الاول للهجرة

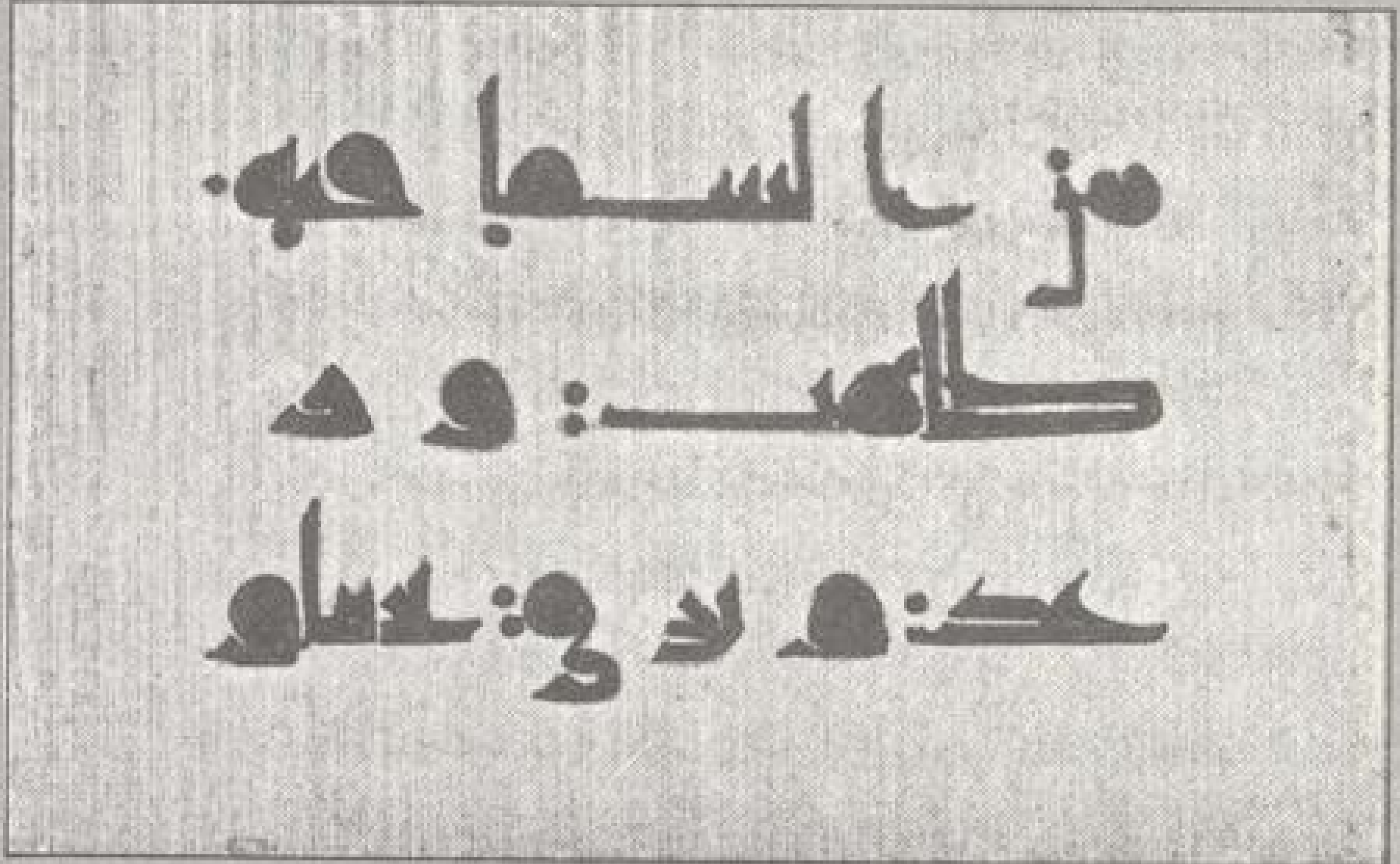

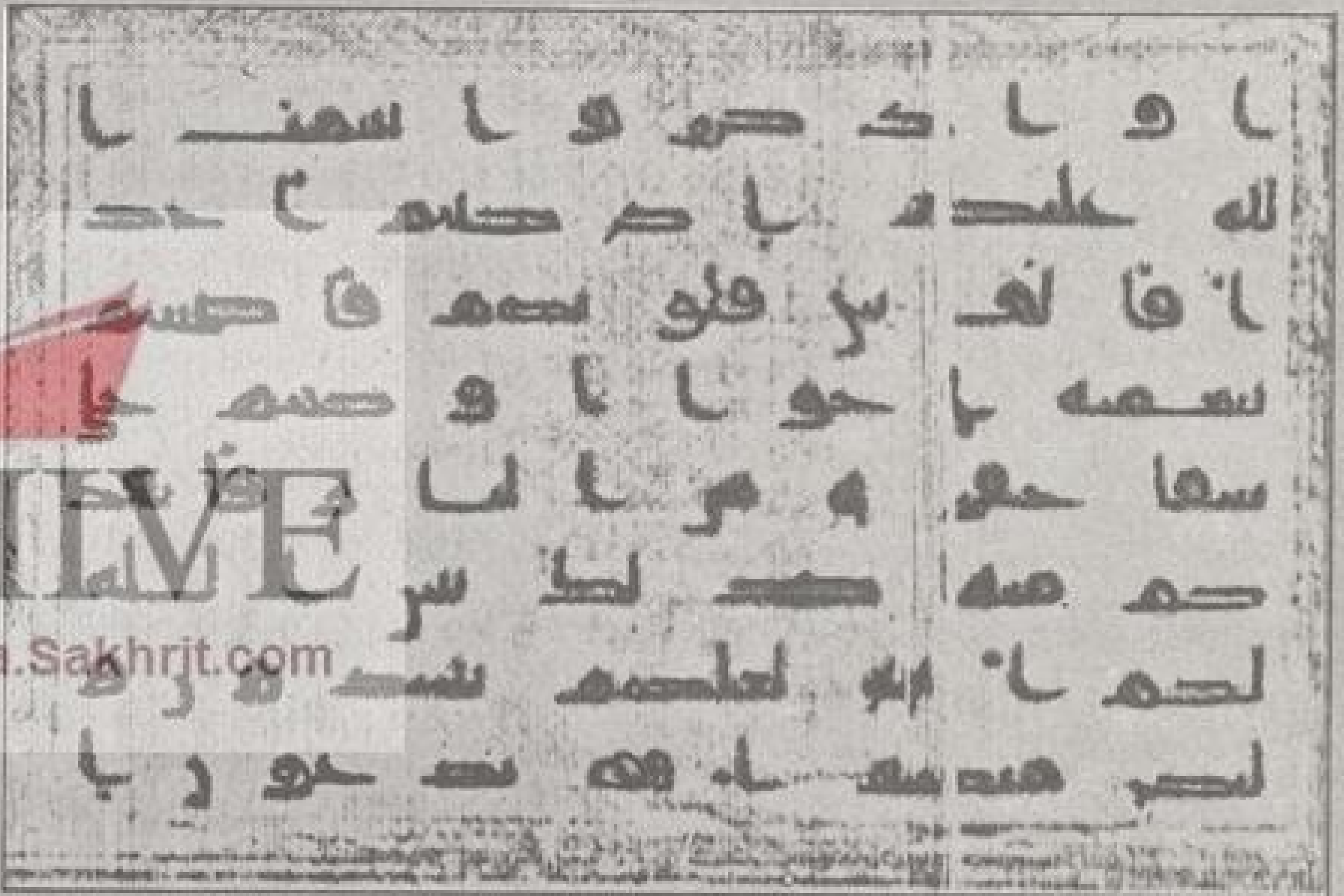

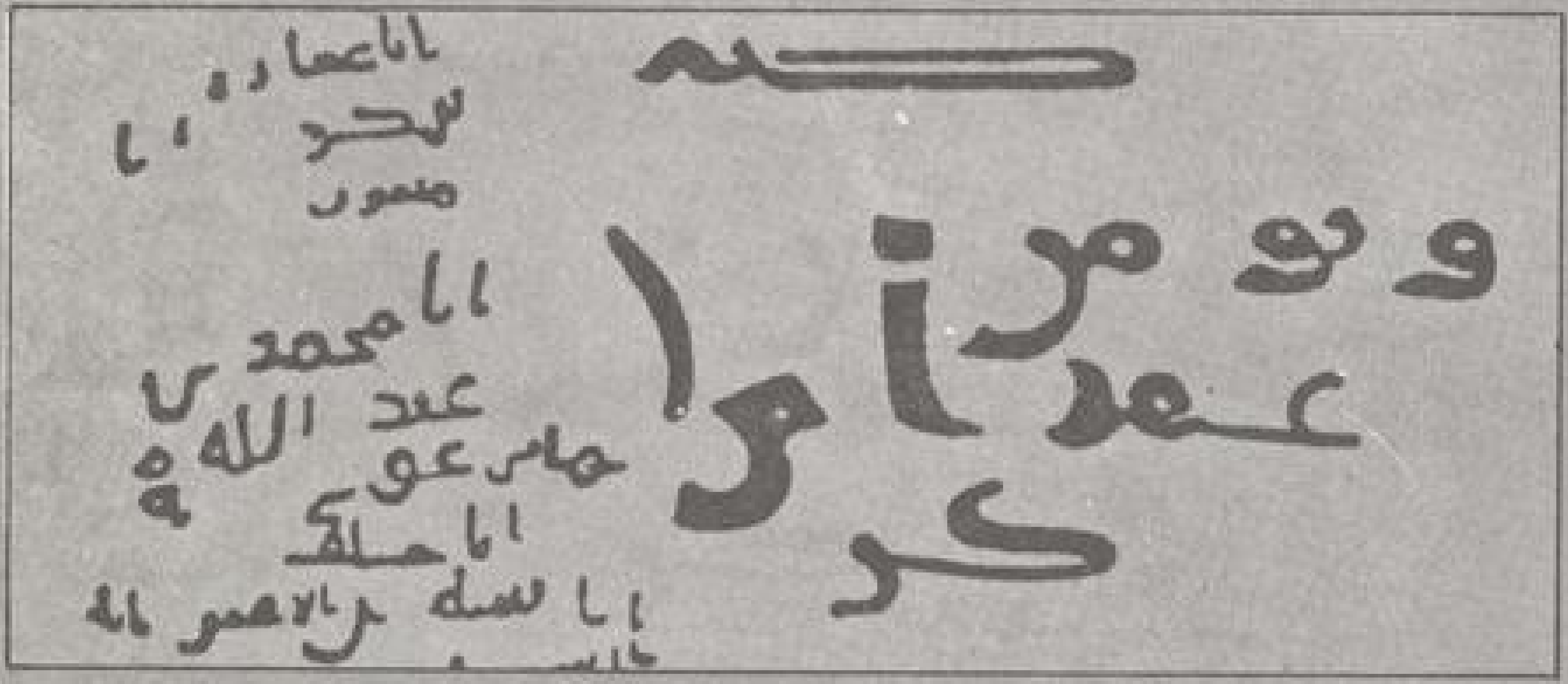

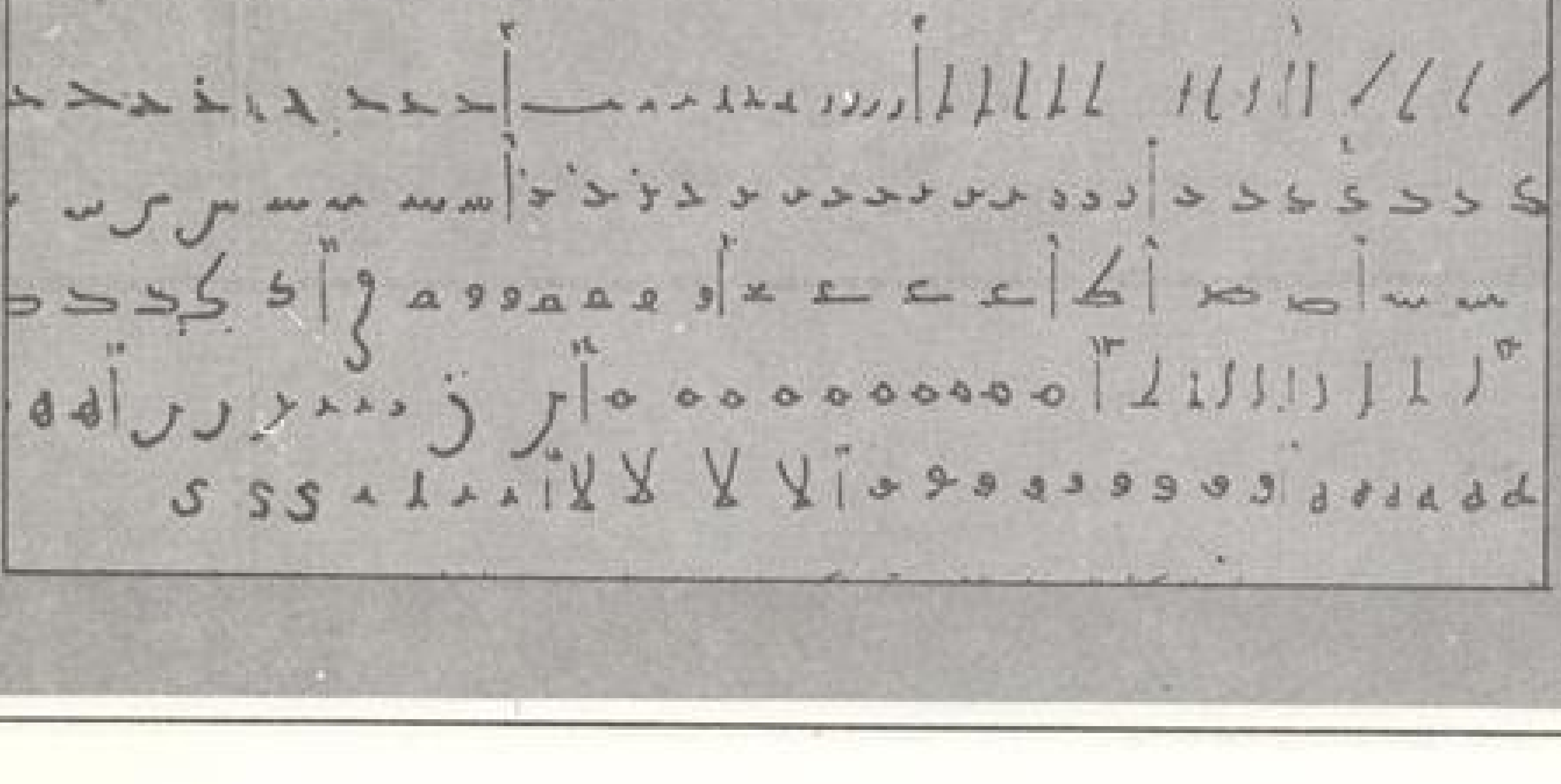

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويرجع استعمال الخط العربي على كل ما اخرجه الفنان المسلم الى فكرة اوحى بها علماء التصوف الاسلامي عندما ادعوا ان للحروف العربية أسرارا خفية ونسبوا لها قدرتها على جلب الخير والبركة وآمن الناس ومنهم الفنانون بهذه الفكرة فزينت التحف والعمائر بالآيات القرآنية وبكلمات وجمل مختلفة تعبّر عن الدعاء بالخير(16) .

(ويلعب الوازع الديني – في الاسلام – دورا اساسيا لفن الخط في عمل الخطاط المسلم .. الذي يعبّر عن التسليم لله والتوكل عليه.. أما في الشرق الاقصى مما يدفع الفنان الى ريشته هو بالاحرى ضبط النفس ، وتأكيد الذات والافصاح عنها فقبل ان يضع الفنان طاقته في خط ريشته عليه ان يجمع شمل نفسه ..

ان امكان هذا الشعور باللامتناهي في حياتنا البشرية المتناهية قد اغرق الخطاطين في بحور من التأملات ، حتى لأدى بهم ذلك الى صرامة تقويم الذات عند اصحاب مذهب «تسين» البوذي والى رؤية الذات الالهية عند كبار متصوفي الاسلام – وعل من النماذج المثلة لذلك ان تراءت الذات الالهية لابن عربي في رمز حرف « ه » مقترنا ب «هو» الى تعديده النظام(17). ومن هذا المفهوم فان الخطاط المسلم ابدع ابداعا منقطع النظير في التاني برسم الحرف وتجويده

ورقة من مصحف ينسب الى الخليفة عثمان أو مما كتب في عهده للامصار بخط كوفي فيه فواصل الآيات والسور ونقط التنوين ونقط حرف الشين .

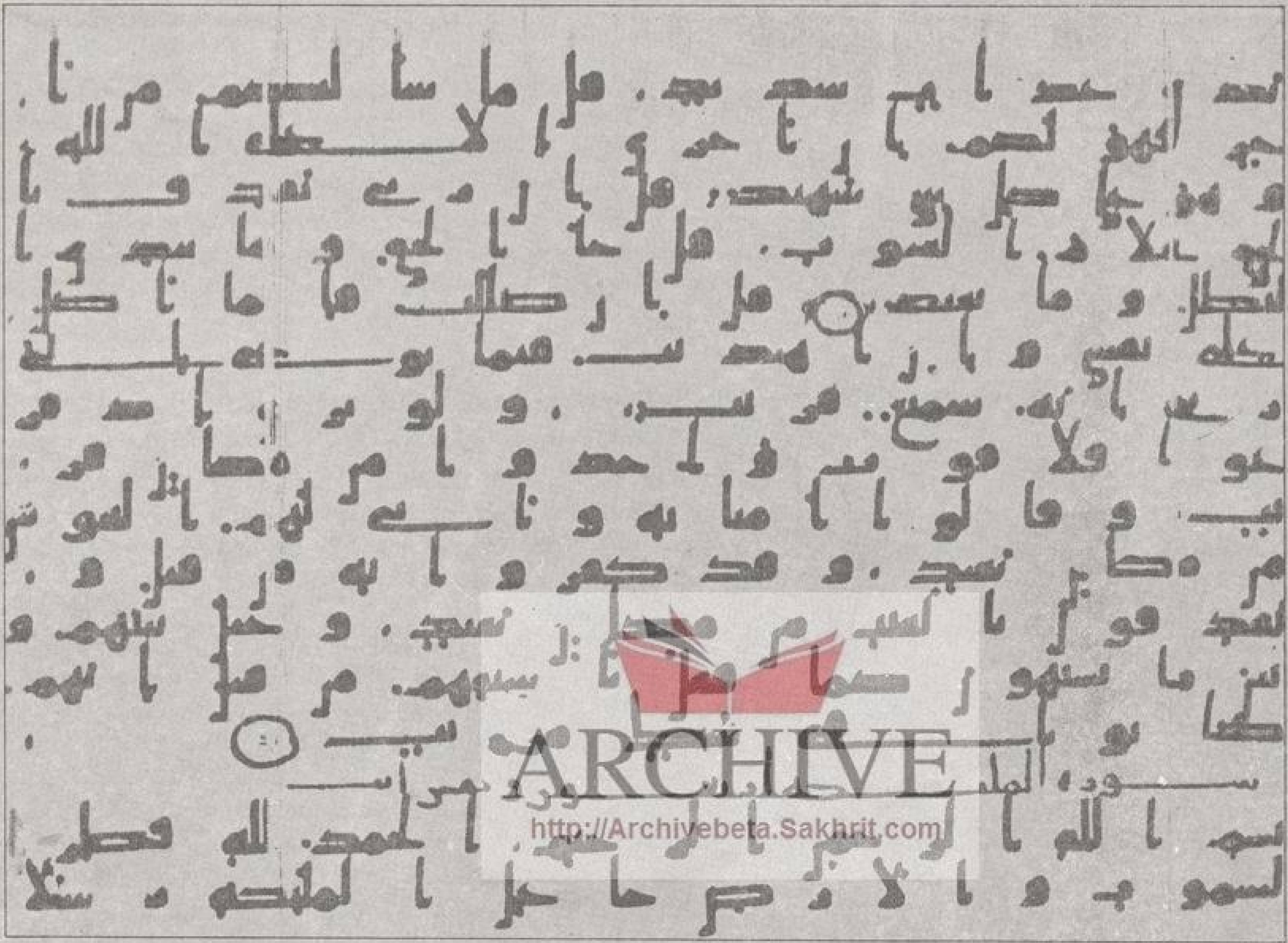

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منطلقا من انه حين يقوم بكتابة آيات القرآن الكريم ، فكـانه يـؤدي فرضا عليه متحببا لله في هذا العمل وجاءت تلك الآيات المخطوطة ،غاية في الروعة والبهاء ، وتجلت مكانة الخط في مجموع الثقافة العربية الاسلامية وبه دونت مؤلفات ائمة المفكرين ، اضافة الى كتابة المصاحف الشريفة .

شكل الحرف العربي في العصر الاول للاسلام

كان حرص النبي (ص) على حفظ كلمات الله قد دفعه الى العمل على تدوينها فور نزولها ، فاتخذ (ص) كتبة يكتبون آيات القرآن اولا باول ، ويلازمون النبي حيثما ذهب واتى اقام ، لكي يؤدوا هذا العمل الذي تفرغوا له ، ... وقد تمت هذه الكتابة بيد كتّاب من قريش في مكة ، وكتّاب في المدينة ، ولم يكن في رسم الحروف فروق واضحة كما كان الحال في القراءة الشفوية ومن اشهر هؤلاء الكتاب معاوية بن ابي سفيان في مكة ، وزيد بن ثابت في المدينة(18) .

وسجلت آيات الكتاب ، على مواد متباينة متعددة ، قد اختلفت في احجامها كما اختلفت في مادتها .

وهكذا اصبح للقرآن الكريم مصدر جديد ، فالى جانب صدور الحفاظ التي استوعبته كانت تلك السطور التي خطتها يد الكتبة في مكة على المواد المتعددة ، بدليل تلك الصحيفة التي كانت تقرأ فيها اخت عمر بن الخطاب مع زوجها آيات القرآن الكريم ، وتلك السطور التي خطتها يد الكتبة في المدينة المنورة بعد هجرة النبي صلوات الله عليه اليها .

ولكن كيف كتبت هذه الآيات القرآنية في مكة وفي المدينة ؟ لقد كتبت بالخط العربي في صورته الاولى التي استقامت في كيانه عن الخط النبطي الذي ولد منه ، وهي صورة تختلف في بعض النواحي عن صورة الخط العربي الذي نستعمله اليوم(19) .

ويجب ا ننفرق بين نوعين من الخط العربي الذي كان مستعملا في تلك الفترة من تاريخ العرب:الخط اللين الذي يميل الى الاستدارة، والخط الجاف الذي يميل الى التربيع او ـ كما يسمى احيانا الخط ذو الزوايا ،او الخط المزوي والخط الأول كان يستعمل في الشؤون اليومية لانه اطوع في الكتابة واسهل . ومن هنا نرجح ان الصحابة

في كتابتهم للقرآن باملاء النبي ـ ص ـ كانوا يستعملون هذا الخط اللين ، اما الخط الثاني فكان يستعمل عادة في الشؤون الهامة . وليس من المستبعد ان الصحابة كانوا يكتبون القرآن بين يدي النبي بالخط اللين فاذا رجعوا الى منازلهم واصبحوا مطمئنين في مجلسهم يملكون الوقت الذي يمكنهم من اعادة نسخ ما كتبوه في حضرة النبي بالخط الجاف الذي يتطلب التؤدة والتاني في رسم الحروف ، انصرفوا الى ذلك قاصدين تكريم كلمات الله وتعظيمها ومؤمنين بانه بقدر ما يبذلونه في نسخها من جهد يكون ثوابهم عند الله .

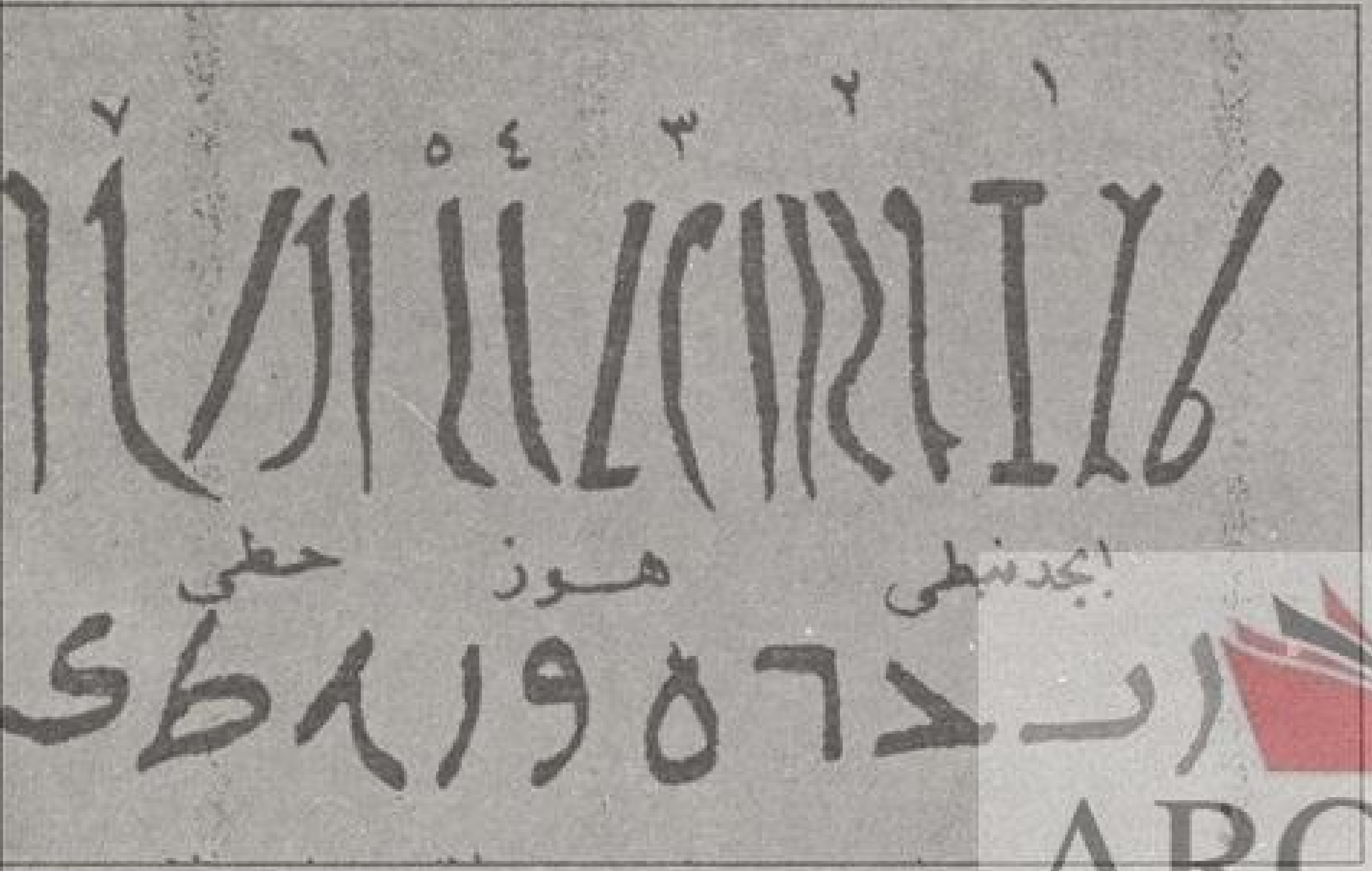

والراجح ان الخط الذي كتبت به صحائف ابي بكر كان من النوع الجاف الذي يمتاز بجلاله وفخامته ، والذي هو في اغلب الظن، ما اطلق عليه ابن النديم في كتابة الفهرست اسم الخط المدني نسبة الى المدينة المنورة ، والذي سمي فيما بعد باسم الخط الكوفي بعد ان جوده وحسنه اهل الكوفة فنسب الى هذه المدينة(20).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولما انتقل مركز النشاط السياسي الى العراق في خلافتي عمر وعلي انتقلت معه الخطوط المعروفة (المدنية والمكية) الى البصرة والكوفة وعرفت هناك أول الامر بأسماء المدن العربية الهامة التي جاءت منها ، ثم لم تلبث ان عرفت جميعا في العراق باسم الخط الحجازي ؛ وفي الكوفة عني القوم بتجويد نوع من الخط ، هندست أشكاله ومطت عراقاته واستقامت وتميز عن الخطوط الحجازية وغلب عليه الجفاف واستحق لذلك ان ينفرد باسم جديد وهو « الخط الكوفي » ، ومن الكوفة انتشر هذا النوع اليابس في أرجاء العالم الاسلامي : تكتب به المصاحف اللطاف وتحلى به المباني وتدمغ به النقود ، في حين ظل الخط الحجازي اللين في خدمة الدواوين لمرونته وسرعة كتابته ، واستخدمه العامة في اغراضهم اليومية(21).

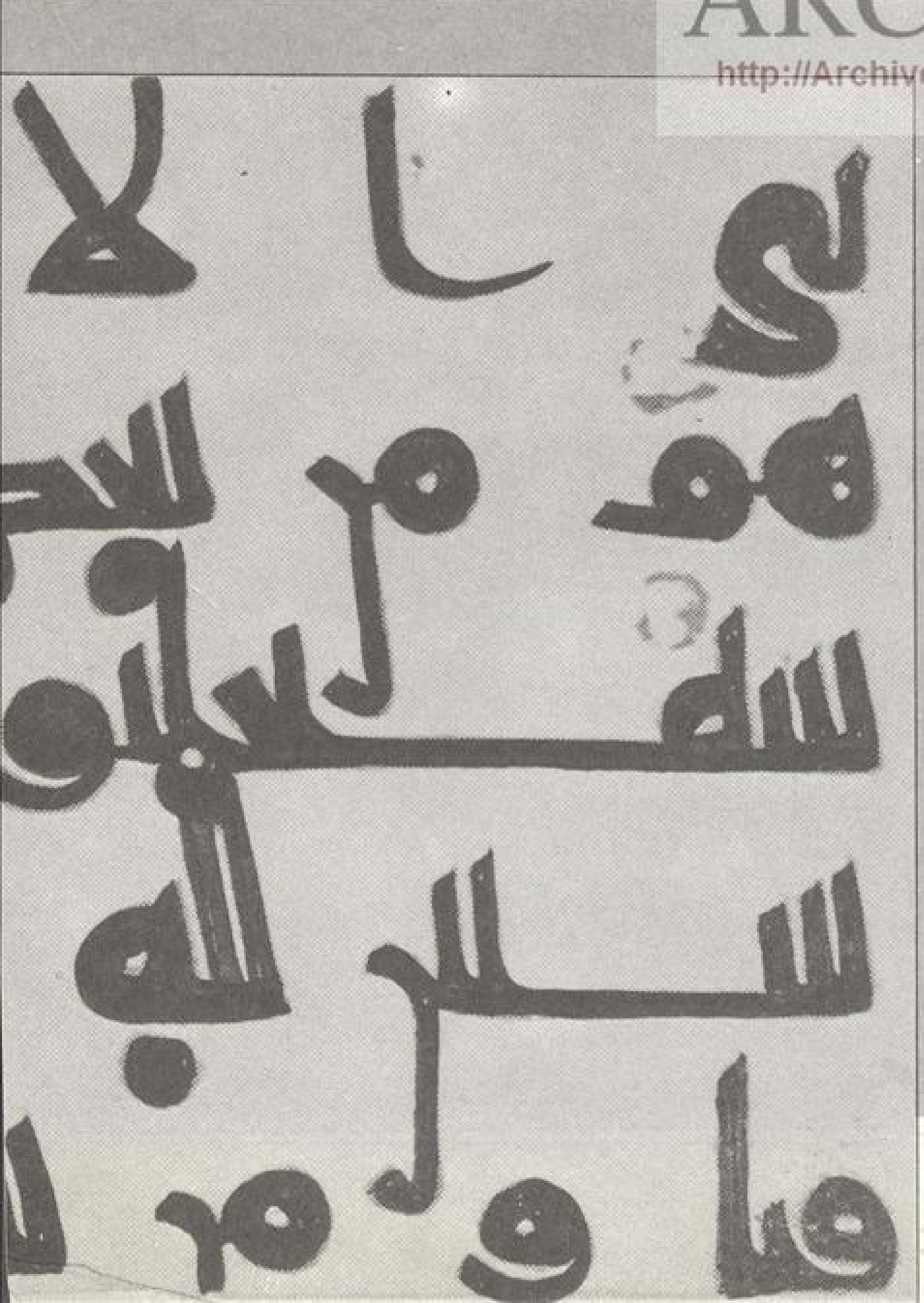

الخاتمــــة

عني المسلمون بفن الكتابة منذ بداية تاريخهم ، والملاحظ ان الخطاطين المسلمين حين سخروا كل طاقاتهم وملكاتهم من اجل الابداع بفن الخط وبزخرفته ، كان ذلك نابعا من عقيدتهم : باعتبار الكتابة الوسيلة التي كتبت فيها الآيات القرآنية الكريمة : فتعاملوا مع الحروف بقدسية . واصبحت هذه الوسيلة مظهرا من مظاهر الجمال نابضا بالحياة فوارا بالسحر . وعدّ الخط العربي من اسمى الفنون الاسلامية ، وبالكتابة العربية زينت المساجد والاماكن المقدسة والمنشآت الاسلامية ، بالعبارات الدينية ، او بجمل متنوعة في صيغ الدعاء ، بارزة في التزويق والجمال في مجال الحضارة الفكرية .

والخط العربي جميل وجذاب ارتقى مع سلّم التطور الحضاري وساير الفكر الانساني شكلا وهياة ، ولرقيه سر يكمن في غنائه المعتمد على جذوره الاصيلة وعناصرها التي استلهمت الحروف في الاشتقاق والتشابك الانيق مع باقي الفنون التي نبعت من اصالة التراث العربي.

■ نماذج رسوم تطور حرف الالف لما قبل الاسلام وصدر الاسلام مستخلصة من أبجديات نبطية وكوفية وعربية

■ نموذج من الخط العربي الكوفي يعود الى مطلع الحضارة الاسلامية

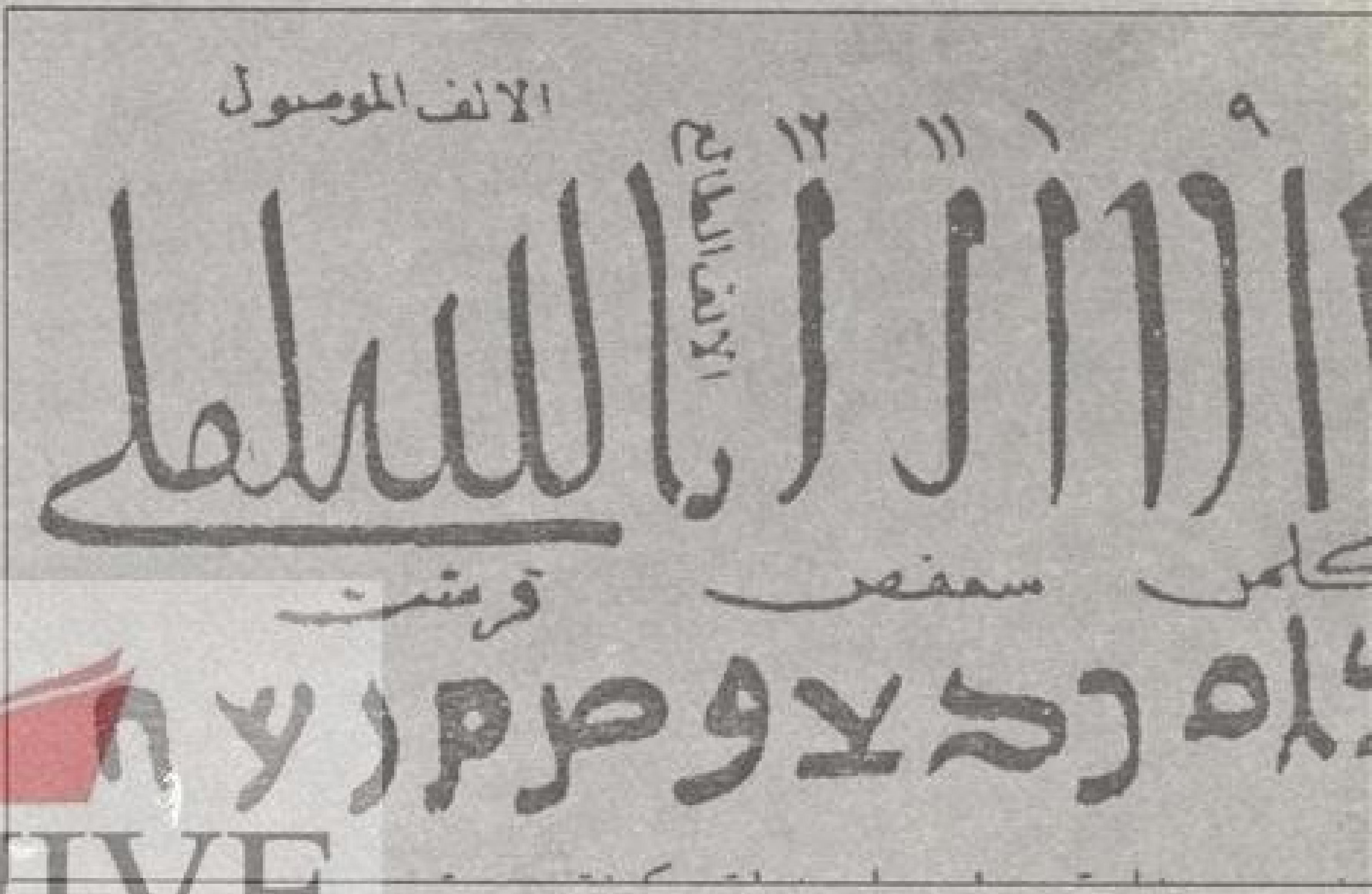

الهوامش

(1) الدكتور ابراهيم جمعة — دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص 17.

(2) الدكتور ابراهيم جمعه — دراسة في تطور الكتابات الكوفيه ص 19.

(3) ابراهيم جمعه — قصة الكتابة العربية — ص 18 .

(4) ابراهيم جمعه — قصة الكتابة العربية — ص 18 .

(5) مقدمة ابن خلدون — العلامة عبدالرحمن بن خلدون — ص 418 .

(6) محمد طاهر الكردي — تاريخ الخط العربي وآدابه — ص 58 .

(7) ابراهيمجمعة — قصة الكتابة العربية — ص 12—13 .

(8) محمد طاهر الكردي — تاريخ الخط العربي وآدابه — ص 45 .

(9) ابراهيم جمعة — قصة الكتابة العربية — ص 31 .

(10) سهيلة ياسين الجبوري — الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق — ص 19 .

(11) يوسف احمد — الخط الكوفي — ص 10 .

(12) محمود شكر الجبوري — نشأة الخط العربي وتطوره — 42 .

(13) د. احمد فكري — من مقالة — في كتاب — محيط الفنون — 190 .

(14) ابو صالح الالفي — الفن الاسلامي — ص 119 .

(15) الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق — العراق مهد الفن الاسلامي —ص42.

(16) الدكتور محمدعبدالعزيز مرزوق — العراق مهد الفن الاسلامي —ص19.

(17) باول بارتس — من مقالة (الفن الحديث وفنون الخط — مجلة فكر وفن(17) — ص 4—13 .

(18) د. محمد عبدالعزيز مرزوق — المصحف الشريف — ص 14 .

(19) د. محمد عبدالعزيز مرزوق — المصحف الشريف — ص 16 .

(20) د. محمد عبدالعزيز مرزوق — المصحف الشريف — ص 31 .

(21) د. ابراهيم جمعة — دراسة في تطور الكتابات الكوفية — ص 20 .

المصادر التي اخذت منها الصور

(1) مصور الخط العربي — ناجي زين‌الدين المصرف

(2) بدائع الخط العربي — ناجي زين‌الدين المصرف .

(3) كتاب دراسة في تطور الكتابات الكوفية — الدكتور ابراهيمجمعة .

(4) كتاب الخط الكوفي — يوسف احمد .

(5) كتاب البعد الواحد (1) — شاكر حسن آل سعيد .

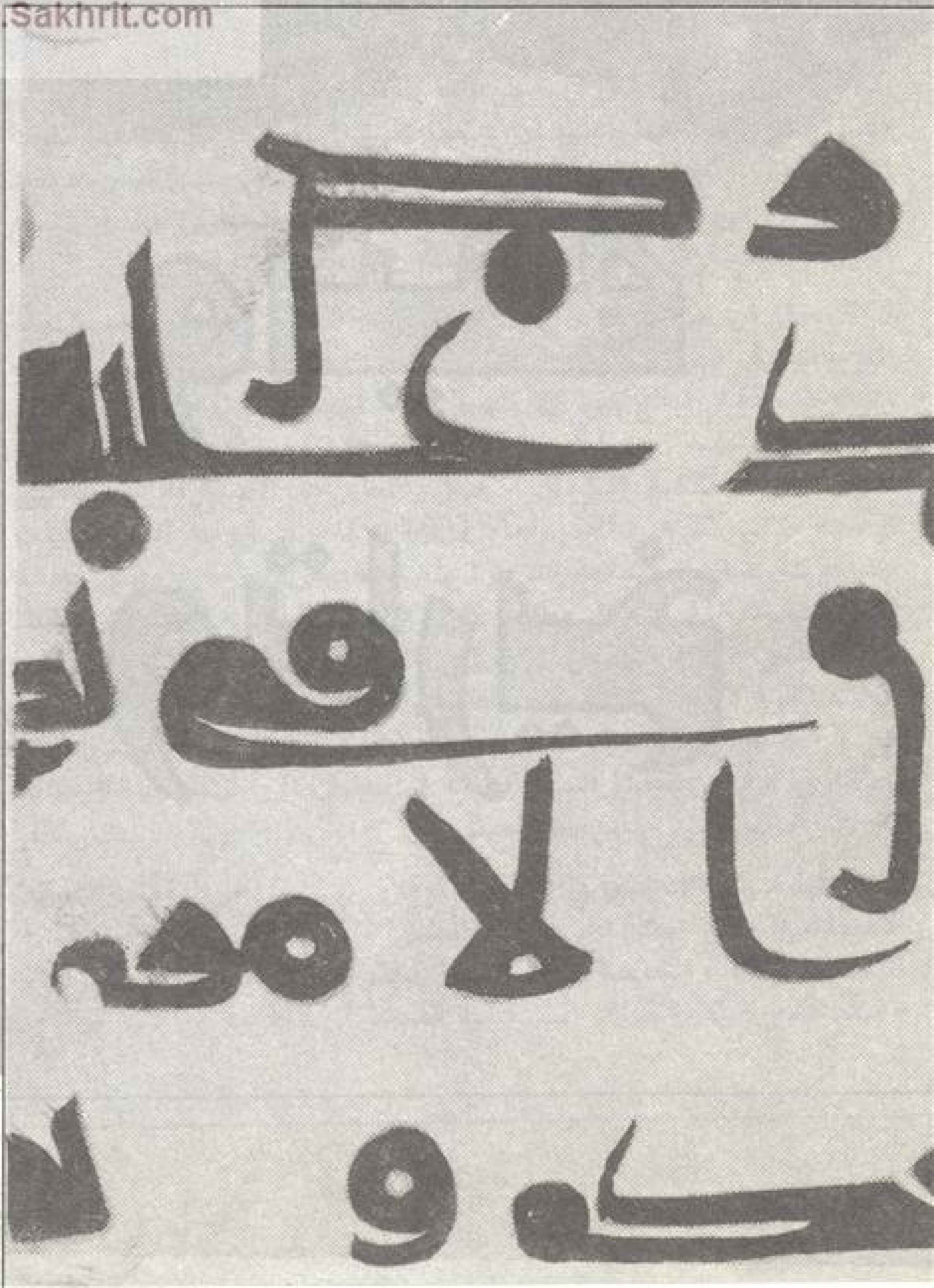

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

COPYRIGHT - NOT TO BE REPRODUCED PHOTOGRAPHICALLY WITHOUT PERMISSION

on Interest

178

08855

THIS DOCUMENT IS THE PROPERTY OF HIS BRITANNIC MAJESTY'S GOVERNMENT

No. 8.—ARCHIVES.

EASTERN (IRAQ).

CONFIDENTIAL.

February 12, 1934.

[E 962/190/93]

SECTION 1.

24

(No. 67.)

No. 1.

Sir F. Humphrys to Sir John Simon.—*(Received February 12.)*

Bagdad, February 1, 1934.

Sir,

THERE seems to be a tendency in some quarters in England to belittle the value of the special position which Great Britain has acquired in Iraq and to emphasise the risks which we are supposed to run in carrying out the provisions of the Anglo-Iraqi Treaty of Alliance concluded in 1930. These critics bewail the large sums of British money poured out in Iraq, which they state have produced no return to His Majesty's Government but a crop of expensive and hazardous commitments. They even suggest that the Assyrian troubles last August, the origin and nature of which they entirely fail to comprehend, should be followed by some fundamental change in our relations with the Iraqi Government. Finally, they claim that we should cut our losses and reduce our stake in the country to that of the other foreign Powers who are represented at Bagdad.

It is true that, in the early days of the British ... very large sums of money were spent on the maint... in Iraq, ranging from £23 million in 1921–22 to ... after the W... the military garrisons were replaced by the Roy... tion of the Cairo Conference convened in 19... reduction in the char... the figure of £... "additional ... ich have been ... ices) i...

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

وثيقة وتاريخ

اشغل سر فرانسيس همفريز منصب المندوب السامي البريطاني في العراق في اواخـــر سنوات الانتـداب البريطاني بين عامي 1929 و 1932 حيث اصبح بعد اعلان استقلال العراق اول سفير بريطاني في العـــراق وبقي في منصب السفير حتى عام 1935 . وكان قد خدم في دائـــرة الهند السياسية واشغل منصب سفير بريطانيا في افغانستان قبـــل مجيئه الى العراق . والفترة التي خدم فيها حكومته في العـــراق فترة مهمة جدا من تاريخ العراق المعاصر حيث شهدت تحولا اساسيا فـي شكل الوجود البريطاني في العراق حاولت بريطانيا فيها ان تستبـدل وجودها المباشر بمعاهدة تحالف تضمن لها الحفاظ على مصالحهـــا الحيوية في العراق بعد ان ثبتلها من خلال المعارضة القوية التـــي جوبهت بها في العراق ان السيطرة الاستعمارية المباشرة قد اصبحت غير ملائمة لروح العصر . وكان على سر همفريز ان يضطلع بمهمة دعم موقف الحكومة البريطانية الجديد امام المعارضة داخل بريطانيا نفسها وأمام عصبة الامم على السواء باعتباره اقرب الساسة البريطانيين الى العراق والعراقيين واكثرهم دراية باوضاعه ، لذلك فقد كان اعتمـــاد حكومته عليه كبيرا جدا وتعكس الوثائق البريطانية الخاصة بتلـــك الفترة ذلك حيث ان المسؤولين في الحكومة البريطانية لم يكونوايتخذون قرارا بشان العراق دون الرجوع الى راي سر همفريز .

عالية احمد سوسة

الوثيقة التي ننشرها هنا لاول مرة هي عبارة عن مذكرة سرية موجهة من سر همفريز الى سر جون سايمون وزير خارجية بريطانيا انذاك يحاول فيها همفريز ان يوضح وبالارقام المصالح التي حصلت وسوف تحصل عليها بريطانيا من العراق بفضل معاهدة 1930 مما يؤكد ان المعاهدة لم تكن في الحقيقة معاهدة استقلال بل انها على العكس من ذلك وفرت ظروفا افضل بكثير لمصالح بريطانيا الاستعمارية في العراق من ظروف الوجود المباشر في ظل الانتداب . والوثيقة محفوظة في سجلات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم E 692 في الاضبارة رقم Fo 371-17858.

من سر فرانسيس همفريز الى سر جون سايمون

بغداد 1 شباط 1934

سيدي :

يبدو ان هناك اتجاها في بعض الاوساط في انكلترا يهدف الى التقليل من شان المكانة الخاصة التي اكتسبتها بريطانيا العظمى في العراق ، والتاكيد على عنصر المجازفة التي يفترض اننا نقوم بها في تنفيذ بنود معاهدة التحالف العراقية البريطانية لعام 1930 .

ان هؤلاء النقاد ينتحبون على الاموال البريطانية الكبيرة المبذولة في العراق والتي يزعمون انها لم تعد على حكومة صاحب الجلالة بسوى جملة من الالتزامات الغامضة الباهظة الثمن . وهم يذهبون الى حد الاشارة الى ان المشاكل في شهر آب الماضي والتي لم يتوصلوا قط الى فهم اصلها وطبيعتها يجب ان يتبعها تغيير اساسي في علاقتنا مع الحكومة العراقية(1) واخيرا فانهم يدعون باننا يجب ان نكتفي بما خسرناه لحد الان ونقلل من مراهنتنا على هذا البلد الى حد نتساوى فيه مع القوى الاجنبية الاخرى التي لها ممثلون في بغداد .

حقا ان مبالغ كبيرة جدا قد صرفت لادامة الحامية العسكرية البريطانية في العراق في الايام الاولى للاحتلال البريطاني بعد الحرب وتراوحت هذه المبالغ بين 23 مليون جنيه استرليني لعام 1921—1922 و 6 ملايين جنيه استرليني للعام 1923—1924 . ولكن منذ ان حلت القوة الجوية الملكية البريطانية محل الحاميات العسكرية بناء على توصية مؤتمر القاهرة المعقود عام 1921 ، فان المسؤولية التي اضطلعت بها خزينة صاحب الجلالة قد طرأ عليها تخفيض تدريجي وصل بالمبلغ الذي تتحمله الخزينة البريطانية الى 350,000 جنيه استرليني فقط للعام الماضي . ان هذا الرقم يمثل الكلفة «الاضافية» اللازمة لتواجد قوات القوة الجوية الملكية (مع خدماتها المساعدة) في هذا البلد عوضا عن تواجدها في انكلترا . كذلك فان هذه الكلفة لها ما يبررها ، باعتقادي ، في متطلباتنا الستراتيجية في الشرق الاوسط مما لا علاقة له بالتزاماتنا نحو حلفنا مع العراق .

اولا :— سوف اسعى في هذه المذكرة لأن ابين بشيء من التفصيل الفوائد الاقتصادية التي تجنيها بريطانيا العظمى ، فيما يبدو من معاهدة التحالف والمكانة الخاصة التي كونتها الحكومة البريطانية في العراق. وعند تقدير قيمة الفوائد المستقبلية فيجب ان لا يغرب عن بالنا ان ثروة العراق المحتملة ليست قليلة الاهمية في كل الاحوال . وفي الواقع ان بعض المراقبين الاجانب الذين زاروا هذا البلد مؤخرا ، يقدرون بان موارد العراق المعدنية والزراعية عندما تخضع للتنمية العلمية فان ثروة العراق المادية ستتعدى في حينها ثروة مصر .

ثانيا :— لقد تسلمت خزينة صاحب الجلالة (البريطانية) بانتظام من الحكومة العراقية مبلغا نقديا سنويا يتعلق بتسديد دين راسمال ميناء البصرة . وقد وصل مجموع المبالغ المدفوعة بهذا الصدد وحتى الاول من نيسان الماضي 409,000 جنيه استرليني . وستاتي عشرون دفعة جديدة لاحقة لمبالغ تقل تدريجيا من 36,050 جنيه استرليني الى 18,030 جنيه استرليني قبل ان يسدد الدين نهائيا . ان هذه المبالغ تمثل تسديدا لمصاريف الحكومة البريطانية الاساسية في العراق في زمن الحرب والجدير بالذكر ان سعر الفائدة لمبلغ راس المال هذا هو 5 بالمئة . كذلك فان من المفيد اجراء مقارنة بين مدخول الخزينة البريطانية الثابت المتاتي من العراق عن حساب الحرب وبين موقف الحكومة الايرانية المتصلب برفض الاعتراف باي شكل من اشكال ديون الحرب المستحقة للحكومة البريطانية . وفي رايي ان العراق سيتخذ موقفا مماثلا في التنصل من ديونه في حالة اجراء تقلص مهم في نفوذ بريطانيا في هذا البلد .

ثالثا : التزمت الحكومة العراقية بموجب بنود الاتفاقية المالية الملحقة بمعاهدة 1930 بدفع مبلغ 350,000 جنيه استرليني تقريبا للخزينة البريطانية عندما يتم اجلاء مواقع القوة الجوية البريطانية في الموصل والهنيدي .

رابعا :— ان الحكومة البريطانية لا تزال المالك الاسمي للسكك الحديد العراقية . اما فوائدها المالية منها فستتحقق بمعدل يتعدى مباشرة المليوني جنيه استرليني حال تشكيل شركة رسمية لادارة سكك الحديد بموجب الاتفاقية التي تضمنتها معاهدة التحالف . صحيح ان هذا المبلغ يتمثل بـ 6 بالمئة من اسهم التفضيل التي ستكون لا تراكمية والتي يضعف الامل في الحصول على فائدة منها خلال العشرين سنة الاولى من حياة الشركة ، ولكن الفائدة المالية الراجحة والسيطرة البريطانية تبقيان . ولن يتعذر الحصول على السيولة النقدية من هذه الموجودات ككل او من جزء منها ، لكن من الممكن دون شك تامين بعض الفائدة الملموسة بشكل او بآخر من الحكومة العراقية عندما تتحول اليها في النهاية منافع الحكومة البريطانية في سكك الحديد . كما ان هنالك امتيازات عديدة للصناعة البريطانية ناتجة عن هذه المنفعة الاساسية في سكك الحديد العراقية مما سناتي الى وصفه في مكان آخر من هذه المذكرة .

خامسا :— تنص المذكرة رقم 3 الملحقة بمعاهدة 1930 على ان «الحكومة العراقية تلتزم اعتياديا باستخدام رعايا بريطانيين في حال حاجتها لخدمات موظفين اجانب». ان هنالك 242 موظفا بريطانيا يعملون في اجهزة الحكومة العراقية ، 61 منهم يعمل في السكك الحديدية ، 59 في ميناء البصرة واجهزة التكرير في الفاو . ويصل مجموع رواتب هؤلاء سنويا الى 250,000 جنيه استرليني على الاقل . ان معدل هذه الرواتب من السخاء ما يجيز الافتراض بان 25٪ من مدخولهم اي حوالي 60,000 استرليني سنويا ، يحول الى انكلترا للانفاق او الاستثمار هناك . صحيح ان اعداد هؤلاء الموظفين ستقل تدريجيا كلما ازداد عدد العراقيين المؤهلين لاشغال المراكز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المختلفة الفنية وذات الاختصاص والتي يشغلها موظفون بريطانيون حاليا ، لكن في الوقت الحاضر ليس هناك ما يشير الى اي تحول بهذا الاتجاه .

سادسا :ـ ان صندوق رعاية الموظفين البريطانيين في العراق يحصل على حوالي 60،000 جنيه استرليني سنويا عن مساهمة من الحكومة العراقية والموظفين البريطانيين . ومن الناحية العملية يحول مجمل هذا المبلغ الى المملكة المتحدة ليتجه نحو الاستثمار وحيث يدفع في النهاية للمتقاعدين من الصندوق . ان الصندوق نفسه يساوي تقريبا 400،000جنيه استرليني وقد جرى تكوينه بهذه الطريقة . ان معدل المبالغ التي تدفع سنويا للمتقاعدين في المملكة المتحدة يقارب الـ 50،500 جنيه استرليني .ان كل هذ هالمبالغ المحولة تمثل اموالا جديدة تنساب من العراق الى بريطانيا العظمى لتغطي رواتب تقاعدية لرعايا بريطانيين .

سابعا :ـ هنالك فوائد اقتصادية اخرى تاتي الى المملكة المتحدة عن هذا الطريق . فالموظفون البريطانيون يجري استخدامهم في الدوائر الحكومية الفنية والهندسية بالدرجة الاولى . وعندما تظهر الحاجة لاقتناء المخازن والمكائن والمعدات الحكومية الاخرى من الخارج فان صلة هؤلاء الموظفين بالحكومة العراقية تؤدي عادة الى ان يجرى شراء هذه المعدات من شركات بريطانية . وبذلك فان جميع الالات والمعدات الثقيلة اللازمة لدوائر البرقوالبريد ، ميناء البصرة ، السكك الحديد ودوائر الري والاشغال العامة ، عدا جزء يسير منها ، قد جرى شراؤها من المملكة المتحدة . وقد ساعدت الصلة القيمة بوكلاء التاج للمستعمرات على ذلك بالاضافة الى الشعور المتزايد بالثقة في المنتوجات البريطانية لجودتها وديمومتها . لذلك فعندما تقوم البلديات بمشاريع عمومية فان الصناعة البريطانية عادة تجني المنفعة . واذكر هنا اثنين من امثلة كثيرة بهذا الصدد : مولدات القوة الكهربائية التي تم شراؤها مؤخرا لحساب بلديتي البصرة والموصل بسعر 60،000 و45،000 جنيه استرليني على التوالي . وعلى الرغم من انه لاتتوفر لدي ارقام تبين قيمة المواد التي تم شراؤها من الشركات البريطانية لحساب الدوائر الحكومية ، لكنني اقدرها بـ 200،000 جنيه استرليني على اقل تقدير . ان من المسلم به لو استخدمت الحكومة العراقية خبراء اجانب من جنسيات غير بريطانية ، لتوجهت هذه الاعمال الى مكان آخر . اما في المستقبل حين يتقلص عدد الموظفين البريطانيين فان مسؤوليات اجسم ستنتقل الى السفارة والقنصليات وبخاصة الملحق التجاري وذلك لمساندة الشركات البريطانية للتغلب على المنافسة الاجنبية التي ستتطور حتما كلما ازدادت القوة الشرائية للبلد .

ثامنا :ـ تنص المادة السادسة لملحق معاهدة التحالف على ان الحكومة العراقية ملزمة بضمان عدم اختلاف الاسلحة والتجهيزات الاساسية للجيش العراقي والقوة الجوية العراقية نوعيا من تلك التي تستخدم في القوات الامبراطورية (البريطانية) . كذلك تلتزم الحكومة العراقية باستخدام بعثة من الضباط البريطانيين كمستشارين في الامور العسكرية وبكلفة 30،000 جنيهسنويا . وبالرغم من انه لم يشترط تحديد شراء المعدات والتجهيزات الحربية من بريطانيا فقط لكن ذلك سيحدث بشكل طبيعي بوجود البعثة العسكرية البريطانية . وعلى سبيل المثال فان جميع الطائرات اللازمة للقوة الجوية العراقية والتي تتالف من 27 طائرة حديثة تم شراؤها من شركات بريطانية . وحيث ان مسالة تقوية الجيش والقوة الجوية وتجهيزهما تجهيزا جيدا تدخل في برنامج جميع الاحزاب السياسية في العراق بالاضافة الى ان مجلس الامة سيكون على الاغب مطالبا بالمصادقة على صرف مبلغ 500،000 جنيه استرليني لاغراض التجهيزات العسكرية في المستقبل القريب ، فان جميع هذه المواد في الواقع سيجري تجهيزها من قبل شركا تبريطانية .

تاسعا :ـ اتخذت الحكومة العراقية قرارا حكيما بعزل عوائدها من استثمار مواردها النفطية عن مدخولها العام وتخصيصه لتمويل مشاريع الاعمار الانتاجية . ان مبلغ العوائد من هذا المصدر يعادل 400،000 جنيه استرليني بالذهب على الاقل . وسيرتفع هذا المبلغ الىحد ادنى مضمون يعادل 60،000 جنيه بالذهب عند المباشرةبالانتاج عام 1935 على الاغلب . وتسدد بعض السلف للشركة من هذه العوائد خلال السنتين او الثلاث الاولى من الانتاج ولكن اعتبارا من عام 1937ـ1938 فصاعدا فستبلغ عوائد النفط السنوية مليون جنيه استرليني على اقل تقدير . وفي مقدمة مشاريع التنمية المزمع تنفيذها في الوقت الحاضر ياتي مشروعا بحيرة الحبانية وسدة الكوت الذي تقدر كلفة كل منهما بحوالي 1،100،000 جنيه استرليني. اما مشروع الحبانية فسيعهد به على الاغلب الى شركة بريطانية في المستقبل القريب . ومن المتوقع ان يخصص مبلغ يتراوح بين 350،000 الى 400،000 جنيه استرليني لشراء الالات والمعدات لهذا المشروع من الخارج . وستاتي طلبات كبيرة اخرى خلال السنوات القليلة القادمة والتي لو بذل بشانها المجهود اللازم فهناك امل وطيد امام الشركات البريطانية في الحصول على حصة كبيرة منها . وبذلك فلو سمح للنفوذ البريطاني بالتضاؤل فان ما قيمته بضعة ملايين من الجنيهات من الاعمال في هذا المضمار ربما تنتقل الى اياد اجنبية .

عاشرا : بالاضافة الى مشاريع الاعمار الوطنية فان مبالغ كبيرة اخرى سيتم تخصيصها لتوسيع وصيانة سكك الحديد من ذلك مشروع انشاء جسر للسكك الحديد في بغداد ومد الخط الى الموصل كضرورات عاجلة يتوجب تنفيذها خلال السنوات القليلة القادمة . ان الكلفة التقديرية لهذين المشروعين معا هي مليون جنيه استرليني وسيخصص ثلثهذا المبلغ تقريبا لاستيراد المعدات اللازمة . ومن المرجح ان تنفرد المملكة المتحدة بتزويد جميع هذه المعدات .

حادي عشر:ـ ان مسحا شاملا لسكة حديد بغداد ـ حيفا على وشك الانتهاء ومن المتوقع ان تبلغ تقديرات كلفة هذا المشروع 8 ملايين جنيه استرليني . وفي حالة موافقة كل من الحكومتين العراقية والبريطانية على تنفيذ المشروع فان جميع المعدات اللازمة لهذا الخط والتي تتراوح كلفتها بين 2½ـ3 ملايين جنيه سيتمشراؤها من المملكة المتحدة على الاغلب .

ثاني عشر :ـ لقد جرى كري ميناء الفاو واستحداث قناة صالحة لمرور الناقلات الثقيلة بعمق ثلاثين قدما بعد ازاحة الترسبات الغرينية في ثغر شطالعرب . وقد جرى استيراد جميع معدات اعمال الحفر من المملكة المتحدة بكلفة 290،000 جنيه استرليني . كما سيجري استيراد معدات اخرى تقدر قيمتها بحوالي 120،000 جنيه استرليني . صحيح ان شركة النفط الانكلو ـ فارسية قد قامت في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاصل بتمويل الكلفة الاساسية لهذا العمل المهم وان الرسوم التي يسدد منها هذا الدين تأتي على الاغلب من ناقلات الشركة لكن الشركة قد استعادت جميع اموالها وبسعر فائدة 6 بالمئة سنويا . ولا اظن ان الشركة تنكر ان ذلك كان توظيفا مجزيا لاموالها اذ انها استطاعت توفير ملايين الجنيهات بعد ان اصبح بمقدورها الاستغناء عن الطريقة القديمة الكثيرة التكاليف في صندلة ناقلاتها من فوق العائق . ان المؤسسة التي تقوم باعمال الكري في الفاو وهي الاعمال التي يعتمد عليها الى حد بعيد رخاء شركة النفط الانكلو ـ فارسية ، هي في جميع الاحوال مؤسسة بريطانية .

ثالث عشر ـ في رأيي ان الفقرات السابقة تبين ان التحالف العراقي البريطاني قد اثبت كونه ذا منفعة اقتصادية لبريطانيا العظمى وان الصناعة البريطانية يجب ان تستمر في الانتفاع من التطورات الاقتصادية في العراق . وسوف اشير الان باختصار الى سيطرة بريطانيا العظمى في مجال التجارة بالعراق . ان الجدول الآتي يبين مجموع قيمة الواردات العراقية وحصة بريطانيا منها خلال السنوات الثلاث الاخيرة :

	1930ـ31	1931ـ32	1932ـ33
مجموع قيمة الواردات	5ر355ر000	4ر800ر000	6ر240ر000
الواردات من المملكة المتحدة	1ر665ر000	1ر305ر000	2ر179ر000
نسبة الواردات من المملكة المتحدة الى المجموع	31ر10%	27ر19%	34ر92%

ان الارقام المذكورة اعلاه ماخوذة من مصادر عراقية رسمية . ويكون من المفيد اجراء مقارنة بينها وبين قيمة الصادرات البريطانية الى تركيا وايران خلال نفس الفترة :ـ

	1930ـ31	1931ـ32	1932ـ33
العراق	1ر665ر000	1ر305ر000	2ر179ر000
تركيا	1ر868ر000	1ر715ر000	1ر484ر000
ايران	2ر695ر000	727ر000	827ر000

وبهذا فان العراق بعدد سكانه الثلاثة ملايين نسمة ، قد استورد في العام الماضي من المنتوجات البريطانية ما يعادل تقريبا ما استوردته ايران وتركيا ذات الـ 24 مليون نسمة ، سويا . وفي الوقت الذي تتقلص فيه تدريجيا قيمة الواردات البريطانية الى تركيا وايران فان الواردات من بريطانيا الى العراق ترسخ بثبات . ان العراق هو واحد من البلدان القليلة جدا التي يميل ميزانها التجاري بصورة ثابتة لصالح المملكة المتحدة .. فقد زادت قيمة ما استورده العراق من المملكة المتحدة للعام 1932ـ1933 على قيمة ماصدره الى المملكة المتحدة بـ 1ر221ر000 جنيه استرليني .

رابع عشر :ـ ان مقارنات عديدة اخرى من هذا النوع من الممكن اجراؤها لاظهار حقيقة ان العراق بالنسبة الى حجمه يشكل زبونا ممتازا . كما ان ليس هناك ما يشير الى امكانية تقلص التجارة البريطانية الى اي حد يذكر مادامت بريطانيا تحتفظ بالمكانة الخاصة في العراق والتي ضمنتها لها معاهدة التحالف . ان العراق لا يفرض تحديدات من شأنها اعاقة الاستيراد وليست له حصة تجارية خاصة كما انه لايتبع التمييز في فرض التعريفة الكمركية ولا تكتنف التحويل الخارجي فيه اية صعوبات او تحديدات . اما العملة العراقية فهي مرتبطة بالجنيه الاسترليني وذلك بحد ذاته يشكل تسهيلا عظيما للعلاقات التجارية مع بريطانيا العظمى .

خامس عشر : ان بريطانيا العظمى تضع اهتماما كبيرا في استثمار وتطوير آبار النفط في العراق . وفي الوقت الحاضر فان احتياجات العراق من البترول والكيروسين والنفط تزود كلها تقريبا من آبار الاراضي المنقولة على الحدود الايرانية والتي تدار من قبل شركة بريطانية تابعة لشركة النفط الانكلو فارسية(2) اما الاحتياجات التي لاتأتي عن هذا الطريق فيتم التزود بها من آبار شركة النفط الانكلو فارسية في ايران . وتتمتع الشركة التي تقوم بعملية التسويق(3) والتي يعمل فيها اربعون بريطانيا في العراق ، عمليا باحتكار كبير الاهمية لمبيعات المنتجات النفطية في العراق .

ان ادارة وتطوير المنطقة المنتجة للنفط في كركوك هي في ايدي شركة نفط العراق ذات الادارة البريطانية بالرغم من ان حصة بريطانيا في اسهمها هي الربع اسميا(4) وقد بلغت كلفة اعمال الحفر وفحص المنطقة حوالي $3\frac{1}{2}$ مليون جنيه استرليني كما ان اعمال الشركة قد وفرت العمل لعدد كبير من البريطانيين الذين يشكلون نسبة كبيرة من العاملين في الشركة . وستبلغ كلفة اعمال انشاء خط الانابيب ومحطات الضخ والاعمال الاخرى المهمة لبدء الانتاج في الآبار ، ملايين اخرى كثيرة . وقد كان للشركات البريطانية حصة الاسد في تجهيز المعدات حيث وقعت عقود لتجهيز الانابيب والناقلات الثقيلة ومكائن الضخ بقيمة $1\frac{1}{2}$ مليون جنيه استرليني على الاقل .وسيكون لنهاية الخط في ميناء حيفا الذي تم بناؤه بقرض من الحكومة البريطانية ، فائدة اقتصادية كبيرة لفلسطين(5) . ان تأثير معاهدة التحالف العراقية البريطانية هو الذي جعل مد المجرى الرئيسي لخط الانبوب الى حيفا ممكنا . وعندما تبلغ الشركة مرحلة الانتاج بعد ان تمتد محطاتها الضاخة وآبارها المائية فوق الصحراء السورية والاراضي البور في شرق الاردن ، فان اعدادا كبيرة من الموظفين البريطانيين ستظهر الحاجة اليهم لملء هذه المراكز المتقدمة بالاضافة الى اولئك الذين تحتاجهم الشركة للقيام باعمالها في العراق .

ان الامتياز الاخر الوحيد في المنطقة المنتجة للنفط قد اعطي الى شركة استثمار النفط البريطانية وهي شركة مسجلة بريطانية . ان نشاط هذه الشركة محدود لحد الآن ولم توضع استثمارات مهمة في المنطقة . ولكن من المرجح ان جزءا كبيرا من راس المال اللازم لها سيجمع في بريطانيا وقد اعلن مجلس الشركة ان المعدات اللازمة ستستورد من بريطانيا حيثما كان ذلك مناسبا .

وبذلك فان المصالح البريطانية ترتبط ارتباطا وثيقا بصناعة النفط المأمولة في العراق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سادس عشر :ـ ان المصالح التجارية الاجنبية في العراق هي في الغالب بريطانية بفضل رابطة التحالف مع بريطانيا . فباستثناء واحد او اثنين من المحلات التجارية الكبيرة وشركة امريكية لانتاج وتصدير التمور فليس هناك بين البيوت التجارية الاجنبية شركة ذات اهمية غير الشركات البريطانية . وينقل الجزء الاكبر من تجارة البلد الخارجية بسفن بريطانية . كما ان رؤوس الاموال الاجنبية المستثمرة فيه هي على الاطلاق تقريبا بريطانية . واثنان من الثلاثة بنوك الموجودة في البلد هما بريطانيان كليا من ضمنهما البنك الشرقي(6) الذي يدير جميع السيولة النقدية الحكومية . اما البنك الثالث وهو البنك العثماني فثلثا رأس ماله بريطاني بالاضافة الى ان عددا من مدرائه بريطانيون . كذلك فان جميع اعمال الضمان المهمة تسيطر عليها شركات بريطانية . وفي مجال آخر من النشاط الاقتصادي فان شركة دجلة والفرات للملاحة البخارية هي شركة بريطانية عريقة وترتبط «بشركة الهند للسفن التجارية» البريطانية وتدير جميع عمليات النقل النهري في دجلة بين بغداد والبصرة لايزاحمها في ذلك سوى شركة محلية واحدة . فهي تملك اسطولا من ثماني عشرة سفينة بخارية وحوالي 250,000 جنيه استرليني من الاستثمارات في العراق.

ويبقى النفوذ التجاري البريطاني هو السائد على الرغم من المنافسة اليابانية الشديدة . ان العراق في وضع جيد يمكنه من الاستفادة من الانتعاش الاقتصادي الذي هناك ما يدل على كونه وشيكا . اذ ان هناك اموالا ينتظر صرفها وطلبيات كبيرة ينتظر تحريرها وهناك امل جيد بأن تجني المصالح البريطانية فوائد وفيرة من هذه التطورات .

سابع عشر :ـ ان هذه المذكرة تختص بالدرجة الاولى بالامتيازات الاقتصادية البريطانية التي تنمو وتزداد بفضل الصلة الخاصة التي تربطنا بالعراق وفق بنود معاهدة التحالف لعام 1930 . ولكن هناك بالاضافة الى ذلك امتيازات ستراتيجية واضحة .

ان مجرى شط العرب المائي الذي لايقل اهمية عن الخليج العربي(7) يسيطر عليه في الواقع ملاحون بريطانيون ولا تجابه فيه سفن البحرية البريطانية اية تحديدات . وتنص معاهدة التحالف مع العراق على ضمان سلامة حقول شركة النفط الانكلو فارسية . وبدون شك فان سفن البحرية البريطانية ستتزود في المستقبل في ميناء حيفا ذي الموقع المناسب بأغلب وقودها والذي يأتي من حقل ربما هو اغنى حقول النفط في العالم . وتقع اعماله الرئيسة ومحطاته الضاخة وخط انابيبه في حدود المنطقة التي تسيطر عليها القوة الجوية الملكية البريطانية. واخيرا فيشكل العراق ضمن مسافة طولها 700 ميل ، في سلسلة المواصلات الجوية بين ارجاء الامبراطورية البريطانية ،حلقة حيوية لانقدر على تركها بدون حماية . لقد وظفنا ملايين الجنيهات في هذا البلد في اوقات كانت اقل ملاءمة مما هي عليه الان . وقد بدانا لتونا بجني عوائد صرفياتنا . ان المسالة ليست مسالة اعادة الاستثمار في ظروف افضل ، ولكنها مسألة تثبيت ـ بكلفة زهيدة نسبيا ـ لمركز مفضل على احد اهم الممرات في العالم لم نحصل عليه الا بصعوبة.

انني على يقين من ان اية اقتراحات املاها الفزع لاجراءتعديلات جذرية على المعاهدة او ابطالها لن تلقى اعترافا طويل الامد لدى حكومة صاحب الجلالة . ان من المعترف به بصورة عامة ان العراق لايستطيع الوقوف على قدميه لوحده دون مساعدة دولة عظمى لعدة سنوات تأتي . وقد اخذنا على عاتقنا تقديم هذه المساعدة لمدة خمسة وعشرين عاما . وفي أثناء ذلك لو افدنا من الفرص المتاحة لنا بشكل صحيح فاننا سنجني فوائد مادية قيمة منحتنا فيها التضحيات البريطانية بالدماء والاموال حقا ثابتا(8) وبجانب ذلك فهناك كثيرون ممن هم مستعدون ومتحفزون في نفس الوقت للحلول محلنا لو تخلينا بجبن عن الثقة التي وضعت فينا .

المخلص

ف.هـ. همفريز

الهوامش :

(1) المقصود بذلك «انزال العقاب» بالعراق او عدم التعامل معه ، اذ لا يليق حسب هذا الراي ، بدولة متحضرة كبريطانيا ان تتعامل مع بلد غير متمدن كالعراق . اما بخصوص انزال العقاب فقد ارتفعت اصوات تنادي بارسال لجنة دولية للتحقيق في احداث آب 1933 وقد رفض سر همفريز ذلك رفضا قاطعا مبينا انه سيستخدم كل مابحوزته من النفوذ لمنع ارسال مثل هذه اللجنة في عصبة الامم خوفا من ان تتورط بريطانيا في المسالة خاصة وان انتدابها على العراق لم يمض على نهايته سوى فترة وجيزة وعلى حد قوله فان « الاوركسترا في جنيف يجب ان تمنع من عزف لحن من المرجع ان يعزف اخر قطعة فيه بوق بريطاني منفرد» . (من برقية لسر همفريز الى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ (11 ايلول 1933 ، (Fo 371-16889/E533/) .اما بشان الترفع عن التعامل مع العراق فيعكس هذا الراي احد المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية وهو يعلق على انباء احداث آب بقوله « ان ما حدث يثير التساؤل فيما اذا كان باستطاعة الضباط البريطانيين الاستمرار في العمل مع جيش مسؤول عن تصرف كهذا» (كذا) (التعليق لـ جي.سي. ستردنيل بينيت بتاريخ 21 آب 1933ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية . (Fo 371-16886/E4817).

(2) هي شركة نفط خانقين التي تأسست عام 1925 .

(3) هي شركة نفط الرافدين التي تأسست سنة 1932 وكلتا هاتين الشركتين تابعتان لشركة النفط الانكلو فارسية .

(4) الحصص الثلاث الاخرى كانت موزعة بين شركة شل الهولندية وشركة البترول الفرنسية والمجموعة الامريكية بالتساوي بعد فرز 5 بالمائة حصة كلبنكيان . وبذلك تكون كل من الاربع حصص (ومن ضمنها البريطانية التي تتمثل بشركة النفط الانكلو ـ فارسية) $23\frac{3}{4}$٪ اي اقل من الربع تقريبا .

(5) المقصود هنا طبعا ليس فلسطين العربية بل حكومة الانتداب البريطانية في فلسطين .

(6) البنك الثاني هو بنك ايران الامبراطوري .

(7) في النص الاصلي الخليج الفارسي . التسمية الاستعمارية التقليدية للخليج العربي .

(8) (كذا) !

ايثاكا

قسطنطين كفافي

ترجمة محمد البسيوني

اذا شخصت الى ايثاكا ،
فاتخذ طريقا طويلة مفعمة بالمغامرات ،
حافلة بالعبر .
لا تخف من الليستريجون والسيكلوبس ، وبوسيدون الغاضب :
فلن تلتقي بأمثال هؤلاء قط ، طالما كان فكرك رفيعاً ،
وطالما مست عاطفة نادرة جسدك وروحك .
انك لن تلتقي بالليستريجون والسيكلوبس وبوسيدون الغاضب
الا اذا كنت تحملهم في نفسك ،
الا اذا برزوا لك من ذات نفسك .
اطلب طول الطريق .
حتى تدخل في فجر ايام الصيف بامتنان وغبطة
موانيء لاول مرة تراها ،
وتقف بمحطات التجارة الفينيقية ، فتبتاع من طيب سلعها
ام اللآلىء والمرجان والكهرمان والعاج
وكل ضرب مما يثير الاحساس من فاغم الطيب .
وحتى تزور الكثير من مدن مصر ،
فتتزود من اولى العلم بذخائر العرفان .
جاعلا ايثاكا دائما في بالك .
ان بلوغك اياها كان امراً مقضيا .
ولكن اياك ان تتعجل الرحلة .
فمن الخير ان تدوم السنون .
حتى اذا بلغت الجزيرة شيخا غنيا بما اكتسبت في الطريق ،
لا تنتظر من ايثاكا ان تمنحك الغنى ،
فقد اعطتك الرحلة الباهرة ، ولولاها ما ازمعت المسير .
وغير هذا لا تملك ان تعطيك .
فان وجدتها فقيرة ، فما خدعتك ايثاكا .
بل امدتك هذه التجربة بالحكمة
حتى تفهم ما تعنيه ايثاكا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جوش ايمونيم والأستيطان الصهيوني

من هي جوش ايمونيم ؟

هي احدى حركات الاحتجاج التي ظهرت في الكيان الصهيوني اثر حرب تشرين ، وبعد زيادة الحديث عن تسويات سياسية تقوم على انسحاب صهيوني من الاراضي العربية المحتلة ، وهي الحركة الوحيدة التي بقيت بعد زوال الحركات الاخرى، فخلال فترة قصيرة استطاعت الحركة ان تكسب تاييد العديد من الشخصيات السياسية والحزبية والحكومية في « الكيان الصهيوني » وازدادت قوتها وعظمت خاصة بعد وصول تجمع ليكود الى الحكم حتى اصبحت في وضع يسمح لها بالتفاوض مع الحكومة الليكودية .

بعد عدة اجتماعات بدأت في شتاء عام 1974 (اي قبل توقيع اتفاقية الفصل الاولى مع مصر) عقدها حوالي عشرين شابا من اعضاء حزب المقدال بعضهم من رجال حركة الاستيطان التابعة ل (هبوعيل همزراحي) واخرون هم طلاب او من العاملين في المدارس الدينية ، من اجل العمل على حث قيادة حزب المقدال (الحزب الديني القومي) كي لا ينضم الى اية حركة يتم تشكيلها الا اذا كانت حكومة طوارىء وطنية تعترف بان الضفة الغربية

لنهر الاردن هي جزء لا يتجزأ من « اسرائيل » . غير ان فشلهم في هذه المهمة لم يمنعهم من الاستمرار في اجتماعاتهم وبشكل اكثر تنظيما وفعالية وان تعمل بنفسها على اقامة المستوطنات الصهيونية في الاراضي العربية المحتلة عام 1967 ولهذا عقدوا الاجتماع التاسيسي في كفار عتسيون وفيه خلقت جوش ايمونيم والتي تعني (كتلة الايمان) لتمييزها عن المفدال ولكي لا يقال بانها جناح اخر من المفدال وانما هي هيئة تضم اوساطا كثيرة من الحركة الدينية وربما من خارجها(1) .

اي ان هذه الحركة مفتوحة لكل من يتطلع الى الاستيطان في جميع الاراضي المحتلة دون ان تكون مرتبطة بحزب سياسي لان هدفها ليس العمل الحزبي بل استيطان المناطق العربية المحتلة التي يطلقون عليها (يهودا والسامرة) باعتبارها حق تاريخي لليهود .

* القيادة والاعضاء :

تقود نشاط هذه الكتلة مجموعة صغيرة معظم اعضائها من خريجي المدرسة الدينية (مركز الحاخام ، برئاسة تسفي يهودا كوك) وما يتمتع به من تاثير على تلاميذه اضافة الى الشخصيات السياسية الصهيونية المعروفة ، انه يشكل قوة سياسية « هائلة وزعيم بلا منازع » فهو الرجل الذي كان له تاثير اكثر من اي شي اخر على خلق مفهوم « حركة اسرائيل الكبرى وجوش ايمونيم » ومؤتمر فيربد والمظاهرات التي جرت ضد كيسنجر والحملة التي اثيرت حول يهود الاتحاد السوفيتي(2) ، وله علاقات قوية مع العديد من الشخصيات الاسرائيلية فلقد كان اول رجل طلب بيغن مشورته بعد تاديته القسم عندما اختير رئيسا للوزراء ومن اصدقائه ايضا مردخاي غور واريك شارون وشمعون بيريس وموشي دايان اضافة الى عدد من الكتاب والمثقفين(3) .

وتنشر توجيهاته السياسية على شكل اعلانات في الصحف وكثيرا ما كانت هذه الاعلانات تثير ابتسامات السخرية على شفاه بعضهم رغم تقديرهم للحاخام(4) .

ان القيادة كانت وما زالت ذات طابع ديني وعلى راس اعضائها الذين اغلبهم شبان تقل اعمارهم عن الاربعين وغير معروفين سابقا ياتي الحاخام موشيه ليننجر من حركة الشبيبة « عزرا » وحنان فورات من مواليد كفار عتسيون ومن اوائل من عادوا الى كفار عتسيون بعد حرب 1967 وسكرتير كفار عتسيون ، والحاخام يوحنان فريد من المدرسة الدينية في القدس وغيرهم وهم في الغالب من خريجي المدارس الدينية ومن محترفي الاستيطان(5) .

اما اهم انصار الكتلة فبينهم العديد من الشخصيات « الاسرائيلية » المشهورة كالكاتب موشيه شامير والبرفيسور يوفائيل نئمان وعضوة الكنيست جيئولا كوهين والدكتور اسرائيل الدادا والدكتور اهارون دفيدي واهود المرت ،، هذه الشخصيات لا يسمح لها رؤساء الكتلة بالمشاركة في اتخاذ القرارات الحاسمة في النشاط الفعلي او حتى في حضور الاجتماعات السرية للكتلة وانما يسمعون نصائحها واستشاراتها في كثير من القضايا(6) .

ان الالاف من المؤيدين للكتلة والمتعاطفين معها هم من الشبيبة الامر الذي يضفي على المسالة طابعا خاصا بحيث تبدو وكانها حركة شبيبة جامحة باسلوب جديد فهم ينتظمون بسرعة في نطاق المدارس الدينية كحركة شبيبة بيني عكيفا (التابعة للمفدال) وغيرها ان هؤلاء الشباب يشكلون القاعدة الوحيدة لجوش ايمونيم(7) .

علاقاتها :

يرى اعضاء هذه الكتلة انهم يمثلون افكارا « قومية اسرائيلية » عامة ولهذا فقد اقاموا علاقات مختلفة واجروا لقاءات مختلفة مع العديد من الشخصيات الحزبية والسياسيةوالحكومةفي «اسرائيل» ورغم ان تشكيلها كان على يد اعضاء من حزب المفدال غير انها اقامت علاقات مختلفة خارج حزب المفدال . ففي الوقت الذي كان اعضاؤها يلتقون برؤساء احزاب وحركات ليكود نجدهم يلتقون ايضا باهارون يادلين السكرتير السابق لحزب العمل حيث ان هدفهم لم يكن العمل الحزبي بل الاستيطان الذي يحتل المرتبة الاولى في تطلعاتهم ، وذلك ما كان يلقى تاييدا واسعا من الليكود و (حركة اسرائيل) الكبرى ،، لكن اعضاء جوش ايمونيم كانوا حذرين من المؤسسات الحزبية والشخصيات الحزبية المعروفة خوفا من ان تستغل نشاطات الكتلة لاغراض شخصيةاو حزبية ضيقة(8) فرغم ان معظم منظمي الكتلة من خريجي المدارس الدينية (بني عكيفا) التابعة للمفدال واعضاء هبوعيل همزراحي لكنهم رفضوا بشدة ان يكونوا كتلة داخل حزب المفدال او حتى الانضمام الى كتلة الشباب داخل المفدال التي تؤيدهم وتماثلهم في الاهداف والمبادىء(9) .

ايديولوجية جوش ايمونيم :

ان الدافع القوى لهذه الكتلة يقوم على خلق « اسرائيل » الكاملة بحدودها التوراتية وشعب « اسرائيل » الكامل ولهذا فانهم يرفضون بشدة اي انسحاب صهيوني من الضفة الغربية والجولان المحتلتين ويعملون جاهدين على اقامة المستوطنات الصهيونية فيهما من اجل تثبيت وجودهم في المنطقة وخلق واقع يجبر الاخرين على الاعتراف به . فهذه الاراضي هي (ملك لليهود في جميع انحاء العالم ولا مكان لغير اليهود فيها) ، حيث انهم لا يعترفون بشعب اسمه شعب فلسطيني ولا يقرون باي حق لغير اليهود في هذه الاراضي .

يقول الحاخام كوك الاب الروحي لاعضاء جوش ايمونيم في برنامجه السياسي الذي يحمل عنوان (حتى تعرف) والذي صيغ بحوالي 250 كلمة : « ان كل هذه البلاد هي ملك لنا ، وبقرار منا جميعا وغير قابلة للتسليم للاخرين ، ان الامور يجب ان تكون واضحة وحاسمة الى الابد ، ولا توجد هنا اية مناطق عربية ولا اراض عربية وانما اراض اسرائيلية ملك آبائنا الى الابد .. ان كل هذه البلاد وحسب كامل حدودها التوراتية تتبع سيطرة شعب اسرائيل » وعن لقائه ببيغن يقول بانه متفق معه حول فكرة « وطن اسرائيل الكامل وشعب اسرائيل الكامل » وان بيغن يعرف انه لا يمكن التخلي عن موطىء قدم من وطننا الذي يخص كل يهود العالم(10) .

ويؤكد الحاخام يهودا كوك على ضرورة استخدام القوة لتحقيق مطامحهم ، فهو يقول : « نحن نحكم بقوة التاريخ بقوة مشروعة وبطولة مشروعة تتجسد في الجيش » ويصر على ان « هذه الارض تخصهم من قرون غابرة وفقا للتاريخ ووفقا للتوراة والانبياء كانت هناك فترة توقف وكانوا في المنفى وعادوا الان الى عهد الحرية عادوا الى الوطن والعالم كله يعرف ذلك » ،، ويرى بانهم اصحاب رسالة فهم « رسل التاريخ اليهودي لملايين اليهود في العالم » في الوقت الذي يقول : « لا وجود لشعب اسمه شعب فلسطيني »(11) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهيكل التنظيمي :

ان جوش ايمونيم هي التنظيم الوحيد في الكيان الصهيوني الذي لا يعرف عدد اعضائه واعضاؤه لا يحملون بطاقات عضوية(13) ، حيث ان الكتلة ذات هيكل تنظيمي غامض ، ومن دون مؤسسات قيادية منظمة واضحة ومن دون انتخابات او برنامج او لائحة(14) . كما ان طابع السرية يطغى على اجتماعات قيادة الكتلة ففي كل اسبوع تجتمع قيادة العمليات الخاصة بجوش ايمونيم في بيوت خاصة وتبحث بسرية في القضايا الانية ولا ينشر شيء عن نتائجها او عن سيرها(15) . وقد تمت بلورة نظام عن الطاقة البشرية حسب اقتراح احد الاعضاء الرئيسيين في ايمونيم وصيغ الاقتراح بشكل فعال ، جاء فيه على سبيل المثال :

ان التنظيم القائم على مستوى مدينة او عدة مدن يجب ان تكون له قيادة على مستوى المنطقة وتوزع الوظائف في هذه القيادة على النحو التالي :

مركز الطاقة البشرية للبالغين

مركز الطاقة البشرية للشباب

المركز المالي

مركز المواصلات

مركز الاعلام

كما اقيمت شعب تنسيق وفقا للاحتياجات المتميزة لكل مكان فمثلا هناك شعبة تنسيق اللجان الطائفية واخرى لحاخامي المدينة وثالثة للعلاقات .. كما تم فتح مجلس العمال .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واقامت الكتلة وحدة مركبات مجندة تحمل اسماء الالاف من اصحاب السيارات الخصوصية والثقيلة من اجل نقل الاشخاص من هنا وهناك وقامت بتجنيد اصحاب سيارات نقل من بين اعضاء الكتلة وانصارها لكي لا تكون مرهونة بشكل تام بسائقي سيارات النقل الذين ردعتهم في السابق تهديدات الشرطة بسحب اجازتهم اذا قاموا بنقل رجال ايمونيم(16) .

وعلى الصعيد الخارجي اقامت الكتلة هيئة في كل من الولايات المتحدة وكندا وتحمل هذه الهيئة اسم « انصار ايمونيم » وهي حصيلة الزيارات التي قام بها يوحنان فريد الى كندا والولايات المتحدة وتضم هذه الهيئات شخصيات واساتذة من اليهود(17) .

وتعتمد جوش ايمونيم في تمويلها على تبرعات الاعضاء والانصار ومعظمها تبرعات من البلاد وخارجها(18) .

فبعض هؤلاء ارسلوا الى البنوك المودعة فيها اموالهم تعليمات دائمة لدفع مبلغ معين شهريا لجوش ايمونيم واخرون ارسلوا تبرعات لمرة واحدة بعضهم تبرع بخمس ليرات وبعضهم بالف ليرة وهناك من تبرع بدولارات، وجنيهات استرلينية ويقول المسؤول المالي لجوش ايمونيم ان حوالي 80٪ من الذين يحملون بطاقات تبرع يصفون انفسهم بانهم غير متدينين(19) .

وعلى الصعيد الدعائي والاعلامي نجحت الكتلة بتنظيم حملات دعائية داخل وخارج « اسرائيل » ففي الخارج تقوم بارسال مادة دعائية بالعبرية والانجليزية الى بلاد ما وراء البحار لنشرها بين اليهود وبين عناصر غير يهودية ذات نفوذ لتوضح موقف جوش ايمونيم(20) .

وفي الداخل تقوم بعمل ندوات موسعة تضم شخصيات اجتماعية وحزبية مختلفة ومن فئات مختلفة فهي تضم اعضاء من الكنيست ورؤساء مدارس .. دينية ورجال اقتصاد وعلم واداب وشخصيات تحتل مناصب رئيسية ومندوبين عن خلايا الاستيطان والمستوطنات وهؤلاء معظمهم من غير المتدينين ...(21) .

ـ نشاطات جوش ايمونيم

ـ تظاهراتها ضد هنري كيسنجر واتفاقية سيناء

اجتاحت الاراضي العربية المحتلة موجة منظمة من المظاهرات العنيفة التي لم تتوقف الا بعد التوقيع على الاتفاق الجزئي بين مصر والكيان الصهيوني .

وجوش ايمونيم هي التي اعدت المظاهرات التي شهدتها الاراضي العربية المحتلة وقد نظمتها الجماعات الصهيونية المتطرفة التي ترفض التسوية الجزئية والانسحاب الصهيوني من اي جزء من الاراضي العربية المحتلة عام 1967 . وكان على راس تلك الجماعة جوش ايمونيم التي رفعت شعارات رفض التسوية الجزئية في سيناء وطالبت بسقوط الحكومة وكذلك رفعت شعارات ضد هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكي السابق عندما كان يقوم بدور الوسيط في المفاوضات بين مصر والكيان الصهيوني .

وقد تميزت هذه المظاهرات بتنظيم دقيق فقد خططوا لها سرا قبل تنفيذها واستطاع زعماء الحركة السيطرة عليها بشكل كامل ، وقد رافقت هذه المظاهرات اعمال عنف واشتباكات مع الشرطة الصهيونية كانت نتيجتها عشرات المعتقلين والجرحى وتعرض على اثرها وزير الشرطة شلومو هيلل ومفتش عام الشرطة روزد ليو الى استجواب دقيق بهذا الشان .

ان الكتلة ترى « ان الحقائق التي توجدها اسرائيل في المناطق المحتلة في الوقت الحاضر هي التي ستبقى في المستقبل وهي التي ستقرر قوة اسرائيل في المستقبل ، لقد فقدت اسرائيل تاييد العالم لها على الرغم من انها لم تضم الضفة الغربية ولم تقم بعمليات استيطان على نطاق واسع في الضفة الغربية» . كما انها تؤكد على أن استمرار المساعدات الامريكية وغيرها مرتبط فقط بحسابات مصالح هذه الدول العظمى ، وهذا ما لا تمنحه لتنازلات فاسرائيل تبقى معزولة حتى من دون اقامة استيطان بعد الانسحاب ايضا(22) .

اما نظرتهم الى السلام فتتلخص بانه تطور تدريجي تاريخي متواصل لا يمكن تحقيقه بواسطة شعوذة سياسية ، ان الحافز لتحقيق السلام هو القوة التاريخية مع التحلي بصبر كبير ، انه لا يوجد مثال في التاريخ على سلام تحقق بفضل مصالحات وتنازلات متبادلة ولكن هناك امثله كثيرة على تطور نسيج من السلام بالذات نتيجة لحالة من الوضع الراهن استمرت جيلين او ثلاثة اجيال ولم يفلح احد في تغييره ، وفي المقابل فان اي تنازل يتخذ في الشرق الاوسط انما يدل على ضعف عسكري واقتصادي وضعف في الروح المعنوية يؤدي الى اثارة العدوان وابعاد السلام ويزيد من خطر

نشوب الحرب . اما الموقف المتصلب فمن شانه ان يقرب التسليم العربي (باسرائيل) ومن ثم تقريب السلام(23) .

ولهذا فان مظاهرات جوش ايمونيم ضد اتفاقية سيناء هي تحذير للحكومة الصهيونية وانذار لها بعدم التنازل عن اي جزء من الضفة الغربية والجولان التي تعود وكما يدعون الى « شعب اسرائيل » صحيح ان سيناء قد لا تعتبر من ارض الاجداد بالنسبة لهم لكن اسلوب التفاوض يقلق جوش ايمونيم حول مستقبل الضفة الغربية والجولان وقد اوضح نيسان سلومينسكي ، سكرتير جوش ايمونيم ، ذلك بقوله : « ان المظاهرات ضد اتفاقية سيناء تهدف الى الردع من اجل المستقبل كي تعرف الحكومة انه اذا كانت الضجة التي اثرناها بشان سيناء بمثل هذا الحجم الكبير على الرغم من ان الروابط التاريخية بين (شعب اسرائيلي) ، وبين سيناء ليست عميقة الى هذا الحد فكيف ستكون الضجة التي سنثيرها بشان « يهودا والسامرة وهضبة الجولان » .

ويحذر يعقوب لفين (المتحدث باسم الكتلة) من اتفاقية سيناء قائلا : ان النكسة في سيناء تعتبر ثغرة كبيرة في سد سوف يكون من الصعب على الحكومة ان تسيطر على الشلال الهائل الذي سوف يتدفق على طريقها(24) .

واعتبر حنان فورات اتفاقية سيناء او اية تسوية سياسية تقوم على انسحاب اسرائيل ، من الارض المحتلة تراجعا للصهيونية فهو يقول : (ان النقطة المهمة لم تكن الخط الاقليمي لاننا لم نتخذ بشان سيناء موقفا جليا وانما التراجع في الصهيونية)(25) .

ويرون بان اتفاقية سيناء ستؤدي بهم الى « العبودية السياسية » كما يسمونها اذ أنهم سيرتبطون من أعناقهم بامدادات النفط من الولايات المتحدة ان احتقار واهانة شعب « اسرائيل » مسالة مرتبطة بالسيادة اليهودية وليست مسالة عاطفية وهي لا تتمثل في الارض فقط(26) .

النشاط الاستيطاني لجوش ايمونيم :

كما راينا قامت جوش ايمونيم من اجل العمل على توسيع الاستيطان في الضفة الغربية والجولان وتثبيته حيث ترى هذه الجماعة ان الصهيونية تعني وعلى الاخص في هذه المرحلة الاستيطان . وتعني ايجاد نمط معين من الحياة ينطوي على البذور التي تنبت الاستيطان والتي من شانها ان تؤدي ايضا حسب اعتقاد رجال ايمونيم الى تشجيع الهجرة التي تمر في مرحلة انخفاض والى ايقاف النزوح والاخذ في الازدياد .

ولهذا قامت جوش ايمونيم مدفوعة ب :

ا ـ الاعتراض على السياسة الاستيطانية لحكومة حزب العمل السابق واساليب عمل المؤسسات الحزبية والسياسية في (اسرائيل) .

ب ـ تعصب عنصري ضد العرب ولهذا فهي ترفض فكرة التعايش العربي اليهودي وترفض ايضا الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة وتعمل على :

1 ـ زيادة الهجرة الى الكيان الصهيوني .

2 ـ خلق اكثرية يهودية في الكيان الصهيوني بعد التغلب على المشكلة الديمغرافية في الاراضي العربية المحتلة بافراغها من العرب فهناك قلق اسرائيلي يتزايد بسبب تزايد نسبة نمو السكان العرب على نسبة نمو السكان اليهود المتدنية . ففي ظل انخفاض الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة وتزايد الهجرة المعاكسة اضافة الى وجود غالبية عربية فلسطينية ونتيجة لتزايد نسبة النمو السكاني العربي في الارض العربية المحتلة عام 1967 تصبح هذه الاراضي (قنبلة ديمغرافية مؤقتة لاسرائيل) وهو تشبيه صهيوني للدكتور موش هارتمان في محاضرته حول التوازن الديمغرافي في الكيان الصهيوني بين العرب واليهود ومستقبل تزايد النسل وتاثير الهجرة ، على اعضاء لجنة الهجرة والاستيعاب التابعة للكنيست ، فقد وضح المحاضر بالارقام هذه المشكلة التي اثارت فزع الصهاينة فقال : (انه في عام 2000 وفي ضوء زيادةالنسل للعرب واليهود ومعدلات الهجرة الحالية سيكون عدد العرب حوالي 4 ملايين وربع نسمة اما اليهود فسيكون تعدادهم 3 ملايين وثمانمئة الف نسمة) وهذا الحساب يفترض .. تحديد النسل عند العرب بحيث يكون لكل عائلة عربية (6) اولاد ، ويفترض وصول 25 الف نازح يهودي سنويا(27) .

3 ـ خلق واقع جديد يفرض على الاخرين . ولهذا فان الكتلة اعلنت عن ان نشاطها ينحصر الان في اقامة المستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية والجولان وتشجيع وزيادة الهجرة اليهودية الى الارض المحتلة .

وقد لقيت جوش ايمونيم دعما وتاييدا من قبل قوى سياسية مختلفة وشخصيات ذات نفوذ مختلف لم تلقه اية كتلة قبلها،ففي محاولاتها الاولى للاستيطان في مكان « قرب عين وادي القلط على السفوح الشرقية لجبال يهودا » في 1974/10/10 كان من بين الموقعين على طلب استمرار المستوطنة التي اقامتها الكتلة اعضاء من الكنيست الصهيوني منهم موشي دايان ومردخاي بورات ومتيلد اجيز ودافيد كورين من حزب العمل الحاكم في ذلك الوقت اضافة الى ، الالاف من حركة حيروت كما اعرب المجلس العالمي في بين عكيفا عن تاييده للمستوطنين في الضفة الغربية ودعا المتعاطفين معهم الى الانضمام الى المستوطنين واكدت قرارات المجلس عن حق شعب « اسرائيل » في ارض « اسرائيل »(28) .

وفي مسيرة الى نابلس (بعد ان حصلت على اذن من السلطة) قامت بها جوش ايمونيم يومي 30 و 31 اذار 1975 مستغلة عطلة عيد الفصح اليهودي حدد موشي شمير هدف المسيرة قائلا : لنعلن ونؤكد ارتباط شعب (اسرائيل) بارضه. فان صعود عشرات الالاف من اليهود،الى جبال وطنهم، معناه ان هذا الشعب لا يعيش مسيرة تراجع بل مسيرة تقدم(29) . وقد اشترك في هذه المسيرة ما بين 20 ـ 30 ألف شخص(30) . ينشدون (السامرة كلها لنا) وكان من بين المشاركين مناحيم بيغن ومردخاي بن فورات وغيئولا كوهين ويهودا اولمرط وغيرهم من الشخصيات «الاسرائيلية» المعروفة(31) .

ان ما يميز جوش ايمونيم (العناد) الذي يشجعها على اعادة تنظيم اعتدة الاستيطان المختلفة وعلى استعمال الخرائط لتحديد الطرق المؤدية الى الاهداف فالخط الجديد هو العناد والمثابرة أي أن محاولات الاستيطان ستستمر فالمستوطنون يقيمون مستوطنة ، يطردون منها ، يقيمونها ثانية يطردون منها ، يقيمونها في مكان اخر حتى توافق الحكومة عليها(32) .

فخلال ثمانية اشهر تقريبا منذ قيام اول محاولة استيطانية لها حتى اذار/1975 جرت 3 محاولات استيطانية جنوب نابلس ثم ادوميم وقد اخلاهما الجيش والمحاولة الثالثة في معاليه اذوميم ، وما رافقها من نقاش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعبي وحزبي وحكومي ادت الى موافقة الحكومة على اقامة منطقة صناعية تابعة للقدس . وتم اقرار ميزانية لها واقامت ابنية لسكن الاشخاص .. العاملين فيها(33) . وخصص مبلغ 10 ملايين ليرة من ميزانية وزارة التجارة والصناعة لتنفيذ اعمال اقامة منطقة صناعية في معاليه ادوميم(34) .

وكان زعماء ايمونيم يؤكدون دائما بان استيطانهم سيستمر حتى ترضخ الحكومة لهم ويتم استيطان يهودا السامرة كما يطلقون على الضفة الغربية المحتلة . يقول مناحيم فيليكس زعيم المستوطنين من نواة الون موربيه .. سننظل نأتي الى سبسطيه حتى نحطم الجدار الاصم الذي تتوارى وراءه حكومة اسرائيل وتتجاهل قضايانا فكل رغبتنا هي البقاء هنا لتوسيع عنق الزجاجة لهذه الدولة وهو (خط نتانيا طولكرم)(35) .

وقد قام رجالها بتنظيم العديد من الندوات التي شارك فيها المئات من الشباب معظمهم من غير المتدينين في المستوطنات الواقعة وراء خطوط عام 1967 ، كما قاموا ببلورة خلايا استيطان جديدة وقاموا بعمليات اعلامية واسعة وعلى الاخص في الفروع المركزية للكتلة بين اصحاب الصناعات وبين التيارات الاستيطانية ومواطنين عاديين من اجل حثهم على المساهمة بالجهد المالي الكبير(36) .

ويتم تنظيم الشباب لعمليات الاستيطان خلال ايام الاعياد كالعملية التي نظمت في (سبسطيه) خلال عطلة (جنوكا) التي تعطل فيها المدارس ويكون الشبان المتدينون متحمسين للقيام بنشاط بتوجيه من حاخامي المدارس الدينية والمدرسين ورؤساء بني عكيفا ورفاقهم الذين يقودون جوش ايمونيم(37) .

اما التنظيم الحقيقي للكبار فهو مبني على اساس الاستيطان في الاماكن التي لم يوافق على الاستيطان فيها(38) .

وتضم جوش ايمونيم خلايا منظمة تحمل اسماء مناطق مختلفة مثل خلية غرب السامرة وخلية اريحا ، وخلية شيلو ، وخلية معاليه ادوميم .. الخ(39) .

وقد تبنت جوش ايمونيم مشروعا اساسيا للاستيطان واسع النطاق في الضفة الغربية ستبني بمقتضاه 200 مستوطنة خلال الـ 10 سنوات القادمة لمليون يهودي لخلق اكثرية يهودية في الضفة الغربية المحتلة(40) .

خلافاتها مع حكومة حزب العمل :

كان اساس الخلافات بين جوش ايمونيم وحكومة حزب العمل السابقة حول الاستيطان يتمثل في ان الحكومة السابقة كانت ترفض الاستيطان في جميع الاراضي العربية المحتلة عام 1967 في هذه المرحلة أي انها تولي اهمية للاستيطان في مناطق معينة تعطيها الافضلية على غيرها من المناطق اضافة الى انها كانت مترددة بالنسبة لمصير هذه الاراضي بعد ان دخلت طرفا في مفاوضات حول التسوية السياسية تقوم بموجبها بانسحاب من ارض عربية محتلة مقابل السلام وحدود آمنة ومعترف بها من قبل الدول العربية المجاورة ، فقد ظهرت خلافات فيما بين اعضاء حزب العمل انفسهم فهناك من يطالب بالتمسك بالاراضي العربية المحتلة في الوقت الذي يوجد من يطالب بالتنازل والانسحاب منها مقابل سلام آمن (لاسرائيل) ولهذا نجد أن الحكومة السابقة كانت تعلن عن معارضتها لنشاط جوش ايمونيم غير انها تغض الطرف عنها تارة وتساعدها تارة اخرى مستغلة ذلك كذريعة لها من اجل التمسك بمزيد من الاراضي العربية المحتلة اثناء مفاوضات التسوية .

ان الحكومة السابقة غير مقصرة في مجال الاستيطان بل على العكس من ذلك انها قامت بنشاط استيطاني واسع خاصة في المناطق التي تعلن باستمرار عن تمسكها بها ضمن اية تسوية يمكن التوصل اليها وتضم هذه المناطق قطاع غزة ومشارف رفح وشريطا من ارض سيناء يمتد بمحاذاة حدود فلسطين ـ مصر الدولية ، وعلى الساحل الشرقي من سيناء الذي يطل على خليج العقبة حتى يصل الى شرم الشيخ ، بالاضافة الى الجولان او قسم منها على الاقل ، وجزء من الضفة الغربية في منطقة الاغوار ، يمتد بمحاذاة نهر الاردن ويحيط بمدينة الخليل اضافة الى القدس وضواحيها التي ضمت الى (اسرائيل) منذ 1967 وهناك محاولات لتوسيع تلك الرقعة من الارض(41) .

ففي غضون العشر سنوات الاخيرة قامت حكومة حزب العمل بتنفيذ 70 مستوطنة صهيونية ، يمكن تسميته بالمشروع الاستيطاني اليهودي في عهد الهجرة الاولى والبارون روتشيلد(42) .

حتى اجزاء الضفة الغربية التي تقيم عليها جوش ايمونيم مستوطناتها كانت تلقى تاييدا وموافقة مبدئية من الحكومة (الاسرائيلية) السابقة رغم اعلانها عن عدم شرعية بعض المستوطنات التي اقامتها جوش ايمونيم ويفضح موقفها هذا اعلان وزير الاديان السابق يتسحاق رفائيل في الحكومة السابقة وهو من حزب المفدال امام طلاب احدى المدارس الثانوية في اشكلون « بان الاتفاق الائتلافي مع الحكومة الذي انضم بموجبه حزب المفدال الى الائتلاف يشمل بعض البنود السرية التي لم تنشر وذلك للحيلولة دون ردود فعل من جانب دوائر معينة في المعراخ واضاف ان القرار بشأن معاليه ادوميم هو جزء من تلك البنود التي لم تنشر »(43) .

اي ان اقامة مستوطنة معاليه ادوميم كانت تنفيذا لوعد قطعه رئيس الحكومة اثناء المفاوضات التي سبقت انضمام الحزب للحكومة . وكانت الحكومة السابقة تهدف من وراء ذلك الى :

1 ـ تقوية السيطرة «الاسرائيلية» والصهيونية على المناطق المحتلة .

2 ـ ابعاد تهمة عدم التصرف وفقا لمصالح «اسرائيل» وتقديم تنازلات للعرب .

3 ـ خلق وقائع في تلك المنطقة باقصى سرعة ممكنة قبل الوصول الى تسوية سياسية جزئية او شاملة فرابين يقول : ان دور المستوطنات في حال نشوب حرب سيكون محدودا ولكنها تجسد معنى الاصرار على البقاء فيها(44) .

وكذلك رسالة موشي كول وزير السياحة الى مستوطني الجولان : اننا خلقنا بمستوطنات الجولان خريطة جديدة لاسرائيل ستضطر سوريا للاعتراف بها(45) .

علاقاتها بحكومة الليكود :

بوصول كتلة الليكود الى الحكم لم يبق مجال للشك في ان السياسة «الاسرائيلية» الجديدة تقوم على اساس ان الضفة الغربية والجولان ، وغزة هي ارض محررة وهي جزء مهم لا يمكن فصله عن دولة (اسرائيل) كانت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتلة ليكود وقد رفعت دعوى استيطان الضفة الغربية والجولان ، ومنحت الدعم والتاييد لجوش ايمونيم حيث انا لجماعة لم يتصلب عودها ويقوى الا بفضل دعم كتلة ليكود لها . ولهذا اعتبرت جوش ايمونيم فوز ليكود في الانتخابات «الاسرائيلية» عام 1977 نصرا لها . وقد اعترفت حكومة ليكود بالمستوطنات التي اقامتها جوش ايمونيم ودفعت مبلغ 6 ملايين ليرة لجوش ايمونيم واقامت عددا من المستوطنات في تلك المناطق خلال الفترة القصيرة من الحكم(46) .

وانسجاما مع موقف ليكود من الاستيطان طرح العديد من مشاريع الاستيطان كمشروع ايفال كوهين ومشروع اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان ومشروع اريك شارون ومشروع حاييم وايزمان مؤخرا .

ان اخطر مشروع طرح حتى الان هو مشروع اريك شارون وزير الزراعة ورئيس اللجنة الوزارية للاستيطان وقد اثار ضجة على الصعيد « الاسرائيلي » والعربي والعالمي ، حيث انه يهدف الى احداث تغييرات سكانية وجغرافية وقانونية في الارض العربية المحتلة . ومن الجدير بالذكر ان هذا المشروع - وكما ذكرت صحيفة يديعوت احرونوت 1977/9/23 - كان قد قدمت مبادؤه الى رئيس الوزراء السابق اسحق رابين سنة 1976 على يد البروفيسور ابراهام فكمان ونالت هذه المبادىء القبول حتى من لدن الاجنحة الاقل صقرية في الحكومة غير ان المشروع اختفى وعاد ليظهر تحت اشراف حكومة ليكود وباسم اريك شارون وهنا تكمن المفارقة ان حكومة بيغن تبنت لنفسها مشروعا فعالا تبلور بايحاء من الحكومة التي سبقتها .

وكان مشروعه عبارة عن ورقة عمل تحمل اسم (العمود الفقري المزدوج) قدمها الى حكومة ليكود ، واستندت ورقة العمل هذه على فرضيات اساسية لنظام الاستيطان في الضفة الغربية وهي(47) :

1 - ان مطاليب اسرائيل في فرض سيادتها على جزء من الاراضي العربية المحتلة ليست للمساومة وانما مطاليب جوهرية ضرورية .

2 - لقد اقيمت دولة «اسرائيل» كوطن قومي للشعب اليهودي كله ، وان اي تخطيط على المدى البعيد يجب ان ياخذ في اعتباره عدد سكان يتراوح بين 6 - 8 ملايين يهودي كحد ادنى حتى نهاية القرن الحالي .

3 - ستكون (اسرائيل) في حالة حصار لفترة طويلة من الزمن ولذا من الواجب الحفاظ على معادلة امنية كبيرة .

4 - يعيش في «اسرائيل» شعبان ، وان الطموحات القومية لكل واحد منهما تاخذ صفة الحد الاعلى وتتعامل مع الارض بكاملها ، لذا فان الحل الحقيقي هو التقسيم وفي الوقت الحاضر تستطيع «اسرائيل» ان تملي حدود التقسيم وفقا لاحتياجاتها وحسب وجهة نظرها ، كما ان عليها ان تفعل ذلك طالما كان الامر ممكنا .

5 - ان دولة (اسرائيل) بحاجة الى انتشار بشري واسع وبتعبير الوثيقة ليست بدافع الدفاع العسكري الفوري عن النفس وانما لاسباب التطور على المدى البعيد . يجب ان نضع امام الشباب طموحات بعيدة المدى توفر لهم الحافز للعمل القومي .

6 - وهناك احتمال كبير في ان العالم سيوافق في النهاية على الموقف (الاسرائيلي) حتى اذا اصطدم هذا الموقف في البداية بالمعارضة تضمنت بنود المشروع : ان انتشار الاستيطان والتطور البشري لدولة (اسرائيل) يجب الا يرتكز او يقوم على عمود فقري واحد (القطاع الساحلي) وانما على عمود فقري مزدوج ، أي عمودين فقريين لهما مفاصل طول قوية في المضمون ومفاصل عرض قوية بينهما وهذان العمودان الفقريان هما العمود الساحلي والعمود الشرقي ويجب ان نامل كما تقول الوثيقة ان العمود المركزي سيكون على المدى البعيد موازيا بقدر الامكان في الاهمية الديمغرافية وفي مستوى التطور للعمود الغربي وسيكون العمود الشرقي قطاعا متواصلا من الجولان في الشمال وحتى افيرا في الجنوب « ان الاراضي المدارة في الضفة الغربية وقطاع غزة والتي يسكنها العرب بشكل كثيف لن تكون تحت السيادة (الاسرائيلية) ولكن سيكون ذلك بشرطين : اخلاؤها من الجيش ، ووجود حدود مفتوحة بينها وبين دولة (اسرائيل) من اجل قيام العلاقات الاقتصادية والمواصلات . ويعتقد واضع الوثيقة بانه في حالة عدم وجود مشكلة ديمغرافية كبيرة الاهمية فان العالم من الممكن ان يعتاد على الحقائق التي ستخلقها (اسرائيل) في المنطقة » انهم يتحدثون فعلا عن خلق الحقائق والتكيف وفقا لها ان عاجلا أم آجلا(48) .

الملاحظ ان اقتراح شارون ابقى ارض فلسطين المحتلة بكاملها تقريبا تحت الاحتلال الصهيوني وكانه او غيره من المسؤولين الصهاينة يهدفون الى احباط مساعي التسوية عن طريق اكثارهم من الحديث عن مشاريع الاستيطان هذه او في الاقل افهام أنظمة التسوية العربية بانهم لن ينسحبوا الا من جزء صغير من الاراضي العربية المحتلة . وقد اثار ذلك قلق الولايات المتحدة رغم علمها بصعوبة نجاح هذه المشاريع فلقد اقامت حكومة (اسرائيل) السابقة اكثر من 70 مستوطنة ومع ذلك لم تعترض الحكومة الامريكية على ذلك لان الحكومة السابقة كانت تقيم هذه المستوطنات دون ان تثير أي ضجة اعلامية حولها كما ان الكثير منها اقيم بشكل سري دون ان تعلن عنه الحكومة او انها اظهرت بان هذه المستوطنات هي نتيجة لنشاطات مجموعات يهودية اهلية . اما الان فان كتلة ليكود لا تخفي دعمها وتاييدها لاقامة المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة عام 1967 وتطرح مشاريع استيطانية جديدة تسبب احراجا للولايات المتحدة امام انظمة التسوية العربية وقد تعيق مساعي التسوية ولهذا عارض الاميركان خطة شارون لكن الاخير اعترض على ذلك قائلا:

لا اعتقد ان خطتي ستعرقل اية حلول دبلوماسية لاننا قد اوضحنا تماما اننا لن نتخلى عن الضفة الغربية انني اعتقد اننا اذا اقمنا هذه المستوطنات فسنشعر بقدر من الامن تكفي للمخاطرة بقبول السلام(49) كل ذلك اثار غضب الولايات المتحدة وعند اجتماع بيغن بكارتر في واشنطن طلب كارتر من بيغن الاحجام عن الاستيطان الى ان يتم عقد مؤتمر جنيف وكبديل عن الاستيطان نصح كارتر بيغن بتكثيف المستوطنات القائمة حاليا في المناطق المحتلة(50) .

وكان واضحا انه لا يمكن في اي ظروف تجاوز وتخطى الرئيس الامريكي وحتى اذا ارادت اسرائيل ان تتصرف خلافا لارائه فان من الافضل ان تطلعه سلفا على خطواتها ولهذا حمل وزير الخارجية دايان معه الى الولايات المتحدة خريطة اشر عليها 6 مستوطنات وافق عليها رئيس الوزراء استجابة لمطاليب زعماء جوش ايمونيم عرضها امام كارتر واوضح له ان المستوطنات سوف لا تتخذ طابعا مدنيا كاملا . عندما نظر كارتر الى ذلك على انه اهون الشرين(51) .

غير ان ذلك لم يرض جوش ايمونيم وانتقدت الحكومة على ذلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واستمرت في اقامة مستوطناتها حسب برنامجها الخاص ولهذا اجتمع شارون بهم من اجل اقناعهم بتاجيل اعمالهم الاستيطانية التي يعتزمون تنفيذها وهي اقامة 12 مستوطنة تمت الموافقة على واحدة منها من قبل الحكومة جنوب الخليل وبعد ذلك سلمت الكتلة مشروع تسوية تقوم بموجبه بالبدء باقامة مستوطنتين جديدتين قريبا(52) ، وعندما ازداد ضغط الكتلة على الحكومة هدد بيغن بالاستقالة في حالة مواصلة الضغط عليه(53) . اخيرا تم الاتفاق على ان يكون الاستيطان بشكل مؤقت في معسكرات الجيش القريبة من المستوطنات الدائمة التي سينتقلون اليها وكذلك اقامة (6) مستوطنات في معسكرات الجيش حتى نهاية هذه السنة كما تم الاتفاق على توجيه اعضاء (10) نوى تابعة للكتلة الى مستوطنات دائمة تابعة لها في الضفة الغربية(54) .

اي ان بيغن لجأ الى اقناع زعماء الحركة تحويل عملياتهم الاستيطانية الى المواقع العسكرية لتفادي حدوث خلاف مع الولايات المتحدة التي لم تعترض لحد الان على انشاء قواعد عسكرية بالضفة الغربية ، وقد اثار ذلك بعض الاوساط السياسية في اسرائيل واعتبرته خطوة نحو تسييس الجيش فقد اعلن بيريس : ان الليكود يهدم الجيش ويحاول اقحامه في السياسة عن طريق ادخال رجال ايمونيم في المعسكرات وان تجنيد رجال الكتلة في الخدمة الاحتياطية يجعلهم خاضعين لسلطة الجيش من جهة وللمفاوضات الائتلافية من جهة اخرى وهذا الوضع حسب تقدير بيغن يعتبر وضعا لا يطاق(55) .

وفي بيان عن اعضاء كيبوتسات في النقب ذكر ان بيغن يستخدم كتلة ايمونيم للدفاع عن سياسة الضم والطرد ولهذا فانه يستخدم اطارا عسكريا(56) .

وهكذا استمرت جوش ايمونيم في اقامة مستوطناتها في الضفة الغربية المحتلة ، ففي بداية سنة 1978 اكتمل تشييد 10 مستوطنات تابعة لجوش ايمونيم(57) . وبدأت حملة لتطبيق قرار يقضي بمضاعفة عدد المستوطنين في مستوطناتها لكي تقطن وخلال فترة قصيرة (100) عائلة في كل مستوطنة وذلك طبقا لقرار الحكومة السابق . وتقوم بمهمة زيادة عدد المستوطنين لجان مشتركة من جماعة الاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية ومن جوش ايمونيم(58) .

ان ظهور جوش ايمونيم كرد فعل على ظهور مشاريع التسوية بعد حرب تشرين ورغم انها أنكرت كونها حزبا او مؤسسة سياسية غير انها استغلت لاغراض سياسية ، فخلال فترة قصيرة من ظهورها قويت وتعاظم نفوذها لا بسبب كامن فيها بل لانها استقطبت العديد من الجماعات السياسية اليمينية والدينية التي امدتها بالقوة من اجل الوصول الى هدف سياسي معين فقد كانت مظاهرات جوش ايمونيم عونا لحكومة حزب العمل السابقة في تقوية موقفها التفاوضي اثناء مفاوضات التسوية مع مصر . كما استغلها بيريس اكثر من مرة كاحراج لرابين كذلك كانت اكبر عون لكتلة ليكود في انتخابات عام 1977 وفي تثبيت موقفها المتعنت من الاراضي العربية المحتلة 1967 وهناك من يتحدث عن ان شارون ينوي تأسيس حزب سياسي جديد مع جوش ايمونيم قبل الانتخابات القادمة وان ما خصص من اموال اقترحها شارون لكتلة ايمونيم لتمويل اعمالها هي اموال مخصصة لهذا الغرض(59) . مرحلة استيطانية جديدة .

في الوقت الذي تزداد فيه عمليات الاستيطان الصهيوني وتكثر المشاريع الاستيطانية الصهيونية المطروحة نجد ان الاستيطان الصهيوني بدأ بتدشين مرحلة جديدة في الاستيطان بعد ان استنفد الاستيطان الروبيني (نسبة الى الدكتور ارثر روبين الذي صاغ طابعة وحدد اهدافه) كل اهدافه ، حيث ان هذه المرحلة تختلف في اهدافها وطابعها عن المرحلة السابقة ، وهذا ما اكده البروفيسور رعنان فايتس رئيس دائرة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية ، في حديث لصحيفة يديعوت احرونوت (1977/6/12) اوضح فيه انهم وصلوا الى المحطة ، الى نهاية المطاف ، شرح فايتس ذلك مؤكدا ان الهدف السياسي للاستيطان الروبيني كان السيطرة على اكبر عدد ممكن من المواقع المتوزعة في ارجاء فلسطين التي يدعوها « اسرائيل التاريخية » تمهيدا لمعركة الحسم التي ستعين بدورها حدود دولة اليهود التي ستقوم مستقبلا وبالفعل ساهم العمل الاستيطاني في تعيين حدود دولة «اسرائيل» في حرب عام 1948. اما هدف الاستيطان الان وكما يقول فاتيس فهو تاهيل ارجاء البلاد التي احتلوها بغية تكوين استمرارية استيطانية يهودية كاملة وبالتالي المحافظة على الطابع اليهودي للدولة وهو الطابع الذي لا يحتمل اقلية غير يهودية كبيرة داخله ، اضافة الى ان الاستيطان الروبيني كان يهدف الى خلق نقاط تحصين ومواقع انطلاق للقوات الصهيونية العسكرية وصممت المستوطنات منذ البداية من اجل ذلك اما الان فان القوات الصهيونية هي اساسا قوات متحركة لان النظرية العسكرية تعتمد على حرب الزخم والحركة المستمرة وكان الاستيطان الروبيني هدفا اقتصاديا ايضا حيث انه كان يريد الوصول ، الى القدرة الكاملة لضمان الغذاء والمواد الخام للاستيطان الصهيوني في البلاد واحرز هذا الهدف نجاحا كاملا حيث ازدادت الطاقة الانتاجية للوحدة الزراعية بنسبة 5٪ سنويا في الوقت الذي لا يرتفع فيه عدد المستهلكين في السوق المحلية الا بنسبة 2 ــ 4٪ سنويا أي من الان هناك فوائض في الانتاج الزراعي اما الهدف الاجتماعي للاستيطان الجديد فهو خلق قرية صناعية بمفهوم جديد يتطلع فايتس الى « ان تكون نبراسا لفكر استيطاني جديد ولنمط حياة اجمل » كما يقول فالمفهوم السابق للقرية كان يقوم على الزراعة ويذكر فايتس ان القرية الزراعية كانت حلم ابائه الصهاينة من جيل المؤسسين حيث ارادوا بواسطتها ان يقلبوا هرم « الشعب اليهودي » اقتصاديا واجتماعيا ويكونوا طبقة عريضة من العاملين في الارض في بلاد « اسرائيل المتجددة » كما يقول فايتس . اما الان فالقرية لها قيمة اجتماعية اخرى بالنسبة للانسان المعاصر الذي يهرب من ضجيج وتلوث المدينة الى القرية لا ليعمل في الزراعة بل ليبحث عن شيء اخر ، ولهذا فالقرية الصناعية هي التي يجب ان تقام بدل القرية الزراعية ويضيف فايتس بان هذه القرية العصرية « ستخلق مفهوما جديدا للتعاون الاقليمي الذي يتيح للطوائف الصغيرة الاتحاد معا وتنظيم شبكة اشغال وخدمات للمجموع وللفرد لا تقل نجاحا عما هي عليه في المدينة ولكن من دون العلاقات الجانبية السلبية التي تنطوي عليها المدينة الكبيرة » هذا هو حلم فايتس الذي بدأ في العمل على تحقيقه وقد اعد فايتس وطاقم مساعديه مشروعا مفصلا من اجل تنفيذ اهداف الاستيطان الجديدة ، وينقسم المشروع الى :

1 ــ المشروع الشمالي يمتد في الجليل من الناصره جنوبا حتى حدود لبنان شمالا . وستقام فيه (50) مستوطنة قروية تشتمل على (10) الاف عائلة وبحدود (55) الف نسمة ، سيشتغلون في انتاج زراعي للتصدير وفي مرافق للخدمات ..

2 ــ المشروع الجنوبي : بصورة مثلث تشكل زواياه الحد الجنوبي لقطاع غزة ومنطقة حلوزة في الجنوب وبئر السبع في الشرق وستقام فيه حوالي (100) مستوطنة تضم (20) الف عائلة (150) الف نسمة ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من المتوقع ان يشكلوا في المستقبل تواتـرا استيطانيا يمتد بين مشارف رفح وبين بئر السبع ، وستركز الزراعة في منطقة المشروع الجنوبي على المزروعات المخصصة للتصدير وعلى المشاريع والمعامل الصناعية من اجل تصنيع الانتاج الزراعي .

3 ـ مشروع في الخط الشرقي : الذي ينحدر بخط مستقيم من الجولان ، مرورا بغور الاردن وغور عيشيون حتى يصل الى العربة وهضبة النقب ، وستقام (53) قرية جديدة ، تجمع بين النشاط الزراعي والنشاط الصناعي وتقـوم بتزويد الانتـاج للاستهلاك المحلي وللتصدير .

يقول فايتس انهم بحاجة الى نصف مليون نسمة من اجل تنفيذ مشاريع الاستيطان في القرية والمدينة بموجب هذه الخطة 80٪ منهم في المدينة و 20٪ منهم في القرية ويفترض انه اذا ما جاءت هجرة بحدود (50) الف يهودي سنويا فان الخطة تنفذ خلال 15 سنة القادمة . مما تقدم نلاحظ ان هناك اسلوبا جديدا في العمـل يهـدف الى الغاء المستوطنات الصغيرة المنتشرة هنا وهناك والتي تلعب دورا عسكريا بحتا لاقامـة مستوطنات كبيرة بل مدن كبيرة يسكنها الاف المستوطنين ويخلق لها كل مقومات البقاء الاقتصادية والاجتماعية .

كما انه يوضح وجهة نظر الحكومة «الاسرائيلية» السياسية حول مصير الاراضي العربية المحتلة عام 1967 فالمشروع يضم اغلب هذه الاراضي في الوقت الذي يعارض اقامة هذه المشاريع في المناطق التي فيها اغلبية عربية ففايتس يقول « ان التاريخ علمنا انه من الخطأ مزج سكان من ابناء شعبين مختلفين » ولهذا فان محاولات افراغ العرب من هذه الاراضي متوقعة جدا اضافة الى العمل على زيادة تشجيع الهجرة اليهودية الى « اسرائيل » فيما اذا نجحوا في ذلك . مما يترتب على ذلك تغييرات جغرافية وسكانية وقانونية في الاراضي العربية المحتلة .

المصـادر

1 ـ صحيفة دافار 5–12–1975 .
2 ـ هارتس 29–7–1977 .
3 ـ المصدر السابق .
4 ـ دافار 5–12–1975 .
5 ـ المصدر السابق .
6 ـ المصدر السابق .
7 ـ المصدر السابق .
8 ـ المصدر السابق .
9 ـ شؤون فلسطينية 50 ، 51 عن (معاريف 24–8–1975) .
10ـ هارتس 29–7–1977 .
11ـ المصدر السابق .
....
13ـ شفعاه باميم 20–11–1975 .
14ـ دافار 5–12–1975 .
15ـ شفعاه باميم 20–11–1975 .
16ـ المصدر السابق .
17ـ المصدر السابق .
18ـ دافار 5–12–1975 .
19ـ شفعاه باميم 20–11–1975 .
20ـ المصدر السابق .
21ـ المصدر السابق .
22ـ المصدر السابق .
23ـ المصدر السابق .
24ـ المصدر السابق .
25ـ المصدر السابق .
26ـ المصدر السابق .
27ـ مجلة الهدف ـ 388 ، 27–5–1978 .
28ـ رصد اذاعة اسرائيل 13 10–1974 .
29ـ معاريف 30–3–1975 .
30ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية 16–4–1975 ، عن عال همشمار ويديعوت احرونوت 31–3–1975 .
31ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية 16–4–1975 عن عال همشمار 31–3–1975 .
32ـ شفعاه باميم 20–11–1975 .
33ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية عدد 13–2–1975 عن هآرتس .
34ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية عدد/3 1–2–1975 عن يديعوت احرونوت 13–1–1975 .
35ـ هارتس 20–3–1975 .
36ـ شفعاه باميم 20–11–1975 .
37ـ دافار 5–12–1975 .
38ـ دافار 5–12–1975 .
39ـ دافار 5–12–1975 .
40ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ 1 و 16–2–1975 عن عال همشمار 12–2–1976 .
41ـ نشرة قضايا اسرائيلية 20–3–1975 .
42ـ يديعوت احرونوت 25–9–1977 .
43ـ نشرة قضايا اسرائيلية 20–3–1975 عن يديعوت احرونوت فـي 24–1–1975 .
44ـ رصد اذاعة اسرائيل 17–2–1975 .
45ـ المصدر السابق .
46ـ شؤون فلسطينية عدد 73 .
47ـ يديعوت احرونوت 23–9–1977 .
48ـ المصدر السابق .
49ـ نيوزويك 19–9–1977 .
50ـ يديعوت احرونوت 15–10–1977 .
51ـ المصدر السابق .
52ـ نشرة الارض ـ عدد 3 ، 21–197710 عن دافار في 28–9–1977 .
53ـ القدس 1–10–1977 .
54ـ دافار 29–9–1977 .
55ـ معاريف 30–9–1973 .
56ـ عال همشمار 30–9–1977 .
57ـ صوت امريكا 10–1–1978 .
58ـ رصد اذاعة اسرائيل 21–4–1978 .
59ـ هارتس 11–10–1977 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صلاة

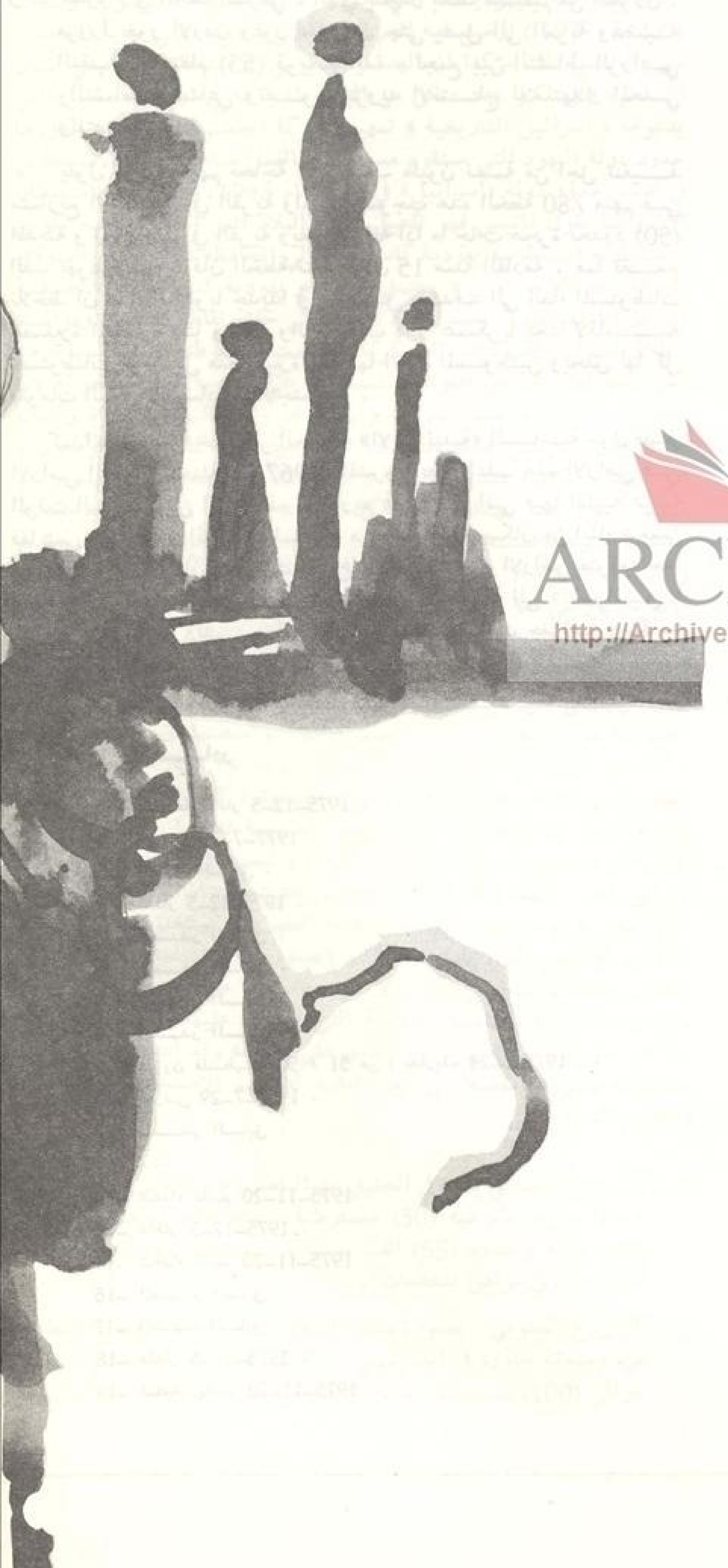

(1)

مواقدها كانت الريح ، مرفأها كانت الشمس ،
واحاتها كانت الانجمُ الصاحيه
فمن أين أقبلتِ يا مدناً كل أمطارها سحب داجيه ؟ .

(2)

يقولون : غامت شواطئها الخضر ، أطفأت الريح
ساحاتها ، لم يعد في شبابيكها نفس للعصافير ،
رائحة لندى البحر ، خطـو لكل العيون التي تلتقي
بالينابيع ، بالشمس ، بالربوات الفساح .
يقولون : ما عاد فيهـا الصباح
يمـر شراعا يغني وينسل طيرا طليق الجناح .
يقولون : فاتنة البحـر مذ هجرتها السواقي
وجف بها الماء وارتحلت عن سماها النجوم
ولم يبق فيها سوى شجر الموت والصهوات التي نبتت أدمعاً
مرة في سـواد المآقي
ونامت على الرمل ظلا حزينا وصوتا يعرش في ضفتيه
الأسى وتشب الهمـــوم .
يقولون : فاتنة البحر حاصرها الجند وافتض
أبوابها نفـر نزعوا جلدهم مثلما ينزع الوحش لحظة
ينقض جـلد البراءه .
فيا مشرع السبي . ان السبايا فم يملك الثـأر .
فلتحترس من فم أنت أغمدت فيـه اللظى كي تواري
نـــداءه .
يقولون أنتِ التي كنت للاعين المستظلة بالفجـر
قنديل شـوق :
تلفعتِ بالليل ، غطت سماءك أجنحة في خطاها
نمـا للتراب المعفر خندقه ألف طـوق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفجيعة النبيلة

راضي مهدي السعيد

(3)

دعيني أنم لحظة فوق جرحي
فان جراح الخطـايا ضماد
دعيني فان الدجى اغتـال صبحي
وحط على مقلتيّ السـواد
دعيني • فما في شعابي وسفحي
سوى موقـد حال فيـه الرمـاد
اذن ••• كنت موعودة بالحـريق
وكانت أغانيـك موعودة بالبــكاء
فيـا جرح عينيك • ان الصـباح الطليق
تكفن بالنـار واكتحلت عينه بالدمـاء
أبيروت • يا عرس كل الظلال النديه • يا فتنة البحـر • يا صيحة
الوطن المسـتفيق
على الجرح • يا صوت كل الرجال الذين استحالوا محاريب
أزمنـة تلد البشر الأنبيـاء°
تباركت دنيـاً بها يولد الحب والشعر اغنية حلوة ويخط
طريقا مريرا نشيد الفـداء° •
يقولون أنت التي تحملين الهوى نفساً عاشقاً
والأماني الجميلات أصداء شوق ولحن ارتواء •
تصلين في كل يوم صلاة الفجيعة ، تغنين فجرا
به كنت تحيينَ عاشقة وتغنين للبحر والسفن المشرئبـة
ما فوق أمواجه الخضر اغنية الابتهـال •
فأي الخطى في منابعك الجبلية لم تملك الاشتعال ؟
وأي المسارات لم تبرعم شموسا وتورق نجوما لتندى
بها كل أودية الريح والربوات التي احتضنتها الرمال ؟ •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(4)

كما انطفأت نجمة قبلتها عيون السواقي وغنت لها كل
أشرعة البحر اغنية الشوق في لحظة العطش المر
أنت انطفأت
كما احتضرت شمعة ضوّأت في الليالي وعانقها ساحل
الفجر أنتِ احتضرت
ولم يبق للعرس عندكِ غير الثياب
وغير الصبابات حيث الوجوه التي عرفتها خطاك
استبيحت وصارت فما للتراب •
فيا زمنا يستحيل العذاب
به أحرفا بعدُ ما سطرت في كتاب
ولا نبتت في دم شاعر لهبا ثائرا يمنح الارض صوتا
جديداً ويزرعها فرحاً ولحوناً عِذا
ترفق بها فهي فاتنة لا تطيق التأسي ولا تعشق
الاغتراب •

(5)

اغنيك ، أمنحك الآن صوتي
وأعلم أن دمي لم يبارح ثيابي ولم تتجاوز خطاي
الحزينة أسوار بيتي
وأنتِ التي كنت أعشقها طائرا ما ارتوى بعدُ من
منبع الشوق ، ما أطفأ العطش المر ، ما اغتسلت
عينه بالظلال الندية ، ما قال للاحرف الخضر : مري
على شفتي موجة تتحدر عاصفة تنبت النار في
قاع صمتي •
اغنيك أنتِ التي ما عرفت البكاء
ولا ذاق بحرك طعم الحرائق
اغنيك • لكنّ بي ألف جرح خفي النداء
يمزقني ، يرتدي جسدي غابة من لهيب الصواعق
اغنيك • لو أن هذا الذي راح ينهلُ من شفتي مطرا
أخضرا كعيون الضياء
يشد يدا طدرها يدفع النار عن وطن حاصرته البنادق •

(6)

سنقرأ أسفارك الآتيه
سنقرأها يا ابنة البحر والوطن المستباحة شطآنه
الآن نحن الذين احترقنا هموما ونعرف ان البطولة
درب الخلود الكبير وان الفداء العظيم نشيد تخطّ
"... ء الداميه •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حقائق عن :

آل المهلب بن أبي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري

د. نافع توفيق العبود

نشر الدكتور فاروق عمر فوزي في مجلة آفاق عربية العراقية (العدد : ايلول 1978) ملاحظات عن اطروحتي الموسومة « آل المهلب بن ابي صفرة ودورهم في التاريخ حتى منتصف القرن الرابع الهجري » ، وهي رسالة دكتوراه في التاريخ الاسلامي تقدمت بها الى جامعة بغداد في شهر اذار 1976 ونوقشت في 8 ايلول من السنة نفسها ، وظفرت بتقدير اللجنة الممتحنة التي كان الدكتور فوزي من بين اعضائها بتقدير « جيد جدا » ، حيث قدر لها ثاني اعلى درجة من بين درجات الاساتذة المناقشين ، وسجلات الدراسات العليا في كلية الاداب تشهد على ذلك .

لقد اثار الدكتور فوزي في ملاحظاته نقاشا حاداً ونقدا مريرا لرسالتي التي لا يعرف الراي العام عنها شيئا لانها لم تنشر بعد ، وتناسى المنهج العلمي في كثير من ملاحظاته التي اوردها مما يستوجب الرد عليه التزاما بالحقيقة العلمية وتنويرا للقراء الذين لم يطلعوا على الرسالة وانني لاجد نفسي مع الاسف مضطرا الى سلوك هذا المسلك وان اضع استاذا ممتحنا وعضوا في المناقشة في هذا الموضع ، لولا ان المقال الذي نشره يسيء الى سمعتي العلمية ويكون بادرة خطرة تؤثر على مسيرة الدراسات العليا الناشئة في جامعة بغداد والتي تحتاج الى كل دعم وعطف من الاساتذة والباحثين ، وكنت اطمح الى ان يزودني الدكتور فوزي بملاحظاته التي قراها في المناقشة لاستنير بما هو صالح منها فحسب ، حين اعمد الى نشر الرسالة ، لذلك كان تصديه لنشر ملاحظاته في مجلة عامة امرا مستغربا ومثيرا للالم .

محتويات الرسالة بين الواقع والتشويه :

لم يعمد الدكتور فوزي الى عرض موضوعي شامل لمحتويات رسالتي والاهداف التي دفعتني الى اختيار هذا الموضوع البكر الذي يضيف كثيرا الى تاريخنا العربي ، ويلقي الضوء على نواح مشرقة من تاريخ أسرة عربية لعبت دورا بارزا في الادارة والسياسة والثقافة مدى ثلاثة قرون أو تزيد ، ولكي لا ابدو متحمسا لنفسي اقتبس الفقرات التالية من تقرير الخبير الخارجي الاستاذ الدكتور السيد محمود عبدالعزيز سالم وهو من العلماء العرب الافاضل والذي احيلت اليه الرسالة وقال عنها ما يلي بالحرف الواحد :

« لا نشك في ان الرسالة تدور حول موضوع جديد لم يسبق ان تطرق اليه باحث بدراسة في مجموعه ثم هو موضوع هام لانه يتعلق بجهود أسرة عربية خدمت الدولة العربية الاسلامية والخلافة الاموية والعباسية طوال ثلاثة قرون ، وتركت بصماتها واضحة في مجالات عديدة : عسكرية وادارية وثقافية .

ومثل هذا الموضوع يتطلب من الباحث جهدا مضنيا في جمع المادة العلمية من الاخبار التائهة او المتناثرة هنا وهناك في بطون المصادر المتعددة: الادبية والتاريخية والجغرافية وكتب التراجم والسير ، كما تستلزم صبرا وعناء في معالجة الموضوع على نحو يتسق وتتابع وقوع الاحداث . والحق ان الطالب وفق في ذلك غاية التوفيق وقدم لنا دراسة متكاملة مترابطة فيما بينها ، اعتمد فيها على مكتبة غنية بالمصادر المتخصصة والمراجع الحديثة ، وبذل قصارى جهده في صياغتها ، ويتمثل هذا الجهد في التهميش الموثق والتحليل الدقيق للنصوص والاسلوب العلمي الذي يتسم بالبساطة والوضوح ، والمنهجية التي تعتمد على الحوار والمقارنة والاستدلال لاستخلاص آراء واضحة ونتائج هامة اعانته على ابراز الدور السياسي الرائع الذي لعبته هذه الاسرة على الصعيدين السياسي والحضاري، ويتمثل هذا المنهج العلمي في مناقشة الطالب للروايات المختلفة التي عالجت نسب المهالبة (ص 13 – 18) وابداء رايه في كثير من المواقف كقضية اشتراك المهلب في فتوح العراق حيث ابدى الطالب شكوكه (ص 31) ومناقشته للاسباب التي ادت الى هزيمة العقر سنة 102هـ ، والنتائج التي ترتبت عليها بالنسبة لمستقبل آل المهلب (ص 93 – 97) .

ومثل هذه الدراسة تتطلب من الباحث بعض الخصال الاساسية لمعالجة موضوع يتميز بالتشعب والامتداد التاريخي ، ويسعدني ان اقول

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان هذه الخصال توفرت في السيد نافع توفيق العبود واهمها الصبر والاناة والمثابرة والجد ومضاء العزم : فالطالب عالج الموضوع في اناة تصحبها ثقة كبيرة في النفس ، وسخر له كل طاقته ، وتفرغ لاعداده تفرغا فيما يبدو كاملا كانت حصيلته هذا البحث القيم ، الذي يمثل اضافة واضحة المعالم في دراسة التاريخ الاسلامي العام » .

التشكيك باصالة المنهج :

حاول كاتب المقال ان يشكك باصالة المنهج الذي اعتمدته للتأثير السلبي في الرأي العام من غير دليل ، وذلك حين ألمح الى وجود طالب آخر سار على نفس المنهج (وهو محمد كريم ابراهيم في رسالته للماجستير عن آل المغربي) ، فاذا كان هذا الذي ذكره صحيحا ، فلم لم يذكره في المناقشة العلنية أمام اللجنة الممتحنة ليتم النقاش حوله وتكون هي الحكم بيننا ؟ لا بل انه يعلم حقا وهناك وثائق رسمية تثبت انني طبعت رسالتي وسلمتها الى كلية الاداب قبل هذا الطالب وسجلات الكلية الرسمية تشهد على ذلك . ولو افترضنا جدلا ان طالبين سلكا منهجا واحدا (أي اختيار اسرة عربية موضوعا لرسالة علمية) في وقتين مختلفين وفي ظروف مختلفة وفي موضوعين لا علاقة لاحدهما بالاخر ، فهذا امر لا يقلل من شأن الرسالة ولا يكون مطعنا بها .

مفهوم البطل في التاريخ :

بدأ كاتب المقال بعرض وجهة نظره في مفهوم البطل في التاريخ وساق آراء مثالية معروفة لدى أي طالب في التاريخ ، لا علاقة لها على الاطلاق بموضوع الرسالة ولا تكون نقدا لها لا من قريب ولا من بعيد . فان تعبيره (الرجل الخطير Eventful Man) لا يعطي المدلول الذي يريده ، واذا اردنا ان نكون اكثر دقة فلعل مصطلح (الرجل العظيم) هو المصطلح المناسب هنا ، باعتبار الرجل العظيم فردا بارزا وأنه في الوقت نفسه من نتاج التاريخ ويقوم بدور فعال فيه وأنه ممثل لقوى اجتماعية تشكل مجتمع وافكار الناس .

فالذي يقرأ رسالتي سيكتشف بوضوح انني درست اسرة المهالبة دراسة منهجية موضوعية واعطيتها ما لها وما عليها وحددت مكانها في سير الاحداث التاريخية في الدولة العربية الاسلامية ، ولم أقع كما يقول الكاتب في حب الشخصيات التي درستها ولم ابالغ في دورها ونفوذها في مركز القوة التي تمثله ، فقد عمدت الى نقد المواقف السلبية لافراد هذه الاسرة حين استدعى الامر ذلك وقيمت مواقفها الايجابية بروح علمية موضوعية مجردة . ذلك انني اعتقد ان دراسة تاريخنا العربي واعادة كتابته ينبغي ان تستند الى هذه الروح العلمية التي تخلو من الهوى والتحيز .

هل يفتقر البحث الى الاستنتاج والتحليل ؟

ذكر كاتب المقال ان « البحث يفتقر الى الاستنتاج والتحليل » واني كنت «بخيلا في الاستنتاج والتحليل» واهملت «ربط الاحداث وتحليلها» .

وقبل ان أدلي برأيي الشخصي حول هذا الزعم أستعين بتقرير الاستاذ الخبير الخارجي الذي قال في تقييمه الرسالة : « والحق ان الطالب ... قدم لنا دراسة متكاملة مترابطة ... وبذل قصارى جهده في صياغتها ، ويتمثل هذا الجهد بالتهميش الموثق والتحليل الدقيق للنصوص والاسلوب العلمي الذي يتسم بالبساطة المنهجية التي تعتمد على الحوار والاستدلال لاستخلاص آراء واضحة ونتائج هامة » .

ويقول الخبير ايضا في موضع آخر من تقريره : « ان مثل هذا البحث اقتضى من الباحث جهدا هائلا استنفذه الباحث في التنقيب عن الاخبار والروايات ومقابلتها فيما بينها ، وتتبع نشاط هذه الاسرة من الوجهتين السياسية والحضارية من خلال احداث تواصلت وتفاعلت على مدى ثلاثة قرون » .

ترى ما هي الاستنتاجات والتحليلات التي يريدها كاتب المقال ؟

1 ـ يقول كاتب المقال : ان اكثر فعاليات المهالبة في العصر الاموي كانت في الساحة الشرقية ، بينما نجد العباسيين يستخدمونهم في الساحة الغربية لماذا ؟ ولو انه رجع الى نصوص الرسالة لوجد انني فصلت في الاجابة على هذا التساؤل واسهبت في دور المهالبة في الساحة الشرقية في العصر الاموي ، ودورهم في الساحة الغربية في العصر العباسي وعرضت العوامل والاسباب والدوافع التي كانت وراء كلا النشاطين ، فقد ذكرت ان تراث المهالبة بمحاربة الخوارج في الساحة الشرقية اضافة الى شجاعتهم ومهارتهم الحربية ومقدرتهم السياسية والادارية (ص 135 ، ص 145 ، ص 152 ، ص 153 ، ص 156) هي التي دفعت العباسيين الى الاستعانة بهم وحولتهم الى ساحة اخرى هي الساحة الغربية التي زخرت بالاحداث الجسام واستدعت قادة مثل المهالبة لديهم خبرة وتجربة ومقدرة حربية وادارية لمجابهة مثل هذه الاحداث ، أفليس هذا التعليل واضحا ؟!

2 ـ ثم يثير كاتب المقال معركة هو طرف واحد فيها ويتخيل امورا لم ترد في رسالتي على الاطلاق ويوحي للقارىء انها نصوص مقتبسة من الرسالة ويلح على تكرار هذه اللهجة في اكثر من موضع فقد أثار مشكلة ثورات البربر ضد العرب وانها ثورات قومية وان هذا الاتجاه دعا اليه المستشرقون ، فيوحي للقارىء وكاني تبنيت هذا الاتجاه الخاطىء . وكم كنت اتمنى لو كانت الرسالة منشورة ليكتشف القراء ان مثل هذا الاتجاه لم يرد في اي موضع من رسالتي ، بل على العكس من ذلك فقد ثبت عروبة الحركات الاستقلالية في المغرب العربي وارجعت حركات البربر الى دوافعها الحقيقية وهي احتجاجهم على تعسف بعض الولاة (ص 129 ـ 130) ثم يقع كاتب المقال في وهم آخر فيتصور ان الدويلات المستقلة التي قامت في شمال افريقية مثل الاغالبة والادارسة هي دويلات بربرية ، في حين ان اي باحث في التاريخ العباسي يعلم ان هؤلاء اسر عربية وان تأييد البربر لها لا يقلل من كونها تمثل الحكم العربي الاسلامي .

3 ـ ويناقش كاتب المقال نصا اوردته في (ص 68) حول اصطلاح (آل البيت) ويخرج باستنتاجات بعيدة المدى لم تخطر على بالي ولا علاقة لها على الاطلاق بموضوع الرسالة ولا بالنص الذي اشار اليه . فحين استخدمت قوسين لهذا الاصطلاح في نص ورد على لسان يزيد بن المهلب يخاطب الخليفة الوليد بن عبدالملك اردت تنبيه القارىء والتأكيد على الاهمية التي يريد المهالبة ان يضفوها على انفسهم . فربما اراد يزيد بقوله انه من (أهل البيت) الاشارة الى قربهم من البيت الاموي اذ ليس من المعقول ان ينسب نفسه الى العلويين وهو يعلم طبيعة علاقتهم بالامويين !!. ثم ماذا يريد كاتب المقال من قوله انه كانت هناك في الجاهلية افخاذ وبطون يكون فيها رجالات سدنة للمعبد الديني (البيت) ـ كما اسماه ـ وهل ان الاسلام ابقى بيوتا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وثنية للعبادة كما تصور هو ؟ ان الاسلام ازال كل آثار الجاهلية والوثنية ولا يمكن ان يخطر على بال يزيد القائد العربي المسلم ان يفتخر بانه من سدنة بيت وثني !!.

4 ـ ويأخذ علي كاتب المقال ربطي لقب (القحطاني) و (الاصفر القحطاني) بالعصبية القبلية واني اعتمدت في ذلك على مصدر حديث في الادب هو كتاب الدكتور النعمان القاضي (الفرق الاسلامية في الشعر الاموي) وهو في علمي كتاب جيد وموثق نال به صاحبه درجة الدكتوراه ، ويقع كاتب المقال في تناقض حين يعتمد وينصحني بالاعتماد على مقالة لمستشرق هو (مارتن هاينز) حول الموضوع !!. كما انني اعتمدت على الجاحظ في كتابه (البرصان والعرجان والعميان والحولان) في تفسير هذا المصطلح (هامش رقم 4 ص 85 من الرسالة) ، كذلك يتفق المؤرخ الكبير الذهبي في كتابه (دول الاسلام) الذي اعتمدته مع الجاحظ في عدم وجود صلة بين الصفرة والوان الرايات ، ذلك ان رايات يزيد بن المهلب كانت سودا .

5 ـ اعترف كاتب المقال باني نظرت « الى حركة الزنج من خلال منظار جديد (واكدت) على العناصر والتكتلات القبلية التي اشتركت فيها » . وهو يطالبني بالخوض بطبيعة الحركة وعقيدتها مما هو خارج نطاق الرسالة ، في حين يعترف هو نفسه بنشره مقالا عن الموضوع في مجلة آفاق عربية الغراء (عدد تموز 1976) ايد فيه ما ذهبت اليه من اشتراك شخصيات مهلبية فيها ، وقد تبين لي بما لا يقبل الشك انه تأثر برسالتي في هذا المجال تأثرا مباشرا خاصة وان نسخة من رسالتي سلمت له (باعتباره عضوا مناقشا) منذ شهر نيسان من السنة المذكورة ، غير انه لم يشر الى ما اثبته في رسالتي التي كانت بين يديه ايام كتب مقاله المذكور، فاين هي الامانة العلمية ؟

ولا ادري لماذا يلح كاتب المقال ويكرر مطالبته لي بتعرية صاحب الزنج وتوضيح طبيعته المغامرة وغير ذلك مما هو ليس من موضوع رسالتي ؟ فالذي اعلمه واود ايضاحه ان لكاتب المقال نفسه رأيا يناقض تماما ما ادلى به في ملاحظاته هذه عن الموضوع ، وتحتم علي الامانة العلمية في هذا المجال ان اثبت ما قاله عن (حركة الزنج) في كتابه (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، ط 1 ، 1974) وهو آخر كتاب صدر له ـ على ما اظن ـ قال فيه بصدد كلامه عن الحركات والانتفاضات التي قامت في ارجاء قريبة من مركز الخلافة « فقد اشتعلت ثورة الزنج في جنوب العراق وثورة الخوارج في شماله (ص 50) » . واسماها في موضع آخر من نفس الكتاب (ثورة الزنج ص 13) و (انتفاضة الزنج ص 106) وقال ايضا : « رغم التناقض الواضح في آراء صاحب الزنج فقد انضم اليه الالاف من العبيد الذين يتوقون الى التحرر والانعتاق حيث استهوتهم دعوته وكثر اتباعه .. (ص 114) » . وقال ايضا :« وهكذا استطاعت الخلافة العباسية وهي تمر باضعف ادوارها ان تقضي على ثورة عنيفة ... (ص 118) » . وفي نفس الكتاب اشاد المؤلف نفسه ببعض الدراسات التي كتبت عن الفترة التي عالجها في كتابه وقال بالحرف الواحد : « هناك دراسات قيمة لبعض المظاهر والحركات خلال هذه الفترة تتصف بالعمق والاصالة مثل .. دراسة الدكتور فيصل السامر عن ثورة الزنج (ص 12 هامش رقم 1) » . وفي نفس الكتاب يقول ايضا : « فان الظواهر السياسية والاجتماعية كثورة الزنج وحركة القرامطة وحركة العيارين ... ليست حركات عفوية بل تتصل جذورها بالمجتمع الاسلامي وهي في واقعها حركات رافضة عارضت نظام المجتمع ص 13 » . وينكر علي قولي عن اهداف الاولى من هذه الحركات انها كانت « مستهدفة تحرير الرقيق من الزنوج المستغلين في كسح السباخ واصلاح التربة لحساب اسيادهم الملاكين الكبار (ص 172) » مما يدل دلالة اكيدة على محاولة الحط من قيمة الرسالة بروح غير موضوعية .

6 ـ ونوه كاتب المقال بان العصر البويهي يختلف في طبيعته عن الفترة العباسية السابقة ، فهو بهذا يوحي للقراء بان المماليك الاتراك الذين سبقوا البويهيين ليسوا بغرباء !! في حين انهم غرباء ايضا تسللوا الى السلطة باساليب وطرق ملتوية ، وكلا العنصرين قام بابعاد العرب بشكل متعمد عن تسنم مناصب الرئاسة والقيادة والولايات ، بغض النظر عن طريق وصولهم الى السلطة . وانا اود ان اسال الدكتور فوزي : كم من الخلفاء تم قتلهم وسملهم من قبل الاتراك ؟ انني اشجب اي محاولة قام بها اي عنصر اجنبي لتدمير مؤسسة الخلافة سواء كان هذا العنصر بويهيا او اتراكا او من المغول .

7 ـ حين كرست الفصل الاخير لدراسة الوزير المهلبي (ص 189 ـ 218) عمدت الى ابراز الصورة الحقيقية لشخصية هذا الوزير بنقاط ضعفها وقوتها ، ولا اشك بان مصادري كانت اصلية تنيف على العشرين مصدرا فضلا عن المصادر الحديثة ، وبعكس ما ادعى كاتب المقال ، فانني غطيت جميع جوانب هذا الموضوع بما في ذلك نشاط الوزير المهلبي في حقول الادارة والمالية (انظر ص 195 ـ 199 ، ص 203 ـ 211) .

8 ـ اشار كاتب المقال الى انني اهملت دور المهالبة في الدعوة العباسية ، وانني لم استغل الروايات لتأكيد ما اسماه بالتفسير الحديث عن طبيعة الدعوة العباسية الذي يؤكد دور العرب كقوة ضاربة في الدولة، وانني استغرب من هذا الادعاء فقد خصصت موضوعا كاملا تحت عنوان (المهالبة والثورة العباسية ص 98 ـ 104) ، فهل قرأ كاتب المقال هذه الصفحات جيدا أم مر عليها مرا سريعا لمجرد ان يسوق اتهاما ضدي ؟ انني ثبت في هذه الصفحات دور كل من ساهم في هذه الدعوة من المهالبة (عبدالرحمن بن يزيد بن المهلب ، سليمان بن حبيب بن المهلب ، داود بن حاتم بن يزيد بن المهلب ، قبيصة بن عمر بن المهلب ، مخلد بن معاوية بن المهلب ، روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ، سفيان بن معاوية بن المهلب .. الخ) ، واعتقد ان في هذا ردا على هذه الدعوى .

مصادر الاطروحة :

وصف كاتب المقال هذا الجانب بانه « يفتقر الى اي نوع من التحليل المنهجي المتوقع في اطروحة دكتوراه » وافرد له ثلاثة عناوين مختلفة اسماها (تحليل المصادر) و (مخطوطات جديدة) و (حوادث متقدمة من مصادر متاخرة) .

ففيما يتعلق بالعنوان الاول ، هو اني اتبعت منهج البحث التاريخي واخترت عددا من المصادر والمراجع الكثيرة المستخدمة في الرسالة والتي تقارب الثلاثمائة ، وتحدثت عنها بحسب تصنيفها الى كتب تاريخية عامة وكتب طبقات وفرق واشخاص ومدن وكتب ادبية ولغوية ، وقد استغرق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعريف بها عشر صفحات (ص 3 – 12) .

اما فيما يتعلق بالمخطوطات الجديدة التي استخدمتها في الرسالة والتي ذكرنا كاتب المقال مثل (غرر السير) لمؤلف مجهول ، و (الفتوح) لابن اعثم الكوفي ، فقد استخدمتا من قبل قلة من الباحثين قبلي ، وقد افاضوا في تعريفهما ووصفهما وكتب عنهما اكثر من مقال، وان اعادتي لما كتب يعني أضاعة للوقت والجهد وأن ما اورده عنهما ليس بجديد ومهم ، بل أن الاهم من ذلك كله اني استفدت من هاتين المخطوطتين اللتين ذكرهما ومن مخطوطات اخرى كثيرة . كما يبدو ذلك واضحا في ثنايا البحث على عكس ما زعم كاتب المقال .

اما فيما يتعلق بـ (حوادث متقدمة من مصادر متاخرة) فيستغرب الكاتب من اعتمادي احيانا عن احداث القرنين الاول والثاني الهجريين على مصادر متأخرة مثل المقدسي وابن كثير وابن تغرى بردى وغيرهم ، ولا ادري كيف اجاز لنفسه ان يعتبر المقدسي (من اهل القرن الرابع الهجري) متأخرا ؟ ثم هل ان اعتمادي على ابن كثير (ت 774 هـ) وابن تغرى بردى (ت 874 هـ) يشكل نقصا في البحث اذا علمنا أنهما انفردا دون المصادر الاولية الاخرى بمعلومات فريدة من نوعها ؟ وهل يعلم ايضا ان هؤلاء المؤرخين حفظوا لنا ما ضاع من روايات المصادر المعاصرة والقريبة من الموضوع الذي تناولته الرسالة ؟ فاذا لم يحصل الباحث على مادة من مصدر قريب من الاحداث اليس من واجبه أن يذهب الى أقرب مصدر أصيل ليستقي منه مادته ؟ واذا كان كاتب المقال ياخذ علي رجوعي الى مثل المقدسي فكيف يجيز لنفسه في مؤلفاته الاعتماد على مصادر من القرون العشرين في وقائع وقعت في القرن الثاني الهجري ؟

ان كاتب المقال ينظر الى المصادر نظرة تقليدية ضيقة ، اليست كتب التاريخ وحدها هي مصادرنا التاريخية ووقائعه ؟ بل ان النظرة العصرية لطبيعة المصادر تمتد لتشمل دواوين الشعر وكتب الادب بل والقصص التاريخي والنقود والجغرافية والتواريخ المحلية ، فبهذه النظرة الشاملة وحدها يمكن ان نرسم صورة أي عصر بوضوح وشمول . واضيف الى ذلك ان كتب الادب مرآة للعصر وبخاصة انها تنفرد بمعلومات قيمة يهملها المؤرخ المحترف ، اضف الى ذلك كله فان آل المهلب ، اسرة اندمج افرادها بالحياة الثقافية مما يستلزم الرجوع الى الكثير من كتب الادب للاحاطة بنشاط رجالاتها في هذا المجال .

اما ما ادعاه كاتب المقال من عدم اطلاعي على اطروحات للدكتوراه والماجستير فليس له أي اساس من الصحة ، فلو انه كلف نفسه ورجع الى قائمة المصادر والمراجع لوجد عددا كثيرا منها ، اذكر منها على سبيل المثال اطروحتي الدكتور محمود غناوي الزهيري (النقائض) و (الادب في ظل بني بويه) واطروحة الدكتور ناجي حسن عن القبائل العربية في المشرق في العصر الاموي (باللغة الانكليزية) واطروحة السيد محمد رضا الدجيلي عن الازارقة ، واطروحة الدكتورة سهير قلماوي عن أدب الخوارج واطروحة الدكتور النعمان القاضي عن شعر الفرق الاسلامية في العصر الاموي واطروحة الدكتور عبدالامير دكسن عن عبدالملك بن مروان .. الخ . فاذا كان يعلم ان هناك اطروحات اخرى لها علاقة برسالتي واهملتها فلم لم يسم – ولو واحدة منها على الاقل ؟

ومثل ذلك قوله عن اهمالي التواريخ المحلية . فاني افدت من العديد منها ومصادر الرسالة تشهد على ذلك ولكي لا اطيل على القراء فاني اذكر من بينها : تاريخ بخاري للنرشخي ، وتاريخ جرجان للسهمي والمؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار ، وطبقات علماء افريقية وتونس لابي العرب ،و تاريخ بغداد لابن طيفور ، وتاريخ الموصل للازدي .. الخ .

ابو عبيدة والشعوبية :

وقف كاتب المقال عند هذه النقطة فاظهر دفاعه عن ابي عبيدة معمر بن المثنى الذي اشاع روايته حول نسب آل المهلب ونسبهم الى العجم فضلا عن أنه ألف في مثالب العرب . وقد جاء تبريره لموقف ابي عبيدة ضعيفا لا يمكن ان يقف امام راي ابن خلكان فيه والذي ذكرته في رسالتي من ان احدا من الحكام لم يقبل شهادته (ابن خلكان ، وفيات الاعيان : 411/5) . كما ان استغرابه مما اوردته عن رأي المستشرق جب في شعوبية وخارجية ابي عبيدة يزول – لو راجع – كتاب هذا المستشرق (دراسات في حضارة الاسلام ، الترجمة العربية ص 90) ليقف على ذلك بنفسه ، ومن ثم فليقدم الادلة (الموضوعية) التي تقول عكس ذلك !! اولا يعلم كاتب المقال ان ابا عبيدة ضمن نقائضه كثيرا من مثالب العرب ؟ ان الذي قادني الى تفنيد رأيي ابي عبيدة هو دفع الشبهة عن عروبة آل المهلب في حين يثير كاتب المقال ضجة حول الشعوبية تعطي انطباعا كانه معاكس ، وهنا يقع في تناقض بدفاعه عن بعض المستشرقين امثال جب ، ويعتبر رأيه حجة تلغي حجج مصادرنا العربية القديمة .

الامويون والعرب :

اقتبس كاتب المقال نصا مبتورا من رسالتي هو ان « الامويين اتبعوا سياسة تعتمد على العرب فلم يبرزوا غيرهم في دولتهم » وبنى عليه نتائج لم تخطر على بالي ، فهل يعني هذا النص انني اتهمت الامويين كما يقول الدكتور فاروق بالتعصب القبلي الحاد والحدي ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان المؤرخين القدامى والمحدثين يتفقون بدون جدال على ان طابع الدولة الاموية طابع عربي في قياداتها العليا وبخاصة فيما يتعلق بقيادة الجيش وادارة الولايات.وهذا هو الذي أردته وعنيته ، فهل في هذا ضير ؟ ولماذا يحلو لكاتب المقال – وهذا ما فعله في عدة مواضع أن يثير استنتاجات لا علاقة لها بما قلته أو قصدته ويتخذ منها وهي استنتاجاته وحده وسيلة لاتهامات غير واردة ؟.

يدخل في هذا النطاق ايضا ما ذكره عن سياسة التعريب فانا اعلم – كما يعلم اي باحث في التاريخ العربي الاسلامي – ان التعريب يقصد منه تلك العملية الضخمة التي بدأت ايام عبدالملك ولم تنته حتى نهاية الدولة الاموية بهدف جعل اللغة العربية لغة الدواوين والادارة والثقافة استكمالا للسيادة العربية وابعادا لاي نفوذ بيزنطي او ساساني عن المؤسسات والدواوين العربية ، فحين قلت ان الامويين اعتمدوا على العرب في المراكز القيادية وأشرت الى التعريب أردت من ذلك أن اقرن اتجاههم العام في تقريب العرب بعملية التعريب التي كانت أوسع من مجرد نقل الدواوين الى اللغة العربية بل وشملت تحقيق السيادة على جميع المؤسسات المالية والادارية والثقافية .

نماذج من تشويه الحقائق :

ذكر كاتب المقال في عدة مواضع من مقاله مقتطفات من رسالتي وصاغها صياغة مشوهة تعطي القارىء صورة معكوسة لما اوردته ، لذا أجد نفسي مدفوعا الى أن اقابل نماذج مما اورده بما هو مدون في رسالتي التي لم

تنشر بعد :

1 ـ أدعى باني اعتمدت « على كتب جغرافية في ايراد نسب شخص ما » للتقليل من شأن ما اثبته عن نسب المهلب بن ابي صفرة الى اليمانية باعتمادي على اهم كتب النسب والتاريخ والطبقات (وفي الهامشين 1 و 2 ص 13 ـ 14) ثبت باهم تلك الكتب وهي :

الطبقات الكبير لابن سعد ، النسب الكبير (مخطوطة) لابن الكلبي ، الطبقات لخليفة بن خياط ، التنبيه والاشراف للمسعودي ، جمهرة انساب العرب لابن حزم ، الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الاسماء والكنى والالقاب لابن ماكولا ، عجالة المبتدى والمنتهى في النسب للحازمي الهمداني ، تهذيب الاسماء واللغات للنووي ، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، المعارف لابن قتيبة الدينوري ، نسب عدنان وقحطان للمبرد ، تاريخ سني الارض والانبياء لحمزة الاصفهاني ، اللباب في تهذيب الانساب لابن الاثير ، تاريخ الاسلام للذهبي ، البداية والنهاية لابن كثير .

وبعد ان وثقت نسب آل المهلب الى العرب اليمانية اعتمادا على هذه المصادر الموثوقة كان طبيعيا ان افند الروايات التي تطعن بنسبهم وتنسبهم الى العجم أيا كانت المصادر التي وردت فيها تلك الروايات والتي منها كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته ، وديوان الفرزدق . فهل يوحي تفنيد هذه الروايات اني اعتمدت على كتب الجغرافية في نسب شخص ما ؟ لابل اني قلت بهذا الصدد ما نصه « وانكر الفرزدق كذلك نسبة المهالبة الى العرب في هجائه لهم وعيّرهم بانهم لم يتحلوا بصفات عرب الجاهلية ولا عبدوا آلهتهم ... بسبب الخصومة القبلية بين الازد وتميم التي ينتسب اليها » (ص 14) .

وقلت ايضا : « اما ابن رسته ـ وهو بلداني كبير ـ فلم يعرف أنه من العارفين المشاهير بالانساب ، كما ان اعتماده على رواية ابي عبيدة لا يقوم دليلا على صحة روايته » (ص 15) .

2 ـ المهلب والحرب من اجل الحرب :

اورد كاتب المقال نصا صاغه من فقرتين مختلفتين بغية التشويه والاخلال بالمعنى وهذا هو النص الذي اورده : « ادرك المهلب ان لا حيلة له بانهيار الزبيريين الا ان يضع نفسه في خدمة الامويين ... وانه بمبايعته لعبدالملك انما باع سيفه للامويين لاتخاذه الحرب وسيلة للتكسب المادي » .

ولكي اوقف القراء على كيفية التلاعب أثبت نص الفقرتين اللتين قلت فيهما : « لما دان العراق لعبدالملك بن مروان بعد مقتل مصعب بن الزبير تردد المهلب في بيعته ـ وكان على قتال الازارقة فكتب اليه عبدالملك قائلا : « ان الناس مجتمعون على بيعتي ، فان دخلت فيها دخل الناس فيه ، عرفنا لك منزلك وشرفك وان لم تفعل استعنا بالله عليك . وحينئذ ادرك المهلب ان لا حيلة له بانهيار الزبيريين الا ان يضع نفسه في خدمة الامويين وبعكس ذلك سيكون بين عدوين هما الازارقة من جهة وعبدالملك بن مروان من جهة اخرى ، وهذا ما دفعه الى عرض طاعته في الحال .

ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى ان المهلب بمبايعته لعبدالملك انما باع سيفه للامويين لاتخاذه الحرب وسيلة للتكسب المادي .. » وهذا الرأي هو للدكتور محمد احمد حلمي في كتابه الخلافة والدولة في العصر الاموي ص 248 (تقارن نصوص الفقرتين مع الهوامش 2،3،4 ص 42) .

3 ـ زعم باني صورت « أهل البصرة بانهم مجرد تجار مفككين » واني صورت الجو الفكري فيها بانه جوديني « في حين قلت بصدد وصف البيئة البصرية ما يلي :

« كان المهلب صبيا يافعا عندما انتقلت اسرته الى البصرة ، تلك المدينة التي انشئت بمثابة معسكر تنطلق منه الجيوش المعدة للفتح باتجاه المشرق ثم صارت من امهات المدن الاسلامية التي لعبت ادوارا سياسية خطيرة في تاريخ العرب والمسلمين ، وعرف عن قبائلها المنيخة في اطرافها وضواحيها احتفاظها ببداوتها ونزعتها الى الفروسية والقتال ، وعلى الرغم من ان عددا غير يسير من ابنائها وزعمائها سكنوا جوف المدينة ، الا انهم لم يقطعوا صلتهم بعشائرهم ما دامت هي قوتهم وسندهم عند الملمات .

وكانت البصرة الى جانب ذلك تنعم بمركز تجاري خطير ، جعلها تصبح طريق التجارة البحرية الى الهند والصين ، فعظمت تجارتها واتسعت رقعتها ، وكان من أثر ازدهارها التجاري ان وفد اليها واقام فيها كثير من الاغراب كاليونانيين والفرس والهنود فتأثرت الحركة الفكرية والعلمية فيها بما حمله اولئك الاغراب من ثقافاتهم والى جانب ذلك فقد اتاح موقعها التجاري للبصريين ان يتنقلوا بين الاقطار المختلفة فيتصلوا بشيء من الثقافات والحضارات التي أثرت في عقولهم ومداركهم ومثلهم . وبذلك كله اصبحت العقلية البصرية عقلية معقدة الى حد كبير ، تجمع الاطراف المختلفة من خصائص العقل الايراني واليوناني والهندي والعربي .

في هذا المحيط العسكري المليء بالاخطار والمشجع على الاقدام ، وحيث امتزجت البداوة والحضارة ، نشأ المهلب بن ابي صفرة ، فاثر ذلك المحيط في تكوين شخصيته العسكرية والادارية المتميزة (ص 19 ـ 20)» .

فاين هذا كله من ادعائه ؟

ومسألة اخرى جديرة بالتعليق هي وصف كاتب المقال للبصرة بانها : « عثمانية تدين بالكف » واعتباره هذا القول مسلما به لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فكأنه دمغ أهل البصرة على مدى قرون من تاريخنا العربي الاسلامي بهذه الصفة العتيدة الخالدة ناسفا بذلك حركة التاريخ وتطور الحياة الفكرية في مدينة مثل البصرة حفلت بالحيوية السياسية والفكرية .

وعلى عكس ما يعتقده كاتب المقال فانني تحدثت عن موقف واحد فقط هو سخط بعض الاتقياء والفقهاء من أهل البصرة على ثورة يزيد بن المهلب، وهو السخط الذي تزعمه الحسن البصري الذي نهى الناس عن الدخول في الفتنة التي تذهب ضحيتها النفوس الكثيرة (ص 86 وليس ص 115 ، 117 كما ذكر) . وهذا لا يعني ان هذا الاتجاه هو طابع اهل البصرة على مدى التاريخ العربي الاسلامي كما يريد كاتب المقال .

انني في ختام هذه الملاحظات العلمية اود ان اؤكد بان هدفي منها هو الدفاع عن الحقيقة والحيلولة دون تشويه رسائل علمية جامعية لم تنشر بعد ولا يستطيع القراء ان يقفوا حكما لمعرفة الحق من الباطل .

وما زلت وسأظل اكن كل احترام وتقدير لكل الاساتذة الافاضل الذين يقفون الى جانب طلابهم ليقوموهم ويأخذوا بايديهم ويرشدوهم الى الطريق الصواب ، فطلاب الدراسات العليا في اول الطريق وملاحظات اساتذتهم في المناقشات هي عملية تقويم وتصويب يستفيدون منها ويأخذون بما هو صالح منها حين يتصدون لنشر رسائلهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مناسبات

ثلاثة اسابيع ثقافية في الخليج العربي

■ الاسابيع الثقافية التي يقيمها العراق خارج القطر اصبحت تحمل اكثر من معنى على الصعيد العربي والعالمي ، أصبحت لها رسالة حضارية تعكس أصالة هذه الامة ومخزونها الحضاري الذي كان له أن يسهم اسهامته الكبرى في مجمل الحضارة الانسانية . عالميا .. كان الاسبوع الثقافي العراقي تظاهرة فنية وفكرية تحمل في طياتها كل ابداعات الانسان العربي وروعة تراثه الشعبي الذي ظل يحدبعليه رغم الظروف القاسية التي مرت بها أمتنا العربية ورغم ما تعرض له تراثها الشعبي من محاولات التشويه والتحريف . عربيا .. يحمل الاسبوع الثقافي العراقي رسالة وحدوية حاسمة من شأنها أن تحقق الترابط والتواصل بين أبناء الامة الواحدة وبين موروثاتهم الشعبية على مر العصور .

من هنا كانت فكرة اقامة الاسابيع الثقافية الثلاثة في الخليج العربي وبعد نجاح مؤتمر قمة بغداد ، خطوة رائعة على سبيل التواصل الروحي مع الانسان العربي في مختلف أقطار وطننا الكبير. الشباب الذين حملوا هذه الرسالة الى الخليج العربي كانوا بذلك يجسدون طموحات المواطن العربي في العراق واحساسه الاصيل بضرورة تمتين أواصر الوحدة والتواصل بين أبناء الوطن الواحد. انهم بذلك انما يعبرون عن هاجس عربي اصيل يعتمل في نفس « العراقي » الذي ظل وما زال يحمل في قلبه الكبير أصالة هذه الامة وابداعاتها ، مثلما ظل أمينا على تراثه الشعبي وانجازاته الحضارية التي تشهد له بالاصالة والابداع .

تشكل الوفد الذي نهض بمهمة الاسابيع الثلاثة في الخليج العربي برئاسة الاستاذ الشاعر علي الحلي وبمشاركة الوفد الثقافي الذي ضم كلا من :

عبدالستار جواد

علي جعفر العلاق

راضي مهدي السعيد

مسلم الجابري

بالاضافة الى :

أ ـ الفرقة القومية للتمثيل

ب ـ الفرقة القومية للفنون الشعبية

جـ ـ فرقة التراث الشعبي

د ـ فرقة الايقاعات الشعبية

هـ ـ فريق المطربين والمطربات الذي ضم : مائدة نزهت ، جبار عكار ، سعدون جابر ، رياض احمد ، أمل خضير ، سعد عبدالحميد، صلاح عبدالغفور ، ابراهيم عبداالله .

و ـ معرضا رمزيا للكتاب العراقي

ز ـ معرضا رمزيا للفنون والصناعات الشعبية .

بالاضافة لعروض متعددة لمسرحية « كان يا ما كان» وفلمي «النهر» و «بيوت في ذلك الزقاق» .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكويت الشقيقة احتضنت الاسبوع الاول الذي ابتدأ في 22 تشرين الثاني برعاية أخوية واهتمام صادق فكان أن لاقى الاسبوع الثقافي العراقي هناك نجاحا منقطع النظير الى حد أنه اصبح حديث رجل الشارع وشغله الشاغل ، يشهد على ذلك الجموع الغفيرة التي ضجت بها قاعات العرض فظلوا متجمهرين خارج القاعات حتى انتهاء العروض .

قدم المشاركون في الاسبوع عروضا فنية ومسرحية ومحاضرات ثقافية وادبية وآماسي شعرية ظل صداها عالقا في أذهان أشقائنا الكويتين الذين عبروا عن فرحتهم بهذا اللقاء الذي جسد كلمعاني الاخوة والمحبة وأصالة هذه الامة المبدعة .

كان الاسبوع الثاني قد اقيم في « أبو ظبي » ولو انه استغرق ثلاثة أيام بسبب الامكانات هناك ،فقد حظي بنجاح كبير جدا بجمهورالمسرح الصيفي الى أن يهتفوا بالزغاريد والتصفيق يهللوا لابناء الرافدين الذين حملوا اليهم كل دواعي الفرحه والمحبة واسباب التواصل الروحي بين ابناء الوطن العربي الكبير .

أما الاسبوع الثالث فقد اقيم في « الدوحة » ونال اعجاب « القطريين » بشكل قيل عنه أنه اول تظاهرة فنيه ثقافيه تحظى بمثل هذا النجاح الى حد ان اصحاب المخازن وسواق السياراتاذا تعرفوا على أحد أعضاء الوفد لا يلبثون أن يلحوا عليه بالاسئله عن الفعاليات وامكانية الحصول على البطاقات التي اصبحت عملة نادرة تستدعي جهدا جهيدا للحصول عليها .

وكانت زيارة الاستاذ سعد قاسم حمودي الى قطر قد توجت ذلك الاسبوع بالتوقيع على اتفاقية اعلامية ثقافية بين القطرين الشقيقين مما ترجم الطموحات الى واقع عملي ملموس .

بقي أن نقول بأن التغطية الاعلامية في الصحف والمجلات ووسائل الاعلام الاخرى في العراق كانت معدومة تقريبا على عكس الصحافة الخليجية ووسائل والاعلام هناك ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى عدم وجود من يمثل الصحافة العراقية بين أعضاء الوفد العراقي وربما ثمة سبب فني او أداري اخر ، الا ان عدم التغطية الاعلامية كان أمرا واضحا .

مهما يكن من قول فان الاسابيع الثقافية في الخليج العربي كانت قد حظيت بنجاح منقطع النظير نطقت به كل وسائل الاعلام والصحافة في الخليج ، الامر الذي يستدعي اقامة المزيد من هذه الاسابيع والتخطيط لها مكانا وزمانا بالنظر لما لها من معان حضارية وثقافية اضافة الى كونها وسيلة فعالة من وسائل وحدة الثقافة القومية .

ع ٠ جواد

مؤتمرات

المؤتمر الحادي عشر لرابطة الخريجين العرب الأميركيين

■ انعقد المؤتمر الحادي عشر لرابطة الخريجين العرب الاميركيين في اميركا الشمالية تحت شعار « التكامل الاقتصادي في العالم العربي » وذلك في اواخر شهر تشريـــن الثاني الماضي وفي مدينـــة « ميناسوتا » الاميركية . وقد شارك في هذا المؤتمر السنوي مئـات من المثقفين العـــرب في اميركـا الشمالية . بالاضافة الى الحركات التقدمية فـي الولايات المتحدة ، ووفود من المنطقة العربية .

تناولت الدراسات التي القيـت في المؤتمر الجوانب الاقتصادية والثقافية والسياسية فـي الحياة العربية ، وكانت اتفاقيات « كامب دايفد » بين حاكم مصر والعدو الصهيوني مدار نقد شديد وادنة سواء من المشتركين في المؤتمر او من قبـل الوفود المدعوة، كما كان لميثاق العمل القومي المشترك بين العراق وسورية الاثـر الايجابي على جـو المؤتمر ، فقد اعتبر السيد وليد جنبلاط في خطابه « ان الميثاق سيفسح المجال امام عهد جديد للنهضة القومية العربية » واضاف « ان الاتفاق السوري ـ العراقي سيعطي زخما جديدا للتقدميين العرب . اذ سيصبح باستطاعتهم الان مواجهة اعداء الشعب العربي بفعالية اكبر ، كما انه يبرهن للعالم بـان الموقف العربي المعارض لاتفاقيات «كامب دايفيد» هو موقف جدي ، وان هناك تصميما عربيا لالغاء نتائج هذه الاتفاقية ، والتقيد بالالتزام العربـي بكون منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » .

والواقع ان رفض اتفاقيات « كامب دايفيد » ونتائجها لم يقتصر على الوفود المشاركة فحسب . بل تحدث رئيس المؤتمر والذي يشغل في الوقت نفسه منصب رئيس رابطـة الخريجين العـــرب الاميركيين ، الدكتور فؤاد مغربي في كلمته عـن خطر هذه الاتفاقيات على مصر وفلسطين بصورة خاصة ، وعلى المصير العـربي كلـه . كما القـى الدكتور فايز صايغ بحثا بعنوان « كامب دايفيد وفلسطين » قال فيه « ان اطار « كامب دايفيد » سيدخل التاريخ الى جانب وعد بلفور والانتداب الذي اقرته عصبة الامم ، وقرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة ، والقرار الرقـم 242 الذي نص عليه مجلس الامن ، وقد اعتبرت جميع هـــذه القرارات الفلسطينيين « نكرات » وتجاهلت حقوقهم المشروعة وامانيهم المعروفة » .

وبعد ان فند الدكتور صايغ في محاضرتـــه نصوص اتفاقيات « كامب دايفيد » بندا بندا ، خلص الى القول « ان أي محاولة يقوم بها الرئيس السادات لتطبيق هذا الاتفاق المنفـرد بعد رفض منظمة التحرير الفلسطينيـة (باسم الشـعب الفلسطيني باكمله) ، ورفض زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة (باسم هذا القســم من الشـــعب الفلسطيني المعني به مباشرة) الصيغـة الخاصـة بفلسطين والواردة في اتفاق « كامب دايفيد » ، ستجعل أي ادعاء يقول بان هذه التدابير المنصوص عنها في الاتفاق تمثل ارادة الشعب الفلسطيني او تستجيب لامانيه ، أو تضمن حقوقه ومصالحـــه عرضة للاستهزاء » .

ولقد جاءت المقررات السياسية الصادرة عن المؤتمر لتؤكد على حقيقة تلاحم الرابطة مع النضال العربي في مواجهة الامبريالية والحركة الصهيونية ومما جاء في هذه المقررات « ان رابطة الخريجيـن العرب الاميركيين في اميركا الشماليـــة تعتبر ان اتفاقيات « كامب دايفيد » والتسوية الاسرائيلية ـ المصرية هي تتويج للسياسة الصهيونية الامبريالية وهذه الاتفاقيات تمنح الدولـــة الاستعماريـة الصهيونية حق الوجود على الاراضي العربيـة ، وتقضي بالتالي على المشكلة الفلسطينية » وتحكم على الوطن العربي بالانقسام الدائم . كما تعتبر هذه الاتفاقيات بمثابة اهانة للعـرب وللاجماع الدولي الذي ادان الصهيونية واعتبرها شكلا من اشكال العنصرية ، والذي أيد في الوقت نفسه حق العرب والشعب الفلسطيني في النضال من اجل تحرير اراضيهم من الاحتلال العسكري والمدنـي الاســـرائيلي » .

أدانت قرارات المؤتمر السادات لاستخدامه مؤسسات الدولة المصرية للحصول على موافقـة مزورة للشعب المصري عنى هذه الاتفاقيات التـي التزام مصر التاريخي من الانتماء العربي . كمـا تعكس هذه الاتفاقيات التزام الولايات المتحـــدة بابقاء حالة من التأزم الدائم في الشرق الاوســـط لانها تحكم على المشرديـــن الفلسطينيين بالزوال الوطني وتخضع فلسطين للامبريالية وعملائها . لذلك فان رابطة الخريجين العرب الاميركيين تدعو الشعب الفلسطيني بقيادة منظمـــة التحريـــر الفلسطينية الى تكثيف حربه العادلة من اجـــل التحرير الوطني ، والقضاء على جميع المؤسسات الصهيونية واجهزتها ، كما تدعو الشعب العربي في كل مكان لدعم نضال الشـعب المصري بغية اسقاط اتفاقيات « كامب دايفيد » .

واعلنت رابطة الخريجين العرب الاميركيين عن « تأييدها ونضامها مع تحالف الحركة الوطنية اللبنانية وحركة المقاومة الفلسطينية ، لان هـذا التحالف يمثل أحد اهداف الشعب العربي الداعية الى الوحدة العربية . ون نضال الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من أجل اقامة دولة علمانية ديمقراطية في لبنان وفلسطين هو حافز للحركة القومية العربية التقدمية للمشاركة بشكل فعال في اقامة نظام اقتصادي وسياسي قادر على البقاء والاستمرار » .

واعلنت الرابطة في مقرراتها « ان الجهود المشتركة التي تبذلها الولايات المتحدة الاميركيـة واسرائيل وبعض الانظمة العربية وغير العربية في الشرق الاوسط للقضاء على التحالف اللبناني ـ الفلســطيني ، انما تهـدف الى الابقاء على حالة فاسدة ومتفجرة عن طريق تفاقم موجات العنف والقتل والتدمير » . ودعـت الرابطة « جميـع الحكومات العربية الى التصدي والقضاء على عوامل التجزئه ، وبذل جميع الطاقات من اجل تحقيـق الوحدة الكاملة للشعب العربي والثروات العربية والمؤســـسات العربية ، وذلك بهدف اقامة امـة عربية متقدمة وقادرة على تامين رفاهية شعوبها ، والمساهمة بشكل فعال في رفاهية شعوب العالم الثالث الاخرى » .

ونبهـت الرابطة « الى خطـورة التدخـل العسكري الاسرائيلي في لبنان ، وندين المحاولات الاسرائيلية الرامية الى تعميق التجزئه في لبنان، كمـا ندين تحالف اســرائيل والقـوى اليمينية اللبنانية الذي يهدف الى تقسيم لبنان وادخال جنوبه ضمن اطار الاقتصاد وسيطرة الاسرائيليين. ونعتبر ان النظام الطائفي الاستغلالي الـسائد في لبنان ، هو السبب الاول والمسؤول عن انقسام وتفكك الشـعب اللبناني وتوليـد المزيد مـن الكراهية والعنف » .

وعلى الصعيد الفلسـطيني ، فقـد كانـت مقررات المؤتمر الحادي عشر لرابطة الخريجين العرب الاميركين ، ملتزمة بحق الشعب العربـي الفلسطيني الكامـل في كل فلسـطين ، واكدت الرابطة مجددا على موقفها الذي يعتبر ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . وجاء في المقررات « ان جميع الاعمال الاســتيطانية ومصادرة الاراضي وطرد المواطنين العـرب وتهجيرهـم لايمكن ان تعطـي الصهاينة اية شرعية على ارض فلسطين ، كمـا انها لاتنقض حقا من حقوق الشعب الفلسطيني ، لذلك فان رابطة الخريجين العرب الاميركين تعلن مايلـي :

1 ـ « ان الاعتراف باسرائيل يعني القبـول بالعنصرية والتوسع واضفاء صفة الشرعية عليهما. وهذان المبدأن يتعارضـان مع مبـادىء السـلام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعدل » .

2 – « ان قرار مجلس الامن الرقم 242 الذي وضعته القوى الاستعمارية وعلى راسها بريطانيا والولايات المتحدة ، يعتبر متعارضا تماما مع العدل ومصالح جميع الشعوب والاجيال القادمة، كما ان المفاوضات على أساس هذا القرار تعتبر خيانة صريحة متعمدة لمبادىء السلام .

3 – تعلن رابطة الخريجين العرب الاميركيين عن دعمها التام لجميع المقاتلين الفلسطينيين داخل الكيان الصهيوني والاراضي العربية المحتلة .

وبهدف أن يقفز النضال العربي الى مرحلة اكثر تقدما تطالب الرابطة جميع الحكومات العربية بادخال التغييرات الضرورية على المجتمع العربي من أجل :

أ – زيادة الانتاج الى اقصى حد ، من اجل ان يحتل الشعب العربي مكانته اللائقة في تقدم الانسانية .

ب – العمل على ادخال التكنولوجيا الحديثة واستخدامها في المجتمع العربي ، والاستفادة من جميع الثروات العربية الهائلة بهدف تحويل المجتمع العربي من مجتمع استهلاكي الى مجتمع منتج .

ج – تعزيز جميع الفروع الخاصة بالبحث العلمي، والقضاء على الامية ، وتعزيز تحرر المرأة .

واعلنت المقررات ايضا عن تضامن المؤتمرين مع نضال الحركات الثورية في افريقيا واسيا واميركا اللاتينية كما دعت الشعب الاميركي الى ادانة سكوت الاداره الاميركية عن الممارسات العنصرية في فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا وزيمبابوي .

ان المؤتمر الحادي عشر لرابطة الخريجين العرب الاميركيين قد خرج بموقف موحد ضد اتفاقيات « كامب دايفيد » ، كما قدم المؤتمرون سلسلة من الابحاث والدراسات العلمية في كافة الميادين الاقتصادية والثقافية والسياسية العربية، وهذه الدراسات ستسهم بدون شك في تعزيز وتعميق الايمان بالتكامل الاقتصادي والسياسي العربي الذي كان شعار المؤتمر ، لكن بما ان الايمان وحده لا يكفي ، فان العمل المقترن بالايمان هو الذي سيدفع بالعرب نحو الوحدة ، وهذا يعني ان على المثقفين العرب الذين التقوا في مدينة ميناسوتا الاميركية ان يكونوا نماذجا للمثقفين الثوريين الذين يلتحمون بالواقع وبالجماهير ويوظفون مواهبهم وكفاءاتهم في العمل الثوري العربي ، بدل ان تبقى المقررات القومية المبدئية التي اتخذت حبرا على ورق .

◆ بدر الحاج

فنون

الفنون الأفريقية في طريقها الى الزوال

■ نشرت مجلة « جون أفريك » في أحد اعدادها الاخيرة تحقيقا ضافيا القت فيه الضوء على ظاهرة من الظواهر التي تسود العالم الغربي اليوم ، الا وهي ظاهرة نهب الاثريات القديمة والمتاجرة بها .

ولاهمية هذا التحقيق فاننا ننقل معظم ما جاء فيه .

في عام 1970 ، رسم بيكاسو رائعته : «آنسات افينيون » التي أرخت لميلاد التكعيبية .

غير أن هذه الفترة شهدت هي الاخرى دخول الفن الزنجي ، وبكل عنف ، كمصدر من مصادر الرسم في أوربا .

وبعيدا عن الكلمات ، فقد كان هذا صدى للصدمة التي أحدثها اكتشاف جمالية الفن الافريقي الذي كان ، حتى ذلك التاريخ ، مجهولا ولا يعني شيئا بالنسبة للاوربيين .

وهكذا ولد تيار فني جديد أتى كعاصفة ، على كل الارث الغربي ، فمن بين الانقاض ولدت حرية عجيبة في الرؤيا واكتشف الجمهور الواسع فنا لم يعهده من قبل استهوى جامعي التحف والاثريات ألا هو الفن البدائي أو الفطري .

ولكن لنعد الى بداية القرن العشرين ، حيث كان الفن الافريقي يبدو غريبا وحيث كان ينظر اليه على أنه خليط من السحر والشعوذ والفولكلور . . . لنعد الى هذه الفترة من التاريخ حيث كان الناس يرفضون أن ينسبوه حتى الى الفن الاصيل . انها الفترة التي كانت أفريقيا فيها تحت الاستعمار .

فقد جلب الاوروبيون – مدفوعين برغبتهم في اقتناء كل ما هو طريف – جلبوا معهم أنواعا من التحفيات ، خشبية وعاجية ، صنعت بطلب منهم .

أما الاعمال الاصلية فلم تثر اهتمامهم لوساختها أولا ولكونها تعود الى الزنوج ثانيا . أما الذين جلبوا هذه الاعمال « الوسخة » فقد كانوا المبشرين وذلك كدليل على انتصاراتهم على الارواح التي فرضوا عليها الديانة المسيحية .

وهذه الواقعة ، تفسر الى حد كبير ، بقاء عدد كبير من المنحوتات الافريقية أمام الدمار الذي تعرضت له منحوتات أخرى لكونها تتعارض وعبادة الرب الذي كان المبشرون يدعون اليها .

وهكذا ، وبفضل المبشرين والمستعمرين وعلماء السلالات (الاتنولوج) ، ظهر التراث الافريقي في أوربا بداية هذا القرن حيث كان هذا الظهور مشتتا .

وقد وجد بيكاسو وماتيس وديران وفلامينك وآخرون غيرهم . . . وجدوا في هذه المنحوتات الافريقية جوابا على معاناتهم التشكيلية كما وجدوا فيها مصدر وحي جديدا ، فكرسوا هذا الفن وطوروه .

وخلال هذه السنوات حدثت ثورة في الرسم والنحت وكذلك الموسيقى كان من نتيجتها أن استهوى الفن البدائي جمهورا واسعا .

وقد كرست الثلاثينيات من هذا القرن الخصائص الجمالية لهذا الفن فكان أن اقيمت المعارض الاولى ومن أشهرها معرض المستعمرات عام 1931 والذي انشأ من اجله متحف الفنون الافريقية والاوقيانية في باريس .

وقد كشفت بحوث المتخصصين أن جمالية أفريقيا السوداء ، على العكس مما هو عليه في الغرب ، لايمكن ارجاعها الى الابداع التشكيلي فقط ، كما لايمكن أيضا تصنيفها ضمن خانات مختلفة . بل انها جزء من كل معقد ومتجاوز للتاريخ .

انه فن الحياة اليومية وهو فن ذو مدلولات سحرية – دينية ، يساعد الافراد الذين ينتمون الى عرق واحد على السيطرة على القوى الخارقة . وليس هناك من المظاهر الانسانية ما هو أكثر ازلية من الرغبة في السيطرة على الطبيعة واقامة طقوس تأملية ذات مدلولات تقديسية ،والتي يكون التعبير عنها لدى معظم المجتمعات البدائية بواسطة الرقص والموسيقى والنحت .

وكل من هذه الفنون تصور ظرفا خاصا من ظروف حياة الجماعة وافراحهم ومخاوفهم ورغباتهم وحاجتهم الى السحر . فهي تحمل اذن عددا كبيرا من الاشكال التي تكشف عن الاف وجوه التواصل المطلوب مع ما هو غامض وخارق .

ولانها تحمل على الدوام دلائل و «شحنات» القداسة والارواح التي تسكنها ، فان المنحوتات الافريقية تؤدي دورا اجتماعيا حقيقيا باعتبارها ترمز الى القوى التي يرغب الفردا والجماعة التضرع اليها .

ان الاقنعة والتماثيل هي التعابير الاكثر شيوعا لهذا البحث عن التواصل .

وبعد القرن التاسع عشر دفع الفضول وحب الاكتشاف ببعض الاوروبيين فذهبوا للبحث عن هذا الفن التلقائي في أماكنه . وطبيعي جدا ان يقصد هؤلاء « أقاليمهم » البعيدة أي مستعمراتهم ويبدأوا بالاستحواذ على كنوز أفريقيا التي بدات،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

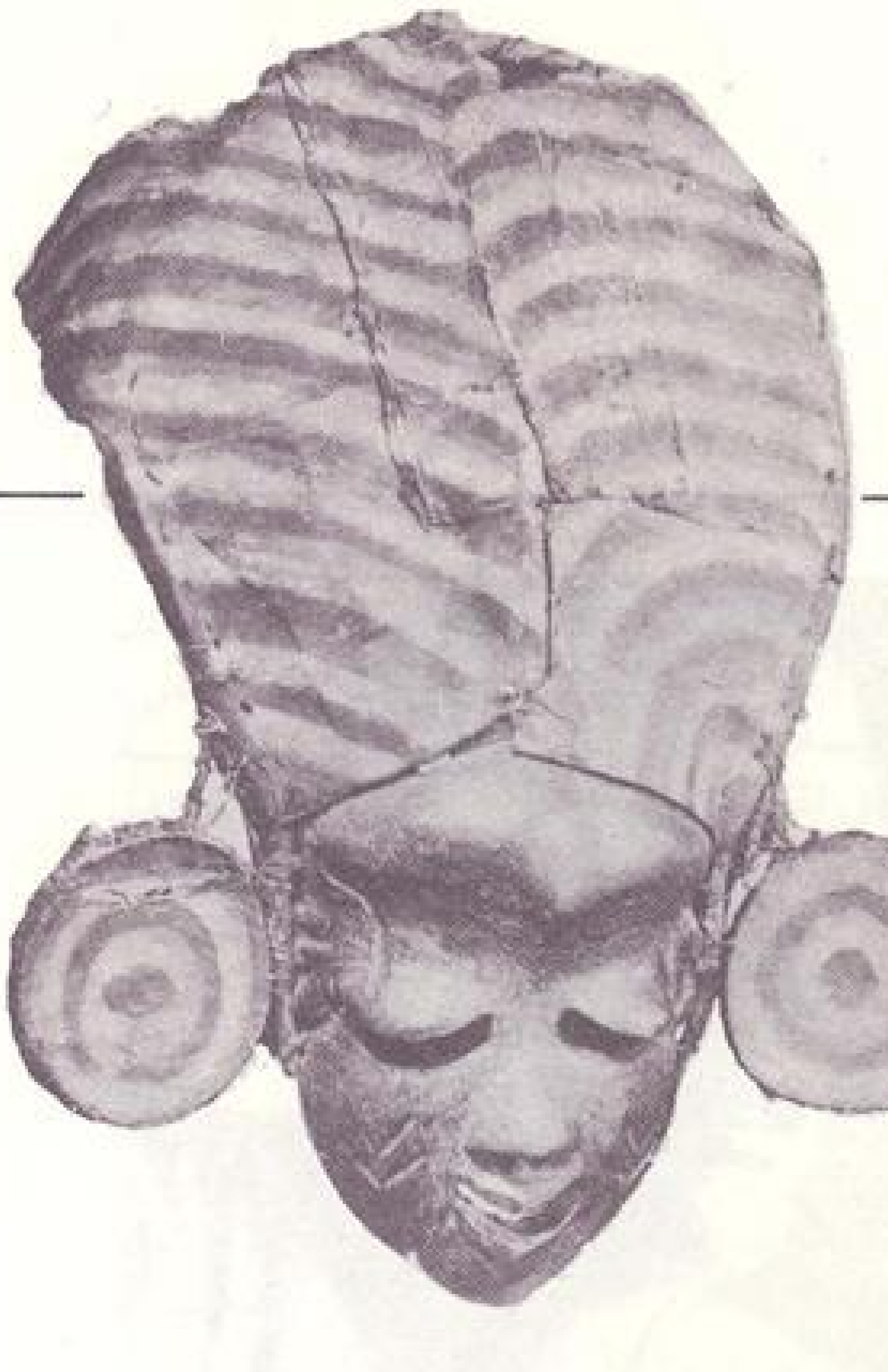

بعد أن اجتذبتها النماذج المستوردة ، تنحرف شيئا فشيئا عن قنواتها الفنية الخاصة وعن تقاليدها .

وقد أعطت أفريقيا التي انتهكت عاداتها وقطعت جذورها .. أعطت للتجار اثارها الفنية وكل ما يتعلق بعاداتها المختلفة . وفي اغلب الاحيان كان هؤلاء التجار يسرقون منها هذه الاثار .

وهكذا تصور الاختصاصيون أنهم سوف يتوصلون ، عن قريب ، الى جرد شامل للفن الافريقي . وقد سهل من مهمتهم هذه ، خلال السنوات العشر الاخيرة ، اولئك الذين اندفعوا ـ ومنهم بعض الافارقة ـ الى البحث عن الاقنعة والتماثيل الصغيرة واثريات أخرى منحوتة . وكان الدافع الى هذا هو المتاجرة فاستخرجوا كل ماكان يعتقد أن له اهمية .

ورغم أن هذا قد أتاح لنا التمتع بمشاهدة الكثير من الروائع ، الا انه لا يمنعنا من أن نقول بان هذا النقل « الحضاري » ، بدل أن يشجع هذا التطور الفني ، قد قضى عليه في عقر داره .

وأخطر من هذا كله ان العقليات التجارية قد استجابت للطلب المتزايد فاكتفت بنسخ «ما يمكن بيعه » مشوشة بذلك عقلية رجل الشارع فيما يتعلق بأصالة الاثريات المعروضة .

ومن أجل فهم أفضل لما نعنيه بالفن البدائي ، يجب القبول بان عامل الزمن والاقدمية لا علاقة لهما بقيمة الاثر الفني وهذا عكس ما يحصل بالنسبة للاثار الاوروبية ، رسما كانت أم أثاثا . حيث تزداد قيمتها كلما كانت أكثر قدما . وتكمن هنا الصعوبة : كيف نعرف ان كان هذا التمثال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أو ذاك القناع « حقيقيا » أم « مزيفا » ؟ وبما أنه لابد من تناسي العامل الزمني ، فان الاثار التي يحملها هذا الاخير مع تعاقب السنين (يمكن التعرف على مدى قدم الاثر الفني رغم محاولات الايهام بذلك) .. فان ما يعتمد عليه في معرفة أصالة الاثر هو طابعه التقليدي : اظهار الاشكال والتعابير والاساليب التي تحفظ الاثر جيدا. غير ان الامور تصبح أكثر تعقيدا اذا كان الهدف من اقتناء التحفيات هو المتاجرة . وفي هذه الحالة فان كل اثر يمكن ان يكون حقيقيا طالما ان منحوتة لم يمض على صنعها سوى بضعة ايام قد تكون مساوية في قيمتها لمنحوتة أخرى مضى عليها عدة قرون . والسبب في ذلك هو استعمال مادة الزنجار (اوكسيد البرونز) ولسوء الحظ انه لم تبق اراضي لم تكتشف بعد ، ولم تبق ثقافة أو عقيدة أفريقية لم تفتت . ولعل هذا ما يدفعنا الى القول بان الفن التلقائي الافريقي ، حيثما كان ، هو الان في طريقه الى الاضمحلال .

ورغم اكتشاف هذا الفن والاحتفاء به منذ أكثر من نصف قرن ، فان عددا ضيقا من الهواة وجامعي الاثار الفنية فقط كانوا شغوفين بهذه الاعمال التي كانت تختلف اختلافا كبيرا عما اعتاده الغرب .

ولم تكن هناك حاجة لان تكون مليونيرا لتقتني عملا او أكثر من هذه الاعمال الحقيقية .

وقد أتاح السوق الذي نظمته اروقة متخصصة في باريس ولندن وبروكسيل ونيويورك ، أتاح امكانية شراء العديد من التحفيات كالمناضد والمجوهرات والنقود وكذلك الاقنعة والتماثيل المنحوتة .. غير أن خطرا ظل قائما وهو امكانية انخداع الشاري باصالة الاثر الذي يروم شراءه .

❋ ■ ❋

ومع سقوط الفن المعاصر وحدوث أزمة النفط عام 1974 أدرك الكثير من التجار والانتهازيين أن بيع الاثريات الافريقية يمكن أن يكون مصدر ربح مهم طالما أن هناك أثريات من هذا النوع . وطبيعي أن تفقد مغامرة الاكتشاف سحرها تدريجيا اذ أن كل شيء أصبح مبوبا ومصنفا حسب جداول معينة .

وهكذا أصبح الخبراء هم سادة الموقف ولم يعد هناك مكان لصغار الهواة لسبب بسيط وهو أن الاسعار أصبحت تحدد من قبل السوق العالمية.

ترجمة : محمد خالدي ◆

لقاءات

كريستيان برنارد: تعرية الروح بعد تعرية القلب..

■ **كانت عملية زرع القلب التي اجراها كريستيان برنارد لاول مرة في التاريخ احد اكبر الاحداث المثيرة في القرن العشرين . كان الناس يتجادلون حول ذلك في الشوارع والمستشفيات على السواء . اما الجراح الذي اجرى العملية : البروفسور كريستيان برنارد فقد أدانه البعض ومجده البعض الاخر . ولكن طابع الاثارة بدء بالانحسار بمرور الزمن . كيف يمكن تقويم تلك العملية ؟ هل كانت تجربة غير مبررة ؟ ام تطور حتمي لعلم الجراحة الطبية ؟ وما هو موقف برنارد نفسه من العملية الان ؟ وهل هو مؤمن بمستقبل زرع القلب في جسم الانسان ؟ هل هو مستمر في تجاربه في هذا الميدان ؟**

عن كل هذه الامور يتحدث كريستيان برنارد نفسه في اللقاء التالي الذي اجرته معه احدى المجلات الاجنبية .

✻ ■ ✻

■ **كيف قررت اجراء أول عملية لزراعة القلب ؟**

حين أنظر الى الوراء الان بعد كل هذه الفترة فان قراري باجراء العملية لا يبدو دراماتيكيا كما كان آنذاك . غير انني اتذكر تلك الايام جيدا . كانت الشكوك تعذبني . فمن أكون لكي آخذ على عاتقي تادية هذه الرسالة .. رسالة استئصال قلب الانسان واستبداله بقلب جديد اخر ؟ كنت الوم نفسي لانني منحت الامل لمريضي لويس فاشكانسكي الذي كان أول انسان اجريت له عملية زرع القلب . فقد كان عليه أن يتحمل مغبة العيش بقلب مزروع . كنت أنا ومريضي نتشارك في تقاسم الامل . كان فاشكانسكي يقول لي : « دكتور ، انت تطلب موافقتي ، تطلب مني ان أقول « نعم » الحاسمة . ولكن ماذا استطيع القول؟ انني لن أعيش بقلبي الحالي ... »

وحين توجهت الى صالة العمليات كنت اعرف بان العملية لو انتهت بالنجاح فانها ستصبح دافعا لتجارب جديدة لي ولاطباء اخرين . اما اذا كان مصيرها الفشل فسيكون ذلك فشلا للبروفسور برنارد وحده . هل كنت اخشى الفشل ؟ كلا . فمن الصعب أن تجري عملية جراحية وانت تفكر بان لا تفعل ما يضر بسمعتك . انني أؤمن بالنجاح دائما وبقدرتي على مساعدة المريض . ولكنني كنت قد عرفت الفشل مع ذلك وفي مرات عديدة .. وكما هو معروف فان فاشكانسكي تحمل العملية بصورة جيدة . وقد توفي بعد بضعة ايام بسبب التهاب رئوي لاصابته بالبرد . على اية حال لم تكن تلك العملية الاولى لزرع القلب قد انطلقت من الصفر ، من المجهول الى الحقيقة . انني ادعوها مرحلة في تجارب الجراحين في كافة انحاء العالم . انها احدى المراحل حسب .

■ **هل نستطيع اعتبار تلك العملية نقطة رئيسية في حياتك ؟**

سيكون منطقيا الاجابة على هذا ... ال بنعم . ولكن هناك منطق اخر . انه منطق الحياة اليومية ، ذلك المنطق الذي اقنعني منذ زمن بعيد بان المريض الاهم هو ذلك الذي يلجأ اليك الان والذي غالبا ما يحملونه الى عيادتك حملا .

لقد مضت اربع سنوات منذ ان تخلينا عن الطريقة التي اجريت بها عملية زرع القلب لفاشكانسكي . لماذا ؟ ان الكلمة الاخيرة في هذا الموضوع لا تعود للجراحين ، بل للاختصاصيين في التحصين والمناعة . لقد أصبح زرع القلب الان في متناول يد الجراحين . ولكننا لا نستطيع حتى الان السيطرة على عملية الرفض . انها مهمة محلولة من حيث المبدأ . فجسم الام ، على سبيل المثال ، لايرفض جسم الطفل رغم انه يبقى بالنسبة لها جسما « غريبا » . تبدأ عملية حصار التر ... ل الوراثي . ولكن كيف يمكن تنظيم التوصل الوراثي من الشخص الذي يعطي دمه الى المريض وكيف يمكن محاصرة هذا التوصيل ثم تحريره ؟ لقد انجز الكثير في هذا المجال ، ولكن دون التوصل حتى الان الى نتائج حاسمة وليس من السهل القول متى سيتم التوصل الى ذلك . هذا بينما لا يستطيع المرضى الانتظار .

كيف تاتي الافكار ؟ انها تاتي بطريقة غير متوقعة وغير مخطط لها على الاطلاق . ويحدث أن تنطلق الفكرة لا من الراس ولا من العقل ، وانما من القلب – كريستيان برنارد يضع يده على صدره ويضيف : وبطبيعة الحال لا اقصد بكلمة « القلب » معناها الطبي .

كمثال على ظهور الافكار اذكر فكرة « قلبين في صدر واحد » . فان ماساة كمنت في أصل هذه الفكرة . كنت اجري عملية جراحية لشخص قريب جدا لاسرتي هو صديق ابني الاكبر . عملية لزرع القلب . كان كل شيء يجري على ما يرام حتى لحظة تشغيل جهاز « القلب – الرئتان » . كان يجب أن يبدأ القلب بضخ الدم . ولكن القلب لم يبدأ بالنبض . اعدت تشغيل الجهاز من جديد ثم من جديد . وهكذا مضت ساعات . كنت اعرف مريضي منذ طفولته ، اعرف ابتسامته التي ترتسم على شفتيه المزرقتين الان . كنت اعرف ان ابني ينتظر منذ ساعات خارج صالة العمليات ، وبانني يجب أن اجابه نظرته .

القلب الجديد عجز عن العمل . حالة موت على سرير العمليات .. خرجت الى الرواق . كانوا قد اخبروا ابني بالحقيقة . شاهدته جالسا وهو يضم راسه بين يديه والدموع تنهال خلال اصابعه بدأت أشرح له الامر : كيف ولماذا ؟ كنت اتحدث معه كطبيب الى طبيب . ولكنه قاطعني قائلا : « ولكنه كان يستطيع العيش ولو فترة قصيرة أخرى بقلبه ! فلماذا لم تعد قلبه القديم الى مكانه ؟ »

لم يكن ذلك بطبيعة الحال نقاشا طبيا ، بل انفجارا عاطفيا . فقد كانت سلسلة افكار ابني واضحة ومباشرة . فقلب المريض كان ما يزال يعمل ويعيش ، ولكننا انتزعناه واصبح كل شيء يعتمد الان على تقبل جسم المريض للقلب الجديد . أما اذا لم يقبله الجسم فماذا سيحدث ؟ هل هي النهاية ؟

هناك في رواق المستشفى ومضت فكرة في شكلها الجنيني : لا ينبغي استئصال القلب الذي يستمر في العمل رغم انه في النزع الاخير . يجب ربط القلب الجديد به . قلبان في صدر واحد . يا للبساطة ! ولكن الامر تطلب أولا التعرض الى صدمة ، وكان لابد من دموع ابني وكلامه المرير . لقد اقتنعت منذ زمن بعيد بأن آفاق النجاحات تعتمد على آفاق مخيلتنا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان جوهر التجربة الجديدة يكمن في ان القلب المزروع لا يجب أن يكون بديلا عن القلب المريض ، بل ان يعملا سوية في آن واحد . القلب الجديد يوضع في الجانب الايمن من الصدر ويرتبط بالقلب القديم . انها الوسيلة الوحيدة «لتخفيف الضغط» عن القلب المريض واعطائه فرصة لالتقاط انفاسه. حتى الان كانت هذه المهمة تقع على عاتق جهاز « القلب ـ الرئتان » ولكنه كان يفعل ذلك لوقت محدود جدا ، لبضعة أيام ، في أفضل الاحوال . يبقى المريض ـ مقيدا الى سريره . ولكن الانسان يستطيع ان يمارس حياة اعتيادية بقلبين . واليك حادثا واقعيا : ظل قلب مزروع ينبض بالحياة طيلة شهرين . وطيلة هذه الفترة كانت تجري عملية اعادة الحياة للقلب القديم . وما ان بدأ الجسم برفض القلب المزروع حتى تم استئصاله واعادة قلبه القديم اليه . واستمر المريض في الحياة . ولكنه كان سيموت حتما مع الطريقة القديمة .

غير ان مشكلة القلب الاضافي ما زالت قائمة بحدة . انها حالة اعتيادية تماما : اجريت عملية لقلب مريض ابقي داخل الصدر ولكنه لا يستطيع تحمل الضغط الاعتيادي بعد « ترميمه » . لابد من قلب ثان . ولكن اين الضمانة في وجود قلب آخر جاهز ؟ لا توجد مثل هذه الضمانة . الا اننا لا نستطيع الانتظار اذ ان ساعات معدودة فقط تحت تصرفنا . وهذا هو السبب الذي حدا بنا الى دراسة امكانية استخدام القلب الحيواني انطلاقا من حقيقة علمية معروفة تقول : بعد زرع كلية الشمبانزي أو البابون في اجسام المرضى من البشر، فانهم بقوا احياء اكثر من تسعة اشهر . في احدى الحالات كان قلب احد المرضى عاجزا عن ضمان الدورة الدموية الكاملة وكان لابد من تبديل صمام القلب . زرعنا في صدر المريض قلب البابون . واجريت عملية مماثلة ايضا زرع خلالها قلب شمبانزي في جسم المريض . وفي كلتا الحالتين توفي المريضان . لقد رفض الجسم القلب المزروع مما جعلنا نوقف اجراء عمليات زرع قلوب القرود في اجسام البشر . غير ان التجارب المختبرية ما زالت مستمرة وهدفها الاساسي حل مشكلة رفض الجسم للاعضاء المزروعة .

■ **ان حياتك مليئة بالاحداث التي كان لابد لمجابهتها من قوة الارادة والحماسة ولكي يمكن العمل بشكل دؤوب للتوصل الى الهدف وتجاوز خيبات الامل ورغم التشاؤم وطابع الاثارة الصحفية الذي لف نشاطاتك ؟**

بدات حياتي العملية كطبيب في بلدة صغيرة وكنت أعالج المرضى من جميع الامراض . انني لم اسأل نفسي أبدا لا آنذاك ولا فيما بعد عن لون بشرة المريض الذي أعالجه : هل هو أسود أم أبيض ؟ كما كنت ازور القرى التي كان يقطنها « الملونون » . وكانت كل ادواتي الطبية تضمها حقيبة واحدة . لقد شبعت من رؤية البؤس والقذارة . كان يتحتم علي احيانا ان اجري العمليات على ضوء الشموع . بعد ذلك عملت في مستشفى بكيب تاون وقدمت أول بحث علمي عن التهاب السحايا . ومارست ايضا الطب النسائي والجراحة .

■ **ماذا اعطتك سنوات العمل كطبيب ناشيء وماذا تعلمت من تلك الفترة ؟**

لم اتعلم تكنيك معالجة بعض الامراض فقط فقد تعلمت ، وترسخت قناعتي مع مرور السنين بان المطلوب ليس هو معالجة المرض ، وانما معالجة الانسان . ان الطب المعاصر يصبح مفرطا في تخصصه . وغالبا ما يحدث ان معالجة مرض معين بالذات تتم بمعزل عن الاخذ بنظر الاعتبار خصائص جسم مريض معين بالذات . وقد ظهر عدد كبير من الاختصاصات الضيقة والاضيق في امراض شتى . ان اصحاب مثل هذه الاختصاصات هم الذين يميلون الى استخدام مصطلحات من قبيل « حالة سرطان شيقة » . انني أشعر بالبؤس من مثل هذه التعاريف ، فان كل حالات السرطان هي حالات مأساوية .

■ **تعتبر فترة تاهيل برنارد في امريكا نقطة تحول في حياته حيث امضى مدة تفرغه العلمي في جامعة مينيسوت وهي نفس الجامعة التي استخدمت لاول مرة في الغرب جهاز « القلب ـ الرئتان » . ماذا اعطت تلك الفترة لبرنارد ؟**

هنا بدات بدراسة جراحة القلب بصورة حقيقية . وبعد عودتي الى كيب تاون قررت الاستمرار في دراساتي . في عام 1958 كنت اول جراح في جنوب افريقيا اجرى عملية على القلب باستخدام جهاز «القلب ـ الرئتان» . وقد عرضت علي جامعة كيب تاون أن أراس قسم جراحة القلب فيها . قبلت العرض والان لدي تلاميذي . تجولت في انحاء العالم بهدف معرفة المزيد عن جراحة زرع القلب .

بعد ذلك وفي عام 1967 كانت اول عملية لزرع القلب،وفي عام 1974 أجريت تجربة لوجود قلبين في صدر واحد . هذه التجارب معروفة على نطاق واسع . ولكن قد يكون الاهم من ذلك هو الدراسات التي تجري في عيادتنا على امراض القلب بالولادة . كما حققنا الشيء الكثير في مجال صمامات القلب الاصطناعية وفي جراحة امراض الشرايين . .

لقد ربطني الطب بالام ومعاناة البشر . ان اي طبيب يعاني ، بهذا الشكل او ذاك ، مع مريضه . والاطباء دائما يتعاملون مع حالات ماساوية او قريبة الى ذلك . والطبيب يرى ، رغم انفه ، روح المريض بكل عريها . ويبدو ذلك واقعيا مثلما يشاهد قلبا عاريا على طاولة العمليات . لقد أوصلني الطب ـ أو ربما حفزني ؟ ـ الى الكتابة . وعن طريق الكتابة عبرت عن نفسي وافكاري كطبيب . ولكن مع مرور السنين شعرت ان ذلك قليل بالنسبة لي . كنت اريد ان اقول للناس ماذا افكر بالمآسي والافراح والنزاعات التي نمارسها في الحياة . انني استطيع بواسطة الادب اعادة رسم العالم بشكل كامل بكل الوانه وروائحه وعواطف الحب والكراهية فيه . انني اكتب لكي يفكر الناس بما اعتقده أنا مهما بالنسبة لنا جميعا .

وفي نهاية الامر فان المشاكل الطبية هي مشاكل اجتماعية . في بلادنا تحتل الوفيات في مناطق « الملونين » نسبة اعلى بكثير مما هي في مناطق البيض . هل هذه مشكلة طبية ؟ تكمن مهمة الطب في تخفيف المعاناة لا في اطالة الحياة . ان المهمة الاخيرة تدخل في المجال الاجتماعي . وهناك حالة اخرى نمطية بالنسبة للغرب : المسنون وهم على ابواب النهاية ولا ابالية المطلقة تجاه ابنائهم . هؤلاء فاقدون لاي أمل ويعانون من عزلة نفسية تامة . فاي طبيب يمكنه انقاذهم ؟ بل هل تكمن القضية في الطبيب أصلا ؟ كل هذه المآسي وليدة المجتمع نفسه . فالمجتمع هو المسؤول عنها. كما انني ايضا أتحمل هذه المسؤولية . ولهذا لابد لي من الكتابة لكي أغير الحياة نحو الافضل .

في كتابي الذي سميته « عناصر غير مرغوب فيها » تحدثت عن التمييز العنصري . الطبيب الاسود لا يستطيع معالجة المريض الابيض . وفي الردهة التي يرقد فيها طفل أبيض لا يسمح بادخال طفل من قبيلة سوداء فيها . ان احدى شخصيات الكتاب ، البروفسور فيليب ، يتعرض لحملة تدمير بسبب لون بشرته السوداء . وان كل ما ذكرته في كتابي من احداث شاهدته بنفسي واحتجيت عليه بشدة . ان العنصرية هي اخطر مشكلة في بلادي والملونون محرومون من كل شيء .

انني لا استطيع ان أغمض عيني على كل ذلك ، ولا استطيع ان لا اتحدث عنه . لقد كتبت كتابي بالم ومتعه ، لانني كتبت الحقيقة .

◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مؤتمر بغداد الدولي للموسيقى

■ انعقد في الاول من كانون الاول والى الثامن منه المؤتمر الثاني للموسيقى في بغداد ومهرجان لآلة العود .

واذا كان المؤتمر الاول الذي انعقد في بغداد عام 1975 متعدد الجوانب من ناحية عدم تحديد موضوع مسبق له ، مما كان عرضا لمشكلات الموسيقى اكثر منه تركيزا على واحدة منها ، فان المؤتمر الثاني الذي تحدد بموضوع واحد وهو « تأثير الموسيقى العربية الاسلامية على اوربا في القرن الوسيط » دون اي تفرع ، لم يكن اقل ارباكا بالنسبة لجزء من المدعويين او بالنسبة لبعض ممثلي الدول . فالموضوع المطروح لم يات ضمن الاهتمامات المباشرة لمعظم الحاضرين . وفي مرحلة تلتفت فيها معظم بلاد العالم للبحث عن المشكلات المعاصرة للموسيقى . من الناحية الفنية والاجتماعية والتربوية يقتصر البحث في الماضي اما على نفر محدود من الاخصائيين أو يثار من حيث علاقته بالحاضر وتأثيره على الواقع الموسيقي الحالي .

وليس من العسير ان يشعر المرء ان الجانب العربي ومن ضمنه البلد المضيف لم يكن مهيئا علميا لمثل هذا اللقاء ويزداد الارباك في عدم وجود باحث عربي مختص بصورة جدية ومنهجية في الموضوع ، رغم وجود الكثير من الكتابات التي يتغلب عليها الطابع المدرسي او الصحفي .

ويبدو ان آخر من عمل بصورة منتظمة على دراسة المخطوطات العربية وتحقيقها هو المرحوم زكريا يوسف الذي كرس حياته لهذه القضية ، وقد لعب دورا فعالا في الكشف عن كنوز الحضارة العربية من الناحية الموسيقية ولم تصلنا لحد الآن اية اضافات بعد الذي جاء به زكريا يوسف . واذا كان دور زكريا يوسف يتحدد بتحقيق المخطوطات ، فان جهودا من نوع آخر بذلت من قبل المستشرق والباحث هنري جورج فارمر الذي كتب عشرات الاوراق من كتب ومقالات ودراسات وملأ الفراغات الموسيقية في انسكلوبيديا العالم الاسلامي . ولم تر اوربا او العالم لحد اليوم باحثا اقتفى اثر فارمر او انتج ما انتجه في تثبيت الخطوط الاساسية لدور العرب موسيقيا . ولا نعرف لحد اليوم عمن اتى باضافة جديدة في هذا الميدان ولذا فمن المؤسف ان نطرح موضوعا على بساط البحث الدولي دون ان تكون لنا منه اضافة أو راي جديد . وخصوصا اذا كان الموضوع ذو علاقة بالتاريخ يجب احتساب درجة المجازفة فيما يتعلق بنجاحه .

ومن ناحية اخرى اخذت الدول الاوربية تبدي اهتماما كبيرا بكل من الموسيقى الشرقية عامة وبموسيقى اوربا في العهد الوسيط التي تستفيد منها الموسيقى المعاصرة . وقد عقدت في عام 1977 ندوتان لمناقشة هذا الموضوع من كل من مدينة رين في فرنسا عنوانها « الموسيقى الشرقية ، موسيقى الغرب في العهد الوسيط وعلاقتها الحاضرة » وفي مدينة بازل بسويسرا تحت موضوع « البحر المتوسط وموسيقى القرون الوسطى » .

وقد صدرت نقاشات الحلقة الاولى في كتاب لم يصلنا لحد الآن . ويهم ان نذكر ان هذه المواضيع التي طرحها تجمع بين ثلاثة عناصر للنقاش وهي الموسيقى الشرقية ، موسيقى اوربا في القرون الوسط والموسيقى المعاصرة . وهنا لا يهم الماضي الا بمقدار ما يسهم في تغير مفاهيم الحاضر .

ولضيق موضوع المؤتمر اشترك الكثير من الباحثين في تقديم ابحاث عن مواضيع قد تبدو خارجة عن نقطة البحث أو موازية لها الا انه عند التدقيق فيها ، وفيما تطرحه من مشكلات ، نجد بانها ضرورية من اجل التوغل بصورة اكثر جدية في الموضوع المطروح .

ولأن مهرجانا لآلة العود اقيم في الايام الاربعة الاخيرة من انعقاد المؤتمر ، ورغم عدم ادراج موضوع العود كموضوع رسمي للنقاش النظري والاكتفاء بالجانب العملي منه ، فقد كرس بعض المؤتمرين الضيوف وبعض الباحثين العراقيين ابحاثهم عن هذه الآلة او لنقل الالات التي تنتمي الى فصيلة العود فتطرق المؤتمر الى الحديث عن العود الياباني والفيتنامي وعن العود التونسي وثم عن آلة الطنبور أو الساز .

ويمكن تصنيف مجموع الابحاث العربية والاجنبية الى مجاميع ، واني هنا اقتصر على اعطاء خلاصة عن اهم الابحاث من ناحية ما جاءت به من جدية أو من الناحية الفكرية .

الابحاث العراقية والعربية :

تقدم العراق باحد عشر بحثا خمسة منها تطرقت مباشرة الى موضوع المؤتمر وهي : عبد الجبار السامرائي : العلاقة بين موسيقى التروبادور والموسيقى الاوربية ، حمودي الوردي: اثر الموسيقى الاسلامية على اوربا ، منير بشير : علاقة الموسيقى العربية الاسلامية بحضارات اوربا في العهد الوسيط ، سعيد الديوهجي : زرياب ميخائيل عواد : الموسيقى والغناء في العراق ، گوركيس عواد : عن مصادر الموسيقى العربية في كتاب الفهرست لابن النديم . واضافة الى الموضوع الاصلي للمؤتمر قدمت ثلاثة ابحاث في موضوع العود وهي بحث مشترك للاخوين گوركيس وميخائيل عواد عن المرحوم والدهما حنا العواد . وهذا البحث هو اجود نموذج لما يمكن ان تقدمه جهة عراقية من مادة جديدة بصورة واضحة ودقيقة . ان مقدار المساهمة في هذا الموضوع اكيدة . وتقدم السيد عبدالوهاب بلال ببحث مفصل عن عازف العود منير بشير واخيرا بحث عن العود ذي الذراع الطويل في شمال العراق لشهرزاد قاسم حسن وفيه تعتمد على دراسة مجموعة من الاعواد الطنابير من ناحية شكلها وصناعتها وخصائصها الصوتية ودورها الاجتماعي .

اما الحضور العربي فقد كان ضعيفا رغم اشتراك ممثل لكل من المغرب وتونس ومصر وسوريا والسودان ورغم تقديم ثلاثة ابحاث من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كل من السودان لجابر امين جمعة عن العلاقة بين الموسيقى العربية الاسلامية وحضارة اوربا ، ومن مصر عبدالمنعم عرفه في اثـر الموسيقى العربيـة الاسلاميـة على اوربا في العهـد الوسيط ومن سورية لنغين بليتو عن مقارنة للقصيد السوري كما يقرا في الوقت الحاضر ببعض اغاني القـرون الوسطى مقتصرة في اجراء المقارنة في منطلق الشكل فقط . كما القى الدكتور محمد ضماضم من تونس كلمة عن العود التونسي وقام مندوب المغرب بتقديم كلمة شفوية في مفهوم الاثر والتاثير .

ان معظم الابحاث العراقية والعربية تفتقـد الى المنهجية العلمية ، وهي في احسن الاحوال لم تات بالجديد وتعتمد في معظمهـا على الاسلـوب الانشائي وعلى المصادر الثانوية ولعل اجود ورقة تقدم بها الجانب العربي هي للباحثة السوريـة نفن بليتو فالمرء لا يجد صعوبـة في الكشف عن الجهـود وعن الاسلوب الموضـوعي والعلمي لما تطرحه . وتثمن من الجانب العراقي من ناحيتي الاسلوب والاضافة ـ ابحاث الاخوين عواد .

مواضيع الابحاث الاجنبية :

مفهوم التاثير من الناحية المنهجية والفكرية

قدمت ورقتان واحدة عن المشاكل المنهجيـة التي تعترض الباحث عند الولوج في مثل موضوع المؤتمر وهي للبروفسور بول اولسن من الدانمارك ورئيس المجمع الدولي للموسيقى الفولكلوريـة والاخرى من البروفسور السنر من جامعة برلين في المانيا الديمقراطية عن التاثير الثقافي في تطوير الموسيقى .

يقول اولسن ان اي موضوع يطرح بشـان حضارتين موسيقيتين تنتمي كلاهما الى الماضـي يثير بلا ادنى شك مجموعة من المشكلات للباحث من النادر ان يصل مثل هذا النوع من الدراسـة الى نتائج متقدمة . والباحث قبل كل شيء يسال نفسه عن معنى التاثير رغم ان التحـديد الفكري لمثـل هـذا الموضـوع قليـل الاهمية بالنسبة للموسيقى الحية التي لا يهمها موضوع الاصل او الاولوية . والتاثير براي اولسن هو نتيجة طبيعية لاي لقاء سواء كان ذلك بين شخصين مجموعتين أو شعبين وما يهم في مثـل هذا اللقاء هو ليس طرح السؤال « هل ظهر العود مع العـرب » ؟ انما المهم هو تدقيق ودراسة نتائج اللقاء ودراسة الاثر المتبادل بينهما . ويرد اولسن مجموعة الآراء والحجج حول مفهوم التاثير وينقل احـدى الآراء التي تقول بان مفهـوم التاثير يكون فاعلا عندما يتعلق الامر بحضارتين تختلفان عن بعضهما كليا

ويتساءل هل يمكن ان نقول هذا بشان العلاقـة بين الحضارة العربية والاوربية ؟ ذلك لأن اوربا والعرب يعيشان منذ الازل حول حـوض بحـر مشترك وحدثت بينهما لقاءات متكررة ومستمرة عبر التاريخ قبل القرون الوسطى . وعليه فـان لقاء القرون الوسطى هو ليس الاول من نوعه . أو من الناحية الموسيقية فان الحضارتين العربيـة والاوربية في فترة معينة والى حد القرن العاشـر تنتميان الى نفس العائلة الموسيقية . ولكي تكون الحقيقة دقيقة يجب ان تؤخذ كل هذه الاعتبارات وتدرس .

ويتحـدث البروفسور يورگن السنر مـن المانيـا عن موضـوع التاثير الثقـافي في تطوير الموسيقى . يقول بان تطور الموسيقى وخصوصـا الفنية منها لم يكن في اي مرحلة تطـور منعـزل مستقل عما يحيط به وهو لم يات بدون استيعاب وذوبان او دمـج لموسيقى جماعات او مناطـق مختلفة . ويجب ان نضع في اذهاننا بان هذه المراحـل المختلفـة لا تتساوى في مشخصاتهـا ومستوياتها ولا حتى في اهميتها او كفاءتها . ثم ان انتقال الاثر أو اكتسابه من حضارة هـو سياق معقد ومركب ومراحله مختلفة .

وليس من الضروري ان يحدث الانتقـال أو التاثير باخذ مباشر أو برد فعل آني يظهـر على شكل اعمال موسيقيـة ، اساليب بنـاء او آلات موسيقية ذلك ان الاخذ والدمج والتاثير يظهر ، عموما ، بعد مرحلة حضانـة حيث تاتي ثمارها خلاقة وفي بعض الاحيان ليس من السهل ان نجد دور الاصل .

وينتقل السنر الى البحث عن اسباب عدم وضـوح آثار التاثير الاسلامي ويعزوه الى نقص المصادر ، الى هيمنة التفكير المحب للاغريق والى التركيز على « الذات » الاوربية . وهذه المجموعة من الاسباب يجب اعادة النظر فيها . ويقول ان ما لا شك فيه هو ان الموسيقى العربية نفسهـا دمجت الكثير من العناصر الراجعة لاقوام اخرى . واخـيرا فان الاقتصـار في البحث عن التاثـير الموسيقى على تملك آلات ونقلها هو خطـا كبير وعدم فهم للتاريخ ولفهم دور التاثير .

خصائص الفكر العربي في القرون الوسطى :

تقدمت الباحثة الموسيقيـة والمستشرقـة البولونية سلافوميرا زيرانسكي ببحث موضوعـه « خصائص نظريات الموسيقى العربية في القرون الوسطى » فيـه تقـول ان اوربا كانت ترى في الوثائق الموسيقية العربية مصـادر غير مباشـرة لتفسير النظريات الموسيقية الاوربية على اعتبـار ان كليهما استمدا الاسس من الاغريق ، المصـدر المشترك للعرب ولاوربا في القرن الوسيط . ان اقتصار الاستفادة من النظريات العربية لتفسير الموسيقى الاوربيـة هو استمرار لنظرة القـرن التاسع عشر لحضارة العرب .

وتعدد الباحثة اوجه التشابه بين النظريتين العربيـة والاغريقيـة في الموسيقى وتلخصهـا بالاساس الفيزيائي للصوت ، نظريـة المسافات الموسيقية ، الربع درجة ، نظام الاصوات ، نظرية الايقاع ، نظرية الايثوي او الاثر .

ثم تاثر العرب بالفيثاغورية ومن ثم بمثالية افلاطون ، وهـذه الآراء مميزة للقرون الوسطى كلها الا ان العرب ادخلوها في مجـال الرياضيات مما اضاف بعدا جديدا عليها . وتؤكد الباحثـة بانه لا يوجد جزء في اجزاء النظريات التي وصفها القدماء ما لم يتطور ويكتمل ويعاد النظر فيه من قبل العلماء العرب الذي اخرجوا الموسيقى من فكر العهد القديم وادخلوا عليها روحية العصر الجديد وهو عصر القرون الوسطى . وتتميز بالدرجـة الاولى اسهاماتهم في كونهم وبمساعـدة الادوات الرياضية المعقدة حولوا النظرية الاغريقيـة الى نظرية واضحة ودقيقة .

ومن ضمن ما اتى العرب فيه من جديد هـو اثارتهـم لموضـوع الاداء العملي للموسيقـى ولأنهـم اهتموا بالرياضيات والنظريات وتاثروا بالافلاطونيـة فانهم درجـوا على اعتبار الجانب العملي للموسيقى ثانـويا بالنسـبة للنظري . فالعمل يجب ان يكون انعكاسا للقيم المثالية التي تثبتها النظريات . ان دراسـة العرب للاتجـاه العملي تتجه الى الدخول في التاملات النظرية اولا وثانيا الى الفات النظر الى عدم كمـال انعكاس النموذج المثالي في الواقع .

ان الطرح بين الجانبين العملي والنظري واضح ومهم عند الفلاسفة العرب من شـراح المدرسة الاغريقية كالكندي والفارابي ، ولكنـه اقل عند ممثل المدرسة المنهجيـة صفي الدين الاموي البغدادي .

ولأن النظرية العربيـة ـ الاسلامية في الموسيقى تجرد الموسيقى من ظروفها الفنيـة ، ـ لأن اساسها عددي ـ فيمكن ادراج هذه النظرية ضمن العلوم الطبيعية وليس ضمن الانسانيات . والتصنيف الموسيقي ضمن العلـوم الرياضيـة والطبيعية شائع في القرون الوسطى .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

واخيرا فان الفكر العربي تطور دون توقف من القرن الثامن حتى القرن السابع عشر وبين اساوبه ومفاهيم خاصة بالموسيقى مستقلة واصيلة ولكنها ترجع في روحيتها الى القرون الوسطى لتاثرها بالقدماء من امثال افلاطون وارسطو الذين لعبوا دورا في توحيد الفكر في تلك القرون . ولكن النظرية العربية كالاوربية في تلك القرون .. متميزة ثقافيا وتاريخيا .

الماضي والحاضر :

من الابحاث المهمة التي تقدمت للمؤتمر هو بحث مارى كلير موسات من فرنسا عن تاثير الموسيقى المعاصرة في اعادة النظر في موسيقى العهود الوسطى وفي علاقتها بالموسيقى العربية » .

تقول الباحثة ان الموسيقى المعاصرة من خلال الاساليب الجديدة التي تعيد فيها النظر تعيد النظر بالعصر الوسيط كله .

وعندما نطرح السؤال عن تاثير الموسيقى العربية على الاوربية في القرون الوسطى وعندما نصطدم بتحديد عناصر البحث يقودنا هذا الى التساؤل وبصورة طبيعية عن المساهمة المعاصرة للموسيقى الشرقية وهذه المساهمة اصبحت بلا ريب حقيقة من حقائق الثقافة المعاصرة فالتاثير الجديد للموسيقى الشرقية اخذ ياخذ موقعه كحقيقة واقعة في المسيرة الفنية لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ثم تتحدث مارى كلير عن خصائص الموسيقى المعاصرة وهي خصائص تدفعنا الى اعادة النظر في كل من موسيقى القرون الوسطى والموسيقى العربية المعاصرة .

وتقول بان عالم الموسيقى المعاصرة نسبي بعكس عالم الموسيقى الرومانتيكية وحالة الانفتاح الكبير هذا موجودة في الاعمال الموسيقية الشرقية. وعليه فان الموسيقى المعاصرة تبتعد عن تثبيت نموذج واحد ثابت للعمل . والحقيقة الثانية هي ان الموسيقى المعاصرة منحت قيما جديدة لدور المؤدي اي انها اعادة تركيب علاقة ديالكتيكية بين الموسيقى والمؤدي ، علاقة استعادت فيها الموسيقى حريتها . وهذه الحرية موجودة عند المؤدي العربي .. وهذه الناحية مشابهة لموسيقى اوربا في القرون الوسطى التي تتميز بوجود انفصام بين القراءة الغرافية للنوطة وبين الاداء الفعلي . ثم ان الموسيقى المعاصرة لا تقتصر على استخدام النظام المعدل ويبدو واضحا من عناصر اللحن والايقاع الموسيقي في الشرق . واذا كان الشرق الذي تتحدث عنه مقتصرا في باديء الامر على الهند واندونيسيا فانه في يومنا هذا تحول التاثر الى شرق اعالم العربي ومنذ بدأ الويس هالم ومؤلفون آخرون في قرننا هذا باستخدام المسافات الصغيرة ـ الميكرو ، فتحت امام علم الصوت مجالات جديدة للكشف .

وبفضل تلك السيطرة على عالم الصوت اصبحت قابلية الفرد الاوربي اكثر رهافة من ناحية الادراك السمعي لموسيقى حوض البحر الابيض . ويهم الموسيقى المعاصرة ان تثرى نفسها بادخال آلات موسيقية جديدة وفي هذا المجال يتعايش خطان الى جنب اولهما خط التكنيك العلمي ويشتمل على عالم الصوت الالكتروني وعلى كل في ال Computed الحاسبات وال Sound Sythe . اما الخط الثاني فيعتمد على sisec اضافة [illegible] الموسيقى الاوربية [illegible] من الحضارات التقليدية والاوربية . وقد دخلت آلات كالايقاعية في كثير من التاليف المعاصرة وكما يقول احد المؤلفين لقد آن الاوان ان يعرف الناس ان الطبلة يمكن ان تعزف في فرنسا . وفي مجال اعادة الاعتبار الى موسيقى القرون الوسطى الاوربية يتم التوجه نحو استعادة الآلة القديمة ، ويدخل فيها ايضا اكتشاف للآلة العربية حتى ان بعض العازفين يعتقد ان اداء الموسيقى الاوربية للقرون الوسطى يتطلب دمج اساليب عزف جديدة تقتبس في حضارات اخرى وخصوصا الحضارات التقليدية . وتقترح اخيرا ـ في دراسة تاثير الموسيقى العربية على اوربا في القرون الوسطى ـ فحص الظاهرة على مستويات مختلفة وفي مراحل مختلفة وهي تقترح ان تؤخذ بنظر الاعتبار : 1 ـ اضافات العرب في الاماكن التي دخلوها ، 2 ـ دراسة الابداع المزدوج للعرب وللسكان الاصليين ، 3 ـ دراسة ظاهرة ذوبان الظواهر الثقافية من قبل سكان البلاد التي جاءها العرب ، 4 ـ استمرار تاثير الموسيقى العربية بعد سقوط السلطة الاسلامية في الاماكن التي حكمها العرب .

التاثير الاسلامي في عصور لاحقة

ياتي الباحث الروماني كوزما اوكتافيان بواحدة من اكثر الوثائق اثارة في دور الموسيقى الاسلامية وهو يحدثنا عن الامير الحاكم لمورافيا ديمتري كانتيمير الذي عاش بين 1678 ـ 1723. كان هذا الحاكم من ابرز المهتمين في الموسيقى الشرقية اذ تعددت مواهبه فيها . فقد كان كانتمير عازفا بارعا على آلة الطنبور . وفي المجال النظري اسهم في تنظير الالحان التركية ـ الفارسية وقام بتدوينها . وكتب كانتمير عن الموسيقيين والحياة الموسيقية في اسطنبول بين 1688 ـ 1710 وعن القيم الجمالية والشعرية لموسيقى هذا العصر . وفي كتابه عن نظام الدين المحمدي كتب فصلا عن الموسيقى يتحدث فيه عن تفوق الموسيقى الشرقية على الغربية . وكتب كانتمير باللغة التركية كتابا عن العلوم الموسيقية. واضافة الى كل هذا فكانتمير كان مؤلفا موسيقيا بارعا استمد طريقته في التاليف من الاسلوب الشرقي . وقد ارفق لنا الباحث الروماني اربعة نماذج مدونة ومؤلفه من قبل امير مورافيا .

التاثير الاسلامي على اقاصي آسيا

ارتأت وفود آسيا الغربية الممثلة في كل من اليابان وفيتنام ان تتحدث في الموضوع من الزاوية التي تهمها وهي زاوية تاثير الحضارة الاسلامية على شرقي آسيا . ويقول الاستاذ تران فان كي انه اذا كانت تاثيرات الموسيقى العربية الاسلامية معروفة على الهند وايران فان معرفتنا محددة جدا من ناحية هذا التاثير على بلاد آسيا الشرقية .

بدأ هذا التاثير من القرن الثاني قبل الميلاد واستمر تصاعديا الى القرن التاسع الميلادي . ويلخص الباحث الفيتنامي مجمل التاثيرات في ثلاثة مجالات : الآلة الموسيقية ، الانواع الموسيقية ، المسافة الثالثة . ويقول ان الالف الثاني قبل الميلاد شهد دخول الآلات التي عرفتها آشور وفارس الى الصين ومنها لليابان . ومنذ قرون تستخدم كل من الصين وكوريا واليابان آلة **الكونغو** التي جاءت من الهارب الآشوري . وعرفت الصين آلة البيبا التي جاءت من البربط او العود . ويعتقد ممثل اليابان ان عود **ساكسيان** في الصين **والشامبيسان** في اليابان من حضارة الاسلام . وفي الفيتنام يستخدم سلم اسمه **صحراء** ويحتوي على مسافة الثالثة المحايدة الشبيهة بثالثة زلزل . ومنذ الالف الثاني قبل الميلاد عندما سافر القائد الصيني جانك جيان الى آسيا الوسطى رجع ومعه شيء من موسيقى غربي آسيا وهي موسيقى الآشوريين والبابليين والفرس . واوجد في الصين ما يسمى بموسيقى بخاري وفيما بعد بموسيقى سمرقند وكوجا .

د. شهرزاد قاسم حسن

◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سينما

الفأر الذي ولد جبلاً

■ خمسون عاما ! لابد من القول ان هذا التاريخ اليوبيلي قد هزني تماما . فمنذ ايام ولادتي الاولى كان الجميع يعتبرونني طفلا – معجزة اثار جنون هوليود تلك الايام .

ولدت في تشرين الثاني عام 1928 .ولكن مغامراتي كانت قد بدات في الواقع قبل ذلك بقليل . كان والت ديزني ، الذي خلقني،يعيش آنذاك في كانزاس سيتي ويعمل في كراج يعودالى عمه روبرت . وكان يعيش في الكراج عدد من الفئران ، وكان احدها ، وهو اصغرها ، يقرض باستمرار اوراق عمي والت الموضوعة في سلة . بعد فترة قصيرة استطاع عمي ترويض الفار الصغير ويقال انه منذ ذلك الحين لم يتجاوز الخط الذي رسمه عمي والت على الارض ..

اطلق ديزني على ذلك الفار اسم مورتيمور. بعد بضعة اعوام وعندما كان قد بدأ يشتهر في السينما بفضل القزم اوسفالد قرر عمي اعادة الحياة لمورتيمور . كان عمي والت رساما سيئا . رسم جسما بسيطا : دائرتان ودائرتان اصغر منهما فوق الدائرة العليا بمثابة الاذنين وساقان رفيعتان بحذائين بسيطين ويدان من الخيط وكفوف باربعة اصابع . هكذا كنت !

اطلق علي والت دزني اسم مورتيمور . لكن زوجته ليليان التي كانت مساعدته ايضا ارتأت ان اسم ميكي اكثر لطافة . هكذا كنت اعتقد انا ايضا .

زودني العم والت – لم اجرأ ابدا على ان ادعوه بأبي – بعينين صغيرتين وبذنب خيطي . في عام 1938 ولغرض الاقتصاد حرمني من الذنب ، ولكن اعاده لي بعد فترة اخرى . ومع مرور الزمن بدأ مظهري بالتغير حيث اصبح لي حدقتان حقيقيتان فيما صار جسمي اكثر مرونة. واخيرا اصبحت امتلك تشكيلة كاملة من الملابس اللائقة بنجم سينمائي بعد ان كنت اظهر امام المتفرجين في البداية شبه عار . ولكن طيلة تلك السنوات لم يغير العم والت شيئا من شخصيتي الفردية . فقد كان يسميني دائما « فأرا مكارا » .

بدات بفلمين صامتين هما : « الطائرة المجنونة » و « الكاوبوي الفارس » قام خالقي خلالهما بمقارنتي ببطلين من ذلك الزمان هما الطيار ليندنبرغ والممثل دوغلاس فيربانكس . ولكن قيمتي الحقيقية توضحت عندما منحني عمي صوته. كانت هوليود قد اكتشفت السينما الناطقة لتوها وقرر والت ديزني ان يكون فلم « الباخرة ويلي » اول فلم كارتون ناطق في تاريخ السينما . وقد سجل لهذا الفلم اصوات حيوانات وهدير بالونات وكلها اصوات مضحكة. ولكن الاهم من كل ذلك كان صوته المنطلق من شفتي . وظل ديزني يعطيني صوته حتى نهاية حياته . ولذلك كان يستطيع القول ، مثل فلوبير عن مدام بوفاري ، بان « ميكي هو انا » . وحتى عندما اصبح العم والت اغنى انسان فانه كان يرى من واجبه الجلوس امام المايكروفون ليتحدث بصوتي . ومن سخرية القدر انني تجاوزته في الحياة وبدات اقلد صوته .

في الواقع اننا لم نفترق ابدا . وبدون ادنى مبالغة فان ميكي ماوس هو الفار الذي ولد جبلا، والجبل هو امبراطورية ديزني الترفيهية .يجب القول انني مثلت كثيرا جدا . كنت طيارا ومصارع ثيران ومخبرا سريا ومزارعا نبيلا وباحثا عن الذهب ورحالة ومحاربا . كما ارسلوني الى آكلة البشر والى الصحارى والى اعماق المحيط . وليس في ذلك ما يدعو الى العجب اذا عرفنا ان شركة ديزني كانت تنتج فلما جديدا لميكي ماوس مرة كل شهر . كنت اعمل كثيرا جدا .

عندما انتجت احدى شركات الساعات ساعة يمثل بندولها شخصيتي فان النجاح الذي حققته فاق التصور : باعت الشركة 8 ملايين ساعة . لقد تحولت فجأة الى صناعة كاملة . كان الاطفال يرتدون بجامات « ميكي ماوس » وينامون على أسرة « ميكي ماوس ». وكانت قبعاتهم وكفوفهم و « ممياتهم » ولعبهم وفرشاة اسنانهم وكراتهم وقيثاراتهم .. كلها تحمل صوري .

وبطبيعة الحال حاولوا تجنيدي من كل جانب. ان اكثر ما افتخر به هو ان اسمي كان كلمة السر لانزال الحلفاء في نورمندي اثناء الحرب العالمية الثانية .

لقد اعتبرني رسام الكاريكاتير الانكليزي ديفيدلو « الاكثر اهمية بعد اعمال ليوناردو دافينشي الكرافيكية ! » . ذلك لانني كنت في الوقت ذاته بطلا لقصص مجلات الاطفال المرسومة . كانوا يصدرون مسلسلات متتابعة تستمر من شهرين الى ثلاثة اشهر . وكان 15 مليون شخص في الولايات المتحدة الامريكية وحدها يتابعون تلك المسلسلات القصصية.

بين حين وآخر كنت امثل دور البطل في افلام طويلة لعل اروعها كان فلم « الخيال » ، ولكن مع ازدياد انتاج مؤسسة ديزني للافلام الوثائقية والافلام التلفزيونية .. الخ ، فان عملي كان يقل باستمرار . وبدأ زملائي دونالد وبلوتو ودينفو يضيقون علي الخناق تدريجيا وتحولوا الى نجوم سينمائية كبيرة وقد انتصرت علي صفاتهم الاكثر اصالة . وهكذا تقرر في عام 1953 ابعادي عن السينما بعد ان حصلت على 7 من بين 29 جائزة اوسكار نالها والت ديزني. ففي ذلك العام مثلت في آخر فلم لي .

اصبحت متقاعدا رغم انفي في امبراطورية ديزني . وقد كلفت بادارة المنتزه العملاق في ديزني لاند حيث كنت السيد المطاع هناك .بعد ذلك كلفت بادارة منتزه ديزني وورلد في فلوريدا ايضا ، بل انني تشرفت بافتتاحه شخصيا . وفي التلفزيون الامريكي عينت عريف الحفل الدائم في « نادي ميكي ماوس » .

يقال ان والت ديزني الحق الضرر بنفسه حين وضعني على الرف . لست ادري . لكنني واثق من شيء واحد : انني سأتحدث عن ذكراه في كل مرة يطلبون مني ذلك . قد تقولون ان ذلك اظهار لعواطف متقاعد مسن . ولكنني اعلم جيدا انه ليس لي اي مكان في غير عالم والت ديزني ..

ميكي ماوس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليونسكو

مشكلات الأعلام في المجتمع الحديث

■ **التقرير التالي اعدته اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاعلام وهي اللجنة التي تشكلت في اليونسكو . وهو تقرير أولي نوقش في الدورة العشرين لمنظمة اليونسكو (تشرين اول ــ تشرين ثاني) بينما ستنجز اللجنة التقرير النهائي في في منتصف عام 1979 . ويراس اللجنة شون ماكبرايد (ايرلندة) وهو رجل قانون وصحفي ورئيس منصب المكتب الدولي للسلام ووزير سابق للشؤون الخارجية ومؤسس ورئيس منظمة العفو الدولية ، كما شغل منصب مفوض الامم المتحدة لناميبيا وحصل على جائزتي نوبل ولينين للسلام . وتضم اللجنة عددا من كبار رجال الاعلام من 15 دولة .**

وبالنظر للاهمية البالغة للتقرير ــ والذي دعت اللجنة الدولية المنظمات الدولية والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية المتخصصة الى مناقشته في صيغته الحالية للاستعانة بالآراء والمقترحات والانتقادات لاعداد التقرير النهائي . فقد ارتأت (أضواء وآفاق) نشر الجزء الثاني منه على مدى بضعة اعداد (الجزء الاول يتضمن عرضا لسير اعمال اللجنة منذ تشكيلها) مادام « هدف التقرير هو في الواقع اثارة التعليقات والمقترحات » كما جاء في كلمة رئيس اللجنة في مقدمة التقرير .

❋

ــ الف
قضية رئيسية

1 ــ ان دراسة مجمل المشكلات المعلقة بالاعلام في المجتمعات المعاصرة والتي القيت على عاتق اللجنة تشكل عبئا كبيرا ومعقدا ، خاصة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار تعدد ابعاد هذه المشكلات التي لم تستطع البحوث ، لا سيما في ابعادها المقارنة وعبر الثقافية ، ولا التجربة العملية ، ان تقدم لها اكثر من أجوبة تعوزها الدقة ، متناقضة غالبا وغير كافية أو مجزاة دائما .

اذا نظر الى الاعلام في اطاره الشامل ، فانه يظهر كامتداد للمجتمع بأسره ، وهو ماثل في كل عنصر من عناصر النظام الاجتماعي . فهو يشرك جميع المؤسسات ويستعين بها وتمكن دراسته من وجهات نظر مختلفة ، تكنولوجية وسياسية واجتماعية واقتصادية وقانونية وثقافية ونفسية ، وعلى مستويات مختلفة : فردية ووطنية ودولية .

2 ــ وعلى الصعيد العالمي فان الاعلام يدخل في نطاق جميع القضايا الكبرى ويشترك في جميع اهتمامات العصر .

وهناك ثلاثة أسئلة تدخل في صميم النقاش الجاري على الصعيد الدولي :

فالسؤال الاول يمس ابعاد حرية واستقلال الشعوب وقد يؤثر على سياق الجهود المزعزعة الرامية الى بناء وحفظ السلام . وفي البداية اقتصرت هذه الابعاد على المضمون السياسي والاقتصادي ثم اتسعت حتى شملت اليوم ميادين التربية والعلم والثقافة .

والسؤال الثاني يتعلق بمكان ودور الفرد في المجموعة وفي المجتمع بأسره . وثمة رغبة عميقة تتضح اليوم بهذا الصدد رغم تعدد العقبات . وترنو هذه الرغبة الى تعزيز كرامة الانسان وتوطيد حقوق الافراد والجماعات ومسؤولياتهم ، وتوسيع دور كل فرد في ادارة الشؤون العامة وكذلك الى التحول التدريجي بالفرد من طور الخضوع لارادة الغير الى طور المواطن المسؤول عن تاريخه ومستقبله .

ويتعلق السؤال الثالث بأسس ومفاهيم التنمية . فعوضا عن المفهوم الخطي والكمي والاسي للتنمية والذي يستند على نقل التكنولوجيا المستوردة التي كثيرا ما تؤدي الى الاغتراب ، يظهر اليوم مفهوم التنمية الذاتية التي تنصب على الكيف وترتكز على الانسان نفسه وحاجاته الحيوية وتسعى لازالة التفاوت بين الناس وتعتمد على التكنولوجيا المناسبة والمتماشية مع الوسط الثقافي وتشجع المساهمة الايجابية من جانب السكان .

وهذا التغيير في الاتجاهات لا يمكن الا ان ينعكس على مضمون الاعلام ودوره وبنائه وانماط انتشاره .

جذور المشكلة

3 ــ يعتبر الاعلام ملتقى المشاكل ومحورها، على انه يجب أن نتساءل عن السبب الذي جعل من الاعلام اليوم مشكلة في حد ذاته وعن ماهية هذه المشكلة .

ان الاعلام مشكلة لانه اولا ظل متخلفا في مبادئه وبارامتراته وتطوره عن ركب التطلعات والتغييرات التي طرات على الحياة السياسية والاجتماعية الاقتصادية في كثير من البلاد بل على الصعيد الدولي .

4 ــ والاعلام مشكلة ايضا لانه يرتبط بجميع القضايا التي تتساءل عنها الانسانية في الوقت الحالي بقلق متزايد . ومن هذه القضايا شروط بقاء الجنس البشري ، والسلام والتعاون السلمي، والتفاهم المتبادل، والحد من التفاوت بين الناس والاستغلال الرشيد والعادل لموارد العالم ، وتكاثر السكان ، وتطبيق الديمقراطية .. ويبقى الاعلام تجاه مثل هذه المشكلات في وضع متناقض : فهو يعتمد على ايجاد حلول لها ويمكنه في نفس الوقت المساهمة في ايجاد هذه الحلول .

5 ــ وتأتي هذه الاسئلة وغيرها في الوقت الذي يقود فيه تراجع أو تضاؤل الشعور الديني وازمة القيم الاخلاقية في كثير من البلاد الى استبعاد الحلول التي تعتمد على المعتقدات والعادات والتقاليد العريقة (حتى ولو انه يظهر لدى بعض الجماعات ما يناقض هذه النزعات العامة من رغبة في العودة الى التطلعات والقيم الروحية والاخلاقية) .

6 ــ والاعلام مشكلة ايضا لان الاساليب المتبعة لاشباع حاجات الانسان من المعرفة واعمال حقه في ان يستعلم ويزود بالمعلومات قد ادخلت عليها الآلية والتصنيع ، وتأثر من ذلك عامل اساسي من عوامل الاعلام الفردي والجماعي بسبب متطلبات التصنيع ومايحيط به من اخطار رغم اختلاف الاشكال والظروف في جميع البلاد .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

7 ــ كما ان الاعلام مشكلة بسبب الآمال التي علقت عليه منذ اكثر من نصف قرن : آمال في التغيير الاجتماعي والسياسي ، وآمال في الازدهار الثقافي ووضع المعرفة في متناول الجميع . ولا تزال مثل هذه الآمال تداعب مخيلات الناس رغم خيبة الظن المتكررة التي أصابتهم . وأما على الصعيد الدولي فان الاعلام المبني على المبادىء العامة يتأثر لانه كثيرا ما يصبح مجرد تبادل بين شركاء غير متكافئين يسيطر منهم من هو اكثر قوة وغنى وعتادا .

8 ــ والاعلام مشكلة كذلك لانه من الصعب تحديد أو قياس تأثيراته ولانه ما فتئت حدوده ومعالمه غير واضحة بل وغامضة . ويبدو تأثير الاعلام على المدى القريب وكأنه متغاير وضعيف نسبيا . وأما على المدى البعيد فيبدو تأثيره عظيما بالرغم من صعوبة تقديم البراهين على ذلك .

نقد ورفض

9 ــ تؤدي جسامة هذه المشكلات الى اوضاع تتصف بالرفض او الانتقاد : رفض وسائل الاعلام الكبرى على المستوى الفردي ، ومعارضة طرائق الاعلام على مستوى الجماعات وعلى المستوى الوطني ، وادانة آثار أية سيطرة على الصعيد الدولي .

10 ــ وقد ادانت الانتقادات بصورة خاصة : (1) التأثير في الافكار وغرس مشاعر الاغتراب الناجمين عن التوجيه او الاستعمال التجاري لوسائل الاعلام او استغلالها لاغراض اجتماعية او سياسية ، (2) الخطر الذي يشكله على الديمقراطية وعلى الحرية الفردية ما يفرض من قيود على التداول الحر للمعلومات ، (3) اللبس الذي يكتنف تدخل الدولة : فالبعض يعتبر تدخل الدولة ضروريا ليؤدي الاعلام وظيفته الاجتماعية والبعض الآخر يعتبر هذا التدخل ذا نتائج سيئة ، (4) العقبات التي تعترض اقامة توازن عادل في الانتفاع بالاعلام وتداوله ، (5) دور الاعلام في الابقاء على حالة التبعية الاقتصادية والثقافية ، (6) تشويه الاخبار الذي يسيء الى احترام سيادة جميع الدول ويعرض للخطر الجهود الرامية لاقرار الامن الجماعي وصون السلام ، (7) التأثير الايديولوجي الذي يكمن في الاعلام ومحاولات التسلط التي تشكلها او تنطوي عليها مضامين ورموز ومعاني الرسالة الاعلامية ، (8) الابعاد الخيالية التي تضفى على ثقافة جديدة خلقها التوسع التكنولوجي لوسائل الاعلام ! (9) الطاقات الكامنة في نظام للاعلام يزداد توسعا عبر البلاد ويسيطر عليه عدد صغير من مراكز السلطة ويتمتع بحرية اتخاذ القرارات التي تفرض نفسها على الشعوب وعلى البلاد .

نهج شامل

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

11 ــ اذا كان الاعلام يعني علاقة وتبادلا ومشاركة فهو ماثل في كل المستويات ، في الوحدات البدائية كما في الكيانات المركبة ، وعلى المستوى الفردي في علاقات الانسان مع الوسط الذي ينتمي اليه ، وعلى المستوى الاجتماعي . وكلما ارتفعنا في سلم التنظيم الاجتماعي ازداد تأثير الاعلام . كذلك فان توازن اي نظام ايكولوجي يتوقف على التحقق من صحة المعلومات التي يتلقاها . ويبدو الاعلام في كل تنظيم اجتماعي كعامل تأكيد لشخصية الفرد والجماعة في الزمان والمكان بهدف السيطرة على البيئة وتقوية الذاتية والتأثير على الغير أو العمل معه . **ويبقى الاعلام في وقت معا أمرا ملازما لوضع الانسان وعنصرا اساسيا من عناصر اي بنية اجتماعية .**

12 ــ وتبرز من هذه النظرة الاجمالية خاصيتان تتسم بهما مواقف كثيرة في العالم المعاصر . فمن جهة ، يتبين ان استراتيجية نشر الاخبار تعتمد اعتمادا كبيرا على عنصر الصدفة مما يسبب للمجتمع ولكل كائن حي خسارة فادحة نظرا لان كمية كبيرة من المعلومات تبقى دون استعمال . ومن جهة اخرى يبدو التناقض في المجتمعات الصناعية واضحا اذ ان الناس يتصلون ببعضهم البعض على نطاق لم يسبق له مثيل بينما هم منعزلون عن بعضهم البعض اكثر منهم في اي وقت مضى .

13 ــ ويجدر التساؤل هنا فيما اذا كانت مثل هذه الاعتبارات الشاملة قادرة على اغناء او اثارة التفكير العميق او على تسهيل البدء بدراسة مشكلة الاعلام وضبطها كظاهرة انثروبولوجية واجتماعية ونفسية وسياسية .

وظائف الاعلام

14 ــ ويبدو الاعلام ، بالاستناد الى هذه النظرة الشاملة كحاجة اجتماعية ومطلب اقتصادي وضرورة سياسية في نفس الوقت . وعليه فان تحليل وظائف الاعلام يجب ان يتم ضمن هذا الاطار الثلاثي اكان ذلك على المستوى الفردي او الاجتماعي أو الدولي .

15 ــ هذا ويبدو من الممكن لاغراض التحليل ، تمييز خمس وظائف رئيسية للاعلام:

أ ــ وظيفة اعلامية بالمعنى الدقيق للعبارة . وتتعلق بجمع المعطيات وتمحيصها ومعالجتها وهي تكفل حرية التعبير وتساعد على صفاء العلاقات الاجتماعية كما تضمن النشر ، على اساس جماعي بصفة رئيسية ، لعناصر المعرفة والاحكام والآراء اللازمة لتفهم المجتمعات الاخرى وبالتالي لتفهم العالم بأسره : وترتبط هذه الوظيفة بالتطور الديمقراطي ارتباطا وثيقا.

ب ــ وظيفة اقناع وتعليل وتفسير . وهي ترتبط بظاهرة المراقبة الاجتماعية وبتنظيم انشطة الجماعات وبترابط الجهود العامة وكذلك بالجهود المتعلقة بعوامل الاقناع والقيادة التي تفترضها الاهداف المشتركة. وترتبط هذه الوظيفة بجهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ج ــ وظيفة تربوية تختص بنقل التراث الاجتماعي والثقافي . ويجب ان تمارس ضمن اطار غايات الاعلام والتربية وحسب الطرائق المتبعة في كل منهما . فلئن كانت اهدافهما متقاربة فيجب ان تظل متميزة على ان تكون مترابطة ومتكاملة فيما بينها ، اذ ان الاعلام بوسعه ان يقدم المعطيات وان يوقظ الوعي بالمشاكل التي تسهل التربية ادراكها وتساعد على ايجاد حلول لها .

د ــ وظيفة تنشئة اجتماعية تستهدف اشراك الافراد في المجتمع . يساعد الاعلام في تسهيل مشاركة الافراد والجماعات في الحياة العامة وفي تهيئة

واتخاذ القرارات . فتبادل ونشر المعلومات والمعطيات يساعد على التفاعل الاجتماعي ويسهل على عدد كبير من الناس سبل المشاركة في ايجاد الحلول للمشاكل التي تهمهم . وتدخل هذه الوظيفة في اطار تطبيق الديمقراطية على الحياة العامة .

هـ ـ وظيفة ترفيه وتسلية . ويمكن ممارستها بطرق تختلف باختلاف درجات الثقافة ومستويات التنمية. وهي مرتبطة بتحسين نوعية الحياة .

16 ـ لا شك انه يجدر تعميق البحث في الامور التي وردت اعلاه بمحاولة تجديد واثراء المعرفة بظواهر واساليب السيطرة والاضطهاد والسلطة وكذلك بالظواهر المقابلة لها كالتضامن والتحرر الفردي والجماعي ، بقدر ما تتاثر هذه الظواهر كلها بعملية الاعلام .

كما انه من الاهمية بمكان دراسة تأثير هذا الاتجاه في التفكير على التفاهم الدولي في عالم اليوم وذلك بتبيان كيف ولماذا لا يساعد التطوير الكمي لشبكة الاعلام بالضرورة في تذليل صعوبات الاتصال ، وكيف انه ، في مجال نقل او تبادل المعلومات يرتبط الخطأ او الحقيقة بشأن الغير دائما بالخطأ والحقيقة بشأن الذات.

ـ بـاء ـ

الاعلام : بناه القائمة والاطراف المعنية بها

17 ـ لايمكن لاي تعريف او وصف للاعلام ان يغطي مجمل المعاني التي اعطيت له . ويمكن التركيز على ظاهرة التفاعل وعلى الوسائل والادوات والاهداف الخاصة بالاعلام الخ ... كما يمكن اعطاؤها معنى اضيق يقتصر على تداول الاخبار ووسائطه ، او معنى اوسع يمتد الى ظاهرة التفاعل الانساني عن طريق الاشارات والرموز ، وهذا المعنى الواسع « للاعلام » هو المعتمد في الصفحات التالية ، وهذه النظرة تتجاوز المفاهيم التي تجعل من الاعلام مجرد توصيل للانباء او تقصره على مجرد وسائل الاعلام ، او تعتبره مجرد حق كرست النصوص الدستورية او التشريعية وجوده وحدوده ، او تصفه كعملية توصيل المعلومات للفرد على شكل هبات تأتي من المسؤولين عن الاعلام .

18 ـ ان التعريف العام للاعلام يتلاقى مع وجهة نظر الذين يعتبرون الاعلام ظاهرة اساسية تتحكم في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى العقلية وتؤثر على جميع الاوضاع التي يوجد فيها الافراد والشعوب . ويتفق مثل هذا التعريف واهتمامات كثير من الدول وخاصة الدول التي شرعت مؤخرا في اجراء الدراسات واقامة المخططات الرامية الى تطوير الاعلام في مجمله . وهو يتفق ايضا مع التحليل الذي اجرى على الصعيد الدولي حيث ان منظمة الامم المتحدة تعتبر ان ارضاء اهم متطلبات الانسان ـ ابتداء من السلام وحتى الحاجات الاساسية ـ لا يمكن ان يتم ما لم تحل في نفس الوقت مشاكل الاعلام وما يترتب عليها من حاجات . وتعتبر هذه النظرة كبيرة الاهمية بالنسبة لمنظمات اليونسكو حيث يعتبر الاعلام ـ اذا ما اخذ بأسلوب [illegible] ـ لا يحقق من برنامج تحقيق اهدافها في مجالات التربية والعلوم والثقافة .

اولا ـ البنى القائمة : من الاعلام التقليدي الى الاعلام على النطاق العالمي

19 ـ يتخذ الاعلام الاجتماعي اشكالا مختلفة . فمنها ما يسري فيما بين الافراد ومنها ما تنظمه مؤسسات : وبعضها يتم بطرق مباشرة ، والبعض الآخر يعتمد على استعمال وسائل الاعلام ، وقسم منها ينتج عن التعبير العفوي الصادر عن الافراد او الجماعات وقسم آخر ينظمه عن وعي وقصد الافراد او الجماعات او اصحاب السلطة بمختلف اشكالها ومظاهرها.

1 ـ وسائل الاعلام التقليدية ووسائل الاتصال بين الافراد

20 ـ يحتفظ الاعلام التقليدي في اغلب البلاد النامية بأهميته وخصوبته . ويلعب دورا هاما كاطار محافظ وعامل تنمية يربط الفرد بالمجموعة . وهو يشكل في الوقت نفسه في تلك البلاد نظاما حقيقيا ذا اساس ثقافي للتعليم والتدريب . وبسبب الظروف المؤاتية لتاثير التقاليد والمحبذة للمجتمعات الصغيرة وكذلك بسبب استمرار الامية ، فان الوسيلة المفضلة للتعليم والاعلام تبقى الكلمة او التمثيل المسرحي او المثل الذي يحتذى .

21 ـ ويوجد في معظم البلاد النامية خليط من الاعلام التقليدي والاعلام الحديث يجري بينهما التفاعل والتأثير المتبادل بشكل دائم وتجدر المحافظة على وجودهما معا وعلى علاقاتهما المتبادلة . ويمكن استخلاص نتائج كثيرة من هذه الاوضاع ومن التجارب الخاصة بالبلاد النامية . ورغم ان الطرق التقليدية للاعلام تغلب في المناطق الزراعية والمنعزلة الا انها توجد ايضا بأشكال مختلفة في الاوساط الحضرية ، ففي المجتمعات الافريقية مثلا يمكن تقديم مختلف انشطة الحياة اليومية والمبتدعات الثقافية عن طريق الكلمة والطبل والرقص والخطب او عن طريق المنادي او الراوي او الساحر وخاصة في القرى وان كانت تشكل ايضا جزءا من الحياة الحضرية وتؤثر على الراديو واحيانا على التلفزيون وانتاج الافلام ، وهكذا الامر ايضا في بقاع اخرى من آسيا وامريكا اللاتينية ، غير ان التقدم التقني الكاسح في سبيله الى تغيير هذه الصورة الاجتماعية الثقافية وتمزيقها . فمن اهم المشاكل التي تعترض هذه المجتمعات اليوم مشكلة ايجاد علاقة متينة بين شكلي الاعلام هذه بحيث يمكن معها المحافظة على التقاليد ومسايرة اتجاهات التحديث الضرورية في الوقت نفسه .

22 ـ اليس ثمة درس يمكن استخلاصه من تجربة النظام التقليدي للاعلام لدى تطوير وسائل الاعلام الحديثة في المستقبل ؟ ولماذا اغفل هذا الدرس او لماذا اهمل ؟ وكيف يمكن ان نسترشد اليوم بكل ما تقدمه لنا التقاليد من مواد صالحة ونتعمق في دراسة معانيها ونتائجها؟ اما بالنسبة للمتناقضات الجديدة التي تظهر في المجتمعات التقليدية فهل فات الاوان لمناهضة تيار قد يؤدي الى الفوضى الاجتماعية والاغتراب الثقافي ؟

23 ـ لقد استعملت الطرق التقليدية في الاعلام كثيرا خارج نطاقها المعتاد وذلك بمناسبة بعض الاحداث التي جرت في الحياة السياسية والاجتماعية لكثير من البلاد النامية . هذا ما حدث مثلا في الهند أثناء المسيرة الطويلة للحركة الغاندية وكذلك اثناء الثورة الثقافية في الصين. كما ساهمت هذه الطرق ايضا في عمليات الدمج السياسي او الثقافي في بلاد اخرى مثل بيرو وتانزانيا وغيرها . وقد لعبت هذه الطرق ولا يزال بامكانها ان تلعب دورا اكبر من الذي اعترف به عادة . ومن الممكن استخلاص عدد من الدروس الملائمة من حيث الادوات والمنهجيات.

24 ـ ولا يزال في الدول المتقدمة بقايا متفاوتة من طرق الاعلام التقليدية . وتوجد امثلة نادرة منها باشكالها الاصلية في الاماكن المنعزلة . ولكنها موجودة في الاساطير والفولكلور حيث تعود كثيرا الى الظهور في اطار حديث . فالمسرح وخاصة المسرح الشعبي ، هوالوسيلة التي تحافظ على بقايا الاعلام التقليدي.

وكذلك فان الفنون المسرحية التي تلعب دورا ثقافيا وترفيهيا تنقل رسالات ذات مغزى اجتماعي .. وفي بعض البلاد حيث لم تصل بعد وسائل الاعلام الى درجة كافية من التطور فان فرق الغناء والرقص والمسرح المتنقلة ومسارح العرائس وغيرها من « الوسائل الفولكلورية » تظهر بالفعل كاداة اساسية للاعلام . ففي المسرحيات التقليدية تنقل المعلومات وتنتشر الافكار التي تهدف في آن واحد الى تسلية الناس والتأثير على تصرفاتهم وسلوكهم .وكذا الامر فيما يتعلق بنشاطات الرياضة والالعاب في المعارض والكرنفالات وبعض الاعيادالشعبية. وتنتمي هذه النشاطات وغيرها من اشكال التجمعات العامة الى العديد من طرق الاعلام التي تواصل تادية دورها الهام في الحياة الحديثة حتى وان تضاءل مضمونها الثقافي ولم يعترف لاصحابها بما لهم من فضل . وتجدر الاشارة هنا الى العدد المتزايد من المهرجانات التي تنظم كل عام والتي تجذب آلاف الاشخاص ـ بل احيانا مئات الآلاف ـ كمهرجانات الموسيقى والمسرح والسينما والرياضة والتي تساهم ، بفضل سمعتها الوطنية او الاقليمية اوالدولية، في رقي الافكار والمواقف الثقافية . وثمة مهرجانات ومظاهرات للكشافة تنظمها الاحزاب السياسية او جمعيات اخرى فتتعدى شهرتها احيانا الحدود المحلية او الوطنية وهي تشكل امثلة اخرى للاعلام المؤدي الى خلق التفاعل الذي يعتبره الكثيرون مثال الاعلام الانساني . كما توجد ايضا قنوات اخرى للاعلام بين الافراد كالكنائس والاسواق والنوادي الترفيهية مثلا.

25 ـ وهناك جانب آخر من جوانب الاعلام يتمثل في المؤتمرات والاجتماعات التي تعقد على كل المستويات سواء بواسطة هيئات حكومية وغير حكومية او تنظيمات التجارة والاعمال او رابطات مهنية . واذا ما اردنا اعطاء مثل واحد لاهمية هذه الانشطة فقد قدر انه ، في كل عام، يشترك في المؤتمرات الدولية مليونان من العلماء والفنيين والاخصائيين . واذا اضفنا عدد المشتركين في الاجتماعات الوطنية والاقليمية فان العدد الاجمالي قد يربو على خمسة ملايين من الاشخاص .

وتقوم بضعة ملايين من النوادي والجمعيات من كل نوع في جميع البلاد بتنظيم اجتماعات يتم فيها تبادل وجهات النظر حول الشؤون الاجتماعية (على شكل تقارير وتصريحات ومناقشات ومناظرات) وتستطيع هذه المبادلات ان تبرز مختلف المطالب وان تساهم في حل كثير من المنازعات وان تشجع على خلق جو من التفاهم يساعد على اتخاذ القرارات حول المشكلات المشتركة . ويرتكز نظام التعليم التقليدي من جهة على هذا النوع من الاتصال المباشر بين الافراد . وكذلك الحال ايضا بالنسبة لاشكال اخرى من تعليم الكبار سواء تعليمهم القراءة او حتى تدريبهم على مهنة معينة ويعتمد هذا النوع الاخير من التدريب في كثير من البلاد على شبكة العاملين في تبسيط المعارف الذين يبقون على اتصال مباشر مع الجماعات الزراعية لارشادهم في الاعمال الزراعية وفي ميدان الصحة وتنظيم الاسرة والتغذية والاقتصاد المنزلي الخ .. وتمارس اشكال الاعلام بين الافراد بشكل متواصل في شتى انواع نشاطات التنمية . وثمة طريقة لتشجيع وانعاش هذا النوع من الاعلام تقضي باستعمال وسائل الاعلام (الزراعة والصحف المحلية والتلفزيون بالكابل والمسجلات السمعية والبصرية وصحف الحائط الخ ..) وهذه الوسائل تساعد المجموعات المختلفة على التعبير عن ذاتها . وهذا يتطلب استعمال الوسائل الحديثة على نطاق ضيق يؤلف بين محاسن الاساليب التقنية وبين مزايا الروابط الوثيقة في البيئة الانسانية .

26 ـ وتجري ممارسة جزء كبير من الاعلام عبر الاشخاص بشكل عفوي او منظم بطريقة شفهية بين الافراد انفسهم وخاصة وسط العائلات او المجموعات المحلية او التجمعات المهنية . ومن الطبيعي ان يهتم المسؤولون عن اتخاذ القرارات والمهنيون بهذه الممارسة وذلك لسببين . اولا لانها تستطيع ان تلعب دورا هاما في التأثير على موقف الجماهير أو في توعية الراي العام . وهذا ما يجري عادة في بعض الاوضاع العصيبة او الاستثنائية أو في فترات التحضير لادخال التغييرات السياسية او الاجتماعية الكبرى : كالحملات الانتخابية والاصلاح الزراعي والاضطرابات الدينية وكالتجارب السوفيتية اثناء الحرب العالمية الثانية ومحاولات التعايش الجماعي التي جرت في عدد من البلاد الصناعية ، وكالكفاح ضد التعصب العنصري . وثانيا لانه توجد ، او على الاقل يجب ان توجد ، علاقة متينة بين الاعلام المباشر بين الافراد والاعلام عن طريق وسيط معين . ذلك ان تأثير وسائل الاعلام يغدو موجها او معززا او معدلا بالنشاط الصادر عن الاعلام بين الافراد وهو اعلام عفوي او منظم . وقد لاحظ اخصائيو العلوم الاجتماعية في كثير من الحالات انه يمكن ان يكون لوسائل الاعلام تأثير كبير في توسيع المدارك ولكن عندما يكون الهدف هو تغيير المواقف فان تأثير الاعلام المباشر بين الافراد يبدو اكثر فعالية . وبتعبير آخر فانه يمكن للمسؤولين عن اتخاذ القرارات وللمخططين ان يهتموا بما يؤكده البعض من انه اذا اريد للاعلام ان يبقى في المستوى الانساني فانه يستحسن ان يستلهم من الماضي ومن الحاضر لكي يتسنى الجمع المثمر بين مزايا الاتصال المباشر بين الناس ومحاسن التقدم التقني .

27 ـ ويجب ان يراعى فيه معالجة القضايا السياسية الخاصة بالاعلام المدى الذي ينبغي ان تذهب اليه في تنظيم وسائل الاتصال بين الافراد ودمجها مع بقية وسائل الجهاز الاعلامي . واذا كان من الضروري استخدام قوى الوسائل الاعلامية بأجمعها للمساهمة في تقدم العمل الاجتماعي والثقافي والسياسي ، فيتحتم علينا تحديد وسيلة لتنظيم الروابط فيما بين القنوات المختلفة وفيما بين مقدمي الاعلام وتدريب مجموعة العاملين في الميدان والاطر التي ستستخدم هؤلاء العاملين .ويجب ايضا الاتفاق على التعليمات التي سوف تعطى لهم وايجاد اجهزة للاسترشاد بآراء المنتفعين بالاعلام وروابط بين شبكات الاتصال بين الافراد وبين وسائل الاعلام العامة . وتعتبر هذه النقطة الاخيرة اساسية اذ ان غالبية الابحاث تشير الى ان الاتصال بين الافراد يجب ان يصاحب الرسائل التي تقدمها وسائل الاعلام العامة كي تكون الجهود المبذولة لاستخدام الوسائل العامة بهدف اجتماعي جهودا فعالة لها اكبر التأثير .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العام الدولي للطفل

فنون الكتابة الأدبية للاطفال

1 ـ مقدمة

اصبح من المعروف الآن ان ثقافة الطفل بدات تأخذ حيزا متناميا من الاهتمام في اكثر من قطر عربي ، واذا كان لهذا الاهتمام جذورتعود الى نهاية القرن التاسع عشر ، فان القفزة الجديدة بعد الستينات اشرت بقوة توجها جادا نحو خلق ادب للطفل خاضع لجملة من التقنيات الحديثة في الكتابة ، اضافة الى الشعور بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا لزرع المفاهيم والمثل الانسانية في الطفل العربي ، واذكاء روح حبه لوطنه العربي وآلامه وآماله ، واذا كانت هذه الجهود ما زالت تجريبية في الغالب الا ان بعض هذه المحاولات قد اخذت قدرا كبيرا من القيمة الفنية والخطورة الفكرية سلباام ايجابا ،واصبح لزاما علينا ان نضع تلك التجارب نصب اعيننا، للافادة والاضافة ، وللنقد والمحاورة ، من اجل دفع عجلة الكتابة للطفل .. هذا الامل الكبير .

2 ـ عالم الطفل

وقبل البدء في القاء الضوء على الفنون الادبية للطفل يجدر ان نتعرف ولو بشكل سريع الى الاسس الاولى لهذه الكتابة ، واعني بذلك عالم الطفولة ، لانها الارضية التي تستقر فيها توجيهات تلك الانواع الادبية المختلفة .

ان جمهور الاطفال يشكل دائما مايقارب من ثلث مجموع اي مجتمع ، ومن خلال ذلك يمكننا ان نتعرف الى مدى اتساع هذا الجمهور من جهة ، وخطورة ما يقدم اليه من كتابة من جهة اخرى ، مما يؤثر بالتالي على التطور العام للقوى البشرية الاجتماعية ..

« فاذا لم تتطور نفسية القوة البشرية وروحها وقوة احتمالها ، فانها لن تستطيع احراز اي تقدم سواء من الناحية المادية او الاقتصادية او السياسية او الثقافية او التعليمية »(1) .

ولعل من اهم عوامل ذلك التطور هو الطفولة بما تحمله من قدرات اولى للابتكار والتعامل الانساني والعلمي و « مما يساعد على تحقيق ذلك ان يؤمن القائمون على شؤون الصحافة المخصصة للاطفال بوجه خاص بان من اهم الاهداف التي يسعون اليها معاونة الاطفال على تكوين الاتجاهات الاجتماعيةالسليمة واعتياد السلوك الطيب»(2) . وهذا الطريق الشائك من تحصيل القدرة على الكتابة للطفل لا بد له من فهم علمي للطفولة من الناحية النفسية ، فالطفل خاضع لوعي متدرج بالحياة تبعا لمدى مداركه الطبيعية التي تتنامى مع الايام .

فعالم الطفل عالم الدهشة الاولى فيمعرفة الوجود والناس و « لا يوجد بالنسبة الىالطفل شيء عادي للغاية او تافه للغاية بحيث لا يختبره او يستكشفه او يسال عنه »(3) .

فهو باحث دائما ومسؤول لا يمل ، يفهم العالم انه ملكه وان في امكانه ان يتعامل او يتخاطب مع اكثر الموجودات ، ان لم نقل كلها، ومثال فيلبس هسلر معروف لدى الجميع عندما يسجل قول احد الاطفال : « ان الشمس ترتفع في السماء من اجلي انا »(4) وكم من الاطفال يحاولون الامساك بالقمر ، او يتحدثون مع الدمية او الكتاب .

وتمر مرحلة صعبة نحاول فيها افهام الطفلان الحياة مستقلة عنه ، وليستخاضعة لرغباته بكل سهولة ، لذلك « ينبغي ان يتعلم الطفل منذ وقت مبكر جدا ان الامور لا يمكن ان تسير وفق هواه ، من ثم وجب الا نعطيهكل ما يطلب او يريد ، اذ لا بد له ان يتعود اغفال بعض رغباته ، وان يتعود العطاء وهو يود لو يأخذ »(5) .

وصفة الطفولة الهامة هي النمو السريع ، النمو الجسدي والعقلي معا فالاختلاف كبير بين سن الرابعة مثلا والعاشرة وما بعدها بقليل، وتمر هذه الاختلافات بسلسلة من التفاعلات الدقيقة للعضوية والنفسية بتأثير الآخرين والبيئة(6) .

ان الطفولة تحتفظ بالكثير من الخصائص التي يجب مراعاتها والتعامل معها بدقة ، فعفوية الطفل وبراءته وحسن الاستكشاف وقدرة التخييل لديه ، كل هذا يجعلنا نعامله من منظارين ، منظار مراقبته وتوجيهه بيسر وعناية ، ومنظار الحرية في فهمه وتعبيره ،حتى لا نكثف حس القمع عنده « ان اي ضغط من جهة الكبار والمشرفين على تربية الطفل يحول دون التعبيرعنمشاعره، وفي هذه الحالات يحاول الطفل ان يعبر عن مشاعره التي كبحها بشكل مقنع كالاغراق في احلام اليقظةوالعدوان والكذب »(7) .

ويكاد يجمع المختصون ان العوامل التي تساعد على دفع الطفل للتكامل والتوازن في الحياة هي :

1 ـ تعلم المهارات الجسمية .

2 ـ واكتساب اتجاه سليم نحو الذات .

3 ـ وتعلم الدور الذي يليق بالجنس الذي ينتمي اليه الفرد .

4 ـ تعلم المهارات الاساسية في القراءة والكتابة والحساب .

5 ـ وتعلم المهارات اللازمة لشؤون الحياة اليومية .

6 ـ وتكوين الضمير ومعايير الاخلاق والقيم .

7 ـ وتعلم التعامل مع رفاق السن(8) .

8 ـ وتنمية حس التخييل لديه .

وهذه العوامل لابد من ارضية تستند اليها ، وهي الوضع الاقتصادي لاسرة الطفل ، فهذه المواصفات لا تتكاملفي اطفال الفقراءجدا، او الاغنياء جدا ، ان هذا العرض القصير بمثابة ملامح سريعة للطفل من خلال قدرته النفسية ومن الهام جدا ان يلم بها الكاتب حتى يفهمهذا الجمهور الذي يخاطبه .

3 ـ اللغة والطفل

تخضع اللغة عند الطفل لحدود نموه الطبيعي والنفسي ، وينمو لديه الحس اللغوي تبعا لمدى علاقته مع وسطه ، والطفل يبدأ بنطق حروف معينة سهلة في البدايةكحرفالباء والميم ثم يتعلم ان يقول بابا وماما ودادا .. ثم نعلمه اصطلاحات خاصة به فنقول له « أو » او « واوا» لتحذيره ، والحيوانات قد تجمعها عنده لفظة « قوقو » ثم يتعلم تسميات الاشياء، فهذه سيارة وتلك كاس وهذه كرسي الخ .. ثم يستخدم الطفل الضمائر بتعثر كبير ومضحك في اغلب الاحيان ، ومنذ سن الخامسة تقريبا يتعلم الاستخدام الصحيح للضمائر والاسماء لكنه يظل يعاني من صعوبة نطق بعض الكلمات او الحروف .. فالكاف قد يلفظها تاء والراء لاما ، وفي السادسة غالبا يدخل عالم اللغة بشكل سليم من ناحية الاوليات وبعدها يبدأ يفهم اللغة تدريجيا ويظل لخمس او ست سنوات خاضعا لحد معين من قدرة التعبير وفهم اللغة(9) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والجمهور القاريء من الاطفال يتطلب من الكاتب استخداما ذكيا للكلمة والجملة ، فاعتقد انكم تلاحظون ان الطفل لا يفهم غالبا الفعل المبني للمجهول ، او المفعول لاجله او معه وهكذا .. لذلك لابد من عناية لغوية خاصة ، واستخدام مدروس للجمل ، والتوفر على قاموس من الكلمات خاص بالطفل . وهذا لا يعني عدم وضع كلمات جميلة على الطفل ان يسأل عن معناها .. وبعدها سيحب هذه الكلمات التي تعلمها .

وقد تأكدت سلامة الاسلوب الذي يخاطب الاطفال وفق المواصفات التالية :

1 ـ التكرار .

2 ـ محاكاة الاصوات .

3 ـ الجملة القصيرة .

4 ـ العناية باستعمال الضمير واجتنابه في غالب الاحيان .

5 ـ الكلمة سهلة خارج الحروف .

6 ـ الكلمة المفهومة لدى الطفل .

7 ـ جعل اللغة مستوحاة من عالم الطفل .

8 ـ استخدام الافعال في الجملة حتى يتعود الطفل على دلالة الحركة الزمنية في اللغة .

9 ـ استخدام اسلوب الطلب للتشويق .

10ـ الابتعاد عن المجازات والاستعارات والكنايات ما أمكن .

4 ـ شعر الاطفال

الشاعر الراحل احمد شوقي جدد في مسائل ادبية كثيرة ، ولعل اهمها كتابته الشعر للاطفال ، ففي الجزء الرابع من الشوقيات أفرد قسما خاصا اسماه « ديوان الاطفال »(10). فنجح قليلا ، واخفق كثيرا ، لكنه شق ارضا بكرا ، اضافة الى محاولات كثيرين مثل كامل الكيلاني(11) والهراوي وعثمان جلال ، وهذا النص نقراه نموذجا من تلك النماذج :

قد لبس الحمار جلد السبع
فانتفخت اجنابه بالطبع
وراح في اروقة المدينة
يزار مثل الليث في العرينة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فنظرته من خباها الناس
وغرها الهيبة واللباس
وفزعوا منه وسدوا الدورا
واغلقوا في وجهه القصورا
وبينما الحمار في منتاه
اذ ظهرت للناس اذناه
ووقعوا ضربا به وقالوا
بمثل هذا تضرب الامثال

وكثيرا ما كتب شعراء كبار او اساتذة جامعيون قصائد لغرض تعليمي وبعضها جميل وناجح .

لكن القفزة النوعية الثانية في شعر الاطفال بداها الشاعر المعروف سليمان العيسى بعد نكسة حزيران ، وذلك لان العيسى أعطى كما ونوعا متميزا في هذا المجال وسمعنا وما زلنا نسمع باصوات بارزة في هذا اللون من الشعر.

ومن خلال التجارب الموجودة الآن ، يمكننا استعراض الانجازات الفنية في شعر الاطفال ، وتبيان التصورات المفيدة لما يجب ان يتوفر في هذا الشعر مستقبلا .

واذا كان شعر شوقي فتحا في الانواع الادبية لدينا ، فان شعر العيسى كان فتحا في مجال كتابته التي كانت اكثر مراعاة ودراسة في توجهها ولغتها ، رغم بعض النبرات الصاخبة والتعبيرات العصية على الطفل لدى شاعرنا ، غير ان هذا لم يمنع دون ان يقدم لنا العيسى عشرات القصائد الممتازة للاطفال وبتوجه صادق يحمل عذوبة الطفولة وبراءتها ، وما نريده من الطفل العربي على صعيد الوعي القومي والاشتراكي .

ففي احدى قصائده يقول العيسى :

القبلة الاولى من الصباح
لجبهة الفلاح لساعد الفلاح
للساعد المفتول تحية الحقول
تعطيه ما يشاء من ثمر
من غلة كدفقة المطر
وتضحك البلاد لموسم الحصاد
ويسعد البشر(12)

ويمكنني ان اوجز المعطيات الاولى لشعر الاطفال في النقاط التالية :

1 ـ اللغة الواضحة : والمقصود من ذلك تقديم نص للصغير بلغة عالمه المحدود لغويا ، وبناء على ذلك لا يمكن ان نقدم الكلمات الجميلة والجديدة على قاموسه اللغوي ، ومن مستلزمات اللغة الواضحة ايضا عدم الاكثار من الاستعارات والمجازات والكنايات ، لان الطفل غالبا لا يستطيع فهم التجريد في الصورة الشعرية ، وامر هام آخر يتعلق بتركيب الجملة ذاتها ، فان التقديم والتاخير واسلوب الجملة الاعتراضية تصعب على الطفل ، وتفسد عليه استمتاعه بالنص ، ولا يمكن بالتالي التعامل مع الجملة تعاملا عاديا ، فالفعل المبني للمجهول وغيره واساليب لغوية اخرى تفسر شرط وضوح اللغة لديه .

2 ـ الوزن الخفيف : فالطفل يميل الى الشعر المكتوب بوزن خفيف قد لا يزيد على تفعيلتين او ثلاث ، لان طول المقطع يخل بالغنائية الخاصة بالاطفال ، هذه الغنائية التي يميلون اليها كثيرا .. وما زلت اتذكر عذوبة نص كنا نعجب كثيرا ونحن اطفال ومنه :

كلبي كلبي يمشي جنبي
لا ينساني بل يلقاني الخ

وكما يقول سليمان العيسى :

ارسم علمي فوق القمم
انـا فنـان

او نص شعري جميل قراناه يوما يقول :

دوري دوري كالعصفور
هيـا ارتاحي فوق الدور الخ..

ان هذا الشرط اساس اولي في شعر الاطفال يتفنن الشعراء في تطويعه لاغراض كثيرة رغم الصعوبات اللغوية التي يفرضها .

3 ـ تكرار النغمة : اذ نلاحظ ان الطفل كثيرا ما يتعلق بالنص الذي يحوي انغاما راقصة مكررة ، وهذه الناحية مغفلة من نتاجات كثيرين .. على الرغم من الاهمية الكبيرة لهذا الاسلوب ، فالجملة التي تقابل جملة تماثلها تقريبا في الحروف فتصبح اعلق بذهن الطفل واكثر مجالا لديه لانها بذلك تقربه من الغناء وتسهل عليه الحفظ . وبالتالي تحقق النجاح المطلوب ومن هذا ايضا ان يقوم الشاعر بتكرار جملة معينة او كلمة او محاكاة ما لاحد الاصوات .

4 ـ القصصية في القصيدة : وهنا لا اقصد القصصية بمعناها الواسع وانما اردت من ذلك تلك الحركة في الحدث عبر القصيدة، وذلك الحوار والسؤال والاستفهام والطلب والجواب والنهاية في القصيدة فهذا يجعل النص مشوقا اكثر عند الطفل .

5 ـ محاكاة بعض الاصوات : وهذا مما يجب العناية به جدا ، واقصد من فعل المحاكاة ذلك التقليد الجميل لاصوات الحيوانات او المطر او العطس او التعجب الخ ... انها تسر الطفل لانها تضحكه وتحاكي عالمه بل وعادته المعروفة في محاكاة مثل هذه الافعال فكثيرا ما نلاحظ حسن التقليد عند الصغار .. انهم في العابهم يقومون بمحاكاة اصوات السيارة او الكبار ، او الريح الخ ..

وعلى الشاعر الاستفادة من ذلك ..

6 ـ الواقعية : واقصد بهذا الاصطلاح استلهام الحياة الحقيقية للاطفال في الشعر ، فكثيرا ما تطالعنا نصوص تحوي فيما تحويه افكارا وتصرفات غريبة عن عالم الاطفال، ولا تمت لرغباتهم واسلوب تعاملهم باية صلة ، فالصغير مثلا لا يفهم السياسة كما نفهمها نحن ولا يفهم الوطن كما نفهمه نحن، انما عندما نحاول ان نضمن هذه المعاني في الشعر ونستخدم اشياء بسيطة مستمدة من رغبات وحاجات الطفل لنعطي من خلالها وصفة .. ولا اقول اكثر من ذلك .. حتى يبدأ الصغير بتحسس او اختزان معنى الوطن على سبيل المثال .. كأن نقول له ان من يحب مدرسته يحب بلاده ، ومن لا يوسخ شارعا يشارك في بناء بلده الخ ..

اضافة الى ذلك يجدر بنا ان نستفيد بل ان ننطلق من بيئة الطفل الصغيرة فنكتب لها ، لا ان نستمر في التحدث معه من فوق فنكتب عن العابه ودفاتره وكتبه واصدقائه .. ونكتب عما يحبه الطفل من شتاء وثلج وقمر وحيوانات وغير ذلك .. عائدين باذهاننا الى طفولتنا ومنتبهين جيدا الى اطفالنا .

5 ـ قصة الاطفال

لست هنا بصدد اعطاء لمحة تاريخية مفصلة عما كتب للطفل من قصص في الوطن العربي ، لكنني سأشير الى ابرز ملامح ذلك .

وقبلها لابد ان نوجه اربعة انتقادات كبيرة الى ما كتب للاطفال في المراحل السابقة :

1 ـ لقد امتلأت القصص بحس خرافي .

2 ـ لم تمتلك التوجه الفكري الرصين في الغالب

3 ـ وقعت في سردية مملة لا تقيم وزنا لحجم النص ودقة الكلام .

4 ـ لم تراع تلك القصص الاسلوب الواضح، فقد كتبت بلغة صعبة(13) .

وان القاريء لقصص كامل الكيلاني ومحمد عطية الابراشي ومحمد سعيد العريان(13) ، يجد هذه النواقص وقد تمثلت بقوة ، ولكن يجب الا ننسى انهم كانوا الرواد في مجالهم ، والمجرب الاول لابد ان يكون كثير الاخطاء . ويشمخ كامل الكيلاني بمكتبة كبيرة قائمة بذاتها عمل لها بحب واخلاص ، ندر ان تتوفر في نفس غيره، فكان بحق رائد قصة الطفل العربي . وقد حققت مجلة السندباد وبساط الريح بعض الخدمات الجيدة لهذا الفن ، ورغم الانجازات الطيبة التي تحققت على ايدي اكثر من كاتب عربي ، لكن المطلوب ما يزال كبيرا ، والكثير من المنشور الآن مخيب للامال .

ومن المفيد هنا ان نعود الى حوار قديم جديد ، ماذا نريد من قصة الاطفال ان تقدم ؟ والى اي حد نسمح للاسلوب ان يتطور فيها ؟ ان النماذج المكتملة طرحت علينا اكثر من سؤال: فهناك من كتبوا القصة التي لا تتجاوز عدة اسطر مقابل قصص بعشرات السطور ، فاي الشكلين اصلح ؟ ما تزال لغة القصص موضع نقاش ، فهناك من يوظف اللغة بدرجة من الشاعرية عالية ، ويؤدي غرضه باشكال حالمة شفافة وغامضة بعض الشيء ، وهناك من يميل الى الوضوح التام والفكرة المركزة المحددة، فاي الاتجاهين اصح وايهما في خدمة تطور هذا الفن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اكثر !.

وهنايقع اختلاف رئيسي حول وعيالطفل نفسه ، فهناك من يرى الطفل عالما جميلا لديه القدرة العالية على فهم الخيال والتاملات ، وآخر يرىفي ذلك خطرا محدقا بالطفل،وابتمادا متعمدا عن ايصال المعاني التي نريدها بوضوح اليه ..

ان اشكالات كهذه واقعة ، وسيظل الصراع حولها ممتدا ، لكن المفيد ان نوضح زوايا هذه الاشكالات ، وناخذها بالنقد السريع من اجل اجراء حوار جاد حول ذلك ..

الحقيقة ان النظرة الى قصة الطفل تخضع لعوامل كثيرة منها الرؤية الفلسفية التي يحملها الكاتب نحو الطفل وكذلك ميلهالشخصي الى الشفافية او المباشرة .. وكذلك امكانية الكاتب اللغوية .. وليس لقصة الطفل برايي شكل محدد ، انها دائما حصيلة لمدى فنية الكاتب مع المادة ، على الا تؤدي هذه الفنية الى قطع الجسور الواصلة مع الاطفال ..

فقد يحتاج الموضوع الى المباشرة او الشفافية ، او التعبير الحالم او الاسطوري .. كذلك حجم القصة لابد ان يتاثر تبعا للموضوع بين قصة تشبه الومضة الجميلة واخرىتحوي حدثا سرديا واقعيا الخ ..

لكن لا يجب ان ننسى ميل الطفل الى المادة القصيرة المركزة التي لا تحوي حشوا واستطرادات في الكلام .

وقصة الطفل ليست كتابة طارئة او هامشية بل هي عمل ادبي له مواصفات اي ابداع ادبي آخر ، تطلب منه الدقة اللغوية والبراعة في الاسلوب والارضية الثابتة للحدث.

ولنا امثلة بارزة جدا لقصة الاطفال المتازة ممثلة بنتاجات زكريا ثامر وعبدالله عبد .. وتجارب جيدة لرشاد ابو شاور وفتحية كنونة ومحمد ابراهيم بو علو وايوب منصور ودلال حاتم وعبدالتواب يوسف وعادل ابو شنب ، الى جانب التجارب المبشرة لدى كثيرين من كتاب فلسطين ولبنان وسوريا والعراق حسب ما استعلمت ان اعلم .

6 ـ صحافة الاطفال

سمعنا كثيرا من يعد صحافة الاطفال ضمن مصطلح ادب الاطفال ، وقبل ان نرد على هذا القول يجب ان نناقش الامر، لنرى بعد ذلك وجهة النظر الاقرب الى الموضوعية .

وقبل كل شيء اعود فاؤكد ان ادبالاطفال لا ينفصل عن اي فن ادبي آخر فشاعر الاطفال يكون شاعرا للكبار وعلى الاقل عالما بفن الشعر وعوالمه واساليبه ، والقصاص يمتلك زمام القصة كفن قبل كل شيء .. والسيناريو ايضا يدخل ضمن العملية الابداعية الخالصة ..

اما صحافة الاطفال فهي امر يختلف تماما ، ففيها العلوم والفنون والرياضة وغير ذلك من الابواب .. فهل يصح ان نعد هذا ادبا .. صحيح ان كاتب الاطفال الناجح صحفي ناجح لهم ، كما يكون كاتب الكبار صحفيا ناجحا ايضا ..

بل ان هناك اموا كثيرة في صحافة الاطفال لا [illegible] اي كاتب [illegible] كالمواد العلمية مثلا او التسلية او الرياضة ..

بينما ينجح كاتب الاطفال في صفحات الردود على جمهور الاطفال واستفساراته والمواد الادبية المكتوبة له .. ونقد نتاجات قرائه .

ولا يشكل ادب الاطفال بالنسبة الى صحافتهم الا فرعا قليلا ، فهو باب من ابواب الحيز المتاح للمواد الموجهة الى الصغار .

ومن خلال رؤية عامة الى ذوق جمهور الاطفال ، نجد انهم يميلون الى ما يلي(14) :

1 ـ المواضيع الساخرة بالدرجة الاولى . الاولى .

2 ـ المواضيع الخيالية والاسطورية التيتحوي روح المغامرة ، تستأثر بالدرجة الثانية .

3 ـ نتاجات الاطفال ومناقشة استفساراتهم تاتي في الدرجة الثالثة .

4 ـ ويهتمون رابعا بالموضوعات العلمية ويميلون خصوصا الى الغريب والطريف منها .

5 ـ تاتي موضوعات اخرى كثيرة فيما بعد .

اما النواحي السياسية فاذا ما قام واحدنابعدة تجارب لاستكشاف الرايالصحيح حول ذلك سيجد ان الطفل مرتبك الفهم امام السياسة ولا تمسه الا من زوايا خفيفة قلما نستطيع ايصالها اليه .. نظرا لان السياسة نفسها تحتاج اوليات ليست متشكلة في وعي الطفل وهذا امر هام ايضا لاجراء الحوار حوله.

ولا بد ان نذكر اهم التجارب الصحفية العربية مبتدئين بالمجلة الاسبوعية الهامة « السندباد » التي اصدرتها دار المعارف في مصر عام 1952 ثم « بساط الريح » اللبنانية ومنذ عدة سنوات وصلتنا مجلات لا باس بها مثل « اسامة » السورية و « مجلتي والمزمار» العراقية .. ونتمنى ان تنشط صحافة الاطفال في الوطن العربي حتى نعطي للجيل القادمالطاقات الروحية القادرة على صنع الشخصية القومية .

بيان الصفدي

هوامش :

1 ـ صحافة الاطفال / دكتور سامي عزيز ، صفحة 15 .

2 ـ نفس المصدر ، صفحة 17 .

3 ـ عالم الطفل / تاليف فيلبس هسلر ترجمة رمزي يسي صفحة 60 .

4 ـ نفس المصدر ، صفحة 47 .

5 ـ مشكلات الاطفال اليومية/تاليف دجلاس توم ترجمة د. اسحق رمزي ، صفحة 52 .

6 ـ للاستزادة يحسن الرجوع الى « سيكولوجية الطفولة والمراهقة » للدكتور مصطفى فهمي .

7 ـ سيكولوجية الطفولة والمراهقة / للدكتور مصطفى فهمي صفحة 92 .

8 ـ نفس المصدر ، الصفحات 198 ـ 199 ـ 200 .

9 ـ ارتقاء اللغة عند الطفل / د . صالح الشماع .

10ـ الشوقيات / احمد شوقي .

11ـ كامل الكيلاني/عبدالغني البدوي .

12ـ ديوان الاطفال/للشاعر سليمان العيسى .

13ـ لهؤلاء اعمال كاملة ، صادرة عن دار المعارف فيمصر.

14ـ هذه الاستنتاجات مأخوذة من تجربتي مع رسائل الاطفال اثناء عملي في مجلتي والمزمار .

ملاحظة : استفدت من البحوثالمقدمة عن ادب الاطفال الى مؤتمر اتحاد الادباء العرب في الجزائر عام 1975 .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

كيف نتغلب على رعب السرطان

■ بامكان حملات الدعاية عن انجازات الطب المعاصر في ميدان مكافحة السرطان ان تلعب دورا مهما في النضال ضد هذا المرض الخبيث .

هذا ما يقرره عالم سويدي مشهور يراس معهد العلاج بالراديو في ستوكهولم الذي يتحدث هنا عن رأيه هذا للصحفيين .

■ لماذا نخاف الى هذه الدرجة امراض السرطان بالذات ؟

ــ لقد فكرت بذلك كثيرا . ان جميع المرضى تقريبا يخافون من هذه الامراض . هذا بينما توجد امراض اخرى تكون امكانات علاجها اسوء من امكانات علاج السرطان ، وعلى سبيل المثال امراض القلب والشرايين والكليتين واضطراب الجهاز العصبي .

اننا نستطيع اليوم علاج حوالي 40٪ من امراض السرطان . اما اولئك الذين نعجز عن شفائهم ، فاننا نقدم لهم المساعدة لكي يعيشوا فترة طويلة حياة متكاملة .

انني افترض مع ذلك وجود اساس يدعو الى الرعب من السرطان . فقبل 50 ــ 60 عاما لم يكن بالمستطاع شفاء سوى عدد قليل جدا من المصابين بهذا المرض . ففي ذلك الوقت كان تشخيص السرطان يعني الموت بدون ان يتدخل الطب .

لست اريد ان انفي كون السرطان هو من الامراض الخبيثة التي تؤدي الى مضاعفات خطيرة . ورغم ذلك ، فانه ليس الا مرضا من بين امراض كثيرة اخرى .

سل القرن العشرين

من الضروري ان نعمل على انقشاع الضباب الغيبي الذي يلف السرطان . ولا بد لنا ان نتحدث عن السرطان بدرجة اكبر من الصراحة . وسيكون مما له قيمة كبيرة جدا لو ان المرضى الذين تم علاجهم بنجاح من السرطان تحدثوا عن ذلك بانفسهم .

وسوف يتطلب الامر مزيدا من الوقت لكي يدرك الراي العام هذا الامر . من الممكن مقارنة السرطان بالتدرن الرئوي . لقد ظل الناس يرتعبون من التدرن الرئوي بصورة غير مبررة حتى بعد مضي سنوات عديدة على تمكن الطب من استئصال المرض والوقاية منه .

■ اعلن خبير السرطان الامريكي في ادارة حماية العمل باننا نعيش مع قنبلة سرطانية سيبدأ مفتاحها بالعمل بعد 10 ــ 15 عاما بعد ان ترفع العناصر السرطانية الكامنة في الانتاج رأسها . فهل تشكل زيادة هذه العناصر مثل هذه الخطورة الكبيرة حقا ؟

ــ وماذا نستطيع ان نسمي ما يجري منذ الان فعلا ؟ اليس هذا انفجارا ؟ فمن عام 1958 ، اي عندما بدأنا باحصاء عدد الاصابات بالسرطان وحتى بداية السبعينات ازداد عدد المصابين به من 15 الفا الى 30 الفا سنويا .

وفي السويد مثلا يزداد عدد المرضى بالسرطان بنسبة 4 ــ 5٪ سنويا . ويمكن تفسير نصف هذه الزيادة بنمو معدلات اعمارنا بحيث « ننجح » في الاصابة بالسرطان قبل ان نموت ! ولكننا لا نعرف سببا لاصابات النصف الثاني . ان هذه الزيادة مستمرة بشكل ثابت خلال المدة المذكورة ومنذ لحظة البدء بالاحصاء السرطاني .

واذا ما بقيت هذه الزيادة على مستواها الحالي ، فهذا يعني ان كل رابع مواطن سويدي سيصاب بالسرطان .

■ الى اية درجة يساعد انتشار المواد السامة والكيمياوية في البيئة على نمو السرطان ؟

ــ قبل بضعة اعوام توصلت منظمة الصحة العالمية الى استنتاج مفاده ان حوالي 70٪ من حالات الاصابة بالسرطان في وقتنا الحاضر يمكن ان يرتبط بعوامل البيئة . ولكن حسابات المنظمة تلك تعرضت الى الانتقاد . وقد اشارت المنظمة نفسها الى ان ذلك الاستنتاج يفتقد الى الادلة الكافية . ولكن مع ان هذا الرقم مبالغ به الا انه يشير على اية حال الى جدية ومدى المشكلة .

المرض والايكولوجيا

وحتى مع وجود عوامل اخرى كثيرة كالتدخين والاسباب الوراثية وغيرها من فانه لا يجوز ابدا اهمال عامل الايكولوجيا . يدل على ذلك الفرق الهائل في اشكال السرطان المنتشرة في مختلف المناطق . ففي فنلندة مثلا يلاحظ انتشار سرطان الرئتين اكثر مما هو موجود في السويد . وفي اليابان يشكل سرطان الثدي عند المراة ظاهرة غير اعتيادية ، بينما الاصابة به في السويد ــ تصل الى درجة رهيبة . وسرطان الكلية في السويد نادر جدا ، بينما هو كثير جدا في منطقة شنغهاي .

■ اي طراز من الحياة يجب ان يمارسه الانسان لكي يتجنب الاصابة بالسرطان ؟

ــ للاسف يصعب اعطاء وصفة دقيقة . فنحن نعرف بعض العوامل ولا نعرف عوامل اخرى .

اننا نعرف بصورة مؤكدة ان التدخين يمكن ان يؤدي الى سرطان الرئتين وتجويف الفم . وليس مستبعدا ان التدخين يساعد على ظهور اشكال اخرى من السرطان كالتي تصيب المثانة . اما الكحول فانه يساعد على سرطان البلعوم والكبد وتجويف البطن .

■ ترى هل تجاوزنا قوانين الطبيعة ؟ اليس السرطان نوعا من انتقام الطبيعة ضد الانسان ؟

ــ سواء اكان طراز حياتنا صحيحا ام غير صحيح ، فاننا لا نستطيع ان نحصر تفكيرنا في خطر الاصابة بالسرطان فقط . ولكن حتى لو كانت اسباب الاصابة بالسرطان ستحدد بصورة دقيقة تماما فسيظل من الصعب القول ما اذا كنا على استعداد لدفع الثمن الذي يتطلبه القضاء على تلك الاسباب .

لنأخذ التدخين على سبيل المثال . فلقد توصلنا منذ زمن بعيد نسبيا الى العلاقة الاكيدة بينه وبين السرطان . ولكن الكثير من الناس قد اعتاد على التدخين الى درجة بحيث انه مستعد لمجابهة الخطر بوعي .

والشيء نفسه يمكن ان يقال عن الكحول . فاننا نعرف انه ايضا يمكن ان يسبب السرطان . وقد توصلنا كذلك الى ان الافراط في التعرض الى الشمس يساعد على سرطان الجلد .

اول طريق للوقاية : اتركوا التدخين !

ان السرطان ليس هو « الهم » الوحيد للانسان . فالاغلبية تريد ان تعيش حياة « جميلة » ، والكثيرون يعتقدون ان التدخين والشرب والتشمس هي من عناصر هذا الجمال .

■ ما هي اكثر الطرق الوقائية الفعالة ضد السرطان ؟

ــ ترك التدخين . ولكن هل بامكاننا عمل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المكتبة

ذلك ؟ ان لكل انسان ان يقرر ما هو الشيء الاهم بالنسبة له .

■ **هل يمكن للمصاب بالسرطان ان يستمر في العيش بصورة اعتيادية ؟**

– نستطيع القول : نعم . وقد سبق ان ذكرت باننا نعالج حاليا اكثر من 40٪ من حالات السرطان ، واقصد معالجة كاملة دون اية مضاعفات خلال الفترة الزمنية المنظورة القادمة .

■ **ولكن ما العمل بالنسبة لنمو عدد المصابين بالسرطان بصورة كبيرة ؟**

– ارجو ملاحظة ان الموت نتيجة للسرطان لا يزداد بذات النسبة التي تزداد فيها الاصابة بالسرطان . وليس ذلك ناجما عن تطوير وسائل المعالجة حسب . مما له اهمية كبيرة اليوم هو اننا نستطيع اكتشاف الورم السرطاني في وقت مبكر كاف لازالته . حين بدأت العمل في هذا المعهد قبل 25 عاما لم نكن نعالج سرطان المثانة . اما اليوم فذلك في نطاق طاقتنا . الشيء نفسه يمكن ان ينطبق على سرطان الدم .

■ **اصبح بالامكان اليوم شفاء الكثيرين من مرض السرطان . ولكن اية حياة تنتظر هؤلاء ؟**

– انها حياة كاملة بالنسبة للاغلبية منهم . من الممكن القول ، طبعا ، ان النساء اللواتي ازيلت اثداؤهن قد اصبحن عاجزات . غير انني اعتقد ان اغلبية النساء وجدن حياتهن بهذا الشكل مقبولة تماما .

■ **هل يخشى الاطباء مصارحة المريض بحالته الحقيقية ؟**

– للاسف ، ان اكثرنا لا يستطيع ازالة قلق المريض واهله . ولم يبدأ الاهتمام بالجانب النفسي عند مرضى السرطان الا في السنوات الاخيرة . ان من الاهمية بمكان تعلم اساليب ناجحة للتعامل مع المريض . فالتعامل معه بنجاح له تأثير كبير على حالته المعنوية وبالتالي على سلوك القريبين منه . كما ان ذلك من شأنه ان يزيد فرص الطبيب نفسه في المعالجة .

ولهذا الجانب اهميته بالنسبة لموقف الرأي العام من مشاكل امراض السرطان . فاذا كان الاطباء انفسهم يخافون من الحديث عن السرطان بصراحة ، فكيف سيكون حال المريض ؟ ■

المبحرون مع الرياح

ديوان شعر :
خليفة الوقيان

■ عرفت الاستاذ خليفة الوقيان باحثا رصينا في كتابه « القضية العربية في الشعر الكويتي » ذلك انه في هذا الكتاب كان قد وقف عند القضية العربية وقفة تأمليةطويلة سابرا اغوارها محللا ابعادها وما كان لهذه القضية المركزية ان تستثيره في نفس الشاعر العربي الذي تعتمل ذاته واعماقه بالاحساس باصالة هذه القضية . كان هذا الكتاب دراسة اكاديمية حصل بها المؤلف على شهادة الماجستير في الادب العربي . ورغم ان ديوان « المبحرون مع الرياح » كان قد صدر عام 1974 اي قبل كتاب « القضية العربية » بثلاث سنوات فانه لم يقع في يدي الا في الفترة الاخيرة فكان له ان يغير في نفسي ما كنت قد كونته من فكرة عن الاستاذ الوقيان الباحث الاكاديمي .

في « المبحرون مع الرياح » يتجلى الاستاذ خليفة الوقيان شاعرا مرموقا يقف مع الرعيل الاول من شعراء الكويت رغم تواضعه الكبير اذ انه يتردد في ان يطرح نفسه شاعرا وينعى على نفسه الاسراع في النشر .

ان الذي يتأمل في « المبحرون مع الرياح » لا بد ان تستهويه ديباجة الشاعر وطاقته الكبيرة في التعبير عن مكنونات نفسه وسره الابدي الذي راح يعبر عنه تارة في قصيدة حب واخرى مناجاة مجهول وكانه بذلك يريد ان يسبغ على امله المنشود او حبيبته المنمنة هالة قدسية ليس له ان يدخل محرابها بيسر وسهولة . على ان مفهوم « الحب » عند الوقيان يأخذ منحى آخر لم يكن مألوفا في الشعر الكويتي المعاصر ، فهو حين يتصدى لمناجاة حبيبته معبرا عن لوعته وشوقه ، نجده سرعان ما تفلت من سره الفكرة الاصيلة التي تقف وراء القصيدة فيبوح بها في ثورة من الاحساس الجياش بالقضية المركزية مرة اخرى .

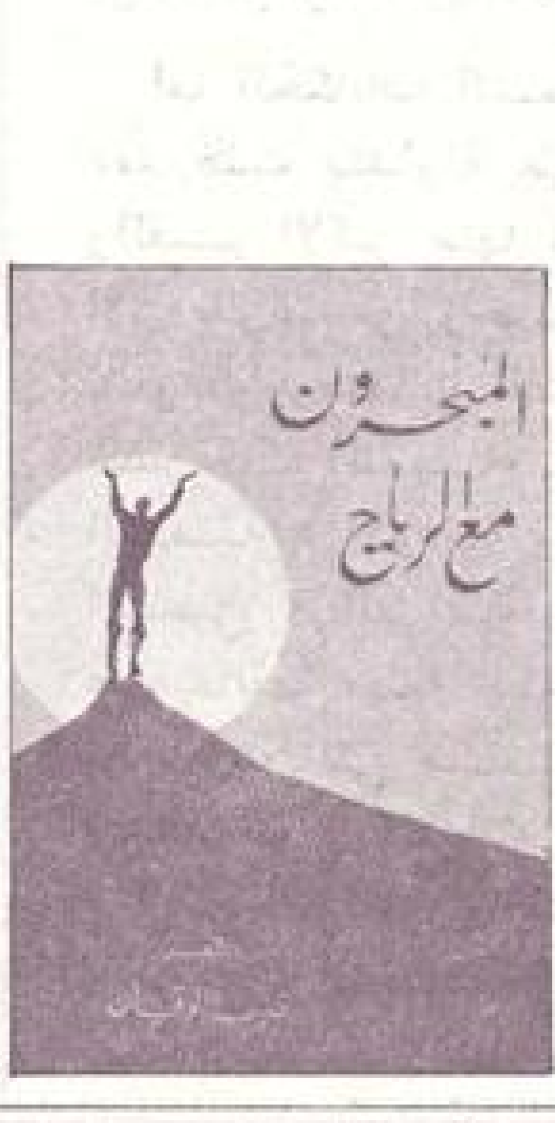

غير اني وان عشقتك غصنا
اخضر العود ناعما يتأود
لا اريد الجمال وردا بخديك
ولا فاحما من الشعر اسود
لا اريد الجمال روضا نضيرا
لا اريد الهوى طريقا معبد
الهوى في دمي ضياع وبعد
وارتحال وعالم يتجدد

ولعل الوقيان في هذه الابيات يقترب جدا من روح الشاعر الكبير « ابو القاسم الشابي » الذي كان في فلسفته يصهر عالم الثورة في عالم الحب الانساني الكبير .

من هنا يمكن القول بان مفهوم الحب عند الوقيان هو مفهوم متميز عنده ويكاد ينتظم كل قصائد الحب في مجموعته هذه ، وقد يكون من المناسب ان نستشهد هنا بقوله في قصيدة « الفجر » التي تؤكد ما ذهبنا اليه :

اكاد اسمع لحن الحب يغمرني
خلف المسافات ، عن قرب ، يناديني
يرف كالحلم في جفني يحملني
لعالم من رحيق الفجر يرويني
اني عشقت خيوط الشمس تنسجها
سحر السواعد بين الماء والطين
اني عشقت الصباح العذب ترسمه
فوق المحاجر اقدام المساكين
اني عشقت الغد المأمول تبعثه
من مهمه التيه صيحات لمطعون
لتدفن الليل في اسماله مزقا
وتجعل الارض حبلى بالبراكين
وتطلق الطير تسعى في مساربها
ونغرس الحب وردا في البساتين

ولعل الشاعر « الوقيان » في في هذه الابيات حاول ان يطرح مفهومه الخاص عن الثورة والحب اللذين وضعهما في معادلة لاينفصل احد طرفيها عن الآخر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ ثمة الحوظة اخرى اری ان اؤكدها في هذه الكلمات وهي السمة او النزعة الرومانسية التي تلف كل قصائد الشاعر في هذه المجموعة ، وتأثره بمدرسة أبوللو وجماعة الديوان وعلي محمود طه المهندس واضح جلي . خذ على سبيل المثال قوله من قصيدة له بعنوان« قال لي صاحبي » :

قال لي صاحبي اعرني مليا
بعض سمع وان عتبت عليا

كيف لا تعشق الجمال رواء
عبقريا وجدولا علويا

وثغور الرياض تفتر حسنا
وتبث الحديث عطرا زكيا

والعصافير والبلابل تشدو
والغدير الرحيق ينساب ريا

وعليه تحبر الشمس ثوبا
عسجديا وتارة فضيا

وارى البحر وهو ساج يسر الـ
حب همسا مع الاصيل حييا

نسج العاشقون من انجم الليـ
ـل على الرمل هيكلا قدسيا

وهكذا يمضي الشاعر في أبيات القصيدة حتى النهاية ، واذا كان ثمة من يقول بأن عصر الرومانسية قد غبر اذ حل عصر الواقعية ، فلنا ان نقول رداعلى ذلك بأن الرومانسية اصدق ما عبر عن الاحساس الجياش بالجمال والطبيعة واعماق النفس الانسانية ونحن نرى اليوم الشعر الانكليزي يسعى عبر بعض اصواته المتميزة الى مايشبه العودة الى الرومانسية بعد ان ضج الشاعر المعاصر بعالم التكنولوجيا وما قد ينطوي عليه من كبح لخيال الشاعر . أضف الى ذلك ان النزعة الرومانسية هي طريقة في التعبير تعتمد تفجير طاقات اللغة الجمالية والتعبيرية فاذا ما توفر على ذلك شاعر مبدع اصيل نكون قد ظفرنا عند ذلك بتلاحم ابداعي من شأنه ان يتفاعل مع نواميس الفن تفاعلا اصيلا سليما .

ولا يفوتني هنا ان انبه الى ان احد ابيات قصيدته الاولى جاء مختل الوزن فالقصيدة من البحر الخفيف وزنه : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن جاء فيها قوله :

ليس في خاطري عداء لزهر
يتمطى به الربيع شهيا

غير اني سالت من ذا سقى الحقـ
ـل عذابا وروى ثراه دمما عصيا

وعلى وجنة الورود دماء
لشقي قضى ابيا وفيا

فالبيت الثاني وزنه هكذا :

غير اني سالت من ذا سقى الحقـ
فاعلاتن مفاعلن فاعلاتن
ـل عذابا وروى ثراه دمـ ـما عصيا
فعلاتن فعولن مفاعلن فاعلاتن

ففي الشطر الثاني منه تفعيلة رابعة زائدة لا يستقيم معها وزن البيت .

وفي قصيدة له بعنوان« زيف » وهي من بحر الرمل وزنه فاعلاتن فاعلاتن فاعلان مقصور الضرب ، يقول :

اوقد الشوق بروحي جذوة
من شجون ، واستبدت بي الظنون

فلو اردنا قراءة البيت مع استقامة وزنه تعين ان نقرأ بي الظنون هكذا : « بالظنون »باسقاط الياء والالف واللام وهو لا شك امر ينطوي على ضرورة غير حسنة ولو قال : « من شجون واستبدت بي ظنون » لاستقام الوزن وكان البيت ابلغ لان التنكير هنا يفيد المبالغة وهو اسلوب من أساليب علم المعاني .

◆ **عبدالستار جواد**

جحا العربي تاليف : د. محمد رجب النجار

■ يحدنا الموروث الشعبي بطاقات كبيرة على معرفة الواقع الاجتماعي ونمط التفكير واساليب المواجهة بين الانسان ومتغيرات المحيط .

ولعل فن الحكاية الشعبية والمثل الشعبي هي الاكثر شيوعا بين الناس بالمقارنة مع الصناعات الشعبية والغناء والموسيقى ، باعتبار ان الصناعة الشعبية والاغنية والموسيقى قد دخل اليها العلم ومبتكراته الحديثة وطور في قسم كبير منها والغى العديد من الصناعات التي كانت تعرف سابقا، ودخلت الآلة بانتاجيتها الضخمة مرحلة جديدة من العمل .

اما الحكايات الشعبية والامثال ، فقد ظلت متداولة على الالسن ، والقسم الاكبر منها لم يدون حتى الآن بالرغم من وجود مجلات تعنى بالفولكلورومنها « الفنون الشعبية» المصرية ــ الملفاة ــ و « الفنون الشعبية » الاردنية و « التراث الشعبي » العراقية ، التي اخذت على عاتقها مهمة تسجيل الحكايات باللهجات التي سمعت بها ، وساهمت « التراث الشعبي » والمركز الفولكلوري العراقي بقسط وافر من النشاط في جمع هذه الحكايات .

واذا كانت معظم الحكايات الشعبية لا تعرف لها وطنا ولا مؤلفا محددا ، الا ان بعضها ارتبط بشخصيات فولكلورية ، واقترنت مفرداتها بأسمائهم ومنهم : ابو القاسم الطنبوري وجحا .

واذا لم يكن الحظ السعيد قد اسعفنا في دراسة علمية عن الطنبوري ومشكلته مع حذائه ، التي استقى منها الكاتب المسرحي السويدي اوغست ستراندبرغ مسرحيته الرائعة : « حذاء ابي القاسم الطنبوري » وترجمها الى العربية القاص السوري الراحل جورج سالم ، فان امرا سارا يجعلنا نستقبل به دراسة موضوعية جادة عن الشخصية الشعبية جحا ، تلك الشخصية التي ارتبطت في اذهاننا على انها متخلفة في تفكيرها ، مثيرة للسخرية ، واستخدم اسم جحا للدلالة على الضحك واقتران كل الحكايات الهزلية به .. وتم طبع الكثير من النوادر على انها من عطاء جحا .

لكن الدكتور محمد رجب النجار ــ الكاتب المصري المعروف بدراساته الفولكلورية ــ تتناول شخصية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جحا من منظور علمي دقيق وخبرة عالية بالتتبع والتفسير والتوضيح. وكتابه« جحا العربي » الذي صدر حديثا ضمن سلسلة شهرية جادة تصدر في الكويت باسم « عالم المعرفة » يكشف عن متابعة حية ، وتنطلق من فهم عميق لشخصية جحا التي تركت أثرا مهما في النكتة العربية ، وصارت تشكل نموذجا فريدا في خلق النكتة وبراعة استخدامها .

ولا ادل على موضوعيةد. الحجار من اشارته الى كل عبارة او تاريخ استقاه من مصادر عديدة ،واستفاد منه في دراسته عن « جحا العربي »، فهو يشير الى عبدالستار فراج كونه اول من تنبه الى المأثور الجحوي في كتب التراث العربي وعمل على نشره .

ويرى المؤلف – الحجار – الى ان « المأثور الجحوي لم يكن من تأليف ابداع جحا (ابي الغصن دجين بن ثابت الفزاري) بل كان تعبيرا جمعيا من ابداع الشعب العربي بعامة ، ترسيبا للتجربة ، ونزوعا الى السمر في وقت معا ». فما كان يجري على لسان جحا او يلتصق به من تأملات ولقطات في المجتمع والسياسة .. لم يكن الا اسلوبامتفاعلا مع الناس، فيظهر بشكل مرح احيانا ، او نادرة فيها عبرة وتأمل وان يبدو على مظهرها كونها خلقت للتندر والفكاهة .

ووصف جحا بالحمق والغباء كأمر متمثل فيه ، تبدو مسطحة فجحا يستخدم التحامق ب « ذكاء الباحثعن جوهر الحقيقة »ونظرته سديدة خالية من اليأس بارعة في خلق فلسفة نقدية هجائية ضد اعداء شعبه وامته . مبتعدا بشكل او بآخر عن كل ما له علاقةبمفهوم «التكليف الاجتماعي »ولذلكلايمكن ان نعتبر جحا شخصية « سلبية او منعزلة .. وانما شخصية رجل عادي من الناس ، له مشاعرهم ومواقفهم وتجاربهم وآمالهم وآلامهم » .

وضمن هذا الفهم لشخصية جحا عالج د . الحجار في كتابه « جحا العربي » ثلاث نواح حددها : بالناحية التاريخية – معتمدا على ما اورده كتاب « اخبار جحا »لعبد الستار فراج الصادر عام 1954 – والناحية الموضوعية– فلسفة نوادر جحا مستفيدا من د. عبدالحميد يونس في اكتشاف هذا النموذج اكاديميا وعلميا – ثم الناحية الفنية – فنية النادرة الجحوية – وتعتبر الناحية الموضوعية هي الاكثر شاغلا واهتماما في العناية والدراسة فقد صنف المؤلف نوادر جحا في ضوئها وحدد لكل منها وظيفتها ، وحلل ابعادها .

لكن هذه النواحي الثلاث تتداخل معبعضها ضمن ثلاث ابواب رئيسية عنى بها الكتاب وهي : شخصية جحا بين الواقع التاريخي والرمز الفني ، فلسفة النموذج الجحوي، النوادر الجحوي ، مع خاتمةللكتاب تتعلقبدراسة تأثير النموذجالجحوي في الادب العربي المعاصر .

ويؤكد المؤلف على شخصية جحا العربي ونسبه الى « قبيلة فزارة العربية وولادته في العقد السادس من القرن الاول الهجري وقضاء الشطرالاكبر من حياته في الكوفة». وهي اسبقية على نظيره جحا التركي المعروف باسم (نصرالدين خوجة) المجهول الزمان والمكان . وذكر جحا العربي – كحقيقة وليست وهما او ابتداعا لشخصية جحا – فقد ذكره المؤرخون من امثال : ابن النديم ، الميداني ، الجاحظ ، الجوهري ، الآبي ، ابن الجوزي ، ابن شاكر الكتبي ، ابن حجر العسقلاني وغيرهم ..

ويجمع مؤرخوه على ان جحا العرب « به ذكاء وفطنة ودهاء ، وانه اتخذ من الغباء او التغابي اسلوبا في الحياة ، وانه كان ذا حس فكاهي مشهور ، مؤمنا بفلسفة الضحك ودوره في التغلب على صعاب الحياة ، وقدرته على ان يقلب المأساة الى ملهاة » .

بينما تحول جحا عند الاتراك الى معتقد بكراماته ، وان منيزور ضريحه ولا يثار فيه الضحك لم يسلم من نائبة تصيبه .

ويجد ان نوادر جحا العربي والتركي قد اختلطا معا ، حتى ليصعب فصلهما او تمييزهما .. فالمهم ان النادرة تؤدي مهمتهاوتأخذ بالانتشار .. وبالاضافة الىهذين النموذجين اشيع بين الناس عن وجود جحا المصري .. وقد يكون جحا العربي هو نفسه جحا المصري باعتبار ان الشعب المصري اكثر تقبلا لروح النكتة وحسناستقباله لها ، ولذلك وجدت نوادر جحا بيئة صالحة للانتشار والذيوع بين الناس ، باعتبار ان « الشعب المصري ضحوك استجابة لالام كثيرة .. »

وعندما ينتقل د. الحجار الى دراسة فلسفة النموذج الجحوي ، يحدد هذه الفلسفة في منظور نقدي يتعلق بالسياسة والاجتماع .

وضمن النقد السياسي يتخذ النموذج الجحوي موقفين :

« 1 – عدم الاكتراث بالظاهر من الامور والاعتصام بنزعة صوفية تجعل الفرد ومضةفي كون لا اول له ولا آخر ، ولذلك غلبت نزعة عدم الاكتراث بالعادات والتقاليد المتناقضة على شخصية جحا » .

« 2 – الاندفاع نحو المجون ، باعتباره نزعة من نزعات التمرد على الواقع ، والهرب منه بالاستعلاء عليه » .

ويورد المؤلف نماذج عديدة من نوادر جحا في هذا السبيل ، ويمكن ان نتوقف هنا عند نادرة تتعلق بلقاء جحا مع تيمور لنك ..

فبعد أن بسط تيمور لنك ظله فوق بلاد الاناضول راح يحصر علماءها وفضلاءها ويسألهم : اعادل أنا ام ظالم ؟ وكلا الاجابتين تؤدي الى الموت ، واستعين بجحا لانقاذهم .. وافلح في اجابة تيمور لنك عن سؤاله فقال : لست عادلا ولاظالما ، فالظالمون نحن وانتمسيف العدل الذي سلطه الواحد القهار على الظالمين .. فاعجب تيمور لنك بشجاعته واتخذه نديما .

ويرى د . الحجار بأن جحا « بفضل حكمته وفطنته وذكائه استطاع ان ينقذ بلده ومواطنيه من بطش تيمور وبغي عساكره » .

ونحن نود الاشارة الى ان هذا النموذج يمكن ان يقترن بجحا التركي اولا كونه محدد ببلاد الاناضول ، وليس بجحا العربي الذي يقترن الكتاب به ، كما ان اجابة جحا على سؤال تيمور لنك توحي تماما الى ادانة الشعب وعدالة تيمور لنك .. بينما واقع الحال هو عكس ذلك تماما .. ونعتقد بأن اضفاء عدالة فوقية هي التي سرت تيمور لنك .

وهي ذات النادرة التي تتعلق بفيل تيمور لنك وتدميره للزروع.. وللخلاص من شكوى الفيل كانطلب جحا المجيء بانثى للفيل .. وهو موقف انتهازي بنى عليه الكاتب المسرحي السوري سعدالله ونوس مسرحيته « الفيل يا ملك الزمان» التي اثارت جدلا في ادانة كل قيادة انتهازية لا تؤمن بالجماهير ... وتدافع عن مصالحها الذاتية فحسب ..

وتفسير جحا لهذا التملق ،تأكيد لهذه الروح الانتهازية فهو يقول : « اذا قدر الله عليك ان تكون من اصحاب السلطان فاحرص على الا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تحس ولا تحكم ، وعليك دائما ان تكون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مرضاة هذا السلطان بالحق والباطل ـ فاذا رايته راكبا كلبا فقل له : ماأجمل هذاالاسد ، واذا سمعته يقول سخفا فقل له : ما اروع هذه الآيات المحكمات ، واذا وجدتهيرتكب الطيش والهوس فقل: ان العدل الذي يزن الامور بالقسطاس .. »

ومثل هذه النوادر تنسف كل ما ذكره الكاتب من قبل عن تمرد جحا ونزعته الصوفية باعتبارهما مواقف يتميز بهانقد جحا السياسي!

لكن نوادر اخرى تشير الى وعي جريء يمارسه جحا ، فقد سؤل مرة : « السلطان اكبر او المزارع ؟ فقال طبعا المزارع اكبر ، لانه اذا لم ينتج القمح مات السلطان جوعا». ولكننا لا نعلم ان كان السؤال موجها من قبل احد السلاطين ام من شخص ما ، وهل يملك جحا جراة القول هذا امام السلطان ؟ هذا ما لم نعرفه ولم تكشف عنه صفحات الكتاب .

وهناك نوادر عديدة ذاتموضوع واحد وان كانت تروى باشكال عديدة .. مثل الادعاء بطيران دجاجة مقلية ، والمطالبة بثمن لقاء شم رائحة طعام .. ومثل هذه النوادر تعكس حالة اجتماعية كان يلاحقها الجوع والصراع المستمر بين غنى فاحش وفقر مدقع . ونقده الاجتماعي فيه قيمة دالة وذكية ، فقد دخل مرة وليمة واستقبل بجفاء ، وذهب الى منزله وعاد بثياب حسنة ، فتلقوه بالاكرام وعندما حضرت المائدة ارخى كمه ودعاه للاكل فتعجبوا منه فقال لهم « ان اعتباركم كان لكمي وليس لي، فهو احق بالاكل مني » .

وواضح ان هذه النادرة تطمح الى ادانة المظاهر والتعامل مع الانسان بجوهر عقله وحكمته . وهناك نوادر عديدة تندد بالمراة وتصفها بالكيد والخيانة وحمقاء ماكرة ولئيمة وقبيحة الشكل كما تظهر في نوادر جحا وتدلل على موقفه منها .. وباشكال متعددة ايضا تروى نوادره مع زوجته وولده وحماره .

ويدرس د. الحجار فنية النادرة الجحوية ، ويورد اسماء عدد كبير من مبدعي ادب الفكاهة العربيةكابي نؤاس وابي دلامه وبهلول والدؤلي وابن الشمقمق وغيرهم .. ولكنه لا يقارن نوادرهم مع نوادر جحا التي تتميز بكونها « تتوسل الحكاية المرحة في التعبير عن فلسفته » وهي ذات (خصائص موضوعية) « باعتبارها تعبر عن راي الجماعة التي انشاتها او رددتها » ، و (خصائص نفسية) «بتحويل المآسي الى طرائف» ،و(خصائص فنية) « فتتكون من جزئية واحدة ، وتكرار المقولة الواحدة في اكثر من نادرة ، منثور معظمها ، تنزع الى التجمع، شخوصها نمطية ،متطورة، واقعية ، حرة وطليقة في وجدان الناس ، تستخدم اللهجات الدارجة لكل بيئة عربية » .

وفي الصفحات الاخيرة تناول المؤلف المؤثرات التي تركتها نوادر جحا في ادبنا العربي ، ويشير الى كتابات في الرواية والمسرح وادب الاطفال، استفادت كثيرا من النموذج الجحوي ، ويورد اسماء : محمد فريد ابو حديد وعلي احمد باكثير وتوفيق الحكيم وكامل كيلاني وفتحي ابراهيم ..

ان جحا ونوادره في كتاب د. الحجار دعوة الى استلهام الموروث الشعبي العربي ، وتعبير عن وجدان صميم مرت به الامة العربية فيحقبة زمنية ماضية ، لذلك تظل دراسة هذا الموروث حية وتعطينا مزيدا من التفاعل الحضاري مع الماضي الممتد الى مستقبل ينتمي بجذوره الى وجه متالق .

حسب الله يحيى

فن التمثيل عند العرب

■ اذا صحت التسمية فاني اعتبر هذا الكتاب (فن التمثيل عند العرب) لمؤلفه الدكتور محمد حسين الاعرجي الذي صدر تحت رقم (28) في سلسلة الموسوعة الصغيرة التي تصدرها وزارة الثقافة والفنون في الجمهورية العراقية من كتب التاصيل ، واعني بها ـ اي كتب التاصيل ـ تلك الكتب التي يصدرها مؤلفوها في محاولة لتاصيل فن من الفنون وايجاد جذر له في التراث .

ولهذه الكتب اكثر من اهمية ولكن ابرزها انها تنم عن اجتهاد ومثابرة ومدارسة ، كما تنم عن استقراء هو بالاساس جهد صابر ونظر متواصل .

ولقد كان من شان دراسة الدكتور الاعرجي تحفيزي على قراءة محورين اساسيين من محاور مصادره اولهما بحث نشرته مجلة (آفاق عربية) بعنوان : (صور من التمثيل في الحضارة العربية من الكرج حتى المقامات) في عددها الثالث من سنتها الثالثة 1977 للدكتور محمد يوسف نجم . وثانيهما كتاب صغير صدر تحت رقم (325) في سلسلة المكتبة الثقافية التي كانت تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1975 تحت عنوان العرب وفن المسرح ، كتبه الدكتور احمد شمس الدين الحجاجي .

وكاني بكتاب الدكتور محمد حسين الاعرجي الذي اعرض له الان جاء صلة وصل لما ورد في بحث الدكتور محمد يوسف نجم وردا على ما ورد في كتاب الدكتور احمد شمس الدين الحجاجي وليس غير . والامر على اية حال ليس نقيصة بل هو من (عافية) التاليف حين تتجاوب الاصداء فلا تذهب الصيحة سدى في الوادي ولا يضحى الكلام طرقا على حديد بارد .

فمؤلف (العرب وفن المسرح) الدكتور احمد شمس الدين الحجاجي يقول في تمهيد كتابه صفحة (5) : يضع دارسو الادب العربي عام 1848 بداية التاريخ للمسرح العربي وهي السنة التي كون فيها مارون النقاش فرقته التمثيلية في بيروت . وقد اصبح من الثابت لدينا انه لم يكن لدى العرب قبل ذلك فن مسرحي . وقد شكل ذلك بالنسبة للدارسين ظاهرة تحتاج الى تفسير ، ومنهم من راى انها ظاهرة مرضية في الادب العربي، وحول منطق تفكير هؤلاء الباحثين هذه الظاهرة الى قضية وصلوا فيها الى مجموعة من النتائج منها ان الخلق الفني في الادب العربي ناقص التكوين ، وان المخيلة الخالقة لدى العرب منعدمة وانهم عجزوا عن رؤية الكل لانهم وقفوا عند الجزء . وكذلك انعدام احساسهم المأساوي بالحياة مما جعلهم يعبرون عن المواقف الانسانية دون تصويرهم اياها .

ويقول في صفحة (98) تدعيما لقوله في صفحة (5) : لقد انتهينا الى ان المسرح كاي فن من الفنون يوجد نتيجة للحاجة ، وان هناك طريقين يدفعان لظهور المسرح في امة من الامم ، وكان الطريق الاول هو طريق النمو الذاتي لهذا الفن داخل الامة نفسها ، وكان الطريق الثاني هو طريق الانتقال ، وتبينا ان

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ظروف المجتمع العربي لم تكن ملائمة لظهور فن المسرح : وحين تهيأت الظروف الملائمة لنمو فن المسرح في العصر الحديث ، وظهرت حاجة المجتمع ماسة اليه كأداة من الادوات الديمقراطية لظهور المسرح . وكان ظهوره نتيجة امتزاج لهذين العاملين، طريق النمو الذاتي وطريق الانتقال، جاءت حركة نمو المسرح السريعة لتثبت أن الفترة السابقة لظهوره كفن مكتمل والتي ارتفع فيها اداء قاص السيرة الى درجة الممثل اصلت هذا الفن في نفس الجمهور العربي .

اما الدكتور محمد يوسف نجم فيستهل بحثه بقوله : ساحاول في هذا البحث أن اشرك القارىء في بعض النتائج التي توصلت اليها عقب قراءة متانية لعدد من مصادر التراث العربي ، ولمصادر الحضارة الهلينية والبيزنطية ، كانت الغاية منها استخراج بعض المظاهر التمثيلية في تراثنا الحضاري وربطها بالفن المسرحي الاغريقي الذي كاد ان يفقد تاثيره ويتوقف في القرن الثاني للميلاد ، وبما عقبه من نشاط تمثيلي في عهد الدولة البيزنطية حتى القرن العاشر للميلاد .

وكنت قد انطلقت من فرضية بنيتها على بعض ما تجمع لدي من أخبار تزعم ان العرب شانهم شأن غيرهم من الامم المتحضرة ، عرفوا قبل الاسلام ضروبا من النشاط التمثيلي ، نشأ بعضها في أروقة المعابد ، وتطور الى صور شبه تمثيلية كان من الممكن أن تأخذ مداها في التطور لولا ان جاء الاسلام فقضى على (الجاهلية) وتراثها وخاصة ما كان منه متصلا بالاخلاق العامة والعبادات بعد ان استخلص منها ما استخلص وطور منا ما طور.

أما ما يقوله الدكتور محمد حسين الاعرجي فساحاول ابرازه من خلال استعراض كتابه الذي تؤلفه مقدمة وأربعة فصول وخاتمة في (103 صفحة) .

في الفصل الاول وعنوانه : الحكاية والكرج من العصر الجاهلي حتى نهاية الاموي يقول المؤلف صفحة (16) : ليس من احد يستطيع أن يذهب موقنا – في الوقت الحاضر – الى ان عرب الجاهلية قد عرفوا التمثيل ومارسوه في عباداتهم سوى ما ذكرناه من أمر الحج . ولا اظن انه سيختلف اثنان في ان هذا النشاط لم يتطور بحيث يكون لدى عرب الجاهلية مسرح ومسرحية ، أو يكون لديهم طقوس تمثيلية قد انفصلت عن غاياتها الدينية فقربت من المسرح . ولكن هذا لا يمنع أن يكون ضمن حياة اللهو عندهم شيء من النشاط التمثيلي .

ويقول في صفحة (18) : تنتقل – بعد هذا – الى حياة العرب بعد ظهور الاسلام فنقول : أن الدين الجديد قد حدد الشعائر تحديدا عقلانيا لم يكن يسمح للفرد ان يبتدع ما يراه من طقوس ، وعبادات ، ومعنى ذلك اننا لا ننتظر من الدين ان يسهم في خلق نشاط تمثيلي سوى ما شاع في عصر متأخر عن ظهوره من تمثيل مقتل الحسين عليه السلام .

حتى اذا قامت الدولة الاموية – يقول المؤلف صفحة 19 – برزت العصبيات القبلية من جديد ، وصار المجتمع الاموي قريبا في بعض جوانب حياته من المجتمع الجاهلي ، ومعنى هذا ان دواعي غياب النشاط التمثيلي ظلت قائمة فيه . على انه من المهم ان نتنبه الى ناحية جديرة بالنظر في حياة المجتمع الاموي هي اهتمام الامويين بصورة عامة بالامصار الاسلامية المعارضة : المدينة والكوفة ، ومحاولتهم الهاء مجتمع المدينة – بصورة خاصة – عن قيادة النشاط السياسي المعارض عن طريق انفاق الاموال عليه ، وتشجيع حياة الترف فيه ، فضلا عن ان هذا المجتمع ، وهو مجتمع صحابة الرسول الكريم كان قد تسربت اليه أموال الفتوح على أيام الخلفاء الراشدين ، مما هيأ الى ظهور طبقة مترفة تهتم طائفة منها بحياة اللهو ومجالسه من غناء ورقص ونحوهما. واذ تقدم الزمن قليلا عمت هذه الحياة اللاهية اغلب الامصار الاسلامية المعارضة . في مثل هذا الجو الاجتماعي ترد أولى الاشارات الى النشاط التمثيلي ، ويتردد ذكر (الكرج) في اكثر من موضع بديوان جرير بن عطية الخطفي .

وفي صفحة (21) يتساءل المؤلف : واذن فما هو الكرج ، وما علاقته بالحكاية ؟ فيجيب : والكرج تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون . واذ راينا ان المخنثين وربما لعب بعضهم بالكرج فان ذلك يهدينا الى أن أصل اللعب به كان مقصورا على النسوة . ويقول المؤلف في صفحة (23) : ولم يكن يمر ببالنا ان الكرج علاقة بالحكاية الا بمقدار تقليد النساء حركات الفرسان في رقصهن ولعبهن به اذ هو من آلات الرقص لولا أن أبا عبيدة قد قال : الكرج الذي يلعب به المخنثون في حكاياتهم ، ولكن ابا عبيدة لم يكن ذا تصور واضح عن الحكاية ، يدلنا على ذلك أنه خلط بينها وبين الخيال مرة ، وبينها وبين السماجة مرة اخرى حين وقف عند بيتي جرير :

لقد امسى البعيث بدار ذل

وما امسى الفرزدق بالخيار

جلاجل كرج وسبال قرد

وزند من قفيرة غير وار

فقال : جلاجل كرج : يهز به يعني السماجة ، الكرج : الخيال الذي يلعب به المخنثون . ونحن نعرف ان الجلاجل جمع جلجل وهو الجرس الصغير ، فقد قال جرير نفسه :

لهم أدر تصوت في خصاهم

كتصويت الجلاجل في القطار

واذن ، فهل معنى هذا الخلط ان الكرج مما يلعب به في الحكاية والسماجة والخيال معا ؟ ثم لماذا تكون جلاجل الكرج تعني ، عنده السماجة على حين يعني الكرج ! الخيال ؟

واريد من خلال هذه الاسئلة ان اقول :انه ربما اختلط الامر على ابي عبيدة وهو ابن القرن الثالث – ففسر لعب القرن الاول بما شهده عصره دون ان يلاحظ فرقا دقيقا بين الحكاية والسماجة ، بل لعل هذا الخلط يهدينا الى ان اتخاذه الكرج اداة من ادوات الحكاية يمكن ان يعد نواة انفصال السماجة عن الحكاية ، لا سيما اننا لم نعد نسمع بلفظ الكرج يترد في اخبار القرن الثالث ، وانما غلبت عليه السماجة، التي هي – في راينا – فرع من فروع الحكاية المرتبطة بالكرج . واذا صح ان ابا عبيدة قد خلط بين الحكاية والسماجة ، كان لنا ان نقول : ان العصر الاسلامي قد عرف الحكاية التي يكون الكرج من شخصياتها ، وان كنا لا نعرف – مع الاسف – دور هذه الشخصية فيها .

ولكن ما هي الحكاية ؟

قال ابن منظور : الحكاية كقولك (حكيت فلانا وحاكيته ، فعلت مثل فعله ، وقلت مثل قوله سواء لم اجاوزه) . وهذا القول وسواه في المعجمات يدل على المعروف اليوم بالتمثيل ، ولعله هو المعنى الاصلي ثم توسعوا فيه ، لان الكلام هو تكرار لحركات اللسان ايضا . واذن فالاصل في الحكاية ان تكون تقليد حركات الاخرين واعادتها مما يقرب ان يكون تقمصا لشخصياتهم اذا شئنا ان نستعمل المصطلح لدى اهل المسرح اليوم ، أو شيئا من ذلك . ثم اتسع هذا المعنى فصارت اعادة اقوال الاخرين ، وقص ما وقع لهم حكاية ايضا . ويهمنا هنا من الحكاية معناها الدال على التمثيل . واذا كنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا نملك نصا اسلاميا يشرح لنا ذلك المعنى شرحا وافيا ، فان ذلك لا يمنعنا ان نستعين ، في مثل هذه الحال ، بالعصر العباسي على ذلك ، فقد قال الجاحظ : ومع هذا نجد الحاكي من الناس يحكي الفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئا ، وكذلك تكون حكايته للخراساني ، والاهوازي ، والزنجي، والسندي ، والاجناس ، وغير ذلك. نعم تجده كانه أطبع منهم ، فاذا ما حكى كلام الفافاء فكانما جمعت كل طرفة في كل فافاء في الارض في لسان واحد . وتجده يحكي الاعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه واعضائه لا تكاد تجد من الف اعمى واحدا يجمع ذلك كله ، فكانه قد جمع طرف حركات العميان في اعمى واحد .

ويقول المؤلف في صفحة (28) : ان هدف المحاكاة الرئيس هو الاضحاك، ثم تطور هذا الهدف فاكتسب صبغة اجتماعية وجهته نحو انتقاص الخصوم من خلال محاكاته ، والضحك بهم ، فلم يعد حينئذ وسيلة لهو تقف عند حدود الضحك دونما غاية اجتماعية ، على ان هذا لا يمنع ان يظل الضحك تيار اخر يخدم التيار الاجتماعي مرة ، وينفصل عنه مرة اخرى . واذن ، فقد تطورت الحكاية عن (الكرج) الذي هو في اصله رقص ولعب بعد للولائم ، والاعراس وايام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو . ولكن الحكاية قد انفصلت عنه بمرور الزمن فصارت فنا قائما بنفسه يستحق الدراسة والتأمل .

ويستعرض المؤلف في الفصل الثاني من كتابه موضوع الحكاية في العصر العباسي وفيه يقول في صفحة (40) : واذن فقد كانت هناك حكاية، ولكن اين تؤدى هذه الحكايات .

لم نجد فيما بين أيدينا من اخبار اماكن معهودة يتخذها المحاكون فيؤمها الناس مما يقرب ان يكون ما نصطلح عليه ب (المسارح) . ولكن هذا لا يمنع أن يكون المحاكون قد تخيروا أماكن بعينها رأوا انها تصلح لاداء حكاياتهم .

وفي الفصل الثالث الذي يبحث في الحكاية في مجالس الخلفاء الاكابر يقول المؤلف في صفحة (48) : ولعل من المفيد ان نقول : اننا لم نجد شيئا يشير الى ان مجاس الخلفاء والامويين ، ومن هم دونهم قد عرفت شيئا من المحاكاة او اللعب بالكرج ، وانما كانت المحاكاة مما يدور في مجالس الخلفاء العباسيين، فلقد شهد مجلس الرشيد نواة هذه المحاكاة ممثلة بابن ابي مريم المدني.

ويبحث المؤلف في هذا الفصل مصطلحات ترد عن الحكاية هي : (السماجة) و (المضحك) و (المحاكي) وأبرز المحاكين ومنهم (عبادة المخنث) و (ابو الورد) .

ويدرس المؤلف في الفصله الرابع والاخير من كتابه موضوع الحكاية في القرن الرابع ممثلةبحكاية ابي القاسم البغدادي التي كانت من جملة ما عرفته المكتبة العربية القديمة من الاسمار والخرافات والاحاديث التي صارت تعرف ـ فيما بعد ـ ب (الحكايات) المراد بها القصص المكتوب بهدف التسلية ، على حين لم يكن العرب في القرون الاربعة الاولى يطلقون على القصة لفظ (الحكاية) ، فكتاب الفهرست ويرجع تاريخه الى الجزء الاخير من القرن الرابع يستعمل (اسمار) و (خرافات) و (احاديث) بمعنى القصص المقصود منه التسلية ، ولكنه لا يستعمل كلمة (حكايات) في هذا المعنى ابدا .

ومما يؤيد هذا الراي ان النصوص التي مرت بنا في الفصول السابقة ، واغلبها لا يتجاوز القرن الرابع ، لم يرد فيها لفظ (الحكاية) دالا على القصة ، وانما كانت العرب تستعمل ذلك اللفظ ـ الحكاية ـ بمعناه الدال على التمثيل وما يشتق منه .

ويحدد المؤلف في صفحة (19) اهمية حكاية ابي القاسم البغدادي : من كونها اول نص مكتوب نعرفه في الحكاية . واذا بدا ان هذا النص من الضعف الفني بحيث لا ينبغي لاحد ان يجرؤ على القول : انه اقترب من ان يكون مسرحية او كاد ،فان ذلك ـ في راي المؤلف ـ امر طبيعي ، فقد كتبت هذه الحكاية في عصر كان اضطهاد الكنيسة فيه للمسرح الاغريقي وتراثه المسرحي ما يزال قائما ، فلم يتهيأ للعرب والحال تلك ان يطلعوا على شيء اسمه مسرحية فيقتربوا منه في محاكاته .

ومعنى هذا ان هذه المحاولة كانت البداية في تراث العرب (المسرحي) . ولقد كان من الممكن لهذه البداية ان تتطور لو كان واصل مسيرتها مؤلف آخر . ولكن ذلك لم يكن . وفي رحم الغيب ما لا نعلم ، وفي خزائن العالم من التراث العربي ما لا نعرف .

وبعد .. فهذه هي رحلة المؤلف عبر مصادره التي وصل عددها الى (45) مصدرا ليجد بعدها ان : لدينا رغم كل ذلك شيء يجب ان نوليه اهتماما ونحن نؤرخ لمسرحنا الحديث ، وينبغي ان نعنى به وجها من وجوه الحضارة العربية الاسلامية ويلزم ان نتدارسه سبيلا من سبل تاصيل الفن المسرحي عندنا ، وكنت ارجو لهذه المرحلة ان تتواصل متجاوزة ما توصل اليه الدكتور محمد يوسف نجم في بحثه السابق على هذا البحث ولتغطي ما نجده في عصور متأخرة مما يعتبر من صور التمثيل واعني بذلك بعض الالعاب كخيال الظل الذي كان له شان اي شان ايام الفاطميين والايوبيين والمماليك والعصر التركي .

ان حرص المؤلف على تاصيل فن التمثيل عند العرب ـ من خلال استقرائه الذكي لمصادر الموضوع ـ يمثل محاولة جادة جديرة بالتقدير .

طلال سالم نايل الحديثي

◆

البير كامو ـ للوتمان

■ لقد كتب الكثير من البحوث والمقالات حول نتاج كامو ، خلال حياة الكاتب وبعد وفاته . الا ان حياته بقيت محاطة بنوع من السرية حيث لم توح لاحد من المؤرخين او الكتاب بتناول احداثها . ولكن .. بعد ثمانية عشر عاما على اختفاء كامو (جائزة نوبل 1957) ، صدر كتاب « البير كامو » للصحفي الاميركي هربرت .ر. لوتمان في700 صفحة تحمل كل واحدة منها العديد من الاحداث التي عاشها القصصي الراحل .

لم يكتف لوتمان باستجواب المقربين الى كامو الذين سبق وان تحدثوا بالكثير عنه : سيمون دوبوفوار ، جون دانييل ، ماكس بول فوشيه ، جون غرنييه ، باسكال پيا ، ايمانويل روبلس .. كما لم يتحدد برواية الاحداث المعروفةالتي عاشها كامو ، مواقفه من الدراما الجزائرية مثلا . لقد توجه لوتمان الى اناس ظلوا حتى الآنمجهولين بالنسبة للجمهور رغم معرفتهم التامة بكامو ومواكبتهم لكل الاحداث التي عاشها ، فمثلا نحن نملك الآن معلومات اكثر من تلك التي كان كامو سيسجلها في كتابه« الرجل الاول » والذي اراده سيرة ذاتية منعه القدر من اكماله: عناستيطان عائلته في الجزائر ،عن الرجفات الاولى التي احسها علامة لاصابته بمرض السل ، عما قراه من الكتب او ما اراد كتابته منها : نحن نعرف الآن ان كامو كان اقصر من ابيه بسنتمترين ، وان الاخير قد مات سنة 1914 ، وان كامو قد حصل على درجتين سيئتين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المدرسة ، في شهر ايلول سنة 1923 . بالاختصار .. لم يعد هناك ما يخفي علينا من دقائق حياة البير كامو .

اننا نتألم لكامو ونحن نسترجع ماضيه .. كامو الذي كان يحمل في نفسه خجلا شبه خرافي والذي كان لا يكره اقل من مالرو فضول العصر. لقد قال : « ستأتي اللحظة حين سنهتم بتفوق النتاج اكثر من اهتمامنا بمبدعه » . لقد قال ذلك قبل الحرب، اما بعدها فقد كتب : « الكاتب مدين بنتاجه الى الجمهور اكثر منه الى شخصه » .

نلاحظ في كتاب لوتمان ان الاستشهادات المتعددة بما قال او كتب كامو لا توضح الكثير من الحقائق بقدر ما تفرض نوعا من التماسك المصطنع . كما ان تراكم الاحداث « الخام » الذي التجا اليه المؤلف يضعنا وجها لوجه مع الموضوع .. احرار من عملية الاستنتاج ، وحيرى .. كما لو كنا نعيش الواقع ذاته . ان الصفحات السبعمئة التي تؤلف كتاب لوتمان لا تدين كامو بل تعيد اليه حقه في الغموض : ميزة الاحياء .

نعرف عن كامو ايضا انه ضعيف الاعصاب والرئتين معا ، وان اليأس يترصده في لحظات حاسمة وخاصة في لحظات المجد الكبيرة ، نضيف الى ذلك ان الملاحظات والمحاورات التي يحتويها الكتاب تعكس حالات خوف متواترة يصاب بها الكاتب ، من فقد قدرته الخاصة على الكتابة ، وانه التجا الى المسرح في سبيل انتزاع نفسه من مشاعر فشل مؤلمة . لقد اصيب كامو بالاضطراب وبالقلق حين علم ان جائزة نوبل قد خصصت له عام 1957 ، وكان يعتقد ان مالرو احق بها منه ، فمع هذه الجائزة لن يكون في امكانه التمتع بحقه في ان يقول ما يريد قوله كما سيترتب عليه دفع ثمنها من راحته الخاصة . وفي الواقع، لقد اظهر العديد من اصدقائه نوعا من التحفظ تجاهه بعد استلامه الجائزة ما عدا : دانييل ، غرنييه، روبليس ، جول روي ، واسرة غاليمار .

ونذكر هنا ان باسكال بيا الذي كان يظهر له عواطف تفان اخوية ، سرعان ما تحول الى موقف التحفظ القاسي . كما وقع تأييد الجمهور والصحافة الاجنبية لقرار وهب كامو جائزة نوبل موقع تناقض مع موقف « زملائه » الفرنسيين . لقد اظهر نيميبه استهزاءه برئتي كامو الضعيفتين ! » وتحدث لورون عن « النتاج المنتهي » في حين وصفه آخرون « بالمفكر الصغير الهش » ! لقد كان الرجعيون يتهمون كامو باليسارية واتهمه هؤلاء بالرجعية، الملحدون اتهموه بالتدين في حين اعتبره المتدينون مؤمنا جاهلا . ويضاف الى الاعداء اليساريين واليمنيين ، الحاسدون .

ترى ما سبب هذا الاجماع على عداء كامو واحتقاره ؟ بكل بساطة لان رجال الفكر الفرنسيين اعتادوا نبذ اولئك الذين لا يتخذون لانفسهم موقعا ثابتا . لقد اعتبره الفلاسفة ما عدا غرنييه ، كاتبا ، في حين اعتبره الكتاب فيلسوفا .

لقد كان كامو يبحث في الواقع عن الموقف الامثل والجدير بالشرف الانساني . فازاء قضية الجزائر مثلا ، اتخذ كامو موقف الرافض والمدين للاضطهاد الاستعماري الا انه كان يرفض ذات الوقت رحيل المستوطنين الفرنسيين وحين ادرك ان مشروعه حول « الهدنة المدنية » غير ذي مفعول التجا الى الفعل الذي لا يلتجيء اليه المثقفون الا نادرا : لقد التزم الصمت .

لقد كان كامو يعيد كل شخص الى ضميره كمواطن والى مهنته التي يمارسها . وفي قمة تلك الفترة حيث اصبح كل شيء يرتبط بالسياسة اتخذ كامو لنفسه قاعدة اخرى الا وهي : الاخلاق . لقد كتب كامو في مذكراته سنة 1946: « لست سوى رجل متوسط .. بل ضرورة » .

ضرورة : انها الكلمة الوحيدة التي يمكن فهمها واحترامها

السؤال الذي يطرحه وجود كامو وروايته من قبل لوتمان هو : من اين اتت هذه الضرورة الملحة ؟

هل هي ضرورة انسان كادح رفض الخضوع يوما ، في دخيلته، الى الفئة المصطفاة التي تمثل اعيان باريس ؟ في الواقع ، لم يتحدث كامو عن جذوره الفقيرة الا حين اثار [illegible] الموضوع معه . وبعد ان اصبح كاتبا شهيرا طبعت مؤلفاته بآلاف النسخ اقر كامو بانه قد فقد قليلا الحق في ان يتحدث عن الفقر . وفي الواقع انه لم يتحدث مطلقا باسمه كما كان يرفض ان يتحدث الكتاب ، واغلبهم من عوائل متيسرة الحال ، عن الفقراء وآلامهم .

ان اصول واستمرار هذه الضرورة تتواجد دون شك في الحضور الصامت الذي ميز حياته كلها كما يميز كتاب لوتمان : في كوخ قذر في « بيلكور » حيث استطاع كامو ان يتخلص بمعجزة من المصير الذي يترصد بأمثاله ، كانت هناك امة ، تلك المراة الارملة والجاهلة التي قال عنها انها المصدر الوحيد لرهافة احساسه ، التي فضلها على الحق حين اجبرته الدراما الجزائرية على الاختيار ، التي انتظر منها ان تشير اليه باستلام جائزة نوبل او رفضها التي اجابته حين اعلمها بانه قد رفض دعوة وجهت اليه لزيارة الاليزيه : حسنا فعلت « انهم اناس ليسوا من طرازنا ! »

◆ **ترجمة : ميسون ابو الحب**

صانعو الشمس

■ الآري آري (وتعني الناس) شعب من عشرة آلاف نسمة ، يسكنون مالايتا احدى جزر ارخبيل سالمون في المحيط الهادي شمال شرقي استراليا ..

عام 1893 وضع الانكليز معظم جزر سالومون تحت حمايتهم . ولكن الآري آري رفضوا الزراعة الاحادية والاستعمار .

وهكذا بدات المقاومة السرية التي تحددت ملامحها خلال الحرب العالمية الثانية عندما وقف الآري آري الى جانب الامريكان في معاركهم ضد اليابان، فقد وجدوا في موقف الجنود السود والبيض الذين كانوا يحاربون جنبا الى جنب نوعا من اللامركزية هي النقيض تماما لتصلب الموظفين والقسر البريطانيين .

وابتداء من سنة 1943 تاسست حركة المقاومة المسماة « بالاخاء » . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها القى البريطانيون بزعماء هذه المنظمة في السجن ، غير ان نضالا عنيدا بدأ هذه المرة ليحصل بعده الآرى آرى على الاستقلال وذلك في شهر تموز الماضي .

ومنذ عام 1963 قامت بعثتان من المعهد الوطني للابحاث العلمية في هذه الجزيرة . وكان نتيجة هذه السنوات الطويلة من البحث الكتاب الذي ظهر مؤخرا في فرنسا تحت عنوان « الآري آري ، شعب مالينيزى وموسيقاه » لمؤلفيه دانيال دي كوبيت وهوغو رامب اللذين عاشا بين سكان الجزيرة وتعرفا على مناضليها .

واول ما يشد القارىء في هذا الكتاب هو الترجمة الرائعة للاساطير والحكايات الشعبية القديمة، وهي حكايات تعبق شعرا وفرحا وتمتاز بحرية خلق مدهشة تجعل قراءتهما شيقة ومريحة .

وحكايات الآري آري لا تشبه غيرها من الحكايات ولكنها تتوافق ورشاقة الرواة الافارقة

رسائل جامعية

ـ كالسودانيين مثلا ـ وعظمة القصائد الصينية القديمة ذات الطول اللا متناهي ..

انها حكايات رائعة وطريفة يرويها اناس تحت اسماء مستعارة كما في الاشرطة المصورة : «صانع الشمس» ، «المصارع» ، «مقتلع الصوان» ، «القاتل الليلي» .. الخ .

وتكشف هذه الحكايات شيئا فشيئا عن ملامح مجتمع لا مثيل له حيث الحب والقتل والحصول على الغذاء ، وبناء المنازل تقوم كلها على تبادل الحكايات التي لا تنتهي ..

ولان القاعدة الاساسية ظلت هي الموسيقى التي تعزف على ناي مصنوع من شجر الخيزران ، فان الآري آري عادة ما يستعملون آلات غير معهودة منها نايات صغيرة واخرى ضخمة ينفخون فيها الحانهم او يدقون اطرافها بواسطة حجارة مستديرة لتحدث بعد ذلك اصواتا متميزة .

وهناك ايضا الطبول الضخمة المحفورة في جذوع الاشجار والموسيقى «المائية» حيث يقوم المغنون بلطم المياه اثناء الغناء .

والكتاب يحتوي ، اضافة لما تقدم ، على مجموعة كبيرة من الصور الملونة التي تبرز لنا اهم جوانب الحياة اليومية للشعب الآري آري : طريقة عزفهم على آلاتهم الموسيقية ، طريقة بنائهم ، طريقة اعدادهم للطعام واقامة الحفلات ..

ولكي يجمعا بين الصورة والكلمة والصوت ، فقد الحق المؤلفان ، بآخر الكتاب ، اسطوانة مسجلا عليها بعض الاغاني والقصائد الشعبية .

◆ **محمد خالدي**

دور حزب البعث العربي الأشتراكي في العراق في الحركة الوطنية منذ تأسيسه حتى 14 تموز 1958

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تكتسب دراسة المسيرة النضالية لحزب البعث العربي الاشتراكي اهمية كبرى بالنسبة للوطن العربي . ففي ظروف التطور المتصاعد للحركة الشعبية من اجل التحولات الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية ، يكتسب البحث العلمي الموضوعي عن المصائر التاريخية للحركة الثورية وللشعب ، على اسس نظرية علمية اجتماعية ثورية ، صدى سياسيا واسعا ، ويمهد سبل التوعية السياسية ـ الاجتماعية للجماهير .

من هنا جاءت هذه الدراسة كاطروحة ماجستير دافع عنها صاحبها الاستاذ هادي حسن عليوي في قسم العلوم السياسية بكلية القانون والسياسة في جامعة بغداد . وحصلت على درجة الماجستير في العلوم السياسية بتقدير (جيد جدا) مع التوصية بطبعها على نفقة جامعة بغداد .

وقد قيمت لجنة المناقشة هذا البحث ، واشارت الى اهمية دراسة احدى الفترات الهامة في حركة الثورة العربية . والجدير بالذكر ان هذه الاطروحة هي الاولى من نوعها تتناول مسيرة حزب البعث العربي الاشتراكي النضالية في العراق في مرحلة الخمسينات .

واهمية هذه الاطروحة تاتي من اهمية الموقع القيادي للحزب في حركة الثورة العربية ، وبعد مرور حوالي عشر سنوات على تسلمه السلطة في القطر العراقي ، لا بد من (توثيق) تاريخ الحزب وبشكل اكثر خصوصية في هذا القطر المناضل .. خصوصا اذا علمنا ان هذا التاريخ لم (يوثق) لسببين :ـ الاول : هو الوضع الارهابي الذي عانى منه الحزب ، والذي نتج عنه اتلاف معظم الوثائق التي كانت تصدر عنه .. سواء باختيار الحزب او بسبب الملاحقة .. اما السبب الثاني : فهو ان تاريخ العراق السياسي المعاصر لم يسجل او يوثق بشكل علمي وشامل. لذلك جاءت هذه الدراسة لتفي بغرضين ، الاول : توثيق تاريخ الحزب في

تلك المرحلة ، والثاني : التحليل العلمي الواعي لوضع العراق الاقتصادي الاجتماعي والسياسي في مرحلة الخمسينات ، وفي ضوء ذلك وضع مؤشرات وآفاق المستقبل لنضال الامة .

ان مرحلة الخمسينات مهمة جدا في حياة العرب ، فخلال تلك المرحلة قامت ثورة 23 يوليو عام 1952 في مصر وثورة الجزائر عام 1954 ، وشهدت تلك المرحلة ـ ايضا ـ انتهاء فترة الانقلاب العسكرية الدكتاتورية في القطر السوري بقيام حكم تقدمي فيها في شباط 1954 ، كان للحزب دور فاعل في قيامه وقيادته ، كما شهدت ايضا فشل العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 ، والذي اكد على قدرة الانسان العربي على الصمود والتصدي وتحقيق الانتصار . وفي الاردن استطاعت القوى الوطنية ان تفرض نفسها على النظام الاردني وتقيم ، في عام 1957 ، حكومة وطنية برئاسة سليمان النابلسي ، وقامت ، خلال هذه الفترة ـ ايضا ـ وحدة مصر وسورية عام 1958 ، وثورة 14 تموز 1958 في القطر العراقي .

وجاء هذا البحث ليتناول فترة نشوء ونمو الحزب في العراق . ذلك ان اية دراسة عن دور الحزب في القطر العراقي يجب ان تبدأ بدراسة هذه المرحلة المهمة في حياة الحزب والجماهير . ذلك ان كل حركة سياسية انما هي محصلة نهائية لمجمل الظروف الموضوعية والذاتية لمجتمع ما . فالحركة السياسية التاريخية ليست مجموعة رغبات او تعبيرا للانفعال الآني المباشر ، وانما هي تنظيم واع للفعل العفوي للجماهير غير المنظمة ، ملخصة طموحاتها بصيغة برنامج سياسي ذي اهداف معينة ، وتشكل هذه الاهداف نفيا تاريخيا للتحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مرحلة معينة .

وبالنسبة للامة العربية والثورة العربية وخاصة في (المشرق) فان تاريخها المعاصر وبخاصة الثلاثين عاما الاخيرة قد اتسم بخصوصية تجربة حزب البعث العربي الاشتراكي . اذ ان هذا الحزب قد اثبت قدرته على النمو والتوسع بين صفوف الجماهير العربية الكادحة ، بالرغم من حداثة نشوئه ووجود قوى سياسية متمرسة ومدعمة محليا او دوليا ويمتلك بعضها ايديولوجيات تتسم بالوضوح الى حد كبير .

وخلال فترة قصيرة من عمر التاريخ وبقدرات استثنائية تمكن الحزب من قيادة الحركة السياسية والاجتماعية في اقطار عربية مهمة ، فقد لعب دورا بارزا في تحقيق اول خطوة وحدوية في التاريخ العربي المعاصر باقامة الجمهورية العربية المتحدة عام 1958 ، كما انه استطاع تسلم السلطة السياسية في العراق وسورية عام 1963 .

وبالرغم من الانتكاسات الكبيرة التي عانى منها الحزب على صعيد السلطة والتنظيم بشكل خاص ، سواء في العراق او سورية ، فقد استطاع الحزب في القطر العراقي اعادة بناء تنظيمه ، وتسلم السلطة من جديد في 17ـ30 تموز 1968 . مبرهنا بذلك بأن حيوية برامجه وافكاره قادرة على ابتكار صيغ نضالية مستجدة لاعادة تنظيم صفوفه وقيادة الجماهير في النضال السلبي او النضال الايجابي .

وفي مرحلة خطيرة كالتي تمر بها الامة العربية من حيث طبيعة التحدي الامبريالي الصهيوني ، فقد برز اتجاهان في المنطقة العربية :

الاول : بشكل استجابات قطرية (اقليمية) في محاولة للهروب من مواجهة التحدي .

الثاني : بشكل استجابات قومية اشتراكية كأسلوب وحيد لمواجهة التحدي وحسم الصراع لصالح حركة الثورة العربية .

ويتطلب هذا الواقع دراسة العوامل الموضوعية والذاتية لقيام اول تنظيم قومي اشتراكي في الوطن العربي . نشير بذلك الى حزب البعث العربي الاشتراكي . فجاءت هذه الاطروحة لتتناول بالتحليل اهم المراحل التاريخية التي مر بها الحزب في القطر العراقي . فبقدر ما تلقي هذه الدراسة من اضواء على طبيعة نشوء الحزب وبرامجه واهدافه في قطر معين ، فانها ـ في الوقت نفسه ـ تلقي ضوءا على اتجاهات تطور الثورة العربية في المراحل الحالية والقادمة ، ذلك لان التاريخ كل موحد ولا يتقطع بشكل مراحل متنافرة ، فالماضي القريب او البعيد يشكل عاملا مهما في اعادة تشكيل الواقع والذي بدوره سيكون الاساس الذي ينهض فوق المستقبل .

وتكتسب تجربة نشوء ونمو الحزب في العراق اهمية خاصة في تاريخه نظرا لطبيعة الحركة الوطنية والاتجاهات التي سادت خلال فترة البحث . فالحركة الوطنية في العراق قد سبقت في وجودها قيام الحزب بسنوات عديدة ، وامتلكت تجارب لا يستهان بها على صعيد العمل بين الجماهير ، بيد ان نشوء الحزب نقل الوعي السياسي من صيغته التقليدية الى صيغ ارقى مكتشفا قانونية تطور المجتمع العربي من خلال تلازم النضال القومي بالنضال الاجتماعي .

لقد اعتمد في هذه الدراسة على اسلوب تحليل الواقع والاحداث في محاولة لتلمس الصلة بين المقدمات ونتائجها بحيث تكون في سياق منطقي علمي . وفي ضوء ذلك كان لا بد من اعتماد المنهج التحليلي حيث ثمة وقائع مترابطة تتطلب النظر اليها من زوايا متعددة لاظهار طبيعة الصلة فيما بينها ، اذ لم تكن تلك الوقائع الا تعبيرا عن العلاقة الجدلية بين واقع موضوعي متخلف وبين حركة تشكل نفيا لهذا الواقع . وبدون هذا المنهج ـ حيث ان الحزب كأي حركة تاريخية انما هو تعبير عن الصراع المتعدد الجوانب سواء كان في القطر او الوطن العربي ـ لم يكن بالامكان اكتشاف سياق تطور مقدمات نشوء الحزب (المتواضعة) لتعطي نتائج كبيرة .

ان هذه الدراسة ، وتطور الواقع الموضوعي في العراق والوطن العربي ، وبشكل خاص مرحلة نشوء الحزب قادت الى تأكيد حقيقتين مهمتين :

الاولى : ذات بعد يتسم بحتمية نشوء الحزب ، حيث ان تطور الظروف الموضوعية (اقتصاديا ، اجتماعيا ، وبشكل اكثر خصوصية سياسيا) افرز حتمية ولادة حركة سياسية متجاوزة كثيرا من سلبيات الحركات السياسية الاخرى ، لتعبر عن حاجة المجتمع العربي في تجسيد الطموح القومي والاجتماعي في برنامج سياسي .

الثانية : ان تطور الواقع الموضوعي لوحده لم يكن ليصب تلقائيا بهذه النتيجة ، ولهذا فقد لعبت القيادة التاريخية للحزب دورا اساسيا وحاسما في تلخيص الواقع الموضوعي ووضع مبادىء البرنامج السياسي لتنتقل بالممكن الموضوعي الى واقع راهن بصيغة (حزب البعث العربي الاشتراكي) .

وتأسيسا على هذا النهج نخلص الى نتيجة مهمة جدا ، هي ان المقدمات الموضوعية (حجم التحديات) التي رافقت نشأة الحزب في العراق كان لا بد لها ان تقود الى النتيجة المنطقية التالية : وهي : ان حزبا يمتلك برنامجا علميا واضحا وقيادة تاريخية ذا حضور نضالي مستمر ، كان

وانما ليستمر في قيادة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وردت في مبادئه وبرامجه .

وبالرغم من اهمية هذه المرحلة وتفرد تجربة الحزب بين تجارب الحركة الوطنية في القطر العراقي ، الا ان فترة البحث هذه لم تكن موضوعا الا الى القليل من الدراسات والبحوث العلمية ، اضافة الى ندرة المصادر الرسمية ، ولا تحوي تلك الدراسات سوى بعض الاشارات المتفرقة وحسب المناسبات الوطنية والقومية . وهذا ادى الى بذل جهود كبيرة ، اثمرت الحصول على وثائق رسمية ـ مهمة جدا ـ لم تنشر لحد الان افادت البحث بشكل كبير . ولكن لا بد من الاعتراف ـ انه بالرغم من ذلك ـ فان ندرة المصادر احيانا ، ادت الى الاعتماد على المقابلات الشخصية ، والتي تجاوزت المئة مقابلة مع بعض قادة ومناضلي البعث في تلك الفترة ، وبعض قادة الحركة الوطنية في العراق .

ان طبيعة المرحلة ومنهجية البحث فرضت تقسيم الدراسة الى ستة فصول كانت على الشكل التالي :

الفصل الاول :

نشأة حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية .

وتضمن هذا الفصل في مبحثه الاول دراسة للظروف السياسية التي مرت بها سورية بعد الاستقلال ، وكذلك دراسة للاحزاب السياسية في سورية لذات الفترة ، بينما شمل المبحث الثاني دراسة عن نشأة حزب البعث العربي الاشتراكي ، الاسباب والمبررات ، مرحلة ما قبل التاسيس، المرحلة التاسيسية ، واختتم هذا الفصل بدراسة تفصيلية عن دمج حزبي البعث العربي الاشتراكي ، الاسباب والمبررات ، مرحلة ما قبل التأسيس،

ان التطورات التي افرزت استقلال سورية تؤكد حقيقة جوهرية تتمثل بتعاظم الوعي الوطني والقومي، فمن خلال الصراع ضد الاستعمارين التركي والفرنسي ، الذي اخذ صيغة انتفاضات شعبية ، مسلحة تارة وسلمية تارة اخرى ، تبلورت اتجاهات سياسية تنبع من واقع حركة الصراع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وكان لهذه الحقيقة الدور الكبير في اسباغ الصفة التنظيمية على هذه الاتجاهات السياسية ذات البرامج المتسمة بالوضوح الايديولوجي وبالواقع التنظيمي المتميز ، وبوقت يعتبر مبكرا قياسا الى اقطار المشرق العربي الاخرى . اضافة الى بروز تكتلات سياسية اخرى تفتقر الى مثل هذا الوضوح على الصعيد الايديولوجي والتنظيمي معتمدة على دور الزعامات التقليدية التي كان لها الدور الكبير في قيادة نضال الجماهير في الثلاثينات وأوائل الاربعينات .

ومن خلال دراسة الاحزاب السياسية تلك تبين انها مثلت ثلاثة اتجاهات هي :

ـ **اتجاه قومي :** ويندرج تحته حزب الكتلة الوطنية ، الحزب الوطني ، حزب الشعب ، عصبة العمل القومي ، وحزب الشباب . وعلى الرغم من تاكيد هذه الاحزاب على الطابع القومي . ولكن برامجها وسياستها كانت تفتقر الى الاصلاح الاجتماعي او النظرة الاشتراكية .

ـ **اتجاه قطري اقليمي :** وقد مثل هذا الاتجاه الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذي رفع شعار سورية للسوريين والسوريون امة واحدة . والحقيقة ان كل ما اورده الحزب من حجج مؤيدة لوجود (قومية سورية) قد اثبت التاريخ بطلانها . وقد لعبت افكار البعث دورا كبيرا في التاثير على افكار هذا الحزب فطرات على افكاره تطورات كبيرة وايجابية لصالح القومية العربية والوحدة العربية والمجابهة المصيرية مع الكيان الصهيوني .

ـ **الاتجاه الاخير الاممي اللا قومي** ، وهو الاتجاه الذي تخطى حدود القومية العربية ، وقد مثل هذا الاتجاه جماعة الاخوان المسلمين والحزب الشيوعي السوري .

فبالنسبة للاخوان المسلمين فانهم يرجعون اسباب التخلف والفسادعند العرب والمسلمين الى عدم تمسكهم باهداف الدين . كما انهم يعتبرون الافكار القومية والاشتراكية افكارا غريبة عن جوهر الدين ومصلحة المسلمين . لقد ادى تطور الوعي القومي والاشتراكي الى ضعف هذه الجماعة وانحسار قوتهم وانتهائها على الصعيد السياسي والجماهيري .

في حين لم يلب الحزب الشيوعي السوري طموحات الجماهير ، بل ونجده يقف ضد هذه الطموحات خاصة ازاء القضية الفلسطينية والوحدة العربية .

لقد اثبتت دراسة تطور حركة الواقع العربي بان الاتجاهات السياسية التي ظهرت قبل ولادة حزب البعث العربي الاشتراكي لم تكن قادرة ذاتيا او موضوعيا على استيعاب حركة التطور وطموح الجماهير العربية على صعيد النضال القومي والطبقي . ويفسر ذلك الضرورة التاريخية لنشوء وتطور حركة ثورية جديدة يكون موضوعها الامةالعربية ومضمونها الاشتراكية .

لقد اوضح المبحث الثاني . مبررات ودوافع ونشأة حزب البعث العربي الاشتراكي مؤكدا على الطبيعة الثورية لهذا الحزب ، وعلى المعايير الجديدة التي طرحها في السياسة العربية ، وعلى المسيرة النضالية الاولى للحزب سواء على الصعيد الوطني او القومي .

الفصل الثاني :

ايديولوجية حزب البعث العربي الاشتراكي .

تناول هذا الفصل العوامل التي ساهمت في بلورة ايديولوجية الحزب ، ثم اوضح السمات الاساسية لهذه الايديولوجية ودراسة عن مفهوم البعث للقومية الذي اكد على : ان القومية حقيقة موضوعية تنبع من ضرورات المجتمع الانساني ، ومن شعور الجماعة بوحدة مصيرها ، فهي ليس حدثا جديدا في التاريخ ، كما اكد الحزب على البعد الانساني للقومية . وربط الحزب ولاول مرة بين القومية والاشتراكية والحرية . ومؤكدا على ان مفهوم القومية الذي تبناه الحزب يتمثل في ارادة الشعب العربي في ان يتحرر ويتوحد ويبنى مجتمعه الاشتراكي .

كما ناقش الفصل اهداف الحزب الثلاثة : الوحدة ، الحرية ، والاشتراكية مؤكدا على ان الوحدة العربية هي فكرة جديدة ترافق وتوجه النضال الديمقراطي والاشتراكي التحرري الثوري . وموضحا مفهوم الحزب للديمقراطية الشعبية والطريق الخاص بالاشتراكية .

وقد كشف البحث عجز البرجوازية المحلية عن قيامها بمهمات الثورة القومية الاشتراكية للاسباب التالية :

1 ـ ضعف البرجوازية المحلية ، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .
2 ـ ارتباط شريحتها الكومبرادورية بالراسمال العالمي ، الامر الذي جعلها معادية لاهداف الجماهير .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

3 ـ الضغوط التي يمارسها الراسمال العالمي (الامبريالية العالمية) على البرجوازية المحلية لأبقائها في اطار التبعية الاقتصادية .

4 ـ الضغوط التي تواجهها البرجوازية المحلية من الجماهير الكادحة في الوطن العربي بغية التخلص من التبعية الاقتصادية .

وقد كشفت النكسات التي مرت بالامة العربية عجز البرجوازية عن قيادة الجماهير . فكان طبيعيا ان تقود الطليعة الثورية العربية هـذه الجماهير لتحقيق اهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية .

الفصل الثالث :

وضع العراق بعد الحرب العالمية الثانية .

قسم هذا الفصل الى مبحثين الاول شمل الوضع الاقتصادي الاجتماعي ، فيما شمل الثاني الوضع السياسي . اكد فيهما من خلال البحث والاستقصاء الدقيق على جملة امور ، هي :

1 ـ سيادة العلاقات القبلية بشكلها البطرياركي (الابوي) حيث كان زعيم القبيلة (الاقطاعي لاحقا) بمثابة الاب الروحي والزعيم السياسي للقبيلة ، وقد لعب تكوين القبيلة (البدوية) باعتبارها وحدة اقتصادية واجتماعية واحدة دورا كبيرا في استمرار هذه الظاهـرة .

2 ـ تفاقم الاستغلال الاجتماعي ، وبشكل خاص استغلال الفلاحيـن المعدمين الذين يشكلون اعلى نسبة من السكان .

3 ـ صغر حجم الطبقة العاملة ، وتدني مستواها التعليمي ، حيث توضح احصائيات الخبراء المختصين انخفاض مستوى التعليم لعموم الطبقة الكادحة . وهذه الحقيقة تتكشف امامنا عندما نعلم ان 80٪ مـن الرجال و95٪ من النساء من غير المتعلمين .

4 ـ عجز البرجوازية في تصنيع البلاد بسبب طبيعتها الكومبرادورية (وسيطة) الامر الذي منعها من اخـذ دورهـا التقليدي في قيـادة المجتمـع .

5 ـ انخفاض الوعي والثقافة ، وتفشي الامية بشكل عام بين الطبقـات الكادحة، وسوء الوضع الصحي، الامر الذي ادى الى انحصار التعليم والثقافة بفئة قليلة من الشـعب (المثقفـون) من طلبـة وموظفيـن وعسكريين ، الامر الذي ادى الى رفع مستوى وعيهم السياسـي لدرجة اصبحوا فيها يشكلون وعي الشعب وطليعته .

6 ـ عزلة الفئة الحاكمة عن الشعب ، وبسبب اساليب القمـع والبطش التي استخدمتها ضد الشعب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، اضفى ذلك على نضال الجماهير طابع العمومية لدرجة اصبحت الغالبيـة العظمى من الشعب كمفهوم في مقابل السلطة .

وبسبب هذا الطابع من جهة وتفاقم القمع البوليسي من جهة ثانيـة فقد اصبحت مسالة قيادة الطليعة الثورية للنضال الجماهيري مسـالة اساسية واكثر يسرا .

وجاءت اجازة الاحزاب السياسية (في 2 نيسان 1946) لتبـدا مرحلة جديدة من النشاط السياسي ، استندت فيه الاحـزاب العلنيـة في كفاحها ونشاطها على العمل الدستوري والطريق الاصلاحي، فلم تستطع احزاب الحركة الوطنية (الوطني الديمقراطي، الاستقلال، الاتحاد الوطني، الشعب ، والشيوعي) ان تلبي طموحـات الشـعب وامانيه القوميـة والوطنية والاجتماعية ، مما ادى بالضـرورة الـى قيـام حزب قومي اشتراكي يلبي طموحات الشعب العراقي والامة العربية ، فقد كـانت الارض العراقية والعربية مهياة لقيام حزب قومي اشتراكي ، يستخدم الاسلوب الثوري العلمي الشـعبي في مواجهـة التحـدي الامبريالـي الصهيوني والتخلف والاستغلال الذي تعاني منه الامة .

الفصل الرابـع :

نشاط الحزبين الشيوعي والاستقلال (عرض وتقييم)

اوضحت الاطروحة عند دراسة نشـأة حـزب البعث العربـي الاشتراكي في سورية ودراسة ايديولوجيته وكذلك نشاطه ، انـه حزب قومي اشتراكي ثوري . فكان من الطبيعي ان يتسم فرع الحـزب في العراق بهذه السمات ، وان اختلفت ظروف نشأته وتطـوره عنهـا فـي سـورية .

فكان لا بد من دراسة للتيار القومي والتيار الاممي الاشتراكي ، في العراق ، اللذين مثلهما حزب الاستقلال بالنسبة للتيار الاول والحزب الشيوعي العراقي بالنسبة للثاني . ان حزب البعث العربي الاشتراكي كان ضرورة تاريخية لظروف الامة العربية . وجاء هذا الحزب ليتجاوز هذين التيارين ، فحزب الاستقلال الذي رفع راية القومية والوحـدة وثقف اجيالا متعددة بهذا الايمان القومي ، ولكـن نقـص الرؤيـة الاشتراكية والاسلوب الثوري كانا بمثابة دعوة الـى قيام حزب اخـر قومي ، ولكنه ذو رؤية اشتراكية ومنهج ثوري شعبي .

ومن ناحية اخرى فان الحزب الشيوعي العراقي بنضاله الوطني كان قد هيأ اجيالا من الشباب المؤمن بالاشتراكية . ولكـن اشـتراكية الحزب كان ينتقص منها غياب الرؤية القومية العربية الواضحة وغياب البرنامج الوحدوي وتجاهل الخطر الصهيوني . مما جعل اشـتراكية الحزب الشيوعي تصرخ بالحاجة الى اشتراكية ذات منهـاج وحدوي واضح ، وطريق خاص ينبثق من التجربة العربية .

هذه الحقائق كانت بمثابة احد الاسباب الرئيسـية لانتشـار حزب البعث العربي الاشتراكي ، فأوضاع الوطن العربي والعراق كانت تصرخ بالحاجة الى حزب قومي اشتراكي وثوري وذي تنظيـم حديـدي ينازع الاعداء . اما الاسلوب الاصلاحي واللا ثوري (لحزب الاستقلال) فلم يكن مقنعا ولا مجديا ، كذلك فان الاستجابة لمشكلات الثـورة القومية بالنسبة للشيوعيين كـانت ضعيفة وليست في مستوى التحدي ، بل ومناقضة لمسيرة الثورة القومية ، في تلك الفترة ، وبخاصة مواقفهم من القضية الفلسطينية والوحدة العربية .

الفصل الخامس :

نشاة حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق .

لاول مرة تتناول هذه الاطروحة نشاة الحزب في العراق . فجـاء هذا الفصل استقصاء لحقائق نشاة الحزب في العـراق ، كيـف بـدأت افكار البعث تنتقل من سورية الى العراق وقيام الحزب في العراق فـي اواخر الاربعينات واسماء الحلقات الاولى من مناضلي البعث، والبدايات الاولى لمسيرة البعث النضالية في العراق . ودراسـة عـن الوسـائل الطباعية للحزب ، وكيفية انتشار الحزب في محافظات العراق جميعها والقيادات الاولى للحـزب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما درس هذا الفصل بشيء من التفصيل الوضع التنظيمي للحزب ـ خلال فترة البحث ـ فجاءت بهذا الفصل دراسة تفصيلية للمؤتمرين القطريين الاول والثاني المنعقدين في اواخر كانون اول 1955 واوخر كانون اول 1957 على التوالي . اضافة الى دراسة المجالس القطرية الاربعة التي عقدها الحزب خلال ذات الفترة والتوصيات التي خرجت عنهـا .

فبالاضافة الى ان ظروف الامة العربية والعراق كانت وراء نشاة الحزب وتطوره بشكل سريع . فأن ممارساته النضالية واسلوب تعامله مع الاحداث برهن للجماهير بانها ازاء حـزب تتطابـق برامجـه مـع ممارساته . فقد عمل الحزب منذ نشأته بين صفوف الكادحين معبرا من خلال نضاله اليومي عن مطاليبهم الحياتية والسياسية .

ولذلك فقد فرض اسلوب العمل السري بين الجماهير نفسـه على الحزب كبديل عن العمل السياسي العلني ، وقد حال ذلك بيـن النظام الملكي وبين تصفية كوادر الحزب ، كما انه اظهر شجاعة البعثيين في مواجهة السلطة ، وكان ذلك مثار اعجاب الجماهير التي اخـذت تنخرط في صفوفـه .

التزام الحزب باسلوب المركزية الديمقراطية داخل التنظيم بشكل انعكس بقوة التنظيم المتزايد وشدة تماسكه .

لقد كان انتشار الحزب في اوساط الطلبـة مـن ابناء الطبقـات الكادحة ، الذين اخذوا على عاتقهم نشر فكر الحزب وتوسيع تنظيمه بين ابناء الطبقات الكادحـة .

لم يتوقف الحزب في نشاطه عند فئة اجتماعية معينة او قطـاع معين من الجماهير الكادحة، لذلك عمل ايضا على كسب العسكريين ذوي الاتجاهات القومية التقدمية ادراكا من الحزب لاهمية دور الجيش في الحركة الوطنية والقومية باعتباره اداة رئيسية في التغييـر الثـوري للسـلطة .

لقد اوضحت الاطروحة الاساليب التي كان يستخدمها الحـزب للحفاظ على نقاوة الحزب وسلامة التنظيم ، فقد كان هناك تشـدد ملحوظ في امور الانضباط واحترام القيادات وقدسية الاجتماع الحزبي والمحافظة على هيبة الاجتماعات الحزبية وتنفيذ التعليمات والاوامر الحزبية ، حيث نجح الحزب في تربية اعضائه على الانضباط الحزبي، والتحلي بالقيم الثورية والتعامل الجيد مع المواطنين ، والابتعاد ونبذ كل التقاليد البالية ، وان يكون سلوك البعثي في اعلى درجات الاخلاق، وان يراعي الابتعاد عن كل مظاهر فساد المجتمع . كما شدد الحـزب على العناصر الجديدة التي تروم الدخول الى التنظيم الحزبي فاطال مدة التجربة والاختبار وادخال هؤلاء في سلسلة من التجـارب النضاليـة الطويلة قبل قبول انتسابه وحصوله على عضوية الحزب .

وبذلك استطاع الحزب حماية تنظيماته من التصدع والانكشاف من جهة وتجسيد اهدافه ومبادئه في تنظيمه من جهة اخرى .

الفصل السادس :

نشاط حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق .

تناول هذا الفصل بشيء من التفصيل ـ نشاط حزب البعث العربي الاشتراكي ـ خلال فترة البحث ، على الصعيد الداخلي والقومي موضحا الموقف من النظام البرلماني واللعبة الانتخابية ونشاطه على صعيد الطبقة العاملة والحركة النقابية والفلاحين والطلبة، وموقفه ونشاطه من الثروة النفطية ، حيث كان الحزب اول من رفع شـعار تاميم النفط . كما اوضح هذا الفصل نشاط الحزب من اجـل اقامة الجبهة الوطنية ودراسة عن موقف الحزب من ثورة 14 تموز 1958 وتنظيمات الضباط الاحـرار .

وعلى الصعيد القومي بينت الدراسة نشاط الحزب في هـــذا المجال ، اما في المسائل الدولية فقد تناولت الدراسة موقـف الحزب من المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، ومن حلف بغداد وسياسة الحياد الايجابـي .

لقد كانت الممارسة النضالية الاولى للحزب في العراق بمشاركته في انتفاضة تشرين الثاني عام 1952 ، وعلى الرغم من حداثة التنظيـم الحزبي للبعث ، كان دور الحزب في هذه الانتفاضة بارزا . وشهدت بذلك الصحف الحكومية آنذاك . كما انه وقف بوجه حلف بغداد منذ قيامه عام 1955 حتى انسحاب العراق منه عام 1958 .

في اواسط الخمسينات عندما كان الحزب في مرحلة التكويـن، حدث العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 ، الذي فجر انتفاضـة شعبية في العراق ، اسهم الحزب فيها بشكل قيادي ، وقد انعكسـت اثار هذه الانتفاضة على الحزب بشكل كبير من خلال :

— طرح شعاراته بشكل جماهيري لاول مرة .
— تطعيم تنظيمه بعناصر مناضلة جديدة .
— تطهير صفوفه من العناصر غير المناضلة التي كشفتها الانتفاضة.
— دعمت الانتفاضة خبرة مناضلي الحزب بظروف العمل الثوري بين الجماهير ، حيث ارتقت العلاقة بين الحزب والجماهير الى مستوى الثقة بقدرته على قيادتها وتحقيق اهدافها .
— برهنت الانتفاضة بان الحزب اصبح طرفا اساسيا وفاعلا فـي الحركة الوطنيـة .

وقد مارس الحزب دورا كبيرا في تطوير التعاون بيـن الاحـزاب الوطنية ، فاثمرت جهوده وجهود الاحزاب الوطنية الاخرى ، الـى تشكيل (قيادة ميدان) و (الجبهة الطلابية) خـلال انتفاضـة عـام 1956 ، وهما اللتان كونتا النواة لجبهة الاتحاد الوطني ، حيث بـذل الحزب جهودا مضاعفة في تقريب وجهات النظر بين اطراف الحركـ الوطنية ، كشرط مهم لقيام الجبهة . وقد نجح في ذلك حيث قامت جبهة الاتحاد الوطني في اذار 1957 . وكان للجبهة دور كبير في تنظيم النضال الجماهيري في القطر ، الذي توج بقيام ثورة 14 تموز 1958.

وبعد انحراف ثورة 14 تموز 1958 بدات مرحلة جديدة مـن النضال خاضها الحزب بكـل ايمـان وثقة محققا انتصاره العظيم في 8 شباط 1963 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جورجيو سترهلر ـ «المسرح الغنائي قصة حب»

■ كل تجارب القرن العشرين في مجال الاخراج المسرحي : ستانيسلافسكي ، غوردون كريج، مايرهولد ، لابيا پسكاتور ، بيرتولت بريشت ، تكاد تبدو وكأنها تصب في مجرى واحد لتبلغ في النهاية جيورجيو سترهلر وتصبح شكلا من اشكال الكمال .

بعد اخراجه لمسرحية « اعراس فيغارو » عكف سترهلر على العمل في مسرحية « سيمون بوكانيغرا » لڤيردي والتي تعرض حاليا في باليه ـ غارنيه . ولكن ترى ما الذي تعنيه الاوبرا بالتحديد لمؤسس « بيكوللو تياترو دي ميلانو » ـ افضل الفرق المسرحية في العالم.. لصديق شكسبير ، غولدوني ، تشيخوف ، بيرانديللو وبريشت ؟

جيورجيو سترهلر : تمثل الاوبرانظريا الوسيلة الامثل لتحقيق حلم « المسرح الشامل » .. الحلم الذي يراود الكثيرين ممن يسعون اليه في حين انه متواجد امام اعينهم، وذلك بسبب هذا المزيج من العناصر المختلفة التي تكون الاوبرا والطريقة الخاصة بهذا الفن المتجسدة في تجريد الاساسي من الحياة وجعله كونيا. واذا ما اردنا ، في التغريب، بالمعنى البريشتي للكلمة والذي يتناوله في عمله « كاستعارة » من الحياة ومن التاريخ ، لان الاوبرا لم تكن البتة رسما واقعيا . انني الح على كلمة « نظريا » لانني اشك في امكان تحقيق هذا النوع من الشمولية .

انها ماكنة مرعبة .. ان تقدم عروض كل مساء تحسب على حساب المسرح الغنائي ، بالرغم من عيوبها، ومساوئها . او فلاقل، من النادر جدا ان يحدث التقاء حقيقي وعميق بين مخرج وقائد اوركسترا ! كم من المخرجين من يفهم حقيقة في شؤون الموسيقى ؟ كم من قواد الاوركسترا ومن المغنين ممن يفهمون حقا في المسرح؟ ظروف العمل في طريقها نحو التحول بالتاكيد فالمغنون اصبحوا اكثر كمالا في فنهم .. واكثر انسانية من الممثلين انفسهم .

لقد كانت « ماريا كالاس » الظاهرة المطلقة ، الاولى للمسرح الاوبرالي المتكامل . بعدها ، وبعد بعض تجاربنا الجيدة في الاخراج المسرحي ، لا يمكن للمسرح الغنائي ان يسير الى الخلف . الا ان ظروف العمل ما زالت غير جيدة : انها مسالة زمن ..

ـ ما هو مستقبل المسرح الغنائي ؟ البعض يتحدث عنه كما لو كان فنا لا يستحق مكانا آخر غير المتحف ؟

ج. س : لم يكن هذا شعوري في أحد الايام ، رغم ان للمتاحف اهميتها الكبيرة تمثل استمرارية الثقافة ، نقطة تشخيص مطلقة الاهمية بالنسبة للحاضر . الا ان المسرح الغنائي يبقى ابدا وسيلة عظيمة ، ومعاصرة ، لتبادل الافكار ، وخاصة ، للتعبير عن العواطف العميقة . ان الاهمية المتعاظمة التي تهبها الاجيال الجديدة للموسيقى وللاوبرا ، ليست سوى شكل من اشكال ردود الفعل ضد البحوث الحديثة السوبرثقافية التي تميز جزء كبيرا من الفن المعاصر . ان ذلك ليس سوى اثارة « للاحاسيس » في الفن ، هذا الفن الذي يحتاج ، لاثبات وجوده لا الى الذكاء فقط بل الى القلب ايضا ، وايجاد علاقات حب يتغذى منها .

صحيح اننا نلاحظ لدى الجمهور تغيرا في القيم، بالنسبة للميلودراما. لم يعد للرواية وللقصة التفوق الذي كان يسمهما في السابق. ان الخيط الموصل ، المعنى الحقيقي للاوبرا يكمن في الموسيقى التي تحترق بالنسبة للمؤلفين الموسيقيين الكبار ، ـ في سبيل بلوغ وحدة مطلقة ، وشعلة واحدة ـ الجانب الادبي من الرواية .

ولكن ، في الاوبرا العظيمة ، لا نستطيع ان نقول ان هناك الموسيقى في جانب والكلام في الجانب الآخر . اذ ليس هناك في الواقع غير موسيقى الكلام أو الكلام ـ الموسيقى ـ الكلام ، في مد مستمر . وهنا تكمن الصعوبة او بالاخرى حجر العثرة، حين لا يتقن الموسيقي عملية تحويل الكلمة الى رمز محرق والى صوت معقد الى ما لا نهاية .. يجب ان تحتوي الموسيقى على كل ما يمكن للكلمة ان تعبر عنه فكل حركة ،كل تقطيبة روح ، يجب ان تصور . حين افكر في اوبرا ، احس نفسي مفتونا بهذا التعقيد . ان التقسيم هو مصدر انطلاقي الاول : الا انني لا اعتمد على الموسيقى على حساب الرواية ، بل على وحدة الاولى مع الثانية كما ابحث عن الاتفاق بيني وبين قائد الاوركسترا . في الواقع، انه هو الذي يجب ان يقود كل العمل ، الموسيقى والعرض . الا ان القليل من قواد الاوركسترا ـ لكي لا اقول لا احد ـ يملك مثل هذه الموهبة المتعددة الاشكال .

ـ كيف بدات العمل في «سيمون بوكانيغرا» .

ج . س : سيمون بوكانيغرا هي ميلودراما معقدة جدا واضافة الى ذلك فهي مجهولة من قبل الناس . ان هدفي شريف في الصميم : لقد اردت اعادة صياغة الاسلوب الجدير بسيمون دون رتوش وشوائب ـ ودون تنازلات ايضا . لا اخفي عليكم انه عمل متعب جدا ! ناعيد الى الحياة عملا اهمل واسيء فهمه لفترة طويلة . قد يكون اخراجي لهذه المسرحية تقليديا جدا فرغم ذلك فقد بدا انه من الافضل ان اخرجها بهذا الشكل بدل ان اغيرها لتكون معاصرة . احيانا يجب ان يملك المخرج الشجاعة لاخراج مسرحية بصورة تقليدية لكي ينسجم عمله مع واقع الرواية التي يعمل فيها ■

المذنبات والأوبئة

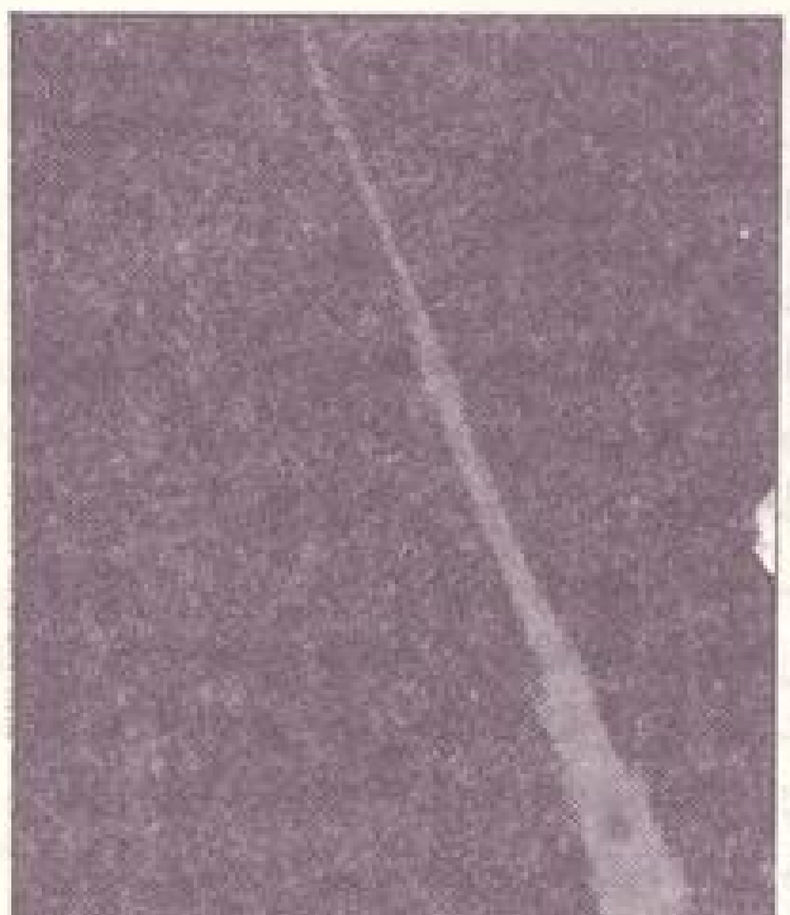

■ في العصور الغابرة كان الناس يعتقدون بان ظهور « النجوم ذات الذنب » في السماء (المذنبات) نذير لكارثة : هجوم الاعداء ، هزة ارضية ، وباء شامل . مرت قرون عديدة وتلاشى هذا الرعب من حياة الناس غير ان عالمين شهيرين هما فريد هويل وجاندرا فيكراماسينغ طرحا في ايامنا هذه نظرية جديدة مفادها ان هناك علاقة قوية بين الاوبئة و .. المذنبات .

من خلال تطويرهما للنظرية المثيرة للجدل حول الاصل الكوني للحياة على الارض فان هويل وفيكراماسينغ يفترضان ان سقوط عناصر المذنبات على كوكبنا الارضي يمكن ان يؤدي الى انتشار الاوبئة . فعلى سطح نواة المذنب توجد شروط « مثالية » لانبثاق الحياة من المادة الميتة بما في ذلك ظهور فيروسات وباكتيريا الامراض .

وتتميز جميع الاوبئة تقريبا بسرعة الظهور والانتشار في جميع مناطق العالم . ومن الصعب تفسير هذه السرعة اذا كانت العدوى تنتقل اما من الانسان الى الانسان او بواسطة القمل او القردان مثلا .

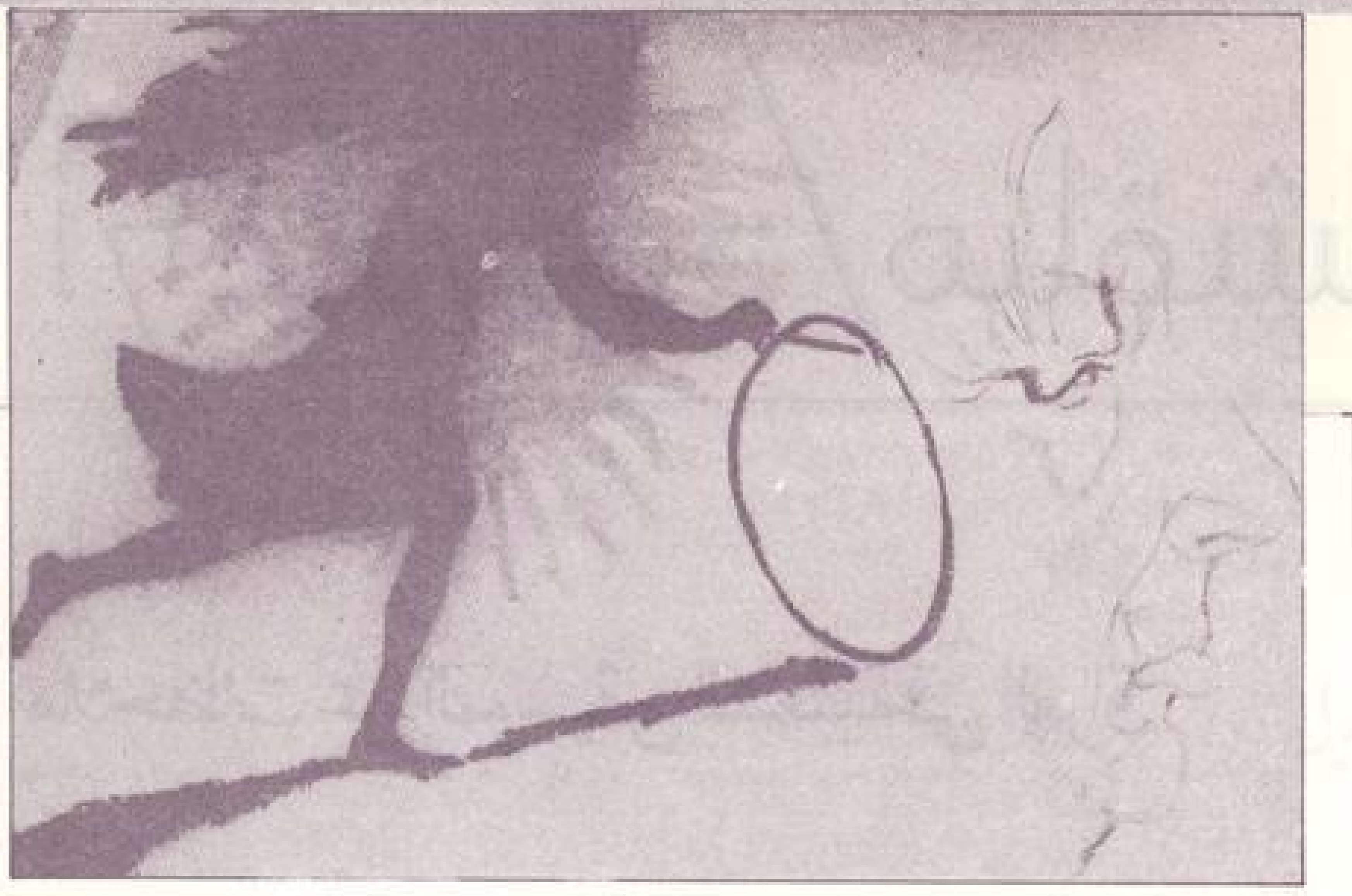

هذا مع ان الاوبئة الشاملة عرفت على الارض حتى قبل اختراع وسائل النقل الجوية وغيرها وعندما لم يكن الانسان قادرا على الانتقال السريع من مكان الى اخر .

ويرى العالمان المذكوران بان النظرية السائدة ـ وان كانت غير مؤكدة بصورة كافية ـ هي ان وباءا شاملا كالانفلونزا مثلا يبدأ نتيجة لتغير فجائي او لاعادة تركيب وراثي لفيروس او بكتيريا ما تنتقل فيما بعد من انسان لاخر . واذا كان الامر كذلك ، فانه من غير الواضح ، كما يعتقد العالمان ، سبب استمرار الوباء الشامل خلال فترة قصيرة نسبيا ـ حوالي عام واحد عادة ـ ولا يصيب جميع السكان من غير الملقحين بالمناعة .

وفي اعتقادهما ان مثل هذه الكارثة لا تلحق بالبشر لان جرثومة الوباء التي يسببها « القادمون من الفضاء » مباشرة تكون سريعة الطيران ، بينما يبدأ حامل جرثومة الوباء بالضعف سريعا عند انتقاله من انسان لاخر مما يؤدي بالتالي الى انحسار الموجة الوبائية خلال فترة قصيرة . ان موجات الامراض « الجديدة » المتكررة يمكن ان تعكس مراحل تطور جديدة لاشكال الحياة على المذنبات حيث توجد لها ظروف افضل مما توجد على الارض . وتصيب مسببات المرض الارض عندما يخترق مدارها « بقايا » مثل هذه المذنبات .

ويقول العالمان المذكوران اخيرا : « ان نظريتنا ، اذا ثبتت صحتها بطبيعة الحال ، ستكون لها اهمية بايولوجية وطبية كبيرة . ومن المحتمل ان يتطلب الامر القيام بمراقبة ميكروبايولوجية دائمة في الستراتو سفير لتجنب الفوضى التي يمكن ان يثيرها هجوم فجائي لعناصر غير ارضية » . ◆

مات شيريكو

■ لقد مات شيريكو وهو في التسعين من العمر ، هو الذي وصفه اندريه برتون بـ« الحارس في طريق يمتد على امتداد العين البشرية » ، والذي حيا فيه ابو للينير قبل الحرب العالمية الاولى « الرسام الاكثر اثارة للدهشة في الجيل الجديد » . وفي الواقع ، لقد كان شيريكو احد الاوائل في قلب الرؤية الفنية لعصره . لقد اعترف ماكس ارنست وتانغي وماغريت بفضله عليهم ، هو الذي كان يريد ان يكتشف « الشيطان المختبىء وراء كل الاشياء » وان يكتشف لنا عن « ان ظل رجل يسير تحت الشمس يحتوي على اسرار اكثر واكبر من تلك التي تحتويها الاديان السابقة ، الحالية او المستقبلية » .

لقد ولد شيريكو ، وهو فنان ايطالي في اليونان سنة 1888 ليصبح رساما في باريس . ففي هذه المدينة بدا الفنان ، كما عبر عن ذلك بنفسه فيما بعد ، في استشفاف « الخيالات الاولى لفن اكثر اكتمالا ، اكثر عمقا واكثر تعقيدا ، وباختصار .. اكثر ميتافيزيقية » . ولكن ماهو المعنى الحقيقي للنزعة الميتافيزيقية التي يتميز بها فن شيريكو ؟

فن شيريكو يتسم بكون بعيدا عن السطحية في الرؤية وبكون جوابا لتنبؤ جديد يحكمه المنطق . اللوحات الاولى لشيريكو تكشف لنا عن ميل الفنان الى رسم المدن الايطالية بساحاتها الواسعة ، بشوارعها الضيقة وبتماثيلها البيضاء كمدينتي فلورنس وتوران حيث عاش شيريكو بين 1909 - 1911 . تخطيط الشوارع لدى شيريكو اصبح محيرا بصورة غامضة وكانه يرى من خلال العينين المغمضتين للذاكرة وللحلم ، يتجمد الزمن ويقف وقفة ازلية في مساء يبدو كل شيء فيه هادئا ، وتوقفت فيه عقارب الساعات التي تزين واجهات القصور : « انه لغز الساعة » ... كما تعبر عنه اللوحة . في الشوارع المقفرة تبدو اللحظة (كما وصفها الفنان في قصته المعنونة (ايبدوميروس) وكانها « لعبة ضخمة وضعت بعد محاولات عديدة .. في مكانها النهائي » ، الا ان الظلال القاسية للتماثيل وللقصور تبدو اكثر واقعية واكثر حضورا من نسخها الاصلية .

لقد كتب شيريكو : « لكي نصف نتاجا فنيا بالخلود ، يجب ان يتجاوز هذا النتاج الحدود البشرية : التفكير السليم ، والمنطق يعتبر ان نقيصة اذا وجدا في النتاج . وهكذا يقترب الاثر الفني من الحلم ومن التفكير الطفولي » . بصورة غامضة ولكن حتمية ، كما لو كان الفنان يتساءل حول مصير رجل يعيش في القرن العشرين ، يكدس شيريكو على طول قصوره ، ابراجه ومداخله ، اشياء ليست في محلها الطبيعي ... اشياء توحي باكف مخلوعة ، بنبات ارضي شوكي ضخم ، وبالات علمية غريبة كقاطرة يزينها الدخان . وربما كان شيريكو قد استوحى هذه الاشكال من طفولته وهو يراقب والده المهندس والذي كان الاول في المشاركة في انشاء طريق سكة حديدية في فولو . تظهر ايضا في رسوم شيريكو ، موديلات (مانيكان) في شكل كائنات بشرية تقف جامدة في حالة تامل عميق وكانها ماخوذة بعملية البحث عن حل مستحيل لمشكلة ما . وفي مكان العيون نجد رموزا سرية : اثار الليل التي تذكرنا باللانهاية .

لوحات شيريكو ثقيلة بالقلق الذي ترسمه ، بالارهاب وبالرغبة . بعضها يحمل هذه العناوين : « الرحلة المقلقة » « قلق شاعر » « كابة نهار جميل » ، « كابة وغموض شارع » ، « غربة اللانهاية » . في سنة 1914 رسم شيريكو افضل لوحاته : « الانسان ـ الهدف » حيث مثل ابوللينير يحمل فوق جبهته دائرة منقطعة تمثل لجرح غائر حتى العظام اصيب به الشاعر فيما بعد .

هل ستحطم الحرب احلام شيريكو ؟ حين عاد الى ايطاليا وجد شيريكو نفسه سنة 1915 بصحبة الكاتب سافينيو الذي اقام معه في مستشفى فيراري . هناك رسم شيريكو ، بمشاركة كارلو الذي نبذ المستقبلية ، لوحته المعنونة « دواخل ميتافيزيقية » : طبيعة غريبة وميتة تختلط بها ادوات الرسام وتظهر فيها لوحة قديمة ترمز الى المدن الدارسة .

لو استمر رامبو ...

ولكن ، حين وصل شيريكو الى باريس سنة 1925 لينضم الى السرياليين الذين كانوا يعجبون به ، كان قد تبرا مسبقا من كل اعماله . وهنا بدا الغموض الذي احاط به . لو كان رامبو قد استمر في الكتابة لاستمر شيريكو في الرسم ، الا ان المعاصرين يبدون « كما لو كانوا يتحركون بحمق وسط صيغ مستهلكة » . لقد بدا شيريكو يبحث عن الاسرار في الماضي ... لقد نسي بويلكين والفنانين الاخرين الذين كان يمجد فيهم تصوير كل ما هو « غريب ومدهش » ليفضل عليهم رافائيل ، تيتيان ، وفناني عصر النهضة . انه عصر الخيول الجامحة ، الحريم ، المصارعين الرومان وصور الوجوه حيث يتنكر الفنان في قناع رجل عاش في القرن السابع والثامن عشر . لقد وصفه برتون : بالمرتد . لقد اعلن الفنان التمرد ، والزيف الذي تحتويه اللوحات التي خلقت مجده وبدا فترة تقليد لوحات روبنس وكاناليتو . وحتى اليوم مازال سر شيريكو مطويا .

◆ ترجمة : ميسون ابو الحب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البصرة تنشط ثقافيا

■ للمركز الثقافي في جامعة البصرة دور مهم في تنشيط الجو الثقافي في ثغر العراق عن طريق الفعاليات التي تقيمها ضمن برامجه الثقافية الشهرية . برنامج شهر كانون الاول الماضي كان غنيا . ففي يوم 12/12 غصت قاعة المركز الثقافي بجمهور كبير للاستماع الى ندوة شارك فيها الفنان المصري كرم مطاوع وزوجته الفنانة سهير المرشدي تحدثا خلالها طيلة ساعتين عن اهمية الفن ووظيفته ، ثم حاورهما الجمهور فيما قالاه .

وفي 12/17 استضاف المركز السيد كامران قرهداغي رئيس قسم (اضواء وآفاق) في مجلة (آفاق عربية) حيث تحدث عن « الابداع والتاويل ومشكلات الترجمة الادبية » .

واذ يسعى المركز الى تنويع اهتماماته فقد عقد ندوة في 12/19 مكرسة لمشاكل الرياضيات الحديثة التي تواجه المعلم والمدرس وطرق تدريس الرياضيات ووسائل تحسينها . وقد شارك في الندوة كل من د. ريمون شكوري ود. سليم الكتبي والسيد جورج شعيا .

ومن الامسيات التي كان لها صدى في البصرة الامسيتين التي احياهما المركز بمشاركة الشاعر عبدالوهاب البياتي (23و12/24). تحدث البياتي في الامسية الاولى عن تجربته ، وخصص الجانب الاكبر من الامسية للرد على اسئلة الجمهور ، فكانت محاورة اكثر منها محاضرة . وفي الامسية التالية كان الحديث عن مهمة الشاعر كانسان وعن دوره في النضال من اجل بناء المستقبل الاروع . كانت امسية جميلة جدا قدم فيها الشاعر البياتي محاضرة عن «علاقة الاديب المعاصر بالتراث» . كان حديثه نداءا للعمل ، نداءا للقيام بعملية « غربلة » للتراث ورفض ما هو ضد المعرفة والكشف لان الابداع هو عملية كشف . ■

ملاحظات عن الموسيقى الشعبية في العراق

■ نشرت مجلتكم الغراء في عددها الاول الصادر في ايلول 1978 بحثا عن الموسيقى الشعبية في العراق للاستاذة شهرزاد قاسم حسن وبعد مطالعة متانية للموضوع خرجت بالملاحظات التالية :

1 – اعتمدت الكاتبة الفاضلة في جميع مادة بحثها على المسوحات الميدانية للمدن العراقية من خلال عملها في مراكزالتراث الموسيقي في المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون وما نشر في مجلة التراث الشعبيوالكتب والدراساتالفولكلورية الاخرى وكان جهدها حريا بالاعجاب والتبجيل الا ان اعطاء البحث صفة شمولية واعتباره خاصا بالموسيقى الشعبية العراقية بصورة عامة شيء يدعو للاستغراب فان البحث على سعته وشموليته لم يوف الموسيقى الشعبية حقها في المدن العراقية كافة بل اعطى معلومات موجزة ومحدودة لمناطق معينة وبشمولية اتسمت في ذهن الكاتبة لا غير فبعض المناطق الشمالية والجنوبية لا يصلها جامع وليس بالامكان الوصول اليها وجمع المادة الفولكلورية منها.خلال تجوالي في الكثير من المناطق الشمالية والجنوبية خرجت بنتيجة مفادها ان العمل الميداني في العراق يحتاج الى جهود بشرية كثيفة لدراسة العادات والتقاليد لفئات الشعب الواسعة ولا يجوز اعتبار التقليد او العادة الخاصة بمنطقة ما مشابه لمنطقة اخرىتجاورها فالاختلاف سواء اكان جوهريا او بسيطاهواختلاف للدارس والباحث يستطيع بواسطته استكشاف عوالم اخرى جديدة . لذا كان من الاولى اعطاء خصوصية للموضوع كان يكون (الموسيقىالشعبية في بعض المناطق العراقية) اما هذه الشمولية المفرطة فشيء لا يخطر ببال ويحتاج الى جهد مجموعات كثيرة تفوق القرى والارياف وتتسلل الى الاهوار والبوادي والكهوف وان تكون هذه العجالة باية حال من الاحوال بحثا متكاملا عن الموسيقى الشعبية .

2 – في ثنايا البحث كان هناك الكثير من الرسوم التوضيحية للالات الموسيقية كالناي والربابة والمطبك والطبل والماصول والدف والطاسة وغيرها الا ان الكاتبة المحترمة اكتفت برسمها دون الاشارة الى اسمها وكان هذا العمل حريا بالالتفات وزيادة التوضيح افادة للقاريء لان مجلة (آفاق عربية) ليست مجلة اقليمية ذات نطاق محدود بل تحدت كل الاسوار واصبحتمجلة عالمية يطالعها المستشرق كما يطالعها العربي في كل مكان .

3 – ان الدارس للموسيقى يجب انيلتفت الى الشيء الاساسي للموسيقى وهو التدوين بالنوتة الموسيقية لا انيكون مجرد تعداد لانواع كثيرة من الاغاني والاناشيد او تبيانا لالات موسيقية لان العنوان خاص بالموسيقى لا بالالات الموسيقية او المسميات الخاصة بانواع الاغاني فالنوتة الموسيقية هي المراد من خلال العنوان لا تعداد الاسامي والمسميات .

4 – تقول في ص 23 عن الابوذيه (فهناك الابوذياتالتي تشتهر بها منطقةاو مدينة مثل الحياوي نسبة الى الحي فيالكوت والشطري نسبة الى الشطرة في الناصرية والمجراوي نسبة الى منطقة المجر في الناصرية وهناك ما ينسب الى اشخاص ابتكروا اسلوبا في الاداء مثل الغافلي والجادري) .

اقول: ان ناحية المجر تابعة الىمحافظة ميسان (العمارة) وهناك ناحيتان بهذا الاسم المجر الكبيروالمجر الصغير ثم ان مدينة الكوت تسمى حاليا واسط والناصرية ذي قار وكان على الكاتبة الفاضلة ان تشير الى ذلك بين قوسين ثم ان اصول البحث تتطلب ان تشير الى اسم الشخص الذي نسبت اليه الابوذيه (الجادري والغافلي) وهما الملا جادر والملا غافل من ميسان .

وتقول في محل آخر (الا انه يبدو ان الابوذيه الاصيلة توجد في قلب الكوت والناصرية) وهذا خلط عجيب فاذا كانت تريد بالقلب مركز المدينة فهي على وهم وان المركز اصبح حضريا تبعا لتطوره والاصالة فيالموسيقى الشعبية تتجسد عادة في المناطق الريفية البعيدة عن زيف الحضارةوبهرجها وكلما توغلنا اكثر وجدنا الاصالة الحقيقية للابوذية واذا كانت تريد من خلاله أن تقول ان هاتين المدينتين هما اصل الابوذية فقد وقعت في الوهم ايضا اذ ذكر الاستاذ الكريم علي الخاقاني في موسوعته فنون الادب الشعبي ان اول بيت قيل من الابوذيه قيل في قضاءالشامية ووزنه (جوهر يزنادالشامية) وان اول بيت قاله المرحوم حسين العبادي خاطب به زوجته :

تـرف بهواك من مثلي واله دوم
بشتاياهه الخلل بين والهدوم
امد الفرس من تكبر والهدوم
استبصرك برذعة النامت عليه

فاحست زوجته بما يريد فقالت :

جد بهواك لليهواك وعره
وعين جيه عشرتي وياك وعره
بعد ماني معك بشظاظ وعره
الكل منا انشحن وانكر خويه

وهي من بحر الوافر .

وهناك انواع كثيرة من غناء الابوذيه كاللامي نسبة الى عشائر بني لام والصبيبي نسبة الى الصابئة الذين سكنوا في جنوب العراق والعنيسي نسبة الى رجل اسمه عنيسي غناه على نغم السيكاه .

وتقول في نفس الصفحة (تقرا الابوذيه وتؤلف كلماتها بلهجة الحسجة وهي لغة البلاغة الشعرية للمنطقة وقد تجد في مناطق المدينة ابوذيات تدخل بها ابيات فصحى او تؤدى بالفصحى كلها وتسمى هذه الحالة الابوذيه المولدة) .

وهنالم يحالف الكاتبة المحترمةالصواب في قولها ان الابوذيه تؤلف بالحسجة وهي لغة البلاغة الشعرية والحسكة ليست لهجة ذات قواعد وكلمات خاصة بل هي لهجة الريف الفراتي وانما سميت بالحسكةالواقعة بالقرب من مدينة الديوانية (القادسية) وقد سكنهااشهر الشعراء الناطقينبالفصحى او الدارجة وانتشرت منها في المناطق المجاورة .

واما قولها ان الابوذيه المولدة تؤلف بالفصحى فهذا خطا فظيع يربا عن الوقوع به اي كاتب وهو من اوليات المعرفة الفولكلوريةوالادب الشعبي العراقي فالابوذيه المولدة لا تختلف عن الاخرى من ناحية الوزن او الطريقة او الاداء او اللغة بل تختلف من حيث المحتوى اذ يعمد قائلها الى اخذ بيت من الشعر الفصيح لشاعرمشهور وينظم بمعناه باللغة الدارجة كقول الشاعر حمزة الفتلاوي :

روحي بسكم وتياحه سلوهه
احباب اللي يودوهه سلوهه
سلمى لو ظفرتوهه سلوهه
بيا مذهب تحل دماي هيه

فقد اخذه عن قول الشاعر العربي :

فلا تقتلوها ان ظفرتم بقتلها
ولكن سلوها كيف حل لها دمي

محمد علي محيالدين

◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل قتل الملك فيصل الأول

■ نشرت مجلتكم الغراء في عددها الثاني ـ السنة الرابعة ـ 1978 مقالا بعنوان « هل قتل الملك فيصل الاول ، ولماذا ؟ » للدكتور الفاضل محمد مظفر الادهمي .

وتعقيبا للموضوع اود ان ابدي بعض الملاحظات التي ارجو ان تسهم في كشف بعض جوانب هذه القضية المهمة ، فعلى الرغم من مرور خمس واربعين عاما على الحادث فان جيلا عراقيا وعربيا جديدين ما زالت تساوره نفس الشكوك التي سادت بين الناس وقت وقوع الحادث بشان موت الملك فيصل المباغت .

وقد ذكر الدكتور الادهمي ان بعضا من ردود الفعل التي رافقت موت الملك خصوصا تلك التي لها علاقة بالتشكيك بصحة موته بشكل طبيعي قد حدثت وذكر بعضها ، اقول بعضها حيث انه لم يذكر لنا ما حدث في العراق وخصوصا بغداد ، واكتفي بما حدث في دمشق ، ولبنان ، والحقيقة كما يتذكرها كثيرا من شيوخ الجيل الحاضر ان ما حدث في العراق وخصوصا بغداد هو اضعاف مضاعفة لما ذكره الدكتور الادهمي . فما ان علم الناس بخبر وفاة الملك في برن بسويسرا حتى هرع الناس الى الشوارع وسرت بينهم الاشاعات بشكل غريب ، فمن قائل ان الملك اختطف كما اختطف ابوه الشريف حسين وهو الان (اي الملك) معتقل في مكان مجهول .

ومن قائل : ان الملك سجين في لندن وخبر ذهابه الى برن بعد زيارته للندن كاذب من اساسه .

وذهب فريق آخر الى ابعد من ذلك وهو ان اتباع عائلة السيد طالب النقيب من الهنود قد انتقموا لسيدهم الذي مات كمدا في دار متواضعة في منطقة (السبيليات) يتجرع مرارة خيبة الامل قبل ذلك بثلاث سنوات ، كما ورد في كتاب (شخصيات عراقية) للعمري(1) والهنود وتعاطيهم السحر والسموم وانتشارهم في اوربا يعطي الخبر او الاشاعة بعض الدعم .

وقد حدثني رجل لا يزال على قيد الحياة هو الحاج كاظم لفته من سكنة (الكاظمية) بانه كان احد الذين حملوا الرايات السود والذين نزلوا الى الصحن الكاظمي والناس من حولهم وقد تجمعوا تحت الساعة القديمة في (باب القبلة) وهو نفس المكان الذي سبق للملك ان وقف فيه عند زيارته للمسجد الكاظمي بمعية السيد محمد الصدر وساطع الحصري والاعلام العراقية تخفق امامه ، وذلك في بداية الحكم الوطني ، تجمع الناس وهم يهتفون (ساعه يا لندن مرهونه) وهو شعار واضح المعنى .

واخبرني المرحوم عبدالامير الطويرجاوي المغني المعروف بانه اشيع في منطقة الفرات الاوسط يوم ممات الملك ، بان الملك فيصل قد دس له السم بحلوى (من السما) والتي كان الملك يفضلها على غيرها من الحلوى. ويقول الطويرجاوي بانه اعد اغنية على الفور يقول مطلعها :

عبدالامير :

ارد اصعد لسابع سما

واشجي من من السما

كورس :

من السما معجون بالتايمس تره

عبدالامير :

يعني ما احجي بعد

واله الفلك ... ومي

وبعد هذه الاغنية باسبوع القي القبض على صاحبها واوقف في المسيب لمدة اسبوع واخذت منه كفالة بعدم غنائها .

وكلمات الاغنية تشير بشكل واضح الى وجود اصابع الانكليز في حادث موت الملك حيث ان كلمة (التايمس) المثبتة في المطلع تشير الى تدخل الانكليز بكل شيء فهم ذوي القوة والسلطة في البلاد .

اما المرحوم الملا عبود الكرخي فقد نظم قصيدة مؤثرة جدا والقاها في عدة تجمعات تؤكد بان موت الملك كان غدرا يقول مطلعها :

يا سفينة التايهة وطره الفلك

انغدر فيصل ، يا غريب اذكر هلك

وقيل انه كان يرويها تارة (انغدر فيصل) وتارة , مات فيصل) ولكنه حينما نشرها في جريدة الكرخ وفي الديوان ثبتها (مات فيصل) ولعله فعل ذلك خشية الرقيب .

والمعروف عن الكرخي انه كان يمقت الملك فيصل بشدة وقد هجاه ايام سلطانه بقصيدة اصبحت في وقتها حديث المجالس ، يقول مطلعها :

(كشوان ابن كشوان ابن كشوان لسابع ظهر)

فما الذي جعل الكرخي يرثي فيصلا ؟ الجواب نجده في وصية الكرخي لابنائه وهو يحتضر والمنشور جزء منها في كتاب (دراسات عن الملا عبود الكرخي) لزاهد محمد ـ صفحة 19 ـ بانه يمقت الانكليز وقد حاربهم طيلة حياته ـ ومن هنا تكون مرثية الكرخي للملك فيصل لعلمه بان الانكليز قد غدروا به .

وقد ذكر لي الملازم الخيال المتقاعد عبدالحق العزاوي ، انه كان يعمل في الحرس الملكي يوم قتل الملك غازي وقد سمع ان الملكة عالية طلبت طرد الدكتور سندرسن من القصر حيث كان يشرف على علاج الملك غازي وهو في حالة اغماء ينزف اثر حادث اصطدام سيارته ، طلبت طرده وهي تقول اما كفاه قتل ابوه حتى جاء ليقتل الولد ، (اي اما كفى سندرسن قتل فيصل الاول حتى جاء ليقتل غازيا) وقد اشيع وقتها ان تباطىء سندرسن في اسعاف الملك غازي كان سببا في موته . وانطلاقا من القاعدة الشعبية القائلة (بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين) كان هناك خاطرة تراودني وهو ان جميع الذين اشير الى ان لهم ضلع في (حادث الوفاة) الملك فيصل الاول او علم ، قد قتلوا قتلا ، وهم :

1 ـ الملك عبدالله ، قتل في القدس.

2 ـ جعفر العسكري ، قتل في انقلاب بكر صدقي .

3 ـ رستم حيدر ، قتل في بغداد في ظروف غامضة .

4 ـ نوري السعيد ، قتل في ثورة الشعب في 14 تموز 1958 .

واخيرا لا بد لي من التنويه الى ما ذكره الاستاذ امين المميز في كتابه (المملكة العربية السعودية كما عرفتها ـ صفحة 556) ان الملك فيصل الاول ابرق الى اخيه الملك علي وهو محاصر في المدينة من قبل القوات السعودية يوصيه بان يتلف سلاحه بل يسلمه الى ابن سعود لان ابن سعود عربي وسيستعمل هذا السلاح لخير الامة العربية والدفاع عنها ، هذا رغم الخصومة المعروفة بين الهاشميين والسعوديين والتي آلت آخر الامر الى طرد الهاشميين والاستيلاء على ملكهم .

ولربما كانت وصية فيصل دهاء وبعد نظر ولكن بريطانيا لا يروق لها ان يكون في منابع النفط من يتناسى احقاده الشخصية ، خدمة للامة العربية حتى ولو كان ذلك صادر من الذي ارتضته يوما ملكا على العراق .

واخيرا اضم صوتي الى ما تفضل به الدكتور الادهمي من اقتراح بفحص وتحليل رفاة الملك فيصل الاول لتتضح الحقيقة خدمة للتاريخ ووضعا للامور في نصابها . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

---

1 ـ خيري امين العمري ، طبعة 1955 صفحة (40) .

برير خضير العباس ـ بغداد

◆

التوقيت

■ السيد رئيس تحرير مجلة (آفاق عربية) المحترم

تحية ، وبعد ، ارجو نشر تعقيبي التالي حول بحث « المزولة الشمسية وسيلة » الوارد في العدد الثالث من مجلتكم لشهر تشرين الثاني 1978 ولكم الشكر سلفا .

المهندس حسوبي عبدالوهاب

1 ـ كسوف الشمس الكلي المذكور قد حدث في مصر يوم الجمعة 21 آب 1914 م وتحت مولد هلال شهر شوال 1332 هـ الذي كان عند الساعة الثالثة والدقيقة 26 ب.ظ . بتوقيت العراق الحالي .

السبعين كسوف والخسوف ليس لها علاقة بالثمانية عشر سنة المذكورة وذلك لان الكسوفات والخسوفات تحدث في اوائل واواسط شهور قمرية اقترانية معينة ويتوالى تكرار كل منها بعد كل 223 شهر قمري اقتراني باستثناء قلة منها لايتوالى تكرارها في كل دور223 شهر قمري اقتراني وان عدد الكسوفات في تعداد الدور قد يتراوح بين 39 كسوفا و 44 كسوفا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آراء/ردود/مناقشات

ومتوسط عددها يعتبر 42 كسوفا وعدد الخسوفات يتراوح بين 26 خسوفا و 29 خسوفا ومتوسط عددها يعتبر 28 خسوفا ومتوسط طول هذا الدور خلال قرن العشرين هو 6585 يوما وسبعة ساعات و29دقيقة وهو ما يساوي بالتقويم الشمسي الميلادي 18 سنة و 10 ايام و7ر5 ساعة او 11 يوم و 3ر5 ساعة او 12 يوم و7ر5 ساعة وذلك عندما عندما يتخلل ال 18 سنة (5ـ4ـ3) سنوات كبيسة بالتوالي.

2 ـ اني استغرب من الدكتور محمد صديق الجليلي دعوته الى تعميم الاعتماد على الساعات المزولية في كل مدينة على اساس انها تسجل الوقت الحقيقي للمكان فجوابي على قول الدكتور هو :

اولا ـ لعل ان الدكتور يريد منا العودة الى فرض التوقيت المحلي الذي لا يصلح الى جميع الامور وهو الذي تخلت عنه جميع الشعوب ابتداء من سنة 1884م واخلت بدلا منه بالتوقيت المدني العالمي الحالي الذي بموجبه يمكننا ان نعرف الوقت في اي بلد في العالم كما انه بالامكان ضبط ساعاتنا يوميا من اشارات التوقيت التي تبثها بعض المراصد الفلكية الرئيسة في العالم وكذلك جميع محطات الاذاعة في مختلف بلدان العالم عدةمرات في اليوم وكذلك اننا نستطيع ان نعرف بهذا التوقيت الوقت الصحيح لاي ظاهرةطبيعية فلكية بالنسبة لاي مكان ويوم مثل شروق الشمس وغروبها ووقت الظهر وغير ذلك من الظواهر الطبيعية الفلكية الاخرى .

ثانيا ـ المزولة جهاز بدائي لتقدير الوقت التقريبي في الاشهر المشمسة وان توقيتها لا يساير يوميا توقيت ساعاتنا العالمية اليومية ذات ال 24 ساعة وذلك لان طول اليوم الشمسي من ظهر الى ظهر غير ثابت لان سرعة دوران الارض حول نفسها وحول الشمس تختلف باختلاف ايام السنة وان هذا الاختلاف يعزى بالدرجة الاولى الى كل من ميل محور دوران الارض حول نفسها على مستوى مدارها حول الشمس ولاهليليجية هذا المدار وان متوسط اطواله خلال سنوات كثيرة يعتبر 24 ساعة وان طول اليوم الشمسي بموجب هذا المصطلح يتراوح بين (24س/00د/30 ث) و(23س/59د/39ث) وبنتيجة هذا الاختلاف التوقيت في العالم بين (12س/14د/20ث) وقت الظهر قد يتراوح على خطوط طول التوقيت في العالم بين (12س/14د/20ث) و (11س/43د/36ث) وفيما يلي تاريخ اطوال اليوم الشمسي على اطوله واقصره ومساواته 24 ساعة واوقات الظهر المختلفة :

اطوال اليوم الشمسي

	س	د	ث
11 شباط	24	00	00
1 نيسان	23	59	42
15 ايار	24	00	00
15 ايلول	23	59	39
3 تشرين 2	24	00	00
22 كانون 1	24	00	30

اوقات الظهر

12 شباط	12	14	20
15 نيسان	12	00	01
15 ايار	11	56	15
14 حزيران	12	00	01
26 تموز	12	06	24
1 ايلول	12	00	00
3 تشرين 2	11	43	36
25 كانون 1	12	00	00

3 ـ اني اسال من هو الذي سيقوم لو اخذنا بتوقيت المزولة بتوجيه المزولات الى الشمال الحقيقي ويقدر الفرق بين اطوال الايام الشمسية وابلاغه الى الناس لكي يقوموا بتقديم وتاخير ساعاتهم بمقدار الاختلاف اليومي حتى يكون وقتالظهر عند الساعة 12 ظهرا يوميا وكذلك من هو الذي يقوم بتحديدمواقيت مختلفالظواهر الطبيعية الفلكية بالنسبة لتوقيت المزولة في مختلف الامكنة وكيف يتسنى لنا ان نعرف الوقت في مختلف الامكنة ووقت دوام مختلف المؤسسات وسير وسائط النقل على اختلافها وهل يعني ان يكون للبلد الواحد مئات من التوقيت ثم كيف نعرف الوقت بالمزولةفي الايام التي لاتظهرالشمس فيها لاسباب طبيعيةاي عند وجودالسحب والغبار وكذلك في اوقات الليل .

4 ـ اخيرا انا ارجو من الدكتورمحمد صديق الجليلي بدلا من ان يتبنى توقيت المزولة ان يقوم بوضع كتيب يعرف فيه انواع المزولة وتاريخها تفصيلا مع اشكالها لينتفع منه هواتها .

بغداد ـ الكرخ ـ حي الامين (الزراعة)3/5

◆

تعقيبان عن سفينة نوح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« تحت عنوان (سفينة نوح مسراها ومرساها) كتب السيد جاسم محمد علي البدري في العدد الثاني لعام 1978 بحثا تناول فيه موقعورسو سفينة نوح والاختلاف التاريخي حول ذلك الموقع . ولست بصدد مناقشته في ما يتعلق بالموقع ولكنني اود ان اشير الى بعض الامور الاخرى .

لقد اعتمد اعتمادا كليا على ملحمة كلكامش وعلىاستنتاجاته الخاصة في وصف الحالة الاجتماعية والغاية من بناء السفينة وعن شخصية النبي نوح (ع) .

فهو لم يتطرق الى القرآن الكريم ولو من باب الامانة التاريخية مكتفيا باعتماد ملحمة كلكامش اساسا لموضوعه .

انه يشير الى ان نوحا (ع) كان كاهنا في معبد الاله « ايا » وانه كان يفضل عبادته على الاله « انليل » حيث قال«اما نوح فقد كان يدعو الى تفضيل الاله ايا وعبادته وحده مما اثار غضب الكهنةوالناس عليه فضايقوه وضايقوا اتباعه » .

والحقيقة الناصعة التي يشير اليها القرآن الكريم هو ان نوحا (ع) كان نبيا يدعو الى توحيد الله وعبادته ونبذ عبادة الاصنام ، حيث اشارت الاية 33 من سورة آل عمران الى ذلك « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران علىالعالمين» وفي الايات 105 ـ 108 من سورة الشعراء «كذلك قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون . اني لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعوه » ، وفي الايات 79ـ81 من سورة الصافات « سلام على نوح في العالمين. انا كذلك تجزي المحسنين. انه من عبادنا الصالحين » .

وقد اشار القرآن الكريم في سورة نوح الى الاصنام التي يعبدونها ونبذ نوح لها وتوجهه الى الله ان يهلك الظالمين الذين اتجهوا الى هذه الاصنام دون الله سبحانه في الايات 21 ـ 24 « قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا » .

ويتطرق الكاتب الى موضوع بناء السفينة فينقل عن ملحمة كلكامش الفقرة التالية « وكان الحكيم نوح كاهنا في معبد ايا ويظهر انه تنبا بحدوث فيضان كبير استنتاجا من حوادث الفيضانات السابقة المتكررة ولتشاؤمه من سوء اعمال اهل شروباك واعتقاده بان الالهة لابد وانتعاقبهم بكارثة ما وكوارث الفيضانات اقرب الى ذهنه من غيرها . لذا فقد تبادر الى ذهنه ان يبني سفينة ينجو بها واتباعه من الغرق المحتمل ، ومهما كانت طبيعة هذه النبوءة فانه لسندها الى الاله ايا واعتبر ما تنبا به ومما رآه من راي ايحاء اوحاه اليه ايا الذي يفضله على الاله انليل » .

ويعقب البدري بقوله « يبدو لي انه ليس من المعقول ان ينفق رجل كل امواله ويبذل كل هذه الجهود لبناء سفينة تنجيه من غرق محتمل بناء على نبوءة قد لاتتحقق او قد يكون الطوفان الذي تنبا به فيضانا بسيطا لا يستحق كل هذه الاستعدادات . قد يكون الخوف من حدوث طوفان مدمر سيطر على تفكيره كل هذه المدة ولكنهايضا وهذا هو الامر الاهم كان يريد الخروج من شروباك لغرض اشرف واسمى من مجرد الفرار من الموت وهو يعلم ان الموت المصير المحتم لكل ذي حياة . كان يريد الهجرة لانقاذ اتباعه عباد ايا من اضطهاد عباد انليل وهم الاكثرية » .

ولكنالقرآن المجيد فصل هذهالحادثة في اكثر من سورة وبين من ان نوحا لم يكن يتنبا بحدوث فيضان او خائفا من طوفان مرتقب بل ان الله تعالى قد اوحى اليه وامره صنع السفينة اذ لا يمكن أن يقبل عقلا ان يمضي نوح تلك المدة الطويلة في صنع السفينة لمجرد انه يتوقع حدوث الطوفان . وقد شرح الله ذلك في سورة هود (36ـ41) « واوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا فيه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون .فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار

أضواء وآفاق

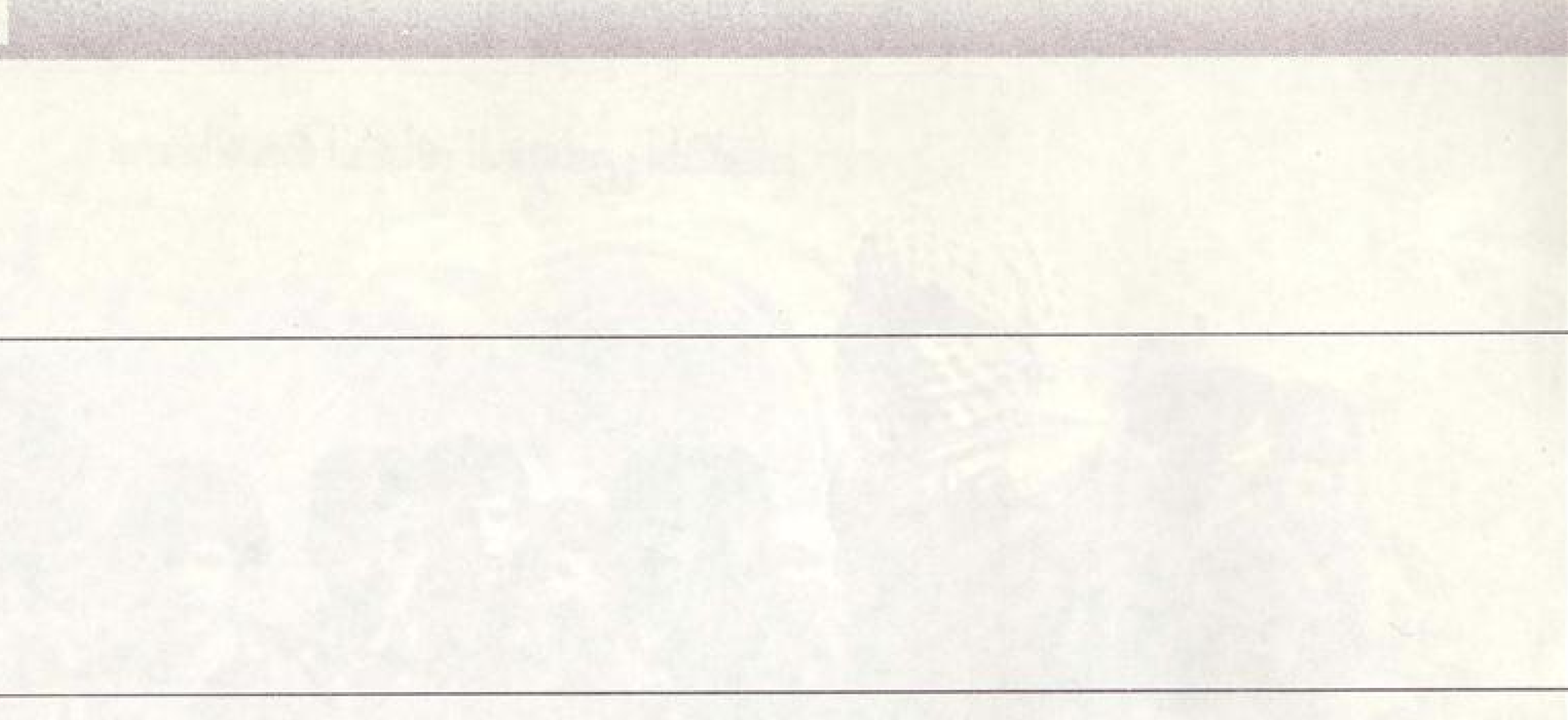

التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن معه الا قليل . وقال اركبوا فيها باسم الله مجراهاومرساها ان ربي لغفور رحيم».

ويوجز الله تعالى ذلك في الآيتين 76و77 من سورة الانبياء « ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكـــرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم ســـوء فاغرقناهم اجمعين » .

هذا ما اردته انيتوضح لدى القاريء الكريم ومعذرة .

عبدالرحمن عيسى
جامعة بغداد

◆

■ اطلعت على البحث الموسوم (سفينة نوح مسراها ومرساها) للسيد جاسممحمد علي البدري في العدد الثاني لسنة 1978 من المجلة . واذ استميح العذر من الكاتب المحترم اود ان أثبت ادناه بعضالاحظات والآراء تصحيحا وتوضيحا لما ورد فيـــه ارجو نشرها اكمالا لفائدة القاريء الكريم :

1 ـ يذكر الكاتب الكريم بان«الطوفان وقع في منتصف الالف الرابع قبل الميلاد وتم تدوين حوادثه بعد ابتكار الكتابة في حدود 3100 ق.م. ثم نقلتها التوراة مع ما نقلت من معتقدات شعوب واديالرافدين وآدابهم عند كتابتها من قبل يهود السبي في بابل في القرن السادس قبل الميلاد ».

ان هذا يعني بان تدوين هذه الحادثة اعتمد على الرواية في النقل لاجيال على شكل قصص واساطير . ومع ما تحويـــه الالواح القديمة وحتى العهد القـــديم من تناقض في قصصها وتعارضها مع المفـــاهيم العصرية الا ان الاخ الكاتب منح هـــذه المصادر ثقته وليته افاد من القـــرآن الكريم اكثر من ذكره لكلمة (الجودي) فقط .

2 ـ عند حديثه عن بناء السفينةينقل ما جاء في اللوح الحادي عشر من ملحمـــة كلكامش قوله « يا ايها الشروباكي يا ابن اوبار توتو قوض البيت وابن لك فلكـــا تخل عن الملك وانشد الحياة واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة » . ثم يقول : « كان الحكيم نوح كاهنا في معبد ايا ويظهر انه تنبأ بحدوث فيضان كبير استنتاجا من حوادث الفيضانات السابقة ولتشاؤمه من سوء اعمال اهل شروباك واعتقاده بـــان الالهة لا بد ان تعاقبهم بكارثة ما وكارثـة الفيضانات اقرب الى ذهنه من غيرها لاحوال وظروف وادي الرافدين وجنوبيـــه على الاخص ، لذا فقد تبادر الى ذهنه انيبني سفينة ينجو بها واتباعه من الغرقالمحتمل ومهما كانت طبيعة النبوءة فانه اسندها الى الاله ايا واعتبر ما تنبأ به وما رآه من راي ايحاء اوحاه اليه ايا » .

لا ادري كيف سمح الكاتب الكريم لنفسه ان يطلق هذه الافتراضات ليحمل النص الوارد في اللوح ما لا يحتمله والذي يوافق ما جاء في القرآن الكريم من انه وحي من الله تعالى (وأوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلاتبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون .. حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنـــين واهلك) .

3 ـ يقول نقلا عن الملحمة : « لقد كان سطح ارضها ايكو واحد وعلو جدرانها 120 ذراعا وكل جانب من جوانب سطحها الاربعة 120 ذراعا » ، ثم يقول : « يبدو لي انه ليس من المعقول ان ينفق رجل كل امواله ويبذل كل هذه الجهود لبناء سفينة تنجيه من غرق محتمل بناء على نبوءة قد لا تتحقق ولكنه كان يريد الخـــروج من شروباك لغرض اشرف واسمى من مجرد الفرار من الموت وهو يعلم ان الموت المصير المحتم لكل ذي حياة كان يريد الهجرةلانقاذ اتباعه من عباد ايا وهم القلية من اضطهاد عباد انليل وهم الاكثرية » . اقول :

ا ـ ان التناقض بين هذا الراي وما اورده في الفقرة (2) اعلاه واضح .

ب ـ اذا كانالغرض هو الهجرة فلماذا هذه السفينة الضخمة ذات الطوابقالستة؟ وهل كان من الممكن ان تطفو في ماء الفرات؟ وحتى لو كان ذلك ممكنا ففي اي حوض تم بناؤها ؟ ولو صنعت في اليابسة لغرضنقلها الى الفرات فباية رافعة كانوا ينوون نقلها الى الماء ؟ ثم الم تكن ارض الله واســـعة امامهم ليهاجروا فرادى او جماعات خفية او علنا هاربين من الاضطهاد كما حـــدث لاقوام بعدهم ؟

ج ـ واذا لم يكن هناك طوفان محتمل يقضي على الحياة فلماذا حمل بذرة كل ذي حياة في السفينة ؟

د ـ يبدو لي بان مقاييس السفينـــة بابعادها المتساوية وبشكلها المكعب كما وردت في الملحمة بعيدة عن الواقع لانها تكوناقرب الحجوم الى الكرة ويتوسطها مركز ثقلها فتكون عرضة للتدحرج والانقلاب بسرعة وسط الامواج الهائجة . واعتقد ان ما جاء في سفر التكوين اقرب الى الواقع حيث ان نوحا امتثل لامر الله ببناء الســـفينة فجعل طولها 300 ذراع وعرضها 50 ذراعا وارتفاعها 30 ذراعا . وقد تم بناؤها على اليابسة لتحملهامياه الطوفان المنتظر ولهذا كان قومه يسخرون منه . (كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه . قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون .فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) .

4 ـ يقول الاخ الكاتب : « لقد ثبت ان سطح الكرة الارضية ينحني من مستوى خط الماس بمقدار 480 سم كل ثمانيـــة كيلو مترات ولما كان جبل بيره مكرون يبعد عن موقع شروباك 450 كم فان الخـــط المستقيم الماس لنقطة على سطح الارض تحت الجبل المذكور على فرض ان الـــكرة ملساء سيمر فوق موقع شروباك علىارتفاع 270 م فاذا اضيف اليه ارتفاع الجبلمن مستوى خط الماس هذا والذيهو 2600م نجد ان مياه الطوفان يجب ان تكون قـــد ارتفعت فوق شروباك بمقدار 2770 م او ما يقارب ثلاثة كيلو مترات » .

لعل الاخ تأثر بمهنته كمهندس فوقع في هذا الخطا الكبير وغابت عنه حقيقـــة فيزياوية مهمة وهي ان جميع جزيئات الماء على السطح منجذبة نحو مركز الارضبنفس القوةولكون كثافتها متساوية تاخذ هـــذه الجزيئات بعدا واحدا عن مركز الارض على اختلاف مناطقها كما في المحيطات ونقول انها على مستوى واحد مجازا لان الواقع هو وجود هذا الانحناء الذي ذكره الاخ الكاتب ولولا هذا الانحناء لما امكن تحقيق البعدالمتساوي عن مركز الارض . فلو ارتفع الماء في بيروت مثلا نتيجة المد قدما واحدا لما زاد هذا الارتفاع عن القدم الواحد في الاسكندرية في حالة وقوعهما تحت جـــذب متساو من القمر رغم ان خط الماس المار من منطقة بيروت يمر من منطقة الاسكندرية على ارتفاع مئات الامتار . وعليه فلو كان ارتفاع الماء في شروباك 2600 م فقط لكان جبل بيره مكرون الذي ارتفاعه 2600م مغمورا بالماء حسب هذه القاعدة .

5 ـ يقول السيد الكاتب : « ان انحدار الماء الذي هو القوة الدافعة لتحريك الاجسام هو باتجاه الجنوب ولعدم كون الرياح الجنوبية من القوة بحيث تتغلب على قوة اندفاع سيول المياه المنحدرة نحو الجنوب لتكون قوة دافعة تدفع ســـفينة نوح الى قمة جبال اراراتاو حتى قمـــة جبل بيره مكرون او حتى اي مرتفع بسيط في شمال العراق فيكون الاتجاه الطبيعي لسفينة نوح هو نحو الجنوب لتستقر على مرتفع فيالخليج » .

اقول ان ما اورده الاخ الكاتب اقرب التفسيرات الى الواقع بصـــدد مجرى السفينةومرساها لو لمتكن هنالكتفسيرات اقوى واوثقلعوامل انتقال السفينة شمالا. ومن جملة الاجتهادات المفـــرة لحدوث الطوفان ومسرى السفينة نحو الشمال ورسوها على جبل ارارات ما اوردهالدكتور امين محمود عبدالله في مقاله عن الطوفان في العدد (218) من مجلة العربي الكويتيـــة ما ذهب اليه وليم ويستون (1667 ـ 1752) من ان الطوفان مرتبط بحادثفلكي وقع للارض عام 1365 او عام 2349 قبل الميلاد وخلاصة هذا الحادث الفلكي ان احد المذنبات مر بالقرب من الارض ونتج عنقوة جذبه لها ان اعتصرها فاتخذت شكلالبيضة وترتب على ذلك ان تمزقت قشرة الارض فاندفعت المياه الجوفية خارجها منهـــا وحينئذ اتصلت هذه المياه الارضية بالمياه المنهمرة على الارض من ذيل المذنب . اذا صحت هذه النظرية فمن الممكن ان تجري السفينة مع المياه المندفعة بفعل الجاذبية باتجاه المذنب الذي يجب ان يكون شمال شروباكلكي تستقر علىاي مرتفع فيالشمال. (ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قـــدر وحملناه على ذات الواح ودسر تجريباعيننا جزاءلمن كان كفر) . صدق الله العظيم .

خضير علي مردان
كركوك

◆

اعتـــذار

نعتذر للسيد احمد الطويلي (تونس) عن الخطا الذي وقع في العدد الثالث ـ تشرين الثاني 1977 حيث نشر اسمه بصـــورة مغلوطة .

هيئة التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com